عقلي ليطمئن

الإيمان من جديد، بمواجهة «إلحاد جديد»

أحمد خيري العمري



ليطمئن عقلي

عصير
الكتب

الكتـــــاب : ليطمئن عقلي
المؤلـــف :أحمد خيري العمري
تنسيـق داخلي : سمر محمد
الطبعة الأولى: ينـايـر 2019
رقـم الإيـداع : 2019/3016
978-977-6542-51-8 : I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار



ليطمئن عقلي

الإيمان من جديد، بمواجهة «إلحاد جديد»

د. أحمد خيري العمري



فهرس

الملف الأول: وجود الله

ملف الأديان

ملف العنف في الإسلام

ملف الحريات

الملحق

إهداء...

إلى صديق يعرف نفسه جيداً.

مقدمة

هذا الكتاب ليس موجها للملحدين.

على الأقل ليس للملحدين الذين حسموا أمرهم بالإلحاد دون أي أسئلة إضافية أو مزيدٍ من البحث.

وهو أيضا ليس للمؤمنين الذين يعتقدون أنهم يملكون كل الأجوبة «النموذجية» التي لا تحتاج لتحديث أو تحوير...

ولا للمؤمنين الذين يعتقدون أن لا أسئلة هناك أصلا.

باختصار: هو ليس للمطمئنين عموما، من الجانبين النقيضين.

لا لِمَنْ اطمأن إلى أن إلحاده هو الوضع الصحيح، ولا لِمَنْ اطمأن إلى إيمانه وثباته وعدم حاجته إلى حصانة «عقلية» من نوع ما.

لا يستوي هذان النقيضان بالتأكيد، والثاني منهما «نغبطه» على ما هو فيه..

لكن هذا لن يغير من حقيقة أن الكتاب ليس موجها له أيضا...

هذا الكتاب ليس لهؤلاء ولا لأولئك بالتأكيد.



لمن هو إذن؟

هو لـ «مؤمنين، ولكن..»

أولئك الذين لديهم «**لكن**» مهمة وكبيرة تحمل استدراكا لا يلغي الإيمان حتما، ولكنه يشير إلى أشياء كثيرة، بعض الوساوس، بعض الشكوك، بعض الأسئلة التي لا جواب فيها يقنعهم، أشياء كثيرة لا يبوحون بها بصوت عالٍ ويحاولون كتمها... وينجحون في ذلك فعلا في البداية، لكنها تبقى حبيسة في صدورهم، ومع الوقت، تصطف مع أخوات لها، وأخوات، وأخوات..

هم مؤمنون، ولكن..

هو للذين يريدون البقاء مؤمنين، ولكن ثمة أسئلة تواجههم وهم يعرفون أن أجوبتها تحتاج إلى تجديد. ليسوا محايدين بالتأكيد. هم منحازون إلى الإيمان، يريدون أن يثبتوا عليه، ولكنهم في الوقت نفسه يخافون أن تحاصرهم الأسئلة التي لا أجوبة لها عندهم.

هم يحبون إيمانهم، ولكنهم يخشون أنه ليس قويا بما فيه الكفاية ليصمد أمام عاصفة قوية قد تضرب أساساته...

لذلك فهم يفضلون تقوية هذه الأساسات، استعدادا لزلزال قد يضرب في أي لحظة، أو عاصفة قد تهب في أي وقت.

ببساطة هو لمؤمنين غير مطمئنين تماما.

في نفوسهم شيء، أو أشياء..

أو على الأقل في نفوس من حولهم...أو من يحبونهم.

وهم لا يريدون أن يفقد هؤلاء إيمانهم.

تحديد الفئة المستهدفة من هذا الكتاب وبوضوح، أمر يغني عن الكثير من النقاشات.

* * *

قبل عشرين عاما فقط، كان الحديث عن الإلحاد يبدو مضيعة للوقت والجهد.

لم يكن هناك أي مبرر للحديث عن أمر غير منتشر ولا يشكل ظاهرة مجتمعية بأي شكل من الأشكال.

كان انتشار مظاهر التدين وشعائره في أوجها، وحتى الذين كانوا بعيدين عنها لم يكن لديهم موقف ضد التدين.

كان تيار التدين مكتسحاً شعبيا وخاصة بين شباب الجامعات، ودخل الحجاب إلى طبقات لم تعرفه من قبل، وصار من المألوف جدا أن تسير فتاة محجبة مع أمها غير المحجبة.

أذكر أن أحد الشباب في واحدة من الكليات في بغداد أوائل التسعينات، قد كتب شيئا «يفهم منه رفضه للأديان عموما» على لوحة يشارك فيها الشباب بآرائهم.

وقتها، لم يأخذ أحد كلامه على محمل الجد، لم يعده أحد مهددا لشيء أو معبرا عن اتجاه أو ظاهرة، اعْتُبِرَ الأمر محض «خالف تعرف» لا أكثر ولا أقل. كانت الأغلبية تتجه عكس اتجاه ما يقول.

لا يعني هذا أنه لم يكن هناك إلحاد خفي أو صامت، وأن مما حدث لاحقا من توفر وسائل تواصل تسهل التعبير عنه أظهره أكثر، هذا ممكن، لكنه على الأقل لم يكن ظاهرة.

بعد عشرين عاما، اختلف الأمر كثيرا، تيار التدين انحسر جدا، أصوات التشكيك بالدين باتت مرتفعة، وظهر بوضوح من يعلن عن إلحاده ويدعو إلى تكتل الملحدين مع بعضهم.

كان أول عقد في القرن الحادي والعشرين مميزا على الساحة الدينية بظهور ما عرف بـ «الدعاة الجدد».

أما العقد الثاني، فقد شهد انتشار «الإلحاد الجديد»!

* * *

في البداية كانت هناك محاولات لتجاهل الأمر وتسخيفه واعتباره «مبالغة إعلامية» ضمن المؤامرة الكونية على الإسلام، لاحقا بدأ اتهام «الملحدين» بعدة اتهامات تقلل من أهمية ما يحدث (مدفوع لهم، ألحدوا رغبة في التَفَلّت الأخلاقي، مرضى نفسيون...).

اليوم من الصعب على أي أحد إنكار أن الأمر صار -على الأقل- ظاهرة لا يمكن تجاهلها أو تجاهل أسبابها.

هل هناك إحصاءات عن نسب الإلحاد يمكن الاعتماد عليها؟

للأسف لا، الإحصاءات غير دقيقة، وتقع بين التهوين والمبالغة من الأمر مثل الإحصاء الذي روجته مؤسسة دينية مهمة قيل فيه أن عدد الملحدين في العالم العربي لا يتجاوز الـ ٢٠٠٠ شخص ! كذلك تبرز نسب غير منطقية في إحصائية[1] أجرتها (Worldwide Independent Network/Gallup International Association (WIN/GIA)

وهي ليست معهد غالوب المعروف بل مؤسسة بحثية جديدة) حيث توجد بعض الدول العربية التي أشركت في الدراسة وتبدو نسبة الإلحاد فيها ٠ ٪، وهو أمر لا يمكن أن يؤخذ على

---

(1) Win Gallup International: Relegion Prevails in the World. April 2017
https://web.archive.org/web/20171114113506/http://www.wingia.com/web/files/news/370/file/370.pdf

نحو جدي، وتبدو القراءة الخاطئة لهذه الدراسة هي السبب في انتشار أرقام مبالغ بها عن أعداد الملحدين، حيث خلط أحد «رجال الدين»[1] المدعي انتسابه إلى مؤسسة دينية مهمة بين «غير المتدين» و «الملحد» ليصرح أن عدد الملحدين في العالم العربي يبلغ الـ ٧٥ مليون ملحد، وقد انتشر الرقم دون تمحيص أو تدقيق.

وتبدو أرقام مؤسسة Pew Forum أقرب إلى المنطق، حيث قدرت عدد الملحدين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بمليوني ملحد عام ٢٠١٢ أي أقل من ١٪ من عدد السكان[2].

رغم ذلك، يصعب تصور وجود إحصائية تستطيع الوصول إلى رقم دقيق للملحدين في العالم العربي حيث أن الإلحاد يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون في بعض الدول، ورغم أن هذا القانون نادرا ما يطبق إلا أن وجوده قد يؤثر على دقة مخرجات أي إحصاء.

بكل الأحوال: ظاهرة الإلحاد واضحة في أوساط الشباب، وقد انضم لها «ملتزمون دينيا» سابقون، وكذلك أبناء لدعاة معروفين، وكل هؤلاء نشطون على وسائل التواصل الاجتماعي ولهم متابعوهم، وهم يتحدثون بلغة قريبة من الشباب لأنهم منهم أصلا، وهكذا فقوة الظاهرة ليست في حجمها النسبي، بل في وجودها في «كتلة شبابية نشطة مؤثرة» وقادرة على التعبير عن نفسها بوضوح، وبالتالي التأثير في سواها.

* * *

بغض النظر عن الحجم الحقيقي للملحدين الجدد، فالظاهرة ككل هي ابنة مباشرة لأحداث اجتماعية مهمة عصفت بالمجتمعات العربية بعد «الربيع العربي»، ويمكن تحديد أربع مراحل أساسية تربط بين «الربيع العربي» و «ظاهرة الإلحاد الجديد»..

<u>أولا- استخدام مبكر للنصوص والمفاهيم الدينية (مع و ضد) الربيع العربي من قبل كل طرف</u>، ومشاركة تيارات دينية و / أو مؤسسات دينية في المواجهة (مع أو ضد) الثورات أو الأنظمة، ويتضمن ذلك أسماء لرجال دين مهمين ولهم شعبية كاسحة في بلدانهم.

ساهم هذا في أن يقوم كل طرف بانتقاد النصوص التي يستخدمها الطرف الآخر وكذلك في انتقاد رجال الدين الذين يساندون الطرف المضاد، وكان هذا يحدث على وسائل التواصل

---

(١) الشيخ مصطفى راشد، وقد أعلن الأزهر الشريف عدم وجود أي رابط بينه وبين المذكور
وقد انتشر الرقم بعد أن قام الإعلامي فيصل القاسم بإعادة نشر ما قاله مصطفى راشد عن عدد الملحدين في الوطن العربي.

(2) Religiously Unaffiliated | Pew Research Center

http://www.pewforum.org/١٨/١٢/٢٠١٢/global-religious-landscape-unaffiliated/

الاجتماعي وبشكل علني يشجع الجميع على المشاركة في النقد والنقد المضاد. وكان هذا بمثابة إعلان بسقوط الحصانة لما عد من المحرمات لفترة طويلة.

ثانيا - النقاش العلني الذي صاحب أحداث الربيع العربي عن «شكل الدولة» المرغوب بها، وظهور التخوف من إمكانية انفراد التيار الإسلامي بتحديد شكل الدولة على نحو قد لا يلائم كثيرين، ورغم أن أغلب النقاشات كانت نظرية إلا أنها طرحت على الساحة مفاهيم تتعلق بتطبيق الشريعة والحدود والحريات العامة والشخصية ومقولات مثل «الإسلام هو الحل» و«الإسلام صالح لكل زمان ومكان».

ثالثا - الظلم والتعذيب والاغتصاب والدم الذي سفك في المعتقلات في بعض دول الربيع العربي: وضع هذا الكثيرين في مواجهة مع أسئلة تتعلق بوجود الشر في العالم، ومفاهيم دينية تتعلق بالقضاء والقدر واستجابة الدعاء والصبر والنصر. وكانت المواجهة مع هذه المفاهيم والأسئلة علنية أيضا وعبر وسائل التواصل الاجتماعي.

رابعا - داعش وأخواتها والعنف المفرط باسم الإسلام وادعاؤها بأنها تمثل الإسلام وأن نموذجها هو نموذج الدولة الإسلامية.

كانت هذه المراحل «علامات فارقة» على الطريق المؤدي إلى الإلحاد...

* * *

شخصيا بدأت ألاحظ الأمر في أواخر ٢٠١٢ تقريبا.

بدأت تصلني رسائل تحمل أسئلة تعبر عن الحيرة والقلق الذي يمر به أشخاص مروا بظروف صعبة ناتجة عن كل ما مضى.

ثمة تفاصيل مؤلمة كثيرة لا أرى ذكرها مناسبا الآن، لكنها حملت تفسيرا قويا لحالة الحيرة والشك التي كانت تنهش في هؤلاء، وهو أمر جعلني أتعاطف معهم وأتخلى تماما عن أي حكم مسبق يمكن أن يشوش على محاولة مساعدتهم بأجوبة.

كانوا يحملون بالإضافة إلى أسئلتهم وحيرتهم شيئاً آخر...

كانوا يشتركون في أنهم لا يرغبون بسماع المعتاد من الأجوبة.

ليس لأنها خاطئة بالضرورة، بل لأنهم كانوا يعرفونها سلفا...ولم تساعدهم.

* * *

في سبتمبر ٢٠١٤ بدأت بكتابة أول محاولة للبدء بهذا الكتاب.

لاحقا، في سبتمبر ٢٠١٥، قمت بإنشاء مجموعة على الفيس بوك تجمع أسباب وحجج الملحدين، قمت بدعوة الملحدين إلى المجموعة، كما قام الكثيرون بنقل حجج وأسباب معارف لهم. كانت المجموعة لجمع الأسباب فقط. لا نقاش. والتزم أغلب أعضاء المجموعة الذين تجاوز عددهم المائة بالأمر.

جمعت - بمساعدة فريق عمل شبابي رائع- عددا كبيرا من الحجج، بعضها كان مكررا أو متشابها بطبيعة الحال، وقد كانت هذه الحجج هي التي اعتمدت عليها بشكل أساسي في حلقات «أنتي إلحاد» التي قدمتها على اليوتيوب في ٢٠١٧.

* * *

ما أحدثته حلقات «أنتي إلحاد» من نقاشات وردود غير من نظرتي إلى عموم الموضوع.

الأمر تجاوز الاستفادة المباشرة من الانتقادات والردود إلى ما هو أعمق من ذلك، حيث أني تنبهت بالتدريج إلى وجود ما هو مشترك في آليات التفكير التي تتعامل مع «الحجج والأسباب».

وجدت نمطا متكررا من طرق التفكير التي تربط الكثير من الحجج والأسباب المستخدمة مع بعضها البعض حتى لو كانت في مجالات تبدو أنها متباعدة...وجدت أن ثمة ما هو مشترك بعمق في آليات التفكير التي يتم من خلالها التعامل مع معطيات معينة - ولا أقول أنها تؤدي إلى الإلحاد- بل هي قد تسهل الطريق إليه.

أنماط التفكير هذه (بالإضافة إلى مجموعة من المغالطات المنطقية) ليست حصرية على الملحدين، بل إنّ بعضها مزدهر في أوساط المؤمنين (وبعضها قد يفسر ظاهرة الانتقال من التطرف في التدين إلى التطرف في الإلحاد)..هذه الآليات محايدة في طبيعتها، ليست مؤمنة ولا ملحدة، لكن عند استخدامها مع معطيات معينة فإنها يمكن أن تقرب «عقليا» إلى الإلحاد (أقول «تقرب عقليا» لأن التحول إلى «الإلحاد» - مثل أي تحول آخر-عملية معقدة ونادرا ما تكون عقلية صرفة).

بسبب تشعب حجج الإلحاد وتنوعها فقد وجدت أن التعرف على آليات التفكير هذه يمكن أن يساعد القارئ في فهم الحجج وتفنيدها والأهم من هذا هو أنها يمكن أن تعلمه كيف يتعامل مع «حجج» و «أسباب» أخرى قد تظهر لاحقا أو ربما تكون قد سقطت مني سهوا.

رغم أن العبارة أصبحت «كليشيه» متكررة إلا أن الفكرة هنا تشبه مقولة «لا تعطني سمكة ولكن علمني كيف أصطادها».

أو ربما: لا تلقنني كيف أرد على الحجة.

بل علمني كيف يكون تفكيري محصنا ضدها.

* * *

كل ما في هذا الكتاب يتعامل مع حجج وأسباب «الإلحاد الجديد».

والإلحاد الجديد New Atheism مصطلح أطلقه الصحفي Gary Wolf عام ٢٠٠٦ ليصف موجة الإلحاد التي انتشرت في الغرب بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، أو ما يعرف بإلحاد القرن الواحد والعشرين.

مالذي يختلف في الإلحاد الجديد عما سبقه من إلحاد؟

يختلف بشكل أساسي في طبيعة الهجوم ضد الدين. الإلحاد السابق كان يرفض الدين وكل ما يتعلق به، لا يعترف بوجود الله ويتجاوز الأمر برمته. الإلحاد الجديد لا يتجاوز الأمر بل يتخذه هدفا للنقد والهجوم المستمر، يعتبر الدين مصدرا للشر في العالم ولذلك فهو يدعو صراحة إلى عدم التسامح معه وعدم القبول بوجوده في أي مجال، يعتبر أن تعليم الأطفال أي شيء ديني من قبل الوالدين هو جريمة! والبعض يطلق على هذا التيار لقب «الإلحاد المسلح» أو «الأصولية الإلحادية» لاقترابه - أسلوبا ومنهجا- من الأصوليات الدينية.

من أهم الاختلافات الأخرى برأيي أن الإلحاد «الكلاسيكي» - إن جاز التعبير- كان يتشكل ضمن رؤية فلسفية للعالم: مثل الماركسية، أو الوجودية. أي أن الإلحاد كان ضمن النتائج النهائية لهذه الرؤية.

أما الإلحاد الجديد فهو إلحاد لغرض الإلحاد. يبدأ به وينتهي به. لا موقف فلسفي واضح. بل هناك أحيانا موقف «مضاد» للفلسفة كما سيأتي لاحقا، هدف الإلحاد الجديد هو إلغاء أي شكل من أشكال التدين، وليس من رؤية بديلة للعالم مكان هذا. لا شيء سوى إلغاء الدين.

لهذا السبب فإنّ الردود الفلسفية المعتادة على الإلحاد «الكلاسيكي» لا مكان لها في هذا الكتاب، لأن الإلحاد الجديد استبعد الفلسفة وتعامل مع جمهوره بلغة بسيطة سهلة، وكان هذا جزءا مهما من أسباب انتشاره وتأثيره.

* * *

سيتكرر اسم ريتشارد داوكنز -عالم الأحياء التطورية- كثيرا في الكتاب فهو يعتبر واحدا من أهم فرسان الإلحاد الجديد والمؤثرين فيه، وسيتم التطرق له ولبقية رموز التيار لاحقا في الكتاب،لأثرهم الكبير في النسخة «العربية» من الإلحاد الجديد.

وعندما أقول النسخة العربية من «الإلحاد الجديد» فإني لا أعني أنها مستوردة كما قد يوحي التعبير، فهي قد نشأت من ظروف داخلية كما سبقت الإشارة، لكنها استفادت حتما من تيار الإلحاد الجديد الغربي، كما استفدنا نحن من الردود المضادة لهذا التيار في الغرب.

* * *

أرغب في تأكيد أن ما أقدمه هنا في مواجهة الإلحاد لا يلغي بقية الطرق والأساليب التي يقدمها بعض الأساتذة الأفاضل في هذا المجال، ولا أجد معنى في المناكفات التي تحدث أحيانا بين الطرق والمناهج المختلفة، في تصوري أن الفئة المستهدفة من كل طريقة أو أسلوب تبرر هذا الاختلاف في المناهج ولا معنى في الانشغال عن الهدف الرئيسي (مواجهة الإلحاد) بمواجهة (طرق مواجهة الإلحاد).

* * *

رغم قتامة الصورة أرى فيما يحدث إمكانية كامنة لـ «خير كبير».

هذا الإلحاد الجديد لم يهبط علينا بالمظلة من كوكب آخر. بل تسرب جزء مهم منه من ثقوب في بعض مفاهيمنا وطرق تعاملنا مع النصوص الدينية، دوما كانت هناك أسباب لتأجيل مواجهة هذه الثقوب والتخفيف من خطورتها وسلبيتها . اليوم، ونحن في مواجهة هذا الإلحاد الجديد، تبدو مواجهة الثقوب مبررة ومنطقية، مثل ثقوب يجب أن تواجه في مركب في عرض البحر.

تأجيل المواجهة يعني الغرق، للجميع.

* * *

قد يقول بعضهم أن مواجهة هذه الثقوب ليست سوى عملية ترقيع نقوم بها لأن الماء وصل إلى ما وصل... كل ما نفعله هو وضع الرقع هنا وهناك.

ليست رقعا.

أَنْظُرُ إلى الثقوب كما لو كانت فراغات في لوحة Puzzle.

هذه القطع جزء أصيل من اللوحة الأصلية.

والفرق الكبير.

* * *

مواجهة بعض هذه الثقوب تعني الدخول في حقول ألغام مختلفة الأعماق ومختلفة في شدة الانفجار، أعي تماما أن ذلك لن ينال رضا الكثيرين. وهو أمر طبيعي تماما، لا شيء يجب أن ينال رضا الجميع، هذه طبيعة الأشياء.

لكني أقول استباقا، وقد حددت الفئة المستهدفة من كتابي، أن من لا يجد في نفسه «لكن» معينة تجاه موضوع بعينه، ويعتقد أنه «محصن» من ناحيته ولا خطر عليه منه، يستطيع أن يتجاوزه ويذهب إلى الفصل الذي يليه.

بعبارة أوضح: من يعتقد أن نظرية التطور لا تؤثر فيه ولا يمكن لأحد أن يستغلها لتشكيكه، يستطيع أن يتجاوز الفصل تماماً، وكفى الله المؤمنين القتال.

ويستطيع أن يذهب إلى الفصل الذي يليه، وما لا يُدرَكُ كُلُّه، لا يُترَكُ جُلُّه!

* * *

لا أنكر أن الدخول في بعض حجج وأسباب الملحدين كان أمرا باعثا على الاكتئاب على الصعيد الشخصي.

بعض الحجج قدمت على نحو يشير بوضوح إلى وجود مشكلة شخصية، أحيانا ثمة «أنا» شديدة التعالي على نحو يرفض فكرة وجود «إله» أعلى منه، وأحيانا ثمة مشكلة واضحة مع سلطة الأب أو الأسرة، أو تجربة شخصية مع التدين والمتدينين أدت إلى موقف مضاد للدين، وكل هذا يقع في نطاق خارج نطاق بحثي هذا، لأن هذه المشاكل الشخصية لا تكون أبدا هي السبب المعترف به من قبل الملحدين، غالبا تقدم الحجة العقلانية (وهي هدفي أصلا في البحث) لكن خلف هذا كنت أسمع أصوات استغاثة خافتة من مكان آخر، مكان لا أستطيع الوصول له، ولا استطيع المساعدة فيه بشكل شخصي.

كنت أهرب من شعور الإحباط هذا إلى الكتابة في السيرة النبوية.

كان عليه الصلاة والسلام ملجأي الشخصي الذي ألوذ به كلما أرهقني التعامل مع موضوع الإلحاد.

وكان عليه الصلاة والسلام، نعم الملاذ.

وهذا يفسر وجود تداخل في تاريخ كتابة الكتابين: السيرة مستمرة، وهذا الكتاب.

كما أني تركت العمل في الكتاب في البداية وذهبت إلى «شيفرة بلال» ..

... ولكن موضوعٍ «الإلحاد» لم يتركني، فبرز لي «أمجد حلواني» بين شخوص الرواية يطالبني بالعودة فوراً!

* * *

قال لي ابني زين العابدين، وأنا بصدد جمع حجج الملحدين: ألا تخاف؟

وكان يقصد : ألا تخاف أن تؤثر عليك واحدة من الحجج على نحو لا يمكنك طردها من ذهنك؟

قلت له وقتها: إني أؤمن تماما بأن الله وضع الجواب في مكان ما.

كل ما علينا فعله هو أن نبحث جيدا.

وهذا الكتاب هو عملية بحثي عن الأجوبة...

شكر وتقدير[1]

قائمة من أدين لهم بالشكر في هذا الكتاب طويلة، وأرجو أن يعذرني من سقط اسمه سهوا.

أولا أدين بالشكر إلى الصديقين العزيزين د. أحمد قطشة و د. محمود حسن. كانا خير رفيقين للكتاب في شتى مراحله قراءة ونقدا ونقاشا. لم يبخلا على الكتاب بوقت أو بحث أو نصيحة. وكانت تعليقاتهما تثير نقاشات مثرية لمادة الكتاب.

أدين أيضا بالشكر الجزيل والامتنان إلى الصديق د.أثيل خوندة، الذي بذل جهدا في البحث عن المصادر والحصول عليها، كما قدم تعليقات ثرية على مادة الكتاب في مضمونها الأول.

كما لا بد أن أشكر د. فارس شاكر الذي نبهني مبكرا على نقاط مفصلية في طريقة التعامل مع الموضوع.

الشكر موصول إلى د. علي أسمر ود. محمد خير النمرات، ساهم كلا منهما في التفاعل في «مواضع» خطرة في الكتاب، وبغض النظر عن أي شيء، كانت الأمور ستكون أخطر من دونهما.

الشكر أيضا للأستاذين سامي الزين وعمير الحبال وملاحظاتهما المثرية على جزء محوري ومهم للغاية في الكتاب.

في ملف «حجج وأسباب الملحدين» الشكر في الجمع وتصنيف الحجج للأساتذة أحمد رشيد حافظ، جاذبة عمر صالح، وعبد الرحمن قارصلي، وقد كان للأستاذ أحمد دور كبير أيضا في إثراء الموضوع بنقاشات عميقة.

الشكر في جمع الحجج وتفريغ مواد سمعية إلى الأخوة والأخوات (حسب الترتيب الأبجدي): أسامة صبري، إيمان ثابت، بدور حبيب، حسام الرفاعي، زيد القرم، سمية شفيق، ميرا عبيد، نور عيد، هبة الله العقباوي، هيا العصيمي، وليد نجم، د.ياسر بكداش، مع حفظ ألقاب الجميع.

---

(١) حسب الترتيب الأبجدي في كل فقرة.

كما لا يمكنني إلا أن أشكر الأستاذ يوسف غريب على مساعدته لي في إنجاز العمل.

الشكر أيضا للمصمم الأستاذ أحمد يزبك، وكل كادر العمل.

وأخيرا وليس آخرا، أشكر زوجتي وعموم أسرتي الصغيرة والكبيرة- على الدعم الدائم بلا حدود.

جزى الله الجميع كل خير على ما بذلوه من جهد..

وأسأل الله أن يتقبل مني ومنهم، وأن يغفر لي ذنبي تقصيري ..

ملف ما قبل الإلحاد

كيف يحدث الإلحاد؟

ثمة تصور شائع في أوساط كثيرة أن الإلحاد مرض نفسي، وأن الملحد يحتاج الذهاب إلى طبيب نفسي للعلاج.

مبدئيًّا، لا يوجد مرض نفسي بهذا الاسم، والتعامل مع الإلحاد على أنه مرض نفسي غالبًا يكون له نتائج عكسية على الملحد وموقفه من الإيمان والمؤمنين، كما أنه من السهل على الملحدين ادعاء العكس، أي أن الإيمان هو المرض النفسي وليس الإلحاد.

الإلحاد ليس مرضًا نفسيًّا، لكن هذا لا يعني انتفاء وجود أسباب نفسية قد تؤدي إليه، هناك فرق كبير بين الأمرين، كذلك هذا لا ينفي أن هناك ملحدين هم مرضى نفسيون في الوقت ذاته، لكن الأمر بالمثل بالنسبة للمؤمنين، أيضًا هناك مؤمنون يعانون مشاكل نفسية دون أن يعني ذلك أن إيمانهم ناتج عن هذه المشاكل.

* * *

ما المقصود بالأسباب النفسية التي يمكن أن تؤدي إلى الإلحاد؟

ربما كلمة «عاطفية» تناسب الأمر أكثر، لكن المشكلة هنا أن كلمة «عاطفة» ترتبط في أذهاننا بصورة معينة مختزلة جدًّا تهمل الكثير من العواطف التي تعج بها النفس الإنسانية، من ضمنها الخوف والغضب والحزن والاشمئزاز، وكلها يمكن أن تلعب دورًا في توجيه شخص ما إلى الإلحاد (أو حتى إلى الإيمان).

وهذا كله طبيعي وبديهي جدًّا، لا يمكن فصل تجاربنا الشخصية عمّا نؤمن به، لا أحد يعيش إيمانه (أو إلحاده) في فقاعة منعزلة عن الظروف المحيطة به والتي تؤثر سلبًا أو إيجاباً على معتقداته وأفكاره.

هذا «الطبيعي» و«البديهي» جدًّا، نادرًا ما تجد أحداً يعترف به، نادرًا ما تجد ملحدًا يقول إنه ألحد نتيجة لسبب عاطفي شخصي، والأمر كذلك بالنسبة للمؤمن.

دومًا يكون الحديث عن براهين وحجج عقلية، عن العلم، عن نظرية التطور، عن فلاسفة وعلماء مهمين، عن التاريخ، عن علم الأحياء...

لا أحد يقول إن عواطفه قد حددت موقفه تجاه هذا، كل البراهين والحجج العقلية مهمة بالتأكيد في الوصول لموقف فكري ما، لكن هذا يجب ألا يعزلنا عن «الصورة الكبيرة»، عن السياق الذي استخدمت فيه هذه البراهين.

* * *

في دراستين حديثتين[1] (٢٠١٧) نشرتا من قبل الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA، تم تسليط الضوء على العلاقة بين التجارب الشخصية والموقف من الله والإيمان به، الدراسة الأولى شملت ١٧١ ملحدًا صريحًا[2] (يعرّف نفسه بأنه ملحد)، والدراسة الثانية شملت ٤٢٩ مشاركًا بين ملحد و«لا أدري[3]».

في الدراسة الأولى، أقر ٧٦٪ من المشاركين بوجود تجربة شخصية عاطفية (سلبية) تجاه الله أو فكرة الإله، مقابل ٨٩٪ أقروا بالأمر ذاته من المشاركين في الدراسة الثانية، أكثر من نصف المشاركين في الدراستين (٥٤٪ في الدراسة الأولى، و٧٢٪ في الدراسة الثانية)، أقروا بأن هذه التجارب الشخصية العاطفية كان لها أثر في موقفهم من الله، أي في إلحادهم أو لا أدريتهم، مع تصريح الغالبية منهم بأن هذه الأسباب العاطفية أقل أهمية من الأسباب العقلية والفكرية في تشكيل موقفهم من الله.

تتفق نتائج هذه الدراسة مع دراسة سابقة ركزت على مشاعر (الغضب تجاه الله) عند أشخاص عانوا من السرطان أو مروا بأزمة وفاة شخص قريب لهم، فئة الملحدين واللا أدريين كانت مشاعر الغضب لديها أعلى (٥٣٪) من الفئات الأخرى (المؤمنة بمذاهب وأديان مختلفة)[4].

* * *

(1) Bradley, D. F., Exline, J. J., & Uzdavines, A. (2017). Relational reasons for nonbelief in the existence of gods: An important adjunct to intellectual nonbelief. Psychology of Religion and Spirituality, 9(4), 319-327.

(٢) يعرف نفسه بأنه ملحد self labelled atheist.

(٣) لا أدري: هو الشخص الذي لم يحدد موقفًا نهائيًا من الإيمان أو الإلحاد agnostic.

(4) Anger toward God: social-cognitive predictors, prevalence, and links with adjustment to bereavement and cancer. Exline JJ, Park CL, Jouranl of Personality and Social Psychology. 2011 Jan;100(1):129-48. doi: 10.1037/a0021716.
https://www.psychologytoday.com/intl/blog/the-pursuit-peace/201603/the-new-psychology-atheisme

لا يحتاج المرء إلى كثير من البحث لكي يربط بين نتائج هذه الدراسات وبين ما ينتشر حاليًا من «إلحاد جديد» في المجتمعات العربية، ثمة «شحن عاطفي» - سلبي بطبيعة الحال - كبير جدًّا وواضح للغاية في أغلب نقاشات الإلحاد الجديد، بالتأكيد هناك حديث علمي وعقلي ومنطقي يستخدم أيضًا، لكن الجزء العاطفي من المسألة واضح، وهو يلعب دورًا - إذا أخذنا نتائج الدراسات السابقة الذكر بنظر الاعتبار- في أكثر من نصف الحالات (باعترافهم المباشر)، وقرابة الـ ٨٠٪ دون تصريح بذلك.

لكن ما يميز التجربة العربية من الإلحاد الجديد هو أن الجانب الشخصي فيها ارتبط بالعام إلى حد كبير، فبينما التجارب الشخصية في هذه الدراسات ارتبطت بأحداث عائلية أو شخصية من النوع الفردي، فإن التجارب الشخصية في السياق العربي ارتبطت بأحداث عامة اجتاحت البلدان العربية بعد ٢٠١١ خصوصًا، وهي الأحداث التي اختلطت فيها صور التعذيب وقصص ما يحدث في المعتقلات مع سقوط المقولات التي استثمرها تيار الإسلام السياسي، مثل (الإسلام هو الحل)، ومن ثم جاءت داعش (وأخوات لها) لتكمل الصورة بارتكاب فظائع تحت شعار (هذا هو الإسلام).

ليس بالضرورة أن يكون من ألحد قد مر بمعتقل أو فقد قريبًا في هذه الأحداث، وليس من الضروري أيضًا أن يكون ممن كان يُعوِّل على الإسلام السياسي في حل مشاكله، لكن كل ما حدث كان كبيرًا بحيث يمس الجميع بطريقة أو بأخرى.

المشاعر الناتجة عن هذه التجربة، أحدثت «شكًّا مبنيًّا على العاطفة» أو «قابلية» للمُضي في طريق الإلحاد، لكنها بالتأكيد لم تُوصِل إلى الإلحاد مباشرة، فلنقل إنها حددت طريقًا ما باتجاه الإلحاد، لكن المسافة بين صاحب هذه المشاعر وبين الإلحاد لا تزال طويلة، لاحقًا يجد هذا الشخص نفسه داخلًا في النقاشات التي تروج للإلحاد مباشرة، حجج وبراهين وحديث علمي أو متقمص لدور العلم، وهذا بدوره قد يفتح أبواب الحديث عن مفاهيم دينية معينة ارتبطت بالموقف العاطفي للشخص بشكل أو بآخر(مثل: لماذا لم يستجب الله لدعاء المظلومين، أو إذا كان «النصر من عند الله» فلماذا لم ينصرهم، أو الأحاديث التي توحي بأن داعش تطبق الإسلام فعلًا) وهذا كله يساهم في الوصول إلى نقطة الإلحاد.

لماذا لا يصل كل من مر بتجربة «سلبية» كهذه إلى هذه النقطة، نقطة الإلحاد؟

يعتمد الأمر أولًا على طريقة التعامل مع التجربة، ما هي العدة النفسية التي يملكها هذا الشخص لكي يتعامل مع التجربة، وهذا لا يشترط بالضرورة أن تكون معلوماته الدينية كثيرة أو أن يكون ملتزمًا دينيًّا بالمعنى السائد للكلمة، بل القصد هنا هو عدته الشخصية؛ قدرته على السيطرة على عواطفه، صبره.. قدرته على مواجهة مشاعره، إفصاحه عما يشعر به.

فلننتبه هنا إلى أن أغلب من يمر بتجربة شك، يسعى أولًا إلى تثبيت نفسه على الإيمان (٤٩٪ اتجهوا بشكل مؤكد إلى الصلاة والدعاء طلبًا للثبات، و ٢١٪ قالوا إن ذلك أمر محتمل، مقابل ١١٪ يؤكدون أنهم لم يفعلوا ذلك)[1].

محاولات الثبات على الإيمان لا تقف عند ذلك، بل تشمل بالتسلسل (قراءة القرآن أو كتب دينية «قديمة»، اللجوء إلى أشخاص متدينين ضمن نطاق العائلة والأصدقاء، الحديث مع «رجل دين»، زيارة المواقع الدينية أو قراءة الكتب المعاصرة التي تحاول التثبيت على الإيمان)، وهذا كله يشمل ما يكاد يصل إلى ٧٥٪ ممن يمرون بالشكوك، علمًا أن هذه المحطة لا يشترط أن تنجح، فقد تقود للمزيد من التخبط وبالتالي الإلحاد.

هناك نسبة محدودة قالت بوضوح إنها اتجهت فورًا وبتعمد إلى مصادر إلحادية معادية للدين، ٨٪ أكدوا أن هذا سيكون خيارهم الأول، و ١٧٪ قالوا إن هذا أمر محتمل.

الخلاصة هنا، أن الموقف الأولي من الشك الناتج عن «تجربة شخصية» يكون (في الغالب) محاولة طرد هذا الشك والثبات على الإيمان، وللأسف لا ينجح الكل في ذلك، فأحيانًا محاولات الثبات تقود إلى التعرف على المزيد من الحجج والأسباب «المتقمصة دور العلم» التي تبعد أكثر فأكثر عن الإيمان، وتقدم التبريرات والتفسيرات التي تقرب من الإلحاد.

الأمر إذن يبدأ غالبًا بتجربة شخصية يحدث فيها نوع من القابلية العاطفية للإلحاد، وبعدها تتفاعل هذه القابلية مع الحجج والتبريرات العقلية المستخدمة من قبل الملحدين، وصولًا إلى نقطة الإلحاد.

---

(1) What causes muslims to doubt Islam? A quantitative analysis, Youseff Chouhoud, Feb 2018, Yaqeen institute
https://yaqeeninstitute.org/en/youssef-chouhoud/what-causes-muslims-to-doubt-islam-a-quantitative-analysis/
والدراسة تخص المسلمين في الولايات المتحدة، وربما تكون الأرقام في الوطن العربي مختلفة ولكن للأسف لا تتوفر إحصاءات موثقة نظراً لحساسية الموضوع.

أنماط تفكير تساعد على الإلحاد

أزعم هنا أن ثمة حلقة أخرى في هذا التفاعل المتسلسل؛ حلقة تكون مسؤولة عن «التفاعل» مع التجربة الشخصية، ومع تبريرات وأسباب وحجج الملحدين على النحو الذي يقود إلى الإلحاد.

أتحدث هنا عن عوامل مساعدة تلعب دورًا رئيسيًّا في الوصول إلى الإلحاد، وهي عوامل متوفرة عند المؤمنين أيضًا، وربما تجعلهم معرضين إلى خطر الإلحاد في حالة تعرضهم إلى تجربة «قوية» أو التعامل مع حجج وبراهين الملحدين.

هذه العوامل المساعدة هي «طرق تفكير» وجدتها شائعة جدًّا في أغلب النقاشات المتفرعة عن حجج وبراهين الملحدين، وهي طرق وأنماط تفكير عادية يمكن أن تتوفر في أي نقاش، وهي غالبًا سابقة على الإلحاد وتكون جزءًا من الممرات المؤدية له، كما قد يستخدمها المؤمنون في دفاعهم الشرس عن الإيمان أيضًا، ولكنها خطرة جدًّا برأيي، لأنها تشبه القنابل الموقوتة أو الألغام التي قد تنفجر في أي وقت وتؤدي إلى نتائج عكسية جدًّا.

طرق التفكير هذه - برأيي - أساسية في عملية تفكيك حجج الإلحاد، وهي أساسية أيضًا في عملية الحماية من الإلحاد، إذ أن التنبه لها سيساعد في التصدي لحجج أخرى، قد لا تكون متضمنة في هذا الكتاب.

ما هي طرق التفكير هذه؟

أولًا: الاقتصار على العقل الحسي / التجريبي:

يسود فهم معين عن (العقل) يجعله مرتبطًا دومًا بالتحليل والتجربة، وهو فهم صحيح لجانب مهم من جوانب العقل، لكن التركيز عليه واعتباره (كل العقل) يمثل مشكلة حقيقية تؤدي إلى طريقة تفكير أرى شخصيًّا أنها قاصرة، وبالتحديد قاصرة في جوانب معينة، رغم فاعليتها الكبيرة في جوانب أخرى.

نوعية العقل الذي يتم التركيز عليه دومًا، حتى يسود تصور يساويه بالعقل (كل العقل)، هو ما يمكن تسميته بـ «**العقل الحسي/ التجريبي/ المادي**»، وهو العقل الذي يعتمد على الملاحظات الحسية المباشرة (أي التي يمكن جمعها عبر الحواس) وعلى تجربة هذه

الملاحظات عمليًا والوصول إلى الاستدلال عبر واحدة من ثلاث طرق غالبًا: الاستقراء، والاستنتاج، والاستنباط[1]، وهي أنماط التفكير الأكثر شيوعًا في التفكير الإنساني، ونقابل كل يوم حالات ووقائع تجعلنا نستخدم هذه الأنماط دون أن نعرف أسماءها بالضرورة، بل دون أن نستخدمها بشكل واعٍ من الأساس.

ما علاقة أنماط التفكير هذه بما نتحدث عنه من «العقل الحسي»؟

كل هذه الأنماط في التفكير تحدث من خلال «العقل الحسي» لأنها تعتمد على الحس أو الملاحظة المباشرة بالحواس الخمس، كما أن كل ما يمر خلال أنماط التفكير هذه خاضع للتجربة، لذا فتسمية هذا الجزء من العقل بالحسي أو **المادي أو التجريبي**[2] كلها ممكنة من خلال وظيفته التي يؤديها، لكننا نتحدث هنا عن جزء آخر من العقل، يتم غالبًا تجاهله أو عدم الإشارة له.

العقل ليس كتلة واحدة، ثمة أجزاء متداخلة فيه، تعمل مع بعضها بتناسق وتداخل وتناغم، من ضمنها العقل الحسي/ التجريبي المهم بالتأكيد..

ومن ضمنها أيضًا ما يمكن تسميته هنا بالعقل الحدسي أو البدهي.

* * *

(١) الاستقراء induction يعني الوصول إلى نتيجة عبر قراءة المعطيات المتوفرة، لكنها لا تكون نتيجة مضمونة أو حتمية.

(مثل: أعرف عشرة أشخاص من البلد الفلاني سيئي الخلق، إذن كل أهل ذلك البلد سيئون) وهي نتيجة تبدو منطقية بالاعتماد على الملاحظة الأولى لكنها غير مضمونة، لأنه ربما هناك أشخاص غير سيئين في نفس البلد لم يشاهدهم صاحب الملاحظة، علمًا أن الاستقراء يمكن أن ينتج ملاحظات صحيحة: الأسماك تعيش في البحر، طعام البحر كله حلال، إذن السمك حلال، والفرق بين المثالين هو في دقة المقدمة / الملاحظة الأولى.

بينما الاستنتاج ((deduction يبتدأ من مقدمات هي أقرب إلى القوانين، وتقود إلى نتيجة حتمية، مثل: كل البشر فيهم الجيد والسيئ، الهنود بشر، إذن الهنود فيهم السيئ والجيد، أو: كل ما يعيش في البحر حلال أكله، الروبيان يعيش في البحر، إذن الروبيان حلال.

أما الاستنباط (abduction) فهو الوصول إلى فرضية أو استنباط لتفسير الملاحظات، مثال: البشر ينحازون إلى أحكامهم المسبقة، عرفت أحكامًا مسبقة سلبية عن شعب ما، الهنود مثلاً، لهذا حكمت عليهم جميعًا بالسوء، وهو طبعًا مجرد احتمال، إذ يمكن أن تكون قد عرفت هنودًا سيئين بالصدفة ولا دخل لتحيزك بالأمر، أو لحم السمك أكثر صحية من اللحوم الحمراء، إذن طعام البحر حلال لأن فوائده الصحية أكبر، وهو مجرد احتمال إذ أن بعض الأسماك قد لا تكون مفيدة، كما أن ربط الأمر الشرعي بالفائدة الصحية أمر غير ثابت.

وهكذا فالاستقراء ينطلق من الملاحظات/ الوقائع ليصل إلى نتيجة، ومن ثم إلى ملاحظة عامة أو قانون.

أما الاستنتاج فهو ينطلق من القانون ليصل إلى الملاحظة أو النتيجة، والاستنباط يستخدم القاعدة والواقعة ليصل إلى تفسير لها.

(٢) سيتم تسمية هذ العقل بالحسي أو التجريبي في سياقات مختلفة والمقصود واحد.

العقل الحدسي (intuitive mind) وقد يعرف أيضًا بالحس العام(Common sense)، الحدس، البداهة أو الشعور الداخلي (Intuition or Gut feeling)، وهو لا علاقة له بما يعرف بخوارق اللا شعور أو الباراسيكولوجي، وهي القدرات غير الاعتيادية التي يزعم بعض الأشخاص امتلاكهم لها.

حديثنا هو عن «مَلَكة» متوفرة عند أغلب الناس بتفاوت في الحجم والاستخدام، ويعتمد عليها كثيرون في مواقف عديدة، خاصة في اتخاذ القرارات[1]، وتشكل أساسًا من أساسات الإدراك، بل هي المحك الذي يمكن من خلاله إدراك قواعد المنطق وسلامتها، مثلًا أن ندرك بداهة أن شيئًا ما لا يمكن له أن يكون أحمر اللون وأخضر في الوقت نفسه[2]، بل إننا لا يمكن أن ندرك سلامة ما مر بنا من نتائج في الاستقراء والاستنتاج والاستنباط ما لم نعرضها على هذا الجزء من العقل أو هذه الملكة، حتى لو لم تكن هناك تجربة سابقة أو معرفة بالأمثلة المطروحة.

مرة أخرى نُذكر بأننا لا نتحدث عن حاسة سادسة خارقة، بل عن حس عام أو بداهة مبنية أصلًا على تراكمات معرفية مسبقة (قَبْلية)[3]، بحيث أنها لا تحتاج إلى برهان أو دليل، لأنها ببساطة واضحة لذاتها ومبرهنة على ذاتها، من أمثلتها الشهيرة المثلث المكون من ثلاثة أضلاع، من يحتاج إلى دليل على هذا؟ ما دمت تعرف معنى كلمة مثلث ومعنى الرقم ٣ ومعنى كلمة ضلع، فقد عرفت أن العبارة صحيحة دون حاجة إلى برهان.

الأمر ذاته ينطبق بالنسبة لناتج (٢+ ٢ = ٤)، هذه حقيقة لا تحتاج لبرهان، ما دمت تعرف معنى ٤ ومعنى ٢ فأنت لا تحتاج إلى برهان ليثبت صحة المسألة الحسابية.

كذلك أي جملة مفهومة بالتعريف (by definition) مثل كل العزاب غير متزوجين أو كل الأطباء درسوا الطب، هذه جمل مفهومة ضمنًا دون حاجة إلى برهان ودون بذل مجهود عقلي، العقل البدهي يعمل عندك تلقائيًا، ولا يطلب منك أن تطالب بالبراهين والتجارب العملية، ولست مطالبًا بمقابلة كل العزاب في العالم أو كل الأطباء لمعرفة صواب الجملة أو خطأها.

---

(1) Making Management Decisions: The Role of Intuition and Emotion By Herbert A. Simon
http://www.angelfire.com/creep/brendan/Making_Management_Decisions.pdf

(2) To Everyone an Answer: A Case for the Christian Worldview .Willian Lane Craige.page 70

(٣) A priori معرفة عقلية مستقلة وسابقة على التجربة وتسمح بتعميقها.

الحدس أو البداهة يميزان لنا الأمور التي لا تحتاج إلى (العقل التجريبي)، حقائق تبرهن على نفسها بنفسها، لست بحاجة إلى عقلك الحسي/التجريبي ليبرهن لك على هذا، لأن هذه ببساطة أمور مبرهنة بذاتها، هذا الجزء من العقل هو الذي يتعامل مع ما يعرف في نظرية المعرفة بالحقيقة البديهية (apriori) أو بالحقائق المثبتة ذاتيًا (self-evident truths) وهو في الوقت ذاته شبه مستبعد في عموم النقاشات، ويُنظر له عادة على أنه أشبه بالخيال أو الوهم، أو على الأقل أقل مصداقية من أن يُستخدم، وفي أغلب الأحيان لا يُذكر إطلاقًا، بينما يحتل العقل الحسي، عقل التجربة والحواس المادية، المكانة الأهم، بل يعامل بصفته (العقل) – مع أل التعريف – باعتباره العقل الوحيد.

العقل البدهي مستبعد من النقاش ليس في موضوع الإلحاد فقط، بل هو مستبعد ومهمل عمومًا في كل الأمور، ومن يستبعده ليس ملحدون فقط، بل مؤمنون أيضًا، لأنهم في النهاية جزء من تيار رئيسي عام يقدس العقل الحسي/التجريبي.

والحقيقة أن هذا التصنيف (العقل الحدسي أو البدهي مقابل الحسي أو التجريبي) هو تصنيف توضيحي فحسب، فهما يعملان معًا، ويشكلان مجتمعين (العقل)، وهما ليسا في حالة تناقض أو خصام بأي حال من الأحوال إلا عندما نحاول أن نفصلهما ونضع كلاً منهما أمام الآخر.

على العكس من ذلك، وعلى الرغم من كل محاولات الفصل، **فقد كان العقل البدهي دومًا مساندًا للعقل التجريبي، بل كان أحيانًا السبب في قفزات علمية هائلة قام بها العقل الحسي/ التجريبي.**

* * *

ربما لكي نفهم دور العقل البديهي – وأثره على العقل الحسي وعمله معه – علينا أن نفهم أكثر عن دوره في العمليات الدماغية، خاصة تلك التي تتعلق بالإبداع، فكلمة الإبداع مرتبطة في أذهاننا بالعمل الفني أو الأدبي، لكن الإبداع موجود وحاضر أيضًا في العلم، ويكون أظهر وأكثر بروزًا خاصة في اللحظات التي يقفز فيها العلم إلى اكتشاف نظرية جديدة أو يمر بمنعطف مهم.

ربما لا يطابق الأمر ما يحدث في الفن والأدب، أو على الأقل هذا ما يبدو في السطح، لكن ثمة لحظات في العلم تبدو لحظات إلهام خالصة لا يمكن أن تخضع لمنطق العقل التجريبي، لحظات الإلهام هذه تسمى أحيانًا هكذا حرفيًا (inspiration)حتى في الأدبيات العلمية في سياق الحديث عن أثرها في العلم وكيفية التوصل لمكتشفات حديثة، وأحيانًا يسمى الأمر (epiphany) (الكشف)، وأحيانًا (Hunch) (شعور داخلي) أو (Eureka Moments)[1]، ويمكن البحث عن أي من هذه العبارات وإضافة كلمات بحث مفتاحية أخرى، مثل (العلم أو النظريات أو المكتشفات) لنجد الحجم الكبير لما قيل عن دور الإبداع في البحث العلمي ومخاطر عدم تنمية ذلك في التعليم الثانوي والجامعي.

يقول آرثر كوب Arthur C Cope[2] عن الإبداع بأنه (أعز ما يملكه العالم!)، ويقول بعض فلاسفة العلم مثل امر لاكتوس Imre Lakatos[3] إن الخيال المبدع هو الورقة الرابحة في العلم كله، بما في ذلك التجارب ومعلوماتها التي تعتبر (حقائق)[4].

وينسب لأينشتاين قول منتشر: العقل البدهي هبة مقدسة، والعقل التجريبي خادم مطيع.[5]

---

(١) هي لحظات (وجدتها!) وهذه هي صرخة أرخميدس الشهيرة حيث يقال إنه اكتشف نظريته الشهيرة فجأة أثناء وجوده في الحمام العمومي وخرج مسرعًا وهو يصيح وجدتها.

(٢) Arthur C. Cope عالم كيمياء عضوية معروف.

(٣) Imre Laktos فيلسوف هنغاري (١٩٢٢-١٩٧٣).

(٤) ويمكن البحث في كتاب (فن البحث العلمي) (The art of Scientific Investigation) الذي كتبه رئيس معهد أمراض الحيوان في جامعة كامبريدج - في فصلي الخيال / والحدس لمعرفة المزيد عن أقوال العلماء التجريبيين في أثر الحدس أو الإلهام على تطور العلم والتفكير العلمي..

Art of Sceintific investigation W. I. B Beveridge.
https://pauladaunt.com/books/artofscientificinvestigation60beve.pdf

وللمزيد يمكن مراجعة الدراسات عن (دور الحدس في الطريقة العلمية)

The Role of Intuition in Scientific Method Nicholas M. Smith.
http://www.dtic.mil/dtic/tr/fulltext/u2/p014626.pdf

(نحو فهم الحدس وأهميته في البحث العلمي)

Toward an Understanding of Intuition and its importance in Scientific Endeavor Lois D. ISENMAN / Perspectives in Biology and Medicine Spring 1997
http://people.brandeis.edu/~lisenman/Perspectives.pdf

(٥) لم يصح أن آينشتاين قال هذا رغم شهرة القول..

https://quoteinvestigator.com/2013/09/18/intuitive-mind/

أمثلة عملية على مكتشفات علمية لعب الحدس/الإلهام دورًا مباشرًا فيها

الكسندر فليمنغ Alexander Fleming مكتشف البنسلين - أول المضادات الحيوية المصنعة - وصل لاكتشافه هذا عبر لحظة يمكن وصفها بالإلهام[1]، حيث كان على وشك غسل الأوعية المخبرية الخاصة بنمو البكتيريا عندما لاحظ وجود منطقة في الوعاء لم تنم فيها البكتيريا بل ماتت، فاستنتج فورًا أن العفن الموجود قد قتل البكتيريا، وكان هذا العفن هو عفن البنسيليوم، والذي اشتق منه البنسيلين.

نيكولا تسلا Nikola Tesla اكتشف فكرة التيار الكهربائي المتناوب بينما هو يسير في الغابة ودون (سابق إنذار)[2]، كان يعرف عن التيار المباشر الذي اخترعه أديسون، وكان تسلا يؤمن بوجود طريقة أخرى تحسن استخدام الكهرباء، فكرة التيار المتناوب حققت ذلك فعلًا.

اكتشاف ارخميدس Archimedes الشهير[3] جاء بعد أن طلب الملك منه التأكد من أن الصائغ لم يغش في صنع التاج بخلط الذهب مع معدن آخر، ولم يكن هناك وسيلة لمعرفة ذلك دون الإضرار بالتاج، لكن ما إن دخل أرخميدس المغطس، وانتبه إلى إزاحة الماء حتى عرف أن الماء المزاح يساوي حجم الجسم المغمور بالماء، وأن ذلك يمكن أن يكون وسيلة للمقارنة بين كثافة جسمين يمتلكان نفس الوزن في الهواء، كانت النتيجة أن طار رأس الصائغ.

فيلو فارنزوورث Philo Taylor Farnsworth كان في الرابعة عشرة، ويعمل في حقل البطاطا عندما رأى في لحظة واحدة[4] أن الصور يمكن أن تنقل كهربائيًا عبر الهواء كخطوط متتالية تشبه خطوط حراثة الحقل، ومن ثم تجمع مع بعضها لتشكل صورة كاملة، كان هذا هو التلفزيون.

---

(1) Alexander Fleming Biography | Biography Online
https://www.biographyonline.net/scientists/alex-fleming.html

(2) How Nikola Tesla Sparked the Electric Age
https://www.thedailybeast.com/how-nikola-tesla-sparked-the-electric-age

(3) Eureka (word) - Wikipedia

(4) Eureka: How Invention Happens, Gavin Wheightman, Yale University Press, 2015. Page 93
وهو كتاب يضم المزيد من هذه اللحظات.

اختراع فحص DNA (PCR Polymerase Chain Reaction) حدث كما لو كان في لحظة واحدة[1] بينما كان كوري ميلوس Kary Millus يقود سيارته في الطريق السريع، جامعًا بين مجموعة اكتشافات سابقة.

وبينما كان ديكارت René Descartes مستلقيًا على سريره في الظهيرة انتبه إلى ذبابة تحلق حوله، واكتشف فجأة أن تحديد مسافة الذبابة من السقف والحائط سيمكنه من تحديد موقعها بالتفصيل، وهكذا ولد نظام الإحداثيات[٢].

الأمر ذاته مع داروين Charles Darwin الذي بقي يجمع الملاحظات لكن في لحظة واحدة وفجأة وبينما كان يقرأ مقالًا لمالتوس Thomas Robert Malthus، وجد فكرة الانتقاء الطبيعي في رأسه والتي فسرت وربطت كل ملاحظاته السابقة[٣].

أما أوغست كيكوله August Kekulé فقد اكتشف التركيب الكيميائي لجزيئة البنزين في حلمه، حيث يختلف البنزين عن كل المركبات العضوية بترتيب دائري، بينما تترتب المركبات الأخرى على نحو خطي، رأى كيكوله الذرات تترتب على شكل أفعى، ثم تقوم الأفعى بلف نفسها على نحو يمكنها من وصول رأسها إلى نهاية ذيلها[٤].

فريدرك بانتنغ Frederick Banting اكتشف كيفية علاج مرض السكري عبر الأنسولين، من خلال حلم رآه، واقترح عليه عزل بنكرياس كلب مصاب بالسكري ومراقبة ما يحدث.

أوتو لوي Otto Loewi اكتشف كيف تنتقل النبضات العصبية وذلك عبر حلم رآه لمرتين متتاليتين[٥]، الحلم أخبره كيف يمكن أن يتحقق من ذلك عبر التجربة على قلبين لضفدعين، واحد منهما كان منفصلًا عن العصب المسؤول عنه، لكن مادة كيميائية أفرزت من الثاني حفزته على النبض.

---

(1) Kary B. Mullis - Nobel Lecture: The Polymerase Chain Reaction - NobelPrize.org
https://www.nobelprize.org/prizes/chemistry/1993/mullis/lecture/

(2) The 7 Most Exciting Moments in Science | DiscoverMagazine.com
http://discovermagazine.com/2007/jul/the-7-most-exciting-moments-in-science/

(3) Evolution: Genesis and Revelations, with readings from Empedocles to Wilson, C. Leon Harris, SUNY Press, page 290

(4) 7 Great Examples of Scientific Discoveries Made in Dreams
https://www.famousscientists.org/7-great-examples-of-scientific-discoveries-made-in-dreams/

(5) Otto Loewi (1873-1961): Dreamer and Nobel laureate
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC4291908/

أما آينشتاين Albert Einstein فقد صرح بأنه رأى حلمًا كان نواة نظريته الشهيرة، حيث رأى في المنام أنه ينزلق بسرعة شديدة على سفح جبل، وأن سرعته تزيد للوصول إلى سرعة الضوء، ولكن عندما رفع رأسه رأى مظهر النجوم يتغير كلما اقترب من سرعة الضوء[١].

عدد هذه الاكتشافات المفتاحية التي حققت قفزات مهمة في العلم عن طريق الإلهام يصل إلى أكثر من مائة اكتشاف أو اختراع[٢]،[٣].

* * *

لا أحد يقول هنا إن الفكرة أو الكشف أو الإلهام (أو أي اسم آخر لهذه الظاهرة)، قد نزل على عقل هؤلاء من الخارج أو من السماء، كل هؤلاء كانوا في حالة بحث شغوف في الموضوع الذي جاءت الفكرة فيه، لكن المعلومات والملاحظات كانت تتراكم، وكان العقل التجريبي عاجزًا عن الربط بينها أو تحليلها للوصول إلى (الفكرة - الحل)، ليس لقصور في هذا العقل، بل لأن هذه مهمة العقل الآخر، ببساطة هي وظيفة العقل البدهي أو الحدسي الذي جمع المعلومات والملاحظات، وربط بينها وقفز إلى الاستنتاج بقفزة لا يقدر عليها العقل التجريبي.

قد تظهر النتيجة في فكرة كضوء اللمبة الذي يضيء فجأة، أو قد تلح فتطفو على شكل حلم، ولكنها تكون نتيجة تعاون بين العقلين معًا، الحدسي والتجريبي، لا يمكن إلغاء أي منهما، بل إن التقسيم هنا هو مجرد تقسيم اصطلاحي توضيحي، وإلا فإن كل عملهما هو عمل (العقل) ككل.

* * *

لماذا نتحدث هنا عن هذا في سياق الحديث عن طرق تفكير تقود إلى الإلحاد؟

التيار السائد حاليًا يتجاهل تمامًا العقل البدهي/ الحدسي ودوره في العلم، بل يتجاهل وجوده وقد يمضي أبعد من التجاهل إلى اعتباره (وهمًا) أو مجرد مبالغة إنشائية بكل الأحوال، ولأن العقل الحدسي لا يمكن (قياسه) أو اختباره، أو وضعه تحت المجهر، فإن التيار الناطق

(1) 10 Dreams That Changed Human History

https://www.world-of-lucid-dreaming.com/10-dreams-that-changed-the-course-of-human-history.html

(2) The Eureka! Moment: 100 Key Scientific Discoveries of the 20th Century,Rupert Lee, Psychology Press,2002.

(٣) للمزيد عن هذا الأمر:

Eureka!: Science's Greatest Thinkers and Their Key Breakthroughs Quercus Publishing - 2012 by Hazel Muir

باسم العقل التجريبي لا يعترف به، هذا يقود إلى أن الكثير من النقاشات في الكثير من الأمور المهمة ستصل إلى حلقة مفرغة أو إلى درب مسدود.

ببساطة إن العقل التجريبي لا يمتلك القدرة على الخروج من هذه الحلقة المفرغة (ليست ضيقة، فهي تسع العالم المادي، لكنها مفرغة بمعنى أنها غير قادرة على فهم أي بعد خارج هذه الحلقة).

وهذا العقل لا يستطيع الخروج من هذه الحلقة ليس لأنه ناقص، بل لأنه محدود بتوصيف وظيفي مخصص له.

عدم استخدام الجزء الآخر من العقل سيبقينا في الحلقة ذاتها، أما العقل البدهي/ الحدسي، فهو يرفض الدخول في حلقة يعرف أنها مفرغة، هو يعرف متى يتدخل، ومتى يكون الدور للعقل التجريبي، ويعرف أن ثمة مناطق مهمة لا يمكن له أن يجتازها، بالضبط كما تكون مناطق نفوذه غير خاضعة للعقل التجريبي.

في مفاصل مهمة من النقاش مع الملحدين تبرز هذه المسألة كعائق كبير، تنعكس بعدم وجود لغة مشتركة، لكن هذا التجاهل للعقل البدهي/ الحدسي ليس خاصًا بالملحدين فقط، هناك كثير من المؤمنين أيضًا لا يؤمنون بغير العقل التجريبي، وهم يُصرون على إقحامه في مناطق لا تعنيه على نحو يضر بقضيتهم أكثر مما يفعله الملحدون، سنرى ذلك مِرارًا عبر الكثير مما يُعرض في الكتاب.

ثانيًا: التفكير الحرفي/ الكونكريتي/ الجامد

التفكير الحرفي Literal thinking هو التفكير الذي يقتصر فهمه على المعاني الحرفية المباشرة للمفردات، ولا يستطيع الانتقال إلى فهم البعد المجازي المتضمن في هذه المفردات، وقد يكون هذا التفكير الحرفي ناتجًا عن ثقافة تدعم الفهم الحرفي الظاهري للنصوص، كما يكون أحيانًا عرَضًا لبعض الحالات المرضية، كما سيأتي.

والمجاز هو أحد الأساليب اللغوية المنتشرة في كل اللغات الإنسانية المعروفة، يُستخدم للتعبير عن معنى أبعد وأكثر عمقًا من المعاني المباشرة للكلمات، ويسمى «مجازًا» من التجاوز والتعدي، إذ أنه يتجاوز المعنى الأصلي المباشر الذي تعبر عنه الكلمة لينتقل إلى معنى آخر يراد إيصاله من خلال استخدام المجاز.

وفي الاصطلاح: هو نقل اللفظ عن معناه الأصلي، واستعماله في معنى مناسب له، كاستعمال (الأسد) في (الرجل الشجاع) أو قولنا (دارت بنا الأيام) أو كما في الآيات القرآنية: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، (الإسراء - ٢٤)، ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، (التكوير - ١٣)، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، (الإسراء - ٢٩).

كما أنه أسلوب منتشر ليس على نطاق الأدب والشعر كما قد يتبادر إلى الأذهان، بل حتى في الكلام اليومي العادي، كما في الأمثال والأقوال السائرة التي لا تخلو من مجاز (الدراهم مراهم، أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا، الشرط نور، سرك في بير، الحب أعمى... إلخ).

ومن الأمثال الشهيرة في الإنجليزية التي تستخدم هذا النوع أو ذاك من أنواع المجاز:

The grass is always greener on the other side of the hill.

العشب أكثر خضرة على الجانب الآخر.

When in Rome, do as the Romans.

في روما تصرف كالرومان.

People who live in glass houses should not throw stones.

أولئك الذين يعيشون في بيوت من زجاج، عليهم ألا يرموا غيرهم بحجر.

Birds of a feather flock together.

الطيور على أشكالها تقع.

The early bird catches the worm.

الطير المبكر ينال الدودة.

Time is Money.

الوقت من ذهب.

* * *

المجاز إذن هو جزء مهم من طريقة تعبير الإنسان عن فكرة معينة أكثر عمقًا وتعقيدًا من أن تعبر عنها الكلمات المباشرة، حيث إن بعض الأفكار تحتاج أن يُعبر عنها بلفظ من منطقة مختلفة عن منطقة الكلام المباشر للتعبير عن انتقال الفكرة نفسها إلى بعد مختلف وعمق أكبر.

وللمجاز تأثير ملاحظ على المتلقي، هناك شحذ للخيال، هناك خروج عن المعنى المألوف المعتاد للشيء الذي في ذهن المتلقي مسبقًا، وهناك تأثير عاطفي/ عقلي ناتج عن كل ما سبق، والقدرة على استخدام المجاز ثم القدرة على فهمه من قبل المتلقي، تعبر أولًا عن القدرة على فهم (نمط) من السلوك أو صفة من الصفات في (المشبه به) (شجاع كالأسد/ شديد كالعاصفة/ عميق كالبحر)، وبالتالي القدرة على ربط هذه الصفة بمجال مختلف تمامًا عن المجال الأصلي لوصف إنسان شجاع، أو عواطف شديدة، أو كتاب عميق، ومن ثمَّ الوصول إلى معنى مختلف عن المعنى الأصلي المستخدم، فهم المجاز إذن، أو استخدامه، يعبر عن قدرات عقلية أولًا.

والمجاز مرتبط بشكل مباشر بالقدرة على التجريد أو الفهم التجريدي abstract thought، وهي القدرة على اشتقاق المفاهيم المستمدة من الوقائع أو المبادئ الأولية (المفهوم الحرفي أو الملموس أو الكونكريتي (concrete thinking) بعد «تجريد» هذه من التفاصيل الزائدة للوصول إلى مفهوم مجرد.

مثال ذلك: التفكير بمفهومي النصر والهزيمة، هو تفكير تجريدي أما التفكير بواقعة محددة انتصر فيها طرف وهُزم آخر فهو تفكير حرفي/ ملموس، كذلك التفكير باللون الأحمر ودلالاته (دون مثال محدد) هو تفكير تجريدي، بينما التفكير بشيء أحمر مثل التفاح تفكير حرفي/ ملموس، كذلك التفكير بالجمال ومعناه دون التفكير بشيء جميل، هو تفكير تجريدي، بينما التفكير بشيء جميل (طبيعة، إنسان) هو تفكير حرفي/ ملموس... إلخ.

ويمكن اعتبار التجريد بأنه العملية التي تبتعد فيها الأفكار عن الأشياء[1]، ويعتبر التفكير التجريدي أرقى وأعقد مرحلة من مراحل الوعي cognition، وهو أيضًا المرحلة التي يمكن

---

(1) Feeling and Form: a theory of art developed from Philosophy in a New Key د Suzanne K. Langer (1953), New York: Charles Scribner's Sons. But an idea can be symbolized. «A symbol is any device whereby we are enabled to make an abstraction.» -- chapter 20 New York: Charles Scribner's Sons.

من خلالها إنشاء التعميمات والمقارنات والمفاهيم ووضع الفرضيات وحل المشاكل (problem solving)[١]، أي أنه عملية لا يمكن الاستغناء عنها في أي تفكير علمي.

كما أن بعض العلوم (مثل الرياضيات، والحاسوب) قائمة تمامًا على مفاهيم تجريدية، وترتبط القدرة على التجريد بمنطقة القشرة الحديثة من الدماغ neocortex التي تتوفر عند اللبائن (الثدييات) فقط من بين كل المخلوقات الحية، وتكون الأكبر عند الإنسان حيث تشكل حوالي ٧٦٪ من دماغ الإنسان.

يبدأ الإنسان بالتدريج بفهم الأفكار التجريدية والمجاز في بدايات المراهقة من عمر ١١ سنة[٢] حسب جون بياجيه[٣] Jean Piaget، علمًا أن الأطفال الموهوبين يمتلكون قدرات تجريدية قبل هذا العمر بالتأكيد[٤]، ويعتبر المجاز جزءًا من التجريد بطبيعة الحال، ففهم قوة الأسد، أو شدة العاصفة، واستعمال هذا الفهم لوصف شيء آخر غير الأسد وغير العاصفة يتطلب أن «تجرد» مفهوم القوة من تفاصيل الأسد أو مفهوم الشدة من تفاصيل العاصفة، وتحويل كل منهما إلى مفهوم تجريدي تمامًا، يصب لصالح عنصر آخر.

وبسبب ارتباط فهم المجاز بالقدرات الدماغية، فإن بعض الدراسات[٥] تشير إلى أن الذين تعرضوا لتلف في منطقة التلافيف الزاوية من الدماغ the left Angular Gyrus region غير قادرين على فهم التعابير المجازية، رغم أن مستوى ذكائهم وتعليمهم يكون مرتفعًا، فعبارات مثل (الحشيش أكثر خضرة في الجانب الآخر) أو (الإمساك بالنجوم) كانت تربكهم ويعجزون عن فهم المعاني المجازية خلفها[٦].

حالة عمى المجاز هذه Metaphor Blindness كما تطلق عليها بعض الدراسات[٧] (أو عمى

(1) Mosby's Medical Dictionary, 9th edition. © 2009, Elsevier.

(2) Piaget's Theory of Cognitive Development • Explore Psychology
https://www.explorepsychology.com/piagets-theory-cognitive-development/

(٣) جون بياجيه (١٨٩٦-١٩٨٠) فيلسوف وعالم نفس سويسري، مؤسس نظرية التطور المعرفي عند الأطفال.

(4) Lovecky, Deirdre. (1994). Exceptionally gifted children: Different minds. Roeper Review. 17. 116-120. 10.1080/02783199409553637.

(5) «Neural cross wiring and synesthesia», Ramachandran, Hubbard, Journal of Vision, Dec 2000

(6) Brain Region Linked to Metaphor Comprehension - Scientific American
https://www.scientificamerican.com/article/brain-region-linked-to-me/

(7) A pilot investigation of «metaphor blindness» in a college student population-Jalal B, Ramachandran VS - ScienceDirect
https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0306987714000449

العمق Depth Blindness كما تقترح أخرى[1])، يمكن أن تكون شائعة عند المصابين بالتوحد بأغلب أطيافه[2]، وكذلك المصابين بمتلازمة آسبرجر Asperger Syndrome[3] التي تعتبر من أخف حالات التوحد، وكذلك هناك نسبة من الأشخاص من غير المصابين بأي اضطراب أو تأخر، ولا تشي فحوصهم الدماغية بشيء، ولكنهم مصابون أيضًا بـ «عمى المجاز».

وهكذا لم يعد المجاز ودراسة دلالاته حصريًا على علوم اللسانيات واللغة، بل صار جزءًا مهما من دراسة علم الأعصاب[4]، حيث نشرت دراسات عديدة تدرس مناطق فعالية أجزاء مختلفة من الدماغ أثناء «عملية فهم processing» عبارات مجازية وأخرى «حرفية مباشرة»[5].

فالدماغ يمارس فعاليات أكبر، ويستعين بمناطق مختلفة منه لكي يقوم بعملية تكرير وفهم المجاز، الأمر يشبه تمرينًا رياضيًا يقوم به الدماغ أثناء فهم المجاز أو التعبير عن أمر ما بالمجاز، هو خروج من الصندوق ومن حرفية المعاني ومن جمود قوالب الكونكريت إلى آفاق أرحب وأوسع.

يعامل المجاز أو التعبيرات المجازية في الكثير من الأحيان من قبل البعض على أنه «مبالغة شعرية، مجرد كلام، تمويهات... إلخ». ولا ينظر له بجدية عادة.

لكننا رأينا الآن أن «المجاز» هو تعبير عن قدرة دماغية ميزت البشر عن كافة المخلوقات الأخرى، وكانت عنصرًا أساسيًا في عملية التفكير التجريدي التي مكنت البشرية من تحقيق كل ما حققته من منجزات، أذكر أهمية المجاز من خلال هذا السياق الواسع لأن المجاز، وطريقة التفكير بالمجاز والتعبير من خلاله، تتعرض اليوم إلى تهميش كبير من سياقات التفكير السائدة، وهذا يقودنا إلى هذا النوع من التفكير الحرفي/ الجامد الذي سنرى بالتدريج أثره الكبير في فتح ممرات كثيرة تقود إلى الإلحاد.

---

(1) Further thoughts on «metaphor blindness»: Implications and future avenues of research - ScienceDirect https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0306987715002807

(2) Verbal and Visual Metaphor Comprehension in Autism -Nira Mashal ,Anat Kasir Comprehensive Guide to Autism pp 651-670

(3) Metaphor Comprehension in Persons with Asperger's Syndrome: Systemized versus Non-Systemized Semantic Processing Rinat Gold ,Miriam Faust Pages 55-69 | Published online: 10 Feb 2012 journal Volume 27, 2012 - Issue 1: Autism and Nonliteral Language.

(4) The Metaphorical Brain: Seana Coulson, Vicky T. Lai Frontiers in Human Neuroscience. 2015; 9: 699. Published online 2016 Jan 5

http://journal.frontiersin.org/article/10.3389/fnhum.2015.00699/full

(5) Creating metaphors: The neural basis of figurative language production .Mathias Benedek NeuroImage Volume 90, 15 April 2014, Pages 99-106

https://doi.org/10.1016/j.neuroimage.2013.12.046

تهميش المجاز في تفكيرنا يأتي من طرفين:

أولًا: حرفيون باسم العلم: وهم أولئك الذين يسخفون المجاز على أساس أنه أقرب إلى الشعر والتعبيرات الشعرية غير القابلة للقياس والاختبار، على العكس من العلم الذي يخضع للتجربة والقياس والدقة والمعيارية... إلخ.

والحقيقة أن هذا فهم خارج سياق العلم بمعناه العام، ويختص بطريقة عرض (بيانات) التجارب العلمية ونتائجها في الأوراق العلمية الأكاديمية، لكنه يقف عند هذا، وفي اللحظة التي يبدأ فيها استخلاص مدلولات التجارب وعلاقاتها بموضوع البحث على نحو عام، تبدأ اللغة بالتغير، ويصبح من المعتاد جدًا استخدام تعبيرات مجازية.

وعلى العكس من الشائع، فإن العلماء - برأي البعض - ربما كانوا يستخدمون المجازات أكثر من اللازم! حيث يقال إنهم يدمنون استخدام التعبيرات المجازية في عرض أفكارهم وما يتوصلون له[1]، وهكذا فالعلماء (قديمًا وحديثًا) يستخدمون تعبيرات مجازية من نوع:

الكون الأنيق the universe is elegant، والكون سيمفونية وترية cosmos is a string symphony، والجين الأناني selfish gene، والانتقاء الطبيعي natural selection، وشجرة الحياة tree of life ... صراع لا نهائي بين الثرموداينمكس والجاذبية endless battle between thermodynamics and gravity .[2]

حتى بعض المفردات التي تعودناها تمامًا، مثل الانفجار العظيم big bang أو الثقوب السوداء black holes، هي في حقيقتها تعبيرات مجازية، وهكذا فمن المعتاد جدًّا استخدام المجاز والتعبيرات المجازية في الكتابات العلمية، حيث يلعب المجاز دورًا حيويًّا في تطوير المصطلحات والفرضيات العلمية كما في توضيحها وتعليمها[3].

---

(1) A metaphor too far : Nature News
https://www.nature.com/news/2011/110223/full/news.2011.115.html

(2) In Defense Of Metaphors In Science Writing - Scientific American Blog Network
https://blogs.scientificamerican.com/life-unbounded/in-defense-of-metaphors-in-science-writing/

(3) The use of metaphor in scientific writing, Shellie Jo Robson- thesis submitted To Iowa State University.
http://lib.dr.iastate.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=1055&context=rtd

أهمية المجاز بالنسبة لبعض فلاسفة العلم مثل توماس كون[1] (Thomas Kuhn)، تتجاوز القدرة على التعبير عن النظرية العلمية أو تعليمها للناس، إلى المساهمة المباشرة في خلق وتشكيل النظرية نفسها[2].

بل إن بعض التعبيرات المجازية التي صاحبت أهم النظريات العلمية، ونتجت عنها ساهمت في تشكيل رؤية العالم world view بالنسبة للناس في عصر انتشار هذه النظرية، على سبيل المثال رؤية العالم كآلة - ماكينة - machine، وذلك من خلال (غاليلو - ديكارت - ونيوتن) ساهم في تعميم هذه الرؤية المجازية التي أثرت على طريقة نظر الناس إلى كل شيء على أنه جزء من آلة أو آلة تعمل حسب نظام متقن[3]، وقد ساهمت هذه الرؤية فلسفيًا في تطوير ما يعرف بـ (الاختزالية)[4] reductionism، التي تقوم بتبسيط كل شيء معقد إلى أجزائه البسيطة لفهمه، فكل آلة معقدة، يمكن فهم طريقة عملها عندما نفهم كيف تعمل أجزاؤها، أي أن كل نظام معقد هو نتيجة لمجموع أجزائه البسيطة.

وساهم التعبير المجازي الأكثر حداثة الذي يعتبر الكون (مثل جهاز حاسوب) في رؤية العالم على أساس الشبكات المتداخلة مع بعضها أكثر من كونه مجموعة من الأجزاء المستقلة عن بعضها في رؤية الماكينة سابقًا[5]، ليس كل العلماء وفلاسفة العلم يأخذون نفس الموقف الإيجابي من المجاز[6]، لكن حتى هؤلاء غالبًا ما يعبرون عن موقفهم المضاد من المجاز باستخدام تعبيرات مجازية! مهما كانت هناك معارضة واختلافات حول الأمر، فالمجاز موجود في العلم وفي الكتابات العلمية، والتحجج بالعلم لتسخيف المجاز أو اعتباره مجرد مبالغة هو

---

(١) توماس صامويل كون Thomas Kuhn (١٩٢٢- ١٩٩٦) عالم فيزياء ومؤرخ وفيلسوف أمريكي، حقق كتابه (بنية الثورات العلمية) الصادر في ١٩٦٢ جدلًا واسعًا وتأثيرًا كبيرًا في الأوساط الأكاديمية والشعبية، وهو صاحب مفهوم تغير البارادايم paradigm shift.

(2) Metaphor in science Thomas S. Kuhn In A. Ortony (ed.), Metaphor and Thought. Cambridge University Press. pp. 409-19 (1979)

http://academiclogbook.blogspot.ae/2011/09/thomaskuhnmetaphorinscience1979.html

(3)Worldviews: An Introduction to the History and Philosophy of Science, Richard Dewitt ,Wiley-Blackwell 2nd edition, 2010 page 178.

(4) Reductionism - Wikipedia

(5) Metaphors in Science - The Fountain Magazine | The Fountain Magazine

https://fountainmagazine.com/index.php?option=com_content&view=article&id=75:Metaphors-in-Science&-catid=41&Itemid=124

(6) Metaphor in science Robert R, Hoffman University of Minnesota

In R. P. Honeck & R. R. Hoffman (Eds.),Cognitive psychology and figurative language. Hillsdale, New Jersey: L. Erlbaum.

http://cmapsinternal.ihmc.us/rid=1197480436708_369198822_9945/Metaphor%2520in%2520Science%25201979.pdf

أمر يتناقض مع تاريخ العلم وأهم المنعطفات فيه، لذا فموقف (الحرفيين باسم العلم) لا معنى له هنا في رفضهم للمجاز أو للتفكير.

ثانيًا: حرفيون باسم الدين: ساهم الصراع المرير بين الفقهاء والمتكلمين في سيادة موقف شديد الحذر من المجاز، ورغم أن موقف جمهور الفقهاء هو القبول بالمجاز، إلا أن هذا القبول أصيب بالتحفظ والتشنج مع الوقت، وتقريبًا انتهى إلى أن يكون قبولًا اسميًا فقط، مع وقف التنفيذ.

ولعل موقف ابن تيمية وابن القيم المعارض للمجاز على نحو جذري قد ألقى بظلاله على الموقف اللاحق، وذلك نظرًا لأهميتهما المتفردة في الموروث الإسلامي.

تنقسم المواقف عند أهل السنة بالنسبة إلى المجاز إلى المذاهب التالية[1]:

المذهب الأول: إثبات المجاز مطلقًا:

أي إثبات المجاز في اللغة والقرآن على حد سواء، وهو مذهب جمهور الأصوليين ونسب إلى الأئمة الأربعة.

المذهب الثاني: نفي المجاز مطلقًا:

وهذا مذهب أبي إسحاق الإسفرائيني، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم.

المذهب الثالث: القائلون بإثبات المجاز في اللغة دون القرآن:

وهو مذهب ابن داود وابن خويز منداد وبعض الظاهرية وكثير من المالكية والحنابلة.

المذهب الرابع: القائلون بإثباته في اللغة دون القرآن والسنة:

نسبه الرازي إلى ابن داود الظاهري.

المذهب الخامس: القائلون بإثباته في اللغة، ولا يقال به في القرآن والسنة إلا حيث ورد به النص، أو قام عليه الإجماع، أو دلت عليه ضرورة الحس:

وهذا هو رأي ابن حزم الظاهري.

---

(١) محمود بن محمد بن مصطفى المنياوي صفحة ٨-٩ الأساليب والإطلاقات العربية التي ذكرها العلامة الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان

ورغم أن المذهب الأول الذي يقبل بالمجاز في اللغة والقرآن هو مذهب الجمهور، إلا أن كل المذاهب الأخرى (عمليًّا) تضع المجاز في خانة الرفض، فالقبول بالمجاز في اللغة ورفضه في القرآن (المذهب الثالث) أو قبوله في اللغة ورفضه في القرآن والسنة معًا (المذهب الرابع) أو (شرط وجود نص يؤيد كونه مجازًا/ أو الإجماع/ أو ضرورة الحس) كما في المذهب الخامس، كلها تصب في اتجاه تهميش المجاز واعتباره مجرد مبالغات شعرية.

فقبوله في اللغة ورفضه في القرآن، يعني عمليًّا وضعه في خانة دنيا لا تستحق أن تكون في القرآن، والقرآن هو الكتاب الذي تشكل عبره وجدان الأمة وضميرها ورؤيتها للحياة، وحذف المجاز منه يؤدي حتمًا إلى تحجيم مكانة المجاز ودوره في العقل الجمعي للأمة، بعبارة أخرى: إطلاقه في مجال الشعر والأدب فحسب، دون أن يكون له دور آخر.

كذلك الأمر مع قبوله في القرآن ضمن حزمة شروط ابن حزم الظاهري يجعله عمليًا مرفوضًا تمامًا، لأنها شروط في غاية الصعوبة: نص يؤيد أنه مجاز؟ إجماع؟ - وهو غير متوفر فيما هو أيسر من ذلك - ضرورة الحس، كيف تُحدد هذه الضرورة؟

كل هذا، بالإضافة إلى موقف ابن تيمية وهجومه (المتقن ضمن سياقه) على المجاز، جعل من عموم الموقف من المجاز متحفظًا وحذرًا في أحسن أحواله، وتردد شديد في توسعة أمثلة لم ترد في أقوال المتقدمين، ومنعه تمامًا من دخول بعض المناطق (المحرمة).

* * *

يخيل لي أن الأمر بدأ من ذلك التقسيم الاصطلاحي في كلام العرب الذي يجعل الحقيقة والمجاز[1] (نوعان من الكلام)، وهذا يعني ضمنًا أن المجاز (ليس حقيقيًّا) - مهما كانت تعريفاته اللاحقة - إذ أن مجرد وضعه في مواجهة (الحقيقة) سيؤدي إلى وضعه في خانة لا يريد أحد أن يصف بها القرآن، وهكذا تداعت المواقف -خاصة في سياق الصراع مع أهل الكلام - إلى أن قادت إلى الوضع الحالي، حيث يمكن لمذهب ابن تيمية أن يهزم أقوال الجمهور، وحيث يبدو حتى القبول بالمجاز قبولا مع وقف التنفيذ، حيث كانت هناك حزمة من الشروط تقيده.

ندرك اليوم أن المجاز ليس بمواجهة أمام الحقيقة، بل هو امتداد لها في عمق لا تستطيع الكلمات المباشرة أن تعبر عنه، هو حقيقة بأبعاد أعمق من أبعاد الحروف المباشرة والقوالب الكونكريتية.

(١) شرح أخصر المختصرات الجزء ٣٨ صفحة ١٨

الحرفيون من الطرفين (باسم العلم وباسم الدين) يجهلون أنهم يقتلون واحدة من أهم قدرات الإنسان على العطاء والإبداع بتحجيمهم لنمط التفكير الذي يتعامل مع المجاز ويتفاعل معه، وسنرى لاحقًا، كيف أن نمط الفهم الحرفي/ الكونكريتي يُعبِّد الطريق في أحيان كثيرة إلى الإلحاد.

ثالثًا: نمط تفكير (الكل أو لا شيء):

يحدث كثيرًا أن ننجرَّ إلى مواقف مطلقة، قبولًا أو رفضًا، لشيء ما أو شخص ما أو تيار ما، ثم في لحظة واحدة تنقلب مواقفنا ١٨٠ درجة من هذا المطلق إلى المطلق المعاكس، من القبول المطلق الموافق لكل ما في هذا الشيء أو الشخص أو التيار إلى الرفض المطلق لكل ما فيه.

الأمر ليس نادرًا على الإطلاق، وفي كثير من الأحيان، لا مشكلة في أن يحدث، بعض القرارات الشخصية تستفيد من هذا التفكير الأبيض أو الأسود، في أحيان كثيرة عليك أن تحدد طريقك على أن يكون واحدًا بين اثنين دون أي فرصة لوجود «طريق وسط»، وهذا إيجابي ومطلوب.

المشكلة لا تكون عندما يحدث نمط تفكير كهذا في اتخاذ القرارات المصيرية، بل يحدث عندما يتحول نمط التفكير هذا إلى (آلية للتقييم) تتعامل مع نتيجتين متعاكستين: ناجح أو فاشل، جيد أو سيئ، ملاك أو شيطان، صالح أو طالح.

وجود تقييمات متعاكسة كهذه - سواء للنفس أو للآخرين أو للمؤسسات أو التيارات - والانتقال من دور المحب المفتون الأعمى عن العيوب إلى دور الحاقد الكاره الناسف لكل ما كان يحبه هو أمر شائع، وغالبًا يحدث هذا عند الاصطدام بأول مشكلة حقيقية مع (الشيء) موضوع الافتتان.

هذه الحالة تكون معروفة كمَرَض من أعراض اضطراب الشخصية الحدي Borderline Personality Disorder، وهذا لا يعني أن كل من يمتلك هذا النمط من التفكير مصاب باضطراب نفسي، خاصة أننا نعيش في ثقافة تشجع على هذه المواقف الحادة البيضاء/ السوداء، بل وقد تخلط بينها وبين الثبات على المبادئ في أحيان كثيرة، تُسمى الحالة أيضًا بالفصام (splitting)، ويُقصد بها العجز عن الدمج بين الثنائيات السلبية والإيجابية في

الشيء (أو الشخص الواحد)، ويُعتقد أنها تبدأ في مراحل الطفولة المبكرة عندما يعجز الطفل عن فهم وجود صفات سلبية في الأم أو الأب مثلًا[١].

كما تكثر الصفة في حالات الاكتئاب المرضي[٢]، حيث يكون هذا التفكير سببًا في سقوط المريض فريسة للاكتئاب لأنه يُقيِّم نفسه خصوصًا وفق نفس آلية الأبيض والأسود، وفي هذه الحالة يكون التقييم السلبي للذات سببًا في الاكتئاب، كما أن لنمط التفكير هذا أيضًا أثر واضح في اضطراب الشخصية النرجسية Narcissistic Personality disorder، لكن في هذه الحالة فالتقييم الأبيض يكون من نصيب الشخصية المضطربة، مقابل حصول الآخرين على التقييم الأسود[٣].

ومرة أخرى إذا كان الأمر في حالات الاضطرابات النفسية يمكن إرجاعه إلى ظروف نفسية معينة والسيطرة عليه من خلال طرق معينة، فإن الأمر عندما يلتقي بنمط تفكير ثقافي يصبح أعقد بكثير، إذ أنه يُحوِّل في أحيان كثيرة موقف (الأبيض أو الأسود) إلى أمر مُشرِّف عبر خلطه بشعارات (الثبات على المبادئ) و (عدم السكوت عن الحق) و(الحياد نفاق) وغيرها، حيث يجد التبرير الشرعي والاجتماعي، ويتحول الموقف شبه العصابي إلى مسألة مبادئ، وهو أمر يضمن عدم مراجعتها أو التراجع عنها، وهكذا نجد كل حالات التطرف بين موقفين بين تلك الثنائيات تتعلل بأن المتغير حقًّا هو الطرف الآخر الذي لم يحافظ على مبادئه.

ويقترب هذا كله عندما نتحدث في سياق ثقافي اجتماعي عما يعرف بـ (Uncertainty avoidance)[٤] أو (تفادي الريبة)، وهو مفهوم يعتبر واحدًا من المفاتيح الخمسة الأساسية لفهم اختلافات المجتمعات والثقافات حسب نموذج هوفستيد للاختلافات العابرة للحضارات[٥].

(1) The defense mechanism of splitting: developmental origins, effects on staff, recommendations for nursing care. - PubMed - NCBI
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/224184

(2) Splitting as a predictor of depression. - PubMed - NCBI
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/1408627

(3) Splitting (psychology) - Wikipedia

(4) What is Uncertainty Avoidance?
https://culturematters.com/what-is-uncertainty-avoidance/

(5) Hofstede's cultural dimensions theory - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Hofstede%27s_cultural_dimensions_theory

مفهوم تفادي الريبة/ أو الشك يتعلق بتقبل المجتمع لوجود أشياء أو أمور غير واضحة تمامًا وغير خاضعة لقانون أو تعليمات مسبقة محددة، الكثير من المجتمعات تُعلِّم أفرادها أن يشعروا بالراحة فقط عندما تكون الأمور يقينية وثابتة، ويكون ثمة شعور بالقلق كلما كانت بعض الأمور غير واضحة أو مآلاتها غير جلية.

لدينا في مجتمعاتنا عمومًا مستوى عالٍ ليس فقط من (تفادى الريبة)، بل من اعتبار كل ما هو غير يقيني أمرًا مرفوضًا أو مشبوهًا، وكلما اقتربنا من الدين أو المفاهيم الدينية، زادت درجة (تفادي الريبة) على نحو يجعل من كل ما يرتبط بالدين (حتى لو لم يكن من العقائد أو من الأساسيات) مطالبًا بأن يكون من اليقينيات غير القابلة للنقاش.

لدينا إذن في نمط التفكير هذا، ثلاثة خطوط أساسية:

الأول: هو طريقة تفكير (الكل أو لا شيء) أو (الأبيض أو الأسود) التي تكون طريقة في تقييم الأشياء على نحو لا يعرف الحلول الوسط أو المناطق الرمادية؛ إما قبول مطلق أو رفض مطلق.

الخط الثاني: هو تداخل الأبيض والأسود والكل أو اللا شيء مع «الثبات على المبادئ» وعدم الحياد عنها ليُجمِّل ويُكرِّس مواقف (الكل أو لا شيء) و(الأبيض و الأسود)، ويجعلها مواقف مبدئية وأخلاقية وليست نمط تفكير «مضطرب».

الخط الثالث: مرتبط بسيادة مبدأ (تفادي الريبة) اجتماعيًّا والتخوف من كل ما هو غير يقيني وثابت، والتعامل معه بحذر أو حتى محاربته، وهذا يقود إلى أن أي مفهوم يقل اليقين به يُعامل فورًا بمنطق الكل أو لا شيء، بدلًا من أن تكون الأمور نسبية كما في طبيعتها.

تداخل هذه الخطوط الثلاثة مع القيم الدينية أو ما يقترب منها من أفكار وأشخاص ومؤسسات أو تيارات جعلت هذه القيم صلدة[1]، ولكنها هشة في الوقت نفسه، ذلك أنها تفقد أي طواعية أو مرونة لازمة لها كي تقاوم الكسر عند تعرضها لشدة خارجية، لذا فهي تكون في أحيان كثيرة مثل بلورة الألماس، لديها قوة كبيرة لمقاومة أي خدش، ولكنها قد تتعرض للكسر بسهولة عند تعرضها لضربة قوية، كسر كان من الممكن تجنبه لو توفر لها مرونة أو طواعية تسمح لها بالتغير قليلًا لكي تمتص الصدمة، نمط التفكير هذا - الأبيض أو الأسود - الكل أو لا شيء، وفقدان أي مرونة فيما يتعلق بالقيم الدينية ساهم كثيرًا في الوصول إلى الإلحاد.

---

(١) الصلادة hardness هي قوة مقاومة الخدش.

كثيرون ممن ألحدوا كانوا يمتلكون قبل إلحادهم نمط التفكير هذا، الذي كانوا يعتبرونه من ثوابت إيمانهم ويقينياتهم، والذي ساهم في وصولهم إلى الإلحاد بعد أن عملت آلية الأبيض أو الأسود على تحطيم كل ما كانوا يُعدونه ثوابت إيمانهم، وكثيرون ممن لا يزالون مؤمنين يحملون نفس نمط التفكير، ويستخدمونه في الدفاع عن إيمانهم على نحو ينذر باحتمالية وصولهم إلى ذات النقطة التي تجعل كل شيء ينهار، ليس هذا حتميًّا ولا لازمًا، لكنه وارد جدًّا، وتزيد احتماليته مع وجود أنماط تفكير أخرى من ضمن ما يذكر هنا.

نحتاج إلى أن نؤمن بالتدرج بين الأبيض والأسود، بل نحتاج أن نؤمن بوجود تدرجات كثيرة من الرمادي بين اللونين، ونحتاج أن نتقبل كل تدرج بحسب السياق، نحتاج أن نؤمن بمفهوم العبوة الكاملة، أن بعض الأشياء يجب أن تؤخذ كعبوة كاملة، حتى لو كان بعض ما فيها ليس مناسبًا تمامًا لنا، لكن هذا الشيء غير المناسب يجب أن يوضع في سياقه، وضمن الكثير مما هو مناسب ضمن نفس العبوة، علينا أن نتقبل ذلك كما نتقبل أن بعض أهم الأدوية والعلاجات الطبية، قد يكون لها أعراض جانبية، وهذا لا يجعلنا نكف عن تعاطيها لأن أهميتها العلاجية تفوق أعراضها الجانبية.

علينا أن نتقبل أنه ليس كل المفاهيم المرتبطة بالدين يجب أن تكون بنفس درجة اليقين والقطعية وحتى الثبوت، علينا ألا نُعامل كل ما هو مرتبط بالدين كما لو كان من أصوله أو عقائده، علينا أن نتقبل استخدام كلمة (ربما) أحيانًا فيما يتعلق بشرح بعض الأمور الدينية، علينا أن نتقبل وجود احتمالات، وأن نتقبل أنه ليس كل شيء يمكن معرفته يقينيًّا وقطعيًّا، وأن ذلك لن يكون نهاية العالم، ولن تكون نهاية الإيمان بالتأكيد، هذه الـ (ربما)، هذا التقبل لفكرة الاحتمالات، يكون مثل حقنة مرونة تكسب القوة صفة مقاومة الكسر، وتخفف من حدة اللونين الأبيض والأسود في تفكيرنا، سنرى خلال عرضنا لأسباب وحجج الإلحاد، كيف يُحوِّل نمط التفكير هذا (لدى البعض) التطرف في الإيمان، إلى تطرف في الإلحاد.

رابعًا: نمط الاجتزاء في التفكير:

فكرة الاجتزاء من السياق لتقديم معنى مغاير أو حتى معاكس للمعنى الأصلي فكرة معروفة، وهناك أمثلة شهيرة تستخدم للتعبير عن مغالطة الاجتزاء مثل «ويل للمصلين» أو «لا تقربوا

الصلاة»، حيث أن السياق العام يكون للتحذير من تهاونهم (عبر السهو في الصلاة أو تناول المسكرات)، بينما يبدو المعنى مجتزأ مُحذرًا من الصلاة نفسها.

بطبيعة الحال من المستبعد أن يكون هناك من استخدم «ويل للمصلين» أو «لا تقربوا الصلاة»، لكنها أمثلة استخدمت مبكرًا في الفقه للدلالة على خطورة الاجتزاء من السياق، وبتر النصوص من سياقها. أغلب الاجتزاءات في الحقيقة تكون من سياق أوسع، وكشفها لا يكون بسهولة كشف «ويل للمصلين»، وهذا طبيعي تمامًا، ليس هذا فقط، بل إن مثال «ويل للمصلين» غالبًا يشير إلى وجود نية مسبقة للشخص صاحب الاجتزاء ومعرفة له، بأنه يقوم بعمل اجتزاء يغير من المعنى، ولكنه غالبًا يحاول أن يخدع المتلقين مراهنًا على الأكثر على كسلهم وعدم محاولة التدقيق على كامل السياق الذي وردت فيه الجملة أو النص المقتطع، حدث هذا دومًا وفي كل العصور، لكن ربما كان عصر اليوتيوب هو عصر هذا النوع من الاقتطاع بامتياز، حيث ترى شخصًا ما يقول جملة معينة، وتكون متأكدًا أنه قالها فعلًا لأنك تراه بلحمه وشحمه ولا يفتري عليه أحد في قوله هذا (كما يمكن أن يحدث مثلًا عندما يكون الاتهام مكتوبًا، ويشير إلى أن فلانًا قاله أو كتبه في مكان ما دون أن تراه وهو يقول ذلك فعلًا)، لكن لو رأيت السياق كاملًا لربما وجدته يقولها نقلًا عن شخص آخر لكي يدحضها ويثبت بطلانها.

يعد الاجتزاء من السياق[1] مغالطة منطقية معروفة (يسمى أحيانًا contextomy أو quote mining)، وتتصل بطريقة أو بأخرى بمغالطة رجل القش strawman fallacy أو مغالطة الاحتكام إلى السلطة appeal to authority.

الفارق بين ما نتحدث عنه وبين هذه المغالطات المنطقية أن المغالطات المنطقية غالبًا هي أسلوب جدل ومحاججة مع الآخر، أي أن من يستخدمها يعرف غالبًا أنه يقوم بعملية اجتزاء من سياق، أما ما نتحدث عنه فهو أعقد، لأن المغالطة هنا داخلية، نمط التفكير هنا لا يستخدم لإقناع شخص آخر، ليس ثمة نية مبيتة للوصول إلى حكم مسبق، المغالطة هنا داخلية والحجاج داخلي، والمحور الأساسي لكل ذلك هو العجز عن الخروج عن التفاصيل إلى سياقها الأوسع، العجز عن رؤية الصورة الأكبر التي حدثت فيها التفاصيل الصغيرة بالإضافة إلى تفاصيل أخرى، تصحيح الاجتزاء لا يحدث عبر أن نتحدث عن تتمة آية «ويل للمصلين»، فنقول «الذين هم عن صلاتهم ساهون» فحسب، بل عن معنى ذلك في السورة ككل، عن علاقة السورة بما قبلها وما بعدها وبتأثيرها ضمن ذلك.

---

(1) Quoting out of context - Wikipedia

أن ترى الصورة الأكبر - الصورة الشاملة التي ستوضح معنى التفاصيل التي ربما تنشغل بها على أن تراها ضمن الصورة الأكبر، والأخطر من عدم رؤية الصورة الأكبر هو أن تحاول نقل التفاصيل الصغيرة (كما هي) إلى إطار لصورة مختلفة تمامًا.

مرة أخرى: لا نتحدث فقط عن سياق نصوصي أوسع من النص المجتزأ، بل عن السياق الواقعي الذي حدث/ قيل/ نزل فيه السياق ككل.

نمط تفكير الصورة الكبيرة big picture thinking مقابل نمط التركيز على التفاصيل details oriented thinking أمر يبحث كثيرًا في علوم نفس الإدارة والأعمال[1]، ويوصف أصحاب تفكير الصورة الكبيرة، بأنهم أكثر قدرة على إيجاد الأفكار الجديدة والفرص السانحة، وتمييز الأنماط المعقدة، بينما يوصف أصحاب التركيز على التفاصيل بأنهم مهتمون بآليات التنفيذ ومواجهة المشاكل التي تحدث أثناء ذلك، بالنسبة لأصحاب الشركات، توزيع المهام يحل المشكلة، أصحاب الصورة الكبيرة إلى التخطيط والاستراتيجية، وأصحاب التفاصيل إلى التنفيذ، ولكن الأمر كنمط تفكير شخصي يدخل مع المشاكل العقائدية لا يمكن معاملته على هذا النحو، لا بد من وجود «الصورة الكبيرة» في الذهن طالما هناك تعامل مع التفاصيل الصغيرة، لا يمكن فهم أي تفصيل دون فهم الصورة الكبيرة، ولا يمكن فهم أي نص دون فهم السياق المباشر الذي ورد فيه، والسياق الأكبر، أي التاريخي/ الاجتماعي/ الحضاري الذي ورد فيه السياق المباشر للنص.

من السهل معرفة كيف يمكن أن يقود تفكير التفاصيل الصغيرة بمعزل عن سياقها إلى إشكالات وصدامات إيمانية، فالتعامل المجتزأ مع تفاصيل معينة في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وحياته الشخصية أو مع بعض التشريعات دون النظر إلى الصورة الكبيرة/ السياق التاريخي الذي حدثت فيه هذه التفاصيل، سيجعلنا في صدام متعدد الأوجه مع فكرة (صلاحية النص لكل زمان ومكان) عندما يحاول البعض نقل هذه التفاصيل إلى سياق معاصر ومختلف.

يُصِرُّ كثير من المؤمنين على التعامل مع النصوص الدينية، ومع سيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بطريقة الاجتزاء المنفصل تمامًا عن السياق المباشر وعن السياق الأكبر، ويُصرُّون أيضًا على إمكانية نقل هذه التفاصيل إلى أي سياق آخر، ويُصرُّون بطبيعة الحال على أنها جزء ثابت من الدين وعلى طريقة الأبيض والأسود التي مَرَّ ذكرها، يؤدي هذا بطبيعة الحال إلى إشكالات كثيرة، تنتهي في كثير من الأحيان بالإلحاد.

---

(1) Big Picture vs Detail Oriented Thinking - A Reasoner's Miscellany
https://nargaque.com/2013/10/20/big-picture-vs-detail-oriented-thinking/

اللافت هنا أن الملحدين، يتبنون نفس نمط التفكير هذا (التفاصيل الصغيرة بمعزل عن الصورة الكبيرة)، ويعتبرونه النمط الصحيح في التعامل مع الدين، ويقود هذا إلى وجود طرفين متناقضين ظاهريًّا، متشابهين في الجوهر؛ الأول يعتبر التفاصيل هي الأساس، ويجب أن تطبق على كل شيء، والثاني يعتبر التفاصيل هي الأساس، ولهذا يجب أن يُلغى كل شيء بسببها.

سنتعرف على أمثلة وحجج كثيرة كانت سببًا في إلحاد كثيرين، بسبب هذا النمط من التفكير الذي كانوا يؤمنون من خلاله، ثم أصبح سببًا لإلحادهم.

خامسًا: الكاتالوغ المثالي/ مغالطة النيرفانا:

في أحيان كثيرة يحدث أن نحاكم أشياء من الواقع في حياتنا اليومية بناء على مواصفات مثالية/ نموذجية لا تمت للواقع بصلة، من الأمثلة المعروفة على هذا صورة المرأة العاملة في الإعلانات الدعائية التي تروج لمنتجات المطبخ، وتُظهر الزوجة في أبهى مظهر (على نحو قد يتعارض عمليًّا مع جو المطبخ والعمل فيه)، ولكن هذه الصورة المثالية تترك أثرها على الزوج الذي يقارن بين زوجته (الواقعية/ الحقيقية) وبين الصورة التي يراها عبر الإعلام (المثالية/ الخيالية)، وهذا سيجعل الزوج يعتبر أن زوجته مقصرة أو مهملة، وقد يطالبها أحيانًا بأن ترتقي إلى (الصورة الإعلامية) التي هي محض وَهْم مفبرك بالكاميرات وضرورات التصوير.

هذه المقارنة بين الوهم والواقع، ثم محاكمة الواقع بناء على هذه المقارنة، تعبر عن نمط تفكير منتشر للأسف، ويقود إلى نهايات مؤسفة، الأمر في المثال أعلاه مبسط، ويتعلق بتدخل الإعلام في تشكيل الصور الذهنية للمتلقي، لكن هناك ما هو أعقد في أنماط التفكير، حيث يميل البعض إلى خلق صفات كمال مثالية لا وجود لها إلا في خياله، لا صورة مسبقة كما في الإعلام ولا في أي صورة على الإطلاق، فقط وَهْمُ الكمال والمثاليات التي لا وجود لها، والتي تُشَكِّل مثل (كتيب مواصفات/ كاتالوغ) وهمي اخترعته بنفسك وتحاول تطبيقه على شيء عملي واقعي حقيقي لا علاقة له بالكاتالوغ الوهمي من قريب أو من بعيد.

كمثال: تشتري سيارة جديدة بمواصفات معينة، المواصفات محددة وموضحة في الإعلان، وكما أخبرك مسؤول المبيعات وفي الكتيب الذي أرفق معها، لكنك تعود بعد أيام وتريد أن ترجع السيارة لأنها لا تطابق الكاتالوغ الوهمي الذي في رأسك، والذي لا علاقة له بخطة المصنعين

ومواصفاتهم، الكاتالوغ الوهمي يريد من سيارتك ألا تصاب بخدش حتى لو صدمت الحائط الكونكريتي في مرآب البناء الذي تقيم فيه، ويريد أيضًا أن تنبهك ولا ترتطم بسيارة أخرى بينما تكون أنت منشغلًا بهاتفك أثناء القيادة، ويريد من سيارتك أن تفهمك دون أن تقوم أنت بأي حركة... إلخ.

حسب هذا الكاتالوغ، فإن السيارة التي ابتعتها فاشلة ولا تلبي متطلباتك، لكن المشكلة ليست في السيارة أو مواصفاتها بل هي في الكاتالوغ (الوهمي) الذي تحاكمها على أساسه، المشكلة هي في متطلباتك أنت التي افترضت أنها يجب أن تكون موجودة في السيارة كي تنال قبولك.

يرتبط هذا الكاتالوغ الوهمي/ الخيالي بما يعرف بمغالطة النيرفانا Nirvana Fallacy[1]، والنيرفانا هي مصطلح بوذي يعني حالة السلام الروحي التام والانعتاق الشعوري من كل ما يسبب الألم أو المعاناة، أي فلنقل إنها تقترب مما نسميه نحن (الإحساس بنعيم الجنة)، مغالطة النيرفانا ذكرها أول مرة عالم الاقتصاد هارولد ديميتز Harold Demestz في سياق المقارنة بين حلول اقتصادية «مثالية» غير مطبقة، وبين الحلول التي تقدمها المؤسسات العاملة في الواقع[2].

قبل ذلك قال فولتير Voltaire: «إن الكامل هو عدو الجيد»، وهذا يعني أن الكامل/ الوهمي الذي لا وجود له، سيكون عدوًّا للجيد الذي يمكن أن يتحقق، وهذه حقيقة مشاهدة، لأن وضع متطلبات مثالية مبالغ بها لمشروع ما، قد يفسد إمكانية تحقيق المشروع ككل.

ميل البشر إلى البحث عن «الكمال» هو امتداد طبيعي (ولكن غير واقعي بالضرورة) لبحثهم عن «الأفضل»، والبحث عن الأفضل كان من متطلبات تحقيق المنجزات التي استطاع النوع البشري إحرازها عبر آلاف السنين من سيادته على الأرض، البحث عن ما هو كامل، ما هو مثالي تمامًا وخالٍ تمامًا من أي خطأ، كان هذا البحث هو الخطوة التالية للبحث عن الأفضل، لكنها كانت خطوة في اتجاه مختلف، خطوة باتجاه «طريق موصد».

الفرق بين ما هو «كامل» وما هو «أفضل» قد لا يكون واضحًا إلا عند التجربة الواقعية التي تميز استحالة تطبيق الكمال وإمكانية وجود حلول واقعية أقل كمالًا، وهذا بدوره يجعل الأمور

---

(1) Nirvana fallacy - Wikipedia

(2) Harold Demsetz Information and Efficiency: Another Viewpoint The Journal of Law & EconomicsVol. 12, No. 1 (Apr., 1969), pp. 1-22

غير القابلة للتجريب (الأمور المجردة مثلًا، الإيمان، الإلهيات) غير خاضعة للحد الذي يفارق بين «الكامل» و «الأفضل».

لذا فبينما كان البحث عن الكمال خاضعًا لبشرية من يبحثون عنه، فإن عدة موضوعات (غير بشرية) بدت كما لو كانت ملجأ مثاليًا لإسقاط فكرة الكمال المثالي عليها، تعويضًا عن عدم إمكانية تحقيق الكمال عند البشر، وهكذا فإن مفهوم الإله والأنبياء والرسل والكتب السماوية والأديان عمومًا، لأنها غير بشرية، فإن مفهوم الكمال كان أقرب لها.

هذا جعل كثيرين يفترضون الكمال في هذه المفاهيم، الكمال كما يريدونه هم أو كما يتخيلونه هم، وليس كما حددته هذه المفاهيم. بعبارة أخرى، نشأ عند هؤلاء كاتالوغ مفترض عما يجب أن يكونه الإله أو الأنبياء أو الأديان عمومًا أو حتى بالنسبة للدعاة والمصلحين، المواصفات التي في الكاتالوغ لا علاقة لها بما قاله هذا الإله عن نفسه في الكتب التي أنزلها أو ما قاله الأنبياء.

فعلى الإله مثلًا (حسب كاتالوغ النيرفانا) أن يكون رحيمًا دومًا، ويُسَهِّل لنا كل خطواتنا، ويكون حاضرًا فور أن نطلبه، ولا يعرضنا لعقوبة أو ابتلاء. لماذا؟ لأن هذا هو الكمال حسب تصورهم، هذا هو الإله المثالي كما يتصورونه هم، من أخبرهم أن هذه هي مواصفات الإله المثالي؟ هل اتصلوا بإله مثالي آخر وقال لهم ذلك؟ لا، هو فقط تحيز البشر إلى الكمال المطلق الوهمي تعويضًا لهم عن النقص البشري.

وعلى الأنبياء والرسل أيضًا (حسب نفس الكاتالوغ) أن يكونوا مسالمين دومًا، وأن يتحملوا كل ما يتعرضون له، وألا يحملوا السلاح أبدًا، وألا يعيشوا كما عاش بنو قومهم في زمنهم، بل أن يعيشوا في فقاعة خارج الزمان والمكان، بحيث تبدو تصرفاتهم اليومية مناسبة لعصرنا الحالي.

لماذا؟ لأن هذا ما قاله الكاتالوغ الوهمي، على الأنبياء أن يكونوا هكذا، لأن هذه هي فكرة الكمال (المستحيلة بشريًا، ولكننا نسقطها كما نريد على المفاهيم الدينية كتعويض)، نفس الشيء بالنسبة للدعاة والمصلحين: عليهم أن يكونوا مبتسمين دومًا.. لطفاء دومًا.. واضحين دومًا، يردون على الجميع بلطف حتى لو شتموا، ولا يقومون - مثلًا - بحظر أي شخص (على شبكات التواصل الاجتماعي) مهما فعل.

لماذا؟ لأن هذا ما يقوله كاتالوغ النيرفانا الوهمي في عقول هؤلاء، دون أن يكون للدعاة والمصلحين وقبلهم الأنبياء والرسل أي دخل أو حتى معرفة بهذا الكاتالوغ.

ما يحدث مع نمط تفكير كهذا هو أن الواقعي، أو الذي بُني حسب تصميمه الأصلي الخاص به، سيصطدم عند هؤلاء مع الكاتالوغ الوهمي الذي بنوه في رؤوسهم، وسيقودهم هذا إلى افتراض الخطأ في الواقعي، ورفضه ونقضه جملة وتفصيلًا، لأنه لم يُلبِ متطلبات كاتالوغ الأوهام في رؤوسهم، بالضبط كمن يرجع السيارة التي ابتاعها، لأنه اكتشف أنها لا تطير.

* * *

الكثير من الأسباب والحجج التي يسوقها الملحدون في بيان أسباب إلحادهم خاضعة لمغالطة النيرفانا هذه، والتخلص منها يجب أن يسبق بالانتباه للمغالطة الجوهرية في نمط التفكير هذا، وسنرى هذا تفصيلًا في الكتاب.

سادسًا: القبول بـ «لا جواب»، عبثية الأجوبة:

لو أنك كنت في طريقك إلى وجهة محددة وفق خريطة تسير عليها، وقادتك إلى طريق مسدود، فأنت غالبًا ستعتبر أن ثمة شيء خطأ في هذه الخريطة، أو أنك استخدمتها على نحو خاطئ بحيث قادتك إلى طريق مسدود[1] أو ما يعرف بالعامية في بعض البلدان بـ (حارة سد) بدلًا من أن توصلك إلى حيث تريد.

يحدث هذا غالبًا وليس دائمًا، ذلك أن هناك من يقبل بالطريق المسدود، ويقف هناك وقد اعتبر أن هذه هي نهاية الطريق، وأنه ليس من وجهة أخرى أصلًا يمكن الوصول لها، نتحدث بطبيعة الحال مجازيًّا، البعض يتقبلون فكرة أن «لا جواب» يمكن أن تكون نهاية رحلة البحث عن الأجوبة، أي أن يكون الـ (لا جواب) هو الجواب.

فلننتبه هنا إلى أن (لا جواب)، لا تساوي بأي شكل من الأشكال (لا أعلم)؛ الفرق بينهما أن عدم وجود جواب، يعني ألا جواب هناك مهما بحثت، لأن وجود جواب عن سؤال يعني ببساطة أنه يرتبط بآليات منطقية وسببية، تجعل إمكانية الوصول إلى جواب متوفرة حتى لو كان الجواب صعبًا، أي من ناحية المبدأ: أما (لا جواب) فتعني عدم وجود إمكانية أصلًا للوصول إلى جواب، لأن منظومة المنطق التي يمكن الوصول إلى جواب من خلالها غير متوفرة.

(١) • المقصود هنا أن الطريق مغلق بالأبنية ولا يستطيع أن يمر من خلالها، وليس مغلقاً بغرض الصيانة والإصلاحات مثلاً.

أما (لا أعلم) فتعني أن صعوبة الوصول إلى جواب قد تعرقل البعض عن الوصول إلى جواب، ولكنها لا تعني استحالة ذلك، وهكذا فإننا مثلًا قد نسأل عن سبب تصرفات شخص ما ودوافعه، شخص مثلًا قام بتحطيم نافذة منزل مجاور له، من المحتمل أن هذا الشخص قام بذلك لأن أصحاب المنزل قاموا بعمل شيء مشابه، أو لأن ابنهم قام بتحطيم زجاج نافذة سيارته، أو لأنه يريد أن يعبر عن كراهيته لهم (أن يكون عمله عدائيًّا ضد عرق أو طائفة ينتمون لها).

مهما كان العمل خاطئًا فإنه في الغالب ثمة علاقة (منطقية/ سببية) تنظم العلاقة بين الأشياء، لكن لو كان الرجل الذي قام بذلك مصابًا باضطراب عقلي، فإن هذه العلاقة السببية ستنتفي، لن يكون هناك سبب منطقي يفسر ما حدث، ليس سوى أن الرجل مضطرب عقليًا، وهذا بمثابة (لا جواب) عن السؤال:

الرجل يتصرف (بعبثية من لا عقل له). نقطة انتهى.

نفس المثال يمكن تطبيقه على العالم من حولنا في الأسئلة المهمة الأساسية، وعدم وجود جواب يعني أن العلاقة بين الأشياء غير منطقية، غير خاضعة لمنطق أو قانون، بعبارة أخرى: كل شيء عبث أصلًا، لذا فالسؤال لا معنى له، ولذلك لا جواب، القبول بهذا بحد ذاته هو نمط تفكير يفترض عدم وجود المنطق، ويتبنى العبث، سواء اعترف بذلك صراحة أو تهرب منه.

أهم مغالطة في هذا النمط من التفكير هي مغالطة تعرف بمغالطة الدليل/ أو عبء الإثبات وترتبط بمغالطة المجهول أو التوسل بالمجهول Ignorance Fallacy[1]، وفكرتها ببساطة هي كما لخصها عالم الكونيات مارتن ريس Martin Rees : عدم وجود دليل على شيء **لا يعني** عدم وجوده absence of evidence is not an evidence of absence.[٢]

المشكلة في نمط التفكير هذا (الذي يضع معايير معينة للدليل ثم يعلن عدم وجوده، ويعتبر عدم وجود الدليل دليلًا على عدم الوجود كما في المغالطة السابقة)، هو أنه يكرس (اللا جواب كجواب) بكل ما يعنيه ذلك من اقتراح عدم وجود منطق متحكم في علاقة الأشياء ببعضها بعضًا، وتسهيل الدرب إلى فكرة العدمية التي ترى أن العالم كله، بما فيه الإنسان، عديم القيمة والمضمون والمعنى، لا يشترط هنا أن كل من يملك هذا المنطق ينتهي ليكون عدميًّا، فهناك من يحاول إيجاد معنى لحياته بنفسه بمعزل عن كون الحياة أصلًا بلا هدف كما يراها.

---

(1) Argument from ignorance - Wikipedia

(2) Martin Rees - Wikiquote

التفكير الذي يقول بإمكانية أن لا يكون هناك جواب في أمور أساسية وجوهرية متعلقة بالوجود الإنساني/ الذي يرى أن (الحارة السد) يمكن أن تكون النهاية الطبيعية للطريق، هذا التفكير يتعارض مع حاجة إنسانية شديدة الأصالة في داخل النفس الإنسانية، ألا وهي الحاجة إلى أجوبة حاسمة، أو ما يعرف بالإغلاق [1] Closure أو بالحاجة إلى الإغلاق Need for Closure (أي عدم ترك الأجوبة مفتوحة دون جواب) حيث تعتبر الدراسات النفسية[2]؛ أن الإنسان يحتاج إلى (الإغلاق)، لأن هذا يساهم في مده بالشعور بالأمان في عالم يمكن توقع ما سيحدث فيه.

ويشير كيغان Jerome Kegan إلى أن الوصول إلى جواب حاسم واحد من أهم محددات السلوك البشري، وأن في حالة عدم وجود جواب يُخرج من الحيرة والتردد، فإن الإنسان يسعى إلى الوصول إلى جواب حاسم. ويعتبر هذا مُحددًا من مُحددات المنجز الشخصي والشراكة مع الآخرين[3].

ويختلف البشر في هذه الحاجة للإغلاق، وهناك مؤشر لقياس هذه الحاجة حيث إن البعض تكون الحاجة عالية عندهم، وهناك آخرون يكونون أقل من ذلك، لكن الحاجة عمومًا (حاجة وجود جواب حاسم ونهائي) موجودة عند كل البشر بنسب متفاوتة، وهذا بالضبط هو ما يقوم نمط التفكير الذي يقبل بالدرب المسدود بمحاولة دحضه أو تجاهله.

فلنتذكر هنا أن الحاجة إلى الإغلاق لا يشترط أن تكون في مسائل وجودية من نوع: من خلق البشر؟ وهل يوجد إله؟ بل أيضًا في مسائل تخص وجود الفرد من نواحٍ مختلفة: هل يغير مكان عمله؟ هل يستقيل ويؤسس عملًا خاصًّا؟ هل يختار فلانة شريكة لحياته؟ هل يستطيع أن يؤسس أسرة معها؟... إلخ.

هذه الأسئلة تحتاج إلى أجوبة حاسمة/ قاطعة، وعادة فإن الفرد يبحث عن أجوبة وبراهين توصله إلى حالة الحسم التي تخرجه عن حيرته، وهذا طبيعي وفطري عند الإنسان، لذا فجواب أن لا جواب هناك يضع الإنسان في مواجهة مع أحد أهم احتياجاته الشخصية، وفي بعض الأمور التي ربما لا يمكن مطلقًا تجاهلها.

---

(1) Closure (psychology) - Wikipedia

(2) Webster, D.; Kruglanski, A (December 1994). «Individual differences in need for cognitive closure». Journal of Personality and Social Psychology. 67: 1049-62. PMID 7815301.doi:10.1037/0022-3514.67.6.1049

(3) Why We Need Answers | The New Yorker
https://www.newyorker.com/tech/annals-of-technology/why-we-need-answers

فلنتذكر هنا ما قلناه عن (فوائد) الريبة في (الأبيض والأسود)، هل يتعارض مع الحاجة إلى الإغلاق؟

ليس بالضبط، الريبة هي مثل المرونة التي يحتاجها معدن صلب كي لا يتعرض للكسر عند وقوعه تحت ضغط قوة خارجية، يجب أن يكون هناك ما هو متغير حسب الظروف وغير صلب تمامًا(ريبة، مرونة)، ولكن هذا جزء من إطار عام ثابت وصلب (تفادي ريبة، الحاجة إلى الإغلاق).

فلنتذكر: نمط تفكير يجعلنا نتقبل أن لا جواب، لا حسم عن أسئلة مهمة وأساسية، هو نمط تفكير يتعارض مع «منطق الأشياء»، مع أن للأشياء منطقًا ينظم العلاقة فيما بينها، مع حاجة الإنسان إلى أن تكون الأرض مستقرة تحت قدميه.

وهذا كله، سيقود في مواضع معينة، كما سنرى في الكتاب، إلى الإلحاد، إذا كانت بعض الأجوبة غير مقنعة للبعض هذا أمر لا مشكلة فيه، يمكن لهم أن يبحثوا عن حسم أكثر إقناعًا، لكن الـ «لا جواب» باعتباره جوابًا نهائيًا، هو ما يجب أن يُرفض.

سابعًا: الخلط بين العلم والإيمان:

رغم أن الرؤية السائدة عن العلاقة بين العلم والإيمان كانت تتضمن وجود نوع من المواجهة بينهما، إلا أن سيادة العلم في العصر الحديث والمنجزات التي حققها جعلت العلاقة تتغير بالتدريج، بدأ الأمر في القرن السابع عشر، مع بدايات العصر الحديث، حيث بدا أن العلم يقدم رؤية مغايرة ومخالفة لما يراه الكتاب المقدس والكنيسة، وكان من الطبيعي أن تكون ثمة مواجهة، أو حتى حرب، بين العلم والدين، وكانت الكفة شعبيًا لصالح الدين في هذه المرحلة، حيث كانت الكنيسة لا تزال تملك زمام السيطرة على الناس.

مع الوقت، حقق العلم نقاطًا مهمة، وبدأت الكفة تميل لصالحه بالتدريج، وبدأت شعبية الكنيسة تتراجع، وبدا كما لو أن الدين مقبل على فترة انحسار حقيقي، وقد حدث ذلك لفترة.. لاحقًا بدا لكثيرين أن العلم لا يقدم كل ما يحتاجه الإنسان، وأن ثمة مكانًا للدين لا يمكن للعلم أن يحتله، وهكذا بدأت بالتدريج أصوات الدعوة للتوفيق بين الاثنين - غالبًا - عبر ما بدا أنه تنازلات من قبل الدين أو من يتحدث بالنيابة عنه، ونجحت خطوة التوفيق بالنسبة لكثيرين.

لكن خطوة التوفيق هذه مضت عند البعض (ومنهم نحن!) أبعد مما يجب، وصارت العلاقة بين العلم والإيمان عند كثيرين علاقة مساواة على نحو يُخرب العلاقة كليًا، ولم يكن الأمر فقط عند المؤمنين الذين يرغبون بتقوية الإيمان عبر دعمه بالعلم، بل حتى مع الملحدين الذين تركوا الإيمان والدين، لكن تعاملهم مع العلم كان تعاملًا إيمانيًا دينيًا، وليس كما ينبغي للعلم أن يُعامل: حسب معطيات العلم نفسه.

لهذا الخلط بين العلم والدين الذي يشكل في أحيان كثيرة مدخلًا إلى الإلحاد ملمحان أساسيان:

١. التعامل مع الدين على أنه فرع من فروع العلم التجريبي:

ثمة فرق كبير (منسي في أحيان كثيرة) بين آلية التصديق بما يقوله العلم، والذي يعتمد على حقائق خاضعة للتجريب، وبين الإيمان بالدين، الذي يحتوي على ما هو غيب بالتعريف، هذا لا يقلل من شأن الإيمان أو يجعله أقل مكانة من العلم، هو فقط في مجال آخر مختلف عن مجال العلم، والفصل بين المجالين يحافظ على الإيمان بالدين قبل أن يحافظ على العلم، التعامل مع الدين على أنه علم تجريبي يجعلنا نتوقع أن نجد براهين على الدين حسب المنهج العلمي ووفق معايير علمية، وهذا من الصعب جدًا جر الإيمان إلى الخضوع له.

وكذلك يقودنا هذا التعامل إلى أن نتوقع أن يكون القرآن كتابًا في الفيزياء والأحياء وعلوم الجيولوجيا، ويقود هذا بدوره إلى محاولات للتوفيق والتلفيق بين النص الديني وبين معطيات متغيرة باستمرار للعلم، والذي قاد فعلًا إلى مشاكل كثيرة شككت كثيرين في الدين ككل، كما سيأتي لاحقًا.

٢. التعامل مع العلم بطريقة دينية:

سيادة العلم في العقود الأخيرة جعلته بنظر كثيرين بمثابة دين جديد، والبعض صار يتعامل معه بطريقة دينية، أي بطريقة أن كل ما يأتي منه هو يقين نهائي، وفي الحقيقة اليقين بعيد عن طبيعة التفكير العلمي الذي يتطلب الشك المستمر الذي يعيد النظر والتدقيق للوصول إلى معطيات أكثر دقة وتفسيرات أكثر دقة تدخل أيضًا في معمل التساؤلات والتدقيق.

الأشخاص الذين تشكلت عقولهم على اليقين الديني يتوقعون أن تطبيق هذا اليقين على العلم أمر طبيعي، وعندما يرون شيئًا مغايرًا في العلم أو في بعض معطياته

يتصورون وجود قصور أو نقص، كثير من العلماء يشكون بمعطيات البحث العلمي ونتائجه ويحاولون الوصول إلى معطيات أدق أو رؤية أدق تنتظم فيها هذه المعطيات، بل كثيرون منهم يعبرون عن شكوك بنظرية وضعوا أساساتها هم بأنفسهم، وهذا أمر طبيعي وهو جزء من تطور العلم المستمر نحو ما هو أكثر دقة وسعة وشمولية.

هذا الأمر الطبيعي لا يستطيع كثيرون ممن يعاملون العلم بطريقة يقينية دينية فهمه أو تقبله، وهو يسبب في أحيان كثيرة رفضهم وهجومهم على نظريات علمية حديثة، لأنها تتعرض لكل ما تتعرض له النظريات من شك ونقد، سواءً من داخلها أو من أتباع نظرية أخرى.

هذا التفريق بين اليقين الديني وطبيعة العلم التي تتطلب الشك المستمر، هو المفتاح لإنهاء جزء كبير من الخلط بين العلم والدين.

ثامنًا: مغالطات منطقية متفرقة تكثر في النقاش المستعمل بين الطرفين

توجد مجموعة كبيرة من المغالطات المنطقية في الحجج والأسباب التي يوردها الملحدون لبيان سبب إلحادهم، كما توجد في الوقت ذاته أحيانًا كمية أخرى (كبيرة أيضًا) من المغالطات المنطقية في الردود على هذه الأسباب من قبل المؤمنين. أحيانًا نفس المغالطات تستخدم من قبل الطرفين وفي الاتجاهين.

هذه المغالطات شائعة في نقاشات يومية كثيرة وليس فقط في موضوعي الإيمان والإلحاد، ووضعها على نحو منفصل عن أنماط التفكير السابقة (التي تضمنت أيضًا مغالطات منطقية)، هو لأن الأخيرة تستخدم في النقاش والمحاججة بين الطرفين على نحو قد يكون واعيًا بوجود خلل منطقي في هذا الاستخدام، بينما الأنماط الأولى هي أنماط تفكير ذاتي لا يشعر من يفكر بها أنه يرتكب مغالطة.

١. **مغالطة الشخصنة Argumentum Ad**[1]:

وهي من أكثر المغالطات شيوعًا رغم كثرة التنبيه عليها، ربما لسهولتها وسهولة أن تصيب هدفك عبر استخدامها، فكرة مغالطة الشخصنة سهلة وواضحة، فبدلًا من أن تهاجم فكرة معينة هاجم الشخص الذي يتحدث عنها، وهكذا ممكن بسهولة للملحدين أن يحولوا النقاش من قضية وجود الله والخلق إلى شخص المتحدث المؤمن، وكيف أنه مثل كل رجال الدين مجرد

(1) Ad hominem - Wikipedia

تاجر بالدين أو إرهابي أو متطرف... إلخ، كما يمكن في الوقت نفسه أن تستخدم المغالطة من قبل المؤمنين للهجوم على المتحدث الملحد وكيف أنه يشرب الخمر ويسكر (على سبيل المثال)؛ استخدام الشخص كهدف بدلاً عما يقوله هذا الشخص، ينجح في أحيان كثيرة في تحويل دفة النقاش وإبعاد المتلقين عما يدعو له الشخص المهاجم.

فلننتبه هنا إلى أن ثمة مبالغة كبيرة في استخدام لفظ (الشخصنة)، والتحذير منها على نحو يجعل هذا الاستخدام مغالطة بحد ذاته، ما إن ينقد أحدهم شخصًا آخر حتى ينبري من يقول: هذه شخصنة، لا تشخصن الأمور، بالتأكيد أن الأمر ليس على هذا النحو، حديثك عن عدم تمكن شخص ما من مادته (مثلًا) أو عدم تخصصه في الموضوع الذي يتحدث عنه ليس شخصنة بالتأكيد، لأنه لا يمس شخصه بقدر ما يمس علاقة هذا الشخص بموضوعه، قد لا يكفي ما تقول لدحض ما يقوله هو، ولكن هذا ليس بشخصنة، أما عندما تتحدث عن شكله أو لهجته أو ملابسه، فهذا بالتأكيد شخصنة، كذلك إذا تحدثت عن سلوكه الشخصي الذي قد لا يناسب معاييرك أو المعايير الدينية عمومًا فهذا بالتأكيد شخصنة، بل حتى لو كنت تتحدث عن أن سلوكه مخالف لما يقول فهذا شخصنة، لأن الأمر سيكون طعنًا به، ولكن ليس بما يقول وتماسكه المنطقي.

٢. مغالطة رجل القش / مغالطة البهلوان / الانتقام من الدمية[1] Strawman Fallacy :

هذه المغالطة تعتمد بشكل أساسي على تشويه حجة الخصم، ثم مهاجمة النسخة المشوهة منها وليس النسخة الأصلية، مثل أن تصنع دمية من القش تشبه عدوك، ثم تشبعها ضربًا بدلاً منه، ومن هنا جاءت أصل التسمية، حيث كانوا في القرون الوسطى يدربون الفرسان على مبارزة دمى من القش.

المغالطة شائعة وتستخدم بحماس من الطرفين، وقد يكون التشويه في أحيان كثيرة ليس كذبًا مباشرًا بل مجرد اجتزاء من السياق على نحو يقلب المعنى أو يشوهه (كما مر في نمط تفكير التفاصيل الصغيرة)، ولكنه في النهاية يؤدي نفس غرض الكذب المباشر.

أي شخص يهاجم على وسائل التواصل الاجتماعي يتم تحويله في أحيان كثيرة إلى دمية قش بناءً على كلمة قالها من ضمن جملة، أو كلمة لم يقلها أصلًا، وتنفع دمية القش هذه في تحويل الأنظار عن الفكرة التي يقولها.

---

(1) Straw man - Wikipedia

٣. مغالطة سمكة الرنجة الحمراء Red Herring Fallacy[1]:

تعتمد على تشتيت الانتباه، وتسمية الرنجة الحمراء يعود إلى أن بعض الصيادين كانوا يقومون بوضع سمكة رنجة مملحة لتشتيت انتباه كلاب الصيد عن الأرانب، وتشبه إلى حد بعيد محاولة الأهل إلهاء طفل صغير يبكي عبر الإشارة إلى السقف والقول: انظر إلى العصفورة.

هذه المغالطة تعتمد على تشتيت الانتباه عن الموضوع الأساسي عبر اختيار موضوع (يهم) المتلقي على نحو سلبي ويخص المتحدث: انظر إلى رأيه في الثورات، انظر إلى موقفه السياسي، اسمع موقفه من المثليين، من الهولوكوست، هل تعرف أن شقيقه يعمل كذا... إلخ، بينما هذه الموضوعات لا علاقة لها من قريب أو من بعيد بموضوع النقاش.

وطبعًا هذه المغالطة تستخدم أيضًا من قبل الطرفين، ويتنافس كبير، أثناء النقاش عن وجود الله مثلًا وبحثاً عن إجابة سؤال: مَن الذي خلق الكون؟ والملحدون يأخذون القضية إلى موقف الإسلام من الرق مثلًا أو موقف المتحدث من تعدد الزوجات.

وبالمقابل يمكن للطرف المؤمن أن يستخدم المغالطة ذاتها، حيث يصادف أن يتحدث الملحد عن العنف في الإسلام، فيقوم الطرف المؤمن بالحديث عن موقف اليسار العربي من الثورات والأنظمة... إلخ.

٤. مغالطة الانتشار Argumentum ad Populum[2] أو «الجمهور دومًا على حق» أو مغالطة الكثرة أو الديمقراطية:

تحاول هذه المغالطة أن تبرهن على صحة شيء لمجرد أن الأكثرية تؤمن به أو تؤيده، وتستخدم هذه المغالطة بكثرة من المؤمنين باعتبار أكثرية البشر تؤمن بدين أو بإله، ويستخدمها الملحدون مستدلين بنسب تزايد الملحدين أو كثرتهم في بعض البلدان المتقدمة للدلالة على وجاهة الإلحاد، وفي الحالتين فإن انتشار أمر ما بين البشر لا يعني صحته، أحيانًا يختار البشر مواقف معينة، وبعد فترة يختارون مواقف معاكسة تمامًا، كما أن أشهر طغاة التاريخ كانوا مُؤَيدين بأغلبية ساحقة من جماهير شعوبهم في فترة من الفترات.

---

(1) Red herring - Wikipedia

(2) Argumentum ad populum - Wikipedia

٥. **مغالطة النخبة[1] Snob Approach أو أفضل الناس يفعلون هذا:**

وتعتبر أحيانًا جزءًا من المغالطة السابقة، ولكن إذا كانت مغالطة الانتشار تتقوى بأن الجمهور أو الأغلبية الشعبية تؤيد خيارًا معينًا، فإن مغالطة النخبة تعتمد على أن نخبة الناس تؤيد خيارًا مختلفًا، وهذا في رأي من يستخدم المغالطة دلالة على أفضلية هذا الخيار.

يستخدم الملحدون هذه المغالطة بكثرة، خاصة مع استخدام نسب العلماء الملحدين أو عدد الملحدين من حائزي جائزة نوبل أو قائمة ممن يُسمون بالملحدين من علماء الحضارة الإسلامية.

٦. **مغالطة الاعتماد على العاطفة appeal to emotion[2]:**

تعتمد هذه المغالطة على تحريك عاطفة المتلقي لغرض جَرِّه إلى موافقة فكرية معينة، تتضمن هذه المغالطة تذكير المتلقي بنتائج مرجوة / أو غير مرجوة، ومخاطبة مخاوفه، أو إضحاكه من الرأي المعاكس... إلخ.

يستخدم المؤمنون هذه المغالطة بكثرة في الحديث مع الملحدين وعلى نحو لا يخدم أحدًا، إذ يتم تذكيرهم بعذاب جهنم وأنواعه وما سيلقونه، بينما الحوار يكون في واد مختلف تمامًا أو يتم سرد ما تعرض له المؤمنون في سبيل إيمانهم من أذى عبر التاريخ.

كما يستخدم الملحدون المغالطة نفسها في الحديث عن ضحايا الإرهاب على نحو يثير التعاطف، ومن ثم يجير هذا التعاطف ضد الدين، أو يستخدم الظلم الذي يتعرض له الملحدون لكي يشعر المتلقي بالتعاطف ومن ثم يتعاطف مع فكرة الإلحاد.

٧. **مغالطة الدائرة المغلقة / البدء من النهاية Circular reasoning [3]:**

تعتمد على النتيجة التي يريد المتحدث إثباتها فيتخذها مقدمة للوصول إلى إثباتها، وتكثر خاصة عند المؤمنين الذين يستشهدون بما ذكر في القرآن عن كونه كتابًا منزلًا لكي يثبتوا أنه كتاب منزل، أو ذكرهم لإيمان الصحابة لإثبات صحة النبوة، ويمكن الانتباه دومًا إلى وجودها في خطب الجمعة أو الدروس الدينية العامة.

(1) Argumentum Ad Populum

(2) Appeal to emotion - Wikipedia

(3) Circular reasoning - Wikipedia

٨. مغالطة التعميم المتسرع / الإحصاء المخادع/ قانون الأرقام الصغيرة[1] Hasty Generalization fallacy:

وهي مغالطة غير رسمية منتشرة وتعتمد الوصول إلى حكم عام بناء على معطيات غير كافية تخص عددًا قليلًا لا يغطي كل المتغيرات التي تؤثر في الحكم، وقد يكون هذا التعميم المتسرع مبنيًا على أحداث ظرفية معينة أدت إلى نتائج لا تحدث في المعتاد، أو يكون قد بني على إحصاء ركز على فئة معينة، رغم أنها لا تمثل المجتمع.

من أمثلة التعميم المتسرع الواضحة.. الحكم على المسلمين بالإرهاب رغم أن عدد من يمكن أن يُعتبر إرهابيًّا فعلًا حسب التصنيف السائد لا يمثل إلا نسبة ضئيلة جدًّا من عموم المسلمين، كذلك الحكم بأن كل مظهري الشعائر سيئو الخلق أو يتاجرون بالدين، رغم عدم وجود إحصاء حقيقي يمكن أن يدعم هذا التعميم، وعلى الجانب الآخر يقوم المؤمنون بتعميمات متسرعة مماثلة: كل الملحدين منحرفون أخلاقيًّا، كل الملحدين ألحدوا لكي ينفلتوا، الملحدون ينتهون بالانتحار... إلخ.

٩. مغالطة المؤرخ Historian's fallacy [2]:

وهي مغالطة غير رسمية قوامها الحكم على متخذي القرارات التاريخية في عصور سابقة من خلال معطيات معاصرة، يكثر استخدام هذه المغالطة من قبل الملحدين في الحكم على التاريخ الإسلامي من خلال قيم القرن الواحد والعشرين (لغرض نسف هذا التاريخ)، بالمقابل فإن المؤمنين يعتمدون نفس المغالطة لغرض إسقاط كل القيم المعاصرة على التاريخ الإسلامي وإيجادها فيه.

١٠. مغالطة المصطلحات الرنانة وغير المفهومة / Argument By Prestigious Jargon (Argument By Gibberish (Bafflement)[3]:

كلما زاد استعمال المصطلحات المعقدة الصعبة في كلام المتحدث، فإن بعض المتلقين سيعتقدون أن المتحدث يفهم أكثر ما دام يستخدم هذه المصطلحات التي لا يفهمونها، وهذا

(1) Faulty generalization - Wikipedia

(2) Historian's fallacy - Wikipedia

(3) Argument by Gibberish

بدوره يقود إلى أن ما يقوله لا بد وأن يكون صوابًا، بعض المصطلحات ربما تكون من نحت أو اختراع المتحدث نفسه لكي يزيد من وجاهة الغموض وتأثيره، ورغم أن الملحدين يستخدمون هذه المغالطة أكثر، إلا أن بعض متحدثي الإسلاميين لم يقصروا في استخدامها أبدًا، وغير بعيد عن هذه المغالطة مغالطة المنجز الشخصي Appeal to Accomplishment [1]، التي تعتمد على وجود منجزات شخصية للمتحدث (حاصل على شهادة الدكتوراه في أكثر من تخصص مثلًا) لكي تصل إلى أن هذا يعني أن الفكرة التي يطرحها أفضل من فكرة خصمه، ويتساوى الطرفان في استخدام هذه المغالطة.

١١. مغالطة المعضلة المزيفة False Dilemma/Bifurcation Fallacy [2] أو مغالطة السؤال المركب Complex Question Fallacy [3]:

في هذه المغالطة يتم تقديم سؤال يجبرك على اختيار جواب واحد من بين جوابين، بينما الواقع يستوعب احتمالات أخرى أو على الأقل يتطلب توضيحًا، أيضًا تتضمن المغالطة طرح السؤال على نحو يجبرك على الجواب بـ «نعم» أو «لا» بينما الجوابان يتضمنان مغالطة منطقية لأن السؤال خاطئ في تركيبته، في كل الأحوال السؤال يضمر الوصول لوضعك أمام خيارين (خاطئين).

مثال على ذلك، سؤال: هل تفضل ضرب زوجتك بالعصا أم بيدك؟

السؤال يضمر أنك تقوم بذلك، ويضعك أمام خيارين، جواب (لا هذا ولا ذاك) لا يرد فعلًا على السؤال الذي يحتوي على مغالطة في تركيبته، هذه المغالطة يستخدمها الملحدون بكثرة، خاصة في طرح أسئلة من نوع: هل يستطيع الله أن يخلق إلهًا مثله؟ هل يستطيع الله أن يخلق صخرة لا يقوى على حملها؟ هل يستطيع الله أن ينتحر؟

الأسئلة هذه لو أجبت عنها بنعم (باعتبار أن الله كلي القدرة) فستجد نفسك أمام أجوبة أن هناك إله ثانيًا، أو أنه يموت، أو أنه عاجز عن حمل صخرة، تعالى الله عن كل ذلك.

---

(1) Appeal to accomplishment - Wikipedia

(2) False Dilemma
https://www.logicallyfallacious.com/tools/lp/Bo/LogicalFallacies/94/False-Dilemma

(3) Complex Question Fallacy
https://www.logicallyfallacious.com/tools/lp/Bo/LogicalFallacies/69/Complex-Question-Fallacy

السؤال يتضمن مخالفة للمنطق في تركيبه، وما دام الأمر كذلك فإن مخالفة المنطق أمر ممكن لاحقًا في تبعات السؤال. بعبارة أخرى: يمكن لله أن يخلق صخرة لا يقدر على حملها، ولكنه سيحملها بعد ذلك، لأنه يستطيع أصلًا مخالفة المنطق!

١٢. مغالطة السبب الزائف/ التوالي لا يعني السبب/ Cum Hoc Ergo Propter Hoc Fallacy[1]:

والجملة الأخيرة باللاتينية تعني: ما دام معه، فهو السبب، ومن أشهر الأمثلة على هذه المغالطة ما يقال عن توهم الديك أن الشمس تشرق كل صباح لأنه يصيح، وهكذا فإن مجرد حصول حدث معين مع حدث آخر تزامنًا أو تتاليًا، قد يُوهم بأن الأول هو سبب الثاني.

يستخدم الملحدون هذه المغالطة كثيرًا في الدلالة على علاقة (ترك الدين بالتقدم في الغرب) رغم أن الموضوع أعقد من أن يُفسَّر بسبب واحد، كما يستخدم المؤمنون المغالطة نفسها في أي مشكلة يمر بها الغرب!

* * *

هذه أهم أنماط التفكير والمغالطات التي «تفتح» الطريق نحو الإلحاد، فلننتبه لها، لكل منها، بينما نحن نحاول أن نتفحص الطريق، خطوة خطوة!

---

(1) Correlation does not imply causation - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Correlation_does_not_imply_causation

الملف الأول: وجود الله

الدليل على وجود «من» أوجد العالم

هذه الخطوة هي الأولى حتميًّا في أي نقاش حول موضوع وجود الخالق - عز وجل -، ولأننا في بداية الطريق، فإن النقاش هنا ليس عن «الخالق» بالمعنى الذي نفهمه في الأديان السماوية، بل عن وجود «قوة عاقلة» أوجدت هذا الكون، لهذا فالحديث هنا لن يشير إلى «إله» أو إلى «خلق»، لارتباط هاتين المفردتين بمفاهيم دينية يرفضها الملحدون من ناحية المبدأ.

هدف النقاش في هذا السياق هو الوصول إلى مبدأ وجود «من» أو «ما» صنع هذا العالم وأوجده من العدم، لأن هذه الخطوة هي الفاصلة في كل ما يلي من نقاشات، وهي الأساس الذي يبنى عليه أو يتوقف عنده الأمر. بعبارة أخرى: لو وصلنا إلى ما نتفق عليه من وجود «صانع» لهذا العالم، حتى لو لم نقل عنه إنه إله أو خالق في هذه المرحلة، فهناك ما هو مشترك في هذه النقطة الأولية، بحيث يمكن البناء عليه ومواصلة النقاش.

أما في حالة عدم الإقرار بوجود «قوة عاقلة» صنعت هذا العالم أو أوجدته، فلا معنى لمواصلة النقاش أو البناء عليه، هذا طريق مسدود من هذه الجهة، ولا داعي لهدر أي جهد فيه.

* * *

عندما أنشأتُ مجموعة على الفيس بوك لغرض جمع أسباب وحجج الملحدين، وجهتُ دعوة عامة للمشاركة فيها، وكان من المنطقي أن يقوم بعض الأخوة بدعوة أصدقائهم الملحدين للمجموعة.. أحد المشاركين كتب منشورًا في المجموعة قال إنه دعا صديقه الملحد إلى المجموعة ليشارك بأسباب إلحاده، ولكن صديقه قال إننا نحن من علينا أن نجد أسبابًا للإيمان بالله، وليس هو من عليه أن يجد أسبابًا للإلحاد، قال ببساطة: إن الدليل هو على من يدعي وجود شيء، وليس على من ينكره. كلامه يبدو للوهلة الأولى منطقيًّا، وهو ما يسمى فلسفيًّا بعبء الدليل Burden of proof والذي يعني أن أي ادعاء يستلزم أن يقدم المدعي أدلته وبراهينه على هذا الادعاء، وهناك

حديث نبوي شريف، عومل كقاعدة فقهية، يؤيد هذا المنطق: «البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر»[1].

والفكرة بسيطة ومتماسكة ومنطقها واضح:

إذا قلت إني شاهدت نيزكًا يسقط من السماء في الليلة الماضية، عليَّ أن أثبت ذلك بدليل، أما من لم يشاهد النيزك - كان نائمًا مثلًا - فهو ليس مطالبًا بشيء، هذه القاعدة بالنسبة للملحد تمضي هكذا:

«أنتم تقولون إن الله موجود، عليكم إثبات ذلك، عبء الدليل يقع عليكم، أنا ليس عليَّ شيء في هذا».

هذه الفكرة يمكن اعتبارها العمود الفقري لحجج الملحدين، وقد كان أن أغلب الردود على الملحدين والإلحاد سلمت بأن عبء الدليل يجب أن يقع عليها (حسب المنطق الذي أقررنا بسلامته)، وهكذا انطلق البحث عن أدلة وجود الله وتقديمها، وجلس الملحدون كما لو كانوا في لجنة التحكيم يقررون صلاحية هذا الدليل أو ذاك ويشيرون إلى ضعف هنا أو ثغرة هناك (كما يرون الأمور طبعًا).

لكن ربما الاستسلام لهذا الأمر يحتاج إلى إعادة نظر، ليس بالضرورة لأن الأدلة المقدمة على وجود الله تشكو من مشكلة، بل لأن عبء الدليل يجب ألا يكون ابتداء على من يؤمن بوجود الله، بل يجب أن يكون على من ينفي وجوده!

كيف؟ وقد سلمنا بصحة ومنطقية فكرة أن الدليل يجب أن يكون واجب من يدعي وجود شيء، وليس من ينكره؟

نعم، هذا صحيح في نوع معين من الظروف التي تحتم أن يكون الدليل من مسؤولية المدعي، لكن ثمة حالات أخرى كثيرة، عبء الدليل فيها يكون على من ينكر، فلننس أنني أتحدث الآن عن وجود الخالق أو الإله أو منكري ذلك، أنا الآن أتحدث عن المبدأ: مبدأ أن عبء الدليل على المثبت.

* * *

(١) سنن الدارقطني ٣١٩٠.

لو أنني قلت إن نيزكًا سقط ليلة أمس، لكان عليَّ أن أثبت بالدليل ما قلت، لكن لو قلت إن الشمس غابت ليلة أمس، لما طلب أحد مني الدليل، لأن هذا أمر يحدث كل ليلة، وهو جزء مما تعود عليه الناس، بل جزء مما تشكل عليه وعيهم.

المطالبة بدليل على غياب الشمس ليلة أمس سيكون أمرًا غير منطقي، طبعًا لو طالبني أحد لكان بإمكاني أن أجلب شهودًا معي، وربما يمكن للسجلات الفلكية أن تكون أدلة دامغة في الأمر، لكن المطالبة بالدليل بحد ذاتها أمر غير منطقي.

الأهم من هذا، **لو أن المقابل أنكر غياب الشمس ليلة أمس، فسيكون عليه بالتأكيد أن يأتي بدليله**، عبء الدليل هنا عليه حتمًا وبلا شك، ولا معنى لأن أجمع له الأدلة قبل أن يقدم هو أدلة الغياب الذي يدعيه، بل إن البحث عن أدلة للوجود في هذه الحالة وتقديمها قبل أن يقدم المنكر أدلته ستكون رفعًا لمقام دعواه، الشمس تشرق وتغيب كل يوم، وأنت من ينكر ذلك، وعليك أن تقدم الدليل.

هل من أمثلة أخرى؟

* * *

قلت أنا: - على سبيل المثال - وأثناء حديثي عن حضارة الفراعنة، أن الفراعنة كانوا يستنشقون الأوكسجين، مثلنا جميعًا.

تقدم أحدهم معترضًا: ما دليلك على ما تقول؟ ربما كان هناك غاز آخر في الهواء، وكان الفراعنة قد تكيفوا معه؟ هناك على الأقل فرصة في أن يكون ذلك قد حدث.

لا دليل عندي ولست بحاجة لدليل، الفراعنة كانوا يستنشقون الأوكسجين كأمر (بديهي)، هل يمكن أن يكون هناك احتمال آخر؟ أن يكون هناك غاز آخر آنذاك تنفسه الفراعنة، وتكيفت أعضاؤهم التنفسية معه؟

احتمال بعيد جدًا وغالبًا منعدم، ولكن من يدعي أن **الأوكسجين لم يكن موجودًا** في وقت الفراعنة عليه هو أن يقدم أدلته، وليس من يقول بوجوده، رغم إمكانية العثور على أدلة كثيرة تؤكد أن الأوكسجين كان موجودًا وقت الفراعنة، وأن أجهزتهم التنفسية لم تكن تختلف عن أجهزتنا.

لكن هذا النقاش خارج الصدد، هو إضاعة وقت فحسب، تنفس الفراعنة للأوكسجين أمر بديهي، مثل شروق الشمس وغروبها كل يوم وليلة.

* * *

لو جاء أحدهم ليقول لك: «إن كل الواقع الإنساني الذي نعيش فيه مجرد وهم، لا يوجد أنت ولا يوجد أنا ولا يوجد هو، كل شيء وهم وخيال حتى ما يقوله هو وما تقوله أنت».

لو اعترضت عليه وقلت إن الواقع موجود حقيقة، فأنت لست مطالبًا بتقديم دليل، هو **مدعي النفي**، عليه أن يقدم الدليل على أن كل شيء وهم.

إذن، ليس دومًا عبء الدليل على من يقول بوجود شيء ما، أحيانًا العبء يقع على من ينفيه.

* * *

لكن ما الذي يجمع الأمثلة التي مرت ويميزها عن حالات «عبء الدليل يقع على من يقول بوجود شيء ما»؟

ما يميزها هو أنها كلها تتحدث عن أمور بديهية؛ الليل والنهار، الأوكسجين، الوجود.. كلها **أمور بديهية، لا تحتاج إلى دليل لإثباتها**، ما يحتاج إلى دليل هو أولًا الخارج عن البديهة أو **المعتاد**، مثل سقوط نيزك ليلة أمس أو أن الفراعنة كانوا يتنفسون غازًا غير الأوكسجين.

أما الفئة الثانية من الحوادث، الخاضعة إلى عبء الدليل، فهي الحوادث التي يمكن أن تحدث ويمكن أن لا تحدث في الوقت نفسه، أي ما ليس بديهيًا بالضرورة، كأن يكون عمر قد جاء أو زيد قد ذهب، أو أن حريقًا قد شب أو جريمة قد وقعت في مكان قريب أو أن فلانًا تزوج وأنجب.

أمور تحدث على نحو طبيعي لكن حدوثها ليس لازمًا ولا بديهيًا، ولأن أغلب الحوادث هي من الصنف الثاني، فإن هذا يجعل قاعدة «عبء الدليل على المدعي» تبدو كما لو كانت قاعدة كونية تصلح للاستخدام في كل الأمثلة، لكن **البديهيات في الحياة لا تحتاج إلى دليل**.

* * *

ما المقصود بالبديهيات؟

الكلمة يمكن أن تكون مطاطة جدًا وغير خاضعة لتعريف واضح، لكن وضع مواصفات لهذه البديهيات، أو الحقائق ذاتية البرهان Self-evident truths سيجعل المعنى أوضح في الأذهان:

أولًا: أنها عالمية: ليست خاصة بحضارة واحدة، بل موجودة في كل مكان وعبر الحضارات، موجودة أينما كان هناك إنسان.

ثانيًا: **أنها لا تُعلَّم**: لا تنتقل عبر تعليمها من جيل لآخر، بل تكون موجودة عبر الاستبطان الطبيعي والحواس، أي أنها ليست جزءًا من عملية الحصول على المعرفة عبر التلقين.

ثالثًا: **أنها طبيعية**: تعرف عبر العمل الطبيعي للعقل البشري.

رابعًا: **أنها بسيطة**: هي التفسير الأبسط والأقل تعقيدا للعالم[1].

حقائق تنطبق عليها هذه المواصفات ليست كثيرة بالتأكيد، وهي قد لا تأتي إلى الأذهان بسهولة، لأن بديهيتها تحديدًا تجعلها غارقة في اعتيادنا وفي التعامل معها على أنها أمور معروفة ومضمونة بالضرورة، مثل سمكة لا تعرف أنها تعيش في الماء، لأنها لا تعرف أن هناك شيئًا أصلًا غيره.

من ضمن هذه البديهيات:

١. اتساق الطبيعة uniformity of Nature: القوانين التي تُسيِّر الطبيعة تعمل في أي مكان في العالم / الكون، وكانت كذلك دومًا.

٢. قانون السببية law of causality : علاقة السبب والنتيجة، وهي العلاقة المباشرة التي تربط بين الأحداث والأجسام والمتغيرات المختلفة، وأيضًا الحالات المختلفة للأجسام، ويمكن ملاحظة هذه العلاقة في كل ما يدور حولنا، من غليان الماء بارتفاع درجة الحرارة إلى تفرق كرات البلياردو بضربة العصا إلى ظواهر الطبيعة، مثل تأثير جاذبية القمر على المد.

٣. حقيقة الماضي: حقيقة أنه حدث فعلًا، ولم يكن وهمًا أو خيالًا.

٤. صحة المنطق: أبسط القواعد المنطقية لا يمكن البرهنة على صحتها إلا لأنها بديهية.

مثلًا: خالد بن الوليد كان إما عربيًّا أو كرديًّا، خالد بن الوليد لم يكن كرديًّا، إذن خالد بن الوليد كان عربيًّا.

صحة هذه النتيجة لا تحتاج إلى أي برهان أو دليل، إنها بديهة، حقيقة ذاتية الإثبات.

٥. حقيقة وجود عقول أخرى، وعي إنساني آخر لأشخاص آخرين، غير العقل الفردي والوعي الشخصي للفرد الذي يفكر بهذه الحقيقة.

٦. حقيقة وجود العالم الخارجي، خارج وعينا الشخصي.

---

(1) The Divine Reality: God, Islam & The Mirage Of Atheism Hamza Andreas Tzortzis.FB Publishing. page 65

كل هذه حقائق تنطبق عليها المواصفات آنفة الذكر، وهي عالمية لا تنتقل عبر التعلم، تُعرف طبيعيًا بالعقل البشري، إنها بسيطة، غير معقدة.

* * *

حسنًا.. ما علاقة كل هذا بما نتحدث عنه، عن قول الملحدين بأن من يدعي وجود الله هو الذي عليه أن يأتي بالدليل؟

وصلنا الآن إلى أن هذه القاعدة «عبء إثبات الدليل يقع على المدعي» ليست مطلقة، وأنها لا تعمل مع البديهيات، مع الحقائق ذاتية الإثبات.

هل أريد أن نقول هنا إن الله بديهة؟

إن وجوده حقيقة ذاتية الإثبات؟

لا. ليس هذا بالضبط، بل أتحدث عن بديهة أخرى، بديهة أن كل شيء له سبب، كل شيء له مُحدِث.

هذه البديهة حاضرة في حياتنا اليومية على نحو يجعلنا غارقين تمامًا في بداهتها وفي كونها جزءًا من كل ما نفعل وكل ما نرى ونتعامل معه في حياته، كل شيء يحدث يكون بسبب فعل مُحدِث له، لا شيء يحدث دون مُسَبِّب، دون سبب، بغض النظر عن «كنه» هذا السبب وطبيعته.

* * *

لا يحتاج الأمر إلى فيلسوف لتفسير ما هو بديهي ومسلم به، وكما مع كل الحقائق ذاتية البرهان، منذ أن وعى الإنسان وجوده ووجود العالم الذي هو فيه، وهو يدرك أن هناك من أوجده، وأوجد هذا العالم، إدراكه هذا ليس نتيجة وحي أو تلقين أو نظريات علمية توصل لها بعد بحث شاق لسنوات عديدة، بل هو نتيجة عقله البديهي، حسه العام بمنطق الأشياء وتداخلاتها.

يذهب الإنسان إلى الغابة أو إلى الأحراش، فيجد وسطها بيتًا خشبيًا منسقًا بترتيب، يدرك فورًا أن هناك من صنع هذا حتمًا، لا يمكن أن يكون هذا البيت قد وُجِدَ هكذا دون بناء، كذلك الغابة، من باب أولى، لا يمكن أن تكون قد وُجِدَت دون صانع لها.

يذهب إنسان إلى الصحراء، في الطريق يجد دار استراحة، أو نُزلًا صغيرًا، لا يمكن له أن يتصور ولو للحظة أن النُزل وُجِدَ هكذا، دون أن يكون هناك من بناه، كذلك الصحراء ورمالها

وكثبانها وكل النفط الموجود تحتها، لا يمكن أن تكون قد وُجِدَت هكذا من دون صانع.

ترى سيارة حديثة فاخرة، فتبحث عن اسم صانعها فورًا عبر «العلامة المميزة» له، ولا تتوقع أن تكون قد وُجِدَت هكذا دون صانع، كذلك الحديد الذي صنعت منه السيارة، وكل ما استخدم فيها من مواد أولية، وكذلك الطاقة التي تُسَيِّرها، لا يمكن أن يكون كل هذا قد وُجِدَ هكذا.

تدخل إلى بيتك فتجد الباب مكسورًا، والبيت قد بُعثرت محتوياته، وفُقِد بعض الثمين منها، تتصل بالشرطة ليحققوا في الأمر للوصول للفاعل، وأنت تعرف أن ثمة مَن فعل هذا، لا يمكن أن يكون الحادث قد حدث «هكذا» دون فاعل.

ولو ذهب رواد الفضاء إلى كوكب ما، فوجدوا فيه مركبة ومعدات، فلا بد أن يكون هناك من صنعها ووضعها هناك، سواء كان الفاعل مخلوقات فضائية (مفترضة) أو بشرًا من الأرض احتفظوا بسرية مهمتهم، لكن لا بد أن يكون هناك من صنعها ووضعها هناك، الانشغال بتفسير ماهية هذه الكائنات وغموض هدفها فيما فعلته لن يغير من هذه الحقيقة.

ثمة صانع لكل شيء..

ثمة من أحدث هذا كله..

العقل البديهي، الطبيعي، لن يتعثر بهذا، بل لن يقف عنده أصلًا، الأمر كالتنفس، كالشهيق والزفير، لا يمكنك أن تفكر فيه، إنه يحدث فحسب، كذلك إدراكك هذا، **لا بد من وجود فاعل لكل فعل، وخالق لكل ما هو موجود..**

محاولة إنكار هذا «الشعور»، هذا الفهم البديهي* [1]، عبث.

* * *

لا أقول هنا إن وجود الله هو من المسلمات والبديهيات التي لا تحتاج إلى دليل، بل أقول إن وجود مسبب، فاعل، صانع لهذا العالم/ الكون، بغض النظر عن اسمه أو هيئته أو شكله، هو

---

(١) • يجب أن أشير هنا إلى العالم جستين باريت Justin L. Barret - الذي كان باحثًا في جامعة أوكسفورد ويرأس الآن مركزًا بحثيًا عن النمو البشري تابع لجامعة فلر للدراسات العليا، ويعتبر من مؤسسي علم الإدراك الديني Cognitive Science of Religion، تتركز دراسات وأبحاث باريت على العقل الإنساني وعلاقته بالإيمان والتدين، وخلاصة أبحاثه تركز على أن العقل الإنساني قد تطور ليكون مهيأً لتقبل الإيمان الديني، لديه محاضرات كثيرة على اليوتيوب يشرح نظريته ويقدم أدلته عليها ولديه ايضا كتاب مهم في هذا المجال هو Born Believers: The Science of Childrens Religious Belief

من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى دليل والتي لا تنطبق عليها قاعدة «عبء إثبات الدليل يقع على المدعي».

هذا الأمر.. بديهية وجود مسبب لحدوث العالم، بغض النظر عن تسميتنا لهذا المسبب/ الصانع/ المحدث، هو الذي يجعلنا نرفض أن نتعامل مع مبدأ (عبء الدليل) بالطريقة التي يريد غير المؤمنين جر النقاش إليها.

الأخ الملحد رفض الانضمام إلى مجموعة «أسباب الإلحاد»، لأنه يقول إنه يريد منا نحن دليلًا على وجود الله، مُلوِّحًا بمبدأ «عبء إثبات الدليل يقع على المدعي»، لكن ماذا لو كان اسم المجموعة «أسباب عدم الإيمان بوجود العالم؟» سيكون رده مختلفًا بالتأكيد، بل ربما سيقول إنه لا ينكر وجود العالم، لكنه لا يرى أي علاقة لهذه الأسباب بموضوع الإلحاد أو الإيمان بالله.

لا بأس، لا نتحدث هنا عن أي صورة تقليدية للإله كما جاءت في الكتب السماوية أو غيرها، نتحدث فقط عن وجود «أسباب» لوجود هذا العالم، ويمكننا أن نعيد صياغة الفكرة بإعادتها إلى مبادئها الأولية الأكثر بساطة لتكون مناسبة أكثر:

بما أن العالم موجود، فإننا نؤمن أن هناك (من / ما) أوجده، دون تحديد لهوية الـ (من/ ما) أوجده.

هل الاعتراض على هذه المقدمة، ونتيجتها أمر يتصادم مع البديهيات والمسلمات الإنسانية، مع الحقائق ذاتية البرهان؟

العالم موجود لا سبيل لإنكار ذلك، هذا خرق للبديهة، لما هو معلوم بالضرورة دون الحاجة لدليل، إنكار النتيجة، أن يكون هنا (من / ما) أوجده، سيكون إنكارًا لمُسَلَّمة أخرى، لبديهة أخرى، لحقيقة أخرى ذاتية البرهان: منظومة السببية التي نعيشها كل يوم والتي نمارس حياتنا ونتعلم من خلالها، والتي يتقدم العلم والعالم من خلال فهمها وسبر أغوارها، لن يكون إنكار ذلك سهلًا، لكن ربما ثمة مخارج جانبية تؤمن تجنبًا مؤقتًا من مواجهة نتيجة المقدمة التي بنينا عليها..

العالم موجود، إذن هناك (من / ما) أوجده..

العالم موجود، لكن ربما هناك مخارج جانبية

سيكون هناك عدة مخارج جانبية يستخدمها الكثير من الأخوة الملحدين لضمان عدم الوصول إلى نتيجة (هناك من / ما أوجد هذا العالم)..

المخرج الأول: العالم أزلي، كان دائمًا موجودًا:

كون العالم قديمًا بلا بداية يعني ببساطة أنه ليس بحاجة إلى من أوجده، فكرة اللا نهاية هذه لا يستطيع العقل الإنساني تخيلها أو إمساكها، وليست كل فكرة لا يستطيع العقل البشري تخيلها أو إمساكها خاطئة بالضرورة، لكن على الأقل ما دامت الفكرة متعلقة بالطبيعة المادية للعالم من حولنا، فإن عدم «إمساكها بالعقل» أو عدم تقبلها بالعقل - الذي له قدرة كبيرة على التعامل مع الماديات - لا بد وأن يشير إلى وجود مشكلة في فكرة اللا نهاية هذه، الفكرة التي لم يتعامل معها بشر قط حتى تاريخه.

هذه الفكرة أراها شخصيًا مرفوضة بداهة، كما بعض الأفكار مقبولة بداهة، وكما بعض الحقائق ذاتية البرهان، لا تحتاج إلى دليل، فبعض الأفكار أقرب ما تكون إلى كذلك ولكن على الجانب الآخر: الرفض، ويمكن تسميتها بـ «أفكار ذاتية الدحض».

لكن فيلسوفًا مهمًا ومؤثرًا مثل أرسطو، كان أول القائلين بقِدَم العالم (على الأقل حسب ما وصلنا)، وكان هذا كافيًا ليجعل الفكرة مطروحة وبقوة، بل ولتسود فلسفيًّا لفترات طويلة، ولتكون واحدة من أهم الخلافات ومناطق الصراع المرير بين الفلاسفة والمتكلمين واللاهوتيين.

فكرة أرسطو عن قِدَم العالم قائمة على ثلاثة أسس: المادة والحركة والزمان، وهو باختصار يرى أن العالم كان دائمًا موجودًا مع الله، وأن الله هو المحرك الأول لأي حركة تحدث في هذا العالم، ولكنه ليس خالقه.

فكرة «شيء بلا بداية ولا نهاية» غريبة على العقل البشري، ولعل هذا سبب تأخرها في الظهور فلسفيًّا إلى حين أرسطو، حيث خالف بهذه الفكر السائد قبله، هل يمكننا أن نقول هنا إنها مرفوضة بداهة؟ يمكنني أن أقول إن من بديهيات الإنسان ومسلماته فكرة وجود بداية ونهاية.

الرد على فكرة قِدَم العالم استهلك الكثير من جهد المتكلمين، ولعل أبرز ما قُدِّمَ كان من قبل الإمام أبو حامد الغزالي في «تهافت الفلاسفة»، وهي الإضافة التي انتشرت وسادت عند المعارضين لفكرة قِدَم العالم، ولا تزال تستخدم حتى اليوم في كل الأوساط المهتمة بالإلهيات، حيث قدم ويليام لين كريغ[١] صياغة حديثة لما قدمه الغزالي، وصارت تعرف في الأوساط الأكاديمية الغربية بالـ Kalam Cosmological Argument [٢] نسبة إلى علم الكلام.

ما يهمنا هنا من هذه المناقشة هو ما يمكن تلخيصه بفكرة أنه لو كان العالم قديمًا - بلا بداية - كما يدعي الفلاسفة لما وصلنا إلى يومنا هذا، بعبارة أخرى: لو كان الماضي هو جمع لما يدعون من تتالٍ لا نهائي من الأحداث، لما كانت هذه الأحداث قد وصلت إلى النقطة الحاضرة، لأنها ستستغرق وقتًا لا نهائيًا إلى أن تصل إلى ذلك.

الفكرة ببساطة هي أن جمع أعداد محدودة من أي شيء سينتهي إلى عدد محدود من أي شيء مهما كثر، لن نصل إلى العدد غير المحدود - اللا نهائي - مهما استغرق الوقت، لأن المحدود عندما يضاف إلى محدود يبقى محدودًا، ولا يصل إلى اللا نهائي الذي يبدو هنا مجرد مفهوم لما لا يمكن الوصول له، بعبارة أخرى: كل ما يمكن تقسيمه إلى أجزاء، لا يمكن أن يكون «لا نهائيًا[٣]».

وما دام الزمن، قد وصل إلى نقطة منتهية (هي اللحظة الراهنة التي تشعر بها الآن)، فهذا لا يمكن أن يكون قد حدث دون أن يكون هناك بداية لهذا، ولعل المثال الشهير المستخدم للتعبير عن لا معقولية «فكرة اللا نهاية» هو مثال «مفارقة فندق هلبرت Hilbert Hotel paradox»[٤]، والفندق هنا هو فندق افتراضي مكون من عدد لا نهائي من الغرف، وهو مشغول بعدد لا نهائي من النزلاء، وفي المثال أن هناك نزيلًا جديدًا قد جاء يطلب غرفة، ولكن كل الغرف مشغولة كما أسلفنا، فأين يمكن وضع النزيل الجديد؟

يقوم مدير الفندق هنا بوضع كل نزيل في الغرفة التالية له، النزيل في الغرفة رقم واحد يذهب إلى الغرفة رقم ٢، ونزيل الغرفة ٣ يذهب إلى الغرفة ٤ وهكذا، وهناك ستكون الغرفة الأولى قد جهزت ليشغلها النزيل الجديد.

---

(١) وليم لاين كريغ William Lane Craig(١٩٤٩- ...) فيلسوف تحليلي ولاهوتي معروف.

(2) The Kalam Cosmological Argument, William L. Craig, 2000. Wipf and Stock Publishers

(3) Forming an Actual Infinite by Successive Addition | Reasonable Faith
https://www.reasonablefaith.org/writings/question-answer/forming-an-actual-infinite-by-successive-addition

(4) Hilbert's paradox of the Grand Hotel - Wikipedia

لكن ماذا لو جاء عدد لا نهائي من النزلاء الجدد؟

هنا سيقوم مدير الفندق بوضع كل نزيل في الغرفة التي تحمل الرقم المضاعف لرقم غرفته الأصلية، وهكذا فإن نزيل الغرفة رقم واحد سيذهب إلى الغرفة ٢ و نزيل الغرفة ٢ سيذهب إلى الغرفة ٤ ونزيل الغرفة ٣ سيذهب إلى الغرفة ٦ وهكذا...

ماذا سيحدث هنا؟

سننتهي بعدد لا نهائي من الغرف «فردية الرقم» التي لا يشغلها أحد، لأن الأرقام الفردية لا تنتج عن مضاعفة أي رقم، لكن مجرد وجود غرف لا نهائية العدد وفارغة من غير نزلاء، يتعارض أساسًا مع كون الفندق مليئًا بعدد غرف لا نهائي مشغولة بعدد لا نهائي من النزلاء، وهذا كله يصب في لا معقولية فكرة اللا نهاية.

ويعبر حمزة تزوترس عن نفس الأمر بمثال قطع الدومينو المسلسلة على نحو بحيث يكون سقوطها متتاليًا الواحدة بعد الأخرى منذ أن تبدأ أول قطعة دومينو بالسقوط، إذا كان عدد قطع الدومينو المتساقطة لا محدودًا لا نهائيًا، وليس هناك بداية لقطعة دومينو أولى تبدأ عملية السقوط، فإن سقوط القطع السابقة سيستغرق وقتًا لا نهائيًا، وبالتالي لن تصل عملية السقوط المتتالي إلى «قطعة الدومينو» الأخيرة إلى اللحظة الراهنة.

الفكرة قد تبدو غير واضحة قليلًا، وذلك لأنها تنقض فكرة أشد غموضًا منها، قوة الفكرة هي في بداهتها، أنت تعرف أن كل ما تعيشه له بداية وله نهاية، عقلك لن يستوعب فكرة اللا نهاية التي تبدو بالنسبة لك مجرد مجاز لما لا يمكن الوصول له.

هل لا تبدو البداهة واضحة لك؟

هل تقول إنه ربما كان العالم أزليًا كما قال أرسطو، بل وكما أيده في ذلك كثيرون (من ضمنهم ابن رشد وابن سينا على سبيل المثال)؟

حسنًا، للأسف الموضوع حسم مؤخرًا بالنفي، أرسطو مهم وابن رشد مهم ولكن، كأي بشر، هما معرضان للخطأ..

* * *

كيف حُسِم الأمر؟

بالعلم: العلم حسم الأمر وأيّد البداهة، العالم ليس قديمًا، هناك نقطة معينة بدأ فيها الزمن وبدأت فيها تكات الساعة وبدأ فيها «الكون» كله، قبل أن يتم تحديد عُمر هذا الكون، قدمت فيزياء الديناميكا الحرارية (الثيرموداينامكس)، في قانونها الثاني، الدليل على أن الكون ليس أزليًا، ينص القانون الثاني على أن الانثروبي الكلية لنظام معزول (حيث لا تدخل الطاقة أو المادة لهذا النظام ولا تخرج منه) يمكنها أن تزداد مع الوقت، في حين أنها تظل ثابتة في حالة مثالية (حالة توازن) أو تمر بعملية انعكاسية reversible process.[1]

زيادة الانثروبي تعبر عن المرور بعملية لا انعكاسية irreversible process.

هذا القانون كان نتيجة تجريبية empirical finding في البداية، لكنه أصبح لاحقًا من مسلمات فيزياء الديناميكا الحرارية.

ما علاقة هذا القانون المسلم به بعمر الكون؟

يتضمن هذا القانون، ضمن ما يتضمنه من نتائج، أن الطاقة المستخدمة في الكون تقل باستمرار، مع كل لحظة الكون يستهلك جزءًا من هذه الطاقة كما تستهلك السيارة الوقود الذي فيها.

ما علاقة هذا بعمر الكون وبدايته أو أزليته؟

القانون الأول من الديناميكا الحرارية ينص على أن الطاقة في الكون محددة (كما الوقود في سيارتك محدد)، والقانون الثاني يقول إن الطاقة تقل باستمرار (كما يقل الوقود في سيارتك ما دامت تعمل).

ببساطة هذا يجعلنا نصل إلى هذا السؤال: هل كانت سيارتك ستعمل حتى الآن، لو أنها كانت تعمل منذ الأزل؟

كان وقودها سينفد منذ زمن طويل، لكنه يقل ولم ينفد بعد، وهذا يعني أن السيارة لم تعمل منذ الأزل، كان هناك وقت ما بدأت فيه هذه السيارة بالعمل، وكذلك الكون، ما دام يستهلك طاقته باستمرار، وما دامت طاقته محددة، وليست لا نهائية، فهذا يعني أنه كان ثمة وقت بدأ فيه كل هذا[2].

---

(1) Second law of thermodynamics - Wikipedia

(2) Second Law of Thermodynamics; Proof of God - MisunderstoodGodBlog

https://misunderstoodgod.wordpress.com/2013/07/02/second-law-of-thermodynamics-and-god/

فلنتذكر: هذه القوانين مسلمات فيزيائية[1]؛ ليست نظريات تقدم تفسيرات معينة لظواهر كونية، ولا ملاحظات قابلة للتعديل، هي مسلمات مبنية على ملاحظات مختبرية.

ولنتذكر أيضًا: نحن لا نتحدث هنا عن وجود الله، نتحدث عن أن للكون بداية.. فقط.

ولا نتحدث بأي شكل من الأشكال عن إعجاز علمي أو عن ربط لما سبق بآيات قرآنية، نتحدث عن حسم العلم لموضوع شغل الفلاسفة والمتكلمين: هل للكون بداية؟

اعتبر الموضوع بديهيًّا، لكن قد لا يتفق الكل على ذلك، فجاء العلم ليثبت البداهة.

* * *

بعد عدة عقود من إعلان القانون الثاني للديناميكا الحرارية، حدثت عدة فتوحات علمية، جعلت العلم قادرًا على تحديد متى بدأ الكون، وليس فقط قادراً على الإجابة عن سؤال: هل كانت له بداية؟

بدأ الأمر في ١٩١٥ عندما قدم ألبرت آينشتاين النظرية العامة في النسبية، وهنا صار يمكن الحديث لأول مرة - عبر هذه النظرية - عن الزمن بطريقة مختلفة عن كل ما سبق، حيث يختلط الزمان والمكان في بُعد جديد مختلف أطلق عليه: «الزمكان».

النظرية العامة تضمنت عشر معادلات رياضية تصف تداخلات الجاذبية والزمكان والكتلة والطاقة.

خلال سنوات، عمل كل من الكساندر فريدمان Alexander Friedmann، وجورج ليمتر[2] George Lemaitre على معادلات آينشتاين ووصلا إلى نتيجة: لو صدقت نظرية آينشتاين، فإن الكون سيكون في حالة تمدد مستمر.

في عام ١٩٢٩ اكتشف ادوين هابل Edwin Hubble، عبر التلسكوب، صحة هذا التنبؤ، الكون كان يتمدد فعلاً، المجرات كانت تبتعد عنا (أي عن مجرة درب التبانة) بسرعة تتناسب طرديًّا مع بُعدها عنا، الآن لم يعد الأمر نظريًّا وعبر معادلات رياضية، أصبح بالتلسكوب، بالتجربة والقياس، وكان التمدد المستمر للكون، يعني أنه كان ثمة بداية له، في نقطة ما، محددة.

---

(1) Stephen Hawking: The Beginning of Time
http://www.hawking.org.uk/the-beginning-of-time.html

(٢) جورج ليمتر (١٨٩٥ - ١٩٦٦) هو عالم فلك وكاهن كاثوليكي بلجيكي وهو أول من اقترح ما أطلق عليه لاحقا نظرية الإنفجار العظيم.

وجعل هذا من النموذج الكوني الذي قدمه جورج ليمتر، والذي سُمي أولًا نموذج الذرة الأولى، من ثم نموذج الانفجار العظيم Big Bang هو النموذج الأكثر قبولًا وصمودًا في تفسير نشوء الكون، وهو النموذج الذي يقترح أن الكون قد بدأ من نقطة شديدة الكثافة (يقال إنها لا نهائية الكثافة)، ضمت كل كتلة الكون وكل الزمكان، ثم حدث ما يعرف بالانفجار العظيم، وبدأ عداد الزمن بالعمل منذ تلك اللحظة.

كان ذلك منذ ١٤ مليار سنة تقريبًا، تم تحديد هذا الرقم والتأكد منه عبر قياسات علمية مخبرية مباشرة (صور من أقمار صناعية، من تلسكوبات عملاقة، من قياس لدرجات حرارة، إشعاع كوني...)، تتناسق هذه المعطيات وتدعم النموذج الكوني الذي تقدمه نظرية الانفجار العظيم.

نظرية الانفجار العظيم على العموم ليست الوحيدة ولا نموذجها هو الوحيد لتفسير نشوء الكون، هناك نماذج أخرى كثيرة[١]، من ضمنها نماذج تقول إن الكون كان دومًا هناك، بلا بداية، لكن هذه النماذج لم تصمد مع الوقت، ولم تستطع أن تقدم تفسيرًا لكثير من المعطيات المعارضة[٢].

قد تتغير النظريات أو تتعرض إلى تغيير أو تحديث أو حتى إلى بعض الدحض في أجزائها، لكن هذا لن يغير من حقيقة أن الكون قد بدأ من نقطة متناهية في الصغر، وأن ثمة بداية لكل هذا.

في عام ٢٠٠٣، قدم ثلاثة علماء مهمون، هم آرفند بورد Arvind Borde آليكساندر فيلكين Alexander Vilenkin وآلان غوث Alan Guth دراسة مهمة[٣] عرفت لاحقًا بأسمائهم مجتمعين BVG Theorum

خلصت الدراسة إلى أن أي نموذج كوني أزلي (غير تمددي / بلا بداية) يحتاج في تفسيره إلى فيزياء أخرى غير الفيزياء الحالية[٤].

* * *

(1) POP Goes The Universe
https://physics.princeton.edu/~cosmo/sciam/assets/pdfs/SciAm.pdf

(2) A Cosmic Controversy - Scientific American Blog Network
https://blogs.scientificamerican.com/observations/a-cosmic-controversy/

(3) Inflationary spacetimes are not past- complete , Borde,Guth & Vilenkin 2003
https://arxiv.org/pdf/gr-qc/0110012v2.pdf

(4) The Beginning of the Universe | Articles | Inference: International Review of Science
https://inference-review.com/article/the-beginning-of-the-universe

فلنعد ترتيب ما قلناه الآن:

أولًا: العالم موجود وحقيقي (حدسًا وعقلًا، وعلمًا...).

ثانيًا: العالم له بداية (حدسًا، وعلمًا).

ثالثًا: هناك من/ ما أوجده.

المخرج الأول الذي يحاول الأخوة الملحدون من خلاله الخروج من هذه المتسلسلة هو القول بأن العالم لم يبدأ، العالم أزلي، العالم كان دومًا هناك، سواء كان هذا القول مدعومًا بأرسطو أو ببرتراند رسل أو بمعتقدات هندوسية..

حسنًا، رغم أن العقل الحدسي سيخبرك أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا، بالضبط مثلما أن دخولك قاعة السينما بعد بداية الفيلم وخروجك قبل نهايته لا يعني أن الفيلم كان يعرض منذ الأزل، لكن العقل الحدسي يعيش أقل فترات ازدهاره حاليًا، لذا لا مفر من أن نلتفت صوب «العلم» ليقول ما يعرفه حتى الآن بهذا الخصوص.

حتى الآن كل ما يقوله العلم يتفق مع أن للكون بداية، لا يوجد أي دليل يدعم فكرة أزلية الكون، أو أنه كان دومًا هناك، كل الأدلة تقول إن للكون بداية، لذا يغلق هذا المخرج الطريق أمام المتهرب من الوصول إلى نتيجة: هناك (من / ما) أوجد الكون.

المخرج الثاني: العالم نشأ «هكذا» من «اللاشيء»

يحاول بعض الأخوة الملحدين تجنب الوصول إلى نتيجة «هناك من أوجد الكون» بالقول إن الكون يمكن أن يكون قد نشأ «هكذا» (just popped out)، ظهر فجأة مما يسمونه «الفراغ» أو «العدم» أو «اللا شيء».

حقًا؟

يؤمن بهذا كثيرون، ومن ضمنهم علماء فيزياء وفلك مهمون، مثل ستيفين هوكنغ Stephen Hawking

لورنس كراوس Lawrence M. Krauss[1] وسواهم، وبعضهم يعبر عن هذا بكون الكون قد خلق نفسه بنفسه.

(1) A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing: Lawrence M. Krauss, Richard Dawkins:

كيف؟

المبدأ هنا قائم على ما يعرف بظاهرة الجسيمات الافتراضية Virtual Particles - في ميكانيكا الكم - التي تنشأ حسب مبدأ «عدم التأكد uncertainty» لهايزنبرغ فيما يعرف بالـ vacuum لفترة قصيرة جدًّا، ودون أن تحمل كل صفات الجسيمات الحقيقية، بل بعضها فقط، وعند توفر ظروف جيدة لهذه الجسيمات الافتراضية، فإنها تتحول إلى جسيمات حقيقية.

باختصار: بالنسبة لكثيرين، هذه الجسيمات الافتراضية، تنشأ من الفراغ أو العدم أو اللا شيء، وهذا يعني أن ميكانيكا الكم تفسر كيف يمكن أن ينشأ (أي شيء) من (لا شيء)، وهذا برأيهم يقود إلى إبطال فكرة وجود خالق للعالم، بما أن العالم يمكن أن ينشأ من العدم أو الفراغ، حسب قانون الكم.

هناك مشكلة جوهرية في كل هذا: أن مجرد وجود «قانون» يسبب نشوء الجسيمات الافتراضية، يعني أن هذه الجسيمات لا تنتج عن فراغ حقيقي، بل تنتج عن «مجال فيه تأثير لقوانين فيزيائية»، وهذا بالضبط ليس عدمًا، ليس الفراغ أو اللا شيء..

مجرد وجود قانون فيزيائي يفسر نشوء الجسيمات، فهذا يعني أن حالة العدم أو اللا شيء منتفية، ثمة قانون يعني أن ثمة (من / ما) وضع هذا القانون، فضلًا عن أنه «ينفي حالة العدم»، بل إنه قد ثبت حسب الفهم الأكثر معاصرة لميكانيكا الكم، أن حالة الفراغ التي يشار لها عادة بالـ vacuum ليست فارغة حقيقة[1].

* * *

لا أحب أن أقحم النظريات العلمية في مسألة «وجود الله» على نحو مباشر، ولكن ثمة أمرين:

الأول: يعتمد الأمر على رؤيتك له، نفس مبدأ هايزنبرغ الذي يراه البعض دليلًا على إمكانية النشوء دون خالق (كما في المثال السابق).. نفس هذا المبدأ ممكن أن يراه المؤمن واحدة من أدوات الله في الخلق!

الثاني: ثمة نوع من العناد والتحيز من الصعب جدًّا تجاهله، عند رؤية بعض الملحدين يدفعون باتجاه نظرية معينة فقط، لأنها تعاكس نظرية أخرى، تمتلك رصيدًا علميًّا أكبر، لكنها يمكن أن تقود إلى تعضيد فكرة وجود الله، حتى لو كانت النظرية (التي يدعمونها) تتطلب نموذجًا كونيًّا مغايرًا تمامًا ولا دليل عليه.

---

(1) Vacuum state - Wikipedia

بالتأكيد الطرفان متشابهان في أن كلًا منهما متحيز، لكن باختلاف نوع التحيز لدى كل منهما، وغالبًا سينحاز كثير من المؤمنين إلى أي نظرية تناسب إيمانهم، لكن علينا أن نذكر هنا أن العلم غالبًا محايد من ناحية «الأدلة المباشرة»، وأن الأمر يعتمد في أحيان كثيرة على تعاملنا مع المعطيات التي يقدمها العلم، وليس على ما يقوله العلم مباشرة، إذ ليس للعلم إفادة أو شهادة في مجالات تتعدى تخصصه.

لذا فإن إلحاح أي طرف على أن النظرية الفلانية تؤيد موقفه (على نحو مباشر وكما لو كان نص النظرية يقول ذلك) يقود إلى أن الطرف الآخر يفعل الشيء ذاته مع نظرية أخرى قد تقود نتائجها إلى ما يعضد موقفه.

علينا أن نتذكر دومًا أن العلم لا يقدم الأجوبة عن كل الأسئلة، خاصة في مسائل وجود الله، وأن استنباطاتنا مما يقدمه من معطيات هي التي تخدم قضايانا، لذا فمن المهم ألا ندفع أكثر مما يجب مع العلم، وألا نحاول وضع ما لم يقله على لسانه.

* * *

المخرج الثاني من متسلسلة (العالم موجود، هناك من/ ما أوجده)، حاول أن يقول أن العالم نشأ «هكذا» - من عدم - ليتهرب من فكرة أن العالم هناك (من / ما) أوجده، لكن هذا المخرج أيضًا لا يبدو متماسكًا، ولا يمكنه أن يصمد، فبعد كل شيء، هذا النشوء المفترض لا يكون من «فراغ»، ووجود قوانين الفيزياء وحدها في الأمر كفيلة بسد المخرج.

* * *

وجود قوانين الفيزياء، يعني أن هناك من/ ما أوجد هذا الكون، لا نتحدث هنا عن الله كما تقدمه الأديان والكتب السماوية، بل عن «قوة» أوجدت هذا الكون، من الصعب جدًّا إنكار هذه القوة المُوجِدة للكون، صفاتها ومواصفاتها ليست القضية الآن.

* * *

فلننتبه هنا إلى أن رد فعل بعض الأخوة الملحدين تجاه أجزاء من هذا النقاش ستكون كالآتي: حجة «السبب الأول؟» هذه أقدم حجة!

نبرة السخرية في كونها «أقدم حجة» يجب ألا تغير شيئًا من النقاش، قواعد المنطق قديمة أيضًا، ولا تزال أغلبها قائمة، القول بأزلية العالم قديم أيضًا، ولا يزالون يتمسكون به، التنفس قديم ولا يفكر أحد أن يتخلى عنه لأنه قديم، البشر أنفسهم «قدماء» ولا سبيل لتغيير ذلك.

هذه الأمور لا تُعامل كما لو كنا نتحدث عن مذياع قديم أو جهاز فيديو كاسيت لم يعد أحد يكترث باستخدامه، لذا فإن قولهم عن هذا النقاش «أقدم حجة في الكتاب» يجب ألا يكون محبطًا بأي حال من الأحوال، فعدم وجود بديل عندهم، عن السبب الأول، أمر قديم أيضًا.

* * *

أهم ما يميز طريقة التفكير الإلحادية التي يمكن أن تتورط في منزلق في هذا الباب تحديدًا هو «تراجع العقل الحدسي مقابل سيادة وسيطرة العقل المادي»، بالعقل الحدسي يمكن أن نميز أن إلقاء عبء إثبات الدليل على المؤمن بوجود الله يتضمن مغالطة منطقية، لأن وجود «من / ما صنع هذا العالم» أمر بديهي - بغض النظر عن صفاته - وأن من ينكر وجوده هو المطالب بالدليل.

بالعقل الحدسي تكون العلاقة بين الأسباب والمسببات ووجود فاعل لكل شيء ومُحدِث لكل حدث أمر بديهي تمامًا، ولا يحتاج إلى الكثير من الجهد للإثبات..

بالعقل الحدسي تبدو فكرة أزلية العالم، وكونه بلا بداية، غير مقبولة، قبل أن يثبت العلم صحة حدسك بكثير..

وبالعقل الحدسي ستكون بديهة أن هناك من / ما أوجد هذا العالم واضحة جدًا، لا تحتاج إلى كثير دفاع أو شرح..

كما يمكن ملاحظة وجود التفكير الذي يقبل «النهايات المغلقة» / اللا جواب، أي التفكير الذي يرفض جوابًا معينًا لا يقنعه، ولكنه يعرف أن البديل الذي يختاره غير قادر على تقديم أي جواب أصلًا، فالملحد لا يقتنع بجواب الأديان السماوية عن الأسئلة الوجودية الكبرى: كيف ولماذا «وُجِدنا» على الأرض؟ ومن الذي أوجدنا؟

ولكن الإلحاد يقدم لهذه الأسئلة أجوبة ليست أجوبة في حقيقتها، أجوبة تقول أن لا جواب أصلًا، من يقبل ذلك، فقط لأنه غير مقتنع تمامًا بالأجوبة الأخرى، يحتاج إلى نمط تفكير خاص يتقبل هذا اللا جواب، ويسهل وصوله إلى الإلحاد.

الله وإبريق الشاي الصيني

يكرر ريتشارد داوكنز[1] مثلًا سبق للفيلسوف البريطاني برتراند راسل[2] أن قدمه وهو المثل الذي يعرف بـ (إبريق الشاي السماوي)، والذي استخدمه راسل لإثبات أن من يرفض فكرة أو فرضية ما، ليس مطالبًا ببرهان رفضه.

ملخص الفكرة هي أن راسل يدعي وجود (إبريق شاي صيني) بين الأرض والمريخ، ويدور هذا الإبريق حول الشمس في مدار بيضاوي، كما أن هذا الإبريق صغير جدًّا بحيث أن أدق التلسكوبات لن تستطيع رؤيته، يقول راسل إن فرضية وجود هذا الإبريق، هي مثل فرضية وجود الله، لذا فإن المؤمنين بوجود الله لا يمكنهم رفض فرضية الإبريق السماوي الذي لم يره أحد، لأنه مثل الله الذي لم يره أحد.

لكن ما يسقط من الفكرة هنا هو أن فرضية وجود الإبريق السماوي لا تحل لغزًا ما، الإبريق السماوي فرضية ضمن جدل مضاد لفكرة الإله، لكنه لا يقدم جوابًا عن سؤال قديم قِدَم البشرية، أما الله - عز وجل - ففرضية وجوده ترتبط ببداهة وجود سبب أول، لكن بم يرتبط الإبريق السماوي؟

مرة أخرى فلننسَ مفهوم الإله كما يُقدم في الأديان، نتحدث عن سبب أول خالق وواعٍ، بغض النظر عن تسميته وتصورنا عنه، لا بد أن يكون هناك سبب أول، وهذا بالذات هو ما يفرق فكرة الإله، الخالق عن بقية الخرافات التي يحاول الملحدون تشبيهها بالله لتسخيف وتسطيح الفكرة.

---

(١) ريتشارد داوكنز: (١٩٤١-) عالم بيولوجيا تطورية بريطاني، يعتبر من أهم دعاة الإلحاد المعاصرين وأشدهم رواجًا، ويعتبر ممن نقلوا الإلحاد من الحالة الرافضة للدين فحسب، إلى الحالة المعادية للدين. Antitheist

يتكرر اسمه كثيرًا لأنه يُعد مرجعًا مهمًّا للملحدين الجدد، وهو يربط بشكل مباشر بين نظرية التطور وبين الإلحاد، ويعتبر أن نظرية التطور يمكن أن تعتبر دينًا بديلًا للأديان التقليدية.

(٢)برتراند راسل (١٨٧٢- ١٩٧٠) فيلسوف ومفكر وداعية سلام بريطاني، وصف نفسه بأنه (لا أدري) في الحقيقة، لكنه يكون ملحدًا عندما يتحدث إلى رجل الشارع، وله موقف معروف يضع الدين في مرتبة الخرافات، حاز على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٠.

الأمر سواء في الحديث عن الإبريق السماوي أو وحش السباغيتي الطائر[1] أو بابا نويل أو جنيات الحديقة (وهي أمثلة يكررها داوكنز كما غيره) أو آلهة الإغريق أو أي من الخرافات المنتشرة في القصص الخيالية أو حتى في مفاهيم الشعوب وتفسيرها للظواهر الطبيعية، كل هذه «خرافات» والناس تعرف الآن أنها خرافات، ربط هذه الخرافات بفكرة الله يجعل البعض يرون التشابه بين الأمرين: لم يرَ أحد إبريق راسل أو وحش السباغيتي أو الجنية في الحديقة، وكذلك لم يرَ أحد الله، لمَ الأمر خرافة في تلك الحكايات وليس كذلك مع الله؟

لكن كل هذه الخرافات يمكن أن تزيلها وترمي بها من ذاكرة الشعوب دون أن يتغير شيء في العالم، لا لزوم حقيقيًا لها، لن تترك ثغرة لا يمكن ملؤها، لكن أن تزيل بفكرة الله من وعي الناس سيجعلك في مواجهة مباشرة مع السؤال الأول: من إذن صنع - أو خلق - كل هذا العالم؟ من يقف خلف كل هذا؟!

هذه علامة فارقة وأساسية بين هذه «الخرافات» وبين «الإله» - السبب الأول - الذي خلق كل شيء.

كيف يتعامل الملحدون مع فكرة السبب الأول من الأساس[2]؟

الاعتراض الأول المعروف هو أن منطق السبب الأول يناقض نفسه، لأنه إذا كان لكل شيء سبب - كما في المقدمة اللازمة - فإن هذا يعني أن الله نفسه يحتاج إلى سبب لكي يكون، وهذا سيؤدي إلى إبطال فكرة السبب الأول المسبب لكل شيء.

بدلًا عن هذا قدم كثيرون فكرة أن لا سبب أول، لأن العالم أزلي ولم يحتج أصلًا إلى سبب أول لكي يبدأ، وهذا دُحض علميًا - كما سبق ذكره - حيث ثبت وجود بداية للكون قبل قرابة ١٤ مليار سنة.

---

(١) وحش السباغيتي الطائر هو إله لديانة تهكمية أسسها فيزيائي اسمه بوب هندرسن عام ٢٠٠٥ احتجاجًا على قرار هيئة التعليم في ولاية كانساس الأمريكية بتدريس التصميم الذكي بديلًا عن نظرية التطور في المدارس العامة، قدم بوب هندرسن في رسالة موجهة إلى هيئة التعليم طلبًا بتقديم حصة مساوية لإله وحش السباغيتي الطائر في درس العلوم في المدارس العامة، كان بوب هندرسن يقصد أن لا دليل علميًا على إله الأديان السماوية، بالضبط كما لا دليل علميًا على وحش السباغيتي، انتشرت الرسالة في الإنترنت وتحول الأمر إلى ظاهرة وصار هناك كنائس «تهكمية» تتعبد لهذا الإله وصار هناك اسم لهذه الديانة وهو Pastafarianism - ارتباطا بالباستا.

(2) A Criticism of the First Cause Argument - Leaving Christianity

https://sites.google.com/site/leavingchristianity/essays/a-criticism-of-the-first-cause-argument

كما حاول آخرون تقديم نظرية الانفجار العظيم باعتبارها الحدث الذي بدأ كل شيء من دون سبب حسب قوانين ميكانيك الكم، ولكن مجرد وجود قانون فيزيائي يفسر الأمر، فهذا يعني أن الأمر ليس عدمًا تمامًا - كما سبق وذكرنا.

الاعتراض الثاني الذي يقدمه الملحدون هو أن «السببية» أو «سلسلة أن لكل شيء سببًا مُحدثًا» معروفة في عالمنا نحن، ولكن لا يوجد ما يدل على أنها موجودة خارج هذا العالم أو قبل أن يبدأ هذا العالم، فإن كانت موجودة خارج هذا العالم، فهذا يعني أنها ستعمل ضد منطق السبب الأول، لأن الله في هذه الحالة سيحتاج إلى مُسبِّب، حسب رأيهم.

وإذا كانت غير موجودة خارج هذا العالم، فهذا برأيهم يجرد العالم من سبب لوجوده، لكن هذه الفكرة «فكرة أن السببية ليست موجودة خارج هذا العالم المادي» هي بالتحديد التي تلغي الاعتراض الأول الذي يعتبر أن منطق السببية يناقض نفسه.

السببية قانون خاص بالعالم المادي، بعالمنا الفيزيائي، وأي شيء خارج حدود هذا العالم هو خارج هذا القانون حتمًا، وخارج فكرة وجود قانون فيزيائي أصلًا، أي أن الله ليس خاضعًا لقانون السببية ولا لأي قانون آخر.

لكن هل عدم وجودها خارج هذا العالم يجرد العالم من سبب لوجوده؟

لا طبعًا، فالقوانين وُجدت مع العالم وكانت سببًا له، نحن نتحدث هنا عن «الحدود» - إن صح التعبير - بين عالمنا وما خارجه، وقوانين الفيزياء التي نعرفها تطبق على المادة فقط، أي شيء خارج هذه المادة، مهما كان، لن تكون قوانين الفيزياء قابلة للتطبيق عليه..

فلنقرب المثال أكثر: الإنسان صنع منتجات كثيرة، فلنقل كهربائية مثلًا، الثلاجات والمجمدات وأجهزة التلفاز، تشغيل هذه الأجهزة وطريقة عملها وصيانتها يتبع قوانين معينة، غالبًا كهربائية.

لكن صانع هذه الأجهزة غير خاضع لنفس القوانين، هو صانعها، لذا فهو غير خاضع لها، كذلك الأمر بالنسبة لتسلسل الأسباب والمسببات، والبعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، هذا قانون يخضع له كل عالمنا الذي نعيش فيه بكل ما فيه، لكن خالق هذا العالم أو صانعه، هو خارج هذا القانون كما هو خارج كل القوانين التي وضعها، وكما الإنسان خارج قوانين الثلاجة والتلفاز، لذا فإن سؤال: من خلق الله؟ يعجز عن فهم أن الشروط والمواصفات التي يخضع لها العالم المادي لا يخضع لها صانعه.

Terms and conditions are not applied there.

لكي تحقق هذا الفهم، عليك أن تفكر بطريقة مختلفة، أن تفكر بأن من خلق كل شيء يجب أن يكون خارج كل مقاييسنا ومعاييرنا وأيضًا خارج القوانين التي يسير بها الكون.

لماذا علينا أن نتبنى هذا النوع من التفكير الذي (نقفز) من خلاله على قواعد التفكير المنطقي ونقرر أنها لا تعمل هنا؟

لأن نوع التفكير هذا لو طُبِّق على فكرة الخالق، وقررنا أنه لا بد للخالق من خالق، ولا بد لخالق الخالق من خالق، وهكذا فإننا سندخل في سلسلة لا نهائية لا تقود لشيء أبدًا، سيتحول الأمر ليكون دائرة مفرغة لا حل لها، وهذا بالذات يعني بطلانها ولا منطقيتها.

بينما يبدو الاعتقاد بأن قواعد التفكير المنطقي تقف عند حدود معينة، وتسلم خاضعة لفكرة الله، ولا تدخل في دوامة لا نهائية من الاحتمالات، يبدو هذا الاعتقاد أقرب إلى روح المنطق والعقل حتى لو كان يؤمن بما لا يراه العقل مباشرة.

متسلسلة داوكنز على عدم وجود الله

في خضم الكثير من المقولات الساخرة التي تزخر بها مؤلفات داوكنز ضد فكرة وجود الله، والتي قد تشوش أحيانًا بسطحيتها على محور أفكاره الأساسي، هناك هذا الخط الفلسفي المتسلسل الذي لخصه له[1] من أعماله الفيلسوف إريك ولنبرغ Erik Wielenberg، والذي يتمحور حول (عدم احتمالية وجود الله) كما جاء في الفصل الرابع من كتابه (وهم الإله)، وهو الفصل الذي اختار له عنوانًا مثيرًا (لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود الله؟)

أولًا: لو أن الله كان موجودًا فهو سيمتلك الصفتين التاليتين:

أ) سيقدم تفسيرًا لكل الظواهر الطبيعية المعقدة في الكون.

ب) لن يكون هناك تفسير ثانوي له، لن يكون هو مفسرًا.

أي أنه سيكون خالق كل ما في الكون من ظواهر، ولن يكون هناك خالق له.

ثانيًا: كل ما يقدم التفسير للظواهر المعقدة في الطبيعة، لا بد أن يكون معقدًا هو الآخر بدرجة لا تقل تعقيدًا عن الظواهر التي خلقها.

ثالثًا: من أولًا وثانيًا = إذا كان الله موجودًا، فهو أ- على الأقل بنفس درجة تعقيد الظواهر الطبيعية، و ب- لا يمكن تفسيره هو، لا خالق له.

رابعًا: احتمالية وجود شيء معقد بتعقيد الظواهر الطبيعية أو أكثر، وفي الوقت نفسه لا خالق له احتمالية ضئيلة جدًّا.

خامسًا: لذا فإن احتمالية وجود الله ضئيلة.

انتهى.

***

(1) Atheistic Teleological Arguments, Part 5: Dawkins's Ultimate Boeing 747 Gambit | Jeffery Jay Lowder https://www.patheos.com/blogs/secularoutpost/2016/02/28/atheistic-teleological-arguments-part-5-dawkinss-ultimate-boeing-747-gambit/ retrieved 10/7/2018

بالنسبة لشخص يتعامل مع الحقائق بعقل تجريبي مادي، فإنه يمكن أن يتقبل هذه الفرضية بسلاسة، لكن كل من يمتلك أدوات مختلفة، أدوات بداهة، سيقف مذهولاً أمام استسلام الآخرين لهذه المتسلسلة: ابتداء من (ثانيًا)، سيقف ليقول: هه؟

من قال إن من خلق هذه الظواهر الطبيعية المعقدة، يجب أن يكون بنفس مستوى التعقيد على الأقل؟

من قال إنه خاضع أصلًا لمعايير التعقيد والتبسيط، من قال إنه قابل للتوصيف؟ للتخيل؟

من قال إننا يمكن أن نعامله أصلًا كما نعامل الظواهر الطبيعية؟

من (ثانيًا) سيحدث فراق، وبالتالي ستكون (خامسًا) غريبة جدًّا، وسيكون غريبًا الاقتناع بها.

* * *

في أعماقهم، يعرف كثير من الملحدين أن ضرب فكرة السبب الأول - الإله الخالق - ليس سهلًا، وأن كل محاولات نقض فكرة وجود «إله ما - قوة ما خلقت هذا الكون بطريقة ما» أمر قد لا يكون مقنعًا تمامًا، لذلك كثيرًا ما يعترفون أنهم في الحقيقة لا أدريون أكثر منهم ملاحدة بالمعنى المباشر الحقيقي للكلمة، ليس برتراند راسل وحده في ذلك، لكن حتى داعية الإلحاد الجديد ريتشارد داوكنز كثيرًا ما صرح أنه ليس ملحدًا تمامًا، وأن ثمة شيء من «اللا أدرية» فيه (تجاه وجود الله)، حيث قال إنه لو وُضِع الإيمان والإلحاد على مسطرة من الرقم (١) إلى الرقم (٧)، بحيث يكون الإيمان الكامل ممثلًا في الرقم (١)، والإلحاد الكامل يكون في الرقم (٧)، فإنه هو شخصيًا (وكذلك أغلب الملحدين، حسب تصوره)، سيكون على الرقم (٦)، وليس الرقم (٧)، وفي هذا درجة من درجات «اللا أدرية»[1].

كما صرح مرارًا بأنه لا يمكن أن يكون واثقًا تمامًا من عدم وجود الله، وأنه يفضل أن يوصف بأنه لا أدري على أن يوصف بكونه ملحدًا[2].

---

(١) وهم الإله- ريتشارد داوكنز- النسخة العربية ص ٥٢.

(2) Richard Dawkins: I can't be sure God does not exist - Telegraph

https://www.telegraph.co.uk/news/religion/9102740/Richard-Dawkins-I-cant-be-sure-God-does-not-exist.html

مشكلة الملحدين مع فكرة «وجود إله خالق» في الحقيقة ليست مع منطقية السبب الأول أو بداهتها، بل مع مفهوم الإله في الأديان السماوية، ومع ما تقدمه هذه الأديان من مفاهيم للمؤمنين بها، لكننا لا نتحدث هنا عن إله الأديان، بل عن إله خالق فحسب، ومحاكمة السبب الأول، بسبب ما حدث لاحقًا، أمر مُجاف للموضوعية.

هل يوجد دليل «علمي» على وجود الله؟

هذا السؤال يحتل مكانة مهمة في الأسئلة التي تصل لأيٍّ من المهتمين بقضايا الإلحاد.

يأتي السؤال ومعه حيرة وقلق وشغف السائل.

أحيانًا تكون هناك عبارات مع السؤال تعبر عن ذلك بوضوح: أرجوك يا دكتور.. بالله عليك.. عبارات رجاء واستعطاف توحي بأنَّ السائلَ وصل مرحلة من المعاناة وأنه يريد الحل، ولو برصاصة الرحمة، بأيٍّ شكل من الأشكال.

لا بد أنه وصل إلى نقطة اللا عودة.. إلى متاهة من الشك، من عدم الثقة.. يريد شيئًا يحسم حيرته ويقضي عليها ولو بالنفي.

السؤال مرة أخرى: هل يوجد دليل علمي «مادي» على وجود الله؟

الجواب هو ببساطة واختصار: لا.

لكن هذا ليس كل شيء.

فالسؤال أصلًا خاطئ. رغم أنه قد يبدو الآن لكثيرين بديهيًّا جدًّا ومنطقيًّا جدًّا.

السؤال يشبه أنْ تذهب إلى بقالة الحيِّ وتطلب من البقال أن يصدر لك جواز السفر.

هل يمكن أن تصدر جواز سفر من البقالة؟ الجواب: لا. بالطبع لا.

بعبارة أخرى: أنت تطلب إجابة من المكان الخطأ.

طلبك قد يكون معقولًا. لكنك تطلبه من المكان الخطأ.

لا أقصد الشخص الذي سألته الرد بحرفة. بل أقصد العلم بمعناه السائد المتداول في أسئلة كهذه. العلم التجريبي المادي[1].

---

(1) العلم التجريبي المادي، هو ما يعرف بالعلوم الطبيعية.. مثل الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا... إلخ.. هناك علوم أخرى تسمى عادة بالعلوم الإنسانية (مثل الفلسفة وعلم النفس والاجتماع)، ولكنها غالبًا لا تكون مقصودة عندما يكون السياق عن العلم بصورة عامة.

أقصد مفهوم الدليل العلمي الذي يرغب طارح السؤال في استحضاره لينهيَ حيرته وقلقه وحرقته.

ليس هذا فصلًا جديدًا من الخصام النكد بين العلم والإيمان.. بل هو وضع للنقاط على الحروف فيما يخص العلاقة بينهما، وهي علاقة تعاني من مشاكل كثيرة كما أسلفت، البعض يرى ألا مجال للتلاقي بين العلم والإيمان، والبعض يرى أن العلاقة بينهما هي علاقة مساواة تامّة.

وبين هذا وذاك، وخصوصًا في ظل هيمنة العلم في العصر الحديث، وفي ظل تحقيقه لمنجزات كبيرة غيرت من حياة البشرية وزادت من رفاهيتها، وكشفه الكثير مما كان يعد أسرارًا لعصور طويلة.

بسبب كل هذا.. فنحن بتنا نعتقد أننا يمكن أن نسأل العلمَ عن كلّ شيءٍ. ونطلب منه (ختم موافقة) على كل ما نؤمن به.

والعلم حقق أشياء مهمّة بلا شك، ودوره في تطور البشرية أساسيّ وجوهريّ وأيُّ محاولة لتقليل دوره في ذلك محكوم عليها بالفشل. لكن منح العلم الوصاية علينا في كل شيء أمر فيه نظر.

يمكن للعلم أن يقيس سرعة شعاع الشمس ويقيس ضغط دمك وعدد الكريات البيضاء فيه، ويمكن له أن يكشف عن وجود خللٍ ما في وظائف كبدك ويسبر أغوار دماغك - يمكن للعلم أن يحوّل الصحراء إلى جنات خضراء، وأن يجد الحلول لمشاكل ما كان أجدادنا يتصورون أنَّ لها حلًا، يمكن للعلم أن يسهلّ الحياة على كوكب الأرض على نحو غير متخيل، بل ويمكنه أن يأخذ البشر إلى كواكب أخرى ويستثمر فيها.. يمكن للعلم أن يأخذنا إلى حدود لم نصل إليها في خيالنا.

ولكن هذا كله لا يلغي وجود حدود للعلم.

وحدود العلم هي هذا العالم، بكل ما فيه. كل ما ليس من هذا العالم، لا يمكن أن يخضع للعلم ولا يمكن للعلم أن يستكشفه.

بعبارة أخرى: كل منجزات العلم هي في المادة، في الطبيعة، أي شيء خارج هذه المادة وخارج هذه الطبيعة لا يمكن للعلم أن يستكشفه أو أن يصل لحدوده. وليس هذا قصورًا في

العلم أو عيبًا أو خللًا. هذا جزء من توصيفه الوظيفي فحسب، للعلم حدود، وحدوده العالم كله. وهذا ليس قليلًا.

لكن الله خارج هذا العالم الذي نعرفه. هو - عز وجل - خارج كلمة خارج أيضًا. خارج كل ما نعرفه وكل ما نتداوله من اتجاهات أو معايير أو مقاييس.

الله خارج الطبيعة وخارج المادة. فلماذا نبحث عنه عبر العلم الذي حدوده الطبيعة والمادة؟

تريد دليلًا علميًّا على وجود الله؟

هل قال لك أحد إنه يمكن الكشف عن الله كما يُكشف بالمنظار على عضو داخل جسم الإنسان أو معدن طبيعي في التربة؟

هل توقعت أن يظهر الرد في نتيجة مخبرية؟ هل توقعت أن تجده في أنبوبة مخبرية؟ أو في صورة أشعة؟

بالتأكيد لا دليل علميًا - بهذا المعنى لكلمة دليل - على وجود الله، ولا على غيابه أو عدم وجوده.

لكن هذا لا يجعل العلم ملحدًا بالضرورة. ولا مؤمنًا أيضًا بالتأكيد. هو فقط غير متخصص في هذا الأمر. يمكن أن يكون هناك علماء ملحدون، أو علماء مؤمنون. لكن العلم نفسه محايد في هذا الأمر. سؤال العلم عن وجود الله سؤال ليس في محله لعدم التخصص.

أكرر أن المقصود بالعلم هنا هو العلم التجريبي- الطبيعي- العلم المادي. وهو المعنى الذي يُقصد غالبًا عندما تستخدم كلمة العلم حاليًّا.

وحيادية العلم في موضوع الإيمان تعني أنه ليس لديه ما يؤكده أو ينفيه بخصوص أيّ شيء خارج نطاقه.

***

قد يعترض بعض الأخوة على مسألة «لا دليل (علمي) مادي على وجود الله» بالقول إن الاستدلال على وجود الله هو من باب الاستدلال بالأثر على المؤثر، ويقارنون بين هذا وبين الاستدلال على وجود وصفات جسيمات الذرة مثل الإلكترونات والنيوترونات والبروتونات وغيرها من آثارها أو الاستدلال على وقوع التطور والانفجار العظيم من آثاره.. وهم يعتبرون أن الاستدلال على وجود الله هو من نفس جنس هذا الاستدلال..

والحقيقة أن الاعتراض منطقي، لكننا قد نحتاج أولًا إلى ضبط وتحديد تعريفاتنا.. ذلك أن الأمر يعتمد على ما نعنيه بالدليل العلمي.

اليوم نحن نتعامل مع الدليل العلمي الذي تختلف معاييره من مجال لآخر، وجود الإله أصلًا ليس قابلًا لأن يُبحث في واحد من مجالات العلم المادّي.

بشكل عام: الدليل العلمي بالمفهوم المعاصر يُستخدم لدعم أو معارضة نظرية أو فرضية علميَّة، ويُتوقع منه أن يكون خاضعًا للتجربة والتكرار وحسب الطريقة العلمية التجريبيّة، وتكون نتائجه النهائية مستخرجة من الإحصاءات العلمية.

وهذه مواصفات كلها لا يمكن أن تطبق على مسألة وجود الله، فوجود الله ليس «نظرية أو فرضية علمية» ولا يمكن إدخال الأمر إلى المختبر[1].

النظرية العلمية بالتعريف تعني أنها تقدم «التفسير العلمي الأكثر مناسبة»[2] ولا تعني بأي حال من الأحوال أنها تعبر عن حقيقة مطلقة، وكما نعيب على الملحدين تناقضاتهم في أدلتهم، فإنه من التناقض القبول بمفهوم النظرية لتطبيقه على وجود الله.

كل النظريات العلمية تتعامل مع «مجال مادي»، ليس مطلوبًا من أي نظرية علمية البحث فيما وراء ذلك.

أما الاستدلال بالمعطيات «المادية» للوصول إلى نتيجة كبرى تتجاوز المجال المادي، فهذا أمر ممكن بالتأكيد، وهو لا يشبه «الدليل العلمي» بالمعنى المستخدم حاليًا.

بعد حدود ((العلم)).. على مشارف ((المعرفة))

من الممكن بالتأكيد أن تُستخدم المعلومات أو المعطيات التي يقدمها العلم، أن يُستنبط أو يُستخلص منها ما يقود إلى هذا الموقف أو ذاك.. لكن هذا سيكون بمثابة الإشارة.. العلامة.. الأمارة.. لا الدليل بمعناه العلمي المقصود بالسؤال الأول - محور حديثنا هنا.

سمعنا كثيرًا عن أن الله يتجلى في عصر العلم.. وهذا لا يعني وجود (أدلة علمية) بالمعنى الحرفي المادي للكلمة.. ولكنه يعني أن الكثير مما يقدمه العلم من معلومات ومعطيات.. ستشير إلى وجود إله خالق لهذا العالم.

(1) Scientific evidence - Wikipedia

(2) Scientific theory - Wikipedia

لكن هذه إشارات.. وليست أدلة بالمعنى العلمي للكلمة.

بالضبط هي أقرب إلى الاستخدام الفقهي لما يعرف بـ «الأمارة»[1]، والتي تفيد «الظن» فحسب.

هذه الحقائق العلمية - الأمارات - تضع نقاطًا هنا وهناك، لكن الربط بينها للوصول إلى وجود خالق لهذا العالم يتطلب شيئًا مختلفًا عن العلم بمعناه التجريبي.. هنا تنتهي حدود العلم وندخل في منطقة أخرى، يمكن تسميتها بالمعرفة، ومجالها أوسع من العلم (ولا يستثنيه).

المعرفة تربط بين مختلف المعلومات في المحيط الإنساني- وبعض هذه المعلومات قادم من العلم بطبيعة الحال - لكن فهم هذه المعلومات والربط بينها يتم عبر مزيج من آليات الإدراك والحدس والمنطق البديهي common sense، وهذا كله طبعًا لا يخضع لنفس معايير العلم التجريبي ولكنه يمكن أن يقود إلى الإيمان بوجود الله على نحو عميق مختلف عن عمق «التجارب الحسية المادية».

هذه الآليات تقودنا، خطوة خطوة، تربط الأمارات، الإشارات، كما تربط النقاط ببعضها بعضًا لتشكل مخططًا عامًّا دون تفاصيل.

كذلك تفعل هذه الآليات.. توصلنا عبر هذه المعطيات إلى مرحلة نطل منها على هذا المخطط العام.. الفكرة العامة.

الإيمان شيء آخر. مرحلة أخرى لا يمكن الوصول لها عبر العلم.

العلم يساعدنا على الوصول إلى منطقة ما، قبل الإيمان.

لكن الإيمان يتطلب خطوة أخرى، بلا «أدوات المساعدة» التي ساعدتنا على الوصول إلى مرحلة «وصل النقاط ببعضها بعضًا».

هذه الخطوة الأخرى، ليست مجرد خطوة صغيرة، بل هي قفزة كبيرة.. وثبة كبيرة.

لكنك تقوم بهذه الوثبة دون أي معلومة «علمية» عن الإحداثيات فيها، دون أن تكون قد شاهدت بعينيك ما وراءها..

هي وثبة في الفراغ.

* * *

(١) وأما الأمارة فهي: الدليل المظنون، كخبر الواحد والقياس، وليس بدليل مقطوع عليه. وهذه عبارة وضعها أهل النظر للفرق بين ما يفضي إلى العلم وبين ما يؤدي إلى غلبة الظن. (العدة في أصول الفقه)، في تعريف الأمارة وأقسامها، الجزء الأول ص ١٣٥.

يستشكل البعض أمر وثبة الفراغ هذه واعتبارها جزءًا من الإيمان.

والحقيقة أن عبارة «الوثبة في الفراغ» تقارب في رأيي مفهوم الإيمان بالغيب. لكننا تعودنا عبارة «الغيب» وألفناها أكثر مما يجب، حتى لم نعد نفهم عمق معناها..

لكن ما هو «الغيب» لغةً؟

الغَيْبُ: كلُّ مَا غَابَ عَنْكَ. قال أَبو إِسحاق في قَوْله تَعَالَى: يُؤْمنُونَ بالْغَيْب؛ أَي يُؤْمنُونَ بِمَا غابَ عَنْهُمْ، ممَّا أَخبرهم به النبيُّ، صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ، منْ أَمر البَعْث والجنة وَالنَّار. وكلُّ مَا غابَ عَنْهُمْ ممَّا أَنبأَهم به، فَهُوَ غَيْبٌ؛ وَقَالَ ابن الأَعرابي: يُؤْمنُونَ بالله. قَالَ: والغَيْبُ أَيضًا مَا غابَ عَنِ العُيون، وإِن كَانَ مُحَصَّلًا في القُلُوب. ويُقال: سَمعْتُ صَوْتًا منْ وَرَاء الغَيْب أَي منْ مَوْضع لَا أَراه. وَقَدْ تَكَرَّرَ في الْحَديث ذكْرُ الْغَيْب، وَهُوَ كُلُّ مَا غَابَ عَنِ الْعُيُون، سَوَاءٌ كَانَ مُحَصَّلًا في الْقُلُوب، أَو غَيْرَ مُحَصَّل.»[1]

الغَيْب: كل ما غاب عنك والغيب في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة:٣) ما لا يقع تحت الحواسِّ ولا تقتضيه بَداهة العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام.[2]

الغيب إذن، هو ما لم تدركه بحواسك. غاب عنها.. واحتجت إلى طريق آخر كي تصل إليه غير هذه الحواس التي تعينك في طرقك.. والإيمان بهذا الغيب هو الإيمان المجرد من أدلة العلم «المادي» وبراهينه «المباشرة الحسية».

وماذا يحدث عندما تسير في طريق لا تراه بعينيك، بلا دليل ولا حتى أرض صلبة تتحسسها بقدميك؟

يحدث أنك تأخذ وثبة في فراغ..

لكنها الوثبة التي توصلك إلى بر الأمان.

الوثبة التي لا يُعدُّ الإيمان إيمانًا من دونها..

لو كنت ترى كل شيء، رأي العين، لو كانَ كلُّ شيءٍ واضحًا وضوح النهار، لما كان ذلك غيبًا.. ولما كان التصديق به امتحانًا..

---

(١) لسان العرب: مادة غيب.

(٢) التعريفات الفقهية.

هذا هو الإيمان.. يتطلب بالتعريف أن تؤمن وأن تشهد بما لا تراه ولا تشاهده.

لو كان هناك دليل (علمي) - بمعنى الدليل العلمي المادي المباشر- على وجود الله..

لما كان الإيمان إيمانًا..

لكان مجرد تصديقٍ بارد بحقيقة علمية.

***

لكن قد تقول: أمَا كان من الممكن أن يكون وجوده أوضح؟! ألم يكن من الممكن عليه - وهو القادر على كل شيء - أن يقدم نفسه بطريقة أسهل؟ بوجود دليل علمي - مثلًا - أو أي وسيلة أسهل يقررها هو..

لكن لو كان الوصول إليه أسهل، ما مغزى الأمر كله؟

ما معنى أن تكون الأسئلة سهلة جدًّا في الامتحان بحيث يحوز الجميع العلامة الكاملة.. ويتساوى فيها المتفوق بمن لا يعرف شيئًا عن المادة؟

سيكون هذا ظلمًا للمتفوق بالتأكيد.

وفكرة الامتحان ليست عابرة بالنسبة للمؤمنين، بل هي قضية.. الأمر ليس quiz على الإطلاق، لذا فعدم وجود ما يجعل وجود الله شديد الوضوحٍ كمانشيتات الصحف أمر متسق مع فكرة المؤمنين عن الوجود البشريّ على الأرض وكون كلّ شيءٍ هو امتحان في النهاية.

الإيمان بمواجهة الإلحاد، في حلبة العلم

للعلم مكانة مميزة لا ينافسه فيها أحد في عصرنا الحالي، ولهذا فقد تم «سحبه» إلى ساحة المواجهة بين الإيمان والإلحاد، أحيانًا في سياقات لا تتعلق بالعلم من قريب أو بعيد، لكن الطرفين (المؤمنون والملحدون على حد سواء) يستخدمان «العلم» و «العلماء» في جذب الجمهور إلى هذا الطرف أو ذاك من التنافس.

وهكذا فأي تصريح يصب في تأييد الإلحاد، من قبل عالم مشهور أو حائز على جائزة مهمة، سيستقبل من قبل الملحدين بترحاب شديد ويتم تداوله والترويج له باعتباره يحقق هدفًا إضافيًّا ضد الخصم، وكذلك يفعل المؤمنونَ عندما يجدون تصريحًا أو مقولة تدعم الإيمان، أو تشير إلى الذات الإلهية، من قبل عالم مشهور.

ويعتبر انتقال عالم من طرف إلى آخر (عبر تغيير موقف معلن سابق له) نصرًا إضافيًا إلى الجهة التي استفادت من تصريحه، وهزيمة مضاعفة للطرف المنافس.

للأسف، في الحالتين، «وجود الله»، لا يجب أن يكون عرضة لهذا.

ليس هذا تقليلًا من أهمية العلم أو العلماء على الإطلاق..

ولكن هل كونك عالمًا بالبيولوجيا يؤهلك مثلًا لأن تكون عالمًا بكل شيء؟

لماذا عليَّ أنْ أثق برأي عالمٍ مهم في الفيزياء، في مسألة تتعلق بالفسلجة أو بعلم الأدوية مثلًا؟

لماذا عليَّ أن أضعه نموذجًا مطلقًا يفهم كل شيء، رغم أن شهاداته وشهرته جاءت في مجال محدد؟

الأمر يعمل في الاتجاهين كما أسلفت.

مع العالم المؤمن، ومع العالم الملحد..

ولا يعني هذا أن شهادتهم مرفوضة أصلًا..

ولكن يعني أنها مجرد شهادة.. من شخص متفوق في مجال آخر، وله الحق في أن يكون مؤمنًا أو ملحدًا أو لا أدريًا..

مجرد شهادة أخرى، ليست حكمًا قاطعًا علينا تلقيه بصفته (الموقف العلمي) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

* * *

بين عامي ١٩١٤ و١٩١٦ قام جيمس لوبا[1] بإجراء استقصاء عن «الإيمان بالله» بين العلماء الأمريكيين في مجالات متعددة (الرياضيات، والأحياء، والفيزياء، والفلك) مع أسئلة محددة جدًا تخص إيمانهم بـ (إله شخصي) وبالحياة بعد الموت.

أُعيدَ نفس الاستقصاء، بنفس الأسئلة المحددة، بعد ثمانية عقود، وتحديدًا في عالم ١٩٩٦.[2]

ولأن الأرقام مغرية جدًا، فإن كل طرف سيبرز الأرقام التي تجعل موقفه يبدو منتصرًا.

---

(١) جيمس هنري لوبا James H. Leuba (١٨٦٨- ١٩٤٦) عالم نفس أمريكي يعرف بإضافاته إلى علم نفس الدين.

(2) Larson & Witham 1998 Leading scientists still reject God.
Nature volume394, page313 (23 July 1998).
http://dacemirror.sci-hub.tw/journal-article/6ef4a4e7a596882db96878c09cf01fa3/larson1998.pdf.

الملحدون سيقولون إن نسبة الملحدين من العلماء زادت من ٤١٪ عام ١٩١٦ إلى ٤٥٪ عام ١٩٩٦.

وأن نسبة المؤمنين في «العلماء الأكثر أهميَّة» لا تتجاوز ٧٪ عام ١٩٩٦ مقارنة ب ٢٧٪ عام ١٩١٦.

المؤمنون من جهتهم سيقولون إن نسبة المؤمنين من العلماء بقيت ثابتة تقريبًا عبر ثمانية عقود - عكس ما توقعه لويا واضع الاستقصاء الأول، حيث بقيت النسبة حول الـ ٤٠٪ (٤٠٪ عام ١٩١٦ و ٣٩٪ عام ١٩٩٦) والنقصان الحقيقي كان في فئة (اللا أدريين) من العلماء[1].

لكن المؤمنين سيقولون أيضًا ما هو أكثر من ذلك، خاصة أن نسبة الـ ٧ ٪ من «العلماء الأكثر أهمية» تبدو قليلة..

المؤمنون سيقولون إن الأسئلة قد وضعت بطريقة مخصصة لإيمان شديد التحديد، مثل السؤال الذي كانت إجابته تحدد موقف «العالم» من «الله»: **«هل تؤمن بإله في تواصل فكريٍّ فعال مع الجنس البشري؟»**

السؤال يبدو مضللًا، وكثيرون ممن سيكون جوابهم بالنفي يمكن أن تتغير ردودهم لو كان السؤال: هل تؤمن بإله خالق قادر؟ أو «إله شخصي» أو «إله يسمع دعاءك»؟ أما هذا «التواصل الفكري الفعال» - ودون توضيح إن كان المقصود به الكتب السماوية أو أي شيء آخر- فهو مضلل إلى حد بعيد[2].

كما يروج البعض[3] إلى دراسة تشير إلى أن نسبة (عدم المتدينين) بين الحاصلين على جائزة نوبل أعلى بكثير من نسبتهم بالنسبة للمناطق التي ينتمون لها[4]. وبمعزل عن أهمية هذا أو عدم أهميته، فإن عدم التدين، لا يعني بالضرورة الإلحاد. والمساواة بين الأمرين أمر فيه من عدم الدقة العلميَّة الكثير (ويقابل ذلك قوائم يقدمها المؤمنون لأسماء الحائزين على جائزة نوبل الذي يؤمنون بالله)[5].

---

(1) BELIEVING SCIENTISTS IN AMERICA: POLLING FROM LEUBA TO LARSON TO PEW -Nancy Frankenberry. https://divinity.uchicago.edu/sites/default/files/imce/RCWF/BELIEVING%20SCIENTISTS%20IN%20AMERICA%20Polls%20from%20Leuba%20to%20Pew.pdf.

(2) The Dawkins Delusion?: Atheist Fundamentalism and the Denial of the Divine (Veritas Books) Paperback - July 3, 2010 , Alister McGrath page 42-43

(٣) وهم الإله ريتشارد داوكنز، النسخة العربية ص ١٠٣.

(4) Psychological Perspectives on Religion and Religiosity. Benjamin Beit-Hallahmi Routledge page 77-78

(5) http://atheismexposed.tripod.com/nobelistsgod.htm

كذلك تخلص دراسة أخرى[1] إلى أن وضع الإيمان بإله شخصي في علماء المملكة المتحدة مقارب جدًّا لوضعه في علماء أمريكا.

في استقصاء لاحق (٢٠٠٩) أُجريَ في الولايات المتحدة وتوجه إلى فئة العلماء: ٣٣٪ منهم أعربوا عن إيمانهم بالله، ١٨٪ قالوا إنهم يؤمنون بـ (قوة عليا) و٤١٪ قالوا إنهم ملحدون[2].

وفي دراسة تخص علاقة الله بالخلق، أعرب ٤٠٪ من العلماء الأمريكيين عن إيمانهم بأن الله «قاد» أو «خطط» لتطور البشر عن كائنات أدنى[3].

من ناحية أخرى، توجد دراسات أخرى تنقل صورة مغايرة للعلاقة بين العاملين في الحقل العلميّ والإيمان.

ففي استقصاء نشر عام ٢٠١٧ وتركز على العاملين في مجال البحث العلمي في المجالات الطبية والهندسية والتقنية في دول المملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا، تبين أن قرابة ٣٠٪ من المشاركين عرَّفوا أنفسهم باعتبارهم «ينتمون لدين رسمي» (أي واحد من الأديان الرئيسية) و١٠٪ قالوا إنهم يؤمنون بالروحانية دون دين محدد. حوالي الربع (٢٠٪) قالوا إنهم «ملحدون» و١٦٪ قالوا إنهم «لا أدريون».

نصف المشاركين قالوا إن العلم والدين «يعملان في مجالات مختلفة ولا يمكن المقارنة بينهما» وحوالي ٢٠٪ قالوا إنهما «متعاونان، يكمل أحدهما الآخر»[4].

شخصيًّا لا أرى الصورة التي تقدمها هذه الأرقام كئيبة إطلاقًا..

ليس من نصر ساحق ولا هزيمة كاسحة لأي طرف، على العكس مما يوحي به الملحدون مثلًا.



(1) Michael Stirrat & Elizabeth R. Cornwell : Eminent Scientists reject the supernatural- A survey of Fellows of the Royal Society
https://evolution-outreach.biomedcentral.com/articles/10.1186/1936-6434-6-33

(2) Scientists and Belief. Pew Reaserch Center November 2009.
http://www.pewforum.org/2009/11/05/scientists-and-belief/

(3) Witham L. Many scientists see God's hand in evolution. RNCSE 17(6):33
https://ncse.com/library-resource/many-scientists-see-gods-hand-evolution

(4) Attitudes to spirituality among engineering, technical and medical professionals::
Ipsos MORI. Glenn Gottfried Ipsos Public Affairs, UK, 11 September 2017
https://www.ipsos.com/ipsos-mori/en-uk/attitudes-spirituality-among-engineering-technical-and-medical-professionals

لكن هل هذه الأرقام مهمّة فعلًا لهذه الدرجة؟

فلنفترض أنَّ أهمَّ علماء البيولوجيا والكيمياء والفيزياء في أمريكا والمملكة المتحدة، وربما في أماكن أخرى مهمّة، لا يؤمنون بوجود الله.. هل يعني هذا أيَّ شيءٍ حقًّا؟ هل كانوا يبحثون عن الله في أنبوبة مختبر! ولمّا لم يجدوه ألحدوا! هل كانوا يبحثون عنه في نظرية فيزيائية؟ ولما لم يتمكنوا من صياغتها أعلنوا أن لا إله!

لماذا على رأيهم أن يكون مهمًّا لهذه الدرجة في موضوع لم يكن في صلب تخصصهم أو مجالهم قط. لماذا نعتقد أن الديمقراطية هنا صائبة، كما لو أن موضوع (وجود الله) هو مثل انتخاب رئيس بلدية أو التصويت لمطربك المفضل في مسابقة للهواة.

علينا أن نقر هنا، أن هذا التسطيح للأمر، يسقط فيه المؤمنون أيضًا.. فكلما حضر نقاش الإيمان والإلحاد، شهر القوم إحصاءاتهم وبياناتهم الملونة، وقدموا لنا خريطة العالم بألوان متدرجة، وفسروا لنا الألوان وتدرجاتها، فإذا بالمؤمنين لا يزالون أغلبية في العالم المعاصر.. إذن كل ما سمعتموه عن انتشار الإلحاد لا يعدو أن يكون تضخيمًا إعلاميًّا من شبكات إعلام منحازة لأجندات إلحادية.. نحن بخير رغم كل شيء!!

لكن ماذا لو لم تكن الجماهير مؤمنة حقًّا؟ ماذا سيتغير في حقيقة (وجود الله) لو لم يؤمن أحد أصلًا.. كيف نخضع حقيقة كهذه لمزاج وتقلبات الرأي العام؟.. لو قبلنا بالإحصاءات المرتفعة للإيمان كدليل على أي شيء، ألا يجعلنا هذا في زاوية ضيقة تلزمنا بأن نقبل النتيجة المقبلة التي قد تكون مغايرة؟

(وجود الله) أمر فوق كل هذا.. خارج هذه السياقات بإحصاءاتها السلبية والإيجابية.. لو كنا نؤمن بوجوده حقًّا، فلا يجب أن يزيد إيماننا لو كان كل البشر مؤمنين مثلنا، ولا ينقص لو أن البشر كفوا عن إيمانهم، كذلك النسبة المرتفعة للملحدين بين علماء هذه الجمعية أو تلك، أو حتى من صفوة العلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل، يجب ألا تغيِّر في الحقيقة أي شيءٍ.

هؤلاء علماء متميزون جدًّا في مجالاتهم، في البحث عن أجوبة لأسئلة تفصيليّة في مجالات تخصصهم «المادية» - «الطبيعية»، لكن سؤال (وجود الله) لم يكن يومًا في نطاق بحوثهم.. لأنه سؤال خارج «الطبيعة والمادة» ومفاهيمنا عنهما.

يمكنهم أن يؤمنوا بالعدم أو يلحدوا أو يؤمنوا بما يشاؤون، كما يمكن لأي شخص آخر.. لكن سؤال (وجود الله) لم يكن يومًا ما ضمن مجالهم.

هل ستكون خياراتهم الشخصية في شتى مجالات الحياة الأخرى مهمَّة؟ هل سيكون رأيهم في الزواج، في إنجاب الأطفال، في تربيتهم مهمًا أيضًا؟

هل ستكون موسيقاهم المفضلة أو أكلتهم المفضلة مهمّة أيضًا؟

لو حاول أحد أن يروج لذلك، لبدا غريبًا جدًّا..

ولكن الأمر في حقيقته لا يختلف عن الترويج للإلحاد (أو للإيمان) عبر كونه رائجًا عند العلماء.

في الحالتين، الأمر ليس من اختصاصهم.. موقفهم من الإيمان أو الإلحاد أو من وجود الله هو موقف شخصي، لا علاقة له بتفوقهم في مجال علمي محدد.. مثلما رأيهم في الزواج أو تربية الأطفال لا علاقة له بهذا التفوق.. علمًا أن الاستقصاءات لم تطرح سؤال إن كان هذا (الإلحاد/أو الإيمان) مرتبطًا بالعلم الذي برز فيه هؤلاء أو أن موقفهم هذا كان بسبب «علمهم»..

لا يعني هذا ألا يقولوا ما يؤمنون به أو لا يؤمنون..

لكنه يبقى من قبيل الرأي الشخصي لإنسان متفوق في مجال لا علاقة له بهذا الرأي.

فقط من يعتقد أن الإله مادي ومجسم، عليه أن يعتقد بأهمية جواب العلماء عن هذا السؤال.. أما ما وراء الطبيعة، فلا يمكن لعلماء الطبيعة أن يجيبوا عن أسئلتها.

* * *

وفي الحالتين، الأمر يستند على مغالطة منطقيّة مرَّ ذكرها فيما سبق.

الاعتماد على نسبة العلماء الملحدين ومنجزاتهم العلمية، يستخدم مغالطة النخبة.

والاعتماد على نسبة الجماهير المؤمنة التي لا تزال تؤمن بالله رغمًا عن كيد الكائدين، يستخدم مغالطة الانتشار.

وفي الحالتين، هذا الاستخدام غير منطقي ولا علاقة له بصلب الموضوع، موضوع البحث.. وجود الله.

* * *

في الحقيقة، ورغم نسبة الملحدين المرتفعة بين قائمة العلماء التي استخدمها داوكنز، فإن هذا الموقف الشخصي لهؤلاء، لا يعكس موقفًا رسميًّا للأكاديمية التي يمثلونها، فالأكاديمية الوطنية للعلوم أكدت بوضوح، أن موقف العلم من وجود الله هو موقف محايد[1]. موقف ليس لديه ما يقوله بهذا الشأن، لأن هذا ببساطة ليس مجال بحث العلم.

* * *

الحديث عن نسب العلماء الملحدين، يمكن أن يقودنا إلى التذكير بأن هذا النوع من الديمقراطيّة كان يمكن أن يطيح بأهم النظريات العلمية التي شكلت لاحقًا ثورات علمية غيرت وجه العالم.

أغلب العلماء وقت غاليلو، وقت كوبرنيكوس، وقت نيوتن، وقت آينشتاين، كانوا ضد ما جاء به هؤلاء تمامًا، ورفضوا طروحاتهم وسخفوها وسخروا منها.

رغم أن هذه الطروحات كانت في (مجال تخصصهم).

لو كانت «الأغلبية» مهمّة آنذاك، ولو كان يمكن أن يُبنى شيءٌ عليها، لتوقفت هذه النظريات وألغيت، بما في ذلك نظرية داروين نفسها.

لكنها لم تكن مهمّة.

فلماذا تكون مهمّة في أمر لا يدخل أصلًا في مجال تخصصهم؟

(1) Chapter 5: Frequently Asked Questions About Evolution and the Nature of Science | Teaching About Evolution and the Nature of Science | The National Academies Press

https://www.nap.edu/read/5787/chapter/6#58

National Academy Of Sciences , Teaching About evolution and the nature of Science. Page 58.

العالم «المُنَظَّم» يدل على «ناظِم»

إذا دخلت منزلك ووجدت كل شيء فيه رأسًا على عقب، وكانت النوافذ مفتوحة، فربما ستتوقع أن الرياح التي عصفت قبل قليل هي السبب في ذلك.

لكن إذا تركته صباحًا وهو في حالة فوضى ثم دخلته مساءً ووجدت كلَّ شيء في غاية الترتيب والنظام، الطعام معدٌّ على المائدة، والثلاجة مليئة بما لذ وطاب، ثمة زهور على المائدة أيضًا، وملابسك مكوية ومعدة في الخزانة، فإنك ستكون واثقًا تمامًا من أن من فعل كل هذا هو إنسان تعمد ذلك وفعله عن تخطيط مسبق.

لن تفكر لوهلة واحدة أن العاصفة قد فعلت ذلك.

في ذهنك، وعلى نحو بديهي: العلاقة السببية بين الأشياء تذهب إلى بعد آخر عندما يكون الناتج «منظمًا».. دقيقًا.. يبدو على الأقل كما لو أنَّه معد سلفًا لهدف معين.

كل شيء له سبب ومسبب.. بشكل عام..

لكن هذا الشيء – لو كان منظمًا ودقيقًا – فإن مسببه سيكون بداهة سببًا «عاقلًا» واعيًا بما يفعل، وكلما زاد تعقيد «الشيء الناتج» زادت احتمالية أن يكون مسببه واعيًا تمامًا بما يفعل، وأنه يفعله ضمن خطة معدة مسبقًا.

كمثال: العاصفة يمكنها فعلًا أن «تزيح» أوراق الأشجار من الباحة على نحو سيبدو أنها «كنستها». العاصفة بالتأكيد غير مدركة لما فعلته ولا يوجد سبب حقيقيّ يقنعنا أنها فعلت ذلك عامدة.

لكن لو حدث أن أوراق الأشجار قد أزيحت من الباحة، وصار هناك سياج خشبي يُسوِّر الحديقة، ووجدت أنَّ السياج قد طُليَ بألوان زاهية ورُسمت عليه زهور ملونة، فأنت تعرف حتمًا أن العاصفة لم تفعل كل ذلك، وأن أوراق الأشجار قد أزيحت كنسًا – ولم يحدث ذلك صدفة بسبب العاصفة.

أنت تعرف بداهة أن هناك من فعل كل ذلك وفق خطة مسبقة، حتى لو لم تكن تعرفه أو لم تكن تعرف هدفه النهائي في كل ذلك.

هذا هو باختصار ما يسمونه عادة «ببرهان النظام أو النظم» من براهين وجود الله سبحانه وتعالى، وهو يعتبر من أقدم البراهين وأكثرها شعبيَّة.

* * *

لكنك ستقول إنك لم ترجع يومًا إلى منزلك لتجده مرتبًا والطعامَ معدًا دون أن تكون قد اتفقت مع أحد مسبقًا..

وخارج المنزل أيضًا، تبدو الحياة كما لو كانت سلسلة متصلة من المحاولات والكفاح والتعب، لا شيء فيها يبدو يسيرًا كما لو أنَّ هناك من أعدها لك بالضبط كما يشير المثال السابق.

وهذا صحيح، حياتك سلسلة متصلة مما ذكرت، وهو أمر سنتحدث عنه لاحقًا.

لكن ماذا عن الحياة نفسها؟

ماذا عن إمكانية وجود الحياة من الأساس؟ وهو الأمر الذي يُبنى عليه كلُّ شيءٍ لاحقٍ في حياتنا بأسرها.

أي تفحص لهذا الأمر من هذه الزاوية، سيجد أنه أقرب إلى أن يكون هناك من رتب الأمر كله ليجعله مهيأً للحياة.

فلننتبه هنا إلى أننا لا نتحدث عن إعجاز علمي أو عن مقاربة العلم مع تأويلات لآيات قرآنية.. نحن لا نزال نتحدث عن إله خالق مدرك واعٍ وليس عن إله الكتب السماوية.

هل هناك حياة على كوكب آخر؟

لبضعة عقود، بين ستينيات وتسعينيات القرن الماضي، سادت في المجتمع العلمي فرضيات عن إمكانية وجود حياة «عاقلة» في مجرة درب التبانة وفي الكون عمومًا، ودُعم ذلك عبر علماء عديدين، خصوصًا عبر عالم فلك معروف امتلك شعبية وشهرة كبيرة آنذاك هو كارل ساغان[١]، الذي كان يعتقد بوجود قرابة عشرة ملايين «حضارة متقدمة» داخل مجرتنا فحسب، عدا عن المليارات خارجها[٢].

---

(١) كارل ساغان (١٩٣٤- ١٩٩٦) عالم فلك أمريكي، أستاذ اكاديمي في جامعة كورنيل، وعرف بتقديمه لسلسلة علمية متلفزة cosmos والتي اعتبرت من أكثر البرامج مشاهدة في الولايات المتحدة، وعرف بكتبه الشعبية التي قربت العلم من عامة الناس، كان ساغان يؤمن تمامًا بوجود حياة خارج كوكبنا وقاد حملة لدراسة هذا الأمر.

(2) TEN MILLION CIVILIZATIONS NEARBY - The New York Times

https://www.nytimes.com/1981/01/25/books/ten-million-civilizations-nearby.html

عماد هذا الاعتقاد كان فكرة وجود «نطاق صالح للحياة» داخل مجرة ما circumstellar habitable zone، وتعتمد الفكرة بشكل أساسي على وجود كوكب صخري، يمتلك كتلة مناسبة، ويمكنه الاحتفاظ بالماء في الحالة السائلة، على مسافة مناسبة من نجم مشابه للشمس.

وفق هذا السياق، بدا من غير المستبعد أبدًا وجود هذه المتطلبات التي تؤهل الكثير من الكواكب لنشوء الحياة عليها.

لكن علماء آخرين، يرون أنَّ الأمر أكثر تعقيدًا من هذا.

ما الذي جعل الحياة ممكنة على كوكب الأرض؟

الحياة على الأرض ظاهرة معقدة لا يمكن فهمها من خلال بعد واحد، توصيف هذه الظاهرة من كل جوانبها سيمنحنا القدرة على فهم التداخل في العوامل التي أدت إلى جعل الحياة ممكنة على كوكب الأرض.

الصورة الكبيرة للحياة على كوكب الأرض لا بد أن تشمل عوامل متعددة، متداخلة فيما بينها، تضافرت معًا للوصول إلى جعل كوكب الأرض قادرًا على أن يستقبل الحياة..

من أهم هذه العوامل..

أولًا - المسافة المناسبة التي تفصل الأرض عن الشمس والتي جعلت درجة الحرارة على الأرض مناسبة للمحافظة على الماء في الحالة السائلة (وهو متطلب أساسي بالنسبة للحياة بشكلها الذي نعرفه).. المسافة الأقرب كانت ستجعل الماء سريع التبخر، والأبعد كانت ستجعله متجمدًا تمامًا.

ما يتداول عن أن عشرة أقدام أقرب أو أبعد من الشمس ستؤدي إلى نهاية الحياة على الأرض ضرب من مبالغات لا معنى لها لأن الأرض في دورانها الإهليليجي حول الشمس تختلف في قربها من الشمس بحوالي ٥ ملايين كيلومتر، لكن بمجرد مقارنة الجو بين الكوكب الذي يلي الأرض في القرب من الشمس (الزهرة) والذي يليه في البعد عنها (المريخ) نستدل على أثر موقع الأرض بينهما على درجة الحرارة.

فالزهرة تبعد عن الشمس بمقدار ١٠٨ ملايين كيلومتر.

والمريخ يبعد عن الشمس بمقدار ٢٢٧ مليون كيلومتر.

بينهما الأرض التي تبعد عن الشمس بمقدار ١٥٠ مليون كيلومتر.

الزهرة معدل الحرارة فيها ٤٦٢ درجة مئوية معظم أيام السنة[1].

المريخ معدل درجة الحرارة فيه تحت الصفر المئوي بنحو ٦٠ درجة، في قطبيه يمكن أن تهبط درجة الحرارة إلى تحت الصفر المئوي ب ١٢٥ درجة، يوم صيفي في المريخ قد تكون درجة الحرارة فيه قريبة من ال ٢٠ درجة مئوية نهارًا، لكنها تهبط إلى ١٠٠ تحت الصفر ليلًا[2].

الأرض تقع في مدار وسيط بين مداري الزهرة والمريخ، ودرجات الحرارة فيها تعكس هذا التوسط، صحيح أن ثمة عوامل أخرى تتحكم بدرجة الحرارة غير البعد عن الشمس، لكن هذا الأمر يلعب دورًا مهمًا بالتأكيد، والأرض موجودة في مسافة تجعل من درجات الحرارة مناسبة لنشوء الحياة، وهو أمر لا يتوفر في المجموعة الشمسيّة إلا في الأرض، وإن كان لا يعني عدم توفره في مجرات أخرى بالضرورة.

ثانيًا - وجود قمر بحجم كبير (بالمقارنة ببقية أقمار كوكب المجموعة الشمسية) وعلى مسافة مناسبة لعب دورًا مهمًا في تثبيت ميل محور دوران الأرض، الذي يعتقد أنه كان - من دون وجود القمر - سيكون عشوائيًّا ويتراوح بين درجة الصفر إلى ٨٥ درجة، بينما يوجد القمر على ميل محور الأرض بدرجة ٢٣,٤ مع تذبذب بسيط بمقدار + -١,٣ درجة. هذا الثبات وفر مناخًا مستقرًا بفصول متعاقبة سهلت من نشوء الحياة واستدامتها، بينما عشوائية المحور كانت ستؤدي إلى نتائج مناخية لا يمكن معها نشوء الحياة كما نعرفها[3]، الشمس مثلًا - في هذه الحالة - ستشرق مباشرة على القطبين، وليس على خط الاستواء[4].

---

(1) How Hot Is Venus? The Average Temperature Is Hotter Than You Think
https://www.space.com/18526-venus-temperature.html

(2) What is the Temperature of Mars?
https://www.space.com/16907-what-is-the-temperature-of-mars.html

(3) Stabilization of the Earth's obliquity by the Moon | Nature
https://www.nature.com/articles/361615a0

(4) Earth's Stabilizing Moon May Be Unique Within Universe
https://www.space.com/12464-earth-moon-unique-solar-system-universe.html

كما ساهم القمر مباشرة في تكوين ظاهرة المد والجزر والتي يعتقد أنها لعبت دورًا مهمًا في نشوء الحياة على الأرض وانتقالها من الماء إلى اليابسة[١] [٢].

رغم وجود أقمار في الكثير من الكواكب في مختلف المجرات، إلا أن أغلبها كان صغيرًا بحيث لا يؤدي دورًا مهمًا على الكوكب - الأم، فقط قلة منها (٨٪) يمكن أن تشبه القمر وعلاقته بالأرض[٣].

ثالثًا - **حجم الأرض مناسب لتكوين جاذبيّة أرضيّة** كافية للمحافظة على الغازات الضرورية للحياة التي تجعل من الكوكب قابلًا لوجود حياة.

لو كانت الأرض أكبر حجمًا، لكانت جاذبيتها أشد ولاحتفظت بغازات الهيليوم والهيدروجين التي كانت الأكثر انتشارًا في البداية، ولأجل ذلك تكون الحياة - كما نعرفها - أمرًا مستحيلًا[٤].

رابعًا - **المجال المغناطيسي للأرض** لعب دورًا مهمًا في حماية الكائنات الحيّة من الأشعة الكونية المضرة التي تنبعث من الشمس، بعض الدراسات تشير إلى أن البكتيريا - أو الكائنات وحيدة الخلية - وحدها فقط يمكن أن تعيش دون وجود هذا المجال المغناطيسي[٥]، حيث إن الـ DNA سيكون معرضًا للدمار بسبب أشعة غاما والأشعة فوق البنفسجية الصادرة عن الشمس (الأقوى آنذاك، قبل ٥٠٠ مليون سنة) دون وجود حماية للمجال المغناطيسي.

كما لعب هذا المجال المغناطيسي دورًا في حماية مناخ الأرض ومحيطاتها.

خامسًا - **وجود الماء في الأرض** وعلى نحو يغطي أكثر من ٧٠٪ من سطح الأرض، حيث كل أنواع الكائنات الحيّة تحتاج إلى شكل من أشكال الماء في وجودها واستمرارها بالحياة، يتميز الماء بأنه يمكن أن يتواجد في حالاته الثلاث (السائلة والغازية والصلبة) ضمن نطاق اختلاف درجات الحرارة على كوكب الأرض، وهذا بدوره حافظ على وجود الماء في الكوكب، حيث إن

---

(1) Ocean tides could have driven ancient fish to walk
https://www.nature.com/articles/d41586-018-02034-w

(2) Without the Moon, Would There Be Life on Earth? - Scientific American
https://www.scientificamerican.com/article/moon-life-tides/

(3) Earth's Stabilizing Moon May Be Unique Within Universe
https://www.space.com/12464-earth-moon-unique-solar-system-universe.html

(4) Earth's First Atmosphere Contained What Gases? | Sciencing
https://sciencing.com/earths-first-atmosphere-contained-gases-2034.html

(5) You might still be a simple bacterium, if not for magnetism - The Washington Post
https://www.washingtonpost.com/news/speaking-of-science/wp/2016/04/14/you-might-still-be-a-simple-bacterium-if-not-for-magnetism/?noredirect=on&utm_term=.0c75d93b2522

كوكبًا بدرجات حرارة مختلفة كان يمكن أن يحول الماء إلى حالة واحدة (متجمدة) في كوكب بدرجة حرارة منخفضة وغازية بدرجة حرارة مرتفعة، لكن تنوع درجات الحرارة في الأرض ساهم في تدوير المياه وديمومتها على سطح الأرض.

سادسًا - وجود الكربون كوحدة أساسية للحياة لعب تحرر الكربون من باطن الأرض دورًا مهمًا في نشوء الحياة.وتعتبر الحياة على الأرض مبنية على الكربون، ولهذا تسمى «الحياة الكربونية»، كل الجزيئات المعقدة تحتوى على الكربون مرتبطًا مع عناصر أخرى ويعود تميز الكربون عن بقية العناصر الكيميائية إلى قدرة ذراته على الارتباط بعدد لا نهائي من ذرات الكربون(1) وتكوين سلاسل يمكنها الارتباط بذرات من عناصر أخرى، وهو بذلك المكون الأساسي للسكريات والبروتينات والدسم والحمض النووي والنسج والعضلات.

ويرتبط وجود الأوكسجين بوجود ثاني أوكسيد الكربون في الجو، كما يساهم ثاني أوكسيد الكربون فيما يعرف بظاهرة (تأثير البيت الأخضر) وهي الظاهرة التي تقوم فيها غازات معينة (ثاني أوكسيد الكربون وبخار الماء والميثان) بحبس الحرارة التي يفترض أن تخرج من الأرض إلى الفضاء، وبالتالي تحافظ على درجة حرارة الأرض.

دون هذا التأثير ستنخفض درجات الحرارة إلى معدلات لا يمكن للحياة أن تستمر فيها.

كذلك فإن نسبة ثاني أوكسيد الكربون في الجو مناسبة لإحداث هذا الأثر الحابس للحرارة دون أن تزيد عن ذلك فتؤدي إلى ارتفاعها لدرجة تؤدي إلى تبخير مياه المحيطات.

سابعًا - العلاقة بين الصفائح (التكتونية) العملاقة التي يتكون منها غلاف الأرض الصخري: حيث تتحرك هذه الصفائح وعلى النحو الذي شكل القارات وسلاسل الجبال العملاقة ومختلف التضاريس، وبسبب هذه التحركات وانزلاق أجزاء من الصفائح تحت أخرى تكونت البراكين التي ساهمت في إطلاق الغازات المخزونة تحت سطح الأرض وتشكيل المناخ الأرضي المكون من نتروجين وثاني أوكسيد الكاربون - وهو المناخ المناسب لنشوء الحياة على سطح الأرض(٢).

هذه الحركة المستمرة تساهم في إعادة تدوير ثاني أوكسيد الكربون في المناخ الأرضي وتعمل على تجديد وإعادة تدوير القشرة الأرضية على نحو يجعل الأرض حيّة ومتحركة داخليًا.

---

(1) Carbon - Why Carbon Is Special - Atoms, Atom, Molecule, and Electrons - JRank Articles
http://science.jrank.org/pages/1202/Carbon-Why-carbon-special.html

(2) Earth's nitrogen-rich atmosphere linked to plate tectonics | Ars Technica
https://arstechnica.com/science/2014/10/earths-nitrogen-rich-atmosphere-linked-to-plate-tectonics/

الصفائح التكتونية تتطلب جملة من الشروط لكي تحدث (حجم الكوكب، وحجم القشرة، وجود الماء[1] بكمية كافية)، وهذا يجعل من الأرض الكوكب الوحيد المعروف الذي حدثت فيه هذه الظاهرة[٢].

ثامنًا - التركيب الضوئي وظهور الأوكسيجين: قرابة نصف عمر الكرة الأرضية مضى دون أن يكون هناك أوكسيجين في الغلاف الجوي للأرض، إلى أن ظهر قبل ٢,٤ مليار سنة، أي بعد ملياري سنة من نشوء الكرة الأرضية، ويفسر ظهور الأوكسيجين (الغاز الذي لا يمكن أن نحيا من دونه) بالحياة نفسها، وذلك عند ظهور نوع معين من كائنات حية وحيدة الخلية هي الساينوبكتيريا[٣] القادرة على القيام بعملية التركيب الضوئي[٤] والتي كان الأوكسيجين أحد نواتجها الذي لا تستفيد منه هذه البكتيريا، لذا تقوم بإطلاقه إلى الجو[٥]، واستغرق الأمر بضعة ملايين من السنين تراكم فيها الأوكسيجين إلى أن أصبح جزءًا أساسيًّا من الغلاف الجوي لكوكب الأرض[٦].

نسبة الأوكسجين تذبذبت عبر الـ ٦٠٠ مليون سابقة، حيث وصلت إلى أعلى نسبة لها قبل ٢٨٠ مليون سنة عندما وصلت إلى ٣٠٪[٧] - وهي نسبة كافية لتسهيل نشوب الحرائق حتى في النباتات الرطبة، ثم استقرت النسبة عند ٢١ ٪ للخمسين مليون سنة الماضية[٨].

كل هذه العوامل ساهمت - بتداخل كبير - في إمكانية نشوء الحياة على كوكب الأرض، وهي عوامل جعلت من كوكب الأرض مميزًا حتمًا عن بقية كواكب المجموعة الشمسية، وربما عن كواكب بقية المجموعات في المجرة أو المجرات الأخرى.

---

(1) Plate tectonics: why only on Earth?
https://www.europhysicsnews.org/articles/epn/pdf/2009/04/epn20094p27.pdf

(2) Earth's Tectonic Activity May Be Crucial for Life--and Rare in Our Galaxy - Scientific American
https://www.scientificamerican.com/article/earths-tectonic-activity-may-be-crucial-for-life-and-rare-in-our-galaxy/

(3) The Origin of Oxygen in Earth's Atmosphere - Scientific American
https://www.scientificamerican.com/article/origin-of-oxygen-in-atmosphere/

(٤) التركيب الضوئي: عملية كيميائية تقوم بها النباتات حيث تحول ثاني أوكسيد الكربون إلى سكريات بمساعدة أشعة الشمس والماء، وينتج الأوكسيجين عن هذه العملية بمقدار مساوٍ لثاني أوكسيد الكربون المستهلك.

(5) The bacteria that changed the world
https://evolution.berkeley.edu/evolibrary/news/170503_cyanobacteria

(6) Introduction. Photosynthetic and atmospheric evolution
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC2459219/

(7) Atmosphere of Earth - Wikipedia

(8) Oxygen fuels the fires of time – ScienceDaily
https://www.sciencedaily.com/releases/2010/08/100802091125.htm

لكن من ناحية نظرية، لو توفرت هذه العوامل في كوكب آخر أو ما يقاربها، ضمن مجموعة أخرى أو مجرة أخرى، فإن هذا الكوكب سيكون قابلًا للحياة.

أم أن هذه احتمالية بعيدة؟

فرضية «الأرض النادرة»

في كتابيهما (الأرض النادرة: لماذا الحياة المعقدة ليست شائعة في الكون[1]) قدم عالم الجيولوجيا دونالد براونلي وعالم الفلك بيتر وارد فرضية «الأرض النادرة» التي تستنتج أن احتمالية وجود حياة ذكيّة معقدة في الكون، في أي مكان آخر غير كوكب الأرض، أمر نادر جدًّا.

تابع الكتاب الاحتمالات التي يمكن فيها توفر ظروف مشابهة لتلك التي ساعدت على نشوء وتطور الحياة على الأرض، ومن ضمن ما يتوسع به صاحبا الكتاب، العوامل التي ذُكرت آنفًا وعوامل أخرى توفرت لكوكب الأرض، ويجب أن تتوفر لأي كوكب آخر لكي تنشأ الحياة فيه، من ذلك:

١ - حجم وسطي للنجم (مثل الشمس في حالة الأرض) بحيث لا يكون صغيرًا جدًّا فينطفئ بسرعة ولا كبيرًا جدًّا فتكون الأشعة فوق البنفسجية الصادرة عنه كثيرة جدًّا.

٢ - وجود كوكب مثل المشتري - ليس قريبًا جدًّا ولا بعيدًا جدًّا - يقوم بحماية الأرض عبر جذب المذنبات والكويكبات بحيث تصطدم به بدلًا من أن تضرب الأرض[٢]. كما أن ترتيب الأرض بين الكواكب في المجموعة الشمسية يبدو مثاليًّا ومطلوبًا أيضًا في أي مجموعة أخرى تساعد على وجود حياة على كوكب من ضمنها، حيث تكون الكواكب الصغيرة الصخرية في الداخل، والكواكب العملاقة الغازية إلى الخارج.

٣ - وجود الكوكب داخل مجرة مناسبة، تحتوي على المعادن الثقيلة، ليست صغيرة، ولا بيضاوية ولا غير منتظمة.

٤ - موقع الكوكب داخل المجرة، ليس في مركزها حيث يكون الإشعاع عاليًا جدًّا، وليس في أطرافها حيث تقل فيها المعادن وتعتبر «مناطق ميتة» بل في منطقة متوسطة بين المجالين.

---

(1) Rare Earth: Why complex life is uncommon in the universe? Peter D. Ward, Donald Brownlee, Copernicus Books, 2000.

(٢) هذا الدور ليس متفقًا عليه من قبل الجميع، حيث إن هناك ما يشير إلى أن المشتري يقوم أحيانًا بدور معاكس.

٥ - مجموعة أحداث نادرة جدًّا وحدوثها في وقت محدد أدى إلى حماية الحياة وتطورها، وهي ما يسميه المؤلفان: بطاقات الحظ، مثل تعرض الأرض إلى ضربات كبيرة في وقت محدد (قبل ٦٦ مليون سنة) ساعد على القضاء على الديناصورات التي كانت الحيوانات الأكثر سيطرة في تلك الفترة، وتوقف حدوث مثل هذه الضربات لاحقًا، من بطاقات الحظ الأخرى: تحول الأرض إلى كرة ثلج كبيرة قبل ٥٨٠ - ٧٥٠ مليون سنة أدى إلى احتجاز الفوسفور، ثم إطلاقه في المحيطات عند ذوبان الجليد، الأمر الذي أدى إلى حدوث ازدهار كبير للكائنات الحية. ومن بطاقات الحظ الأخرى: ما يعرف بالانفجار الكامبري، وهو ظهور مفاجئ لأنواع جديدة من الكائنات الحية في الفترة ما بين ٥٢٠ - ٥٣٠ مليون سنة.

يخلص الكتاب إلى تكوين معادلة تعرف بمعادلة الأرض النادرة، وهي إجابة لمعادلة سابقة عرفت بمعادلة دريك [1] قدمت في ستينيات القرن العشرين لبحث احتمالات وجود كائنات حية عاقلة غير البشر في الكون.

هذه المعادلة هي:

$$N = N^* \, f_p \, f_{pm} \, n_e \, f_g \, f_i \, f_c \, f_l \, f_m \, f_j \, f_{me}$$

حيث N هي عدد الكواكب الصالحة لنشوء الحياة.

N* هو عدد النجوم الموجودة في مجرة درة التبانة.

fp هي نسبة النجوم المتلكة لنظام كوكبي في مجرة درب التبانة.

fpm نسبة الكواكب الغنية بالمعادن.

ne هو معدل عدد الكواكب الواقعة في النطاق الصالح للحياة لذلك النجم.

fg هو عدد النجوم الموجودة في النطاق المجري الصالح للحياة.

fi هو نسبة الكواكب الموجودة في النطاق الصالح للحياة التي يحتمل نشوء حياة عليها.

fc نسبة الكواكب التي يحتمل نشوء حياة متعددة الخلايا عليها.

fl نسبة حياة الكوكب الكاملة التي نشأت خلالها حياة متعددة الخلايا.

fm نسبة الكواكب المتلكة لأقمار كبيرة الحجم.

(1) Drake equation - Wikipedia

fj = نسبة الأنظمة الشمسية التي تمتلك كواكب بحجم كوكب المشتري.

fme = نسبة الكواكب الممتلكة لرقم متدنٍ من الأحداث المسببة للانقراض.

ورغم أن الكثير من هذه الأرقام غير معروف بوضوح، ويجب أن تقدر بهامش خطأ كبير، إلا أنه من المهم التذكير بأن أي عامل من هذه العوامل يقترب من الصفر سيقود بالناتج النهائي إلى الاقتراب من الصفر أيضًا.

لا يقدم الكتاب رقمًا للناتج النهائي المتوقع من هذه المعادلة، ويترك الباحثان الأمر إلى المزيد من التقدم العلمي الذي يوصل إلى معلومات ستجعل الأرقام المدخلة أكثر دقة، إلا أنهما يصلان بوضوح إلى أن كوكبًا مناظراً لكوكب الأرض، يحتوي على حياة عاقلة، هو كوكب نادر جدًّا، لو وُجِد أصلا.

كوكب الأرض: واحد من ٧٠٠ كوينتليون!

دراسة أخرى[١]، قدمت نموذجًا كمبيوتريًا يحاكي نشوء الكون وتطوره بعد الانفجار العظيم، توصلت إلى أن ثمة ٧٠٠ كوينتليون كوكبًا في الكون، أي ٧٠ يليها عشرين صفرًا، ولكن كوكب الأرض وحده متفرد بما يجعله مؤهلًا للحياة من بين كل هذه الكواكب[٢].

في دراسة أخرى[٣]، توصل باحثون في جامعة أوكسفورد إلى أن احتمالية أنَّ الحياة في مجرة درب التبانة هي على كوكب الأرض حصريًا تصل إلى ٩٩,٦٪ .. وإلى ٨٥٪ في الكون كله[٤].

لا ندعي هنا أن هذا الأمر - كون الأرض هي الكوكب الوحيد الذي يحوي الحياة المعقدة أو الذكية - محسوم دون جدل ودون انتقادات ودون وجود دراسات أخرى تقترح وجود ملايين الكواكب القابلة للحياة والتي نشأت فيها حياة متطورة، ويدعم ذلك علماء معروفون مثل

(1) TERRESTRIAL PLANETS ACROSS SPACE AND TIME Erik Zackrisson, The Astrophysical Journal 833(2) · February 2016
https://arxiv.org/pdf/1602.00690v1.pdf

(2) Earth May Be a 1-in-700-Quintillion Kind of Place - D-brief
http://blogs.discovermagazine.com/d-brief/2016/02/22/earth-is-a-1-in-700-quintillion-kind-of-place/#.XDeCxE7eyj5

(3) Dissolving The Fremi Paradox ,Anders Sandberg, Eric Drexler, Toby Ord, preprint edition June 2018
https://arxiv.org/pdf/1806.02404v1.pdf

(4) Humans 'probably only intelligent life in the Universe' | The Week UK
https://www.theweek.co.uk/space/94543/humans-probably-only-intelligent-life-in-the-universe

ستيفن هوكنغ[1].. لكن هناك دعم متصاعد بلا شك لفرضية الأرض النادرة، كما أن هناك أيضًا نقدًا كبيرًا لها، المهم أن ما كان قد أصبح أمرًا سائدًا حتى تسعينات القرن الماضي، من وجود حياة عاقلة في مكان آخر في الكون، لم يعد كذلك، بل صار هناك علماء في مختلف المجالات يؤيدون فرضية أن كوكب الأرض قد يكون متفردًا في استعداده للحياة في هذا الكون[2].

* * *

ماذا يعنينا من أن تكون الأرض هي الكوكب الوحيد الذي يضم حياة عاقلة أو متطورة.. أو أن تكون هناك مليون حضارة متقدمة في الكون؟

مبدئيًا، وفيما يتعلق بموضوع الإلحاد، لا علاقة لهذا الأمر بالإلحاد، ولو ثبت الآن أن هناك حياة عاقلة في أي مكان في الكون، فإن من يؤمن بالله سيؤمن بأن أي خلق آخر في الكون سيكون من خلقه أيضًا، بل سيجد نصوصًا دينية تنسجم مع ذلك، والحقيقة أن النصوص لا تقول شيئًا عن هذا، لا نفيًا ولا إثباتًا، لأن هذا الأمر أصلًا ليس مهمًا في نطاق السبب الذي أنزلت من أجله هذه النصوص، ولكن استنطاقها يمكن أن يذهب بأي اتجاه.

إذن، إذا كان الأمر لا يخص الإلحاد أو الإيمان.. فما علاقتنا هنا به؟

لأننا نتحدث عن النظام الكوني.. عن وجود ترتيب معين أدى إلى نشوء الحياة على الأرض..

الأمر هنا يشبه أن تعود للبيت فتجده نظيفًا مرتبًا وكل شيءٍ معد كما تشتهي وأكثر، لا بد أن هناك من فعل هذا..

كذلك مع الأرض واستعدادها للحياة..

كتلة الأرض التي تنتج مقدارًا معينًا من الجاذبية الأرضية، موقعها عن الشمس، وجود القمر، وجود المشتري، وجود الكربون، ظهور الأوكسيجين، وجود المجال المغناطيسي بدرجة معينة، الصفائح التكتونية، حجم وسطي للشمس، مجرة تحتوي على معادن.. بطاقات حظ إضافية...

كلُّ شيءٍ يبدو كما لو أنه أُعد لكي تأتي الحياة هنا..

كلُّ شيءٍ يبدو كما لو أنه «فعل فاعل».. فاعل واعٍ مُخَطِّط لما يفعل بدقة..

---

(1) Life in the Universe - Stephen Hawking

http://www.hawking.org.uk/life-in-the-universe.html

(2) Rare Earth hypothesis - Wikipedia

كلُّ شيءٍ يبدو مترابطًا مع بعضه بعضًا وعلى نحو يقود - في رحلة تستغرق ٤ مليارات سنة، إلى الحياة.

فعل فاعل؟

مرة أخرى، لا نتحدث هنا عن الإله كما تتحدث عنه الكتب السماوية، بل إن مؤسسي فرضية الأرض النادرة لم يذكرا الإله أو الخالق بكلمة واحدة في كتابهما، ولا نعرف إن كانا ملحدين أو مؤمنين أصلًا.. هذا الأمر لم يكن في سياق بحثهما لأن بحثهما «علمي بحت» لا يتدخل فيما هو خارج نطاقه..

نتحدث عن «إله ما»، خلق كل شيء وكان هو السبب في كل الخليقة..

حدسك وحسك البديهي سيقول لك بالتأكيد: هناك من رتب كلَّ شيءٍ لتكون الأرض مهيأة لاستقبال الحياة.. نفس حدسك الذي تستعمله اعتياديًّا في حياتك اليومية دون أن تعطله لهذا السبب أو ذاك.. إذا كُسِر زجاج نافذتك ووجدت كرة داخل غرفتك، فأنت تعرف بديهيًّا أنها جاءت بينما كان أولاد الجيران يلعبون في الخارج، لم تنبع الكرة من لا مكان، ولم تتحطم الزجاجة بلا سبب، هناك من أخطأ في تصويبها نحو المرمى لتصل لنافذتك..

للأسف، البعض يتعامل مع الحس البديهي في «حياته» اليومية الشخصية دون أي تردد.

لكن عندما يتعلق بأصل «الحياة»، فإنه يرفض استخدام البديهة..

* * *

ربما كان الأمر مجرد «صدفة».

حدث «هكذا». خبط عشواء.

تحدث أحيانًا مصادفات في حياتنا، وبعض المصادفات خير من ألف ميعاد، من يمكنه أن ينكر. بعض الأشخاص يبتسم لهم الحظ، ويربحون اليانصيب.

لماذا لا نقول إن كوكب الأرض قد حصل على اليانصيب؟ وكان من نتائجها أنه أصبح - الوحيد، المعروف، حتى الآن - الذي يمكنه استقبال الحياة.

ممكن جدًّا.. يحدث هذا في الحياة اليومية، وممكن أن يحدث أيضًا في حياة كوكب الأرض أو الكون.

لا خطة إذن، ولا ترتيب.. فقط صدفة خير من ألف ميعاد..

فقط «يانصيب».. بالجائزة الكبرى..

من يمكنه أن يعترض؟

* * *

لكن الأمر ليس هكذا بالضبط..

بل هو أقرب إلى أن يفوز شخص ما بالجائزة الكبرى في كل سحبة لها.

فلنفترض أنها سحبة شهرية، يشارك فيها مائة ألف شخص تقريبًا، فاز أحد الأشخاص أول شهر، لا مشكلة في هذا، نتمنى حظًا أوفر للمشاركين في المرة القادمة.. لا بد لأحد أن يفوز، لكن الشهر الثاني جاء، وفاز هو أيضًا.. هل يعقل هذا؟ هل يعقل أن يكون هناك شخص بهذا الحظ؟ واحد من مائة ألف مرة ثانية؟ مرتين متتاليتين؟!

وعندما يتكرر السحب لمرة ثالثة ورابعة وخامسة على التوالي، ونفس الشخص، يفوز في كل مرة!!! لا بد أن نعلم يقينًا أن الأمر لا يحدث «هكذا» أو «صدفة» أو «حظ سعيد».. بل هناك من يتدخل بطريقة ما بالنتائج، ليجعل هذا الشخص يفوز كل مرة.. هناك من يدبر ذلك حتمًا..

مع كوكب الأرض الأمر هكذا، لم يكن فوزًا في شيءٍ واحد، موقعه من الشمس مثلًا، أو كتلته، أو وجود قمر له، لا، بل كان سلسلة متصلة من «بطاقات الحظ» التي حصل عليها كوكب الأرض - بمفرده، في كل ما يتوفر من معطيات حتى الآن..

ما حدث لكوكب الأرض، كان يشبه أن يشارك كل سكان الأرض- ٨ مليارات تقريبًا - في مسابقة يانصيب واحدة، ويفوز نفس الشخص مرة تلو مرة، لمدة ٣٠ يومًا متتالية..

في حياتك العادية لا يحدث هذا أبدًا، ولو حدث لاعتبرته مؤامرة وتحيزًا واستغباءً لبقية المشاركين..

في حياتك لم تكن لتتقبل هذا، لا أحد يدع ذلك يمر..

لكن البعض يعتقد أن الحياة على الأرض، يمكنها أن تحدث على هذا النحو..

نتمنى لهؤلاء البعض حظًا أوفر في حياة أخرى على مجرة أخرى في ظروف أفضل!!

* * *

لكن هذا ليس الاعتراض الوحيد على زعمنا أن هناك من تدخل في كل شيء ورتبه ليجعله هكذا..

هناك من يقول إن هذه الفوضى التي تعم الكون، يمكنها، حسب نظرية التنظيم الذاتي self organization theory أن تنظم نفسها بنفسها، على الأقل في أجزاء منها، دون أن يعم هذا التنظيم الكون كله، بل في جزء فقط منه، وحسب النظرية، فإن كوكب الأرض كان المكان الذي نُظِّمَ ذاتيًا، دون تدخل من عامل خارجي، في خضم الكون الذي يبدو أنه في فوضى غير خلاقة[1].

مبدئيًا، فإن مجرد وجود قانون فيزيائي، من خلاله يحدث هذا التنظيم الذاتي، فإن هذا يعني وجود من وضع «القانون» وهذا يستلزم وجود «فاعل» خلف هذا الحدث.

لكن دعونا نتتبع هذه النظرية..

دعونا نفترض أن الأرض هي الجزء الذي نُظِّمَ ذاتيًا، من كون أكبر بكثير «غير منظم».

نحن الآن ننتقل من «ظروف الأرض»، بطاقات الحظ المتابعة التي فازت باليانصيب، إلى ظروف «الكون» كاملًا..

الكون الذي قد يبدو أنه لم يحصل على جائزة يانصيب.

الكون المضبوط على تردد معين

ثمة ثوابت فيزيائية أساسية، دقيقة جدًا، سهلت نشوء الكون، وسهلت أيضًا نشوء الحياة كما نعرفها..

هذه الثوابت، دقيقة جدًا، لو كان هناك فارق طفيف فيها، طفيف لدرجة غير محسوسة بمقاييس تعاملنا مع الأرقام، لما كان من الممكن أن ينشأ الكون، ولا كانت الحياة قد نشأت.

ما تقود إليه هذه الأرقام الدقيقة، واستحالة تكون الحياة في الكون كله في حالة تغيرها، هو أن هذا الكون الذي نعيش فيه مضبوط على تردد معين، ثمة توليف دقيق جدًا يجعل هذا الكون قابلًا لتكون الحياة واستمرارها فيه.

(1) Theory of the Origin, Evolution, and Nature of Life, Erik D. Andrulis..published online Dec 2011.MDPI.
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC4187144/

الحديث هنا لم يعد عن كوكب «الأرض» فقط، بل عن الكون بأسره، أي أننا لا نتحدث عن تنظيم ذاتي لجزء بسيط من فوضى عارمة، بل عن ثوابت كونية بدأت مع بداية الكون عبر الانفجار العظيم، ومن خلال أجزاء من أول ثانية من بداية الزمن[١].

هذا الضبط الدقيق للكون، المعروف اليوم على نطاق واسع بالـ fine - tuning universe [٢]، يشمل حقائق رقميّة لم تعد موضع نقاش أو شك، ولا يشترط فيمن يؤيد فكرة «الضبط الدقيق للكون» أن يكون مؤمنًا بإله خالق، فقد تحدث عن المفهوم وأيده علماء ملحدون معروفون كما سيأتي.

يمكن أن يعتبر مفهوم «الضبط الدقيق للكون» تحديثًا معاصرًا على برهان النظم الذي استعمل في النقاش حول وجود الله منذ أن كان هناك نقاش عن الأمر، ولكنه أصبح مدعومًا بحقائق علميّة رقميّة منذ بداية القرن العشرين تقريبًا، حيث قدم لورنس هندرسن في عام ١٩١٣ كتابًا عن «لياقة البيئة»[٣] يعتبر فيه أول من تحدث عن معايير معينة لضبط الكون، شملت الماء والبيئة من حيث كونهما مناسبين جدًّا لنشوء الحياة.

في عام ١٩٦٣ قدم روبرت ديك[٤] مقالًا علميًّا[٥] في مجلة Nature قال فيه إن بعض القوى الفيزيائية (مثل الجاذبيّة والكهرومغناطيسيّة) يجب أن تكون «مضبوطة بدقة» لتسمح بالحياة في أي مكان في الكون.

في عام ١٩٨٤ قدم السير فريد هويل[٦] في كتابه (الكون الذكي) مقارنة قال فيها إن احتمالية تكون بروتين واحد عشوائيًّا، يشبه تخيل مجموعة شمسية مليئة بعميان يجلسون جنبًا إلى جنب بينما هم يحاولون حل لغز مكعب روبيك[٧]، وتوقع أنهم سيتمكنون من حلها جميعًا في نفس الوقت تحديدًا[٨].

---

(1) Just six numbers:The Deep Forces that shape the Universe. Martin Reese.Science Masters. pp 12.

(2) Fine-tuned Universe - Wikipedia

(3) Lawrence Joseph Henderson, The fitness of the environment: an inquiry into the biological significance of the properties of matter The Macmillan Company, 1913

(٤) روبرت ديك (١٩١٦ - ١٩٩٧) عالم فيزياء وفلك أمريكي في جامعة برنستون، قدم إسهامات كثيرة في الليزر والرادار وغيرها.

(5) Robert H. Dicke (1961). «Dirac's Cosmology and Mach's Principle». Nature. 192 (4801): 440-441. Bibcode:1961Natur.192..440D

(٦) فريد هويل Fred Hoyle (١٩١٥ - ٢٠٠١) فلكي بريطاني عرف بآراء مثيرة للجدل من ضمنها رفضه لنظرية الانفجار العظيم - وهو من أطلق على النظرية هذا الاسم - ترأس معهد الفلك التابع لجامعة كامبردج لست سنوات، وعمل فيه معظم عمره.

(٧)مكعب روبيك هو لغز ثلاثي الأبعاد أنتج عام ١٩٧٣ ويعد أكثر لغز مبيعًا حول العالم، حيث بيع منها قرابة ٣٥٠ مليون مكعب حتى عام ٢٠٠٩، يتكون كل وجه من أوجه المكعب من تسعة مربعات بلون واحد، ويمكن تغيير ترتيب هذه المربعات محوريًا على نحو يجعل إعادتها أمرًا معقدًا، ويستغرق محاولات عديدة.

(8) Hoyle, Fred (1984). The Intelligent Universe. Holt, Rinehart, and Winston.

في عام ١٩٨٩ قدم كل من جون غريبين[١] ومارتن ريس[٢] كتاب (مصادفات كونية) الذي دافعا فيه عن المفهوم وانتهيا إلى أن (الظروف في كوننا مناسبة لنشوء الحياة فيه، لكن السؤال هو: هل أن الكون مُفصَّل - معد مسبقًا tailor made - لنشوء الحياة فيه؟)[٣].

يقول ستيفن هوكنغ[٤] في «موجز تاريخ الزمن»: قوانين العلم، كما نعرفها اليوم، تحتوي على عدد الأرقام الأساسية، مثل حجم شحنة الإلكترون، ونسبة كتلة البروتون والإلكترون.. المدهش في الأمر أن قيم هذه الأرقام تبدو كما لو أنها قد عدلت بدقة finely adjusted لتجعل تطور الحياة أمرًا ممكنًا».

حسب بول ديفيز[٥] فإن القوة النووية (التي تربط بين البروتون والنيوترون في الذرة) لو كانت أكبر بمقدار ٢٪ مما هي الآن، فإن الهيدروجين سيتحد بنظائر الهوليوم بدلًا من أن يتحد بالهيليوم والديتريوم (الهيدروجين الثقيل) وهذا سيغير بشكل كبير من القوى الفيزيائيّة في النجوم، الهيدروجين سيكون سهل الالتحام بحيث أنه سيُستهلك تمامًا بعد دقائق من الانفجار العظيم[٦].

ستة أرقام فقط!

يبحر كتاب (ستة أرقام فقط: القوى العميقة التي شكلت الكون)[٧] للفيزيائي والكوني مارتن ريس[٨] في ستة أرقام فقط، بُني عليها الكون بأسره، وأي تغيير فيها كان سيجعلنا غير موجودين أصلًا.

---

(١) جون أر غريبين John Gribben (١٩٤٦) كاتب علوم بريطاني في الفيزياء الكونية، وأستاذ زائر في جامعة سسكس.

(٢) مارتن جون ريس ولد في ٢٣ يونيو ١٩٤٢ في يورك، إنجلترا، هو عالم بريطاني في الكونيات والفيزياء الفلكية وعضو الجمعية الفلكية الملكية وترأس الجمعية الملكية للعلوم بين ٢٠٠٥ و٢٠١٠. وهو صاحب كتاب (ستة أرقام فقط) الذي سيذكر كثيرًا.

(3) Gribbin. J and Rees. M, Cosmic Coincidences: Dark Matter, Mankind, and Anthropic Cosmology p. 7, 269, 1989

(٤) ستيفن هوكنغ Stephen Hawking(١٩٤٢-٢٠١٨) فيزيائي نظري وعالم كونيّات بريطاني، لديه إضافات مهمة عن الثقوب السوداء وعلاقتها بالديناميكية الحرارية ومفهوم الزمن.

(٥) بول ديفيز Paul Davies (١٩٤٦ - ...) فيزيائي بريطاني وأكاديمي في عدة جامعات مثل جامعة أريزونا وكامبرج، عرف بكتاباته التي تقرب العلم إلى المستوى الشعبي.

(6) Paul Davies, 1993. The Accidental Universe, Cambridge University Press, p70-71

(7) Just six numbers: The deep forces that shape the universe, Martin Ress.Science Masters,2000

وقد صدرت له ترجمة عربية بعنوان (ستة أرقام فقط: القوى العظمى التي تشكل الكون) عن مركز براهين.

(٨) مارتن ريس: سبق تعريفه.

■ **الرقم الأول:** ويرمز له بـ N - وهو (القوة الكهربائية) التي تربط الذرات ببعضها مقسومة على قوى التجاذب بين الذرات. ويعتبر هذا الرقم هو السبب في أن الكون شاسع جدًّا، وهو يساوي:

١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

لو نقصت أصفار (N) أصفارًا قليلة لما أمكن أن يُوجد إلا كون ضئيل قصير العمر، وما كان لكائن أن ينمو إلى حجم أكبر من الحشرة، وما كان ليوجد وقتٍ كافٍ للتطور العضوي.

■ **الرقم الثاني:** ويرمز له بـ E وهو مقدار (متانة ارتباط الأنوية ببعضها). قيمته هي ٠,٠٠٧ تتحكم قيمته في القدرة الخارجة من الشمس، وكيف صنعت كل الذرات في الكون، والأهم من ذلك - والأكثر حساسية - هو أنه يتحكم في كيف تقوم النجوم بتحويل الهيدروجين إلى باقي ذرات الجدول الدوري. انتشار العناصر في الطبيعة يعتمد على هذا الرقم بشكل مباشر، لذلك الكربون والأكسجين منتشران، بينما الذهب واليورانيوم شحيحان؛ ذلك بسبب ما يجري في النجوم. فلو كانت قيمته ٠,٠٠٦ أو ٠,٠٠٨، لما كنا وجِدْنا.

■ **الرقم الثالث:** هو (Ω) أو (أوميغا)، وهو يقيس (كمية المادة) في الكون من مجرات وغازات منتشرة ومادة مظلمة. يشير (Ω) للأهمية النسبية للجاذبية وطاقة التمدد في الكون. تقدر قيمة هذا الرقم بـ (١) تقريبًا.. ولو كانت هذه النسبة أعلى مقارنة بقيمتها (الحرجة)، لانهار الكون من زمن بعيد، ولو كانت أقل لما تكونت أيّة مجرات أو نجوم.

■ **الرقم الرابع:** (λ) أو (لمدا) وهو مقدار (الجاذبية الكونية المضادة) التي تتحكم في تمدد كوننا، ذلك على الرغم من أنها لا تملك تأثيرًا واضحًا على مقياس أقل من مليار سنة ضوئية. مصير هذه القوة أن تسود أكثر من الجاذبية والقوى الأخرى بازدياد كوننا إظلامًا وفراغًا، ومن حسن حظنا أنّ قيمة (λ) صغيرة جدًا (وتقدر بـ ٠,٧ تقريبا) وإلا لأوقف تأثيرها تكون المجرات والنجوم، ولتعطل التطور الكوني قبل أن يبدأ أصلًا.

■**الرقم الخامس:** ويرمز له (Q) وهو يمثل نسبة طاقة الكتلة السكونية للمادة إلى قوة الجاذبية وقيمته نحو ١ / ١٠٠،٠٠٠. وهو يحدد «النسيج الكوني».

لو كان (Q) أصغر من ذلك بقليل لأصبح الكون خاملًا وخاليًا من أي بُنى، ولو كان (Q) أكبر من ذلك بكثير لأصبح الكون مكانًا مُهلكًا عاصفًا، لا يمكن فيه لأي نجم أو نظام شمسي أن يبقى على قيد الوجود، وستسوده الثقوب السوداء الهائلة.

■**الرقم السادس:** رقم (الأبعاد الفراغية) في عالمنا (D)، وهو يساوي ٣. ورغم أنه كان معروفًا منذ قرون، لكن الآن يُنظر له بمنظور مختلف. لم تكن الحياة لتوجد لو كان (D) يساوي ٢ أو ٤. كانت الكواكب – في حالة حدوث أي تباطؤ في دورانها – ستصطدم فورًا بالنجم الذي تدور حوله، أو في حالة حدوث العكس تبتعد عنه بمدار حلزوني متسارع[1].

* * *

قد تكون هناك علاقات بين هذه الأرقام الستة، لكن في الوقت الحالي لا يمكن التنبؤ بأحد هذه الأرقام اعتمادًا على قيم باقي الأرقام، ولا نعرف هل ستتمكن نظرية ما في المستقبل من إنتاج معادلة تربط هذه الأرقام ببعضها، أو تحددها بشكل خاص.

فلننتبه هنا إلى كون هذه الأرقام «الدقيقة» تتحكم باتجاهين، فمن جهة هي التي تجعل هذا الكون العميق بهذا الحجم وهذا التمدد، ومن جهة أخرى هي التي تجعل الحياة بأصغر جزيئاتها ممكنة على الأرض...

بعبارة أخرى: هذا الكون الشاسع، الذي قد يبدو لك أكبر من الضروري، هو أمر لازم لوجودك الشخصي.....

* * *

من ضمن الأرقام الأخرى[2] التي يمكن أن تحدث تغييرًا «جذريًّا» – إلى درجة الدمار الشامل – لمجرد حدوث تغيير طفيف فيها..

---

(1) Just six numbers: The deep forces that shape the universe,Martin Rees pp 2-3

الصفحات ١٧ - ١٨ من النسخة العربية.

(2) Cosmic Fine Tuning

https://www.allaboutscience.org/cosmic-fine-tuning.htm

نسبة حجم البروتون إلى الإلكترون: وهو يساوي ١٥٢٦٧٣٨٩ , ١٨٣٦

هذه النسبة لو تغيرت بمقدار واحد من ١٠، أي واحد من ١٠ مضروبة في نفسها ٣٧ مرة، أو واحد من ١٠ ومقابلها ٣٧ صفرًا، إذا كانت هذه النسبة أعلى أو أقل، فإن القوة الإلكترونية المغناطيسية ستتغلب على قوة الجاذبية وتمنع نشوء المجرات والكواكب، وبالتالي تمنع نشوء الحياة كما نعرفها.

نسبة القوة الإلكترومغناطيسية إلى قوة الجاذبية بالنسبة لزوج من البروتونات، وهي تبلغ واحدًا إلى ١٠.

إذا كانت هذه النسبة أقل قليلاً، فإن النجوم ستكون أقل كثافة من الشمس، وهذا سيجعلها غير قابلة لتكوين المعادن الثقيلة.

وإذا كانت نسبة أعلى قليلًا، فإن النجوم كانت ستكون أكثر كثافة من شمسنا، وسيؤدي هذا إلى كون غير صالح للحياة كما نعرفها.

معدل تمدد الكون يقارب واحد إلى ١٠، لو كان معدل التمدد أعلى من هذا، لتمدد الكون على نحو لا يمكن للنجوم، الكواكب أو المجرات أن تتكون، ولو كان التمدد أبطأ، لانهار الكون بسرعة وقبل أن تتكون النجوم أو المجرات والكواكب.

كثافة الكتلة الكونية، ضبطت على نحو دقيق يسمح بنشوء الحياة بدقة واحد من ١٠، لو كان الكون بنسبة كتلة أكبر، لأدى نظير الهيدروجين المتكون عن الانفجار العظيم إلى احتراق النجوم بأسرع مما يجب لتكون الحياة بالشكل الذي نعرفه.

ولو كانت النسبة أقل، فإن الهيليوم سيكون أقل، مما يؤدي إلى قلة المعادن الثقيلة، وبالتالي عدم نشوء الحياة كما نعرفها.

الإشعاع الذري الكوني، الناتج عن الانفجار العظيم، يمكن مشاهدته بنسبة ١ إلى ١٠,٠٠٠ (١٠)، إذا كانت هذه النسبة الدقيقة أقل قليلا، لأدى ذلك إلى أن يكون الكون كله مجرد تجمع غازات دون تكون أي مجرات أو كواكب أو نجوم، ولو كانت النسبة أعلى قليلًا لكان الكون كله ثقوبًا سوداء، في الحالتين: لا حياة. على الأقل لا حياة بالشكل الذي نعرفه.

* * *

الضبط الدقيق للكون، بكل هذه المعطيات التي تدعمه إذن، ينقلك من شعورك العام بوجود تناسق وتنظيم في الكون والطبيعة من حولك (وهو شعور يمكن أن يفسر بسهولة بالتعود) إلى حقائق رقمية ثابتة تشير إلى وجود ضبط دقيق لهذا التناسق، مما سهل وجودك الشخصي ووجود أي كائن حيٍّ على الإطلاق.

إذن برهان النظام هنا صار يعتمد على أرقام ومعادلات، لم يعد «وجهة نظر»، لم يعد «مسألة ذوقية» تعتمد على رأي أشخاص يرون العالم من زاوية معينة.

لا أقول هنا إن نتيجة معطيات «الضبط الدقيق للكون» تقود حتمًا إلى الإقرار بوجود الله.. فالكثير من العلماء الذين ذُكِرت أسماؤهم هنا، وهم مؤيدون لفكرة وجود «ضبط دقيق للكون» هم ملحدون أصلًا، مثل ستيفن هوكنغ، وفرد هويل، بل وحتى مارتن ريس، صاحب كتاب: ستة أرقام فقط، هو ملحد أيضًا.

هل يضعف هذا فكرة «الضبط الدقيق للكون»؟

في الحقيقة هو يقويها، لأنك بهذا تدرك أن «معطياتها» صحيحة ولم يتم التلاعب بها من قبل «مؤيدي الإيمان» - على سبيل المثال - ممن يمكن أن «يضبطوا» المعطيات التي يروجون لها، بحيث تقود إلى جهتهم.

على الأقل، المعطيات، الفكرة العامة من وجود «ضبط دقيق للكون» أمر دعمه علماء ملحدون، لا مصلحة لهم في الترويج لشيء كهذا..

قراءة هذه المعطيات، وتفسيرها، والربط بينها، أمر آخر..

* * *

مع «الضبط الدقيق للكون»، لم يعد اليانصيب يخص سكان كوكب الأرض وحدهم، ويفوز واحد بعينه من بين كل المليارات، مرة تلو أخرى.

لا.

ذاك الأمر كان عندما تحدثنا عن وضع كوكب الأرض وكونه مناسبًا للحياة كما نعرفها من دون كل الكواكب..

مع الضبط الدقيق للكون، اليانصيب أكبر بكثير، وهو يضع عددًا لا يمكن تخيله من الأشخاص الداخلين في السحبة، عدد يملأ الكون كله أشخاصًا..

ومرة تلو أخرى، يفوز نفس الشخص..

هل يمكن أن نصدق أنه محظوظ؟

* * *

يقول مايكل تيرنر[١] إنَّ الدقة التي ضُبط بها الكون، تشبه أن ترمي بسهم عبر الكون بأسره، لتصيب هدفًا بقطر مليمتر واحد، على الجانب الآخر من الكون[٢].

ويقول العالم روجر بنروز[٣] إنَّ احتمالية نشوء الكون بالصدفة هي واحد إلى ١٠ مرفوعة إلى ١٠ مرفوعة إلى ١٢٣ [٤].

هذا الرقم كبير على نحو يجعلنا عاجزين عن تخيله.

عدد الذرات في الكون، كل الكون، يقدر ب ١٠.

أما احتمالية نشوء الكون بالصدفة، فهي ضئيلة رياضيًّا إلى درجة لا يمكن تخيلها..

واحد إلى ١٠ مرفوعة إلى العدد ١٠..

* * *

حدسك، وحسك البديهي، عندما يجد كل المعطيات التي جعلت من الكون «مضبوطًا بدقة لكي تنشأ الحياة»، لن يتردد لحظة واحدة في أن يكون واثقًا من أن هناك من ضبطه على ذلك.

إله خالق وقادر على ذلك، لسنا هنا بصدد تحديد أن يكون هو إله الكتب السماوية.

في هذه المرحلة، الإله الذي نعنيه قوة مدركة لما تفعل، وقادرة على نحو لا يمكن تخيل وجود حدود لهذه القوة.

لا يمكن لكون «ضُبط» بهذه الدقة.. إلا أن يكون هناك من ضبطه بدقة.

---

(١) مايكل تيرنر (١٩٤٦ - ...) عالم كونيات أمريكي مرموق وله إضافات في جعل حقل علم الكونيات متصلاً بعلوم أخرى على نحو وثيق.

(2) https://www.nationalreview.com/2013/06/why-some-scientists-embrace-multiverse-dennis-prager/

(٣) السير روجر بنروز Roger Penrose (١٩٣١ - ...) عالم رياضيات وفيزياء رياضية بريطاني مرموق، وشارك في وضع نظرية التفرد مع ستيفن هوكنغ.

(4) The Emperor's New Mind: Concerning Computers, Minds and The Laws of Physics Roger Penrose, 1989, pg 341-344.

أمر محسوم ببداهة.

* * *

محسوم؟

ليس للكل، ولا يجب أن يثير هذا استغرابنا أبدًا. الأمر امتحان، ولو كان كلُّ شيءٍ واضحًا للجميع ببداهة لما كان للامتحان معنى.

الجدل في معطيات «الضبط الدقيق للكون» أمر لا معنى له، ما دامت ثابتة علميًّا، لكن قراءة هذه المعطيات وتحليلها أمر مختلف..

تقود هذه التحليلات إلى طرق مختلفة، وبعضها يقود إلى خارج هذا الكون، إلى عدد لا نهائي من الأكوان.

الانتقادات الموجهة لمفهوم «الضبط الدقيق للكون»

أهم الانتقادات التي توجه إلى مفهوم الضبط الدقيق للكون هو أن الثوابت والمعطيات التي تُنَاقَش تخص الحياة كما نعرفها، الحياة العضوية المبنية على وجود الكربون. النقاد هنا لا يناقشون صحة تأثير تغير هذه الثوابت على الحياة بهذا الشكل الذي نعرفه. لكن ربما لو تغيرت هذه الثوابت لنتجت حياة أخرى، تعتمد على معطيات أخرى، غير كربونية؟

مبدئيًا هذا صحيح. ربما تنتج حياة من نوع آخر وبصيغة غير كربونية، إذا ما تغيرت هذه الثوابت.

لكننا لا نعرف أصلًا أي شكل آخر للحياة، غير هذه الحياة الكربونية، لا نعرف أصلًا إن كان يمكن أن نسميها «حياة» بهذا المعنى.

لسنا معنيين كثيرًا بنوع آخر من الحياة (لا تشبه حياتنا) ينشأ في ظروف مختلفة، وقد لا نعرف أنها كائنات حيّة حتى لو رأيناها، قد تكون غير مرئيّة بالنسبة لنا..

المؤمنون لا مشكلة لديهم مع وجود «أي شكل آخر من أشكال الحياة»، إذ أنهم يؤمنون ضمنًا بوجود «نوع آخر من الحياة» ما داموا يؤمنون بوجود الجن والملائكة.. سياق الكلام عن حياة كربونية لا يشبه الحديث عن حياة الجن أو الملائكة، لكن من ناحية مبدئية، لا مشكلة مع «نوع

آخر من الحياة» تنشأ في ظروف كونية مختلفة، المؤمن سيؤمن أيضًا بأن الله قد خلق هذه الحياة ووفر لها أسباب نشوئها.

***

من ضمن الانتقادات الأخرى التي توجه إلى المفهوم، انتقاد يخص التعامل الرياضي مع قانون الاحتمالات[1].

ملخص الانتقاد لا يمس «مقدمة» المفهوم (أي المعطيات العلمية التي تتحدث عن ضبط دقيق للكون)، بل عن توظيف هذه المعطيات في قانون الاحتمالات.

باختصار يقول الانتقاد: مهما كانت الاحتمالات ضئيلة رياضيًا، فهذا لا يعني أنها «غير محتملة».

صحيح، لم يقل أحد إنها «غير محتملة». لكن قيل بوضوح إنها احتمالية ضئيلة جدًا، واحد إلى رقم لا يمكن تخيل عدد الأصفار فيه.

من يرغب أن يراهن على الواحد، ويضع عليه كل ماله، ويترك الرقم عجيب الأصفار، هو حر، يمكنه أن يفعل ذلك بالتأكيد. لكن أغلب البشر لن يفعل ذلك لأنَّ حسَّ النجاة أمر فطري ولا يحتاج إلى شهادة أكاديمية في علم الاحتمالات.

نتمنى لهم حظًّا طيبًا، بكل الأحوال.

***

هناك انتقادات أخرى توجه لاستعمال «الضبط الدقيق للكون» دينيًّا، وعلى نحو قد لا يتفق مع «معايير علمية» تتجنب إدخال «الله» أو كل ما هو خارج «المضمار المادي المباشر»..

كما أنَّ هناك انتقادات تمسُّ معطيات غير دقيقة أدخلها البعض في المفهوم في خضم الاستعمال الديني، أملًا في المزيد من الأرقام «الدقيقة» المثيرة للإعجاب، وبالتالي الاقتناع بوجود من «ضبط الكون».

(1) Problems with The Argument from Fine Tuning. Colyvan, M., Garfield, J.L. & Priest, G. Synthese (2005) 145: 325. http://www.colyvan.com/papers/finetuning.pdf

لكن بعيدًا عن هذا، هناك الآن عدد كبير من الدراسات والمقالات العلمية المنشورة في مجلات أكاديمية[1] تؤيد «الضبط الدقيق للكون» دون أن تكون هناك أي أجندة «دينيّة» تقف خلف هذا التأييد.

* * *

أهم ما يواجه «الضبط الدقيق للكون» اليوم لا يتعلق بالمعطيات المتضمنة في المفهوم.

بل بالتعامل مع ما بعد هذه المعطيات، مع تفسيرها، ووصلها ببعضها بعضًا، للوصول إلى نتيجة: هناك من ضبط ذلك.

لتجنب هذه النتيجة، هناك اليوم «فرضية الأكوان المتعددة»[2].

فرضية الأكوان المتعددة

ملخص الفرضية هو أن الكون الذي نعيش فيه هو واحد من عدد كبير جدًّا من الأكوان (العدد المقترح هو ١٠ مرفوعة إلى الأس ١٦ مرفوعة إلى الأس ١٦)[3]

هذا العدد الكبير من الأكوان، فيه كل المتغيرات التي يمكن تخيلها من القوى الفيزيائية التي تشكل الكون، ولأن هذه المتغيرات يجب أن تكون دقيقة جدًّا لكي تسهل وجود حياة، فإن كوننا هو من ضمن الأكوان التي منحتها الاحتماليات أرقامًا فيزيائية سهلت نشوء الحياة فيها، بينما لم يحدث هذا مع عدد كبير من الأكوان، وربما حدث مع بعضها أيضًا دون أن ندري.

بعبارة أخرى: كوننا هو الذي فاز ببطاقة اليانصيب التي سهلت نشوء الحياة فيه، من ضمن عدد ١٠ مرفوع إلى الأس ١٦ مرفوع إلى الأس ١٦ من الأكوان.

هذه الفرضية تقدم تفسيرًا (أو مَهربًا بالأحرى) من مفهوم الضبط الدقيق للكون.

---

(1) The Fine-Tuning of the Universe for Intelligent Life, L. A. Barnes, Publications of the Astronomical Society of Australia, 2012, 29, 529-564

https://arxiv.org/pdf/1112.4647v1.pdf

(2) Multiverse - Wikipedia

(3) If We Live in a Multiverse, How Many Are There? - Universe Today

https://www.universetoday.com/42696/if-we-live-in-a-multiverse-how-many-are-there/

هنا لم يعد البعض مضطرًا إلى مواجهة بديهية وجود من ضبط هذا الكون، لا ضبط، فقط عشوائية سحبة اليانصيب التي منحت لكوننا حظ الحياة كما نعرفها.

هل من دليل علمي يدعم هذه الفرضية؟

حتى الآن لا. هي فرضية تستخدم لملء بعض الثغرات الموجودة في فهمنا لبعض الظواهر الموجودة في الكون دون أن تجد حتى الآن ما يدعمها بحيث تتحول إلى «نظرية»[١]، والبعض يعتبر أنها ليست «علمية» أصلًا لأنها ببساطة تدخل في افتراض لا يمكن التثبت والتحقق منه «علميًّا»[٢]، هي أقرب إلى الميتافيزيقا أو على الأقل نوع جديد من الحقول التي لا تدخل في باب العلوم المعتادة[٣].

رغم ذلك، فالفكرة تجد من يدعمها من الفيزيائيين المرموقين (من ضمنهم ستيفن هوكنغ[٤])، بل ويذهب البعض منهم إلى اعتبارها حقيقة مثل وجود الديناصورات سابقًا على الأرض[٥]، وتجد أيضًا من يعارضها من نفس الفئة المرموقة، حيث يعتبرها بعضهم «نظرية أي شيء التي تسمح بكل شيء ولا تفسر أي شيء»[٦] ويعتبرها آخر «مغالطة منطقية»[٧] ويذهب البعض إلى اعتبارها «علمًا زائفًا»[٨].

---

(1) The problem with «multiverse theories»: they're just not science | Prospect Magazine
https://www.prospectmagazine.co.uk/science-and-technology/the-problem-with-multiverse-theories-theyre-just-not-science

(2) Backreaction: Astrophysicists try to falsify multiverse, find they can't.
http://backreaction.blogspot.com/2018/06/astrophysicists-try-to-falsify.html

(3) Is The Multiverse A Scientific Theory?
https://www.forbes.com/sites/startswithabang/2016/01/22/is-the-multiverse-a-scientific-theory/#464e808f16f1

(٤) من الجدير بالذكر هنا أن ستيفن هوكنغ نشرت له بعد وفاته ورقة بحثية تختصر عدد الأكوان المتعددة إلى رقم محدد من الاحتمالات التي تشبه كوننا من ناحية الظروف، وهو أمر يعده البعض يصب لصالح الضبط الدقيق للكون.

Stephen Hawking's final theory sheds light on the multiverse | Science | The Guardian
https://www.theguardian.com/science/2018/may/02/stephen-hawkings-final-theory-sheds-light-on-the-multiverse

(5) The Infinite Optimism of Physicist David Deutsch - Scientific American Blog Network
https://blogs.scientificamerican.com/cross-check/the-infinite-optimism-of-physicist-david-deutsch/

(6) Cosmos on Nautilus: Even Physicists Find the Multiverse Faintly Disturbing
http://cosmos.nautil.us/feature/103/even-physicists-find-the-multiverse-faintly-disturbing

(7) A Brief History of the Multiverse -Paul Davies. The New York Times
https://www.nytimes.com/2003/04/12/opinion/a-brief-history-of-the-multiverse.html

(8) Is a Popular Theory of Cosmic Creation Pseudoscience? - Scientific American Blog Network
https://blogs.scientificamerican.com/cross-check/is-a-popular-theory-of-cosmic-creation-pseudoscience/

المؤمنون لن يجدوا مشكلة كبيرة في وجود عدد كبير من الأكوان لو ثبت ذلك، بالنسبة لهم، الله خالقهم وخالقها، بالضبط مثل احتمالية وجود نوع آخر من الحياة في الكون، الله هو الخالق، هنا وهناك وفي كل مكان.

المشكلة بالنسبة للمؤمنين هنا هي أولًا في استخدام «فرضية الأكوان المتعددة» للتقليل من أهمية الضبط الدقيق للكون والعودة إلى فكرة الصدفة العشوائيّة التي منحتنا فرصة الحياة.

المشكلة الأكبر هي في إدخال العلم في مجال «لا يمكن التحقق منه أو إثباته أو تجربته» والتعامل مع «فرضيات لا يمكن إثباتها قريبًا» بوصفها حقائق لتفادي التعامل مع نتائج «مفهوم الضبط الدقيق للكون»، أي مع الاحتمالية المرتفعة لوجود «مَنْ ضبط» الكون.

لعقود طويلة ظل العلماء الملحدون يرفضون فكرة الله باعتبارها فكرة لا دليل علميًا عليها، لا يمكن التحقق منها أو إثباتها أو تجربتها، كانوا يعتبرون أن الله هو «إله الفراغات»، أي ما نسد به الفراغات في فهمنا للكون، أي ظاهرة لا نفهمها من ظواهر الطبيعة، نرجعها إلى الله لتفسيرها، وينتهي الأمر هنا.

لكنهم يفعلون الشيء ذاته مع «الأكوان المتعددة».

لا دليل علميًا يدعمها، لا يمكن تجربتها أو إثباتها، وتستخدم لملء فراغات خلفتها نظريات علمية قائمة.

المؤمن يمكنه أن يعزل بين الأمرين، بين العلم والإيمان، لكل منهما حدوده ومجاله، لكن أن يقع هذا الخلط من العلماء؟ من الصعب استبعاد فكرة «التحيّز» تمامًا هنا.

النجاة من فريق الإعدام

قدم الفيلسوف جون ليزلي[1] مقاربة ذكيّة[2] عن كل هذا..

لو أن محكومًا بالإعدام أُوقِفَ لتنفيذ الحكم أمام فريق مدرب مَجهز مكون من خمسين شخصًا، صدر الأمر بإطلاق النار، وأفرغ كل الفريق ما لديه من طلقات باتجاه الهدف على بعد أمتار قليلة.. لكن هذا المحكوم بالإعدام لم تصبه رصاصة واحدة، ولا رصاصة.

(١) جون ليزلي John A. Leslie (١٩٤٠ - ...) فيلسوف كندي مهتم بالكونيات والأخلاق.

(2) Leslie's Firing Squad

http://230nsc1.phy-astr.gsu.edu/Nave-html/Faithpathh/Leslie.html

كيف يمكن لهذا أن يحدث؟

هناك غالبًا احتمالان..

الأول أن ذلك حدث بالصدفة. هكذا. الأخطاء تقع. هؤلاء بشر. حتى المدربين وأصحاب الخبرة يمكن أن يخطؤوا الهدف.

والثاني أن ثمة شيء متعمد في الأمر، ثمة اتفاق بين كل هؤلاء على تجنب إصابة الهدف.

يمكن لأي أحد أن يختار الاحتمال الأكثر قربًا إلى منطقه وتصوره.

لكن هذا الشخص الذي نجا من الموت، لا يمكنه أن يترك باحة الإعدام ويمضي لحال سبيله وهو يعتبر الأمر صدفة لا تستحق التفكير.

لا بد أن يفكر أن ثمة معنى في هذا الذي حدث له..

نحن، جميعنا، ممثلين عن كوكب الأرض، نشبه هذا المحكوم بالإعدام بطريقة معاكسة.

لقد أُطلقت «رصاصة الحياة» من مكان ما خارج النطاق الكوني الذي نعرفه والذي لا نعرفه، وتركت هذه الرصاصة مليارات المليارات من المجرات والكواكب غير المأهولة بالحياة، وأصابت شخصًا واحدًا فقط (هو أنت) لتنعم بأوسع مساحة ممكنة دون أي معاناة من الزحام.

هل يمكن أن تصدق أن ذلك كانَ صدفة لا معنى لها، مجرد رقم في قانون الاحتمالات الرياضية، مجرد قرعة في سحبة يانصيب؟

الجواب يتطلب أن تستعمل حسك البديهي..

الخلاصة: ((السبب الأول)) مع ((الضبط الدقيق لكون))

فلنلخص بعض ما مر في نقاط محددة.

البرهان العقلي الأهم (في رأيي) على بديهية وجود الخالق يكمن في الجمع بين مبدأي (السبب الأول) و(التصميم- الضبط الدقيق للكون) وهو أمر استُخدِم منذ بدء النقاش في هذا الأمر، أراه شخصيًا (مبنيًّا built in في الحس العام، البديهة).

البرهان قائم على ما يلي:

أولًا - لا بد لكل شيء (موجود) أن يكون له مُوجِد: الأمر ملاحظ بالتجربة والحس البديهي. كل شيء في الكون من حولنا نتج عن شيء آخر وهذا من أساسيات قانون حفظ الطاقة.

ثانيًا - لا يمكن أن تكون هناك سلسلة لا متناهية من العلل والأسباب، لا بد أن تكون هناك نقطة بداية، وحتى لو قيل إن ذلك ممكن خلال الزمن في الطريقين - إلى الأمام، المستقبل، وإلى الخلف، الماضي- فإن هذا سيستوجب أن يكون هناك من أوجد الزمن. إذن لا يمكن لسلسلة العلل أن تكون لا نهائية.

ثالثًا - إذن لا بد أن تكون هناك علة أولى أو سبب أول: فلسفيًّا، الأمر قديم قدم أرسطو، كحسٍّ عام، أعتقد أن الأمر قديم قدم إنسان الكهوف.

رابعًا - وعندما ترتبط السلسلة المتتابعة، بمجموعة من السلاسل المتتابعة الأخرى التي تتضافر كلها إلى هدف واحد، فإن هذا سيقود إلى:

خامسًا - السبب الأول، هو الخالق، المصمم: الله.

هناك نسخ متعددة من كل من برهاني (السبب الأول - التصميم)، لا أرى داعيًا لذكرها في هذا السياق فهي عموما تزيد من نقاط السلسلة دون زيادة مهمة في قوتها.

المعترضون على برهان السبب الأول من الملحدين، يرون أن البرهان يحتوي على مغالطة منطقية، فحسب هذا البرهان، لا بد أن يكون هناك سبب أول لله، أي أن يكون هناك خالق لله، وهذا الخالق لا بد أن يكون له خالق، وهكذا في سلسلة لا متناهية تقضي على البرهان. وهو أمر يذكرنا بتحذيره عليه الصلاة والسلام من الوصول إلى حلقات مفرغة.

أقترح هنا، أن تكون هناك سلسلة أخرى، موازية لبرهان السبب الأول، وتقلل الأسباب المؤدية إلى الحلقة المفرغة (أقول تقلل ولا أقول تقضي لأن الأمر لا ينتهي قط).

برهان طبيعة المصنوع المغايرة للصانع.

أولًا - كل ما هو مصنوع، في الطبيعة، مغاير لطبيعة الصانع وماهيته.

الإنسان يصنع المنضدة، والطائرة، والحاسوب. وكل هذه الأشياء المصنوعة مخالفة تمامًا لطبيعة الصانع.

نتحدث هنا عن عملية صنع، سواء كان ذلك من مواد أولية موجودة في الطبيعة. أو من لا شيء (وهو الأمر الذي يمكن أن يكون موجودًا في عمليات الإبداع) ولا علاقة لهذا بعمليات الاستنساخ أو التوالد أو الانقسام أو أي شكل من أشكال التكاثر.

ثانيًا - حسب (أولًا)، فإن (صانع) الطبيعة، بشكل عام، الكون بما فيه، لا بد أن يكون من طبيعة مغايرة لطبيعة ما صنعه.

ثالثًا - أي أن صانع الطبيعة، هو من طبيعة مخالفة لما نراه حولنا من مظاهر الطبيعة، وهو بالتالي خارج القوانين الطبيعية، وغير خاضع لشروطها ومواصفاتها.

رابعًا - بناءً على (ثالثًا)، الصانع غير خاضع لبرهان السبب الأول المبني على مشاهدات الطبيعة.

خامسًا - السبب الأول لا يشترط أن يكون له سبب.

سادسًا - السبب الأول، الله، هو الخالق الذي تنتهي عنده السلسلة كلها.

صورة الإله: التصور الذهني للإله عند المؤمنين

يتضح بجلاء أن أغلب الرافضين للإيمان بالله، ليست لديهم مشكلة كبيرة في القبول بوجود «خالق» للكون، مشاكلهم تبدأ لاحقًا، مع قصة الخلق كما ترويها الأديان، وأكثر من ذلك وأكثر تعقيدًا مع صورة الإله في الكتب السماوية.

الكثير ممن يُسمون أنفسهم «ربوبيين» – أي يؤمنون بوجود الخالق فقط دون رسالات سماوية أو أديان – وقفوا عند عتبة الإيمان بالخالق، ولم يتجاوزوها إلى ما بعدها..

وهناك أيضًا نسبة من العلماء الذين يؤمنون بوجود الله، يقولون أيضًا إنهم لا يؤمنون بإله شخصي Personal God .

وهذه هي التسمية الغربية المعاصرة التي تطلق على الإله الذي يمكن التعامل «الشخصي معه» أو اعتباره «كشخص» بطريقة أو بأخرى.

بمعنى آخر: هذا الإله يملك الكثير من الصفات الشخصية التي تتوفر في البشر، والتي يبدو معها الإله كما لو كان شخصًا، ولكن بصفات خارقة جعلت منه الخالق.. صفات شخصية مثل العاطفة أو الضحك أو الغضب.. أو إظهار كل هذا والحديث المباشر... الخ.[1]

الإله الشخصي أيضًا هو الذي يمكن تجسيمه anthropomorphism، أي الذي ظهر كجسم بشري في النصوص التي تعبر عنه أو تتحدث عنه، وفي خيال وذهن المؤمنين به[2].

هذه الصورة والوصف تنطبق جدًا على الكيفية التي يقدم بها الإله في العهد القديم (التوراة) وأيضًا إلى كيفية مختلفة ولكن شخصية أيضًا في العهد الجديد (الإنجيل).

---

(1) Personal god - Wikipedia

(2) Anthropomorphism | religion | Britannica.com
https://www.britannica.com/topic/anthropomorphism

هل الأمر مختلف في الإسلام؟ إلى حد بعيد نعم، بل هو من بعض النواحي «محرم» تمامًا[1]. مع الإقرار بأن بعض الفرَق وبعض التأويلات انزلقت فعلًا إلى مثل هذه النظرة التجسيمية ولو إلى حدود، لكني أعتقد أن ثمة ما يحمي من ذلك بوضوح في النصوص الدينية، ولنا عودة إلى هذا.

في العموم يعتبر كثيرون أن الإله الشخصي بهذا المفهوم، هو الإله الذي يتعبد له مليارات البشر عبر مختلف الأديان، ومن ضمنها أديان الكتب السماوية.

نتحفظ قليلًا عند اعتبار القرآن معها هنا، لكن سنعود لتفصيل هذا التحفظ.

* * *

فلنعد الآن إلى العلاقة بين الإلحاد المعاصر وبين عدم الإيمان بإله (شخصي).

كثيرون من المؤمنين بوجود إله خالق (أو ما يسمونه قوة عليا higher power)، لا يؤمنون بأن هذا الإله هو نفسه الإله الشخصي، الإله الذي عبرت عنه الكتب السماوية[2].

الحديث هنا ليس عن سلوك سيئ لمؤمنين بهذا الإله جعل هؤلاء ينفرون من الإله كما جاء في الكتب التي آمن بها هؤلاء المسيئون (وهو أمر مهم الأثر وسنأتي على ذكره لاحقًا)، ولكن عن الصورة الحرفية للإله كما قدمتها هذه الكتب.

فلنحاول أن نرى ماذا هناك حقًا في هذه الصورة الشخصية حسب الكتب السماوية؟

التجسيم في التوراة - العهد القديم

تقدم التوراة صورة بشرية شديدة الوضوح لله عز وجل / كما في النصوص التالية:

(١) يعترف بهذا الكثير من الباحثين في الأديان المقارنة، حيث يُعتبر الإسلام فريدًا من هذه الناحية بين الأديان السماوية.

Anthropomorphism - Oxford Islamic Studies Online

http://www.oxfordislamicstudies.com/article/opr/t125/e172

Folding Your Hands Helps God Hear You: Prayer and Anthropomorphism in Parents and Children Richert et al in Research in the Social Scientific Study of Religion 27:111-121 · August 2016

http://ccl.ucr.edu/wp-content/uploads/2015/08/Richert-etal-2016.pdf

(2) Most people believe in a higher power, but often not God as described in the Bible | Pew Research Center

http://www.pewforum.org/2018/05/29/beliefs-about-god/pf_05-29-18_religion-western-europe-04-00/

وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه ذكرًا وأنثى خلقهم. (تكوين ١: ٢٦ - ٢٧).

هذا كتاب مواليد آدم. يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله. (تكوين ٥: ١).

لأن الله على صورته عمل الإنسان. (تكوين ٩: ٦).

هذه نصوص صريحة واضحة متكررة تؤكد على كون الإنسان قد خُلِق على شكل الله، وهذا يعني أن لله جسمًا مشابهًا للجسم البشري بكل ما في ذلك من المعاني والدلالات.

* * *

لكن هذا ليس كل شيء مع التوراة، فعدا موضوع الخلق، فإن الإله كما يقدم في التوراة، **يظهر** في أحيان كثيرة على نحو بشري، منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولًا - كان آدم وحواء يسمعان صوت الله **ماشيًا** في الجنة (صوت مشيه). (تكوين ٣: ٨).

ثانيًا - ظهر لإبراهيم وقال له أن يسير «**أمامه**». (تكوين ١٧: ١-٨).

ثالثًا - ظهر على شكل إنسان ليعقوب **وصارعه** حتى مطلع الفجر. (تكوين ٣٢: ٣٠).

رابعًا - ظهر لموسى وأشراف بني إسرائيل وكان تحت رجليه **شبه صنعه من العقيق الأزرق الشفاف**. (خروج ٢٤: ١٠-١١).

خامسًا - ظهر لأشعيا **جالسًا على كرسي عالٍ وأذياله تملأ الهيكل**. (أشعيا ٦ :١).

كما أنه ظهر في شكل غير بشري على هيئة سحاب نهارًا، وعلى هيئة نار ليلًا، وذلك لكي يدل بني إسرائيل على الطريق (خروج ١٣: ٢١).

هذه النصوص صريحة ومباشرة، غير قابلة للتأويل، تتحدث عن ظهور الله على شكل محدد يمكن رؤيته والتعامل البشري معه، حينًا على شكل بشري، وحينًا على شكل ظاهرة طبيعية، لكنه ظهور إلهي يشير بوضوح إلى أن الله يمكن أن يتخذ شكلًا ماديًا.

فلننتبه هنا إلى أن كل هذه النصوص، والكثير مثلها، تتحدث في سياق تعامل وتفاعل مباشر بين الله والإنسان، أي أنها تصف حالة يُفترض أن البشر قد رأوها وتعاملوا معها عيانًا جهارًا، وليس الوصف هنا لله بمعزل عن سياق التعامل البشري، أي أن الأمر ليس كما لو أن هذه

الإشارات (مثلًا) تتحدث عن (يد) لله، أو عن (عين) له، في المطلق، بحيث يمكن أن تكون قابلة للتأويل والرمزية البعيدة عن التجسد ككناية عن قدرته أو عن علمه عز وجل.

نفس الشيء يمكن فهمه عن أي نصوص تتحدث عن مشاعر «نعتبرها بشرية عادة» لكن النصوص الدينية تنسبها أيضًا إلى الله (مثل الفرح والغضب وغيرها من المشاعر) - هذه لا يمكن اعتبارها (تجسيمًا) أو (تشخيصًا) بالمعنى المقصود في هذا الفصل، إذ يمكن فهمها على أنها طريقة لتقريبنا من فهم «الله»، ليست مثل أن يظهر بشكل بشري مرئي واضح.

وهناك بالفعل نصوص تتحدث عن (حالات يمكن أن تمر بالبشر) وتنسبها لله، سواء في التوراة أو العهد الجديد أو القرآن الكريم، ولكنها - كما سلف - مختلفة عن حالات التجسد والظهور المرئية التي مررنا على أمثلة لها في العهد القديم.

ولعله من المهم هنا أن نذكر نصًا آخر قد يكون إشكاليًا في فهم كل النصوص السابقة:

٢٠ وقال لا تقدر أن ترى وجهي. لأن الإنسان لا يراني ويعيش. ٢١ وقال الرب هوذا عندي مكان. فتقف على الصخرة ويكون متى اجتاز مجدي أني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز ٢٣..

ثم أرفع يدي فتنظر ورائي. وأما وجهي فلا يرى. (خروج ٣٣ : ٢٠ -٢٣).

النص هنا ينفي إمكانية الرؤية، بما قد يتناقض مع النصوص الأخرى.

لكن نظرة أخرى في النص، وخاصة في آخره، حيث يمكن أن يرى موسى (وراء الله) - أي خلفه - ستخبرنا عن شيء مختلف، الرؤية الكاملة ينفيها النص فعلًا، فهذا النص يخبر فيه الله موسى أنه يمكن أن يرى وراءه، ولكن لا يمكن رؤيته كله، أما الظهور الإلهي فهو أمر مختلف تمامًا، الظهور هو أن يظهر عز وجل بشكل غير شكله (الذي لا يمكن لإنسان أن يراه ويعيش حسب النص).

أما الرؤية المباشرة لشكل الله الكامل (ولأمامه تحديدًا على ما يبدو حسب النص) فهو أمر غير ممكن حسب التوراة.

ولعل المقارنة بين هذا النص أعلاه كما جاء في العهد القديم، وبين الواقعة نفسها كما ذكرت في القرآن، ستكون مفتاحًا فارقًا في المقارنة بين تناول العهد القديم لهذه المسألة، وتناول القرآن الكريم لها.

التجسيم في العهد الجديد - الإنجيل

فماذا عن العهد الجديد، أو الإنجيل، والذي يشكل هو والعهد القديم ما يعرف بالكتاب المقدس عند المسيحيين؟

رغم وجود اختلاف كبير في النظرة إلى الإله بين العهد القديم والجديد، إلا أن هذا الاختلاف يتركز في صفاته وليس في ظهوره أو تجسمه.

صفات الإله في العهد القديم كانت مبالغة في قسوتها ودمويتها وعنفها، وهو في العهد الجديد يظهر

صفات أكثر رحمة ومحبة بما لا يقبل الشك، ولكن هذا لا يغير شيئًا من موضوع الظهور الإلهي.

في الحقيقة: لا يمكن للعقيدة القائمة على تجسد الله في السيد المسيح (وهي العقيدة المسيحية الرسمية منذ أن أقرها مجمع نيقية ٣٢٥ ميلادية)، أن ترفض الظهور الإلهي على نحو بشري أو غير بشري، لأن هذا الرفض سيضعها في تناقض مع عقيدتها الأصلية، بل إن مجرد التأويل لهذا الظهور الإلهي، ومحاولة فهمه على نحو رمزي في كل المواضع سيضعها أمام تناقض.

بل إن بعض الدارسين في اللاهوت المسيحي يعتبرون أن الظهور الإلهي المتكرر على هيئة بشر في العهد القديم كان لغرض تهيئة البشرية لتقبل التجسد الإلهي في السيد المسيح[1].

على أن بعض النصوص في العهد الجديد تشير إلى أن «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر» (يوحنا ١: ١٨) كما تقول النصوص إن «الله روح» (يوحنا ٤: ٢٤) ويفسر اللاهوتيون هذا بأن الله غير مرئي، ولكنه يمكن أن يتجسد بأشكال مرئية، كما مع السيد المسيح حسب قولهم[2].

---

(١) ما هو الفرق بين ظهورات الله في العهد القديم والتجسد الإلهي في العهد الجديد؟ - كتاب حتمية التجسد الإلهي St-Takla.org

https://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-021-Sts-Church-Sidi-Beshr/002-Hatmeyat-Al-Tagasod-Al-Ilahy/Inevitability-of-the-Incarnation__49-God-s-Apparitions.html

GOD IN HUMAN FORM: A THEME IN BIBLICAL THEOLOGY D. J. A. CLINES

https://biblicalstudies.org.uk/pdf/cbrfj/24_24.pdf

(2) CHRIST BEING THE IMAGE OF THE INVISIBLE GOD IN THE ESSENCE OF HIS ATTRIBUTES

https://www.ministrysamples.org/excerpts/CHRIST-BEING-THE-IMAGE-OF-THE-INVISIBLE-GOD-IN-THE-ESSENCE-OF-HIS-ATTRIBUTES.HTML

إذن، في حالتي العهد القديم والجديد، نحن أمام صورة إله «قابل للتجسيم والتجسد»، بما أنه خلق البشر على صورته، وهو أيضًا قابل لأن يظهر على أشكال بشرية وغير بشرية، بل ويتجسد في جسد بشري لثلاثين عامًا هي حياة السيد المسيح على الأرض.

هذا دون تناسي أن الكثير من النصوص الحرفية التجسيمية (في العهد القديم) تعامل - حاليًا - من قبل أغلب اللاهوتيين المسيحيين على نحو مجازي، وربما على نحو يتعارض مع موافقتهم لفكرة التجسيد في العهد الجديد.

* * *

فلننظر الآن بنظرة إنصاف إلى مسألة «وجود نصوص تجسيمية في العهد القديم»..

أولًا - نصوص العهد القديم وأسفاره كتبت على مدى ألف سنة تقريبًا حسب ما هو مقبول كنسيًا اليوم، كتبها مؤلفون مختلفون عاشوا في عصور مختلفة وقارات مختلفة[1].

ورغم أن كثيرين يصرون على أن الأسفار الخمسة الأولى قد كتبها موسى بنفسه، إلا أن هذا الأمر لم يسلم من انتقادات من داخل الكنيسة نفسها فيما يعرف بـ (نظرية التوثيق)[2] Documentary hypothesis،

وهي النظرية التي تنسب الأسفار الخمسة إلى أربعة مؤلفين مختلفين عاشوا في أوقات مختلفة بدلًا عن موسى.

على العموم، حتى في أوساط من يؤمن أنها كُتبت من قِبَل موسى نفسه، فهم يُقرُّون أنها لم تُكتَب حرفيًا، بل حُفظت وتم تناقلها لعدة أجيال على شكل (أغاني وتراتيل مشافهة)[3]، وهذا يعني أن احتمالية التحوير أثناء الكتابة واردة جدًا. التحوير هنا لا يعني وجود يد خفية شريرة كانت تُحرِّف وتُبدِّل المعنى على نحو متعمد بالضرورة، وإن كان لا شيء يمنع حصول هذا فعلًا (ربما في نصوص أخرى يعود التحوير بنفع مباشر على من تعمد التحوير)، ولكن أحيانًا (التحوير) يكون ليس لسبب مُبيَّت، بل لعوامل متعددة غير متعمدة.

---

(1) When was the Bible written? | Biblica - The International Bible Society
https://www.biblica.com/resources/bible-faqs/when-was-the-bible-written/

(2) Documentary hypothesis - Wikipedia

(3) When was the Bible written? | Biblica - The International Bible Society
https://www.biblica.com/resources/bible-faqs/when-was-the-bible-written/

ثانيًا - أن العقل البشري - في مرحلة من مراحل تطوره - وقبل أن يصل لمرحلة النضج، كان من الصعب عليه أن يفهم ما هو مطلق وخارج حدود التصور والخيال. لذا كان من الأسهل ربما لبعض من كتب الكتب المقدسة أو أشرف على تحريرها أن يُقرِّب الطبيعة الإلهية بتشبيهها بالبشر.. ولكن الذي حدث أن النصوص (بكل ما احتوته من تشبيهات) تحولت إلى نصوص مقدسة جامدة، بينما تطور العقل البشري حتى صار عاجزًا عن تقبلها، خاصة أن بعض التشبيهات كانت إشكالية، لأن ظاهرها يحمل إساءة مباشرة للذات الإلهية، مثل أن يعقوب صارع الإله وانتصر عليه (سفر التكوين ٣٢: ٢٤ - ٢٩).

أي أن النصوص كانت قد قدمت صورة معينة، لكي يتقبلها العقل البشري، وهو لا يزال بعد في مراحل تطوره الأولى.. أي أنها كانت (تُبسِّط) فكرة الإله؛ لكي يتقبلها العقل البشري - الطفل، علمًا أن درجة معينة من «التجسيم» (بمعنى واسع كمنح أي صفة بشرية لأي مخلوق غير بشري - كما مع الحيوانات والأشجار) تبدو طبيعية في العقل البشري[1].

لكن العقل البشري لاحقًا نضج على نحو صار يرفض الصورة التي قُدِّمت في النصوص، وصار يعتبرها ساذجة.

العقل البشري تجاوز تلك النصوص.

إله داروين ؟

فلنأخذ داروين كمثال.

نشأ داروين[2] في بيئة بروتستانتية ودرس في مدرسة تابعة لكنيسة إنكلترا، وكان يرغب بأن يكون قسيسًا.

عندما غادر داروين في رحلته الكشفية مع سفينة البيغل التابعة للملكية البريطانية والتي استمرت خمس سنوات بين الجزء الجنوبي من قارة أمريكا الجنوبية وتاهيتي وأستراليا، وهي الرحلة التي أكسبته شهرته ككاتب عندما كتب ملاحظاته في كتاب (رحلة البيغل)، كان لا

---

(1) Anthropomorphism | Psychology Today
https://www.psychologytoday.com/ca/basics/anthropomorphism

(٢)تشارلز داروين Charles R. Darwin(١٨٠٩-١٨٨٢) عالم الأحياء والجيولوجيا البريطاني وصاحب الإسهام الكبر في نظرية التطور ومفهوم الانتقاء الطبيعي عبر كتابه (في أصل الأنواع) الذي صدر عام ١٨٥٩.

يزال مؤمنًا باللاهوت الطبيعي[١] ويبحث عن (مراكز للخلق)، ولكنه في نهاية الرحلة، بدأ بالتشكك بالمصداقية التاريخية للكتاب المقدس[٢].

ما علاقة الرحلة بالمصداقية التاريخية للكتاب المقدس؟ لقد كانت رحلة كشفية للبحث عن المستحاثات الطبيعية وليست رحلة في قاعات المناظرات عن تاريخية الكتاب المقدس ودرجة مصداقيته.

الذي حدث مع داروين، كان أنه كلما زاد الاقتراب من إبداع الخالق، من عظمته، خاصة من أجزاء لم يألفها الحس، وبالتالي لم تتبلد المشاعر تجاهها، صار من الصعب الاقتناع بتلك الصورة التي قدمها الكتاب المقدس للإله[٣].

هذا الإله الخالق العظيم.. هذا المبدع الذي لا حد لإبداعه في خلقه..

كيف يمكن أن يحتويه شكل بشري؟!

كيف يمكن أن يكون في جسد مخلوق بشري؟!

كيف يمكن أن تحتويه سحابة؟ أو عمود نار؟

عقل البداهة وأيضًا عقل المنطق سيرفض هذه الفكرة، مجرد الفكرة.

وكلما عرفنا عظمة الخلق وتعقيده، عرفنا استحالة ذلك..

هذا ما حدث مع داروين.. ومع كثيرين في خضم الثورة العلمية الغربية.. قرَّبهم العلم من حقيقة الخالق - القوة العليا، فوجدوا أن هذا الخالق لا يمكن أن يكون بالصورة «الحرفية» التي قدمها لهم الكتاب المقدس.

إله أينشتاين

الأمر ذاته حدث مع آينشتاين الذي كان أكثر وضوحًا من تشارلز داروين في التعبير عن قناعاته، آينشتاين كان يكثر من استخدام لفظ (الله) في كلامه، لكنه كان واضحًا جدًا أيضًا

---

(١) اللاهوت الطبيعي نوع من أنواع اللاهوت المسيحي الذي يحاول إثبات وجود الله عبر الطبيعة والعلم والفلسفة بمعزل عن الوحي الديني.

(2) Religious views of Charles Darwin - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Religious_views_of_Charles_Darwin

(3) Darwin's God: The Contradiction of Darwin's Anthropomorphic Warning
http://darwins-god.blogspot.com/2009/10/contradiction-of-darwins.html

في أنه لا يقصد (الإله الشخصي) أو إله الكتب السماوية.. وعلى العكس من كثيرين، فقد كانت رحلة آينشتاين مختلفة عن السائد.. فقد نشأ في بيئة ذات موروث يهودي ولكن بعيدة عن التدين، رغم ذلك كان آينشتاين الطفل متدينًا بشدة، إلى أن فقد إيمانه هذا في عمر مبكر، في الثانية عشرة تقريبًا.

ومع تبحر آينشتاين في العلم وفي طبيعة الكون، صار مؤمنًا بوجود خالق لهذا الكون، لكن هذا الإيمان لم يكن له علاقة بالإله الشخصي أو إله الكتب السماوية، بل كان إيمانًا بوحدة الوجود، حيث كان آينشتاين يؤمن بإله الفيلسوف سبينوزا[1]، الذي يُعبِّر عن نفسه بالتوازن القائم في الوجود، في كل الوجود، في كل الخليقة.. بتوحد الله وروحه مع الطبيعة في كل جزء من أجزائها[2].

أهم سبب في عدم إيمان آينشتاين بإله شخصي كان اعتقاده بسذاجة وطفولية الاعتقاد بإله مجسم[3]، إله يمكن أن يكون مُجسَّدًا أو أن يمر بحالات يتجسم فيها..

كان ذلك بالنسبة له، غير قابل للانسجام مع عظمة الكون، مع دقة تنظيمه، مع تناغم النظام الكوني وبساطته في آن واحد..

كتب آينشتاين في رسالة شخصية عن الكتاب المقدس ما يلي: الكتاب المقدس مجموعة من الأساطير البدائية والنبيلة في الوقت نفسه، لا يوجد تفسير للكتاب المقدس مهما كان حاذقًا يمكن أن يغير هذه الحقيقة بالنسبة لي[4]، هذه التفسيرات (= المعاصرة) هُذِّبَت على نحو عالٍ وتشعبت، بحيث لم يعد لها أي صلة بالنص الأصلي[5].

يتحدث هنا آينشتاين عن **مشكلة في النص الأصلي (الحالي، أي كما وصلنا) للكتاب المقدس..**

---

(١) باروخ سبينوزا: (١٦٣٢ - ١٦٧٧) فيلسوف هولندي، من أهم فلاسفة القرن السابع عشر، يهودي الأصل، كتب في الأخلاق والمعرفة، وكان يؤمن بوحدة الوجود، مما جعل اليهود يرفضونه، بل ويحاولون قتله.

(2) Spinozism - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Spinozism

(3) The World as I see it, Albert Einstein, p20
https://www.colonialtours.com/ebook/ebooks/Albert%20Einstein%20-%20The%20World%20as%20I%20See%20it.pdf

(4) Einstein writes of 'childish superstition' | Science | The Guardian
https://www.theguardian.com/science/2008/may/12/peopleinscience.religion

(5) Einstein's letter: God and superstition | Science | The Guardian
https://www.theguardian.com/science/2008/may/13/peopleinscience.religion

مشكلة تجعله بعيدًا عن كل التأويلات والتفسيرات المعاصرة لوقت آينشتاين.

مشكلة ساهمت في جعل آينشتاين يتخذ هذا الموقف من الإله الشخصي، بل من احتمالية وجوده.

فلنضع هذا في ملف في ذاكرتنا، سنرجع له لاحقًا.

* * *

الإله الذي يمكن أن يكون في جسم أو في سحابة أو عمود، أي الإله الذي قُدِّم في الكتاب المقدس بنسخته الحالية، هو إله بعيد عن الإله الخالق كما (يدركه) علماء الطبيعة.

بعبارة أخرى: الصورة التي قُدِّمت للإله في بعض أجزاء الكتاب المقدس، هي صورة ساذجة، طفولية، بدائية - في نظر كثيرين - وربما كان تقبل بعض أجزائها أسهل في عصر كان فيه العقل البشري أقل نضجًا، لكنها لم تعد مناسبة منذ وقت طويل.

للأمانة: من الصعب المجادلة في هذا، **إله يأخذ شكل بشر ويصارع بشرًا آخر ويُهزم أمامه، ومن ثم يسكن في جسد لمدة ثلاثين عامًا؟**

نعم.. كما قالوا، صورة بعيدة عن الإله الخالق.. ما قدَّرت الله حق قدره.

ليست كل الأخطاء في الصورة التوراتية للإله ناتجة عن تحريف متعمد، وبعضها كذلك بالتأكيد (مثل أن يعقوب انتصر على الإله - حاشاه - لإذكاء نزعة التفوق العنصرية عند بني إسرائيل)، لكن الحديث الأساسي هنا عن سوء فهم، عن فهم بشري لم يتمكن من تقديم الله بالصورة التي يمكن أن تكون مفهومة، مقبولة، عبر العصور.

لا يمكن إلا أن نتفهم حق داروين، وآينشتاين وكثيرين سواهم، ربما لم يصرحوا، أن يرفضوا هذه الصورة الساذجة للإله القابل للتجسيم.

فلنتأمل الآن في بديلهم..

* * *

البديل الأخرس

تحدث آينشتاين عن إله سبينوزا[1].

وهو إله متحد مع الكون، موجود في كل شيء، قريب من رؤية ابن عربي وكل المؤمنين بوحدة الوجود في التراث الإسلامي.

لكنه أيضًا إله لا يعبر عن نفسه، إنه موجود في الطبيعة وقوانينها، قائم ومقيم فيها..

لقد خلق الطبيعة وظواهرها، وهو موجود فيها أيضًا بطريقة ما، كما أنه خلقنا وخلق كل الكائنات الحية.

يمكن بسهولة أن نطرح أسئلة هنا من قبيل: هل كان موجودًا قبل الطبيعة؟.. هل كان له وجود قبل أن يخلق الطبيعة التي اتحد معها؟ أم أنه هو والطبيعة كانا هناك منذ الأزل، بلا بداية؟

لكن هذا ليس موضوعنا هنا.. **هم يؤمنون بإله ما، يرونه بديلًا عن الصورة الساذجة التي قدمها الكتاب المقدس.. ونتفق معهم** في سذاجة «بعض» **أجزاء الصورة..**

ولكن.. نبحث في بديلهم..

بديلهم الذي لا يتصل بالبشر، لا عبر نبوة، ولا عبر رسالات.. ولا عبر أي شيء..

ليس سوى قوانين الطبيعة التي يمكن لفئة محددة جدًا من العلماء أن يكتشفوها بالتدريج، فيدركوا طريقة عمله، ولكن ليس أي شيء آخر..

لا شيء عنه، عما أراده منا.. لا نعرف أصلًا إن كان يريد شيئًا منا.. بل لنكن صريحين: حسب هذا الوصف، نحن لسنا متأكدين إن كانت له إرادة مستقلة أصلًا.

* * *

إله الكتاب المقدس ساذج وطفولي؟

نعم، ربما، على الأقل في بعض ما يقدمه «الكتاب المقدس».

لكن إله سبينوزا .. غامض، أخرس، وربما أصم أيضًا.

---

(1) Einstein and His God
https://www.momentmag.com/einstein-and-his-god/

لقد خلقنا بلا هدف على ما يبدو، أو أنه خلقنا بهدف ولكنه قرر ألا يخبرنا عن هذا الهدف، أو عن أي شيء أصلًا..

لقد صنع كل هذا الكون بهذه الدقة، بهذا التناسق، وخلقنا أيضًا بنفس التناسق والدقة، لكنه أحجم عن إخبارنا بأي شيء عنه هو، أو عن السبب الذي وضعنا هنا فيه، قرر أن يصمت، أن لا يقول شيئًا.. أن يتركنا دون أي تدخل منه.

الصورة التي يقدمها الكتاب المقدس ساذجة فعلًا، طفولية، بدائية.. غير مناسبة.

لكن صورة إله سبينوزا، ليست أفضل للأسف.

نعم، قد لا تكون ساذجة أو بدائية.

لكنها تشبه صورة مثقف متعجرف، يرفض أن يتحدث مع العامة، بل يرفض أصلًا النظر إليهم.. لا يعتبرهم موجودين.. يتجاهلهم مع سبق الإصرار والترصد.

رغم أنه هو من أوجدهم..

الصورة مختلفة نعم، لكنها بصراحة ليست أفضل.

وبينما وجدت الصورة الأولى الساذجة شعبية عند بسطاء الناس؛ لأنها تتناسب مع نمط تفكيرهم،

فإن الصورة الأخرى المتعجرفة وجدت قبولًا عند بعض علماء الطبيعة، ليس بالضرورة لأنها أقرب لهم، بل لأنها أكثر «تعقيدًا» و «ثقافة» من الصورة «البدائية» «البسيطة» التي يؤمن بها العامة..

* * *

فلننتبه هنا إلى أن هؤلاء العلماء الذين رفضوا فكرة (الإله الشخصي) أو إله الكتب السماوية لم يرفضوها بشكل رئيسي إلا لسبب سذاجتها وطفوليتها في رأيهم، لكنهم لم يعترضوا بوضوح على إمكانية إرسال رسل أو حدوث تواصل من نوع ما مع الإله.. (وإن كان هذا متضمنًا أيضًا في مفهوم الإله الشخصي).

بعبارة أخرى: لو أن الإله الشخصي - إله الكتب السماوية - قُدِّم على نحو (مختلف)، أقل تجسيمًا - ما دمنا نتحدث عن صفاته من هذه الناحية، هل كان سيؤدي هذا إلى نفس الموقف لهؤلاء العلماء من الإله الشخصي؟

هل كان الموقف من قضية وجود الإله - الخالق سيكون على هذا النحو الذي انتهى له؟

هل كان العلم سيجد نفسه في هذا التصادم الحاد مع الدين بسبب مواقف هؤلاء العلماء ابتداء؟

اختلاف النص القرآني عن بقية الكتب السماوية

أستطيع أن أزعم أن النص القرآني كان مختلفًا عن الكتب السماوية التي سبقته في وصف الله، وفي بعده عن التجسيم خصوصًا بالمقارنة بالكتب السابقة.

وهذا بحد ذاته يعطل إلى حد كبير (الحجة التجسيمية) التي قادت الكثير من العلماء إلى الانصراف عن إله الكتب السماوية (وكانت بالنسبة لهم التوراة والإنجيل حصريًا).

ما هي أوجه الاختلاف بين النص القرآني ونصوص الكتاب المقدس فيما يتعلق بالتجسيم؟

أولًا - لا توجد أي إشارة في القرآن إلى خلق آدم على صورة الله، وهو ما تكرر عدة مرات في الكتاب المقدس.

ثانيًا - لا يوجد في القرآن أي ظهور دنيوي إلهي على أي شكل أو جسم بشري كان أو غير بشري، على العكس من التوراة والإنجيل. والمقصود بالظهور الدنيوي هنا ما جاء في التوراة من حالات «تجسد» فيها الله على شكل «سحاب» أو «عمود من نار» أو «شجرة» أو هيئة بشرية، وكلها ذُكِر حدوثها في التوراة «دنيويًا»، كما ذُكِر التجسد البشري في العهد الجديد.

ثالثًا - أفعال المشي و(صوت المشي) والمصارعة والحركة والاتجاه التي ذُكرت في التوراة في مواضع عديدة، والتي كرَّست (تصورًا بشريًا) لله عز وجل لا وجود لها في القرآن كصيغة دنيوية على الإطلاق.

رابعًا - الصيغة الدنيوية الوحيدة لفعل إلهي فيه تفاعل مباشر مع «بشر» هو في الوحي، وتحديدًا في «تكليم» الله عز وجل لموسى.

خامسًا - كل الصفات التي ذُكرت في القرآن والتي يمكن أن تشبه صفات البشر (مثل السمع والبصر) موجودة تحت مظلة آية كبيرة تقطع التجسيم الإلهي وهي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١).. أي أنه حتى في السمع والبصر لا يشابه من قريب أو بعيد

ما نعرفه عن السمع والبصر البشريين واللذين يتطلبان وجود آلة أو عضو للسمع والبصر... إلخ، وهذه الآية مركزية في فهمنا لصفاته عز وجل، وتجعل كل ما يرد من صفات له يمر عبرها، وهي تنفي إمكانية أي تشبيه وتجسيم وتمثيل، هي مثل قانون أساسي لفهم صفاته عز وجل.

فلننتبه هنا إلى وجود خيط رفيع جدًا بين التجسيم، وبين إيراد صفات (تشبه نماذج بشرية). النص القرآني يورد فعلًا ما يمكن أن يُفهم سطحيًا بأنه مشابهة للتمثيل الوارد في الكتب السابقة (بدرجة أقل بكثير)، لكنه يوردها تحت مظلة نص جامع هو (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).. بالضبط استخدام هذه الصفات في القرآن هو لتقريب فكرة القدرة الإلهية والصفات الإلهية لذهن الإنسان، وهذا التقريب للفكرة لا يعني أنها ليست حقيقية على الإطلاق، بل يعني أن إمكانية تصورها الحقيقي غير ممكنة أو غير متوفرة لدى العقل البشري.

الفكرة هنا أن الله مطلق في صفاته فعلًا، لكن الإنسان لا يمكنه أن يؤمن بسهولة بالمطلق اللا متخيل، عقله لن يساعده هنا، لذا فلا بد من وجود (منطقة وسطى)، عبر التعبير عن الصفات الإلهية بـ (نماذج بشرية) تقرب المعنى في ذهن الإنسان، وفي الوقت نفسه يؤمن بأن الله ليس كمثله شيء ليبعد عن التجسيم.

سادسًا - وصف الله عز وجل يكون عبر آيات تعطي انطباعًا معاكسًا تمامًا لفكرة التجسيم، فهي بين إعطاء وصف مطلق خارج كل المقاييس البشرية كما في:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣).

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥).

أو عبر التركيز على صفاته المطلقة (مثل العلم) أو صفات أفعاله:

﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٢ - ٢٤).

سابعًا - الآيات التي يمكن أن توحي بأن له عز وجل عضوًا مشابهًا لأعضاء البشر (مثل العين أو اليد أو الوجه).

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود: ٣٧).

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (الطور: ٤٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٠).

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[1] (ص: ٧٥).

﴿لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥).

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٢)

تفسير آيات العين واليد واضح من السياق بأنها تعني القوة أو القدرة أو الأمر أو النعمة أو الفضل بحسب السياق، ولا تعني العين أو اليد بالمعنى المادي الذي يقودنا فهمنا البشري له لأننا ببساطة لا نعرف شيئًا سوى هذا الفهم.

كذلك آيات الوجه يفهم منها (القبلة) أو ذاته عز وجل أو الأجر أو الرضا كما في آيات: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (الرعد: ٢٢) - ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم: ٣٩) - ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (الليل: ٢٠).

ولو كان يفهم من كل هذه الآيات شيء مشابه لما نعرفه من أعضاء لكانت آية ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨).. يفهم منها أن وجهه لن يهلك، لكن يده ربما تهلك، حاشاه عز وجل.

ثامنًا - آيات تشير إلى يوم القيامة (أي إلى يوم مختلف تمامًا عن واقعنا الدنيوي والمعتاد فيه من أبعاد ومفاهيم) والبعض منها تفسرها إشارات لها معناها في لغة العرب، ويمكن أن تفهم على نحو خاطئ يجعل فيها شبهة تجسيم في حالة تجاهل السياق المعروف عند العرب.

---

(١) الرأي السائد هو أن هذه الآية تدل على وجود «يدين» لله عز وجل لأنه عز وجل قال «خلقت بيدي» والنقاش يدور حول أن هناك تفضيلًا بالخلق باليد لآدم جعله مستحقًا للسجود من قبل الملائكة، ولو كانت اليد هنا تعني القدرة لتساوى إبليس مع آدم فيها، لكن هذا يتعارض مع آية أخرى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس:٧١) فهنا الأنعام أيضًا خلقت بيد الله؛ لذا ربما تعني «خلقت بيدي» أنها إشارة إلى نعمته عز وجل على الإنسان، وتفضيله على بقية مخلوقاته، خاصة أن في لسان العرب (اليد) تعني الفضل، كأن يقال: أن لي يدًا على فلان، أي فضل.

مثل ذلك آية ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم: ٤٢) فالكشف عن الساق في لسان العرب له معنى شدة الأمر وهوله، مثل أن يقال «شمّر عن ساعده» للدلالة على الاستعداد، وغالبًا أصل الأمر يرتبط بالاستعداد للهروب لشدة أمر ما، ذلك أن رفع الثوب وكشف الساق يساعد في الركض والهروب، علمًا أن بعض الأقوال قد فسرت الأمر فعلاً بشكل تجسيمي (كما سيأتي) لكن المأثور وما عليه الجمهور هو هذا.

كذلك آية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧) فهذا السياق يدل على القدرة والسيطرة ولا يعني أن هناك «قبضة» أو «يمينًا» لله بالمعني الجسدي - تعالى عز وجل عن ذلك - ولا نزال نقول حتى اليوم «وقع في قبضة العدالة» عندما نتحدث عن السيطرة على مجرم فار ولا نقصد أن للعدالة قبضة «مادية»، كذلك «اليمين» عند العرب لم تكن تعني «اليد اليمنى» بل كانت تعني السيطرة، فعندما كان العرب يقولون «ملك اليمين» - عن العبيد والجواري - لم يكونوا يعنون «ملك اليد اليمين دون الشمال»، بل كان المعنى هو السيطرة.

كذلك آية مثل: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢) يتحدث سياقها عن يوم القيامة ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ وفُسِّر المجيء هنا بأنه مجيء «أمر ربك»، فالمجيء هنا هو لأمر الله، عذاب الله أو قضاء الله، وهو أمر يتم تنفيذه عبر الملائكة، أي «جاء أمر ربك بالملك» - كما في «اذهب أنت وربك فقاتلا» - أي «بربك».

كذلك آية ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (البقرة: ٢١٠)، فالسياق هنا هو في يوم القيامة، فالمجيء والإتيان هنا هو لأمر الله كما في السياق المماثل الذي وردت فيه كلمة «أتى».

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل: ٢٦).

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ (الحشر: ٢).

تاسعًا - آيات تحدثت عن الاستواء/ العرش/ الكرسي وهي الآيات التي أحدثت خلافات في فهمها وتأويلها بين مختلف الفرق، ومن المهم التنبيه هنا إلى أن تأويل مفردتي العرش والكرسي تأويلًا يجعل منهما رمزين أمر مخالف لسياقات استخدامهما في الآيات، كما سيأتي.

الاستواء، العرش، الكرسي

ويمكن ربط عموم هذه الآيات بثلاث نقاط ارتكاز أساسية:

الأولى - هي المظلة الواسعة التي تفسر كل ما يتعلق بصفات الله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، وهي قاعدة عامة تشمل كل صفاته عز وجل، وتذكرنا دومًا بأن كل ما نعرفه من صفات «بشرية» لا تشبه ما قد يتوافق اسمًا مع صفات الله عز وجل، مع وجود تشابه عام في المدلول، فالسمع والبصر البشريان معروفان، لكنهما محدودان بالطبيعة البشرية التي تجعل كلًا من البصر والسمع مرتبطين بمسافة محدودة، ومرتبطين بعضو أو أداة للسمع أو البصر، أما الله عز وجل السميع البصير والذي ليس كمثله شيء، فسمعه وبصره غير محدودين بمسافة أو بحاجز، وكذلك لا يرتبطان بعضو، تعالى عز وجل عن ذلك.

الثانية - سياق الاستخدام المتعلق بكل من هذه المفردات في القرآن الكريم: كيف وردت هذه المفردات وما هو السياق العام للآيات قبل أو بعد ذكر هذه المفردات.

لفظ (العرش) مثلًا ورد عشرين مرة في القرآن الكريم، ١٩ مرة منها تتعلق بعرش الرحمن، ويمكن بسهولة ملاحظة أن سياق الاستخدام في هذه المواضع هو سياق «القوة والقدرة والسيطرة على مقادير الأمور». كما في:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ (يونس٠٠٣).

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: ١١٦-١١٥).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩).

كلها سياقات تشير إلى قوته وقدرته وتحكمه، واستمداد هذه القوة منه.

الثالثة - ربط كل ما سبق مع استخدام هذه المفردات عند العرب، فالعرش مثلًا كان يعني عدة معانٍ عند العرب من ضمنها: سرير الملك، والبيت، والسقف، والمُلك. وعرش الرجل: قوام أمره وعزه. وعَرْشُ الكَرْم: مَا يُدْعَمُ به منَ الْخَشَب، وعَرَشَ الكَرْمَ يَعْرِشُه ويعرُشه عَرْشاً وعُرُوشاً وعَرَّشَه: عَمِل لَهُ عَرْشاً. وعَرَّشَه إِذا عَطَف العيدان الَّتي تُرْسَل عَلَيْهَا قُضْبان الكَرْم، وعرَشَ يعْرِشُ ويعرُش عَرْشاً أَي بَنى بِناءً منْ خشب. والعُروش والعُرُش: بُيُوتُ مَكَّة، وَاحدُهَا عَرْشٌ وعَرِيشٌ، وَهُوَ منْهُ لأنها تَكُونُ عيداناً تُنْصَبُ ويُظَلَّلُ عَلَيْهَا. والعَرْش: الأَصل يَكُونُ فيه أَربعُ نَخَلات أَو خمسٌ، وإِذا نبتتْ رواكيبُ أَربعٌ أَو خمسٌ عَلَى جِذْع النَّخْلَة فَهُوَ العَرِيشُ، والعَرِيشُ: شِبْهُ الهَوْدَج تقْعُد فيه المرأَةُ عَلَى بَعير[1].

ما الذي يربط بين هذه المعاني المتعددة؟ الأصل هو الفعل (عرش) وهو المكان الذي ينشأ من دعم دوالي العنب بالخشب أو العيدان، بحيث تلتف هذه الدوالي وتكون (عريشًا) مظللًا في وسط كَرْم العنب، وهو المكان الذي من المتوقع أن يلجأ إليه صاحب الكَرْم أثناء وجوده في الكَرْم، لأنه مكان ظليل ويحميه من الشمس.

البيت، وخصوصًا بيوت مكة التي كانت تبنى من (العيدان) أو النخيل ثم يظلل عليها، لا تشكل فرقًا كبيرًا عن (عرش الكَرْم) إذ أن الفكرة نفسها.

الهودج، على البعير، يبدو غير بعيد عن المعنى ذاته، عيدان، أو أعمدة خشبية، تحاط وتظلل بقماش أو بأي شيء آخر يؤدي الوظيفة نفسها.

بهذا التدرج، يمكننا أن نفهم كيف كان شكل عرش الملك، نتخيل دومًا أن عرش الملك كرسي ضخم فخم مزين بالذهب أو ما شابه، لكنه في الحقيقة أريكة (السرير عند العرب لم يكن يعني الفراش كما نستخدمه اليوم بل كان يعني الأريكة) وهذه الأريكة مغطاة بقبة (تسمى الحجلة) والتي تستند بدورها إلى قوائم (كما في الهودج أو بيوت مكة) وهذا الوصف من مجموع ما تعنيه كلمات (الأريكة، السرير، والحجلة) في لسان العرب، وهو مطابق لبعض ما

(١) لسان العرب، عرش.

وصلنا من منحوتات تبين عروش الملوك الفرس (الأقرب للعرب جغرافيًا، وكان العرب يعرفون عروش الملوك الفرس وكذلك عروش البيزنطيين بأنها كانت متقاربة في الشكل).

عرش الملك إذن لم يكن كرسيًا ضخمًا، بل كان أقرب إلى (غرفة مصغرة)، ربما داخل غرفة أو قاعة أكبر، لكنها كانت (غرفة) متمايزة عما سواها.

ما الذي كان يحدث في هذه الغرفة - العرش؟

كان يحدث (التحكم) بكل شيء. كل الأوامر الملكية، كانت تصدر في (العرش) وعن (العرش)، بل إن كلمة العرش صارت ببساطة تعني المُلك، لذلك عندما يموت ملك ويرثه ولي عهده، يقال: انتقل العرش إلى فلان..

العرش إذن -حسب مفهوم العرب آنذاك- هو (غرفة الحُكم).

كيف يخدمنا هذا بفهم العرش في الآيات القرآنية الكريمة؟

كل ما مضى من المعاني يقرب لنا والله أعلم أن (العرش) هو البُعد الذي يجري فيه التحكم بالكون ككل، - لا أريد أن أقول المكان أو الحيز في هذا السياق. ربما يمكن القول - والله أعلم - أنه البُعد الذي تجتمع فيه كل القوانين التي وضعها عز وجل، ومن خلالها يتم التحكم بكل شيء.

بعبارة أبسط، للتوضيح فقط، العرش أقرب إلى أن يكون (غرفة العمليات) أو (غرفة السيطرة)[1]، تعالى الله عز وجل عن كل تشبيه.

ماذا عن ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٧)..

من السهل على العقل التجسيمي تخيل أن هذا العرش «مادي» - بالمعنى الذي نفهمه من المادة - ويحمله ثمانية ملائكة، وإعادة فهم كل شيء بناء على هذا التخيل المادي البعيد تمامًا عن «ليس كمثله شيء» و«لا تدركه الأبصار»..

لكن العقل الذي يتشكل بناء على مفاهيم «غير حرفية» ويربط الآيات ببعضها سيفهم المعنى باعتباره تنفيذ الملائكة لأوامره عز وجل، خاصة أن السياق يتحدث مرة أخرى عن يوم القيامة.. (علينا أيضًا هنا أن نتخلى عن تصورنا الذهني للملائكة الذي يحولهم إلى أيقونات هوليودية).

(١) د. محمد صالح العاني: القيامة أرضية أم كونية. عصير الكتب.

وماذا عن آية ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود: ٧)؟

أن يكون عرشه على الماء، وأن يكون الماء هو أصل الحياة وأصل كل شيء حي ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠) فإن هذا يتفق مع كون العرش هو للتحكم والسيطرة على العمليات، فهو قائم (على) أصل الحياة.

الاستواء المعلوم والكيف المجهول

ماذا عن الاستواء؟ معاني الاستواء في لسان العرب تدور حول «الاعتدال» «بلوغ الأشد» «القصد والوصول» «الاستيلاء والظهور».

ما الذي يجمع هذه المعاني مع بعضها؟

إنها تعني - والله أعلم - الوصول إلى «نقطة الذروة» - الهدف النهائي.

لكن ماذا يعني هذا عندما يكون الله عز وجل هو الذي «استوى» على العرش؟ تعالى سبحانه عن أي تشبيه وتمثيل؟

لو راجعنا سياق الآيات التي فيها «الاستواء» لوجدناها تتحدث عن خلق السماوات والأرض.. كلها تتحدث عن الخلق، ثم يأتي في أمر الاستواء - والاستواء على العرش، كما لو أن المعنى هنا أنه عز وجل قد «انتهى» من خلق السماوات والأرض، وهذه هي نقطة الذروة في أمر خلقه (الاستواء) وخلقه للسموات والأرض هو مثال على تحكمه وسيطرته (التي تنفذ في ما يمكن تسميته بغرفة العمليات، العرش).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٩).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٣).

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد: ٢) إلى آخر المواضع التي وردت كلها في سياق خلق السماوات والأرض.

هل يمكن أن يكون وجود «الاستواء» مقترنًا بالخلق، في كل الآيات التي ورد فيها مجرد مصادفة؟

لا شيء بالصدفة.

ماذا عن الكرسي؟

الكرسي عند العرب يعني ما يعتمد ويقعد عليه، وهو أيضًا مثل الوتد، كأن يقال اجعل لهذا الحائط كرسيًا، أي اجعل له ما يعتمده ويمسكه، «الكراسة» الشَّيْءُ الَّذِي قَدْ ثَبَت ولزم بعضُه بَعْضًا والربط بينهما هو أن الكرسي يلزم تراكب الخشب وتماسكه مع بعضه بعضًا وكذلك الكراسة مَعْنَاهَا الْكتب المضموم بَعْضهَا إِلَى بعض، وَالْوَرق الَّذِي ألصق بعضه إِلَى بعض.[1]

وقال ابن عباس: الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ. ورغم أن قول ابن عباس قد استخدمه البعض لإثبات وجود قدم لله[2]، إلا أنه من الملاحظ أن ابن عباس ربما كان يتحدث عن استخدام الكرسي عمومًا، وليس عن الكرسي المرتبط بآية الكرسي، ويؤيد ذلك أن ما وصل من منحوتات تصور عروش الأكاسرة توضح وجود «كرسي» صغير فعلًا يضع الملك قدميه عليه.

كيف يمكن أن نربط بين كل هذا؟

الكرسي مكون أصلًا مما لزم وضم إلى بعضه بعضًا، وهو جزء من (العرش) - بالمعنى المذكور سابقًا، باعتبار أن العرش ليس مقعدًا فخمًا، بل أقرب إلى غرفة المُلك - وكونه جزءًا

---

(١) الكليات: فصل الكاف/ ص ٧٧٠.

(٢) يمكن مراجعة رد الألباني على ذلك، حيث إن الحديث موقوف على الصحابي وليس مرفوعًا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وبالتالي فقد يكون قد تسرب من الإسرائيليات. موسوعة الألباني في العقيدة، الجزء ٦ - ص ٣١٢.

من العرش يتفق إلى حد ما مع الحديث الصحيح «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»[1].

إذا كان العرش هو (غرفة العمليات) أو (غرفة التحكم) فما هو دور الكرسي هنا؟ وما أهميته؟

هنا يأتي مفهوم الكراسة (وقد مر ذكرها في المعاني حيث إنها تعني الكتب المضمومة إلى بعضها كما الكرسي يضم الخشب إلى بعضه بعضًا)، ودور الكراسة عادة هو «الاحتواء على المعلومات».

الكرسي هنا والله أعلم هو (قاعدة البيانات التي تخص كل شيء في السموات والأرض)، وهي قاعدة بيانات مهمة وظيفيًا في غرفة التحكم أو غرفة العمليات. وهو أمر يقترب إلى حد كبير مما نقل عن سعيد بن جبير وابن عباس ورجحه الطبري من أن المقصود بالكرسي هو (العلم)، وكذلك يتفق مع السياق العام للآية ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

فلأشدد هنا إلى أني لا أقترح أن معنى العرش والكرسي رمزيان أو مجازيان، العرش والكرسي مخلوقان، لا نعرف شكلهما ولا نعرف من أي شيء خُلقا، ولكنهما - والله أعلم - يشبهان (وظيفيًا) العرش والكرسي، وظيفيا فقط، وليس بالشكل الذي لا نعرفه.

لماذا العرش ولماذا الكرسي؟

قد يطرح هنا سؤال: لماذا أصلًا العرش والكرسي؟

هل يحتاج الله عز وجل إلى عرش وكرسي لكي يدبر الأمر ويتحكم بمجريات ما يحدث؟

لا، لا يحتاج. هو الغني عن كل شيء، عن كل مخلوق.

لكن اختار أن يفعل ذلك، تلك هي إرادته.

لماذا؟

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٠٩.

لا نعرف، ولكن كما اختار عز وجل أن يكون لديه سنن وقوانين يسير الكون عليها، كذلك اختار أن يكون هناك عرش وكرسي، وكان يمكنه أن ينفذ إرادته دون قوانين أو سنن.

كذلك اختار أن يكون هناك عرشي وكرسي.

* * *

لكن أليس في الحديث عن «العرش» و«الكرسي» بهذه الطريقة (غرفة عمليات - غرفة التحكم - قاعدة معلومات) شبهة تجسيم واضحة؟ لماذا لم نستخدم «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» كما فعلنا في فهم صفات «اليد والعين» - على سبيل المثال؟

لأن العرش والكرسي ليسا «صفتين» من صفاته عز وجل، بل هما مخلوقان، وبالتالي لا يمكن اعتبارهما مشمولين في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

فضلًا عن ذلك، تشبيه «غرفة العمليات» لا يعني أبدًا أننا نتحدث عن غرفة «ذات أبعاد مادية»، التشبيه وظيفي فقط، وليس تشبيهًا «بشكل غرفة العمليات أو قاعدة المعلومات المتعارف عليها» والتي يكون فيها «أبعاد» فيزيائية. هل نستغرب الأمر ونحن نعيش في عصر فيه مؤسسات وجامعات تُؤَسس وتُقَام وتباشر أعمالها في واقع افتراضي، على الشبكة فحسب؟ أليست أكبر مخازن المعلومات اليوم تستخدم وحدات قياس رقمية غير فيزيائية؟

لا أقصد أن الأمر مشابه بالضرورة، لكن فكرتنا عن «مادية الأبعاد» لم تعد حتمية حتى في واقعنا المعاصر، فلماذا تكون «مادية» بالنسبة للكرسي والعرش؟

الخلاصة في التجسيم والتجسيد...

تلخيصًا لكل ما مضى بخصوص «التجسيد والتجسيم» في القرآن الكريم..

أولًا - لا يوجد أي شبهة في التجسيد أو التجسيم في أي آية تشير إليه عز وجل في تفاعل دنيوي - أرضي مباشر مع البشر. وهذا هو الاختلاف الجوهري عن الكتب السماوية السابقة التي «جسمت» و«جسدت» الله في الدنيا.

ثانيًا - لله أسماء وصفات يمكن أن تفهم من خلال معرفتنا بالصفات المقابلة عند البشر، لكن التشابه هنا محكوم مسبقًا بـ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)، وهو تشابه (وظيفي) وليس في الشكل.

ثالثًا - كل شبهات «التجسيم» تتوزع بين آيات تتحدث عن يوم القيامة، وآيات تتحدث عن قدرته وسيطرته على الكون (الاستواء، العرش، الكرسي)، ربما في بُعد مختلف تمامًا عن الأبعاد المادية التي نعرفها، وكل منها يمكن أن يفهم من خلال القاعدة (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ومن خلال سياق الآيات ومن خلال لسان العرب لنصل إلى المعاني التي لا تحمل أي شبهة للتجسيم.

العقل البشري وحاجته إلى القليل من التشبيه

لكن لماذا توجد أصلًا أي مساحة في القرآن الكريم يمكن أن تفتح الباب لمن يسيء التأويل ويميل إلى التجسيم؟

أما كان من الممكن أن تكون النصوص القرآنية خالية تمامًا من أي إشارة قد يساء فهمها؟

ما دام القرآن قد أنزل للبشر، فنزوله بهذه الطريقة هو الأفضل لهم.. ببساطة البشر لا يمكنهم أن يفهموا (الإله) إلا من خلال تجاربهم الشخصية، وتجاربهم هذه (مبنية) بشكل أساسي مع بشر مثلهم.

في الحقيقة، تشير دراسات كثيرة إلى أن البشر «تجسيميون» بشكل غير إرادي وغير واعٍ، وهم يميلون إلى إسباغ الصفات البشرية ليس إلى الحيوانات والظواهر الطبيعية من حولهم فحسب، بل حتى مع (المفاهيم المجردة) مثل الحرية، الموت، وحتى المبادئ الأيديولوجية. الإنسان، حسب غوته[1]، لن يعرف أبدًا كم هو تجسيمي، وحسب هيوم، حتى الفلاسفة، لا يستطيعون التوقف عن التجسيم[2].

ويرى غثري[3] أن التجسيم ناتج عن استراتيجية في الإدراك اتبعها الإنسان منذ القِدَم، وذلك عبر تفسير كل ما لا يفهمه مما حوله من ظواهر تفسيرًا يجعل لهذه الظواهر إرادة وسلوكًا

---

(١) يوهان فولفانغ غوته Johann Wolfagng Goethe (١٧٤٩ - ١٨٣٢) واحد من أهم أدباء ألمانيا وأكثرهم تأثيرًا في الحياة الفكرية والأدبية في ألمانيا وأوروبا عمومًا. من أشهر أعماله (فاوست) و(آلام فارتر).

(2) Religion as Anthropomorphism at Catalhoy, Stewart Elliot Guthrie
https://www.researchgate.net/publication/287895753_Religion_as_anthropomorphism_at_Catalhoyuk

(٣) ستوارت ايليوت غثري Stewart Elliot Guthrie الأستاذ في جامعة فوردهام، تعتبر كتبه (نظرية إدراكية للدين) - ١٩٨٠ - و «وجوه في الغيوم» - ١٩٩٣ - من الكتب المؤسسة لعلم الإدراك الديني. يعتبر متأثرًا بديفيد هيوم في نظرته للدين، ولكنه مزج فكر هيوم مع الانتخاب الطبيعي.

متعمدًا مثل البشر، ورغم أن هذا قاد الإنسان إلى أخطاء، إلا أنه قاده أيضًا إلى اكتشافات فاقت أهميتها هذه الأخطاء. كمثال: الظلال ستفسر على أنها بشر، والأصوات ستفسر على أنها أصوات بشر، إذا اتضح أن هذا التفسير صحيح وأن هناك (عدوًا قادمًا) في الظلام، فإن هذا التفسير سيكون مهمًا وحيويًا، وإذا اتضح أنه خاطئ، فإنه لن يكون مضرًا[١].

ويناقش جستين باريت، من خلال دراسته عن مفاهيم (الله) عند الأطفال، فرضيتين، الأولى هي فرضية الاستعداد Preparedness Hypothesis والثانية هي فرضية التجسيد Anthropomorphism Hypothesis.

«فرضية الاستعداد» تشير إلى أن الأطفال يُكوِّنون فكرة «تجسيدية - بشرية» عن الله لأن آليات الإدراك التي يتعاملون بها مع فكرة الإله هي نفسها آليات الإدراك التي يتعاملون بها مع البشر ومع أي شيء آخر.

أما «فرضية التجسيد» فهي على العكس من ذلك، تشير إلى أن آليات الإدراك عند الأطفال تُدرب أولًا على التعامل مع البشر، وهذا يجعلهم لاحقًا يتعاملون مع فكرة الإله على نفس الطريقة - البشرية، التجسيدية[٢].

يقول باريت أيضًا، إن فرضية التجسيد، معاكسة للرؤية التوراتية التي تقول إن (الله صنع آدم على صورته). فرضية التجسيد تقول إن آدم، هو الذي يتخيل الله على صورته هو، أي آدم[٣].

بغض النظر عن الأصل في المسألة، فإن ثمة ميل طبيعي، بحدود معينة على الأقل، إلى التجسيد، وإن هذا الميل يقل بالتدريج أكثر فأكثر بعد الطفولة[٤].

(1) FACES in the CLOUDS A New Theory of Religion STEWART ELLIOTT GUTHRIE New York OXFORD UNIVERSITY PRESS, preface to paperback edition.

(2) Anthropomorphism or Preparedness? Exploring children's God Concepts, Justine L. Barrett, Rebekah A. Richert. REVIEW OF RELIGIOUS RESEARCH, 2003, VOLUME 44:3, PAGES 300-312
https://pdfs.semanticscholar.org/7daf/9f236835e31c26eedbc1ebbfd40d27d002bc.pdf

(3) Born Believers: The science of Children's Religious Beliefs: Justine L. Barrett. Free press 2012, p78

(4) Born Believers,ibid. p79

القرآن واستعدادات العقل البشري

أزعم هنا أن النص القرآني، مناسب تمامًا لاستعدادات العقل البشري وانحيازاته المسبقة. فهو من ناحية (يلغي) تمامًا أي تجسيد دنيوي لله (وهو الأمر الذي ينسف الصورة البدائية الساذجة للإله كما قُدِّمت في التوراة)، ومن ناحية أخرى، يقدم صفاته عز وجل (المطلقة) باستخدام لغة بشرية تقرب الفكرة دون أن تجسدها، مع الحفاظ دومًا على أنه (لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ) رغم أنه (السَّمِيعُ الۡبَصِيرُ)، وهذا بدوره يقدم بديلًا (حيًا، فاعلًا) عن إله سبينوزا شبه الميت، الذي لا تدركه الأبصار ولا يدرك هو الأبصار أيضًا.

هذا الخيط الرفيع بين التجسيد واستخدام مواصفات بشرية تُقرِّب صفات الله من عقول البشر هو الفارق الجوهري الكبير بين القرآن الكريم وبقية الكتب السماوية في موضوع تصور الله تحديدًا، وهو الفارق الذي أراه مُسقِطًا للنقاش السابق عن العلماء الذين رفضوا الصورة التوراتية للإله لسذاجتها وبدائيتها، ربما كان نقاشهم فعالًا مع ما قدمته التوراة، لكن الأمر لا يشمل كل الكتب السماوية أو الديانات الإبراهيمية بالضرورة، وهو لا يشمل القرآن تحديدًا.

* * *

شيء آخر أرى أنه ربما كان مهمًا لتقريب فهم صفات الله عبر «صفات موازية لصفات البشر» عنده عز وجل..

ربما كان مهمًا أن تكون هناك هالة من الغموض حول فهمنا له عز وجل.. أن نسأل: كيف يكون سمعه وبصره؟.. وما هو العرش؟ وما هو الكرسي؟.. أن لا يكون ثمة أجوبة نهائية قاطعة حول ذلك.

أرى أن بقاء هذا الجزء، ضبابيًا، دون وضوح تام، في منطقة يعجز العقل الإنساني عن الوصول لها وسبرها، مهم لعلاقتنا به عز وجل، لجلاله وعظمته..

بالضبط كما يكون الضوء عظيمًا مبهرًا بحيث لا يمكنك أن تنظر إلى مصدره.. وتراه.

الأحاديث النبوية وشبهة التجسيم

إذا كانت نصوص القرآن الكريم قد قدمت هذا التصور البعيد عن التجسيم لله عز وجل، فإننا للأسف لا يمكن أن نقول الشيء ذاته عن كل ما ورد في الحديث النبوي الشريف.

بعض نصوص الحديث النبوي مختلفة، وفيها ما يمكن أن يُفهم أنه تجسيم مقارب لما في نصوص التوراة.

فلنحدد أولًا بعض المرتكزات المهمة فيما يفترض أن يكون تعاملنا مع الحديث النبوي[1].

أولًا - للحديث النبوي الشريف الصحيح احترامه ومكانته كمصدر من مصادر التشريع وفهم الدين، ووجود اعتراض على بعض المعاني التي يمكن أن تفهم منه لا يعني نسف هذا الحديث أو تكذيبه، فوضى التكذيب والنسف ونهم البعض في ذلك يُنتج عواقب وخيمة أشد ضررًا بكثير من وجود المعاني المُعتَرض عليها.. ولعل أوضح وأخطر هذه المواقب نسف منظومة الحديث الشريف بأكملها وفق مغالطة (الكل أو لا شيء) المنتشرة للأسف.

خلاصة هذا المرتكز: الاعتراض على «معنى» يُفهم من «الحديث» لا يعني رفض «الحديث» أو «سنده» أو «درجة صحته» كما لا يعني القدح بعدالة «الصحابي الذي رواه».

تأزيم «اختلاف الفهم» وتحويله إلى صراعات ومواجهات أمر يميل له كثيرون من كل الأطراف، لكن عواقب ذلك وخيمة أيضًا. يمكن التعامل مع الأمر بحدة أقل بحيث يمكن تقبله (على الأقل من قبل البعض).

ثانيًا - الأحاديث التي تنتج عنها شبهات «تجسيمية» هي (أحاديث آحاد)، وأحاديث الآحاد هي التي يرويها عدد من الرواة (أقل من ٥ في أقل الأرقام، وقد يوصل البعض الرقم إلى عشرة رواة وأكثر ولو في طبقة واحدة من طبقات الإسناد).

أما الحديث المتواتر فهو الذي ينقله مجموعة من الرواة يستحيل تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الإسناد.

والخلاف في موضوع قبول أحاديث الآحاد في العقائد خلاف قديم متجدد وهو من موضوعات الخلاف المفضلة عند البعض، لكن رغم ذلك، فإن الإجماع على أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن، على خلاف من الأحاديث المتواترة التي تفيد اليقين، وهو مدخل محتمل لإعادة النظر

---

(١) سيكون هناك المزيد من التفصيل في هذا الأمر في «الحديث صحيح ولكن»

في طريقة قبولنا لبعض أحاديث الآحاد التي يمكن أن يُفهم منها «تجسيم» لله عز وجل، لا أتحدث هنا عن رفضها أو إنكار حجيتها أو عدم الأخذ بها، بل عن فهمها بطريقة «غير حرفية» وضمن الفهم الشامل للقرآن الكريم (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ). أحيانًا يكون ثمة «كلمة واحدة» في الحديث يفهم منها التجسيم، بينما عموم الحديث فيه (معاني) مهمة ومختلفة، رفض الحديث فقط لكلمة واحدة يُسلط عليها الضوء أمر غير منصف أيضًا، وتابع لمغالطة (الكل أو لا شيء).

ثالثًا - علينا ألا ننسى أن جمهور المحدثين وأصحاب الفقه والأصول (وبضمنهم الأئمة الأربعة) قد جوزوا «الرواية بالمعنى»[1]، أي أن يروي الراوي الحديث بالمعنى الذي فهمه وليس بلفظه المطابق كما قاله عليه الصلاة والسلام. ورغم أن الشروط التي وضعت لهذا «التجويز» دقيقة جدًا إلا أنها تذكرنا ببديهيات «النسيان البشري» و «دور فهم الراوي في تشكيل ألفاظ الحديث» ودون أن يقدح ذلك في عدالته إطلاقًا.

الأمر بشري تمامًا ومفهوم تمامًا، وكل منا سيروي حادثة معينة أو ينقل قولًا حسب فهمه له. الصحابة كانوا بشرًا في النهاية وليسوا «أجهزة تسجيل» متنقلة مهما كانت قدراتهم في الحفظ عالية.

أخذ هذه النقطة بالاعتبار، خصوصًا مع قلة عدد رواة حديث ما (أن يكون خبر واحد أو اثنين، روي عن صحابي واحد أو صحابيين فقط) يعزز من ضرورة فهم وتأويل ألفاظ هذا الحديث ضمن سياق أشمل ينسجم مع القرآن ومع ما تواتر من الحديث.

رابعًا - علينا أيضًا أن نتقبل وجود أثر لما يعرف بالإسرائيليات (أو نصوص أهل الكتاب عمومًا)، وذلك بمعزل عن نظرية المؤامرة الخالدة التي تجعل الكل مجندين لخدمة أجندة يهودية ماسونية منذ بدء الخليقة.

التفاعل الذي كان يحدث بين بعض الصحابة وبين معارف الأمم السابقة كان أمرًا طبيعيًا تمامًا، ووجود من أسلم من أهل الكتاب كان يُدخل بعض مفاهيمهم السابقة معهم إلى الإسلام (ليست كلها خاطئة أو مخالفة بالمناسبة). وهكذا فإن القول بتسرب (إسرائيليات) إلى بعض ألفاظ حديث آحاد ما (مثلًا) لا يعني أن الصحابي كان عميلًا لإسرائيل! بل يعني عملية تفاعل طبيعية ما كان يمكن تجنبها، ولكن يمكن أيضًا تحديد مضارها وما هو هجين من نتائجها.

(١) تيسير مصطلح الحديث الجزء ١ ص ٢١٢.

هذه المرتكزات الأربعة أراها مهمة في التعامل مع ما سيأتي من ألفاظ بعض الأحاديث، دون الانجرار إلى تكذيب الصحابي أو البخاري أو نسف عشوائي لمنظومة الحديث النبوي.

أحاديث قد يفهم البعض منها ((التجسيم))

هنا بعض الأمثلة على أحاديث نبوية شريفة يمكن أن يكون في بعض ألفاظها شبهة تجسيمية، وأرى أنه من الأفضل التعامل معها حسب المرتكزات السابقة.

أولًا - «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِه، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ، النَّفَرِ مِنَ المَلائِكَة، ...» [1].

الحديث في صحيح البخاري، رواه صحابي واحد فقط هو أبو هريرة بأكثر من لفظ، ولم يصح عن سواه من الصحابة (هناك رواية غير صحيحة عن أبي سعيد الخدري وأخرى عن عبد الله بن عمر).

نحن إذن أمام (خبر واحد) لفظه متطابق مع اللفظ التوراتي، وفيه شبهة تجسيمية واضحة حاول البعض التخلص منها عبر القول إن الضمير في (صورته) يعود إلى آدم، ليكون المعنى (خلق الله آدم على صورة آدم)[2]، وهو معنى أراه بعيدًا، وأرى أن التعامل مع هذا الحديث باعتباره متأثرًا بإسرائيليات أهل الكتاب أمر أقل تكلفًا ولا يمس بالبخاري ولا بأبي هريرة ولا بحجية حديث الآحاد ولا بمنظومة الحديث النبوي الشريف.

ثانيًا - «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِه، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَة، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»[3].

هذا الحديث آحاد أيضًا رواه أبو سعيد الخدري (في صحيح البخاري)، وفي لفظ طويل آخر رواه عبد الله بن مسعود وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣٥٩١، ورواه أيضًا أبو هريرة في سنن الدارمي (٢٨٤٥).

(١) صحيح البخاري ٦٢٢٧.

(٢) حديث (خلق الله آدم على صورته) مبحث التخريج وبيان طرق الحديث - ملتقى أهل الحديث
https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=67992

(٣) صحيح البخاري ٤٩١٩.

ورغم أن الحديث استخدم لأثبات صفة الساق لله سبحانه وتعالى من قبل الكثيرين، إلا أن سياق الآية القرآنية الكريمة التي مر ذكرها واستخدام العرب لتعبير (الكشف عن الساق) لمعنى اشتداد الأمور وهولها - كما سبق- يبقى أكثر اتساقًا وانسجامًا مع بقية آيات القرآن الكريم في هذا المجال.

وفي لفظ حديث عبد الله بن مسعود أن العلامة التي بين المؤمنين وبين الله يوم القيامة هي ساقه عز وجل، سيعرفونه عندما يكشفها، لأنهم ما رأوه من قبل.. لكن إذا كانت هذه العلامة فعلًا، العلامة الفاصلة يوم الفصل، فلماذا نراها في حديث آحاد، وهي بأهمية يجب أن تجعلها في منزلة المتواتر الذي يتناقله ويرويه كل الصحابة؟

ثالثًا - «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»[1] هذا الحديث رواه قرابة عشرة من الصحابة. بعض المفسرين اعتبره دليلًا على إثبات (أصابع) لله عز وجل. لكن من الواضح من سياق الألفاظ التي ورد فيها الحديث عن كل الصحابة الذين نقلوه أن مسألة الأصابع لم تكن مسألة نقاش أو استفسار من أي منهم، بل مسألة الثبات على الدين والإيمان هي جوهر الحديث وفحوى السياق، وذكر «أصبعين من أصابع الرحمن» جاء للتدليل على سهولة حدوث «تقلب» في الإيمان، أو رجوع عنه، لولا أنه عز وجل يربط على قلوب المؤمنين ويثبتهم على دينه، الصحابة رضوان الله عليهم لم يقفوا عند أمر الأصابع، لأنهم كانوا يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام يحدثهم بلسانهم وبطريقتهم في التعبير، ولأن العرب كانوا يستعملون المجاز في شواهدهم لتقريب المعاني، فإن استخدامه عليه الصلاة والسلام لهذا المجاز كان أمرًا طبيعيًا تمامًا.

السؤال لمن يستخدم الحديث لإثبات «الأصابع»، هل تقلب القلوب هو أمر مادي تمثيلي فعلًا أم أنه تشبيه مجازي للدلالة على التبدل الذي يمكن أن يطرأ على أي منا؟

الجواب عن هذا السؤال سيكون جوابًا منطقيًا لمسألة إثبات وجود أصابع لله عز وجل.

رابعًا - «خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ»[2].

(١) صحيح مسلم ٢٦٤٥.

(٢) صحيح البخاري ٤٨٣٠.

والحقو هو موضع (الإزار) - أي الثوب - من الجنب. والحديث يقول إن الرَّحم قد تمسكت بإزار «الله» عز وجل.. كما يتمسك طفل بثوب أمه (مثلًا) وهو يطلب منها بإلحاح ألا تذهب..

ومعنى الحديث واضح كمجاز في أهمية صلة الرحم، أما تحويل هذا المجاز إلى إثبات وجود إزار لله سبحانه وتعالى واعتباره صفة لله، فهو أمر يذكرنا للأسف بالفهم التجسيمي للإله في التوراة.

الحديث آحاد رواه أبو هريرة فقط، وهناك لفظ آخر (يستخدم لفظ «بحجزة» بدلا من «بحقو» الرحمن، والمعنى نفسه) وقد رواه ابن عباس[1].

خامسًا - عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[2].

وهو حديث آحاد رواه أبو هريرة وأنس بن مالك وأبو ذر الغفاري.

وسياق الحديث واضح تمامًا في أن توبة العبد ورجوعه إلى ربه وإقباله عليه مقبولة دومًا عنده تعالى وتقابل بتيسير منه عز وجل.

للأسف تحول هذا الحديث إلى فرصة لإثبات صفة الهرولة له عز وجل وتعالى عن كل تشبيه وتجسيد.

سادسًا - عن النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه «مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[3].

حديث آحاد رواه أبو هريرة والسيدة عائشة، وسياقه واضح في بيان محبة الله للمؤمن، واستخدام لفظ التردد هو لبيان مقدار هذا الحب ودرجته لا أكثر. للأسف البعض استخدم هذا الحديث لإثبات صفة «تردد الله في قبض نفس المؤمن».

---

(١) مسند أحمد ٢٩٥٣.

(٢) صحيح البخاري ٧٥٣٦.

(٣) صحيح البخاري ٦٥٠٢.

سابعًا - «عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لاَ يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا»[١] وفي لفظ آخر: فَوَاللهِ لاَ يَسْأَمُ اللهُ حَتَّى تَسْأَمُوا[٢].

حديث آحاد روته السيدة عائشة، سياقه الكامل يشير إلى أن السيدة عائشة ذكرت له عليه الصلاة والسلام عن كثرة صلاة وقيام امرأة كانت عندها، فحذر الرسول عليه الصلاة من أن التعبد بما يخالف طاقة البشر، يؤدي لاحقًا إلى الملل والفتور، وهو أمر سيتفاقم بالتدريج.

تحول هذا الوصف المجازي عند البعض إلى اعتبار (الملل والسأم) صفة لله تعالى، لمجرد تصورهم أن اتباعهم هذا اللفظ بالقول (ملل يليق بجلاله) سيزيل أي إشكال يمكن أن ينتج عن هذا الوصف.

ثامنًا - «إِنَّ اللهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ»[٣].

وهو حديث آحاد رواه أبو هريرة. وهو يثير عادة الكثير من التساؤلات بسبب الفهم التجسيمي المادي الذي حول الحديث من معناه الأصلي (معنى القرب من الله عز وجل) إلى أسئلة من نوع: كيف ينزل الله في هذا الثلث من كل ليلة مع اختلاف توقيتات القارات في العالم؟ أليس الثلث الأخير من الليل في اليابان غير الذي في الحجاز وغير الذي في الأمريكتين لاختلاف الأوقات بينها؟ أليس ثمة «ثلث أخير من الليل» في كل لحظة في هذا العالم، كل يوم؟ هل يعني هذا أن الله - تعالى وجل عن كل تجسيد - في حالة نزول طول الوقت؟

المشكلة في هذه الأحاديث وما يشبهها هو أن التعامل السائد معها يتم على أساس (تشبيهي - تجسيمي - مادي) - حتى لو أتبع ذلك بجملة (يليق بجلاله).

وهذا يجعل ما تثيرها من شبهات منطقية جدًا، للأسف.

لكن ماذا عن التعامل مع الحديث ضمن مظلة الآية القرآنية الكريمة: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، وضمن مفهوم المجاز الذي استخدمه العرب كثيرًا في كلامهم.

---

(١) صحيح البخاري ٤٣.

(٢) صحيح مسلم ٣٢٠.

(٣) صحيح مسلم ١٧٣.

هنا سنجد الحديث يشير إلى علاقة المؤمن بربه، وقربه أو بعده عنه، هذا القرب أو البعد لا يقاس بطبيعة الحال بالأمتار أو بأي من مقاييس الأبعاد المادية، العلاقة لها بُعد مختلف تمامًا.

وبنفس الطريقة ومن باب أولى، فإن الله، بما أنه خارج كل قوانين الحجم والطول وما إلى ذلك، فإنه خارج مسألة (الزمان والمكان) هذه برمتها.. وهو سميع عليم بصير لا يحتاج إلى النزول «المادي» إلى السماء الدنيا ليعرف من يدعوه ومن يستغفره..

الحديث يستخدم المعنى المجازي، المعنى المقصود أن العبد الذي يؤثر الصلاة والقرب من ربه في هذا الوقت المتأخر من الليل (وقت الراحة). فإن الله يكون أقرب إليه بطبيعة الحال. لا علاقة لهذا بوقت الليل في نصف الكرة الشمالي أو الجنوبي، كما لا علاقة له بكون الإنسان هنا يعيش في القبو أو في ناطحة سحاب. الله خارج هذه الحسابات وبالتالي العلاقة به تكون خارج هذه الحسابات.. والحديث بمعناه بسيط ومؤثر وبعيد عن هذه الفهم التجسيمي.. وللأسف فإن هذا الفهم التجسيمي منتشر دون أن يشرح أحد للمتلقين الأبعاد الإنسانية الروحانية في الحديث.. وهذا يجعل الكثيرين منهم يتلقونه حرفيًا.. ثم يسألون: كيف؟

لا يمكنك أن تمنع من يسأل عن هذا الحديث فتقول هذه من أحاديث الصفات والأحوط هو التوقف عن تأويلها.. لا يمكنك أن تترك حديثًا كهذا مع وضع علامة (ممنوع التفكير) عليه وتتوقع أن الأمر سيمر بسلاسة.. لا يمكننا أن نتخيل أن وضع عبارة «يليق بجلاله وعظمته» على النزول أو القدم أو الإزار أو الأصابع سيمنع «ورود فكرة التجسيم» عند المتلقي، وإذا كان ولا بد من هذا مع صفات وردت في القرآن الكريم، فكيف يستوي أن يكون التعامل نفسه مع صفات وردت في أحاديث آحاد، لا تفيد إلا الظن؟

أفهم وأتفهم تمامًا الحساسيات التاريخية التي نشأت من الصراعات بين مختلف الفرق الإسلامية عبر العصور، وأتفهم تمامًا لماذا حرص العلماء الأوائل على الوقوف بوجه أي «تعطيل أو تأويل» لصفات الله، خوفا من تمادي هذا التعطيل والتأويل إلى أن يتحول مفهوم «الإله» إلى شيء قريب من «إله سبينوزا»، شبه الميت، تعالى الله عز وجل عن ذلك.. بل أتفهم أن مجرد ذكر كلمة (مجاز) يمكن أن تستحضر خلافات تاريخية وتصنيفات وتسقيطات... إلخ.

لكننا اليوم أمام تحديات مختلفة، تحديات تجعل من شبهة «التجسيم» خطرًا كبيرًا على مفهوم الإله وعلى إيمان الناس في عصر العلم.

كان ثمة وقت ربما كان من الأنسب والأحوط والأسلم هو ترك ما جاء في هذه الأحاديث كما هو دون دخول في تفصيلها.

لكن الآن، صار «التوقف» في ذلك، يوحي بوجود انحياز ضمني، صامت إلى «التجسيم».

الأحوط هو أن تستحضر أنه ليس كمثله شيء.. والأسلم أن تستحضر المجاز والتأويل دون خوف..

فالمحذور الأكبر يقع فعلًا.. عندما نرفض إعادة التفكير في هذه الأحاديث أو سواها..

«الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة» قالها الإمام مالك عن الاستواء..

ومقولته صحيحة، وكانت كافية وقتها لردع شبهات الأسئلة، على الأقل نسبيًا..

اليوم، ثمة جيل لا يمكننا أن نقول له: لا تسأل عن هذا، هذه بدعة.

اليوم يجب أن نرد على الأسئلة.

ملف الوجود الإنساني

نظرية التطور: هل تؤدي حتمًا إلى الإلحاد؟

نظرية التطور واحدة من أكثر النظريات العلمية استخدامًا عند مروجي الإلحاد الجديد، والنقاشات حول الأمر لا بد أن تتضمن إشارة أو أكثر إلى نظرية التطور ودورها في تفسير ظهور الكائنات الحية على الأرض.

علاقة النظرية بالإلحاد ليست جديدة، إلا أنه لا يمكن استبعاد تأثير ريتشارد داوكنز المهم في ربطها أكثر وأكثر بالإلحاد، بل وجعلها رأس حربة في الدعوة الإلحادية التي يعتبر داوكنز حاليًا واحدًا من أهم رموزها.

ورغم أن نظرية التطور نادرًا ما تكون السبب الأول والأساسي في الاتجاه إلى الإلحاد، بل إنها في ذيل قائمة أسباب الشك حسب إحصائية مؤسسة يقين عن مسلمي أميركا[1] (٨٪ فقط من المتشككين المستطلعة آراؤهم قالوا إن نظرية التطور سببت لهم شكوكًا في إيمانهم)، لكنها تأتي في مقدمة الجدل والنقاش عن الإلحاد، ربما لأن النظرة السائدة عنها تعتبر أنها تشكل «علامة فاصلة» بين العلم والإيمان.. حيث يعتقد أن النظرية تمنح أرضية لا يمكن إشراك الإيمان والعلم فيها، ولأن هذه الأرضية مدعومة علميًا، ولأننا نعيش في عصر العلم، فإن التركيز عليها من قبل الملحدين يكون مجديًا وسريع النتائج.

هذه النقطة هي من القليل المشترك بين الطرفين، أغلب الملحدين والكثير من المؤمنين متفقون تمامًا على أن نظرية التطور لا بد وأن تؤدي إلى الإلحاد..

وهو أمر ربما سيدهش واضع النظرية كثيرًا لو علم به.

(1) What Causes Muslims to Doubt Islam: A Quantitative Analysis
https://yaqeeninstitute.org/wp-content/uploads/2018/02/FINAL-What-Causes-Muslims-to-Doubt-Islam_-A-Quantitative-Analysis.pdf

ذلك أن تشارلز داروين[١] لم يكن ملحدًا كما قد يعتقد المرء وهو يشاهد هذا الإجماع على علاقة الإلحاد بالنظرية.

داروين درس اللاهوت الإنجليكي Anglican theology في جامعة كامبردج ليكون رجل دين أولًا، وهناك أبدى اهتمامًا بالتاريخ الطبيعي Natural History وأصبح متحمسًا لما يعرف باللاهوت الطبيعي Natural Theology الذي قدمه ويليام بيلي[٢] والذي كان يعتمد على فكرة دقة التصميم الإلهي للطبيعة للبرهان على وجود الله وكان داروين يقول إنه (حفظ كتاب بايلي صمًا[٣]).

فور تخرجه التحق داروين بالسفينة الكشفية بيغل وهو يحمل نفس الأفكار، كان كعالم طبيعيات شاب يحاول البحث عما أسماه (مراكز الخلق[٤] centers of creation) ويقول في مذكراته إنه بقيَ محافظًا طيلة السنوات الخمس التي استغرقتها رحلة السفينة بيغل على إيمانه، بل وكان مثار تندر البعض على الرحلة بسبب كثرة استخدامه للكتاب المقدس[٥]، علمًا أن الرحلة كلها كانت قد اتخذت شعار في خدمة الخالق[٦] (in the creator's service)، لكن شكوكه في دقة الكتاب المقدس تاريخيًا بدأت في تلك المرحلة.

خلال نتاجه العلمي، كان داروين يكثر من الإشارة إلى الخالق creator واستمر ذلك خلال السنوات ١٨٣٩- ١٨٥٩- ١٨٦٢ - ١٨٦٨ - ١٨٧١ - ١٨٧٢ وأخيرًا ١٨٧٦ التي بدأ فيها كتابة مذكراته والتي قال فيها بوضوح إنه (theist مؤمن) والتي كانت تعني وقتها الإيمان بقوة عليا خالقة للكون[٧].

---

(١) تشارلز داروين، مر تعريفه.

(٢) ويليام بالي Willian Paley (١٧٤٣- ١٨٠٥) رجل دين وفيلسوف مسيحي، ساهم في دعم مفهوم العلة الغائية في النقاش عن وجود الله بأمثلة بعضها لا يزال يستخدم حتى الآن، مثل مثال صانع الساعات الذي سيذكر لاحقًا.

(3) Barlow, Nora ed. 1958. The autobiography of Charles Darwin 1809-1882. London: Collins. Page 59
http://darwin-online.org.uk/content/frameset?viewtype=text&itemID=F1497&pageseq=59

(4) Keynes, R. D. ed. 2001. Charles Darwin's Beagle diary. Cambridge: Cambridge University Press.
http://darwin-online.org.uk/content/frameset?viewtype=text&itemID=F1925&pageseq=388

(5) Barlow, Nora ed. 1958. The autobiography of Charles Darwin 1809-1882 London: Collins.
http://darwin-online.org.uk/content/frameset?pageseq=87&itemID=F1497&viewtype=text

(6) The Voyage Of The Beagle - In The Creator's Service | The Institute for Creation Research
https://www.icr.org/article/voyage-beagle-creators-service/

(7) Was Charles Darwin an Atheist? - The Public Domain Review
https://publicdomainreview.org/2011/06/28/was-charles-darwin-an-atheist/

وفي عام ١٨٧٩ كتب في رسالة إلى صديق: من الغريب أن يشك المرء في أن يكون هناك مؤمن متحمس وتطوري بنفس الوقت[١].

في نفس الفترة تقريبًا عام ١٨٧٩ قال في رسالة بوضوح: يمكنني أن أقول إني حتى في أقصى تذبذباتي لم أكن ملحدًا قط من حيث إنكار وجود الله، لكني أعتقد أني عمومًا (وأكثر كلما كبرت) ولكن ليس دائمًا، يمكن أن تنطبق كلمة اللا أدري - agnostic - على وصف حالة عقلي «my state of mind»[٢].

كيف يمكن فهم قوله أنه «لا أدري» مع كلامه عن «الخالق»؟

ربما يمكن فهم أن سياق اللا أدرية كان في الحديث عن «الحالة العقلية»، أي موقف عقله من المسألة.. لكننا نعرف جميعًا أن الإيمان أمر أعقد من أن يُختصر بالعقل..

من المؤكد أن داروين لم يحافظ على «نفس إيمانه» الذي بدا من خلاله متحمسًا للبحث عن مراكز الخلق في مقتبل شبابه، لكن يعتقد كثيرون أن ذلك لا يرتبط بنظريته بقدر ارتباطه بوفاة ابنته (آني) عام ١٨٥١ وهي في عمر العشر سنوات، كان موتها بطيئًا وبسبب إصابتها بالسل الرئوي، وكان داروين ملازمًا لها في هذه الفترة، وقد أثر هذا الحدث كثيرًا عليه ويقال إنه انقطع عن الذهاب إلى الكنيسة بعد وفاتها[٣]، وهو أمر يفسره كثيرون على أنه السبب الحقيقي وراء تغير موقفه من الدين، وليست «نظريته» هي السبب.

هو لم يكن ملحدًا إذن، على الأقل ليس من ناحية إيمانه بوجود الله الخالق، لقد فقد إيمانه بصحة الكتاب المقدس تاريخيًا وبالمؤسسة الدينية (الكنيسة)، لكن لا شيء يدل على أكثر من ذلك.

---

(1) | Darwin Correspondence Project
https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-12041.xml

(2) | Darwin Correspondence Project
https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-12041.xml

(3) Darwin: The Story of the Man and His Theories of Evolution, van Wyhe, John (2008), London: André Deutsch Ltd (published 1 September 2008) p 41.

ماذا تقول نظرية التطور؟

ما الذي اكتشفه داروين في نظريته التي غيرت رؤية العالم للعالم؟

تقول نظرية التطور إن أصل كل الكائنات الحيّة التي تعيش في الأرض كان من خلية حيّة واحدة نشأت قبل قرابة أربعة مليارات سنة.. استمرت هذه الخلية بالانقسام والتكاثر والتخصص لتتحول من كائن أحادي الخلية إلى كائنات أكثر تعقيدًا متعددة الخلايا..

وعبر مئات الملايين من السنين، ولأنّ هدف الخلية الحية الذي يحركها هو إعادة إنتاج نفسها، فقد تطورت هذه الكائنات لتنتج ملايين الأنواع المختلفة من الكائنات الحيّة مختلفة الصفات والمظاهر، واستمرت الأنواع بالتكاثر وتمرير الصفات الوراثية لأجيال جديدة، بينما ساهمت الطفرات الجينية بظهور صفات جديدة (إيجابية أو سلبية) وعملت آلية الانتقاء الطبيعي (وهي إسهام داروين المهم) بتفضيل الصفات الإيجابية وتصفية السلبية، حيث إن الكائن الذي حصل على صفات إيجابية عبر الطفرة يكون أقدر على النجاة من الافتراس، وبالتالي أقدر على تكوين أجيال جديدة، بينما ينقرض الكائن الذي لم يحصل على هذه الصفة أو حصل على صفات سلبية لم تساعده على النجاة من الافتراس.

من الأمثلة على آلية الانتقاء الطبيعي وتفضيل صفات معينة لتمر إلى أجيال جديدة وانقراض سواها:

الزرافات، حيث وُجدت زرافات طويلة الرقبة وأخرى قصيرة الرقبة.. واقع التعايش مع طبيعة الغابات حين تتعرض إلى شح في الطعام أو موجة جفاف، يمنح الزرافات طويلة الرقبة أفضلية الحصول على طعامها بسهولة أكبر لقدرتها على الوصول إلى الأشجار العالية، بينما تتعرض قصيرة الرقبة إلى خطر الموت،

وهكذا بعد فترة لم يبق أي زرافة قصيرة الرقبة. وثمة تفسيرات أخرى تشير إلى أن الذكور طويلة الرقبة كانت أوفر حظًا في الوصول إلى الإناث لغرض التزاوج، حيث إن معارك الذكور فيما بينها كانت تعتمد على لف الرقاب بعضها على بعض، وهكذا كانت الزرافات الأطول رقبة أقوى وأقدر على الوصول إلى الإناث.

من الأمثلة الأخرى: الحيتان، ومن ضمنها الحوت الأزرق العملاق والدولفين وسواها. الحيتان تشبه الأسماك في كونها تعيش في الماء، لكنها تختلف عنها بصفات تجعلها من ضمن الثدييات وليست مثل الحبليات، أي أنها أقرب إلى الإنسان منها إلى سمك التونة مثلًا، فهي

مثلًا (ولودة) ولا تبيض مثل الأسماك، كما أنها (ترضع) مثل بقية الثدييات، وهي من ذوات الدم الحار (أي تملك القدرة على التحكم بدرجة حرارتها الداخلية على نحو أعلى من درجة حرارة البيئة)، بينما الأسماك عادة من ذوات الدم البارد وترتبط حرارتها الداخلية بحرارة المحيط، الحيتان أيضًا تتنفس الهواء عبر رئتها، وليس عبر الغلاصم كما الأسماك.

كيف حدث هذا؟!

قبل قرابة ٥٠ مليون سنة فضَّلَ أحد الكائنات الذي يُعرف بـ باكيستس Pakicetus (بحجم الذئب) ترك اليابسة والنزول إلى البحر لأكل السمك والحيوانات البحرية، غالبًا ثمة ظروف قحط شديد قادتها إلى ذلك، كانت أطراف الحيوان تساعده على السباحة وبقي برمائيًّا يمكنه العيش في البر والبحر لفترة، لكن الطفرات الجينية أنتجت بعض الكائنات التي تمكنت من السباحة بشكل أفضل بتغيير في الأطراف، ولأن هذه الكائنات لها فرصة أفضل في الحصول على الطعام، فقد تمكنت من أن تتكاثر على نحو أفضل من الكائنات التي احتفظت بأطرافها البرمائية[1].

عبر المزيد من الطفرات الجينية، والمزيد من الانتقاء الطبيعي الذي يفضل دومًا الكائنات التي تستطيع الحصول على الطعام أفضل والتكاثر على نحو أفضل، والمزيد من الطفرات والمزيد من الانتقاء الطبيعي.. وعبر قرابة عشرين مليون سنة من كل ذلك، انتقل الحيوان البري بأربعة أطراف إلى أن يكون حيوانًا مائيًّا تام التكيف مع محيطه المائي، وهو سلف كل الحيتان وثدييات البحر الحالية[2].

على مستوى فردي معاصر، يمكن ملاحظة أمثلة بسيطة عن التطور في حياتنا اليومية وهي تعرف بالـ microevolution - وهي مقبولة في العموم حتى من قبل الرافضين للنظرية - البكتيريا التي تحصل على مناعة ضد أنواع معينة من المضادات الحيوية وتمريرها لأجيال جديدة منها لم تتعرض لهذه المضادات من قبل. الشيء ذاته يحدث مع الكثير من الحشرات والمضادات المستعملة ضدها.

ماذا تقول نظرية التطور إذن في مجملها:

---

(1) The First Whale: Pakicetus | AMNH
https://www.amnh.org/explore/news-blogs/on-exhibit-posts/the-first-whale-pakicetus

(2) Baleen whale - Wikipedia

أولًا - هدف كل الكائنات الحية هو أن تنتج كائنات مشابهة لها، الخلايا داخل الجسم الحي تتجدد وتنقسم وتنتج خلايا جديدة مشابهة لها، والكائن الحي نفسه يجد نفسه مدفوعًا غريزيًا لذلك، فيتكاثر وينتج كائنًا مشابهًا له.

ثانيًا - خلال ذلك يجب أن تحافظ على أمرين: أن تجد عشاءك وألا تكون عشاءً للآخرين.

ثالثًا - الطفرات الجينية قد تضع بعض الصفات التي تجعل: (التكاثر/أن تجد عشاءك/ ألا تكون عشاء للآخرين) أفضل لبعض الكائنات من سواها.

على سبيل المثال: تساهم الطفرات الجينية في تغيير ألوان بعض الحيوانات، بعض الألوان تكون أسهل في التخفي الذي يحميها من الافتراس أو يساعدها على افتراس كائنات أخرى. وهذا يجعل فرص هذه الحيوانات في البقاء أكثر.. بعد فترة، يمكن أن يسود اللون الجديد ويختفي اللون الأصلي تدريجيًا.

ممكن أن يساهم اللون الجديد في التنافس على التكاثر، حيث يكون اللون أكثر جاذبية، وبذلك يحصل على فرص أكثر في التزاوج، وبالتالي في إنتاج عدد أكبر من الكائنات التي تشبهه.

من الأمثلة على تغير اللون الذي ساعد على النجاة من الافتراس ما حدث مع حشرات العث المفلفل peppered moth المعروفة بلونها الأبيض المبقع في إنجلترا، مع بداية الثورة الصناعية وحدوث التلوث في المناطق القريبة من المصانع (مثل مدينة مانشستر)، بدأت حشرات العث المفلفل بيضاء اللون تصبح عرضة للافتراس من قبل الطيور بسهولة أكبر، لأنها أصبحت سهلة التمييز في بيئتها بسبب الدخان المتراكم من المصانع على الأشجار، بينما ظهرت حشرات العث داكنة اللون - التي كانت غير معروفة في بيئة خالية من التلوث، لأن لونها الداكن يجعلها صيدًا سهلًا للطيور - وأصبحت أكثر عددًا وأكثر منعة في البيئة الجديدة، خلال سنوات أصبحت الحشرات الداكنة هي الغالبة بنسبة تقارب ٩٨٪ من حشرات العث المفلفل[1].

من الأمثلة على التغير الذي منح فرصًا أفضل في التزاوج: حصول ذكور بعض أنواع الطيور على ألوان زاهية جاذبة للإناث، بحيث أن الذكر زاهي الألوان سيحصل على فرصة تزاوج - وبالتالي إنتاج طيور جديدة تحمل نفس الصفات، بينما تقل فرص الذكور ذات الألوان المعتمة في التنافس على الإناث.

(1) Peppered moth evolution - Wikipedia

الإناث من ناحيتها سيكون من الأفضل لها البقاء بألوان معتمة، لأن الألوان الزاهية قد تنبه الحيوانات المفترسة لها، ولأن الإناث تضطر للبقاء في حضانة بيوضها، فإنها لا تستطيع المناورة والهروب في حالة مواجهتها، لذا فالإناث التي حصلت على ألوان زاهية تتعرض للافتراس وتنجو ذوات الألوان المعتمة[1].

رابعًا - الانتقاء الطبيعي في حقيقته هو النتيجة الطبيعية لسباق الكائنات الحية في التكاثر وفي الحصول على الطعام وفي النجاة من الافتراس. طبيعة التسابق تحتم أن بعض الأنواع ستنقرض، لأنها لم تتمكن من أن تتكاثر على نحو يبقيها، أو لم تحصل على كفايتها من الطعام في ظروف قحط، أو كانت أضعف من الهروب من الافتراس.

خامسًا - خلال ٤ مليارات سنة تبدلت الظروف الطبيعية على الأرض، من مكان لآخر وفي نفس المكان، نشأت عشرات الملايين من الأنواع، لم يكتب لبعضها البقاء، بينما تطورت أنواع أخرى وتمكنت من التكيف مع الظروف المحيطة بها.

إلحاد لأسباب بيولوجية

هذا ملخص عام لنظرية التطور في نسختها الأحدث، علمًا أن ما نعرفه اليوم عن الطفرات الجينية لم يكن معروفًا وقت داروين.

ما الذي يدعو إلى الإلحاد في كل هذه البيولوجيا؟

مبدئيًا، النظرية لا علاقة لها على الإطلاق بمسألة وجود الله.

داروين وكل علماء الأحياء كانوا يبحثون في المستحاثات - الإحفورات - fossils، أي في بقايا الحيوانات التي عاشت على الأرض عبر العصور، وليس في نقاش لاهوتي فلسفي عن وجود الله.

ما الذي قاد الأمور إلى ما حدث؟

في البداية، كان ثمة تصادم بين ما تقترحه النظرية عن عمر الأرض وعمر المخلوقات عليها وبين ما يُفهم من الكتاب المقدس أن عمر الأرض لا يتجاوز ستة آلاف سنة.

---

(1) Why are male birds more colorful than female birds? - Scientific American
https://www.scientificamerican.com/article/why-are-male-birds-more-c/

كمسلمين، لا أعتقد أن هذا يمكن أن يكون مشكلتنا مع نظرية التطور، أولًا لأن القرآن لا يشير – لا تلميحًا ولا تصريحًا – إلى عمر الأرض.

وثانيًا لأن نسبية الزمن والوقت أمر يشير إليه القرآن بوضوح:

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤).

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧).

لكن حسب فهم الكنيسة للكتاب المقدس في القرن التاسع عشر فإن الأمر كان غير قابل للنقاش، كان الاعتقاد السائد برسوخ آنذاك، أن عمر الأرض هو ستة آلاف سنة فحسب، ولهذا جاءت أبحاث داروين لتثير عاصفة ونقمة كبيرة من الكنيسة وأتباعها.

الأمر الثاني الذي صدم العالم وقتها ولا يزال يمثل مشكلة أمام المؤمنين، هو أن ما تقدمه نظرية داروين لا يتفق مع قصة الخلق كما وردت في الكتب السماوية.

وهو الأمر الذي لا يزال مثار الجدل حتى الآن.

بعبارة أخرى: مشكلة نظرية التطور ليست مع مسألة وجود الله.

بل مع «قصة الخلق» كما ترويها الكتب السماوية.

وهذه ليست مسألة هينة حتمًا، لكنها لا تمس «وجود الله».

خاصة أننا لا نزال حتى الآن نتحدث عن «إله، خالق»، وليس عن إله الكتب السماوية.

هل من نقطة التقاء ممكنة بين الدين ونظرية التطور؟

يعتقد البعض أن التعارض ليس حتميًّا كما يبدو للأغلبية. على الأقل هناك من لا يرى هذا التعارض بهذه الحدة.

الأمر بالنسبة لهم يعتمد على: من أين ترى قصة الخلق كما وردت في النصوص الدينية، ومن أين تراها كما ترويها نظرية التطور؟

يمكنك أن تتعامل مع النصوص الدينية كما لو كانت تعطيك الصورة الكبيرة، الشاملة..

الصورة الكبيرة تقول لك إن الله خلق السماء والأرض وكل ما بينهما، ثم من الطين خلق الإنسان الأول.. آدم.

نظرية التطور تعطيك التفاصيل البيولوجية، التفاصيل الصغيرة التي لا تراها عندما تقف من بعيد لترى الصورة الكبيرة.. وهي لا تقول إن الانتقاء الطبيعي هو الخالق - ولكنها توضح واحدة من الآليات التي يمكن أن نفهم أن الخلق تم عبرها.

كمثال: أنت في المطعم وطلبت وجبة طعام ووصلتك ساخنة وشهية. أنت تعرف عمليًّا أن الطباخ هو الذي أعدها.. وأن هناك من ساعده في ذلك.. وأن هناك من تسوق وانتقى مكوناتها.. وأنت تعرف بعد كل ذلك أنها دخلت الفرن لتنضج وتكون كما تريد.

لكنك بعد كل هذا لن تعتقد أن الفرن هو الذي صنع لك طعامك.

بل تعرف أن الفرن كان مجرد وسيلة، وأن الطباخ ومن معه هم الذين صنعوا الطعام من مواد أولية متوفرة في الطبيعة أصلاً.

الانتقاء الطبيعي هو مثل الفرن في هذا المثال.. مجرد وسيلة وأداة، ولله المثل الأعلى، فهو ليس فقط من صنع الفرن ووضع درجة حرارته على النحو المناسب ووضع المواد الأولية بالنسب المطلوبة بل إنه من خلق المواد الأولية أصلاً.

بطبيعة الحال مثال وجبة الطعام مجرد مثال، فالخلق لم يحدث مرة واحدة، بل عبر سلسلة طويلة من عمليات الطبخ - أو الانتقاء الطبيعي المتتالية.. إلى أن وصلت هذه العمليات إلى الإنسان الأول.

مثال آخر: إذا سألك ابنك الصغير السؤال التقليدي كيف يأتي الأطفال إلى العالم؟ وأجبته بأنهم يأتون عندما يتزوج الأم والأب، فإنك عمليًّا لا تكذب.. لكنك تقول (الصورة الكبيرة) المناسبة لطفلك.. وهذا لا يتعارض مع التفاصيل البيولوجية المتعلقة بعملية تكون الجنين.

الأمر يشبه أن فيلمًا صُوِّر لتاريخ نشوء المخلوقات على الأرض، الفيلم يعرض بسرعة فائقة جدًّا لحين ظهور الإنسان، عندها تبدأ سرعة الفيلم بالتباطؤ وتصبح عادية تمامًا.

كل ما سبق ظهور الإنسان كان سريعًا جدًّا، لذا فهو بدا لنا كهُنَيهَة ولم نر أي تفاصيل، شاهدنا الأرض والجبال والمحيطات والبحار والقارات تتكون وتتغير أشكالها سريعًا ومرت فترة تطور الكائنات الحية وتنوعها والانتقاء الطبيعي بسرعة جدًّا بحيث لم نلحظ شيئًا..

النصوص الدينية تقدم لنا الأمر على هذا النحو.. تبدأ لنا من تاريخ وجودنا نحن «كنوع إنساني».

نظرية التطور تحاول أن تبطئ الفيلم.

حسب وجهة النظر هذه: لا تعارض حقيقي بين العرضين. حتى لو رأينا مشكلة هنا أو هناك في الفيلم عندما عاد إلى السرعة الطبيعية، فإن هذا لا يكفي لإلغائه بالمرة.

ليس هذا فقط، فالبعض يجد في الكثير من آيات القرآن ما يدعم فكرة التطور في مجملها..

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٠).

فهنا ثمة إشارة إلى البحث في الأرض عن أصل الخلق وطريقة نشوء المخلوقات دون الاكتفاء بما ورد في القرآن..

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح:١٤)

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٥).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام:٩٨)

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

بل إن سؤال الملائكة الشهير ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) يمكن أن يُنظر إليه في ضوء الانتقاء الطبيعي القاسي الذي كانت كل المخلوقات تعيش فيه دون دستور أخلاقي غير قانون البقاء للأقوى إلى تلك المرحلة.

بالنسبة للمؤمنين بالله وبالانتقاء الطبيعي، فهذا الأخير ليس سوى آلية من آليات الله في خلقه.. جزء من سننه وقوانينه التي لا يمكن أن تكون بديلة له..

وربما من المهم أن أذكر هنا أن النظرية في أول انتشارها في أوروبا كانت تُتهم من قبل معارضيها بأنها «محمّدية» [1] ربما لأن فكرة التطور «بشكل عام» كانت موجودة في التراث الإسلامي، حيث أشار لها غير واحد من فلاسفة المسلمين مثل (الجاحظ) و(إخوان الصفا) و(ابن خلدون)[2].

(1) Draper, John William (1874). History of the Conflict between Religion and Science, p126
http://pdfbooks.co.za/library/JOHN_WILLIAM_DRAPER-HISTORY_OF_THE_CONFLICT_BETWEEN_RELIGION_AND_SCIENCE.pdf

(٢) نظرية التطور قالها فلاسفة وعلماء عرب قدماء قبل داروين أحمد عزمي، موقع رصيف ٢٢
https://bit.ly/2MaT01b

خالق ((حسب الطلب))

قد يعترض أحدهم: لماذا لم يخلق الله الإنسان أو بقية الكائنات مرة واحدة ومباشرة دون المرور بآلية الانتقاء الطبيعي هذه؟

ولماذا على الله أن يفعل ذلك؟! لماذا عليه أن «يخلق» مباشرة؟ من نحن كي نقرر ماذا على الإله أن يفعل؟

هذه مغالطة «الكاتالوغ المثالي» الوهمية التي تجعلنا نعتقد أن الإله الحق «عليه» أن يتصرف كما نعتقد نحن أنه أفضل.

هل له القدرة على ذلك؟ نعم. له القدرة على ذلك، لكنه هو وحده عز وجل يقرر كيف ينفذ قدرته، أن يجعل الأمور تحدث مباشرة أو بالتدرج، هذا قراره هو وحكمه هو.

لماذا لم يختر الله الوقت القصير للخلق، وترك الأمر يستغرق مليارات السنين إلى أن يصل إلى «الإنسان»؟ أما كان من الأسهل أن يجعل الأمر لا يستغرق برهة من الزمن، ما دام يستطيع؟

لكن مليارات السنين هذه، هي برهة من الزمن بالفعل، أو أقل، هي وقت هائل بالنسبة لمقاييسنا البشرية، لكن من موقع آخر قد تبدو كلمح البصر..

وبالنسبة للخالق، هي لا شيء أصلًا، لأنه خارج مفهوم الزمن تمامًا.

لذا فتعجبنا من استغراق الخلق هذه المدة الطويلة هو تعبير عن فهمنا البشري للزمن، وعجزنا عن استيعاب أن ذلك الزمن «القاهر» لنا هو لا شيء بالنسبة لمن خلق هذا الكون..

هل نعتقد أن خطة الخلق هذه عبر الانتقاء الطبيعي ليست «أنيقة» أو «إنسانية» بما فيه الكفاية؟

على العكس من هذا، يمكن أن نجد في الانتقاء الطبيعي دروسًا بليغة لنا عن بذل الجهد.. والتدرج.. والتراكم.. وهي أمور أساسية في الحياة، وما كان «الخلق المباشر» سيمنحنا إياها..

لماذا لم يخلقنا الله بصيغة «كن فيكون»؟

هو خلقنا كذلك بالفعل. كل ما في الأمر أن المسافة بين الكاف والنون عنده عز وجل، تكون قرابة ١٤ مليار سنة في حساباتنا..

مقولات شائعة عن نظرية التطور

بقي أن نذكر أن هناك مقولات شائعة يرددها بعض المؤمنين في خضم محاربة نظرية التطور، وهي مما يجب أن يعاد النظر بها:

أولًا - يقال عنها إنها «مجرد نظرية» كما لو كان هذا يعني أنها مجرد «وجهة نظر»!.. في الحياة اليومية نستعمل مفردة النظرية لنعبر عن ذلك فعلًا، لكن في العلم، الأمر مختلف، لا تكون النظرية نظرية إلا بعد أن تنتقل من مرحلة الفرضية إلى الإثبات والتحقق.. النظرية تفسر مجموعة ظواهر بعوامل متعددة وتخضع للتحقق والإثبات العلمي.

عبارة «الفرضية» هي الأقرب إلى أن تكون ما نقول عنه إنه مجرد تخمين، وإن كان هذا علميًا أعقد بكثير من مجرد تخمين.

ونظرية التطور لا تزال تقدم النموذج التفسيري الأكثر قبولا علمياً لتفسير الكثير من الظواهر المتعلقة بالكائنات الحية، ولكي تزول هذه النظرية، يجب أن يكون هناك نموذج تفسيري بديل يتجاوز نظرية التطور ويحصل على المزيد من القبول العلمي.

ثانيًا - يقال أيضًا إن نظرية التطور تقول إن أصل الإنسان قرد، ويستدعي هذا كل ردود الأفعال من الدراما إلى الكوميديا.. ولكن في الحقيقة أن النظرية لا تقول هذا بالضبط، بل تقول إن لدينا أسلافًا مشتركين مع القردة، هذا السلف المشترك عاش قبل ١٣ مليون سنة[1].

ثالثًا - يقال دومًا إن الاكتشافات العلمية «الحديثة» أثبتت خطأ النظرية.. وأن النظرية سقطت في الغرب..وأنها محض خرافة... إلخ... دومًا نسمع كلامًا كهذا، منذ خمسين عامًا نسمع هذا الكلام، وهذا ببساطة كلام غير صحيح، كل الاكتشافات تعدل فيها باستمرار.. نظرية التطور تتطور دومًا.. ليست جامدة ولا مقدسة.. وهي بها أخطاء ونواقص كما أي عمل بشري..[2]

رابعًا - «لماذا توقف التطور؟» «لماذا لم تتطور الكائنات منذ آلاف السنين حتى الآن، ونحن نرى صورها وصور البشر مرسومة منذ عهد الفراعنة؟».

---

(1) Human and Chimp Genes May Have Split 13 Million Years Ago
https://www.livescience.com/46300-chimpanzee-evolution-dna-mutations.html

(٢) للمزيد عن هذا، وعن تعاملنا عموما مع النظريات العلمية، يمكن مراجعة الملحق في نهاية الكتاب.

التطور يحدث عبر ملايين السنين ولا يمكن لنا أن نرى ذلك في حياتنا أو حتى في حياة الحضارة البشرية التي لم تتجاوز العشرة آلاف سنة.

الخلاصة في كل هذا: ليس من المطلوب منك كمؤمن أن تصدق بنظرية التطور إن كان الأمر لا يعنيك ولا يشكل لك أزمة، نظرية التطور ليست من أركان الإيمان ولا فروعه ولن تكون كذلك بالتأكيد.. لكن إن آمن آخرون بها وجمعوا بينها وبين إيمانهم بالله، فمن الخطأ جدًا أن تحاربهم وتحارب ما يؤمنون به..

آدم بين نظرية التطور وقصة الخلق

لا يمكن بأي شكل من الأشكال الحديث عن نظرية التطور، دون أن نصل إلى السؤال الحاسم: ماذا عن «أول البشر»؟.. آدم عليه السلام؟

كل ما عدا ذلك قد يكون قابلًا للأخذ والرد من قِبَل «بعض رافضي النظرية»، لكن مع الإنسان الأول، آدم.. الأمر يصل هنا إلى نقطة حساسة لا أحد يقبل المساس بها، بل وحتى غض الطرف عنها. بل إن جزءًا كبيرًا من أسباب رفض النظرية ومحاربتها يتعلق بآدم.

ملخص الإشكالية هنا هو أن نظرية التطور تقترح تدرجًا في نشوء النوع الإنساني (الإنسان العاقل) (Homo Sapiens) منحدرًا من أقرب سلف مقترح، وهو إنسان هايدلبرغ (Homo heidelbergensis) الذي عاش قبل (٢٠٠ ألف - ٧٠٠ ألف سنة) وهو وقت متداخل مع أقدم ما عُثر عليه من بقايا للإنسان العاقل في المغرب[1].

حسب نظرية التطور ومخرجاتها؛ فإن الانتقال من إنسان هايدلبرغ إلى الإنسان العاقل كان تدريجيًا وعبر آليات التكيف مع الظروف الطبيعية الصعبة والانتقاء الطبيعي..

تميز (الإنسان العاقل) عن أقاربه من جنس الإنسان (Homo) و (النياندرتال) بحجم دماغه الكبير نسبة إلى حجم جسمه، وهو أمر لم يكن يبدو مفيدًا جدًا بالنسبة لكائنات تلك الفترة، إذ أنه يشكل ثقلًا إضافيًا في مرحلة كانت الخفة مهمة في النجاة من الافتراس، ليس هذا فقط، فقد كان هذا الدماغ الذي لا يشكل أكثر من ٢ - ٦٪ من وزن الجسم يستهلك تقريبا ٢٥٪ من طاقة الجسم، بينما كان استهلاك الدماغ عند أبناء العمومة لا يتجاوز الـ ٨٪.

أدى هذا الأمر إلى محاولة الإنسان العاقل للبحث عن المزيد من الطعام تعويضًا عن الطاقة المستهلكة، ولكنه أدى أيضا إلى ضمور عضلاتهم مقارنة بالأقارب.. الطاقة في معظمها تذهب إلى الدماغ الضخم الذي يحملونه في جماجمهم، بينما الأقارب تذهب طاقتهم إلى عضلاتهم..

---

(1) Oldest Homo sapiens bones ever found shake foundations of the human story | Science | The Guardian https://www.theguardian.com/science/2017/jun/07/oldest-homo-sapiens-bones-ever-found-shake-foundations-of-the-human-story

كان هذا الأمر مثل أن توجه ميزانية الدولة إلى نفقات التعليم، بدلاً من الدفاع، بينما كل الدول المجاورة منهمكة في التسليح والحرب.

أمر قد يبدو غريبًا من الناحية الاستراتيجية في عالم البقاءُ فيه للأقوى..

لكن عبارة «البقاء للأقوى» ترجمة خاطئة لعبارة (survival of the fittest)، البقاء في هذا العالم هو للأكثر قدرة على التكيف معه.. وليس للقوة العضلية.

وقد أثبت الاستثمار في الدماغ، صحته الاستراتيجية على المدى البعيد..

حيث مكن هذا الاستثمار الإنسان العاقل من تطوير قدراته العصبية وتحكمه بأطرافه وأنامله على نحو دقيق، كما مكنه من البحث عن طعامه، ثم إنتاجه، والنجاة من الافتراس على نحو أفضل..

في مرحلة ما، بين ٣٠,٠٠٠ - إلى ٧٠,٠٠٠ سنة مضت، مر هذا الإنسان العاقل بثورة عقلية cognitive revolution، مكنته من أن يكون الأقوى والأكثر نجاحًا بين (الأنواع المقاربة)، كما مكنته من السيطرة على قمة الهرم الغذائي[1]، وبطريقة ما، انقرض جميع الأقارب.

فلننتبه هنا إلى أن هذا يعني - حسب نظرية التطور- أن (الإنسان العاقل) لم يكن «شخصًا واحدًا»، بل كان مجموعة بشرية تميزت عن أسلافها وأبناء عمومتها بمميزات الإنسان الحديث.

* * *

إذا أردنا أن نوازي بين هذه المخرجات وبين ما نعرفه من قصة الخلق من القرآن الكريم، لوصلنا إلى أن الإنسان العاقل (Homo Sapiens) لا بد أن يكون آدم عليه السلام.

لكن هنا ستبرز لنا ثلاث مشاكل رئيسية:

الأولى: أن آدم كان شخصية تاريخية، فردًا بعينه، بينما مخرجات نظرية التطور تتعامل مع مجموعة بشرية وصلت ببطء إلى ما وصلت إليه.

الثانية: وجود أنواع أخرى من الإنسان (التي سبقت الإنسان العاقل)، وكانت سلفًا لهذا الإنسان، وهو أمر لا يتفق مع فهمنا أن آدم هو الإنسان الأول.

(1) Sapiens, A brief history of Human Kind, Yuval Noah Harari,p16

الثالثة: وجود آدم في الجنة، و «هبوطه» إلى الأرض منها، فهذه التفاصيل لا يمكن أن تجد لها مكانًا ضمن مخرجات واستنتاجات نظرية التطور..

فهل من حل لهذه الإشكالات؟

آدم ...مجرد رمز أم حقيقة تاريخية؟

هناك من يحاول تقديم آدم بصفته رمزًا للنوع الإنساني «العاقل» الذي ننتمي له.

كل ما في القصة الدينية عن آدم وخلقه سيكون هنا رمزيًا أيضًا، وستكون هناك دروس مهمة جدًا للنوع الإنساني من هذه القصة: دور الإنسان ومكانته، إمكانية الخطأ، المغريات التي سيتعرض لها.. هذه الدروس مهمة جدًا وكل إنسان يتعرض لها كثيرًا في رحلة حياته.

لكن الحديث عن آدم بوصفه «رمزًا» فحسب، رمزًا ممثلًا عن النوع الإنساني، يعني أنه لم يكن هنا كشخص، لم يكن حقيقة تاريخية. بل يقدم كخلاصة لتجربة تاريخية مرت بها (مجموعة إنسانية) في فترة ما دون أن يكون هناك «شخص بعينه» في هذه المجموعة هو آدم عليه السلام.

مثل ذلك ما قدمه البعض من أن آدم ليس اسم علم، بل هو اسم لمجموعة بشرية، وزوجه مجموعة بشرية أخرى[1]، أو ما قاله آخرون أن آدم هو مجموعة أشخاص بلغ عددهم ٣٢ شخصًا[2] أو ما قدمه كثيرون من داعمي (التطور الإلهي Theistic evolution) من أن آدم وحواء هما رمزان أكثر منهما حقيقة تاريخية[3]، وما قدمه بعض علماء الاجتماع من أن صراع قابيل وهابيل كان رمزًا لصراع (مجتمع الرعي ومجتمع الزراعة)[4].

لكن تحويل القصص إلى رموز على هذا النحو يقتلها تاريخيًا وواقعيًا، ويفتح باب تحويل كل شيء آخر إلى رموز أيضًا، فالمعيار الذي يجب أن نقف عنده في التعامل مع القصص القرآنية بين الحقيقة التاريخية والمعنى الرمزي، على سبيل المثال: إذا كان آدم رمزًا لمجموعة بشرية أو

---

(١) محمد شحرور..

https://shahrour.org/?page_id=6084

(٢) آذان الأنعام، عماد بابكر حسن.

(3) https://cdn.ymaws.com/network.asa3.org/resource/dynamic/forums/20150829_143039_10526.pdf

(4) A Study of History, Arnold Toynbee / part 1 The arrested civilizations.

مرحلة تاريخية، كيف يمكن ألا يتحول إبراهيم إلى رمز أيضًا بلا حقيقة تاريخية، أو موسى أو عيسى.. أو حتى الجنة والنار؟

ما الذي يمكن أن يبقى «كحقيقة تاريخية» وما الذي سيتحول إلى رمز فقط؟

لماذا نفترض أن الرموز لا يمكن أن تكون إلا من خلال قصص «لم تحدث» أي «أساطير»؟

ألا يمكن أن تكون السير التاريخية الواقعية مليئة بالرموز والمعاني في نفس الوقت؟

لا شيء حقيقيًا يبرر ذلك.

كل ما في الأمر هو أن مخرجات الأبحاث والدراسات العلمية تشير إلى أن التطور التدريجي البطيء لا يمكن أن يُنتج «إنسانًا واحدًا فارقًا، يمكن أن يشار له ويقال هذا هو «الإنسان العاقل، أو السوبر عاقل، أو الآدمي الأول».

أو هذا على الأقل ما يعتقده كثيرون حتى الآن.

لهذا فهم يحاولون التوفيق بين «النصوص الدينية للقصة» وبين مخرجات نظرية التطور بتحويل آدم إلى مجرد رمز إنساني.. إلى عبرة مستفادة من حكاية يمكن **لكثيرين أن يقولوا إنها «لم تحدث»**.

«شيء ما» حدث للإنسان العاقل

لكن الذي حدث للإنسان العاقل (الهومو سابيانز)، ليس مفهومًا تمامًا حتى اليوم.

وأعني الحدث الذي غير من موقعه بين بقية المخلوقات ومهد لسيادته على الكوكب..

ما أطلق عليه: الثورة العقلية cognitive revolution.

حسب البعض؛ أهم منجزات هذه الثورة العقلية التي مكنت الإنسان من بسط سيطرته تدريجيًا كانت اللغة. القدرة على استخدام اللغة كوسيلة للتواصل بين الأفراد ونقل الخبرات فيما بينهم وتكوين مجتمع متماسك (قبيلة(أكبر عددًا وأكثر قدرة على النجاة، وارتبط باللغة ونشوئها أيضًا القدرة على تكوين أفكار تجريدية، والتعبير عنها، والخيال، والفن. كما ارتبطت بها القدرة على تكوين مبادلات تجارية.

كانت هناك طرق تفاهم قبل ذلك بالتأكيد، حتى الحيوانات تتفاهم فيما بينها، لكن اللغة نقلت الإنسان العاقل من مرحلة «احذر! هناك دب عند النهر» إلى مرحلة «فلنفكر بطريقة

نصطاد بها الدب» و «لو تركت هذه الفاكهة على النار أكثر لكانت ألذ» و «شاهدتهما يدخلان الغابة معًا أمس، هل يعرف زوجها بذلك؟»..

هذه التفاصيل اليومية الصغيرة التي أثرتها اللغة ساهمت في تكوين لُحمة اجتماعية جعلت للفرد فيها هويته وانتماءه[١].

كيف حدث هذا؟ ما الذي طرأ على دماغ الإنسان العاقل فجأة بحيث أمكنه كل ذلك؟

هناك اعتقاد علمي راسخ يربط اللغة التي تميز «الإنسان العاقل» بالحامض النووي DNA.[٢]

وكثير من العلماء يعتقدون أن الأمر يعود إلى قفزة جينية وليس إلى تغييرات تدريجية بطيئة تتكيف مع متطلبات «الصراع من أجل البقاء»[٣]. كما يعتقد أيضًا أن «طرق التفكير الجديدة» التي ميزت «الثورة الدماغية» في هذه الفترة قد تسببت بها طفرة جينية غيرت من «الربط الداخلي inner wirings في الدماغ[٤].

ويذهب نعوم تشومسكي إلى أبعد من هذا قليلًا، حيث يعزو «لغة الإنسان» التي ميزته عن كل الحيوانات الأخرى إلى طفرة جينية واحدة أنتجت جينًا واحدًا فقط عند فرد واحد (يطلق عليه تشومسكي اسم بروميثيوس)[٥] وذلك قبيل الخروج من أفريقيا حوالي ٦٢٠٠٠-٩٥٠٠٠ عام مضت[٦]، ويتفق معه في نفس الفكرة البعض[٧]، ويخالفه فيها أيضًا كثيرون[٨].

---

(1) Sapiens, A brief history of Human Kind, Yuval Noah Harari, p 26

(2) Language is in the genes | Max-Planck-Gesellschaft
https://www.mpg.de/10751617/simon-fisher-language-research

(3) Languages evolve in sudden leaps, not creeps | New Scientist
https://www.newscientist.com/article/dn13267-languages-evolve-in-sudden-leaps-not-creeps/

(4) Sapiens, A brief history of Human Kind, Yuval Noah Harari ,p 24

(5) Why Only Us: Language and Evolution,Robert C. Berwick and Noam Chomsky,MIT press 2016

كذلك في:

The TruthAbout Language: What It Is and Where Did it Come From,Michel C Corballis,2017 University of Chicago Press. Page 30

(6) Later Date for Out of Africa | Human Migration
https://www.livescience.com/28086-when-humans-left-africa.html

(7) BBC News | SCI/TECH | 'Single mutation led to language'
http://news.bbc.co.uk/2/hi/science/nature/693744.stm

(8) Why Only Us: The language paradox | New Scientist
https://www.newscientist.com/article/2078294-why-only-us-the-language-paradox/

لم يتم (حتى الآن) العثور على «جين واحد» بعينه يكون مسئولًا عن القدرة على التعبير، كما لم يتم تحديد الفترة التاريخية التي حدثت فيها هذه الثورة «الدماغية» بالضبط.

* * *

فلنلخص ما مضى:

أولًا: طرأت على الإنسان العاقل تغيرات كبيرة ساهمت في تغيير موقعه بين الحيوانات في العالم.

ثانيًا: تضمنت هذه التغيرات قدرات جديدة في التفكير والتعبير على نحو غير مسبوق، ومن أهم وأوضح هذه القدرات: اللغة.

ثالثًا: هذه التغييرات حدثت فجأة، ولم تكن تدريجية وبطيئة مثل بقية مخرجات آلية الانتقاء الطبيعي التي تأخذ وقتًا طويلًا.

رابعًا: بسبب فجائية التغييرات فإن العلماء يميلون إلى حدوث «طفرات جينية» أحدثت الفرق الجذري سريعًا.

خامسًا: لا يستبعد بعض العلماء أن تكون هذه الطفرة قد حدثت لفرد واحد فقط، ومن ثم انتقلت منه وسادت حتى تكونت ٧٠٠٠ لغة في عالم اليوم.

رجل واحد؟

* * *

هل يمكن ألا نربط كل ما مضى أعلاه، بشيء آخر مر معنا في النسخة القرآنية من قصة آدم عليه السلام؟

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١).

علم آدم الأسماء؟

هل هي اللغة؟ القدرة على التجريد؟ هل هي المقدرة الدماغية على ذلك؟

من الصعب جدًا عدم الربط بين الأمرين.

* * *

هل يمكن أن يكون هناك (من الناحية العلمية) رجل واحد وامرأة واحدة ننتسب لهما جميعًا بكل التنوع العرقي الموجود في العالم اليوم؟

من الناحية الجينية، هذا ممكن بالفعل.

الدراسات الجينية التي أجريت على مجموعة من الرجال من مختلف الأعراق، تشير إلى أن كل الكروموسومات الذكورية Y يمكن أن تعود إلى رجل واحد عاش قبل حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة مضت، بالمقابل، فإن كل المايتوكوندريا الوراثية mtDNA تنقل من الأم إلى أبنائها ذكورًا وإناثًا، والدراسات وجدت أن كل هذه المايتوكوندريا الوراثية للبشر اليوم يمكن أن تعود إلى امرأة عاشت في نفس الفترة التي عاشها ذلك الرجل تقريبًا أو أن على الأقل ثمة تداخل في الوقت التقريبي المقترح لوجودهما[1]، كما تشير دراسة أخرى إلى أن كل التنوع الجيني الموجود حاليًا يعود في أصوله إلى الفترة ما بين ٢٠٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ سنة مضت[2].

فلنوضح هنا أن هذه الدراسات لا تقترح بأي شكل من الأشكال اقتران هذا الرجل والمرأة، لكنها تشير إلى وجود أصول مشتركة لكل البشر الموجودين على وجه الأرض.

* * *

ليس من وظيفة العلم أن يثبت لنا وجود آدم وحواء، وليس من وظيفته أن يقدم لنا عقد زواجهما أو شهادة ميلاد طفلهما الأول. ولكن لا يمكن للمؤمن عندما يرى كل ما يقدمه العلم الحديث من معطيات إلا أن يقول: نعم، ممكن جدًا إذن.. لا شيء «حقًا» ضد ما أؤمن به.. ما دام يمكن أن يحدث مع جد الكروموسوم Y وجدة المايتوكوندريا الوراثية، فيمكن أن يحدث

(1) Genetic Adam and Eve did not live too far apart in time : Nature News & Comment

https://www.nature.com/news/genetic-adam-and-eve-did-not-live-too-far-apart-in-time-1.13478

(2) Why Should Mitochondria Define Speacies Mark Stoeckle, Davidt Thaler Human Evolution 33(n1-2) · May 2018.

https://phe.rockefeller.edu/docs/Stoeckle_Thaler%20Human%20Evo%20V33%202018%20final.pdf.

وقد تعامل الإعلام مع هذه الدراسة بعد أشهر من صدورها على نحو «شعبوي» حاز على جماهيرية كبيرة، حيث قيل إنها تثبت وجود آدم وحواء

كما في:

All humans may be descended from just TWO people, study suggests | Daily Mail Online

https://www.dailymail.co.uk/news/article-6424407/Every-person-spawned-single-pair-adults-living-200-000-years-ago-scientists-claim.html

واعتبرها البعض ضربة إلى الداروينية، مما دعا الباحثين واضعي الدراسة إلى إصدار بيان أضيف إلى المقالة، يوضحان فيه دعمهما لنظرية التطور واتساق دراستهما معها.

مجددًا مع آخرين.. آخران تزوجا وأنجبا فعلًا.. ويمكن للعلم أن يثبت ذلك ويمكن أن لا يفعل.. ولكن حاجتنا إلى الإثبات ليست قوية بقوة حاجتنا إلى عدم وجود إثبات «للنفي».. وقد كان..

آدم وزوجه كانا شخصيتين تاريخيتين. لم يكونا رمزًا للنوع الإنساني أو لقبيلة ما أو مجموعة بشرية ما.

آدم، كان شخصًا حقيقيًا.. من لحم ودم.. مثلنا جميعًا.. جد الجميع..

بشر قبل آدم؟

الفهم السائد المباشر لقصة الخلق كما جاءت في القرآن هو أن آدم كان أول البشر.

ولكن في نفس القصة هناك إشارات ضمنية يمكن أن تشير إلى أن الأمر ربما ليس بهذه الحرفية المباشرة.

هناك أولًا تساؤل الملائكة الشهير..

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

كيف عرف الملائكة هذه «الميول» ما لم يكن الأمر مرتبطًا بتجربة سابقة على إخبار الله لهم بأنه سيجعل فيها خليفة؟

السؤال موجود، ولكن هناك إجابة معروفة وسائدة: كان هناك «الجن» قبل البشر، وهؤلاء أفسدوا وسفكوا الدماء، وتوقع الملائكة أن الأمر سيكون مماثلًا مع آدم.

وهذه الإجابة لا تعتمد على نص ديني (قرآني أو نبوي)، بل هي من أقوال المفسرين في تأويل الآية الكريمة.

ولكن الجواب الإلهي لا يوحي بأن هذا هو مقصد الملائكة من السؤال.

الجن غير البشر، وهذا أمر لا بد أن يكون ضمن علم الملائكة، لو كان هذا مقصدهم.

لذا فجواب: (إني أعلم ما لا تعلمون) قد لا يكون مناسبًا للسؤال لو كان مقصد الملائكة عن الجن، بل سيأتيهم الجواب منبهًا على الفروق بين الجن والخلق الجديد.

إذن لعل مقصد الملائكة كان عن حالة مشاهدة تخص النوع الإنساني قبل أن يختصه الله بميزات القدرة العقلية المتفوقة (التي يعلمها الله ولا تعلمها الملائكة بعد).

* * *

آية الاصطفاء تطرح أيضًا ما يمكن أن يصب في أن آدم لم يكن الإنسان الأول.

﴿إِنَّ الله اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣).

والاصطفاء قرآنيًا هو اختيار وتفضيل جزء من كل.

كل الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه اللفظة ومشتقاتها كانت تشير بوضوح إلى ذلك..

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: ٥٩).

﴿وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (الصافات: ١٥٢-١٥٣).

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ الله اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢).

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ الله قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ الله اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَالله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٤٧).

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤).

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢).

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة: ١٣٠).

﴿الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج: ٧٥).

في كل هذه السياقات، الاصطفاء كان لفرد من مجموع ينتمي له ابتداء.

حتى في الآيات التي لا تتحدث عن فرد أو أفراد، فهي تتحدث عن تخليص شيء معين من شوائب..

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢).

إذن جزءٌ يُصطَفى من كل..

لا يوجد أي سياق ضمن هذه الآيات كان الاصطفاء فيه يأتي بناء على انتماء مستقبلي (أي تم اختيار آدم من بين أولاده الذين لم يولدوا بعد، مثلًا)..

الاصطفاء في كل هذه السياقات يحدث من بين مجموعة متشابهة في صفات معينة، لهم وجود مشترك في فترة مشتركة.. الله لم يصطفِ نوحًا من بين أهل مكة أو أهل روما.. بل اصطفاه من قومه، في الفترة التي عاشها هو بنفسه.. أما أن يكون هذا الاصطفاء قد جعله «أفضل» منهم - ومن بقية العالمين - فهذا أمر مؤكد بلا نقاش..

لكن عملية الاصطفاء ابتداء حدثت مع قومه..

وكذلك مع كل الاصطفاءات الأخرى..

لماذا نتوهم الأمر مختلفًا مع آدم؟

الآية يمكن أن تفهم كإشارة إلى احتمالية وجود مجموعة «بشرية» انتمى لها آدم أصلًا، لكن الله اصطفاه منها وميَّزه منها بما قد يسميه العلماء «القفزة الجينية الكبيرة» التي جعلته الإنسان الأول من ناحية استخدامه لقدرات لم تكن موجودة من قبل..

* * *

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (الأنعام: ١٣٣).

الآية يمكن أن تقدم إشارة أخرى إلى أن النوع الإنساني ارتبط وجوده بنوع بشري آخر سابق عليه، بل إن المعنى الظاهر للآية قد يصب في هذا إلى درجة أن الطبري في تفسيره قد ذكر:

(كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ) (الأنعام: ١٣٣)، كَمَا أَحْدَثَكُمْ وَابْتَدَعَكُمْ مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ آخَرِينَ كَانُوا قَبْلَكُمْ. وَمَعْنَى (مِنْ) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: التَّعْقِيبُ، كَمَا يُقَالُ فِي الْكَلَامِ: أَعْطَيْتُكَ مِنْ دِينَارِكَ ثَوْبًا، بِمَعْنَى: مَكَانَ الدِّينَارِ ثَوْبًا، لَا أَنَّ الثَّوْبَ مِنَ الدِّينَارِ بَعْضٌ، كَذَلِكَ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِقَوْلِهِ: (كَمَا أَنْشَأَكُمْ) (الأنعام: ١٣٣) لَمْ يُرِدْ بِإِخْبَارِهِمْ هَذَا الْخَبَرَ أَنَّهُمْ أُنْشِئُوا مِنَ

أَصْلَاب قَوْمٍ آخَرِينَ، وَلَكِنْ مَعْنَى ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّهُمْ أُنْشِئُوا مَكَانَ خَلْقٍ خَلْفَ قَوْمٍ آخَرِينَ قَدْ هَلَكُوا قَبْلَهُمْ).

أي أن ظاهر الآية كان واضحًا في أن المقصد هو (أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين) ولذلك يقول الطبري إن المقصد هو «مكانهم»، وهو أمر مفهوم ومتوقع حسب السياق المعرفي والمعطيات في عصر الطبري.

يمكن بطبيعة الحال أن تُقدم تأويلات أخرى (أن المقصود مثلًا هو ذرية قوم نوح) ولكن المعنى هنا يكون غير واضح؛ إذ ما المغزى من الإشارة إلى قوم نوح هنا، بينما المعنى يمكن أن يتسق في خطاب عام للإنسانية في المن عليها بإمكانية ظهور خلق آخر، كما حدث مع خلقهم، وهو ما يتوافق مع كون سياق الآيات يتحدث مخاطبًا «معشر الإنس والجن».

* * *

ماذا عن آية ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

تعتبر هذه الآية عند البعض دليلًا على أن آدم قد خُلِق «مرة واحدة» كما خُلِق عيسى عليهما السلام..

لكن ربما هناك معانٍ أخرى لو تأملنا في تفاصيل المقارنة..

فعيسى عليه السلام كانت ولادته معجزة بالتأكيد من ناحية أنه وُلِدَ من غير أب، لكنها لم «تكن مباشرة وفورية» كما قد يُفهم من «كن فيكون» فقد حملت به أمه وانتبذت به، ثم جاءها المخاض كما يحدث مع بقية الخلق، أي أن المماثلة هنا لا تقود إلى أن آدم «لم يولد من امرأة».

أما سياق «كن فيكون» فقد جاء في عدة مواضع في القرآن الكريم، ولكن لا يوجد فيها سياق يعزز فكرة «فورية التنفيذ» كما نفهمها، بل تدل في أغلب السياقات على قدرته عز وجل - هو المتعالي عن الزمان وقياساته البشرية - كما أن هناك سياقًا يربط «كن فيكون» بمراحل الخلق دون أن يُفهم منها أن «كن فيكون» تعني إلغاء هذه المراحل:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (غافر: ٦٨).

ما الذي تقصده الآية إذن من تشبيه عيسى عليه السلام بآدم؟

المقصد والله أعلم هو المعجزة الإنسانية برمتها.. هل ولادة عيسى من غير أب معجزة أكبر من خلق آدم وبداية خلق النوع الإنساني؟ كل ما في الأمر أننا تعودنا على)خلق النوع الإنساني) أكثر مما يجب، بحيث أننا لم نعد نستشعر عجيب القدرة الإلهية في خلقنا نحن.. الخلق المتجدد الذي أصبح مألوفًا جدًا بالنسبة لنا، كما في تكرار أي آيات مُعجِزة أصبح من الصعب علينا أن نتوقف عندها، مثل آيتي الليل والنهار، وآيتي الشمس والقمر.

ماذا عن خلق آدم من تراب، سواء في هذه الآية أو في آيات أخرى كثيرة (من تراب أو من طين أو من سلالة من طين)؟

لا جدال في أن بدء خلق النوع الإنساني – وكل الأنواع الأخرى – كان من هذه البداية، ولكن التدرج في أمر الخلق ومروره بمراحل واضح في كثير من الآيات..

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٩)

فبداية الخلق هي من الطين، ولا شيء يدل على فورية اكتمال الخلق، بل الحديث عن «سلالة» ومع استخدام متكرر لكلمة «ثم» التي تدل على «التراخي في الزمن» أي وجود فترة زمنية بين المراحل.

جنة آدم على الأرض؟

هذه المسألة خلافية منذ البداية، ولا علاقة لنظرية التطور بالأمر.

فقد نقل عن أبي حنيفة وأصحابه، وعن سفيان بن عيينة، بل روي حتى عن ابن عباس أن جنة آدم هي غير جنة الخلد.

وقد ناقش رشيد رضا القولين ونقل جملة أسباب تجعل من جنة الأرض (البستان الظليل، وقد وردت بهذا المعنى فعلًا في القرآن الكريم) خيارًا منطقيًا:

١. أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ فِي الْأَرْضِ لِيَكُونَ هُوَ وَنَسْلُهُ خَلِيفَةً فِيهَا، فَالْخِلَافَةُ مَقْصُودَةٌ مِنْهُمْ بِالذَّاتِ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ عُقُوبَةً عَارِضَةً.

٢. أَنَّهُ لَمْ يُذْكَرْ أَنَّهُ بَعْدَ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَلَوْ حَصَلَ لَذُكِرَ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

٣. أَنَّ الجَنَّةَ المَوْعُودَ بِهَا لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا المُؤْمِنُونَ المُتَّقُونَ، فَكَيْفَ دَخَلَهَا الشَّيْطَانُ الكَافِرُ المَلْعُونُ؟

٤. أَنَّهَا لَيْسَتْ مَحَلًّا لِلتَّكْلِيفِ.

٥. أَنَّهُ لَا يُمْنَعُ مَنْ فِيهَا مِنَ التَّمَتُّعِ مِمَّا يُرِيدُ مِنْهَا.

٦. أَنَّهُ لَا يَقَعُ فِيهَا العِصْيَانُ.

وأضاف إلى ذلك إلى أنه لو أن جنة المأوى كانت جنة آدم، لما صح عليها قول «الدار الآخرة» لأنها ستكون الدار الأولى في هذه الحالة[1].

السؤال المباشر سيكون ماذا عن «هبوط» آدم وزوجه من الجنة إلى الأرض؟

كما في: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٣).

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦).

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٨).

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (الأعراف: ٢٤).

أليس تكرار (الهبوط) هنا يدل على أن جنة آدم كانت في السماء؟

على العكس، الكلمة هنا تدل على أن جنة آدم في الأرض، لأن الهبوط غير النزول، وبينما استخدم القرآن لفظ النزول لما يأتي من السماء كما في ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (الفرقان: ٤٨).. فإنه استخدم الهبوط في سياق آخر تمامًا كما في:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١).

---

(١) تفسير المنار / رشيد رضا /ج١ ص ٣٣٠

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود: ٤٨).

فبنو إسرائيل عندما «هبطوا» إلى مصر لم يكونوا في السماء..

ونوح عندما هبط كان في السفينة فحسب ولم يكن في السماء..

وكذلك الأمر بالنسبة لهبوط آدم وزوجه إلى الأرض.. كان انتقالاً من مكان مرتفع قليلاً في الأرض.. إلى عمومها..

* * *

هل من شيء قاطع وحاسم في كل ما سبق؟

لا بالتأكيد. وليس من المطلوب أصلًا أن يكون كل شيء قاطعًا وحاسمًا في كل تفصيل. ولا من المطلوب من العلم أن يقدم إثباتًا لكل ما يقوله الدين، ولا الدين مطالب بأن يختم بالموافقة على كل ما يقوله العلم.

لكن رفع التناقض الصارخ مهم.

وغاية ما تقدمه المناقشة السابقة هو أنها تمنح مساحة مشتركة بين القصة الدينية كما جاءت في القرآن (والكتب السماوية عمومًا)، وبين مخرجات العلم الحديث.

لا يضطر المؤمن المعاصر أن يكون في مواجهة يومية مستمرة مع العلم، بينما هو يبسط سيطرته على العالم اليوم.

ثمة مواجهات مجدية أكثر.

* * *

في كل الأحوال أجد نفسي مضطرًا إلى التذكير مرة أخرى: نظرية التطور لا تبحث في سؤال: من بدأ الخلق؟ كي تزج بسهولة في جدل الإلحاد والإيمان.

هي لا تبحث في كيف نشأت الخلية الحية الأولى وأصل وجودها.. هذه المباحث وغيرها قد تكون سبيلًا إلى الإلحاد، لكن كل هذا خارج نطاق نظرية التطور، وجر النظرية وما تطرحه إلى نطاق الإيمان والإلحاد يعبر غالبًا إما عن عدم فهم لما تطرحه النظرية، أو عن رغبة مسبقة للوصول إلى حكم معين ضدها أو ضد الإيمان.

متلازمة داوكنز

لا يمكن الحديث عن نظرية التطور وعلاقتها بالإلحاد، دون أن تتم الإشارة بإسهاب إلى عالم البيولوجيا التطورية ريتشارد داوكنز، ليس بصفته أهم فرسان «الإلحاد الجديد» وأعلاهم صوتًا وأغزرهم نتاجًا وأكثرهم انتشارًا فحسب، بل لأنه استخدم نظرية التطور كرأس حربة مباشرة في محاربة الإيمان والأديان.

ريتشارد داوكنز، مع سام هارس[1]، كريستوفر هتشنز[2] و دانيال دانيت[3] يُعرفون بكونهم «الفرسان الأربعة» للإلحاد الجديد، وهو نوع من الإلحاد الذي راج وانتشر عقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر بواسطة مجموعة من المثقفين والكتاب، يعتبر الفرسان الأربعة من أبرزهم وأهمهم، ويعتبر داوكنز بدوره أكثرهم رواجًا وتأثيرًا.

الإلحاد الجديد يتجاوز مسألة الإنكار الفلسفي لوجود الله إلى الهجوم الشديد على الدين والدعوة لعدم التسامح معه، بل وتجريمه بصفته مصدر كل الشرور، بينما كان الإلحاد «القديم» جزءًا من فلسفة أكبر، ليس الدين أكبر همها، في حين يبدو الإلحاد هو الأساس والهدف في الموجة الجديدة. في العموم كان منظرو الإلحاد السابقون أقل هجومًا على الدين ككل وأكثر تركيزًا على الجوانب الفلسفية.

يسمى الإلحاد الجديد أحيانًا بـ (anti-theism ضد الإله) بدلًا من (دون الإله atheism) للدلالة على الموقف العدائي الجديد الذي اتخذه هذا التيار، كما يطلق عليه أحيانًا (الأصولية

---

(١) سام هارس Sam Harris (١٩٦٧ - ...) عالم أعصاب وكاتب أمريكي ناقد للدين، كتابه (نهاية الإيمان) بقي على قمة الكتب الأكثر مبيعًا لصحيفة النيويورك تايمز لـ ٣٣ أسبوعًا، يعتبر موضوع هاريس المفضل هو الأخلاق وقدرة العلم على تقديم بديل أخلاقي ونفسي عن الدين.

(٢) كريستوفر هتشنز Christopher Hitchins(١٩٤٩ - ٢٠١١) كاتب وصحفي وناقد اجتماعي وأدبي بريطاني - أمريكي، بقي يساريًا لفترة طويلة ثم انفصل عن اليسار الغربي بسبب ما اعتبره مواقف مائعة من قضية سلمان رشدي وكتاب الآيات الشيطانية، ثم زادت الفجوة بينه وبين اليسار بسبب موقف اليسار المؤيد لبيل كلنتون وأخيرًا بسبب تأييده هو للحرب على العراق.

(٣) دانيال دانيت Daniel Dennett (١٩٤٢ - ...) عالم أحياء وعلوم إدراك وفيلسوف أمريكي، يعتبر من منظري العقل والإرادة الحرة والدوافع الأخلاقية من منظور تطوري.

الإلحادية).. ولم يتوان داوكنز نفسه عن الدعوة إلى تكوين «ميليشيا إلحاد»[1] للهجوم على الدين.

ثلاثة من هؤلاء الفرسان الأربعة لديهم تخصصات علمية (بمعنى العلم التجريبي) وهؤلاء (علماء) في تخصصهم، وليس ثمة غبار على سمعتهم في هذا المضمار، وكلهم انتموا إلى جامعات عالمية مرموقة، وكان داوكنز تحديدًا قد حاز سمعة طيبة منذ أن أصدر كتابه (الجين الأناني) في عام ١٩٧٦ وكان لا يزال شابًا في أواسط الثلاثينات وأحدث ما اعتبر يومها ثورة في عالم البيولوجيا التطورية.

أي أننا هنا أمام سطوة العلم «التجريبي» «المادي».. العلم الذي حقق كل المنجزات للبشرية، بالنسبة للجماهير كانت هذه السطوة نقطة قوية في تقبل خطاب الإلحاد الجديد: هؤلاء ليسوا مثل الجيل الأقدم من المفكرين الذين قدموا الإلحاد في النسخة الأقدم: مثل نيتشه وماركس وبرتراند راسل وسارتر وغيرهم، هؤلاء كانوا (فلاسفة)، لغتهم تبقى بعيدة عن الجماهير الواسعة، كما أن «الفلسفة» – وعامة العلوم الإنسانية التي تخصص بها هؤلاء [2] لا تملك تأثير وإبهار «العلم التجريبي» على هذه الجماهير.

وهكذا كان «العلم التجريبي» – بكل منجزاته وانتصاراته – هو المدخل الذي قُدِّم من خلاله الإلحاد الجديد إلى الجماهير الواسعة، ولكن من المهم أن نشير إلى أن العلم هنا قُدِّم بلغة شعبية سهلة، وهو ما صار يعرف بـ العلم الشعبي [3](popular science) على نحو ساهم في وصوله إلى الجماهير الواسعة ووصول بعض مؤلفات هؤلاء إلى مرتبة الكتب الأكثر مبيعًا لفترة طويلة، كما أنهم تحولوا إلى «نجوم» من خلال استضافتهم الدائمة في وسائل الإعلام وفي المناظرات، ولاحقًا من خلال وسائل التواصل الاجتماعي.

---

(١) كما قال في عنوان محاضرة شهيرة له في ٢٠٠٢، علماً أن معنى ميلشيا هنا لا يشترط المعنى المسلح الذي يتبادر إلى الذهن بل تعني معنى المجموعة المقاتلة أو الكتيبة حتى لو كانت دون سلاح.

https://www.ted.com/talks/richard_dawkins_on_militant_atheism/transcript

(٢) وحده برتراند راسل تخصص في الرياضيات من بين هؤلاء، لكن هذه أيضًا لغتها معقدة بالنسبة للجماهير.

(٣) العلم الشعبي هو طرح الموضوعات العلمية المتخصصة ولكن بأسلوب مبسط يتيح الفهم والتفاعل للمتعلمين، ولكل غير المتخصصين من الجمهور الواسع، ويعد مثل الجسر بين الكتابة العلمية المخصصة للمجلات العلمية وبين الجماهير، وقائمة الكتاب المؤثرين في العلم الشعبي تضم فرسان الإلحاد الجديد الأربعة.

https://en.wikipedia.org/wiki/Popular_science.

يمكن ملاحظة أن مكونات خطاب الإلحاد الجديد ولهجته الهجومية قد أصبحت سائدة عند كل الملحدين الجدد في العالم العربي، ونتج عن هذا بالتالي (ملحدون جدد) على نفس خطى فرسان الإلحاد الجديد.

أصدر ريتشارد داوكنز قرابة العشرين كتابًا منذ منتصف السبعينيات، وحقق أشهرها (وهم الإله The God Delusion) – صدر عام ٢٠٠٦ – أرقام مبيعات عالية تجاوزت الـ ٣ ملايين للنسخة الإنجليزية وحدها، كما ترجم إلى ٣٥ لغة.

أسلوب داوكنز في الكتابة سلس ومفهوم رغم تطرقه إلى موضوعات تعتبر «متخصصة» في علم الأحياء، وساهم هذا في تقريبه هو وأفكاره إلى الجماهير الواسعة، كما أن حضوره الشخصي وطلته «الإعلامية» زادا من تأثيره على الملايين من المتابعين الذين تحول داوكنز بالنسبة لهم إلى أيقونة عصرية تبشر بإلحاد مبني على نظرية التطور بحماس وشغف يشبه حماس وشغف دعاة الدين والوعاظ.

هناك مجموعة أفكار وأقوال رئيسية يكررها داوكنز في كتبه تعكس نمطًا من التفكير الذي يمكن رؤيته بسهولة عند أغلب المتأثرين بالإلحاد الجديد، على نحو يمكن تسميته بـ (متلازمة داوكنز).

والمتلازمة – طبيًا – تعني مجموعة من الأعراض المرضية التي تظهر بالتلازم مع بعضها ويكون سببها حالة مرضية واحدة.

والمعجم الغربي الشعبي قد ضم فعلًا تعريفًا لمتلازمة داوكنز[1]، لوجود مجموعة من الأعراض «الفكرية» المتلازمة التي يعود سببها غالبًا للتأثر به.

فما هي متلازمة داوكنز؟ وما هي أهم أعراضها؟

* * *

أولا - العلموية، بديلًا عن العلم: مصطلح العلموية scientism يشير إلى استخدام «العلم» كأيديولوجيا تعتبر أن المعرفة العلمية – المعتمدة على العلم التجريبي – هي المعرفة الوحيدة المهمة، والتي لها السيطرة والهيمنة على مجالات الفلسفة والعلوم الإنسانية الأخرى التي لا يمكن أن تنطبق عليها «منهجية العلم التجريبي»[2].

---

(1) Urban Dictionary: Dawkin's Syndrome
https://www.urbandictionary.com/define.php?term=Dawkin%27s+Syndrome

(2) Scientism - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Scientism

العلموية بتعريف آخر هي وجهة النظر التي ترى بأن الطرق الاستقرائية المميزة للعلوم الطبيعية هي المصدر الوحيد للمعرفة الواقعية الحقيقية، كما أنها وبشكل خاص تستطيع وحدها أن تسفر عن المعرفة الحقيقية بالإنسان والمجتمع[1]. وتعتبر «العلموية» بهذا مرتبطة بشكل أو بآخر بالمذهب الفلسفي الوضعي[2].

العلموية هي بطريقة ما «تقديس العلم» أو حتى «تأليه العلم»، وصولًا إلى كونها «دين يتعبد للعلم»[3].

نقاد العلموية لا يمكن اتهامهم بكونهم ضد العلم على الإطلاق، بل هم علماء بارزون، مثل كارل بوبر[4] الذي عَرَّف العلموية بكونها «التظاهر بمنهج علمي فيما يُظن خطأً أنه علمي» ومثل فريدرك هايك[5] الذي كان أول من وضع مصطلح العلموية، وعرَّفها بكونها «العبودية العمياء للمنهج واللغة العلمية».

ويعتبر البعض أن أقوى مثال على «العلموية» هو الاعتقاد بأن العلم لا حدود له، وأن كل المشاكل الإنسانية يمكن حلها - في الوقت المناسب - عبر العلم وحده.

وهذا الاعتقاد منتشر جدًا حتى عند أشخاص لا يعرفون أنهم يؤمنون بالعلموية، أو لم يسمعوا بها كمصطلح، بل إنه يعتبر كبديهة ومسلمة غير قابلة للنقاش عند كثيرين. وهي مما يتردد كثيرًا في الخطاب الإلحادي الذي يقدمه داوكنز.

داوكنز لم يخترع العلموية بالتأكيد، لكنه من أكثر أصواتها ارتفاعًا في موجة الإلحاد الجديد، وهو كذلك ليس فقط بالنسبة لنقاده من المؤمنين[6]، بل حتى نقاده من الملحدين

---

(1) Allan Bullock & Stephen Trombley (Eds), The New Fontana Dictionary of Modern Thought, London: Harper Collins, 1999, p.775.

(٢) الفلسفة الوضعية: هي إحدى فلسفات العلوم التي تستند إلى رأي يقول إن المعرفة الحقيقية هي المعرفة والبيانات المستمدة من التجربة الحسية، والمعالجات المنطقية والرياضية لمثل هذه البيانات والتي تعتمد على الظواهر الطبيعية الحسية وخصائصها والعلاقات بينهم والتي يمكن التحقق منها من خلال الأبحاث والأدلة التجريبية. كما تعد قسمًا من أقسام نظرية المعرفة. الفرق بينها وبين العلموية هو إصرار الأخيرة على مد المفهوم إلى العلوم الإنسانية ومحاربة أي مفهوم آخر.

(3) http://hilgart.org/enformy/Religion_of_Scientism.htm.

(٤) كارل بوبر (١٩٠٢ - ١٩٩٦) عالم بريطاني نمساوي، يعد أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين قاطبة.

(٥) فريدريك هايك Friedrich Hayek (١٨٩٩ - ١٩٩٢) اقتصادي وفيلسوف بريطاني نمساوي حاز جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية عام ١٩٧٤.

(6) Is the Only Real Knowledge Scientific Knowledge? | Catholic Answers
https://www.catholic.com/magazine/online-edition/is-the-only-real-knowledge-scientific-knowledge

الكلاسيكيين - إن جاز التعبير- الذين يرون أن الإلحاد الجديد قد ذهب بعيدًا عن العلم مع العلموية.[1]

ما هي أكثر أقوال داوكنز التي تتضح منها «علمويته»؟

* * *

تعريف داوكنز للإيمان: يُعرِّف داوكنز الإيمان بأنه «الثقة العمياء رغم غياب الدليل، بل بالضد من الأدلة التي تثبت العكس»[٢].

ويتكرر هذا التعريف كثيرًا بصيغ متعددة.

الإيمان بالله، حسب داوكنز، هو إيمان بلا دليل، بل هو إيمان رغم أن الأدلة تدل على عدم وجود الله.

وهو يستعمل دومًا عبارات «ازدرائية» ملحقة بالتعريف، تصف الإيمان بالغباء والشر.

لكن داوكنز هنا لا يفرق بين «الدليل evidence» و «البرهان» أو «الحجة» proof [٣].

المؤمنون عادة لديهم «أدلتهم» على إيمانهم، أدلة suggestive تشير لهم وتقودهم إلى التصديق والإيمان، ربما الأمر لا يتحول ليكون «حجة» أو«برهانا» conclusive - أي دليل قطعي ونهائي.

أدلة المؤمنين هي أدلة حسب معاييرهم هم، قد لا تكون مقنعة لسواهم، لكنهم في النهاية لا يؤمنون «دون دليل» كما يقول داوكنز، بل لأن الإيمان قدم لهم في النهاية، رؤية «متماسكة» عن العالم والكون من حولهم.

داوكنز يحاكم أدلتهم حسب معايير «العلم التجريبي» فيقرر أنها ليست موجودة، ولكن هذا مخالف للمنطق، لا يمكن محاكمة أدلة «الإيمان» حسب معايير «العلم التجريبي» إلا عندما يكون الأمر مؤدلجًا - أي علمويًا.. وهو كذلك بالتأكيد.

لكن حتى الأدلة «العلمية» - في أحيان كثيرة، لا تكون قاطعة ونهائية، بل تكون «مقترحة» وتتعاضد مع أدلة أخرى لتدعم «نظرية» ما، تقدم تفسيرًا للظواهر الطبيعية، من هذه

---

(1) New Atheism and the Scientistic Turn in the Atheism Movement
https://philpapers.org/archive/PIGNAA

(٢) كتابه الأول وتكرر بعدها كثيرًا The Selfish Gene.Richard Dawkins. pp١٧٧.

(3) Mehdi Hasan vs Richard Dawkins: My faith in God is not foolish.Mehdi Hasan. 19 December 2012
https://www.newstatesman.com/religion/2012/12/god-best-answer-why-there-something-rather-nothing

النظريات: نظرية الانفجار العظيم، نظرية الجاذبية، نظرية التطور.. كل هذه النظريات المقبولة علميًا لا يوجد عليها «دليل» واحد قاطع ونهائي، لكن هناك مجموعة من الأدلة تتعاضد لتدعم النظرية وتحقق لها القبول[1].

ليس هذا فقط، بل إن داوكنز نفسه أحيانًا «يؤيد» نظرية لم يتوفر لها دليل علمي يؤيدها، مثل نظرية الأكوان المتعددة[2]. لماذا الأكوان المتعددة مقبولة وليس وجود الله - على سبيل المثال - رغم عدم وجود الدليل «العلمي» - حسب معايير داوكنز - لهما معًا؟

يرد داوكنز: لأن فكرة الأكوان المتعددة «فكرة بسيطة»، بينما «وجود إله عاقل قادر على الخلق» فكرة معقدة، وهذا يجعل فكرة الأكوان المتعددة أكثر احتمالاً [3] (رغم أنها تتطلب وجود عدد غير محدود من الأكوان بقوانين مختلفة لكل منها، كما مر سابقًا، ورغم أنها أصلًا لا تقدم بديلًا لوجود إله، بل تؤجل ضرورة وجوده فحسب).

لماذا هذه الفكرة أكثر احتمالاً من وجود إله؟ لا شيء «علمي» يبرر هذا التفضيل، لكننا نعرف دومًا أن «المؤدلجين» يتحيزون لصالح أيديولوجيتهم عندما يشعرون أنها في خطر، وبالتأكيد فإن فكرة وجود إله خالق تهدد منظومة الإلحاد الجديد، ولذا يجب إسناد أي فكرة بديلة حتى لو كانت بلا دليل علمي، وهو اتهامهم الأصلي لفكرة وجود الله.

إيمان مطلق بقدرة العلم على تقديم الأجوبة: يقول داوكنز إن نظرية التطور حسب الانتقاء الطبيعي قدمت «رافعة البناء» بالنسبة لعلم الأحياء، لتكون بديلًا عن «القطعة المعدنية المعلقة في السماء» (ويقصد هنا أن نظرية التطور قدمت الأجوبة في مجال نشوء الحياة لتكون بديلًا عن التفسيرات الدينية التي يعدها خرافية مثل قطعة معدنية معلقة في السماء) ولكنه يعترف أن لا رافعة مماثلة حتى الآن في علم الفيزياء لتقدم جوابًا عن نشوء الكون. يقول إن ثمة «رافعات» متعددة لكنها ضعيفة.

وهو في الوقت نفسه واثق تمامًا من قدرة العلم على تقديم هذه الرافعة لاحقًا[4].

هذه الثقة بالعلم هي «إيمان» دون دليل، بالضبط كما يتهم هو الإيمان بوجود الله بكونه دون دليل، المؤمنون لديهم ما يستدلون به، وهو أيضًا يمكنه أن يقول إنه يستدل بالتطور العلمي

(1) Scientific Proof Is A Myth
https://www.forbes.com/sites/startswithabang/2017/11/22/scientific-proof-is-a-myth/#4ab5306c2fb1

(2) God Delusion p 156

(3) God Delusion p 146

(4) God Delusion p 158

الذي تحقق في القرون الأخيرة ليصل إلى نتيجة «يؤمن بها» مفادها أن العلم سينتصر ليقدم كل الأجوبة. وهذا من حقه. لكنه لن يكون دليلًا علميًا، بل مجرد استدلال ليس أقوى على الإطلاق من استدلالات المؤمنين على وجود إلههم.

القطيعة مع الفلسفة:

ما كان يمكن للعلموية إلا أن تحقق قطيعة مع الفلسفة، لأن الأخيرة في النهاية تنتمي لفصيلة العلوم الإنسانية التي لا تعترف بها العلموية وتعتبرها تابعة للعلوم التجريبية، خاصة أن أهم فلاسفة العلم (مثل بوبر) ناصبوا العلموية وشعاراتها العداء منذ البداية.

والحقيقة أن «استغناء» ممثلي الإلحاد الجديد عن الفلسفة أمر صريح وواضح، فداوكنز قد ذكر صراحة في أول مؤلفاته (لا تزال الفلسفة موجودة كما لو أن داروين لم يأت بنظريته، لكن هذا لن يستمر طويلًا)[1] كما ينقل - بإعجاب وتأييد - عن عالم البيولوجيا جورج جايلورد سمبسون[2]: كل الإجابات عن أسئلة من نوع «ما هو هدف الإنسان، ما هو الإنسان، هل يوجد هدف في الحياة؟» قبل داروين كانت غير مهمة، ومن الأفضل الآن تجاهل هذه الأسئلة[3].

الأيديولوجيات عادة ترفض طرح الأسئلة والتشكيك لأنها تتعامل مع ما تؤمن به من شعارات بطريقة صلبة وثابتة غير قابلة للنقاش، ونرى هنا الشيء ذاته مع «الأصولية الإلحادية»: من الأفضل تجاهل هذه الأسئلة.

ينقل داوكنز عن صديق له في حوار لهما عن الهدف من وجود البشر على الأرض: لا أعتقد أننا هنا لأي سبب على الإطلاق، نحن مجرد نتاج للتطور، يمكن لهم أن يقولوا إن حياتنا فارغة لأننا لا نؤمن بوجود هدف لها، لكني أترقب وجبة غداء جيدة هذا اليوم.

ويعلق داوكنز: وقد حصلنا فعلًا على وجبة جيدة[4].

وهكذا فإن الأسئلة التي شغلت البشرية منذ بزوغها والتي ابتدأت بـ «لماذا»، والتي كانت تبحث عن أهداف وغايات الوجود، لم يعد لها أهمية كبيرة، وصار يمكن أن يكون الجواب عنها

(1) Selfish Gene, Richard Dawkins, why are people, pp9

(٢) جورج جايلودر سمبسون George Gaylord Simposon (١٩٠٢ - ١٩٨٤) أهم عالم أحافير في القرن العشرين، تخصص بالثدييات المنقرضة وقدم مؤلفات مهمة عن نظرية التطور.

(3) Selfish Gene,ibid,pp8

(4) God Delusion.Richard Dawkins. p 100

هو نفس الجواب عن أسئلة «كيف» والتي استطاعت العلوم «التجريبية» تقديم إجابات عنها، بل صارت تختزل بوجبة غداء جيدة.

بل إن داوكنز يمضي إلى ما هو أكثر من هذا، إذ يقول إنه «لا يتخيل كونه ملحدًا قبل عام ١٨٥٩ - السنة التي أصدر فيها داروين كتابه أصل الأنواع»، أي أنه يقول إن كل تراث الفلسفة الإلحادية قبل داروين لم يكن مقنعًا، ولم يعد له لزوم بعد داروين، وعندما يذكر أن صديقًا له سأله: حتى هيوم[1]؟ أجابه داوكنز: حتى هيوم، لأن هيوم لم يقدم تفسيرًا لتعقيد الطبيعة، بل قدم نقدًا لمنطق استخدام تعقيدها ليكون دليلًا على خالق، لكنه لم يقدم بديلًا[2].

وهكذا، حسب داوكنز، كل إلحاد قبل داروين - الذي لم يلحد! - كان لا داعي له.

والحقيقة أن انفصال الإلحاد الجديد عن التراث الفلسفي الوضعي يعد ظاهرة واضحة جدًا في موجة الإلحاد الجديدة التي انتشرت في البلدان العربية عقب ٢٠١١، وهو ما سبب إرباكًا في طرق الرد على الملحدين، لأن أغلب الردود السابقة كانت تستند على التفاعل مع نقاش فلسفي غالبًا، وهو أمر نُحِّيَ جانبا في الإلحاد الجديد إلى حد كبير، مما جعل «تراث الردود على الإلحاد» أقل قدرة على الرد.

* * *

من الأمثلة التي يمكن إيرادها لبيان ضعف الطرح الفلسفي لداوكنز، ما يسميه هو (الحجة الرئيسية central argument) في كتابه (وهم الإله) ويلخصها بست نقاط متسلسلة.

أولًا - من أعظم التحديات للعقل الإنساني عبر القرون كان محاولة تفسير كيف نشأ الكون بما يبدو أنه تصميم معد مسبقًا.

ثانيًا - الميل الطبيعي هو في تفسير ما يبدو كتصميم إلى وجود مصمم. في حالة العثور على ساعة من صنع الإنسان فإن وجود «مهندس مصمم» هو التفسير الصحيح للأمر، من المغري أن يتم استخدام نفس الفكرة على «جناح الطائر» أو «العين» أو أي كائن حي أو عضو من أعضائه.

(١) ديفيد هيوم David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) فيلسوف بريطاني كان من أوائل فلاسفة المذهب الطبيعي وكان ملحدًا ناقدًا لفكرة وجود الله وللأديان ورسالاتها.

(2) The Blind Watchmaker.Richard Dawkins. p 6-7

ثالثًا - هذا الإغراء مزيف، لأنه يؤدي إلى مشكلة أكبر، مشكلة من صمم المصمم؟ المشكلة بدأت عندما حاولنا تفسير «ما هو قليل الاحتمالية» (أي وجود تصميم مسبق في الطبيعة) باحتمالية أقل (أي وجود مصمم خالق للطبيعة).

رابعًا - نظرية التطور عبر الانتقاء الطبيعي هي التفسير الأقوى لما يبدو أنه تصميم في الطبيعة، والنظرية عبر اكتشافاتها تثبت أن التطور التدريجي البطيء لا يدع مجالا لبقاء فكرة التصميم.

خامسًا - ليس لدينا في الفيزياء نظرية مماثلة في القوة لنظرية التطور في البيولوجيا، والموجود حاليًا لا يعدو أن يكون محاولات ضعيفة لا تكفي لتفسير نشوء الكون.

سادسًا - يجب ألا نفقد الأمل في ظهور نظرية فيزيائية تقوم مقام نظرية التطور، لكن حتى الآن، وحتى في ظل النظريات الضعيفة المتوفرة اليوم، وعندما تعضد مع مبدأ الأنثروبي، فإنها تبقى أفضل من فكرة وجود مصمم ذكي[1].

هذه هي «حجة النقاش الرئيسية» التي يستخدمها داوكنز في أهم كتبه للحديث عن «وهم وجود الله»، وهو بنفسه من حدد ذلك، كون هذا النقاش هو النقاش الرئيسي في كتابه.

يعلق الفيلسوف وليام لاين كريغ على هذا: هذه الحجة في النقاش تفتقر إلى التماسك، لأن النتيجة التي تصل لها (... من المؤكد تقريبًا عدم وجود إله) تأتي فجأة ومن دون استناد إلى أي مقدمة موجودة في الجمل الست التي وضعها داوكنز. لا تحتاج أن تكون فيلسوفًا لكي تدرك عدم وجود رابط بين المقدمات التي قدمها داوكنز وما توصل له، لا توجد أي قواعد منطقية يمكنها أن تقود إلى هذا الاستنتاج عبر هذه المقدمات، كما أن داوكنز يتعامل مع «فرضية التصميم» كما لو كانت الحجة الوحيدة التي تستخدم في الاستدلال على وجود الله[2].

إله الفراغات God of Gaps

إله الفراغات أو الثقوب، هو تعبير يستخدمه داوكنز كثيرًا في خطابه ضد مفهوم الإله[3]، رغم أنه استخدم للمرة الأولى من قبل الطرف الآخر، الطرف المؤمن بالله.

---

(1) The God Delusion.Richard Dawkins, 157-158

(2) Contending with Christianity's Critics: Anwering New Atheists and Other Objectors: Paul Copan and William Lane Craig.p3-4

(3) The God Delusion.Richard Dawkins,p 126

يقصد بالمصطلح، أن (الله) عز وجل صار يُستخدم فقط لسد النقص أو الفراغات الموجودة في المعرفة العلمية، أي في المناطق التي لم يجد العلم فيها (بعد) تفسيرًا، هنا يتم استخدام الله لتغطية هذا النقص.

ومن هنا جاءت تسمية إله الفراغات.

المصطلح يستخدم من قبل داوكنز على هذا النحو: إله الفراغات يتقلص باستمرار كلما زادت المعرفة العلمية وتقدمت، شيئًا فشيئًا، عدد الفراغات في المعرفة العلمية يقل تدريجيًا، وبالتالي يتقلص حجم وتأثير إله الفراغات الذي لا عمل له سوى التغطية على النقص في المعرفة.

من وجهة نظره، هذا هو الوصف المناسب لله في عصر العلم.

لكن الحقيقة هي أن المصطلح استخدم أصلًا من قبل «مؤمنين» كانوا يحاربون هذه النظرية التي تتعامل مع أي نقص في المعرفة العلمية على هذا النحو[1].

نعم هناك فراغات في المعرفة العلمية، وهناك حدود للعقل الإنساني (داوكنز نفسه يقر بذلك[2]) لا يمكن إنكار هذا، لكن لا أحد حقًا يفكر في هذه الفراغات باعتبارها السبب الذي يؤمن به، أغلب المؤمنين يؤمنون أن الله ينفذ قدرته من خلال قوانين وسنن وضعها بنفسه عز وجل، عدم معرفة هذه القوانين لا يزيد ولا ينقص من الإيمان بالله، ومعرفتها لا تنقص من الإيمان به، على العكس، غالبًا تزيد، إذ تسلط الضوء على قدرته وقوته وتدبيره، نادرون هم أولئك الذين يؤمنون بالله باعتبار تعامله مع الظواهر الطبيعية مباشرًا - أوليًا ومن غير قوانين «ثانوية» تحقق ما يريد.

فكرة تقلص الإله بسبب التقدم العلمي فكرة تتعامل مع مفهوم بدائي جدًا للإله، مفهوم ربما كان شائعًا عند إنسان الكهوف، لكن أغلب المؤمنين اليوم - ومنذ قرون!- يؤمنون بوجود سنن لن يفسد الكشف عنها إيمانهم بالله (أغلب الناس اليوم يقولون «سبحان الله» أمام قناة National Geographic أكثر مما يفعلون أمام أي قناة دينية).

---

(1) Charles Alfred Coulson (1955) Science and Christian Belief, Oxford University Press, p. 20, Fontana Books 1958 and later (paperback) p. 32.

https://www.asa3.org/ASA/PSCF/1963/JASA12-63Harris.html

(2) A Devil's Chaplain Richard Dawkins.p19

في الحقيقة أن «إله الفراغات» يمكن أن يكون مناسبًا أيضًا - وضمن نفس المنطق - مع «العلموية» نفسها، فمستخدمو مصطلح «إله الفراغات» ينسون أن ثمة فراغات في المعرفة العلمية وثمة حدود للعقل في تعامله مع هذه الفراغات، ولكنهم رغم ذلك يؤمنون بقدرة «العلم» على تقديم كل الحلول، وكلمة «إيمان» هنا مشابهة جدًا للإيمان بالله - كما يعرفه داوكنز: ثقة دون دليل.

ماذا لو نظرنا إلى الأمر كما لو كان (فراغات) موجودة في لغز - أحجية الصور المتراكبة Puzzle، وجود هذه الفراغات أو النواقص في الصورة، لا ينتقص من فهمك واستيعابك لطبيعة (الصورة الكاملة)، أنت تعرف أن هذه صورة بحر أو غابة أو أي صورة أخرى، عدم قدرتك على إيجاد (القطعة الناقصة) هنا أو هناك، لن يغير من حقيقة أنك تعرف الصورة الكاملة. أنت ببساطة تراها وتفهمها، تبصرها، حتى لو لم تكن قد وجدت القطع الناقصة.

أنت تنظر للصورة الكبيرة، الشاملة. وهذا يجعلك تفهم ما ستؤدي له القطع الناقصة عندما تجدها..

هو إذن ليس إله الفراغات المتقلص باستمرار..

بل إله الصورة المكتملة الكبيرة..

لن تترك الصورة الكبيرة التي تفهمها وتستوعبها، وتركز على قطعة ناقصة واحدة هنا أو هناك.

أنت تؤمن بإله الصورة المكتملة الكبيرة، الذي سيتكرس إيمانك به أكثر فأكثر كلما وجدت - أو وجدوا هم!- قطعة مفقودة أخرى..

إله العلموية الذي لا يرد على الأسئلة..

يقول داوكنز في ختام كتابه (قصة الأجداد: رحلة حج إلى فجر الحياة): **كان يمكن للكون بسهولة أن يبقى كما هو: بلا حياة، وبلا تعقيد. فقط فيزياء وكيمياء (= لا بيولوجيا)، فقط الغبار المتناثر الناتج عن الانفجار العظيم الذي انبثق منه الوقت والمكان، لكن حقيقة أنه لم يبق كذلك، وأن الحياة انبثقت من تقريباً (لا شيء)، كما انبثق الكون نفسه عشر مليارات سنة قبل ذلك من حرفيًا لا شيء، هي حقيقة مذهلة سأكون مجنونًا لو حاولت التعبير عنها**

بكلمات.. أكثر من هذا، أن الأمر لم ينته هنا، لكن عملية التطور حدثت أيضًا، وأنتجت كائنات يمكنها أن تفهم ما تفهم الآن»[1].

هكذا ختم داوكنز كتابه الذي يتحدث عن تاريخ الحياة على الأرض.

داوكنز يقول هنا: (لا شيء) قاد إلى (كل شيء) في مرتين..

المرة الأولى عندما وُلِد الوقت والمكان، والمرة الثانية عندما وُلِدَت الحياة.

لا تفسير لديه لهذين الحدثين، لدرجة أنه يعجز عن التعبير عن الأمر.. العلم إذن لم يقدم أي جواب على

أهم سؤالين يخصان «وجودنا» كله.. يخصان «رحلة الحياة» التي كتب داوكنز كتابه عنها.. أولهما سؤال وجود الأرض والكون، وثانيهما سؤال وجودنا نحن..

توجد فراغات هنا، لكنها فراغات في مفاصل مهمة جدًا، فراغات في أساس البناء على نحو يجعل البناء كله في «مهب الريح».

العلم ليس مُتهمًا هنا لأنه لم يقدم أجوبة، لأن هذا ليس مجاله أصلًا، ولكن هذه الفراغات هنا هي التي يجب أن تتيح المجال لنوع آخر من الأجوبة.. لمصدر مختلف من الأجوبة، لا يعتمد بالضرورة على «العلم بمعناه التجريبي».

لكن الذي يحدث حاليًا، هو أن هذه الفراغات تجعل البعض يصرفون النظر عن الأسئلة التي بلا أجوبة، يقررون أن عليهم (انتظار وجبة غداء جيدة) بدلًا من البحث عن أي جواب آخر..

ثانيًا – مغالطة رجل القش، مهاجمة نسخة ((مشوهة)) من الدين:

مغالطة رجل القش سبق ذكرها في الفصل الأول، وتعتمد على تشويه حجة الخصم، ثم مهاجمة النسخة المشوهة منها وليس النسخة الأصلية، وهي شائعة جدًا عند الطرفين، لكن بسبب مكانة داوكنز الأكاديمية فإن كثيرين يعتمدون «نسخة القش» التي يقدمها باعتبارها «النسخة الأصلية»، مكانة داوكنز هنا هي مثل مكانة «رجال الدين» بالنسبة لأتباعهم، كل ما يقولونه يحمل «ختم القداسة» ولا يتم تدقيقه، بالنسبة لرجال الدين كان ختم القداسة دينيًا، وبالنسبة لداوكنز ختم القداسة هو العلموية متقنعة برداء العلم المبهر للجماهير.

(1) The Ancestor's Tale: A Pilgrimage to the Dawn of Life Richard Dawkins,p506

ما يقدمه داوكنز أساسًا هو «إله من قش» مكون أحيانًا من أوصاف سلبية تعبر عن رأي داوكنز – أو ملحدين آخرين – بهذا الإله، ولا تتفق مع «رؤية غالبية المؤمنين» لمعبودهم، ومن ثم يقوم بمهاجمة إله القش هذا بناء على ما قدمه من أوصاف.

مثال على ذلك ما قاله داوكنز عن إله «العهد القديم»: «يمكن القول إنه أكثر شخصية كريهة في كل الأدب العالمي، غيور وفخور بغيرته، ظالم، متسلط وغير متسامح، محب للانتقام، متعطش للدم، ومحب للتطهير العرقي، كاره للنساء والمثليين، عنصري، قاتل للأطفال، يقوم بتطهير عرقي، قاتل لأبنائه، مسبب للأوبئة، مجنون بالعظمة، سادي ومازوشي في آن واحد، متنمر، نزق وحقود.»[1]

عمن يتحدث هنا؟ عن إله العهد القديم.

فنلاحظ هنا ثلاث ملاحظات رئيسية تشكل الأساس في منهج داوكنز في طرح «فكرة الله»..

الأولى – أنه يقدمه منذ البداية كشخصية خيالية، يقارنها بالشخصيات الشريرة في «الأدب العالمي»، أي أنه يضع «وهميته» كمقدمة أساسية، ثم يصل بعدها إلى أنه «وهم». هذه مغالطة من الأساس لو كان خطابه موجهًا لمؤمن بالله، ولكنه غالبًا يوجهه لمن يقف في موقف وسطي أقرب إلى الإلحاد منه إلى الإيمان.

الثانية – أنه لا يقدم الإله كما يؤمن به المؤمنون به، بل يقدمه كما يفعل «ناقد». يمكن لداوكنز أن يجد «نصوصًا» في العهد القديم تؤيد كل صفة من الصفات التي ذكرها، لكن هناك نصوصًا أخرى، وربما أكثر بكثير، تقدم صفات معاكسة تمامًا، لكن داوكنز يتجاهلها تمامًا لأنها لا تخدمه في «صنع إله القش» الذي يريد مهاجمته، لأن ذلك أسهل له من مهاجمة «الإله الحقيقي» الذي يجب أن يأخذ صفاته من مجمل النصوص، والأهم من هذا: أن يقدمه كما يراه المؤمنون به.

الثالثة – أن كل هذا لا علاقة له بالموضوع. موضوع وجود الله. كون الله شخصية لطيفة أو عكس ذلك أمر لا علاقة له بوجوده. هتلر كان مجرمًا، وشخصًا أبعد ما يكون عن اللطف، وربما لديه نفس الصفات التي أسبغها داوكنز على إله العهد القديم، ولكن هذا لا يعني أنه كان «وهمًا» وأنه غير موجود. مسألة «صفات الإله» لا تصح أن تكون مدخلًا لمناقشة وجود الله.

(1) The God Delusion, Richard Dawkins, p 31

لكن داوكنز يعمد إلى ضرب إله القش الذي صنعه، لكي يكسب موقفًا ضد مبدأ وجود الإله، بحيث أن مسألة عدم وجوده ستكون «أفضل» بما أنه «شرير».. هكذا، رغم أن الأمر لا يمس وجوده بشكل مباشر أو غير مباشر.

استراتيجية «إله القش» هذه، يمكن اعتبارها منهجًا ثابتًا عند داوكنز، يتم التركيز على مساوئ المتدينين، ومساوئ التجربة الدينية بالعموم، ويتم استبعاد أي صفة معاكسة، لتقديم «إله القش» أو «دين القش» الذي يمكن نقده والهجوم عليه بطريقة أسهل مما لو قدم بطريقة كاملة، هكذا فالدين لم يجلب إلا الحروب والتعاسة والمآسي للبشرية - ولم ينتج إلا أشخاصًا إما قدريين مستسلمين لأقدارهم أو مستغلين للدين لكي يحققوا مكاسب، يُختصر تاريخ الأديان في العالم على هذا النحو، كما لو أنه لم ينتج أي أشياء إيجابية، أي ازدهار، أي أعمال خيرية، مرتبطة بالأديان.

يتم تقديم الجزء الأكثر تطرفًا، الأكثر خرافية، الأكثر فشلًا ودموية، من كل التجارب الدينية، ويحذف منها كل ما هو مزدهر وعادل، ثم يُقال (هذا هو الدين).

خلال هذا، لا يتم تجاهل فقط الإيجابيات، بل هناك - عند الاضطرار- تعمد لتشويهها وإخراجها من سياقها، كما يحدث مثلًا مع «الأم تيريزا»[1] التي يصفها كريستوفر هتشنز - زميل داوكنز آنف الذكر - بأنها «ملاك جهنم»[2] ويؤيده داوكنز في ذلك بحماس[3].

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك، تجاهله لأشياء كثيرة يمكن أن يكون حرقها أصعب عليه، والذهاب إلى نقاط يمكنه إبراز قوته عليها أكثر، فمثلًا عند الحديث عن الاستدلال المنطقي على وجود الله، يتجاهل داوكنز النسخ الحديثة والأكثر قوة وشعبية من الاستدلال (مثل ويليام كريغ عن الغزالي التي مرَّ ذكرها) ويناقش استدلال توماس الأكويني أو جزء منه على الأقل (كما مر سابقًا في...)، وهكذا يقدم داوكنز للقارئ غير المتخصص الأمر كما لو أن هذا هو كل الاستدلال المنطقي على وجود الله (قدم هنا دمية من القش)، ومن ثم يقدم «نقاط ضعف»

(١) الأم تيزيزا (١٩١٠- ١٩٩٧) راهبة كاثوليكية من أصول ألبانية هندية، عرفت بالعمل الخيري الدولي على نطاق واسع خصوصا في مساعدة الأطفال والمشردين وضحايا المجاعات والأوبئة، منحت جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٩ .

(2) Hell's Angel (documentary) - Wikipedia

(3) Richard Dawkins على تويتر: «If anyone out there still thinks Mother Teresa deserves sainthood, they obviously haven't read Christopher Hitchens: The Missionary Position»

https://twitter.com/richarddawkins/status/677920143264112641?lang=ar

لهذا الاستدلال، بحيث يبدو كما لو أنه يحرق «وجود الله»، بينما هو يحرق دمية قش مكونة من استدلال كلاسيكي واحد يحرص داوكنز على تجاهل سواه[1].

الخطة هي كما يلي: لكي تحرق الدين أو الإله، يجب أن تحوله أولًا إلى قش، عبر بنائه من جديد من القش، وبعد ذلك يسهل حرقه.

ويبقى كل ذلك، لا علاقة له - من قريب أو من بعيد - بالموضوع الرئيسي: وجود الله سبحانه وتعالى.

ويمكن ملاحظة أن هذا هو ما حدث تمامًا مع النسخة العربية من «الإلحاد الجديد»، حيث تعامل الملحدون الجدد مع الإسلام بنفس طريقة «إله القش»، يتم من خلالها التركيز على «صورة معينة» - قد لا تمثل أكثر من جزئية لا يؤمن بها أغلب المسلمين - ويتم التعامل مع هذه الصورة على أنها «الإسلام» على نحو يسهل مهاجمتها وحرقها.

وهكذا تصبح «داعش» هي الممثل الرسمي و «المفضل» للإسلام بالنسبة للملحدين الجدد، لأنها تقدم لهم «إله القش» جاهزًا، على نحو يُسهِّل مهمتهم في الحرق والتدمير.

بنفس المنحى، يمكن ملاحظة أن جهود العرب من الملحدين الجدد تنصب على التركيز على جزئيات صغيرة والحديث عنها (إرضاع الكبار، بول البعير، زواج السيدة عائشة.. إلخ) رغم أنها لا علاقة لها مباشرة بما يفترض أنه الموضوع الرئيسي للإلحاد: وجود الله.

هذا النوع من المغالطات ليس جديدًا بالتأكيد ولم يكن من اختراع داوكنز حتمًا، لكن الجديد الذي قدمه داوكنز هنا هو أن هذه المغالطات عادة لا يتورط فيها «الأكاديميون العلميون» - على الأقل ليس بهذه الكثافة. أما ريتشارد داوكنز فقد اختار الأمر منهجًا ثابتًا، رصد البعض في كتابه «وهم الإله» حوالي ١٢ نوعًا من أنواع المغالطات المنطقية[2]. بل إن كثيرين من الملحدين

---

(1) The God Delusion 80

(2) Richard Dawkins Debunked: A Dozen Logical Fallacies in The God Delusion
http://www.mountainretreatorg.net/apologetics/richard-dawkins-debunked.shtml
AN INTRODUCTION TO LOGICAL FALLACIES DAWKINS' THE GOD DELUSION Alper Bilgili European Journal of Science and Theology, June 2012, Vol.8, No.2, 39-46
http://www.ejst.tuiasi.ro/Files/30/Bilgili(4).pdf

(ممن لا ينتمون لهذا التيار الإلحادي الجديد) كثيرًا ما يعلنون ضيقهم من مغالطات داوكنز ويقولون إنه يسيء لسمعة الإلحاد[١].

فلنسجل هنا أن بعض هذه المغالطات (مثل مغالطة الشخصنة) تُستخدم على نطاق واسع على المنابر من قبل الطرف المتدين (أن يفند رأيًا ما فقط لأن قائله غير متوافق مع قيم معينة بغض النظر عن صحة هذا الرأي أو واقعيته) وهذه المغالطة تنتقل مع داوكنز في نظرته إلى الطرف الآخر، حيث يرفض مختلف الآراء العلمية الصادرة عن شخصيات لها مكانتها العلمية المحترمة فقط لأن هذه الشخصيات تؤمن بوجود الله أو انتقلت من الإلحاد إلى الإيمان، فهو يقول إن معظم العلماء الذين يقولون إنهم مؤمنون هم مؤمنون بالمعنى (الإينشتايني - المجازي) للكلمة، وليس بالمفهوم التقليدي، وعندما يتأكد أنهم «مؤمنون» بالمعنى التقليدي المباشر فإنه يلمح إلى أنهم يقولون ذلك بسبب جائزة تمبلتون[٢] (مليون جنيه استرليني)[٣] والتي يقول إنها تمنح للعلماء «المستعدين لقول شيء لطيف عن الدين»، كما قال ذلك صراحة عن بول ديفيز.[٤]

ثالثًا - التفسير الآلي كتفسير وحيد للعالم

التفسير الآلي[٥] mechanistic explanation هو التفسير الذي يعتمد على فهم «الآليات mechanisms» التي تنتج ظاهرة طبيعية خاصة مرتبطة بوظائف الأعضاء الحيوية، حيث يُقدم التفسير الآلي نموذجًا لتفسير وظيفة العضو غالبًا عبر تفسير وظائف متتابعة لأجزاء منه[٦].

---

(1) Richard Dawkins has lost it: ignorant sexism gives atheists a bad name | Adam Lee | Opinion | The Guardian https://www.theguardian.com/commentisfree/2014/sep/18/richard-dawkins-sexist-atheists-bad-name

(2) Templeton Prize - Wikipedia

(3) The God Delusion: Dawkins, 101

(4) The God Delusion 26

(٥) كلمة «الآلي» هنا تعود إلى «الآليات» وليس إلى «الآلات» كما يمكن أن يُفهم من المفردة.

(6) Cummins, R (2000), '«How Does it Work» Vs. «What are the Laws?» Two Concepts of Psychological Explanation', in F Keil & RA Wilson (eds), Explanation and Cognition, Cambridge, MA: MIT Press.

Bechtel, W & Abrahamsen, A (2002), 'Explanation: A Mechanistic Alternative', Studies in History and Philosophy of Science Part C: Studies in History and Philosophy of Biological and Biomedical Sciences, vol. 36, no. 3, pp. 421-41.

يصف داوكنز نظرية التطور حسب الانتقاء الطبيعي بأنها تقدم «تفسيرًا آليًا للكيفية التي تبدو فيها الكائنات الحية كما لو كانت مصممة مسبقا»[1].

بالتأكيد لا يمكن التقليل من أهمية التفسير الآلي باعتباره التفسير العلمي المباشر الذي يفتح «الصندوق الأسود» الخاص بهذه الظواهر، المشكلة هي عندما يتحول التفسير الآلي ليكون التفسير الوحيد وكل ما عداه مرفوض ومتجاهل.

لكن كيف يمكن أن يكون هناك أكثر من تفسير لظاهرة واحدة؟

هناك مستويات مختلفة من الرؤية ولكل منها ما يناسبها من تفسيرات - لا تعارض بينها - ولكن تجيب عن أسئلة من نوع مختلف.

التفسير الآلي - الذي يبحث في آليات ظاهرة معينة - يجيب عن سؤال: كيف؟

لكن جواب «كيف» لا يصلح لأن يكون جوابًا لأسئلة مختلفة، مثل سؤال: لماذا؟

كمثال تبسيطي: عندما يُقدَّم التفسير الآلي ليطبق على سؤال: لماذا يهبط المطر؟ يكون الجواب: يتصاعد بخار الماء من الأرض ثم عندما يواجه درجات حرارة منخفضة يتكاثف على شكل جسيمات صغيرة في الحجم تسمى «نويات التكاثف» والتي تشكل بدورها «السحب» وعندما تتجمع المزيد من الجسيمات تصبح أثقل حجمًا فتهبط على شكل قطرات مطر، أو يحدث ذلك عندما تواجه درجات حرارة مرتفعة.

هذا الجواب هو الذي يقدمه التفسير الآلي.. على سؤال «لماذا يهبط المطر؟».. يقدم تفسيرًا للآليات التي يتكون المطر من خلالها.. لكن هذا الجواب في الحقيقة يصلح لأن يكون جوابًا لسؤال «كيف يهبط المطر؟».. هو جواب عن «الكيفيات» وليس عن «الهدف والغرض من نزول المطر»، لكن سيادة التفسير الآلي جعلتنا بالفعل نفقد القدرة على التمييز بين الـ «كيف» والـ «لماذا».

ما هو الجواب المناسب البديل لسؤال: «لماذا ينزل المطر؟» بعد استبعاد التفسير الآلي؟

الجواب البديل يجب أن يأخذ الصورة الأكبر، يخرج عن مخطط «دورة المياه في الطبيعة» إلى «مخطط العالم ككل».. إلى الحياة عمومًا، إلى «الغاية» و «الغرض» من كل شيء.. هذه منطقة أخرى بعيدة عن نطاق قدرة «التفسير الآلي» وتحتاج إلى معطيات مختلفة ولغة مختلفة.

---

(1) Replicators and Vehicles, Richard Dawkins.

http://www.richarddawkins.net/wp-content/uploads/2014/06/Replicators-and-Vehicles.pdf

إذن لماذا ينزل المطر؟.. يعتمد الجواب على إيمانك بوجود «غاية» أو هدف من هذا الوجود، لذا لدى المؤمنين جواب يتعلق بإرادة الله وسننه وتسييره للحياة.. بغض النظر عن مفهومهم لهذا الإله.

لكن بالنسبة لكثيرين، من ضمنهم داوكنز بالتأكيد، فلا مجال لوجود هذا التفسير «الغائي». التفسير الآلي وحده هو المقبول، ويستخدم - في نسخة واحدة - كجواب عن «كيف» و «لماذا».. ذلك أنهم لا يؤمنون بوجود أي هدف أو غاية أو غرض من هذه الحياة، أو من هذا الكون ككل.

يقول داوكنز في كتابه: «**نهر خارج من عدن- وجهة نظر داروينية**»: «عندما نتفحص الكون، سنرى أنه بلا تصميم، بلا غاية، لا خير، لا شر، لا شيء سوى اللا مبالاة العمياء بلا أي تعاطف.. الأمر كما قال الشاعر الحزين أ. ي. هاوسمان:

لأن الطبيعة.. الطبيعة الصماء القاسية..

لن تهتم.. ولن تعرف!

الـ DNA كذلك لن يهتم ولن يعرف. الـ DNA مجرد DNA.. ونحن نلبي أوامره، نرقص على إيقاعاته»[1].

سؤال «الغاية» و «الهدف» إذن مرفوض أصلًا، وكما مر سابقًا: من الأفضل تجاهل هذه الأسئلة[2].

* * *

التفسير الآلي، كما هو واضح، ليس من اختراع داوكنز حتمًا.

لكن داوكنز قدم بلغته البسيطة السهلة المقربة من الجمهور - التفسير الآلي لنشوء الحياة - أو أعضاء حيوية مهمة - بطريقة مقنعة وسلسة، على نحو جعل ما يقدمه منطقيًا ومتقنًا.

وبالفعل ما يقدمه قد يكون مقنعًا ومتقنًا، لكنه يصلح ليكون جوابًا عن «كيف»، عن الطرق التي حدث بها هذا النشوء، وليس عن «لماذا؟» أو «مَنْ؟».

بالنسبة لداوكنز: هذا التفسير هو الوحيد المقبول، للإجابة عن كل الأسئلة.

---

(1) River Out of Eden: A Darwinian View of Life, Richard Dawkins.p133

(2) Selfish gene, pp8

صانع الساعات ، أعمى أم أن من تفحصه لم يدقق؟

كمثال على ما سبق، يقدم داوكنز أمثلة كثيرة عن تطور الأعضاء في مختلف أنواع الكائنات الحية، عمليات تطورية بطيئة، حدثت عبر مدة زمنية طويلة، وعبر أجيال متتابعة، وهو يرى أن الانتخاب الطبيعي - صانع الساعات الأعمى برأيه - كان مثل (الغربال) الذي لا يمرر إلا الكائنات التي تتمكن من الصمود والتكيف مع المتغيرات في الطبيعة..

يعطي داوكنز مثالاً مفصلاً عن الخفافيش[1] من بين أمثلة أخرى كثيرة، كيف أنها اضطرت للانسحاب من الصيد في النهار بسبب أن (اقتصاد النهار) مزدحم بغيرها من الطيور والحيوانات، وكيف أنها يمكن أن تكون صيداً لآخرين في النهار.. فضلت الخفافيش أن تصطاد في الليل؛ حيث المنافسة أقل، وحيث المخاطر أقل، ولكن حيث الرؤية أصعب، بالتدريج صارت تعتمد على القليل من الضوء، وتستخدم حاسة السمع في معرفة طريقها وأماكن تواجد فرائسها..

عبر الأجيال، وبوجود الطفرات الجينية التي تنتج أنواعًا من الخفافيش أكثر قدرة على التكيف مع اقتصاد الليل والعيش فيه (بعض الخفافيش لديها نوع من الرادار مشابه جداً من ناحية العمل والتصميم للرادار الحديث)، لا يمرر الغربال (غربال الانتقاء الطبيعي)، إلا أنواع الخفافيش التي تتمكن من التكيف، ويمنع مرور كل الخفافيش التي لا تتمكن من ذلك.

كيف يمنعها؟

إما أنها لن تتمكن من توفير العيش لها ولصغارها في اقتصاد الليل، لأن الأنواع الأخرى صارت تصل للصيد قبلها وبسهولة أكبر..

أو لأنها لم تتمكن من تطوير إمكانياتها لتنجو من أن تكون هي فريسة ليلية لغيرها من كائنات الليل.

بعبارة أخرى: تنقرض.

وتبقى الخفافيش التي تمكنت من المرور من الغربال.

***

(1) The Blind Watchmaker 22-25

يستند داوكنز في اسم كتابه (صانع الساعات الأعمى) على تشبيه استخدمه وليم بالي[1] عالم اللاهوت في القرن الثامن عشر في رسالته (اللاهوت الطبيعي).

التشبيه بسيط وكان بالتأكيد مؤثرًا جدًا يوم استُخدِم أول مرة في القرن الثامن عشر..

يقول بالي في مقدمة رسالته: إنه لو وضع قدمه في مرج ما، وداس على حجر، فإنه من المحتمل أن يكون هذا الحجر موجودًا في المرج منذ الأبد.. إلا إن عرفت عنه تحديدًا غير ذلك، لكن لو أنه وضع قدمه على ساعة، فإنه سيكون واثقًا تمامًا من أن الجواب لا يمكن أن يكون نفسه.

لا بد للساعة أن يكون لها صانع ولا يمكن أن تكون قد وُضعت مثل الحجر في المرج منذ الأبد..

يذهب بالي بعدها إلى المقارنة بين ما في الطبيعة من دقة، وما في الساعة من الدقة، ويقارن بين العين البشرية والتلسكوب، فيقول إن كل ما في التلسكوب يدل على دقة صانعه وهدفه، وكذلك كل ما في العين يدل على ذلك.

يستخدم داوكنز هذا المثل، مثل صانع الساعات ليجعله أساسًا لكتابه، ولجزء كبير من رؤيته الإلحادية..

يقول داوكنز إن بالي محق عندما يتحدث عن صانع الساعات، حيث إن صانع الساعات عندما وضع كل جزء من أجزاء الساعة، كل زنبرك أو ترس فيها كان يضعه لكي تؤدي الساعة وظيفتها التي يصنعها لأجلها..

لكن الأمر مختلف حسب داوكنز بالنسبة للعين أو أي ظاهرة طبيعية أخرى، فبينما صانع الساعات أو التلسكوبات مدرك تمامًا لما يفعله، مبصر بغاياته وأهدافه، فإنه بالنسبة للعين البشرية وكل الظواهر الطبيعية فإن صانعها غير مبصر لما يفعل كما يقول داوكنز.

يرى داوكنز أن مصمم الساعات الطبيعية (العين، الأذن، كل الظواهر الأخرى... إلخ) هو مصمم أعمى! وهو لا يقصد الخالق فهو لا يؤمن بوجود خالق أصلًا، بل يقصد أن عملية (الانتخاب الطبيعي) التي يرى أنها (صنعت) العين كما صنعت كل الظواهر الحية، هي عملية عمياء تمامًا، بلا هدف، النتائج النهائية لها لم تكن في بال أو تصور أحد، عكس الأمر

(١) ويليام بالي: رجل الدين والفيلسوف المسيحي الذي تأثر به داروين في بدايته. مر ذكره سابقًا.

في صانع الساعات العادي، تكون لديه فكرة واضحة عن الشكل النهائي الذي سيصنعه منذ أول خطوة في عملية الصنع.

من أجل عينيك....

بنفس الطريقة يسهب داوكنز في الحديث عن العين البشرية [1]، ويعتبر أن العين باعتبارها (جهازًا معقدًا للغاية) فإن تفسير تطورها من لا شيء إلى العين بوضعها كما نعرفه، يمكن أن يفسر أي تطور آخر لأي عضو آخر أقل تعقيدًا..

يرى داوكنز أن الأمر ربما يكون بدأ من مجرد (بقعة حساسة للضوء) بسيطة في كائن أحادي الخلية (مثل اليوغلينا Euglena ككائن معاصر) يمكنها التمييز بين الضوء والظلمة، لا تستطيع أن ترى أو تكون صورة، فقط التمييز بين الضوء والظلمة.

ثم يرى أن الأمر تطور بعدها إلى عدد من الخلايا الحساسة للضوء المصفوفة جنبًا إلى جنب، بشكل أفقي مستوٍ.. التحسس للضوء سيزيد حتمًا بزيادة عدد الخلايا، ولكن لن يكون بالإمكان تحديد اتجاه هذا الضوء.

العلامة الفارقة هنا ستكون توزع الخلايا على سطح مقعر، كأسي (كما في ديدان البلاناريا Planaria)، عندها سيمكن تحديد اتجاه الضوء..

فعندما تتحسس الخلايا في طرف ما من التقعر، فإن الضوء قد جاء من أعلى الجهة المعاكسة وهكذا.. كذلك الأمر بالنسبة للظل.. فعندما يمر كائن ما من فوق هذه الديدان كأسية العين، فإن الديدان الآن صار يمكنها أن تعرف اتجاه مروره..

وهذا الأمر كان مهمًا جدًا، حسب داوكنز أيضًا، بالنسبة للكائنات الحية في رحلة بحثها عن طعامها وهروبها من أن تكون طعامًا.

مع الوقت، صار التقعر أعمق وأغلقت جوانبه، ونتج عن هذا فتحة صغيرة جدًا، مثل فتحة الكاميرا، كما في (النوتيلوس Nautilus) وكان هذا هو الانتقال من (التحسس للضوء والظلمة) إلى (الرؤية).. إلى أن تتكون صورة للعالم الخارجي أكثر من مجرد ضوء وظلمة.. الصورة هنا ستكون مشوشة وغائمة، ولكنها ستكون (صورة).

(1) The Blind Watchmaker Ricard Dawkins 85-86
https://www.youtube.com/watch?v=c4lrEM6Txtk

وجود العدسة لاحقًا، والذي كان مجرد وجود سائل هلامي خلف الفتحة، ساهم في توضيح الرؤية، وكلما اتخذ هذا السائل الهلامي شكلًا أكثر تحدبًا، كانت الرؤية أوضح. تعد القواقع نموذجًا على هذا.

هذا الانتقال من (مجرد التحسس لوجود ضوء عبر بقعة حساسة) إلى التركيب المعقد للعين استغرق (حسب داوكنز وعلماء أحياء آخرين) ٤٠٠ ألف جيل، أو قرابة النصف مليون سنة.

* * *

يعتبر داوكنز أن هذا «التدرج» أو «التطور» في «نشوء العين» دليل على «عمى صانع الساعات» أو عمى «الانتقاء الطبيعي»، بمعنى أن العملية كلها لا تجري وفق خطة مسبقة، بل هي بلا هدف، بنواتج كثيرة لا تتمكن من البقاء، وبالتالي فلا داعي لها لو كانت هناك خطة مسبقة.

داوكنز هنا يقع في نفس الخطأ الذي يقع فيه من يقول إن «الخفافيش لا ترى»، وذلك فقط استنادًا لأنها لا تملك عيونًا كتلك التي يملكها البشر أو بقية الكائنات. نعم، ليس للخفاش «عيون» كعيونهم، لكنه يمتلك جهاز رادار وسونار «يتدبر» به أموره على نحو يجعله «يبصر» بطريقة ما. أو أن يقول عن «الروبوت» أعمى لأنه لا يمتلك العيون التي نمتلكها، رغم أنه يمتلك برامجَ تعوض عن ذلك.

ربما الانتقاء الطبيعي ليس أعمى كما يقول داوكنز، ولكن لديه «وسيلة رؤية» مختلفة عن السائد.. بعبارة أخرى: ربما كان ما يبدو بالنسبة لداوكنز (خبط عشوائي) مقصودًا، ربما كانت «آليات الخلق» قد صُممت أصلًا لكي تكون بهذا الشكل المتدرج المبني على الاصطفاء المتكرر المتعاقب مرة تلو أخرى، ربما اختيرت آلية وسنن الخلق على هذا النحو لكي «تشتمل» ضمنًا على معنى عميق من معاني الحياة، الكفاح المستمر - التدرج.. التجدد من أجل البقاء..

داوكنز يعتبر أن وجود «فائض من الكائنات» التي تنقرض في خضم عملية الانتقاء الطبيعي دليل على عدم وجود «خطة مسبقة» أو «مخطط».. لكن هذا قياس على معاييرنا نحن لما يجب أن تكون عليه الخطة، وهي معايير لا تُلزم أحدًا غيرنا، بمعنى أنها لا تُلزم الخالق أو المُخطِّط الأصلي أو آلية الانتقاء الطبيعي (أو أي قدرة مفترضة يدور حولها النقاش).

هذه الآليات هي التي شرحت «كيف حدث الخلق» - الذي لا يشترط أن يكون قد حدث مرة واحدة ودون تدرج كما نفترض نحن. الانتقال بهذه الآليات من «الكيفية التي حدث بها الخلق» إلى نطاق «لماذا حدث الخلق» أو نطاق «من أحدث كل هذا؟» هو أمر غير منطقي وغير منسجم مع موضع هذه الآليات من الحدث.

نظرية التطور...سبحان الله وما شاء الله!

في الحقيقة، وعلى العكس مما يهدف له داوكنز بإيراده هذه الأمثلة، فإنه ممكن جدًا أن تتأمل في هذه الأمثلة وتفاصيلها وتفلت منك تسبيحة تمجده سبحانه عز وجل دون قصد أو تعمد منك، هذه التفاصيل التي تدرجت فيها العين، من بقعة حساسة للضوء في كائن أحادي الخلية إلى مجموعة خلايا مصطفة مع بعض يمكنها التحسس للضوء على نحو أفضل إلى حصول التقعر الذي مكنها من معرفة اتجاه الضوء وصولاً إلى العين الحالية.. هذه التفاصيل التي تجعلك تفهم كيف تمكّن الخفاش من إيجاد غذائه في الظلمة عبر رادار وسونار يقودانه إلى الطريق..

هذه التفاصيل يمكنها أن تأخذ لُبّك وتجعلك تتأمل في روعة الخلق وإبداعه.. وتقول: سبحان الخالق، بينما كان داوكنز قد وظّف هذه التفاصيل ليجعلك تقول: لا خالق هناك، إنه مجرد انتخاب طبيعي..

يعتمد الأمر على زاوية رؤيتك لهذه التفاصيل، المؤمن يمكن أن ينظر لها من زاوية «الصورة الكبيرة» فيربط التفاصيل بمنظور أكبر ويقول: تبارك الخالق.

ويمكن لغير المؤمن أن ينظر لهذه التفاصيل بمعزل عن أي سياق خارج عن العالم المنظور، ويقول: مجرد انتخاب طبيعي.

تفاصيل الانتخاب الطبيعي لا تقول شيئًا بمفردها. مجرد معطيات. تحليلها وفهمها وربطها يعتمد على رؤية العالَم من حولنا، الرؤية التي يملكها كل منا.

ليس فقط الانتخاب الطبيعي، بل كل علم الأحياء بالعموم.

لهذا قال ستيفن جاي غولد[1] وبعد أن ذكر أسماء الكثير من العلماء الذين جمعوا بين نظرية التطور والدين: إما أنّ نِصف زملائي من أساتذة الجامعة أغبياء تمامًا، أو أن الداروينية منسجمة تمامًا مع كل من الإيمان والإلحاد على حد سواء[2]!.

---

(١) ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould (١٩٤١-٢٠٠٢) عالم مستحاثات وبيولوجيا تطورية ومؤرخ أمريكي، ساهم في دراسات مهمة في نظرية التطور، عمل كأستاذ في هارفرد وفي متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك.

(2) Stephen Jay Gould, «Impeaching a Self-Appointed Judge,» Scientific American 267 (No. 1, July 1992): 118-121
http://www.stephenjaygould.org/reviews/gould_darwin-on-trial.html

حسب داوكنز: الطباخ لم يطبخ لك وجبتك!

فرضية داوكنز في إبطال الخلق فقط بسبب (التدرج البطيء) تشبه أن تقول للطباخ الماهر الذي أعد لك وجبة شهية أنه لم يكن هو الذي أعدها، لأنه وضعها في الفرن لمدة ساعة، وبالتالي فمن أعد الوجبة هو عمليات الاستواء والنضج التي حدثت داخل الفرن!

تشبه أن تقول لمن وضع مكونات الخل في الحاوية الكبيرة، أنه لم يكن هو من صنع الخل، لأن عملية التحول تطلبت وقتا طويلًا!

فرضية داوكنز تشبه أن نقول لمن بذر وانتظر ثمار زرعه، أنه لم يكن هو الذي زرع؛ لأن عملية نمو البذرة وتحولها إلى نبتة مثمرة استغرقت وقتا طويلًا.

وجود (نواتج ثانوية) من تفاعل كيميائي في مختبر صناعي كاف حسب داوكنز؛ لكي يقول للمشرف على هذا التفاعل أنه لا دخل له بالتفاعل وأن التفاعل لم يكن مخططًا له ما دام قد احتوى على (نتائج ثانوية) لا دخل لها بالناتج الرئيسي.

كل هذه الأمثلة مع فوارق كبيرة بطبيعة الحال..

فوارق لصالح فكرة (وجود الله).

فبالنسبة للمؤمن.. الله لم يضع البذرة في التربة فقط.

بل هو من خلق البذرة والتربة والماء الذي سقاها وكل الظروف التي جعلتها تنمو وتنضج.

والأهم من هذا:

هو من وضع قوانين هذا النمو.

ويصح ذلك ليس مع نظرية التطور والارتقاء فحسب، بل مع الكثير من النظريات الأخرى التي تفسر نشوء الكون، والتي يستخدمها بعض الملحدين بقوة لكي تكون دليلًا معضدًا لإلحادهم..

مثل نظرية الانفجار العظيم، ومبدأ الأنثروبي..

يمكن ببساطة اعتبار هذه مجرد قوانين إلهية وضعها الله ليصنع الكون بها..

لأن هذه القوانين تفسر كيف حدث ما حدث، لكنها لا تقول (من) بدأ الأمر، أبدًا.

بعبارة أخرى: إذا كانت العاصفة الهوجاء التي مرت على كومة الخردة قد انتهت بتشكيل طائرة بوينغ عملاقة ٧٤٧، فهو الذي خلق الخردة، وهو الذي خلق العاصفة، وهو الذي وضع قوانين الحركة التي انتهت بتشكيل هذه الطائرة.

وبعبارة أوضح: نظرية التطور أو الانتخاب الطبيعي أو تحت أي اسم آخر تشرح بإسهاب (كيف).

ولكنها لا تقترب حتى من سؤال: من بدأ هذا كله؟

هذا التفاعل المتسلسل الذي قاد إلى هذه الظواهر الطبيعية المعقدة.. من أشعل شرارته الأولى؟ من أطلقه من عقاله؟ وكيف حدث ذلك؟

لا تقول نظرية التطور شيئًا.. ولا نظرية الانفجار العظيم.

ليس هذا اختصاصها أصلًا.

ليس هذا مجال بحثها.

فكيف جعلنا أجوبة سؤال (كيف؟)، تلغي سؤال (من؟).

لا صدفة هناك....لكن هناك حظ!

رغم أن داوكنز يكرر كثيرًا أن الانتقاء الطبيعي لا صدفة فيه، بل هو غربال حاد بمعايير حادة، إلا أنه يرجع الأمر كله - منذ بدايته - إلى صدفة أخرى، يسميها هو «الحظ».

قال داوكنز أمام الجمهور الحاشد في نيوزيلندا: ندين بوجودنا إلى ضربة حظ هائلة![1]

ثم قال أيضًا: «كل حيوان يدين بوجوده إلى سلسلة من الحوادث الطارئة التي كان يمكن ألا تحدث.

مع الكثير من الحظ والصدف في هذا، هناك من يمكن أن يتصور أن عملية التطور كلها محض صدفة، لكن هذا بعيد عن الحقيقة تمامًا».

---

(1) «The Stroke of Luck that Led to Life on Earth Exists Elsewhere in the Universe» –Richard Dawkins | The Daily Galaxy https://dailygalaxy.com/2011/08/the-stroke-of-luck-that-led-to-life-on-earth-exists-elsewhere-in-the-universe-richard-dawkins/

نعم، الانتقاء الطبيعي يبدو مثل غربال بلا صدفة، **لكن وجودنا كله - حسب داوكنز- يعود إلى الصدفة، إلى الحظ..** إلى ورقة يانصيب رابحة..

لكن داوكنز يقول إن مُنظِّم اليانصيب هو (لا أحد)!!!

* * *

أكثر من هذا، يقول داوكنز إن الحياة في مكان آخر من هذا الكون محتملة جدًا.

ويكمل أن لديه (شعورًا داخليًا) يقول له بأن هناك حياة فعلًا في مكان آخر من الكون[1].

لا مشكلة في هذا.

مشكلتنا في (شعوره الداخلي).

الشعور الداخلي أو الـ

Gut feeling

هو ما نسميه نحن العقل البدهي..

وهو ما يقول لنا منذ البداية إنه لا بد لكل شيء من مُسبِّب.. ولا بد لكل شيء من بداية.

لماذا يرفض داوكنز معطيات هذا الشعور حينًا ويتمسك بالعقل التجريبي، ثم يعود ليعتمد على عقله البدهي في موضع آخر..

القوانين التي ((ربما)) لا تعمل في كوكب آخر

في لقاء مفتوح[2] مع داوكنز تحدث عن احتمالية وجود صيغ أخرى من الحياة في هذا الكون، وتحدث ضمن ذلك عن أن الحياة كما نعرفها ليست بالضرورة هي شكل الحياة في هذا المكان الآخر من الكون.

قال: ربما كانت لا تحتاج هناك إلى البروتين، أو الكربون، أو أي من العناصر الأساسية للحياة في كوكبنا.

(١) نفس المصدر.

(2) (20) Richard Dawkins on the origins of life (1 of 5) - YouTube
https://www.youtube.com/watch?v=wa56s9Gs_Eg

ربما كانت هناك عناصر أخرى لا نعرفها في ذلك الكوكب هي التي تشكل الحياة هناك.

قال بوضوح: ربما كانت قوانين الحياة على الأرض غير قابلة للتطبيق على ذلك الكوكب.

تسأله محاورته بذكاء: إذا كانت قوانين الحياة على الأرض غير قابلة للتطبيق على الحياة في مكان آخر، فلماذا تحاول تطبيقها على الله؟!

يتهرب داوكنز بذكاء.

بذكاء نعم، لكنه يتهرب، لا يرد حقًا..

داوكنز وقردة شكسبير..ودورات المياه

يقدم داوكنز أيضًا تعديلًا مثيرًا على مثل شهير عن (القردة وأعمال شكسبير).

المثل معروف وهو - باختصار- يقول إن القردة لو تركت مع آلات طابعة فإنها ستضرب عشوائيًا على الأحرف وتنتج كلامًا لا معنى له.

الفكرة هنا أنه كلما زاد الوقت المتاح للقردة وهي منفردة مع الآلة الطابعة، فإنها يمكن أن تنتج كلامًا ذا معنى، بالصدفة. الاحتمالية ضئيلة، ولكنها موجودة.

وهكذا فإن حساب الاحتمالات الرياضية، لكتابة كلمة من ستة أحرف (مثل Banana) من قبل قرد على آلة طابعة تحتوي على ٥٠ مفتاح هي أقل من واحد من ١٥ ملياراً.

الفرصة ضئيلة جدًا، ولكنها ليست صفرًا.

المثل يستخدم هنا في التشبيه مع نشوء الحياة بالصدفة في الأرض، فلو تمكنت القردة من كتابة الأعمال الكاملة لشكسبير، في أي وقت ممنوح لها، فإن نشوء الحياة على الأرض بالصدفة ممكن.

ولأن احتمالية تمكن القردة من ذلك ضئيلة للغاية، بل هي أقرب إلى الاستحالة، فإن نشوء الحياة على الأرض بالصدفة أمر مستحيل أيضًا.

استخدم المثل بصيغته الأولى (لم يكن عن أعمال شكسبير بل عن أكبر مكتبة في العالم) وكان ذلك في عام ١٩١٢ من قبل عالم الرياضيات الفرنسي اميل بوريل، ثم تطور بالتدريج ليشمل عددًا لا متناهيًا من القردة واحتمالية إنتاجها لأعمال شكسبير، واستُخدِم بعدها كثيرًا

في صيغ متعددة خاصة في النقاش حول نظرية التطور ونشوء الحياة صدفة من دون صانع أو مخطط[1].

يقدم داوكنز في كتابه (صانع الساعات الأعمى) تعديلًا ذكيًا ومثيرًا على المثل الشهير.

هو يقول إن فكرة مجموعة قردة تخبط على غير هدى على مفاتيح الآلة الطابعة لا تشبه الواقع كما يفسره الانتقاء الطبيعي، فالطابعة في المثل ليس لديها آلية للإبقاء على «الحرف» إذا كان في مكانه الصحيح أو كانت الكلمة الناتجة مقاربة لما هو صحيح، واستبعاد «الحرف» إذا كان في غير مكانه الصحيح، بل يستمر الأمر مع الآلة الطابعة عشوائيًا.. بينما الانتقاء الطبيعي يعطي الأفضلية لبعض الصفات أو الكائنات دون أخرى.

فكرة داوكنز صحيحة. ومن أجلها قام بتصميم برنامج يتضمن آلية للضرب العشوائي على أحرف طابعة (من خلال قرد افتراضي يعمل من خلال البرنامج)، ولتسهيل الأمر جعل البرنامج على عدد الأحرف الأبجدية (فقط أحرف كبيرة) مع زر واحد لوضع مسافة بين الكلمات، بحيث أصبح عدد «الأزرار» ٢٧ .

وبدلًا من كل أعمال شكسبير، قرر داوكنز أن يجرب مع سطر واحد من مسرحية هاملت «Methinks it is like a weasel» (أنا أظن أنه مثل ابن عرس).

جرب داوكنز في البداية أن يترك (القرد الآلي المُبَرمَج) يضرب عشوائيًا دون أي تدخل مشابه لتدخل الانتقاء الطبيعي، لكي ينجز (القرد الآلي المُبَرمَج) مهمته فإن عليه أن يضع الحرف m أولًا، ثم e، وبعدها t بهذا التسلسل، مع الأخذ بنظر الاعتبار المسافات بين الكلمات.

احتمالية تمكن (القرد الآلي المُبَرمَج) من فعل ذلك كانت واحد من ١٠,٠٠٠ مليون مليون مليون مليون مليون مليون، أي أن الفرصة أقرب إلى العدم.

لكن هذه التجربة يعتبرها داوكنز غير واقعية؛ لأنها تعتمد على فكرة العشوائية التي يرفضها داوكنز: لأنه يؤمن أن الانتقاء الطبيعي بتدخله المستمر ينظم الأمر أكثر. التعديل الذي يدخله هو أن البرنامج سيبقي على أي تشابه يحدث بين الأحرف التي يكتبها (القرد الآلي المُبَرمَج) وبين الجملة الأصلية، مهما كان هذا التشابه ضئيلًا، كأن يكون الحرف الذي وُضِع بالصدفة يوازي ترتيبه في الجملة الأصلية، كأن يكون الحرف t قد وُضِع كحرف ثالث في الكلمة الأولى كما هو في الجملة الأصلية من هاملت، أي تشابه من هذا النوع سيبقيه البرنامج ويعمل على المتبقي من الأحرف التي لم تكن مناسبة.

(1) Infinite monkey theorem - Wikipedia

بعد ٤٣ محاولة، تمكن (قرد داوكنز المُبَرمَج) من الوصول إلى جملة هاملت، بعد أن بدأ من مجموعة أحرف لا علاقة لها بأي معنى.

وعندما أعيدت الكرة، استغرق الأمر أكثر قليلًا، ٦٢ محاولة.

وفي المرة الثالثة، ٤١ محاولة[1].

الأرقام هنا منطقية جدًا، ممكنة.

* * *

تعديل داوكنز واقعي، لكن فيه مشكلة واحدة فقط.

لقد وضع نموذجًا يحتكم له البرنامج، وضع جملة أصلية يجب أن تطابقها النتائج عبر «الانتقاء المتراكم».

وهذا يعني ببساطة أنه قد وضع «هدفًا» يجب الوصول له من خلال محاولات متتابعة. لكن داوكنز يقول دومًا أن الانتقاء الطبيعي أعمى، بلا هدف ولا غاية ولا خطة.

بينما تجربته هذه تثبت العكس، ثمة هدف ونموذج على الانتقاء الطبيعي أن يحققه.

يبدو الانتقاء الطبيعي هنا كما لو كان «طريقة» للوصول إلى هذا الهدف.

وهو أمر معاكس تمامًا لهدف داوكنز من الكتاب بأسره الذي أورد فيه التجربة.

* * *

بعيدًا عن الأمثلة «النظرية».

في عام ٢٠٠٣ قام مجموعة من الطلاب في جامعة بلايموث بتجربة عملية، خمسة قردة (حقيقية وليست من خلال برنامج حاسوب آلي كما فعل داوكنز)، مع مجموعة من آلات الطباعة، ولمدة شهر.

لم تثبت التجربة فقط أن القردة الحقيقية لا تكتب كما يفعل شكسبير، بل إن كل ما أنتجته كان تكرارًا لحرف واحد (s)، بالإضافة إلى أن آلات الطباعة تحولت إلى دورات مياه، وقامت القردة بتحطيم بعضها[2].

---

(1) The Blind Watchmaker pp 46-48

(2) BBC NEWS | UK | England | Devon | No words to describe monkeys' play
http://news.bbc.co.uk/2/hi/3013959.stm

مشكلة الشر والمعاناة في العالم

مشكلة الشر والمعاناة في العالم واحدة من أهم الأسباب التي تؤدي إلى الإلحاد، حسب تقرير مؤسسة يقين عن (دوافع الشك) عند مسلمي أمريكا، فإن هذه المشكلة هي السبب الرابع بين دوافع الشك[1]، ليس لدينا أرقام إحصائية عن دوافع الشك والإلحاد عند المسلمين في البلدان العربية، لكن من واقع تجربتي الشخصية في النقاش مع الكثير ممن مروا بشك عنيف أو وصلوا إلى الإلحاد، المشكلة تتربع في المركز الأول بلا منافس تقريبًا، خاصة في ظل الأحداث التي عاشتها المنطقة بعد ٢٠١١.

ماذا نعني بمشكلة الشر في العالم؟ معناها ببساطة: العالم بشع جدًا، مليء بالشر، مليء بالمعاناة على نحو يستحيل معه بالنسبة للبعض الإيمان بوجود إله مطلق الخير، مطلق القدرة.. مطلق العلم..

بالنسبة لغير المؤمنين الأمر كما يلي:

لو كان ثمة إله خالق فيجب أن يكون مطلق القدرة، مطلق العلم، مطلق الخير.

الإله مطلق الخير، لن يرغب بوجود الشر في العالم، وبالتالي لن يخلقه.

الإله مطلق العلم سيعرف إن كان ثمة شر في العالم.

الإله مطلق القدرة سيمنع الشر في العالم.

وما دام هناك شر في هذا العالم، فهذا يتناقض مع هذه الصفات الأساسية للإله.

ويقود هذا برأيهم إلى نسف فكرة وجود الإله من أساسها.

المشكلة ليست جديدة، وأولى النقاشات الواضحة لها كانت في عصور مبكرة من المسيحية.. بقيت المشكلة مطروحة عبر العصور ما دام هناك شر.. ولكنها اليوم تعملقت وصارت غولًا هائل الحجم ومن أهم أسباب الإلحاد.

---

(1) What Causes Muslims to Doubt Islam: A Quantitative Analysis
https://yaqeeninstitute.org/wp-content/uploads/2018/02/FINAL-What-Causes-Muslims-to-Doubt-Islam_-A-Quantitative-Analysis.pdf

العالم كان مليئًا بالشر منذ بدء الخليقة. ليس من خبر عاجل في هذا على الإطلاق.

تاريخ الإنسانية بكل حضاراتها وألوانها وأعراقها كان مبنيًا على الدم (بتفاوت).. ولا توجد فيما نعلم أي مرحلة في التاريخ لم يكن فيها كوارث سواء كانت من صنع الإنسان: حروب، ظلم، استبداد، قتل وإبادة.. أو كانت كوارث طبيعية: مجاعات زلازل فيضانات..

ما الذي استجد إذن في هذا وجعل مشكلة قديمة قدم البشرية تكون دافعًا معاصرًا إلى الإلحاد وعلى نحو يكاد يكون جماعيًا؟

على طول تاريخ البشرية، كانت المعاناة الإنسانية محصورة بمن يعانيها فقط أو بمن يمر بها وبمن حولهم في أوسع الأحوال.. الناس تسمع وتقرأ عن الكوارث في أماكن أخرى.. لكن أن تسمع غير أن ترى وتعيش..

وهكذا كانت مشكلة الشر في كل عصر تخص من يمر بها، أو هي مشكلة فلسفية يبحث فيها المهتمون سواء كانوا في برج عاجي أو صومعة أو قاعة دراسة.

لكن العالم اليوم تغير.. وسائل التواصل الاجتماعي وإعلامها صارت تنقل المعاناة من مكان وقوعها إلى الجميع وعلى نحو مباشر وشخصي وحميم ويجعل الجميع في حالة تماس وشعور بما يحدث..

قبل هذه الثورة في وسائل التواصل، كان الأمر مختلفًا تمامًا، في كل المجازر التي حدثت في القرن العشرين على سبيل المثال، من الهولوكوست إلى حلبجة مرورًا بدير ياسين وصبرا وشاتيلا ومئات المجازر الأقل شهرة التي ربما ذهب ضحيتها عدد أكبر من الضحايا، كل هذه المجازر كانت تحدث ولا يعرف أحد عنها إلا بعد فترة، ربما أيام، وربما أشهر، تتسرب بعض الصور لاحقًا، وربما نعرف أسماء الضحايا وبعض التفاصيل عما حدث، ويحدث رد فعل هنا وهناك، ويحدث حتمًا تعاطف مع الضحايا..

لم تكن قلة المعلومات وتأخرها بسبب الطبيعة القمعية لمقترفي المجازر بالضرورة.. بل كان أيضًا بسبب طبيعة الإعلام آنذاك، صعوبة انتقال الأخبار والصور وضرورة وجود مراسلين ومعدات... إلخ.

لكن ثورة المعلومات غيرت كل شيء.. صار بإمكان أي شخص يحمل هاتفًا ذكيًا أن ينقل كل ما يحدث آنيًا ولم يعد يحتاج إلى وكالة أنباء عالمية.

صرنا نرى البيت وهو يُقصف ويتحطم أثناء قصفه وتحطمه، ونرى الطفلة تصرخ بحثًا عن والدها المقتول للتو، والطفل الذي فقد ساقيه وهو ينادي والده ليحمله، ونرى الطفل الذي غرق ورمته الأمواج على شاطئ البحر.. نراه قبل أن يدفن حتى..

بل إننا صرنا نرى المجرمين وهم يصورون تعذيبهم للضحايا ويتلذذون به.

صرنا نرى العذاب الذي كنا نسمع به أو نقرأ عنه. كانت الأبجدية وحدها تروي لنا ما يحدث ونطلق لخيالنا العنان كما لو كنا نشاهد فيلمًا سينمائيًا. اليوم لم يعد الأمر (كما لو كنا)، صار الأمر يجري أمامنا صوتًا وصورة ومعاناة، مع بشر حقيقيين نعرف أنهم لا يمثلون.

كان لا بد أن يكون للأمر عواقبه.. ورغم أن هدف أغلب من يساهم في الترويج لتلك الصور كان المساهمة في منع ومحاربة ما يحدث، زيادة الوعي من أجل التغيير.. لكن كان ثمة نتيجة أخرى لا يمكن الهروب منها.. هذه الصور، هذا الإعلام الجديد وضعنا في تماس مباشر ومكثف ومركز مع مشكلة الشر في هذا العالم.

كان من الصعب جدًا أن نهرب من مجموعة أسئلة متسلسلة قادها التفاعل مع هذا العذاب العالمي..

ربما بدأ الأمر بسؤال: أين كان الإله عندما حصل هذا العذاب؟

ثم كان: لماذا سمح الإله بهذا العذاب؟

ثم ربما: هل هناك إله يسمح بكل هذا ولا يتحرك لمنع هذا العذاب؟ لماذا لم يتدخل؟

ثم، منطقيًا جدًا حسب هذا التسلسل، وصلنا إلى: هل هناك إله بالأساس؟

إنها مجموعة من أسئلة الدومينو التي تبدأ من مشكلة قديمة جدًا هي مشكلة الشر في العالم، ونحن ننتبه فقط عندما تسقط قطعة الدومينو الأخيرة، كما لو أن ذلك لم يكن متوقعًا ما دامت القطع مرتبة على هذا النحو..

ربما المشكلة كلها ليست في مشكلة الشر في العالم، بل في ترتيب قطع الدومينو المرتبطة بها..

كيف؟

سنرى..

* * *

فلننتبه هنا إلى أن الحديث عن مشكلة الشر في العالم وعلاقتها بوجود الإله أو بالإلحاد لم تظهر إلا مع المسيحية واللاهوت المسيحي، رغم أن الشر في العالم سابق على المسيحية بالتأكيد..

لم يكن الأمر واضحًا مع اليهودية حتى القرون الوسطى، أي أن اليهودية عبر القرون التي سبقت فيها المسيحية، والقرون اللاحقة، وصولًا إلى القرون الوسطى، لم تجد في الشر «مشكلة فلسفية» تتعلق بالإيمان بالله، ثم أصبح الأمر مهمًا جدًا كنقاش فلسفي ووجودي في الفلسفة اليهودية بعد الهولوكوست وما تعرض له اليهود في الثلاثينات والأربعينات في القرن العشرين[١].

مع المسيحية كان الأمر مختلفًا، فقد كانت هناك بذور مبكرة لنقاش مشكلة الشر في العالم منذ بداية نشوء اللاهوت المسيحي، حيث يلاحظ نقاش واضح للقديس إيريناوس (القرن الثاني الميلادي) عن أهمية الشر في الوصول إلى الخير، والقديس أوغسطين (القرن الخامس الميلادي) الذي كان يعتبر الشر نتيجة طبيعية للخطيئة الأصلية وخروج آدم من الجنة، وصولًا إلى القديس توماس الأكويني (القرن الثالث عشر الميلادي)[٢]، وليس من الصعب إرجاع ظهور مشكلة الشر في الفلسفة اليهودية في القرون الوسطى إلى التأثر باللاهوت المسيحي.

مع الإسلام – مثل اليهودية – لم يكن الأمر واضحًا كمشكلة إيمانية عقائدية.. لم يكن هناك تعبير مرادف أو مفهوم موازٍ لـ (مشكلة الشر في العالم)[٣] حتى العقود الأخيرة، كانت هناك نقاشات عن صفات الإله (مما يمكن أن يرتبط بهذا الأمر بشكل أو بآخر، مثل، يمكن نسبة الشر إليه عز وجل، أو «شر القدر»... إلخ). كذلك عن مفاهيم الابتلاء والعقوبات الدنيوية، وكذلك وكلها يمكن أن ترتبط بمشكلة الشر في العالم بشكل أو بآخر.. لكن مشكلة الشر في العالم كموضوع مستقل، كمشكلة في حد ذاتها، لم يكن لها وجود قائم بذاته في الإسلام أو علم الكلام الإسلامي.



---

(1) God, the Past and Auschwitz: Jewish Holocaust Theologians' Engagement with History Daniel R. Langton Holocaust Studies.Pages 29-62 | Published online: 17 Feb 2015
https://www.research.manchester.ac.uk/portal/files/52673824/2011_God_the_Past_and_Auschwitz_Holocaust_Studies.pdf

(2) Problem of evil - Wikipedia

(٣)علما أن هناك مصطلحًا خاصًا بالمشكلة في الإنجليزية بأصول لاتينية، وهي مفردة theodicy التي تعني هذه المشكلة، والتي لا ترجمة لها بالعربية.

ما الذي يقوله لنا هذا؟ لم كان الأمر مهمًا جدًا وواضحًا جدًا مع اللاهوت المسيحي، وليس كذلك مع اليهودية أو مع علم الكلام الإسلامي، رغم وجود الكثير من المشترك بين الأديان الثلاثة؟

السبب في تصوري هو أن رؤية المسيحية للإله تركز على الرحمة والسلام والمحبة..

بينما الرؤية في اليهودية تركز على جوانب مختلفة وربما معاكسة..

وفي الإسلام، أو في النصوص الإسلامية، الرؤية تقدم الجانبين على نحو أزعم أنه متوازن.. بين الرحمة والمحبة.. وبين ما يعتبره البشر غير ذلك.. ثمة أسماء: الرحمن الرحيم الغفور الودود، وثمة أسماء: الجبار المنتقم شديد العقاب..

المشكلة هنا ليست في وجود الشر في العالم بقدر ما تناقض (الصورة المسبقة) التي نضعها في أذهاننا عن هذا العالم وعن دور الإله فيه، مع الشر في هذا العالم.

متتالية معضلة الشر والصفات الإلهية

يستند الاستخدام الفلسفي/ الإلحادي لمشكلة الشر على ثلاث صفات لله عز وجل، وما قد يبدو أنه تناقض بين هذه الصفات وبين وجود الشر والمعاناة في العالم..

الصفات الثلاث هي كونه عز وجل كلي القدرة (Omnipotent)، كلي العلم (Omni-scient)، كلي الخير (Omnibenevolent)[1].

يلخص جي إل ماكي[2] معضلة الشر كما يلي:

أولًا - الله موجود.

ثانيًا - إذا كان الله موجودًا، فيجب أن يكون كلي الخير.

ثالثًا - إذا كان ثمة شيء كلي الخير، فيجب أن يحاول تقليل الشر قدر ما يمكنه.

رابعًا - ما دام هناك إله كلي الخير، فيجب أن يقلل الشر بقدر قدرته على ذلك (من ثانيًا وثالثًا).

(1) Introducing Philosophy of Religion, Chad Meister, p 132

(٢) جي إل ماكي J.L Makie (١٩١٧- ١٩٨١) فيلسوف أسترالي له إضافات مهمة في فلسفة الدين والأخلاق، وهو مدافع معروف عن الإلحاد.

خامسًا - إذا كان الله موجودًا فيجب أن يكون كلي القدرة.

سادسًا - إذا كان هناك من هو كلي القدرة، فهو قادر على فعل أي شيء.

سابعًا - ما دام الله موجودًا فهو يستطيع أن يزيل كل الشر في العالم (من خامسًا وسادسًا).

ثامنًا - ما دام الله موجودًا، فهو يزيل كل الشر في العالم (من رابعًا وسابعًا).

تاسعًا - الله يزيل كل الشر في العالم (من أولًا وثامنًا).

عاشرًا - إذن لا يوجد شر في العالم.

وبما أن النتيجة النهائية خاطئة بشكل واضح للعيان، فهذا يعني - حسب هذا التسلسل - أن المقدمة التي بنيت عليها هذه السلسلة خاطئة.

أي أن الله غير موجود!

أو أنه غير «كلي القدرة».

أو غير «كلي الخير».[1]

وكل هذه الاحتمالات يرفضها «المؤمن»، لأنها معارضة لإيمانه بشدة.

هل المعضلة مستوردة؟

هذا التسلسل الذي قد يبدو أنه مناسب لنقاش كل الأديان التوحيدية الإبراهيمية، قد صُمم أصلًا لنقاش مسيحي لاهوتي، ومد النقاش ليشمل «الله» كما يراه المسلمون يتضمن مغالطة.

لماذا؟ لأن مفهوم «كلي الخير - كلي المحبة - الذي يحب الجميع محبة غير مشروطة» - هو مفهوم مسيحي تمامًا ولا وجود له في الإسلام.

هذا المفهوم أساسي في المسيحية، ومرتبط بعقيدة الفداء (أي موت السيد المسيح على الصليب من أجل تخليص البشر من الخطيئة الأصلية حسب العقيدة المسيحية)، الصلب نفسه كان علامة على هذا الحب غير المشروط، حيث «الفداء» هنا كان حبًا للبشر.

هذا الحب غير المشروط، الموجه حتى للأعداء، هو من ضمن ما تركز عليه التعليمات المسيحية:

---

(1) The Problem of Evil Jeff Speaks Feb 2008
https://www3.nd.edu/~jspeaks/courses/2007-8/20229/_HANDOUTS/problem-of-evil.pdf

(سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ) (إنجيل متى الإصحاح ٥: ٤٣-٤٤).

إسلاميًا الأمر مختلف، ولا داعي للتحسس من الأمر أو اعتباره إساءة للذات الإلهية، التصور الإسلامي لله أكثر توازنًا وواقعية في رأيي من التصور المسيحي الذي يحب الكل.

إسلاميًا، الله يمنح محبته لمن يسعى لها ويستحقها، لذلك تقول الآيات القرآنية بصراحة إن الله لا يحب المفسدين، الكافرين، الظالمين، المسرفين، المستكبرين، الخائنين، المعتدين، ولا يحب كل مختال فخور، ولا يحب كل خوان أثيم.

بينما تقول الآيات القرآنية إنه يحب المحسنين، الصابرين، المطهرين، التوابين، المتوكلين، المقسطين، المتقين.

إذن حب الله لعباده - إسلاميًا - مشروط ببذل جهد أولاً منهم، على الأقل برفع «ما لا يحبه الله»، من كفر أو ظلم أو إفساد أو استكبار.

نقطة الاختلاف الجوهرية في تصور الله هذه تقطع «سلسلة جدل معضلة الشر» من خطوتها الثانية.

النقاش غير صالح للاستخدام مع من يؤمن بالمفاهيم الإسلامية لأن الفراق سيكون مبكرًا.

* * *

عندما تكون الصورة وردية، شديدة التفاؤل، ثم نصدم بوجود الشر في العالم، فإن الشر يكون معضلة....يقود قطع الدومينو إلى التساقط وصولا إلى: لا إله...

لكن عندما تكون الصورة في ذهنك عن عالم فيه الخير وفيه الشر، فإنك لن تصدم بوجود الشر في العالم.. ربما لن يقلل هذا من معاناتك... ولكنك لن تحول معاناتك مع الشر في الخارج إلى أبعاد أخرى خارج صراعك وكفاحك معه..

لا أقول هنا أن (معضلة الشر) مستوردة...لكني أدعي أن قطع الدومينو المرتبطة بالشر في العالم حولته إلى معضلة تقود إلى الإلحاد حسب رؤية معينة.. ولا يشترط أن يكون الأمر كذلك في الرؤية الإسلامية..

المسألة هي أن النصوص الدينية في الإسلام لا تقول لك أبدا أن رحلتك في العالم هي نزهة في حديقة ناعمة تصيد فيها الفراشات وتقضي فيها وقتا ممتعا..

على العكس من ذلك: النصوص تقول ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ٤) وتقول ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (الأعراف: ٢٤)..العالم ليس مكانا سعيدا على الإطلاق..

هل ستقول لماذا خلق الله العالم على هذا النحو إذن؟

ببساطة لأن هذا جزء من الامتحان. امتحانك هو أن تجعل هذا العالم مكانا أفضل، وهذا يتطلب التعامل مع بشاعاته وفظاعاته .. هذا هو امتحاننا...وجودنا في هذه الأرض مرتبط بهدف...ويتضمن أن نختبر.. أن نمتحن... ودون وجود الشر في العالم...لن يكون هناك امتحان...لا يمكن أن يكون هناك اختبار دون صعوبات..

يمكنك أن تقول أي شيء عن صعوبة الأسئلة في هذا الامتحان.. لكن لا يمكنك أبدا أن تقول أن الممتحن غير موجود فقط لأن الأسئلة كانت صعبة..

لا يمكنك أبدا أن تقول أن الإله غير موجود...فقط لأن اختياراته كانت صعبة..

في الحقيقة: هذا يعني أن صورته في ذهنك خيالية وغير واقعية.. وغير موجودة..

الإله كما تريده وكما تتوهم وجوده ليس موجودا..

لكن الإله الخالق... وجوده بصورته الكاملة كما عبر هو عن نفسه...لا علاقة له بأوهامك... ولا بمغالطة النيرفانا أو الكتالوغ المثالي التي تجعلك تفترض صفات وهمية للإله الذي تريد أن تؤمن به...

* * *

ماذا عن العدالة الإلهية؟ أليس الله بعادل؟ كيف يرضى بهذا الظلم الموجود في العالم؟

لا يرضاه، ولكن هذا لا يعني التدخل في مجريات الامتحان بالضرورة. عدله النهائي والحاسم هو في الآخرة، دار الحساب، وليس في دار العمل..

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩)

الحياة ليست عادلة، وليس هناك من سبب لتوهم ذلك..

حاول قدر الإمكان أن تعدلها وتعدل فيها..

لكن العدل المطلق ليس هنا، بل عنده، هناك، لاحقا...

* * *

نقطة جوهرية أخرى تعارض الطريقة التي تقدم بها «معضلة الشر في العالم» وهي أن العقيدة الإسلامية ترى أن الله عز وجل خالق كل شيء، وبضمن هذا الشر، وإن كان لا ينسب له مباشرة، ولا لأفعاله، أدبا وتأدبا معه، بل ينسب الشر لمفعولاته[1]، «فالله عز وجل خلق الشر وقدره ولم يرض عنه وحذر منه، وعاقب عليه بخلق النار، وأمر بالطاعة وأحبها ورضيها ويسر لها أهلها، ثم كافأهم بأن جعل لهم في الآخرة الجنة[2]» والله تَعَالَى خلق الشَّرّ؛ لقَوْله تَعَالَى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[3]

لا حرج في كل ذلك.

وهو أمر لا يعني أن الله له صفات سلبية كما قد يتوهم من ينظر الأمر بسطحية.

لكن الأمر مرتبط بما هو أعمق بكثير.

الأمر مرتبط بالرؤية الإسلامية لهذه الحياة.

مرتبط بسؤال: لماذا نحن هنا؟ لماذا خلقنا الله أصلا؟

لا يمكن أن نفهم «معضلة الشر والمعاناة» في هذه الحياة دون أن نفهم لماذا خلقنا الله.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي جزء ٣٥ صفحة ١٠

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي - الجزء ٤٣ ص ١١

(٣) الفقه الأكبر الجزء الأول ص ١٠٣

لماذا خلقنا الله؟

حسب الرؤية الإسلامية، الدنيا دار امتحان.

ونحن موجودون هنا لخوض هذا الامتحان.

وهذا الامتحان يتضمن صعوبات حتما، الامتحان بالتعريف يتضمن صعوبات، قد لا تكون الأسئلة «موحدة» للجميع، وهذا يجعل الصعوبات متفاوتة من شخص إلى آخر، لكن ربما الصعوبة ستتناسب أيضا مع التقييم الذي سيحصل المرء عليه في نهاية المطاف.

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة: ١٥٥)

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف:٧)

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (الفجر: ١٥ – ١٦)

إذن كل شيء في حقيقته هو جزء من الامتحان، الشر والخير أيضا. حتى الخير يمكن أن يكون جزءا من صعوبة الامتحان، والنجاح فيه قد لا يقل صعوبة عن اجتياز الشر نفسه.

الخير كما الشر، هو جزء من هذا الابتلاء- الامتحان، ولهذا لا ينسب الشر المحض لله عز وجل، لأنه غير مقصود بحد ذاته، بل جزء من هذا الامتحان.

مع هذه الرؤية للحياة، يكون طرح سؤال «لماذا لا يتدخل الله لإيقاف الشر؟» غير منطقي لأن هذا الشر هو جزء من «أسباب وجودنا وخلقنا بالأساس».

أحيانا يكون الأمر صعبا جدا ومرهقا جدا...كذلك سيكون «الثواب» لاحقا.

هل تغيير عنوان المعاناة من «الشر» إلى «الابتلاء» يغير من جوهر الألم شيئا؟!

في الحقيقة، نعم، إلى حد كبير سيكون هناك فرق في التعامل مع مصدر الألم عندما يكون ثمة قناعة وإيمان وجانب روحي مساعد في خلال الأزمة[1].

الأمر هنا ليس أن تغير «اسم وعنوان معاناتك» عندما تمر بأزمة أو كارثة ما...فتقول هذا «ابتلاء» وتتوقع أن تكون الأمور أفضل في «الداخل».

المسألة أعقد من هذا بكثير، ليست أن تضغط على «زر الابتلاء» عند الحاجة لتستنهض دفاعات خفية تجعل مرورك بالأزمة أيسر، بل أن تكون «عدسة الابتلاء» قد زرعت أصلا في العين، بحيث تجعل من مفهوم «دار الابتلاء» رؤية للحياة على نحو دائم ومستمر، في الخير والشر، في السراء والضراء.

مع «الابتلاء» سيكون ثمة فهم لما حدث، سيكون ثمة «تفسير داخلي»، ربما كان الأمر عقوبة، أو تطهيرا، أو تقوية للاستعداد لتجارب قادمة.. أيا كان التفسير، الابتلاء سيقدم «تصالحا مع التجربة المرة»...

هكذا، من خلال هذه الرؤية «الكاملة» يمكن لمفهوم الابتلاء أن يساعد على تحمل الألم، لن يزيله بالتأكيد، بل سيكون مثل دواء مسكن، مثل عكاز يساعد على السير..

وهو أمر نحتاجه كبشر، بالتعريف.

* * *

مصادر المعاناة والألم في حياتنا كثيرة.

بعضها متعلق بوجودنا، ولا سبيل لتغييره. مثل الموت، والفراق الناتج عن ذلك.

وأيضا هناك ألم من المرض، من أمراض كثيرة، بعضها يسبب الألم ليس فقط لمن يحمل المرض، بل للمحيطين به.

---

(١) دراسة عن علاقة التدين بالتأقلم واجتياز الصدمات بعد الكوارث الطبيعية، إعصاري ريتا وكاترينا تحديدا

Religion and Coping with Trauma: Qualitative Examples from Hurricanes Katrina and Rita.Tausch et al. Jouranl of Relig Spiritual Aging. 2011; 23(3): 236-253.

https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3548597/

ينظر أيضا في

The psychology of religion and coping: theory, research, practice. Kenneth I. Pargament. Guilford Press, New York, 1997.

وهناك تشوهات طبيعية، أطفال يولدون معاقين، ويكون ذلك امتحانا كبيرا لهم ولمن حولهم. وهناك أيضا حوادث تنتج تشوهات وإعاقات تكون امتحانا كبيرا لمن يصاب بها ولمن حوله.

وهناك حوادث تؤدي إلى موت أحبة صغار..وكبار، ويكون ذلك امتحانا لمن كان يتوقع أن تستمر حياته معهم..

وهناك الكوارث الطبيعية، زلازل وأعاصير وفيضانات تودي بحياة الألوف، وتطيح بحياة ألوف آخرين، كانوا جزءا من حياة أولئك الذين رحلوا..

كل هذا ألم ومعاناة بسبب «مصادر طبيعية» للألم، الامتحان يكون في تحملها – دون انهيار–، في مساعدة من يمرون بها، في اعتبارها تحديات تفرض إبداع وسائل جديدة لمقاومتها (أدوية لأمراض.. تدخلات علاجية مختلفة) أو في مساعدة ضحايا الكوارث وجعل حياتهم أسهل..

لكن هناك ألم ومعاناة بمصادر بشرية، يعبر عن امتحان مزدوج.. امتحان لمن يمرون به، وامتحان آخر فشل فيه من تسببوا بهذا الألم..

أتحدث عن الجرائم، القتل، التعذيب، الاغتصابات، الأمور التي لطخت تاريخ البشرية وكانت ملازمة له.

هذا امتحان كبير للضحايا، بل محنة كبيرة، وهو أيضا تعبير عن فشل من فعل بهم هذا في امتحانه الخاص به، في استخدامه لقوته.

الألم في هذه الحالات أكبر بكثير من حالات يكون مصدرها طبيعيا. الظلم الذي يحدث يزيد الألم أضعافا مضاعفة، مع الكوارث الطبيعية هناك نزوع لتقبل الأمر بطريقة أسهل، لكن عندما يكون الأمر ناتجا عن ظلم بشري، فإن تقبله يكون أصعب بكثير.

هل سيسهل الأمر على فتاة تعرضت لاغتصاب جماعي أن نقول لها أن ما تعرضت له كان جزءا من الابتلاء والاختبار الذي نتعرض له كبشر؟

ربما لن يساعدها كثيرا، لكن مفهوما آخر قد يساعدها هنا.

الآخرة....أن تفكر أن هؤلاء سيتعرضون لعقاب شديد، ولو بعد حين.

* * *

جواب «الامتحان» الذي يؤمن به المؤمنون قد يواجه بأسئلة أخرى من قبل غير المؤمنين، وهي أسئلة منطقية ضمن سياقها العام.

بالنسبة للمؤمن.. سؤال لماذا خلقنا الله يكون جوابه من الله نفسه.

الملحد لا يعترف بجواب كهذا؛ لأنه لا يعترف أصلا بوجود الله؛ لذا صدور جواب منه مجرد خرافة مثل الدين كله.

أي جواب من هذا النوع سيواجه بالرفض وربما بالسخرية والاستهزاء من قبل غير المؤمنين.

قد يقولون: **لا بد أن إلهكم كان ضجرا فقرر أن يخلقكم.**

لا بد أنه كان يعاني من الملل فقرر أن يخلقكم ليتسلى قليلا.

خلقكم لتعبدوه؟

لا بد أن إلهكم يعاني من عقدة نقص...أو insecurity لهذا يريد منكم أن تعبدوه لكي يخفف من هذا الشعور...

لا بد أنه مصاب بتضخم في الـego حتى يطلب منكم أن تمجدوه وتمدحوه هكذا..

هكذا سيقول هؤلاء عندما نرد عليهم بالأجوبة التي نؤمن بها.. تعالى الله جل شأنه عما يقولون.

السبب في هذا الموقف هو نمط تفكير (مادي) - (تجسيمي) يسيطر على فكرتهم عن إله لا يقرون بوجوده..

هم يقيسون تفكير الإله (الذي يعتبرون أنه غير موجود) على تفكير البشر..

لذلك فهم يقولون هل كان ضجرا فخلقكم؟

لأن البشر عند ضجرهم قد يصنعون أشياء جديدة....يرسمون لوحة جديدة.. الأطفال قد يحاولون صنع دمية جديدة.. أو يبنون بيتا بالمكعبات.. أو يخترعون قصة خيالية..

أو لأن البشر الذين يشعرون بعدم الأمان أو بنقص ما، يحتاجون دوما إلى سماع المديح والثناء وكلمات الحب ممن حولهم..

لهذا، فالملحدون يستخدمون السلوك البشري لتفسير (السلوك الإلهي)..

وهذا سيكون منطقيا لو كان الله - جل وعلا - إنسانا عملاقا له من الصفات ما لنا منها ولكن بقدرات أكبر بكثير..

لكن الله ليس إنسانا بقدرات خارقة.

هو مختلف تماما... بجوهر وكنه مختلف ولا يمكن مقارنته بالإنسان من الأساس.

لذا فهذه التفسيرات غير قابلة للتطبيق.

* * *

علينا أن نقر أن هناك جزءا من الجواب عن هذا السؤال يقع في منطقة في غير متناول عقولنا...

يمكننا فهم أوامره وتشريعاته، لأنها تتعلق بنا أو بالمجتمع من حولنا.

«الهدف من الخلق» فيه شقان.. شق مرتبط بنا نحن...بما نفعله في الأرض..

وشق مرتبط بالخالق عز وجل.

الشق الإنساني يمكن فهمه والتعامل معه والبناء عليه.

الشق المرتبط بالخالق، هو منطقة لا نملك أدوات الوصول لها. محظورة تماما.

لذا لا نملك سوى أن نكتفي بالشق الإنساني..

ما الذي هناك، على الجهة الأخرى من الجواب..

ببساطة لا نعرف غير ما أخبرنا به هو، عز وجل.

يمكنك هنا أن لا تكون مقتنعا بهذه النهاية..

لكن عليك أن تقارنها بصدق بالبديل «المتوفر»، من قبل الطرف الآخر، غير المؤمن..

وترى أيهما يبدو أكثر واقعية.

* * *

ماذا لدى الملحدين من جواب هنا؟

ما هو الهدف من الحياة؟

سنجد أجوبة كثيرة أغلبها تتعلق بالمتعة بالحياة وتحقيق الذات. ومر علينا جواب نموذجي ذكره داوكنز: لا هدف هناك من وجودنا على الأرض، لكني أتوقع وجبة غداء جيدة.

الاستمتاع بالحياة إذن.

طبعا لا مشكلة على الإطلاق في الاستمتاع بالحياة، فحتى هذا ممكن أن يعد عبادة حسب الطريقة التي نرى بها الأمر.

وكثير من الملحدين يقضون حياتهم في أهداف نبيلة جدا، بمساعدة الآخرين، بإعطاء معنى لحياة كثيرين وهناك نماذج كثيرة من هذا النوع.

لكن لو غيرنا صيغة السؤال...إلى ما الهدف من وجودنا هنا على هذا الكوكب؟

سيكون جواب أي ملحد: لا يوجد هدف سبق وجودنا على الأرض. نحن نتاج عملية التطور والانتقاء الطبيعي العمياء التي أنتجتنا دون وعي أو دون هدف.

حسنا الانتقاء الطبيعي والتطور أوصلنا كبشر- إلى هنا.

لكن تلك الخلية الحية الأولى التي تدرج منها كل شيء...هل كان هناك هدف من وجودها؟

لا...بالنسبة لهم، كانت مجرد صدفة...

* * *

منذ أن نشأت أول خلية حية - بغض النظر عن كيفية نشوئها-وهي مبرمجة على هدف واحد.

أن تتكاثر. أن تنتج ما يشبهها.

كل خلية حية نشأت بعد ذلك وهي مبرمجة لنفس الهدف.

أن تعيد إنتاج نفسها.

كل خلية حية في أصغر كائن أحادي الخلية إلى أضخم حيوان يعيش على الأرض، مرورا بالإنسان، تكون محكومة، مبرمجة على الاستمرار في إعادة إنتاج نفسها..

الـ DNA في داخل كل خلية حية يأمر الخلية بأن تعيد إنتاج نفسها كما هي...

نحن محكومون بالحياة.. محكومون بدوافع تدفعنا للحياة حتى دون وعي منا...

مبرمجون على ذلك..

كيف يمكن أن يكون هناك هدف لأصغر خلية في أجسامنا، هدف تحدد قبل أن تتكون هذه الخلية، وهو نفسه هدف الخلية الحية الأولى قبل أربع مليارات سنة..

ثم نتصور أن لا هدف «مسبق» لوجودنا؟

عدم وجود هدف من كل هذا أمر مناقض لكل تفصيل من تفاصيل الحياة بينما هي تندفع لتكون نسخا منها...

عدم وجود هدف من كل هذا، هو كأن نتصور أن الصورة الكاملة لا تعني أي شيء، مجرد خبط عشواء، بينما كل جزء من أجزائها الصغيرة يضج بالمعاني...

أن تكون الحياة قد نشأت صدفة.. بلا هدف..

وأن تكون كل الأهداف الصغيرة التي نخترعها مجرد محاولات لتغطية العبث واللاجدوى في عمق الحياة...

أي تناقض مع فكرة الحياة نفسها..

* * *

يؤمن الملحد بأن الكون قد نشأ صدفة، لا يؤمن بأن هناك شيء قبله.. وغير مهتم بمعرفة ماذا كان قبله.. يؤمن بأن ثمة صدفة أنتجت الكون وأن تفاعلات العناصر والمكونات قد قادت لاحقا إلى انبثاق الحياة..

فولدت أول خلية حية، بالصدفة أيضا..

ثم انقسمت هذه الخلية بالصدفة ودخلت في دوامة التطور وغربال الانتقاء الطبيعي الأعمى الذي لم يحدد هدفا مسبقا..

ثم وجدوا أنفسهم يتناقشون عن الله والوجود والحب والشعر والموسيقى والجمال... ويتوقعون وجبة غداء شهية.

الصدفة لم تجعلهم يعيشون حياتهم عبثا بالضرورة..

لكنهم يؤمنون أن كل شيء سينتهي عبثا..

لا شيء قبل هذه الحياة، ولا شيء بعدها.

الحياة رحلة قصيرة جاءت بالصدفة بين عدمين..

* * *

يؤمن المؤمن أن ثمة شيء أكبر في هذا الكون..

يؤمن أنه خلق ليعبد خالق هذا الكون.. وأن كلمة العبادة تتسع لتشمل كل الحياة...لا يعرف لماذا فعل الله ذلك لأن عقله لم يصمم لمعرفة هذا، لكن الأمر لا يشغله كثيرا، يقول نحن موجودون هنا وانتهى، يحاول أن يعيش حياته بما يحقق الهدف الذي يؤمن أنه خلق لأجله، ينجح أحيانا ويفشل أخرى، يستمتع بحياته أيضا كما يفعل الملحد، ويتوقع وجبة طعام شهية أيضا..

حياته رحلة قصيرة بين غيبين.. وليس بين عدمين..

وهو يؤمن بأنه سيرى نتائج رحلته لاحقا...

* * *

أؤمن أنا أن هذا الثاني أكثر اتساقا وانسجاما مع الكون المنظم الذي أعد ليستقبل الحياة..

وأؤمن أيضا أن وجود رؤية للكون بهذا النسق، ستساهم أكثر في جعل مشكلة الشر في العالم، تبدو أقل صعوبة بالنسبة لمن يمر بها...

لماذا لا يستجيب الله لنا؟

مشكلة الشر والمعاناة الإنسانية في العالم تقودنا لاحقا إلى سؤال يتعلق بالدعاء...

في العموم، أولئك الذين يؤمنون بالله، يلجؤون له عندما يمرون بظروف شدة...أمر طبيعي تماما.. يسألونه أن يزيل الضر الذي أصابهم.. أو أن ينقذ حبيبا لهم من مرض.. أو أن يخرجهم من محنة ما..

قد يقولون: ندعو الله منذ سنوات، دون أن يتحقق دعاؤنا.. ...أليس هو القائل ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)، ويقول أيضا ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦)

فلماذا لا يستجاب لنا؟

سؤالهم هذا هو النتيجة الطبيعية لاستخدام مبالغ له للآيتين السابقتين، وفق مفهوم يجعل الأمر مثل علاقة شرطية حتمية، المطلوب منك أن تدعو، والمتوقع منه أن يستجيب.

كما لو أنه -عز وجل- ملزم بأن يلبي دعواتنا.

للأسف هذا الاستخدام المبالغ به يروج لأمر الدعاء على نحو يعزله عن بقية مفاهيم الإيمان، وهذا يجعله أقرب إلى عملية مشارطة (سأدعوك مقابل أن تستجيب لي) وهذا كله يجعل من الأمر مخاطرة كبيرة.. بينما الدعاء في الأصل متضمن في حزمة الإيمان الكاملة.. بينما يعامل الأمر هنا كما لو كان الدعاء ترويج للإيمان!

لكن ألا تقول الآيتان ذلك تقريبا؟.. أليس هناك وعد على الأقل بهذا؟...أليسعلاقة شرطية فعلا كما تبدو من ظاهر الآيتين؟

ربما، ولكن هذا حسب مفهومنا للدعاء ومفهوم الاستجابة له.. وهذا ما سنأتي عليه لاحقا.

***

ما الذي يقال عادة لمن يسأل هذا السؤال: دعوت ودعوت ولم يستجب الله لي.. فلماذا؟

هناك عدة أجوبة تقال: منها المعاصي، وأكل الحرام، وسوء الأدب مع الله أثناء الدعاء، والاستعجال وعدم التيقن من الإجابة أثناء الدعاء.

وكل هذا وارد جدا.

هناك ضوابط للدعاء ولا يجب أن نتوقع أن العلاقة بين الدعاء والاستجابة له هي تلقائية كضربة مضرب بليارد، بل أن هناك تتمة للآية نادرا ما تذكر في خضم الترويج للدعاء، الآية كاملة هي:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)

الاستجابة لله من قبل العبد- الداعي هي من ضمن المعادلة، وهذا يعني أن تحقيق أوامر الله (الشعائرية وغير الشعائرية في اتباع السنن) هو جزء من منظومة الدعاء المستجاب.

الأمر أكبر وأعقد حتما من مجرد دعاء والاستجابة له.

فلننتبه أن كل هذه الأسباب التي ذكرت - أو أغلبها- لا يمكن أن تكون معيارية بوضوح، بمعنى أنها لا يمكن أن تقاس وتحدد بالضبط.

مثلا مفهوم المعاصي مطاط ومرن جدا عند الكثيرين، ممكن أن يكون سماع أغنية عند البعض، أو نظرة عابرة في الطريق. وهكذا فإن أي إنسان معرض لئلا يستجاب دعاءه بسبب أي معصية مهما صغرت، أو على الأقل هذا التفسير «يعمل بكل الأحوال» ما دام لا إنسان خالي من المعاصي.

الاستعجال وعدم التيقن أمران لا يقاسان أيضا.. يمكن لشخص ما أن يعتبر نفسه كان عجولا أكثر من اللازم أو متيقنا أقل من اللازم، ويمكن لشخص آخر أن يعتبر نفسه عكس ذلك.. الأمران نسبيان جدا.

بكل الأحوال: هذه الأجوبة ترمي الكرة إلى ملعب الداعي.. عليه هو أن يتحمل نتيجة عدم الاستجابة للدعاء.

وهذا إيجابي من نواحي كثيرة، إن لم يتحول في مرحلة ما إلى جلد مستمر للذات على ما يعده البعض معصية دون دليل على ذلك.

لكن هناك شيء آخر أرى أنه متجاهل إلى حد ما في بيان أسباب عدم الاستجابة للدعاء.

إنه الشروط الموضوعية لتحقق الدعاء.

دوما الأسباب تركز على داخل الشخص الداعي، تقواه بصورة عامة.

لكن ماذا عن خارج الشخص؟ ماذا عن المحيط الخارجي الذي يفترض أن يتحقق فيه الدعاء؟ أليس من المفروض أن ينظر إلى هذا الأمر أيضا عندما يسأل عن سبب عدم تحقق الدعاء؟

ذلك أن بعض الدعوات التي لم تتحقق والتي يتساءل أصحابها عن سبب عدم استجابة الله لها هي في الحقيقة طلب لمعجزات ..أنت لم تدع.. أنت ببساطة طلبت معجزة...

لماذا؟.. لأن تحقيق الطلب سيتضمن خرقا للقواعد والقوانين والشروط الموضوعة حول الحدث.

للأسف الكثير من الدعوات التي لم تتحقق والتي تثير أسئلة من قبيل ما سبق هي من قبيل طلب المعجزة.

ورب العالمين قال ادعوني استجب لكم وليس اطلبوا المعجزات وسأحققها لكم.

عصر المعجزات انتهى مع نهاية عصر النبوة[1].

عدم التفريق بين الأمرين هو الذي يقود الكثيرين إلى الدعاء بأمور سيكون تحققها أشبه بمعجزة، طلبات ربما يمكن إدراجها أصلا في سوء الأدب مع الله عز وجل، أن تطلب منه ما يفترض أن تغيره أنت أولا، أن لا تقوم بدورك ولا تفهم الظروف الموضوعية اللازمة للتغيير... ثم تطلب منه معجزة تغيير ظروفك وتتساءل بعدها: ألم يقل ادعوني استجب لكم؟ لمَ لم يستجب إذن؟

المعجزات تتراوح بين طلب النجاح في اختبار أو امتحان دون الإعداد له ..وتصل إلى حد الانتصار في مواجهة مصيرية خاسرة بكل المقاييس الدنيوية...

---

(١) يعترض بعض الأخوة على هذا الطرح، ويقولون أن الله بإمكانه تحقيق «المعجزات» و «المستحيلات» والدعاء ممكن أن يستجاب لتحقيقهما، وهو قادر على ذلك بالتأكيد سبحانه، لكننا نتحدث عن المعجزات بمعناها الاصطلاحي.

المعجزات، بالتعريف، تخص الأنبياء، وهدفها «إعجاز» المكذبين، ودفعهم إلى التصديق بالرسالة، فهي إذن «مقترنة بدعوى النبوة تبسيط العقائد الإسلامية، جزء ١ ص ١٤٥» فعندما نقول عصر المعجزات انتهى مع نهاية عصر النبوة، فهذا أمر محسوم شرعيا. انتهت النبوة برسالته عليه الصلاة والسلام، لا معجزات بهذا المعنى.

أيضا تحدث الكثير من الدعوات عند اشتداد الأهوال، وقد أشار القرآن إلى ذلك، كما لو أنه يخبرنا أن «هؤلاء» تحديدا لا جدوى من إجابة دعواتهم؛ لأنهم هم أنفسهم سيقولون لاحقا لمَ لم يستجب لدعائنا؟.

﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (يونس: ٢٢-٢٣)..

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

هناك من يرمي بنفسه في التهلكة حرفياً ويطلب من الله أن ينجيه، وإن لم يحدث فسيقول لمَ يا رب لم يتحقق الدعاء؟!

ومن ثم يتحول الأمر إلى سبب أو حجة للإلحاد!

الأمر شبيه في أحيان كثيرة بنكتة الطالب الذي لم يؤد على نحو جيد في الامتحان فعاد يلوم والدته: كان يجب أن تقومي بالدعاء لي السنة كلها وليس ليلة الامتحان فقط.

أو بالرجل الذي ظل يدعو الله أن يرزقه ولدا صالحا لمدة عشر سنوات.. دون أن يتزوج!

الكثير من شكاوى عدم التحقق تطلب ضمنيا من الله أن يغير نواميس الكون من قوانين الفيزياء والكيمياء والأحياء لأجل تحقيق الدعاء.

لذلك من المهم أن تنتبه - أن نتنبه جميعا - عندما لا يتحقق دعاؤنا أن نتفحص أشياء كثيرة..

هل كنا قد أدينا كل ما يجب أن نفعله في الموضوع الذي ندعو عنه؟

هل تحقق الأمر يعني حصولك على مكانة لا تستحقها، مقارنة بشخص آخر - أو أشخاص آخرين بذلوا من الجهد أكثر بكثير مما فعلت أنت؟

هل يتعلق الأمر بأشخاص آخرين، يجب أن تتأثر حياتهم سلبا أو إيجابا بما تدعو له؟ هل تريد فلانة كزوجة أو تريدين فلانا كزوج؟ ماذا عن قراره الشخصي أو قرارها الشخصي؟ ماذا عن الزواج بأي كان أو بأي كانت...أليس هذا الأمر مرتبط أيضا بشخص آخر يمكن أن تكون له قراراته وخياراته ودعواته؟ لماذا تفترض أو تفترضين أن الله عليه أن يغير حياة آخرين من عباده من أجلك؟

هل تحقق الأمر سيكون مثل معجزة؟ هل لو حدث ضمن فيلم سينمائي فإن المشاهدين سيعدونه مبالغة غير واقعية؟ هل تريد أن تصلك رسالة تغير حياتك فجأة دون أن تكون قد بذلت جهودا لنيلها؟ هل تريد أن يأتي خلاصك من يد مجرم في اللحظة الأخيرة؟ رغم أنك لم تبذل جهدا وحذرا في تجنب الوصول لتحت يديه؟ بل على العكس فعلت كل ما بوسعك لكي تسقط في قبضته بناء على أنك تحسن الظن بالله على أنه سينقذك وينصرك في اللحظة الحاسمة؟!

هل تعترف أن جهودك لم تكن تستحق ما ترغب في حصوله رغم ذلك تجد في نفسك القدرة على مساءلة الله – تعالى شأنه– على عدم استجابته لدعائك؟

هل يبدو هذا منطقيا؟

* * *

الله قادر حتما على فعل «كل المستحيلات» التي قد تطلبها في دعائك...

الله قادر على ذلك فعلا، لكن لماذا سيفعل ذلك؟ تريد أن تكون «الأول على بلدك في الثانوية العامة» وهناك عشرات يستحقون ذلك أكثر منك، لماذا تعتقد أنه عز وجل سيظلمهم ويجاملك؟ حاشاه! تريد أن تكون مدير وكالة ناسا لأبحاث الفضاء؟ الله قادر على ذلك، لكن ماذا عن قدراتك أنت؟ هل تعتقد أن إسناد مناصب مهمة لأشخاص دون قدرات مناسبة أمر يتفق مع حكمته عز وجل؟

وطلباتنا بتحرير القدس أو فلسطين وما شابه من دعوات «جماعية» أقرب إلى دعوة شاب لم ينجح في امتحان الثانوية العامة، يدعو ربه بحرارة أن يستيقظ في الصباح ليجد نفسه مديرا لوكالة ناسا..

ماذا إذن؟ ماذا يفعل الدعاء؟

تريد أن «ينصرك» الله في موقف معين، وتطلب «نصره» عبر الدعاء، كلمة النصر هنا تعني «المساعدة»، وهذا يعني أنك «تقوم بعمل معين» وتطلب منه عز وجل مساعدتك فيه. هذا نعم. لكن ليس أن يأتيك ما تريد دون أن تبذل الجهد المستحق.

وهذا هو كان تعامله عليه الصلاة والسلام عندما كان يقوم بالدعاء لأمور محددة يطلب فيها النصر، كما في موقفه الشهير يوم بدر يوم وقف يدعو «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[1]،

(١) صحيح مسلم ٥٨.

فعل ذلك بعدما أعد كل الاستعدادات اللازمة للمواجهة، ولم يكن الدعاء بأي شكل من الأشكال بديلا عن هذه الاستعدادات.

ولعل هذا يشرح لنا ما رُوي عن عمر بن الخطاب «**إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ. وَلَكِنْ أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ. فَإِذَا أُلْهِمْتُ الدُّعَاءَ عَلِمْتُ أَنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ**[1]».

فهم الدعاء يتضمن التحضير والاستعداد والعمل، ولا يكون الدعاء منفصلا أو مستقلا عن ذلك، بل إن عمر لن يجرؤ تأدبا مع الله عز وجل أن يطلب منه ما لم يستعد له....

الاحتمالات اللامتناهية في كل خطوة

هل ستقول ما الذي بقي للدعاء أصلا؟ وأين ادعوني أستجب لكم؟ وأين إني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان..

في الحقيقة، هناك جزء كبير في الحياة اليومية خاضع لوجود احتمالات كبيرة جدا، الظروف تكون شبه متساوية، استعدادك واستعداد غيرك متقارب جدا، ولكن في النهاية هناك مجموعة احتمالات لا متناهية تنتج أحيانا من تداخل نتائج احتمالات أخرى وهكذا.. مفترقات طرق داخل مفترقات طرق تؤدي إلى مفترقات طرق...

هذا الجزء - الذي قد يبدو هامشياً- يمكن أن يكون مهما جدا عند تساوي الكثير من المتغيرات الأخرى..

قد يسميه البعض حظا.. أو صدفا..

وقد يسميه آخرون توفيقا...أو استجابة لدعاء..

لا يقلل أحد من أهمية هذا الهامش أو تأثيره في حياتنا...

الدعاء جزء من منظومة إيمان

علينا بعد كل هذا أن نؤكد أنه بالنسبة للمؤمن فإن عدم الاستجابة للدعاء قد تكون لأن الله بحكمته قد يرى أن هذا الذي يلح على الحصول عليه لن يكون مفيدا له ..على الأقل في وقت الدعاء.. وربما سيقدم له شيئا مختلفا ولكنه أفضل...أعرف شخصيا هذا الأمر وأعرف

---

(١) مدارج السالكين الجزء الثالث ص ١٠٣

كثيرين مروا به وعبروا عنه لاحقا: يطلبون شيئا ويلحون في الدعاء لطلبه، ويرون أن حياتهم لن يكون لها معنى من دون تحقيق هذا الشيء أو الحصول عليه (ربما يكون هذا الشيء «منصبا» أو «شخصا» أو «تخصصا دراسيا»)، ولكن - رغم كل الإلحاح في الدعاء والصدق فيه- لا يستجاب، وتمر في بال الداعي كل الأسباب التي جعلت الله لا يستجيب لدعائه (ذنوب ومعاصي، عقوبة، الله لا يحبه...إلخ) ثم وبعد مرور فترة ليست طويلة، تتغير رؤيته لما كان يلح في الحصول عليه، ويرى أن الله أنقذه مما كان يلح في الدعاء للحصول عليه، ويرى أن أفضل ما حدث له كان في الطرق الأخرى التي تصور أنه يسلكها مضطرا يوم لم يفتح له الله ذلك الطريق الذي كان يريده..

وهذا لا يمكن أن يفهمه ويتقبله إلا المؤمن.. الدعاء هنا جزء من منظومة إيمان ...لا يمكن لشخص «ملحد» أو «لا أدري» أن يتفهم هذا الجزء بمعزل عن كل مفردات الإيمان الأخرى، لا يمكنه أصلا أن يتقبل ما نقول، سيعتبر أن كل هذه تبريرات وتفسيرات بأثر رجعي تعبر عن تأقلم لاحق مع الواقع، سيعتبرها مجرد «تحيزات» عقلية للخلاص من الشعور بالخذلان من عدم تحقق المراد..

لا يمكن معاملة الدعاء بصفته البوابة التي سأدخل منها إلى الإيمان.. أو أخرج منها من الإيمان..

وهذا ما يفعله سؤال «لماذا لم يستجب لي؟» عندما يطرح في سياق الجدل والحديث عن «وجود الله»..

أنه يعتبر استجابة الدعاء شرطا للإيمان...وليس جزءا منه..

هذا الأمر لا يجدي...

ربما استجاب «بطريقته»

فلنتذكر أيضا.. ما دمنا نتحدث عن الدعاء وعدم الاستجابة له..

هؤلاء الذين يتحدثون عن عدم الاستجابة، هل أحصوا المرات التي استُجيب فيها دعاءهم؟

أم أننا عندما يتحقق ما نريده ننسى أننا دعونا الله أصلا؟ كعادة الطبيعة البشرية التي تنحاز إلى تذكر التجربة السلبية أكثر من أي تجربة إيجابية[1]؟

هل أحصوا كم مرة تحقق الدعاء مقابل كم مرة لم يتحقق؟

لو أننا أجرينا استفتاء على هذا السؤال للناس: هل تحققت لكم دعوات؟ فستكون النتيجة غالبا لصالح الإيجاب، بالضبط ستكون الإجابة مطابقة لنسبة المؤمنين وغير المؤمنين في العينة التي تم استفتاؤها، المؤمنون سيقولون في «أحيان كثيرة نعم» وغير المؤمنين سيقولون «في أحيان كثيرة لا»، ولا يعود هذا بالضرورة إلى «الحكم المسبق المتحيز» كما قد يفسر البعض، بل ربما يعود أكثر إلى رؤية كل من الفئتين للدعاء..

المؤمنون سيجيبون عن الأمر بناء على فهمهم للدعاء من ضمن مفهوم الإيمان ككل، من ضمن حزمة الإيمان كاملة: ربما لم يستجب الدعاء مباشرة، لكن ما حدث كان أفضل.. ربما تأخر ولكن كان هذا أنسب..(كأن يكون الداعي قد أراد دخول كلية الطب ولكنه دخل طب الأسنان، ووجد لاحقا أن ذلك أفضل له ولقدراته) أغلب من مر بهذه التجربة أو ما يماثلها من المؤمنين سيكون ردهم على السؤال بالإيجاب.

غير المؤمن ممكن أن يكون مر بتجربة مماثلة ولكنه سيرد على السؤال بالنفي...**ليس هذا ما طلبته منه!**

الجواب عن سؤالي «هل تحقق الدعاء» و «لماذا لم يتحقق» لا يمكن أن يكونا مستقلين ومنفصلين عن مجمل مفهومنا عن الإيمان...

* * *

هل سيكون مجديا أن يتحول الدعاء إلى وسيلة لاختبار وجوده؟ كما يتعامل مع ذلك بعض غير المؤمنين...

ألا يمكن أن يكون الدعاء لم يتحقق لهذا السبب بالذات؟

---

(1) Negative Interpretation Bias and the Experience of Pain in Adolescents Lauren C. Heathcote,* Merel Koopmans,y Christopher Eccleston,z Elaine Fox,* The Journal of Pain, Vol 17, No 9 (September), 2016: pp 972-981
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/27263991
Negativity Bias, Negativity Dominance, and Contagion Paul Rozin and Edward B. Royzman Personality and Social Psychology Review, 2001, Vol. 5, No. 4, 296-320
http://www.wisebrain.org/media/Papers/NegativityBias.pdf

لأنه عز وجل كان يعرف وهو علام الغيوب أن الداعي سيفكر لاحقا بهذه الطريقة...

لو تعاملت مع الدعاء كوسيلة لاختبار وجوده عز وجل..

فتذكر أنك تقرأ أسئلة الامتحان بالمقلوب.

أنت من يختبر هنا...

وليس هو..

أسئلة القدر المزمنة

ثمة أسئلة مزمنة عن القدر، يقود الأول منها إلى الأسئلة المتبقية تباعاً.

السؤال الأول: هل الإنسان مخير أم مسير؟

إن كان الجواب بأن الإنسان مُسير، فإن السؤال التالي ينقلنا إلى الآخرة وحسابها: كيف يعاقبك الله إذن على ما أجبرك على القيام به؟

وإن كان الجواب بأن الإنسان مخير، فإن السؤال التالي سينقلنا إلى مجموعة ليست قليلة من النصوص الدينية التي يفهم منها أن الإنسان مسير بقدر كتبه الله عليه.

وهذا يأخذنا مجددا إلى السؤال: كيف يعاقبنا الله على ما جعلنا نفعله؟

وندخل في حلقة مفرغة من الأسئلة والأسئلة المضادة: تخيير، تسيير، ظلم، لا منطق، كل هذا الإجرام كان جزءا مما قدره على المجرمين؟ .....إلخ.

علينا أن نعترف أن الأسئلة منطقية، وأن الكثير من الأجوبة الشائعة قدمت على نحو ضبابي قاد إلى المزيد من التشويش، خاصة بالنسبة لمن لديهم «شكوك» مسبقة.

* * *

بالنسبة لمن حسم أمره بالإلحاد، فهو غالبا يعتبر القدر وسيلة لتخدير الناس، وجعلهم مستسلمين لواقعهم دون محاولة لتغييره.

إذا كان كل شيء «مقدراً ومكتوباً» فعلامَ العمل؟

وللأمانة، وجهة النظر هذه فيها شيء من الصحة، فهناك من استخدم مفهوم القدر كمخدر، وعلى نحو موسع.

القدر مثل دواء له وظائف متعددة، من ضمنها تخفيف الألم»، وهو أمر صحي، وإيجابي.

ولكن «تخفيف الألم» هذا يحدث عندما يعطى «القدر» بجرعة محددة، يجب أن لا يزاد عليها.

وعندما يعطى بجرعات مضاعفة، فإن وظيفة تخفيف الألم يحل محلها التخدير، ويقضي التخدير بدوره على كل الإيجابيات الكامنة للقدر(عدا تخفيف الألم)، مثل الشجاعة في مواجهة الواقع لتغييره، ومثل استمداد القوة من مفهوم القدر..

لذا فإن اتهام هؤلاء بأن القدر وسيلة للتخدير ليس بلا أساس، لكنه مثل اتهام كل دواء ينتج أضرارا لو أعطي بجرعة مضاعفة، ..أي اتهام كل الأدوية بلا استثناء.

* * *

الفرق بين الاستخدامين للقدر، دقيق ومهم..

استخدام القدر كمخفف ألم، يقلل شعورك بالألم، لكنه لا يخفف «وعيك».

المخدر يلغيهما معا.

يلغي شعورك بالألم، وكذلك وعيك بالمشكلة..

وهنا الجزء الذي يفارق الاستعمال الطبيعي الإيجابي لفكرة القدر...أي عندما تتحول من مسكن إلى مخدر...

وهو أمر لا بد أن نعترف أنه حصل وبإفراط مع شعوبنا ومنذ قرون.. حيث بررت الكثير من الأحداث والكوارث والظلم بغضب الله ومشيئة الله.. وكان هذا بمثابة إشعار بعدم محاولة التدخل لتفسير ما حدث أو محاولة تغييره..

لا أعتقد أن هناك من ألحد مباشرة بسبب هذا الاستخدام التخديري للقدر...لكن الأمر له آثاره المشوشة المساعدة على الأمر، وهو أمر يجب أن يواجه مهما كانت المساحة حوله ملغمة.

* * *

ليس «تخفيف الألم» هو «الاستخدام الوحيد للقدر».

لكن الإيمان بالقدر يمكن أن يكون أيضا وسيلة لشحذ الهمة، لتخفيف الشعور بالخطر أثناء الإقدام على شيء ما.. يمكن أن يخفف من الخوف، بينما تقدم على اتخاذ قرار ما، فإن الإيمان بالقدر يمكنه أن يلعب دورا في تهدئتك، تخفيف هواجسك ووساوسك، يمكن للإيمان بالقدر أن يسهم في جعلك تركز فيما هو مهم، فيما يمكن أن يكون مجديا التفكير به، ويزيح عنك القلق المعكر للتركيز والإتقان..

يمكن للإيمان بالقدر أن يربت على كتفك ليقول لك: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا... فامض وتوكل...

ولكن هذا الاستخدام لا يأتي منفردا قط، لا يمكن أن يكون «فعّالا» بمعزل عن أركان الإيمان الأخرى التي تحتم عليك العمل والإنجاز وتحمل المسؤولية...الإيمان بالقدر بمعزل عن الإيمان بالعمل والمسؤولية يؤدي إلى عشوائية وتخبط ليسا أقل ضررا من استخدام القدر كمخدر...

* * *

من ضمن المشاكل في سؤال «التسيير والتخيير» أن الجواب يحدد ضمنا في نص السؤال.

إما مخير، أو مسير..

لا حل ثالث، لا حل وسط، إما هذا أو ذاك.

نعم أو لا.

للأسف هذا الجواب الحاسم القاصم لا وجود له. لأن حياة الإنسان أعقد بكثير من أن تختصر بجواب من نوع الأبيض والأسود.

وهكذا فإن ما قد يبدو للوهلة الأولى من تناقض بين النصوص القرآنية عن القدر، هو في الحقيقة ليس تناقضا، بل هو ربما تعبير عن التداخل الطبيعي بين التسيير والتخيير في حياة الإنسان.

* * *

عندما يطرح السؤال، يفهم منه عادة: هل ترك الله لك الخيار فيما تفعل أم أنك مسير بإرادته عز وجل؟

هذا ما يفهم من السؤال حتى لو لم يرد فيه لفظ الجلالة. تاريخيا طرح السؤال ضمن هذا السياق فصار يستحضر على نحو تلقائي، وصار الجواب يأتي محفوفا بمخاطر مخالفة «العقيدة».

لكن ماذا لو طرح السؤال بطريقة تعزله عن هذا السياق..

ماذا لو طرح على هذا النحو؟ **هل لدى الإنسان إرادة حرة، أم أن ظروفه تتحكم به، تؤثر عليه؟**

غالبا سيكون الجواب هنا مختلفا.

من الفلسفة إلى البيولوجيا مروراً بعلم النفس

رغم أن السؤال يعتبر من كلاسيكيات الخلاف في التراث الإسلامي (بل والتراث الفلسفي العالمي أيضا)، إلا أن جوابه لم يحسم «علميا» حتى اليوم، لكن الخلاف انتقل ليشمل مجالات «علم النفس» و «علم الأحياء» بالإضافة إلى الفلسفة.

على سبيل المثال: المدرسة السلوكية Behaviorism في علم النفس والتي قادها سكنر[١] تؤمن أن الظروف الخارجية تشكل الشخصية وتحدد مسار خياراتها على نحو جبري تماما. [٢]

من ناحية أخرى، فإن ما يعرف بالحتمية البيولوجية Biological Determinism أو الحتمية الجينية Genetic Determinism ترى أن سلوك الإنسان وقراراته مرتبطة بشكل مباشر بجيناته. وهكذا بينما تركز المدرسة السلوكية على العوامل الخارجية، فإن الحتمية الجينية تركز على العوامل الداخلية، وهي نظرية كانت رائجة في أواخر القرن التاسع العشر وأوائل القرن العشرين (واستثمرت سياسيا على نحو عنصري لتبرير تفوق عرق على الأعراق الأخرى ومن ثم تبرر سيطرته)[٣] ثم خفتت شعبيتها إلى أن أعيد الاهتمام لها في التسعينات مع الاهتمام بمشروع الجينوم البشري[٤]، وهي اليوم منتشرة لدرجة أن البعض يسمي الأمر «عبادة الجينات»[٥].

على الطرف الآخر، وفي دعم «الإرادة الحرة Free Will» يقف المؤمنون بالفلسفة التحررية Libertarianism بقوة خلف حرية الإرادة الإنسانية دون أي اعتراف بالحتمية سواء كانت «سلوكية» أو «بيولوجية»[٦].

---

(١) بورهس فريدرك سكنر B. F. Skinner (١٩٠٤-١٩٩٠) عالم نفس أمريكي ومؤسس المدرسة السلوكية في علم النفس وكان من أهم المناهضين لفكرة حرية الإرادة والتي كان يعتبرها مجرد وهم.

(2) Skinner's Determinism D. A. Begelman Behaviorism Vol. 6, No. 1 (Spring, 1978), pp. 13-25Cambridge Center for Behavioral Studies (CCBS)

(3) Biological Determinism | Encyclopedia.com
https://www.encyclopedia.com/science-and-technology/biology-and-genetics/biology-general/biological-determinism

(4) Rethinking Genetic Determinism | The Scientist Magazine®
https://www.the-scientist.com/vision/rethinking-genetic-determinism-50020

(5) Gene Worship: Moving Beyond the Nature/ Nurture Debate Over Genes, Brain and Gender, Gisela Kaplan. Other press - August 24, 2010

(6) The Case for Libertarian Free Will Walter Glannon An Interdisciplinary Journal of Philosophy
Volume 42, 1999 - Issue 2 Pages 285-303 | Published online: 06 Nov 2010

بين هذا وذاك، يغلب الآن على الساحة العلمية موقف يتوسط بين الطرفين ويجمع بينهما في قبول لتفاعل بين العوامل الداخلية والخارجية وبين حرية واستقلالية الإرادة[1].

* * *

نولد في مرحلة زمنية معينة، في منطقة جغرافية محددة، لأبوين محددين، ضمن أسرة معينة.

لا خيار لنا في أي مما سبق.

وهذه ليست أمورا عابرة في حياة أي منا، بل هي التي تشكل شخصيتنا، وبالتالي الكثير من قراراتنا.

عبر الوالدين، نحن نرث مجموعة جيناتنا التي تشكل أكثر بكثير من مجرد لون العين أو البشرة أو الطول.. الكثير مما نسميه ذكاءنا هو في الحقيقة نتج عما ورثناه من أبوينا.. كذلك هو الأمر بالنسبة لمواهبنا وتفوقنا في أمور بعينها - قد لا يظهر الأمر عند أي من أبويك - لكنه ظهر عندك.. الكثير من صفاتنا الشخصية أو من شخصيتنا بشكل عام يمكن إرجاعه إلى جيناتنا - بعض الدراسات التي تابعت حالات توائم فصلوا في طفولتهم وكبروا في ظروف مختلفة تقول إلى أن ما بين ٥٠ إلى ٦٠ ٪ من صفاتنا الشخصية ترجع إلى الجينات[2]. كذلك فإن ما يعرف بـ«عناصر الشخصية الخمسة»[3] تتأثر بنسبة مقاربة بالعوامل الوراثية[4].

وهذه «عوامل داخلية» تتفاعل مع «العوامل الخارجية» من الظروف المحيطة حولك، وجود والديك، تسلسلك بين أخوتك يلعب دورا مهما، الطبقة التي ولدت فيها، دور الجد أو الجدة أو الأقارب المؤثرين، الثقافة الأوسع التي نشأت فيها ضمن البلد الذي ولدت فيه، استقرار

(1) Human agency in the neurocentric age Steven P.R. Rose 10.1038/sj.embor.7400566| Published online 01.11.2005 EMBO reports (2005) 6, 1001-1005
http://embor.embopress.org/content/6/11/1001

(2) Twins Separated at Birth Reveal Staggering Influence of Genetics
https://www.livescience.com/47288-twin-study-importance-of-genetics.html

(٣) نظرية عناصر الشخصية الخمسة أو سمات الشخصية الخمسة - هي ما يُعتقد أنّها الأبعاد الأساسية التي تكوّن شخصيّة الإنسان وهي صفات الانفتاح على الجديد والتجارب، الالتزام بالقوانين وضبط النفس، التخالط والاندماج، التوافق واللطف مع الآخرين، والميل إلى القلق والاضطراب.

Big Five personality traits - Wikipedia

(4) ouchard TJ, McGue M (January 2003). «Genetic and environmental influences on human psychological differences». Journal of Neurobiology. 54 (1): 4-45. doi:10.1002/neu.10160. PMID 12486697.
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/12486697

البلد أو اضطرابه والظروف العامة فيه... كل هذا يتفاعل مع جيناتك ويساهم في تكوينك الشخصي مباشرة، على الأقل لبضع سنوات تأسيسية من عمرك.

بعض الصعوبات التي تواجهها في حياتك المبكرة تكون تحديات تظهر بعض ما ورثت من استعدادات..

والبعض الآخر من الصعوبات قد يفعل العكس، ..بعض التشجيع الذي تتلقاه في طفولتك قد ينمي استعدادات على حساب أخرى...وجود تنافس بينك وبين أخوتك على إرضاء أمك مثلا قد ينمي روح التنافس عندك طيلة حياتك، وحرصك على رضاها بطريقة معينة قد يجعل هذه الطريقة تستمر معك إلى النهاية.

هذه الخلطة معقدة جدا في التفاعل بين الجينات وبين الظروف، النسبة بين كم من الجينات وكم من الظروف الخارجية لا يمكن تحديدها بدقة وتتدخل في تحديد النسب أيضا سلسلة متداخلة من الجينات والظروف.

في النهاية، هذا كله يحدث لك، ويحدث بك، ويحدث فيك.. وأنت تكون خارج نطاق السيطرة على ما يحدث...

هذا كله يكون منطقة يمكن تصنيفك فيها بأنك مسير فيها إلى حد كبير (ليس تماما، ولكن هناك نسبة تسيير كبيرة).. .وستأخذ أشياء كثيرة من هذا التسيير إلى المنطقة التي تكون مخيرا فيها..

بعبارة أخرى، ثمة مرحلة زمنية تأسيسية من عمرك، ربما إلى حد العشر سنوات أو أقل أو أكثر قليلا...هذه المرحلة تكون مسيرا فيها في بعض النواحي من اعتبارات عديدة[1].. ولكن ولأنها تأسيسية فإنها تمنحك (عدة صفات متنوعة) ستستثمرها في رحلة حياتك اللاحقة...»التسيير» بهذا المعنى هنا هو أقرب إلى «التأثير» منه إلى «التسيير» كما نفهمه بالمعنى السطحي المباشر.

بعد هذه المرحلة سيكون هناك مناطق أخرى تعتمد على وعيك بنفسك وبدورك في الحياة وسواء كنت تعتبر هذا تخييرا منك أو كنت فقط تعيش حياتك لتثبت نفسك أو تثبت ما أخبرك

(١) لا ينفي هذا وجود هامش من الإرادة الحرة حتى في طفولة مبكرة للغاية

للمزيد هذه مقابلة مع ستانلاس ديفان أحد أهم الباحثين في علم الوعي التجريبي

Tracing Consciousness In The Brains Of Infants

https://www.forbes.com/sites/johnfarrell/2018/04/19/tracing-consciousness-in-the-brains-of-infants/#42102c5c722f

مجتمعك ومحيطك أن عليك أن تفعله، فإن ثمة مجال أوسع للخيارات في هذه المرحلة. وليس الأمر سهلا أبدا، بل يشبه الأمر صراعا داخليا مع نفسك ورغباتك وإرادتك، وصراعا خارجيا مع محيطك وبيئتك.

في الحالتين، حتى اختيارك هذا قد تدخل فيه عوامل مسبقة عديدة، مثل ما تربيت عليه وما تشكلت عليه في السنوات السابقة.. كما أنك قد تذهب إلى خيار معاكس لما حاولت البيئة قولبتك عليه كرد فعل نتج عن تفاعلات أعقد مما يبدو الأمر..

هناك مفترقات طرق كثيرة في حياتك، وستختار أنت أي طريق تسلك...لكن هذا الخيار لن يكون خالصا بملء إرادتك الحرة دوما...غالبا هناك ظروف تفاعلت وتتفاعل معها (تجارب سابقة، خبرات، صفات شخصية خاصة...إلخ) وتقود إلى هذا الخيار..

إذن سؤال هل أنت مخير أم مسير لا يمكن الرد عليه بالسهولة كما يرغب السائل غالبا. هناك مزيج من التسيير والتخيير في حياة كل منا وتختلف هذه النسبة من مرحلة إلى أخرى ومن مفترق طرق إلى آخر...

لكن التسيير في هذه الحالة لا يشبه الفكرة التقليدية السائدة عن «المكتوب على الجبين الذي لا بد أن تراه العين...التسيير هنا ليس شيئا قد كتب عليك بأنك يجب أن تفعله وهناك من يتحكم بك عن بعد عبر «ريموت – كونترول»، بل هو تفاعل مستمر مع ظروف خارجية، يمكنك أحيانا أن تساهم في تغييرها، بالاعتماد على ما وجدته عندك من أدوات..

سلم وثعبان ولعبة المخاطرة

الفرق بين الفكرة السائدة عن «القدر باعتبارك مسيرا في داخله» و «القدر باعتباره مزيجا من التسيير والتخيير» هو كالفرق بين لعبتي «السلم والثعبان» و «رسك Risk»، في اللعبتين ثمة «نرد» يمكن اعتبار نتائجه عشوائية، الفرق أن عشوائية النرد تتحكم تماما بلعبة السلم والثعبان، بحيث أنها لعبة حظ تماما، الفائز لم يبذل جهدا في فوزه والخاسر لم يتكاسل عن شيء، النرد تحكم باللعبة تماما. أما في لعبة الرسك، فالنرد – بعشوائيته- يمنح لكل من اللاعبين بعض «المعطيات» التي يتعاملون معها ويبنون عليها لاحقا بناء على تحالفاتهم و تخطيطهم و«ذكائهم».

النرد أثر في اللعبة بالتأكيد، لكنه لم يتحكم بها تماما، بل كان الأمر متداخلا بين تفاعل التخطيط والذكاء مع معطيات النرد الأولية.

كذلك يمكن تشبيه الفرق بين الأمرين، مثل أن يقوم طلاب مدرسة بأداء أدوار في مسرحية معدة مسبقا، لتكن مسرحية «جزيرة الكنز» مثلا، كل منهم حفظ دوره وأداه على المسرح ضمن الديكورات المعدة مسبقا.

وبين أن يقوم نفس الطلاب بلعبة تفاعلية كشفية يبحثون فيها عن الكنز في غابة ما، لكل مجموعة من الطلاب هناك صندوق يضم محتويات مختلفة عن المجموعة الأخرى، يضم كل صندوق جزءا مختلفا من الخريطة، وأدلة متنوعة مختلفة في كل صندوق، وأدوات وعدد تساعد في الرحلات الكشفية وتختلف أيضا في كل صندوق (بوصلة، حبل، مصباح يدوي، صافرة.. إلخ).

الصندوق تضمن أمورا مهمة حصل عليها أعضاء كل فريق دون بذل جهد منهم، أو خسروها مقارنة بما ربحه أقرانهم في الفريق الآخر دون ذنب منهم، محتويات الصندوق تؤثر حتما على أداء كل فريق، لكنها لا تحدد بالضرورة الفريق الفائز، بل تفاعل كل فريق مع ما لديه ومع الظروف المحيطة هو الذي يحدد ذلك.

لكل منا صندوق نستلمه في مطلع مراهقتنا تقريبا، يضم ما ورثناه من جينات لها علاقة بصفاتنا الشخصية، ويضم ما تربينا عليه وظروف نشأتنا الأولى بسلبياتها وإيجابياتها..

نأخذ هذا الصندوق، ونضيف ما فيه إلى خيار الإرادة الموجود عند الجميع...

ثم يقال لنا: ابحث عن الكنز..

* * *

بقدر تعلق الأمر بعلم النفس، فإن الحديث عن (الإرادة الحرة المطلقة) يعد خرافة أو خيالا من قبل بعض الباحثين[١]، وهناك حديث مقارب جدا من قبل باحثين في علوم الأعصاب[٢].. وهذا لا يعني أن الأمر محسوم لأي طرف، لكن النتيجة النهائية تقع غالبا- كالعادة- في الوسط من كل هذا.. العلم يزيح الستار أكثر فأكثر عن كمية محددات مسبقة يملكها كل منا، ولا يعني هذا الاستسلام الجبري لأي واقع، فهناك هامش تغيير حقيقي، لكن حتى هذا الهامش تدخل فيه العدة المسبقة بنسبة ما.

(1) Illusion of Choice: The Myth of Free Will | Psychology Today
https://www.psychologytoday.com/us/blog/neuraptitude/201608/illusion-choice-the-myth-free-will

(2) Can Neuroscience Debunk Free Will? | Time
http://time.com/3529770/neuroscience-free-will/

إذن حجة الجدل المعروفة (لماذا كتب الله عليك شيئا ثم عاقبك عليه؟) ليست فعّالة حقا إلا إذا كان الفهم للمسألة جبريا منعزلا عن كل هذا التداخل الموجود في الواقع بين «التسيير والتخيير».. التسيير هنا هو ذلك الصندوق الذي نستلمه وفيه جيناتنا وخبراتنا وظروف نشأتنا التي لا دخل لنا فيها.. والتخيير هو طريقة استخدامنا لما في الصندوق والقرارات التي نأخذها في مفترقات الطرق الحاسمة في حياتنا...

للأسف الفهم السائد للقدر هو فهم أقرب للجبرية في ظل غياب لغة واضحة تفصل الأمر المتشابك في سؤال التخيير والتسيير.

إشكاليات في فهم القدر

هناك خمس إشكاليات «مُشَوِّشة» ينبغي توضيحها:

الأولى- هناك خلط بين مفهوم «علم الله المسبق» والقدر

الله يعلم مسبقا ما ستفعل وما ستختار وذلك ضمن علم غيبه. هو خارج الزمان والمكان ومعرفته بما ستختار في حياتك قبل ولادتك ناتجة عن علمه الذي أحاط بكل شيء بما في ذلك الزمان والمكان.. ولا علاقة لذلك بكونك مسلوب الإرادة تجاه ما تختار (أو تجاه ما علم أنك ستختاره)، يمكنك أن تختار شيئا ما في لحظة أخيرة ويكون هو قد علم ذلك أيضا.

لو تخيلنا أن الزمان مثل المكان، له شكل وأبعاد مرئية محددة، فإنه عز وجل بصير به كما هو بصير بالمكان، ولأنه خارجه سبحانه وتعالى، فإنه يراه كله بكل أبعاده- التي هي الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة لنا- ويرى ما يحدث فيه، وهذا لا علاقة له بكونه «يجبرنا» على خياراتنا وقراراتنا التي عرفها قبل أن تحدث.

المثال الشهير الذي يقرب الفكرة هو أستاذ المدرسة الذي يعرف مستوى طلابه جيدا ويعرف غالبا عندما يضع الأسئلة كيف سيكون أداء كل منهم في الامتحان، ويستطيع أن يقدر ولو بشكل تقريبي ما سيحصلون عليه من علامات.

ولو أنه سجل توقعاته في دفتر ملاحظاته، وجاءت كما توقع، فإن هذا لا يعني أنه قد «أجبرهم» على الحصول على تلك العلامات، بل يعني أنه قد خبرهم على نحو جيد.

إذا كان الأستاذ المتمكن قد توقع أداء طلابه على نحو صحيح -ولله المثل الأعلى- أفلا يعلم الخالق الخبير ماذا سيختار كل منا قبل حدوث الخيار والامتحان أصلا؟ وهو الذي يعرف طريقة تكويننا وخبايانا وكل ما يؤثر فينا داخليا وخارجيا؟

أما القدر فيعني أن كل شيء من المحددات والمعطيات التي تؤثر فينا (من الجينات إلى ظروف البيئة المتغيرة شخصية عائلية ومحلية ودولية) كلها مقدرة ومحسوبة بدقة بالنسبة له عز وجل رغم ما يبدو من عشوائية بالنسبة لنا.

تسجيل كل هذه المعلومات مسبقا وقبل حدوثها سواء من ظروف داخلية أو خارجية وكذلك كيف سيكون أداؤنا لا يعني أنه «يجبرنا «على فعلها، إلا إذا كان دفتر توقعات الأستاذ إجبارا لطلابه على أدائهم، ولله المثل الأعلى، وهو العليم الخبير.

الثانية- سؤال الهداية!

النص القرآني يقول في أكثر من موقع (اللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)..

إذا كانت الهداية إذن بيده وبيد مشيئته فكيف يمكن أن يحاسَب شخص ما على أنه لم يهتدِ وعكست أفعاله عدم هدايته؟

للأسف هذا سؤال منتشر «مُشوش» وهو ناتج عن قراءة جزئية ضيقة سائدة عند الكثيرين في تعاملهم مع نصوص الهداية ومشيئته عز وجل.

نعم الله يهدي من يشاء، ولكن هناك شرط مسبق وموانع أيضا للهداية حددتها ..

الشرط الأول وربما الوحيد هو الجدية في البحث عنها..

﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ (العنكبوت: ٢٩/٦٩)

أي الذين بذلوا جهدا للوصول إلى الله، فالآية مكية قبل أن ينشأ مفهوم الجهاد العسكري الذي هو مجرد منطقة من مناطق بذل الجهد...أي أن هداية (السبل) المؤدية لله، تأتي لمن يكون جادا .. (انتبه هنا إلى أنها سبل وليست سبيلا واحدا)

ولكن هذا ليس كل شيء...ثمة موانع للهداية حددها النص القرآني نفسه في مواضع عديدة:

الله لا يهدي القوم الظالمين، الله لا يهدي القوم الفاسقين، الله لا يهدي القوم الكافرين.

الظلم سواء كان ظلماً للآخرين أو لنفسك، أو للأمور بصورة عامة، فالظلم يجعل المقاييس غير متوازنة، يعلمك الانحياز دوماً لجهة ما دون وجه حق، وهذا يتنافى فوراً مع آلية الاهتداء التي تتطلب قدراً من النزاهة يجعلك تتحمل نتائج ما وصلت إليه..

والفسوق يمنع عملية الاهتداء أيضاً لأنه ببساطة يجعلك عازفاً عنها وعن كل ما هو جدي ونافع حقاً، إنه يربطك بمجموعة غرائز ومتع صغيرة ويجعلها محور عالمك وحياتك، كل ما يتطلبه الاهتداء من جدية والتزام ودأب..

والكفر هنا هو بمعناه العام الذي يجعل من الإنسان يتخذ موقفاً مسبقاً رافضاً معانداً لله عز وجل بالمطلق، إنه الموقف الجاحد الذي لا يرى أي هامش للتواصل مع الإيمان بالله عز وجل، وبالتالي للرضوخ له..

هذه الموانع الثلاثة للهداية، لو أزيلت، ولو كان هناك الشرط الأول (جاهدوا فينا- بذلوا جهدا للوصول إلينا) لكان ممكن جدا أن تحدث الهداية...

كما لو أن الخطوة الأولى يجب أن تكون من العبد نفسه، من أجل أن يستحق الهداية...

وفق هذا الفهم لا تبدو نصوص (الله يهدي من يشاء) فيها إشكالية كبيرة...

ثالثا - سؤال: من خلق أفعال العباد؟

في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، دخلت الفرق الإسلامية في صراع فكري مع ما اعتبر أفكارا دخيلة على العقيدة من قبل فرق لم يبق لها أثر اليوم ولا نعرف حقا ما الذي قالته تلك الفرق أو كيف صاغت ما قالته لأنها اندثرت وكل ما بقي هو الردود عليها والتي أصبح بعضها جزءا من «العقيدة» - وهو أمر مفهوم طالما كان ما ترد عليه يومها «خطرا على العقيدة»، لكن بزوال هذا الخطر يصبح بقاء هذه الردود (دون سياقها الأصلي) أمرا قد يحدث القليل أو الكثير من التشويش.

من ضمن هذه الصراعات أفكار دخلت من قبل فرقة تدعى «القدرية»، حيث نقل عنهم زعمهم أن «أفعال العباد يخلقها العبد وليس الله»، وتبنى ذلك لاحقا بعض المعتزلة.

وكان هذا يعني حسب سياق الرد والرد المعاكس أنهم يقولون بوجود «خالق غير الله»، ولهذا فقد أطلق عليهم «مجوس هذه الأمة»[1] (ربما لأن الشائع أن المجوس يؤمنون بوجود خالق للشر غير الإله الواحد).

وقاد هذا الزعم أهل السنة إلى أخذ موقف مضاد انتهى إلى اعتبار أن الله هو خالق أفعال العباد، باعتباره خالق «كل شيء».

ومن ثم تحول هذا الأمر إلى جزء أساسي وثابت في مدونات «العقيدة»، رغم أنه أمر لم يذكر لا في قرآن ولا في سنة.

هكذا نقرأ عندنا: (وَهَدَى الله الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ السُّنَّة لِمَا اخْتَلَفُوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِه، ((وَاللّه يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاط مُسْتَقِيم))، فَقَالُوا: الْعِبَادُ فَاعِلُونَ، وَاللّه خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ أَفْعَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالى: ((وَاللّه خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ))، وَإِنَّمَا نَقَلْنَا هَذه الْعِبَارَةَ بِنَصِّهَا؛ لأَنَّهَا تَلْخِيصٌ جَيِّدٌ لِمَذَاهِبِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْقَدَرِ وَأَفْعَالِ الْعِبَادِ)[2].

(..الخلاصة: يرى أهل السنة أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ومقدَّرة له)[3].

(كان يذهب إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله عز و جل، ولا يجوز أن يخرج شيء من أفعالهم عن خلقه، لقوله عز و جل: ((خالق كل شيء)) ثم لو كان مخصوصاً لجاز مثل ذلك التخصيص في قوله: ((لا إله إلا هو)) وأن يكون مخصوصاً أنه إله لبعض الأشياء، ..وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سُئل عن أعمال الخلق التي يستوجبون بها من الله السخط والرضا، فقال: هي من العباد فعلاً، ومن الله تعالى خلقاً، لا تسأل عن هذا أحداً بعدي)[4].

يستند هذا على تفسير محدد لآية قرآنية كريمة جاءت في سياق نقاش سيدنا إبراهيم لقومه ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات:٩١ -٩٦).

---

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية جزء ١ ص ٥٩

(٢) شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٤٥، تحقيق محمد خليل هراس الطبعة الأولى ١٩٩٢م، الناشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

(٣) اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث ص ٦٤، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن الخميس الطبعة الأولى. الناشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية /١٤١٩هـ.

(٤) العقيدة -أحمد بن حنبل ص ١١٣-١١٤ الناشر : دار قتيبة - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ

آية ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ استخدمت للدفاع عن فكرة أن الله خالق أفعالنا، رغم أن السياق العام لا يتحمل ذلك، فقد كان سيدنا إبراهيم يناقش قومه في أنهم يعبدون ما ينحتون بأيديهم من مواد أولية خلقها الله كما خلقهم[1]، هل يعقل أن يعاتبهم على فعل ثم يقول لهم أن هذا الفعل قد خلقه الله فيهم؟

للأسف أضاف الحديث عن خلق أفعال العباد من قبل الله، تشويشا على فهم القدر، كيف يكون الله خالقا لأفعالنا ونحن محل لها ومن ثم نحاسب عليها؟

يمكن تفهم الظروف التي قادت إلى اتخاذ هذا الموقف، لكن لا بد أيضا من اتخاذ موقف شجاع مختلف، لا أحد يعتبر نفسه «خالقا لفعله» إذا آمن أنه هو من فعله بالفعل، أفعال البشر صادرة عنهم ولا يجب أن تصنف بأنها مخلوقة أصلا.

إذا قلنا أنها تدخل ضمن «الله خالق كل شيء»، فهل يشمل هذا القرآن؟! مع كل التفهم للسياقات التي جعلت مسألة «خلق القرآن» تصبح أمرا أساسيا في العقيدة، لكننا اليوم في فتن مختلفة.

رابعا- سؤال العدالة

السؤال قائم على تفاوت كبير في ظروف الناس بين أشخاص يولدون في ترف ويسر شديدين ويبدو كل شيء متوافرا لهم منذ اليوم الأول في حياتهم... وبين ظروف شديدة العسر على كافة الأصعدة... التفاوتات بين البشر تولد حتما فوارق بينهم وهذه الفوارق تؤثر في أدائهم بلا شك..

يسألون أين العدالة في كل ذلك؟

لكن من قال أن الحياة يجب أن تكون عادلة؟ العدل ليس هنا في هذه الحياة، بل في الحياة الآخرة. الله لم يقل قط أن العدل سيكون هنا...

هذه الحياة امتحان، ولكن صيغة الامتحان لا تجعل من الأسئلة موحدة وموجهة للجميع في ظروف واحدة، بل هي أقرب إلى صيغة الامتحان الشفهي أو الامتحان الذي أعدت أسئلته لكل منا على حدة..

---

(١) قال الطبري في تفسير هذه الآية وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: مَا بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ حِينَئِذٍ: وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ وَالْآخَرُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الَّذِي، فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ عِنْدَ ذَلِكَ: وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَالَّذِي تَعْمَلُونَهُ: أَيْ وَالَّذِي تَعْمَلُونَ مِنْهُ الْأَصْنَامَ، وَهُوَ الْخَشَبُ وَالنُّحَاسُ وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْهَا أَصْنَامَهُمْ وَهَذَا الْمَعْنَى الثَّانِي قَصَدَ إِنْ شَاءَ اللهُ قَتَادَةُ بِقَوْلِهِ الَّذِي: حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} (الصافات: ٩٦) بِأَيْدِيكُمْ «الطبري جزء ١٩ صفحة ٥٧٥

الله يحاسب الأفراد فرادى، وليس كمجاميع مصنفة ضمن معاصيها، كل نفس بما كسبت رهينة، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها...فمن تمام العدل الإلهي أن يكون الحكم الأخروي آخذا في الاعتبار الظروف الشخصية لكل فرد...الكتاب الذي يحصي كل صغيرة وكبيرة لا يضم أفعالنا بمعزل عن ظروفنا، بل معها وضمنها.

عندما يكون الامتحان الدراسي شفهيا، فإن الأسئلة قد تتفاوت من طالب لآخر...الطالب الذي يأتيه سؤال سهل، سيحاسب غالبا من قبل ممتحنيه على كل تفصيل...السؤال سهل، والكمال فيه أسهل لذا فالتدقيق على إجابته يبدو منطقيا جدا.

الطالب الذي يأتيه سؤال صعب، الممتحنون عادة ينظرون له بعين أقل محاسبة على الهفوات التي لم يكونوا يفوتونها على الطالب الذي جاءه سؤال سهل.

إذا كان هكذا الأمر مع البشر في تقديرهم لظروف بعضهم البعض...فكيف يكون الله الرحيم العادل مطلق العلم والمعرفة؟

خامسا - سؤال المشيئة :

ورد في القرآن الكريم إشارات عن المشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية على نحو قد يوحي بوجود تناقض وتصادم بينها...

أولاً - آيات تثبت المشيئة الإنسانية، ومعظمها مكية مبكرة.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (المزمل: ١٩/٧٣).

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المدثر: ٣٧/٧٤).

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (عبس: ٨٠/١١-١٢).

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨/٨١).

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ (النبأ: ٣٩/٧٨).

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الإنسان: ٢٩/٧٦).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)

ثانياً - آيات تثبت المشيئة الإلهية المهيمنة المطلقة، وهي مدنية ومكية متأخرة، وهي أكثر عدداً من الأولى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (الإسراء:٣٠)

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (الكهف: ٢٤)

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم: ١١)

﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم: ٢٧)

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩)

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦)

ثالثاً - آيات تربط المشيئتين: الإلهية والإنسانية، وهي مكية ومدنية معاً.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (الإنسان: ٧٦/ ٣٠).

﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٨١/ ٢٩).

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر: ٥٦)

هل من تناقض أو تصادم بين هذه الآيات؟ كما قد يبدو للوهلة الأولى.

في الحقيقة لا، والأنواع الثلاثة تندرج ضمن إطار تطوري واحد طرحه الخطاب القرآني في حركة واحدة باتجاه الإيجابية وزرعها في العمق العقلي والنفسي للشخصية المؤمنة.

كانت الخطوة الأولى والمهمة هي إثبات المشيئة الفردية للإنسان، وأولوية هذه الخطوة وأهميتها تتأتى من وقوعها داخل مجتمع جاهلي يلغي الفرد تماماً ويهمشه، فكان إثبات المشيئة

الإنسانية تحطيماً لقواعد مجتمع الجاهلية، ووثبة نحو مجتمع جديد، بأسس وقواعد جديدة، تحافظ على الفرد ومكانته.

لكن من أجل ألاّ تصبح هذه الوثبة قفزة في الفراغ المطلق، وتظل مشيئة الإنسانية هائمة، كان لا بد من مُوجِّه، من رادار، من بوصلة، تمنح هذه المشيئة وجهتها واتجاهها وغايتها بل وقوتها المحركة.

هذه البوصلة والرادار والطاقة لم تتوافر للمشيئة الفردية إلا عبر **ربطها بالمشيئة الإلهية**، عكس ما هو شائع، من أن ربط المشيئة الإنسانية بالإلهية فرّغ الأولى من محتواها ومضمونها.

كان ربط المشيئة الفردية الإنسانية بالمشيئة الإلهية واضح وقاطع ونهائي، ولقد استخدم الخطاب القرآني أقوى أنواع التوكيد (الاستثناء والحصر) لتقرير هذا الربط ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان: ٣٠/٧٦) في آيات مكية (سورتي المدثر والتكوير) وأخرى مدنية (سورة الإنسان) كما لو للتأكيد على استمرارية الدلالة والمغزى.

ماذا يعني هذا الربط؟ ماذا يعني في الأعماق النفسية وأبعاده الاجتماعية؟

لقد نزل الخطاب القرآني فأثبت للإنسان مشيئة ثم ربطها بمشيئته سبحانه وتعالى، وأسهبت آيات المشيئة الأخرى – وهي كثيرة جداً – في وصفها مشيئته عز وجل.

هل يعني هذا الربط أن المشيئة الإلهية ستلغي المشيئة الإنسانية، وتحول الإنسان إلى مجرد روبوت آلي، يتصور أنه يشاء، لكنه في الحقيقة لا يشاء، فمشيئته يتم التحكم بها عن بُعد (Remote Control)؟

لا شيء أبعد عن الحقيقة مثل هذا التصور السائد للأسف.

فالربط بين المشيئتين يمنح الأولى (الفردية) من قوة وتفوق الثانية (الإلهية) بدلاً من أن يلغيها ويهمشها. إنه ينفخ فيها من روحه عز وجل، يستمد منها التفوق والعلو والقوة.

كانت آيات الخطاب القرآني تنزل تباعاً لتصف للمسلمين: الله الأول والآخر الظاهر الباطن الرؤوف الرحيم المتعالي القوي العزيز الجبار والمتكبر...

وكانت مشيئة الله – عز وجل – تتماشى مع صفاته عز وجل: إنها مشيئة مطلقة الإيجابية، مطلقة القوة، مطلقة النزوع إلى الخير والعدالة.

وعندما ترتبط المشيئة الفردية – مشيئة الإنسان – الفرد المؤمن بمشيئة من هذا النوع، فإنها تستمد منها فاعليتها، إيجابيتها، تستمد من كونها مطلقة ومهيمنة قوة إضافية،

قوة علوية تتجه نحو المجتمع، وهي تحمل معها مقاصد المشيئة الإلهية نفسها: العدل، الحكمة، الرزق.

هذا الربط بين المشيئتين هو **التيسير الإلهي نفسه للسعي الإنساني**:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٩٢/٥-٧).

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٩٢/٨-١٠).

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (عبس: ٨٠/٢٠).

والتي انعكست في حديث الرسول (صلى الله عليه و سلم): «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» (البخاري ٤٦٦٦).

التحام المشيئتين لا يلغي المشيئة الفردية كما قد يتوهم البعض، بل يزيدها قوة ويمنحها البوصلة والاتجاه[1].

* * *

حجة القدر التي يستخدمها المشككون والمشوشون ناتجة بشكل أساسي من الفهم السائد للقدر...

إذا أردنا أن نبطل الحجة...علينا أن نغير هذا الفهم...

(١) للمزيد «البوصلة القرآنية» للمؤلف، طبعة دار المعرفة ٢٠٢-٢٠٦

الآخرة

يعتقد الملحدون أن الآخرة مجرد خدعة اخترعتها الأديان لعدة أسباب...أولها لجعل الناس يسلكون سلوكا جيدا في الحياة، من أجل أن تتم مكافأتهم في الآخرة، أو لتجنب العقوبة على الأقل.

ثاني هذه الأسباب، أن الآخرة تمنحنا عزاءً وسلواناً عن الموت الذي لا مفر من لقائه، الإنسان يخشى المجهول، ولأنه لا يعرف ماذا سيحدث بعد الموت، ولأنه يشعر بالحزن لفراق أحبابه عندما يموتون، فإنه سيكون من الأفضل له أن يؤمن أنهم ذهبوا إلى مكان أفضل، وأن «الموت» ليس نهاية كل شيء، بل مجرد بداية لشيء آخر، ذلك سيمنحه بعضا من الطمأنينة والسكون، بالنسبة لأحبائه، وبالنسبة له أيضا، عندما يلحق بهم.

وهذا صحيح، مفهوم الآخرة يساعد حتما في تقويم وضبط قيمنا وسلوكياتنا، وكذلك في تخفيف شعورنا بالحزن عند فراق الأحباب، أو الخوف من المجهول الذي يحدث بعد الوفاة... لا شك في ذلك.

بالنسبة للملحدين: هم يقولون لنا أن لا دليل أبدا على وجود هذه الآخرة.

وهذا صحيح أيضا. لا دليل مما يعترفون به. لم يرجع أحد من هناك (على الأقل في عصرنا الحالي) كي يخبرنا بما حدث، وحتى لو حدث ذلك فمن المستبعد جدا أنهم سيصدقونه.

لكن مرة أخرى، بالتأكيد لا يوجد «دليل» على الآخرة- حسب تعريفهم لكلمة دليل - ..هذا إيمان كامل بالغيب، مبني تماما على «غيب آخر» هو ما نقله الأنبياء والرسل في رسالاتهم، ولو أننا رأينا الآخرة جهارا نهارا في حياتنا، لما أصبح إيماننا بها إيمانا بالغيب.

يتطلب الإيمان هذه الوثبة الشجاعة في الفراغ...حيث تؤمن بشيء بكلياته دون أن تتمكن من التحقق من كل الجزئيات...

يتطلب الإيمان أن تبصر جيدا، حتى لو أغمضت عينيك.

* * *

الآخرة أكبر بكثير من أن تشعر بالراحة والسلوان عند فقدان الأحباب، أو بالطمأنينة من أنك لن تذهب سدى إلى عدم مطلق، أو مجهول غامض تماما بعد موتك..

الآخرة جزء من رؤية للعالم، جزء من الطريقة التي ترى كل شيء بها.. لم تأت الآخرة منفصلة عن رؤيتنا للحياة، بل جاءت كجزء متمم لها وناتج عنها ومنسجمة تماما مع كل ما سبق..

عدم وجود آخرة يعني وجود خلل في النظام الكوني الذي نعي أكثر من أي وقت مضى كم هو دقيق ومنظم.

عدم وجود آخرة يعني أنك تعتقد أن العالم قائم على معادلات غير متوازنة، حتى كلمة «قائم» هنا ستكون غير مناسبة..

عدم وجود آخرة يعني أنك تعتقد أن العالم عبارة عن لوحة PUZZLE كبيرة لكنها غير مكتملة القطع، بل إنها صنعت وهي غير مكتملة.

الآخرة هي قطعة الـ PUZZLE التي تكمل اللوحة التي نراها في الدنيا...

دونها ستكون الدنيا مثل جملة غير تامة، مثل مبتدأ بلا خبر..

وهل يفترض أن يكتمل الأمر جملة تامة؟ هل يفترض أن يكون لكل مبتدأ خبر؟

إن لم يكونوا يصدقون وجود رسالات لصانع هذا الكون تقول أن ثمة آخرة، فهذا أيضا ما يقوله صانع الكون في هذا الكون الذي صنعه.. كل شيء مبني على نظام دقيق وحسب قوانين متداخلة تسيّر هذا الكون.. كل شيء متوازن.. كل شيء محسوب بدقة متناهية، مضبوط بتوليف دقيق لدرجة كل شيء سينهار لو تغير هذا التوليف بمقدار بسيط جدا (واحد إلى ١٠ مضروبة في نفسها ٣٧ مرة مثلا)..

بعد كل هذا النظام والدقة، هل تتوقع أن يذهب كل شيء هباءً؟

سيكون ذلك لو حدث، مخالفا جدا لكل ما سبق في تاريخ الكون. في طريقة صنعه.

النظام الذي بني عليه هذا الكون، الكون الذي أعد ليكون ملائما للحياة، لا يمكن أن ينتهي دون أن يكون هناك طرف آخر يوازن معادلة الدنيا.. لا يمكن أن تنتهي هذه الدنيا مثل صرخة في واد ..أو مثل طلقة طائشة في الظلام..

* * *

الآخرة هي التتمة المنطقية - الحتمية - لمجرد فكرة وجود (خالق)...

مجرد أن تؤمن بوجود قوة عليا خلقتك.. فإن الآخرة تكون نتيجتها الحتمية المنطقية حتى لو لم ترسل هذه القوة رسلها..

مجرد وجود قوة عليا عاقلة دبرت وأدارت خلقك ووجودك، فهذا سيحتم وجود آخرة...ما دامت القوة العليا الخالقة كانت من الذكاء والقدرة بحيث أنها خلقتك وخلقت الحياة، فلا بد أن تكون قد وضعت (ثمة آخرة) ..

دون هذه الآخرة.. لا إله.. لا خالق.. لا حكمة...كل شيء محض هباء..

كل شيء عبث.

الإيمان بوجود خالق فحسب، دون شيء آخر، كما يفعل من يسمون بـ (الربوبيين) محض عبث.

إذا آمنت بوجود خالقٍ خلقكَ بوعي... فإن الخطوة المنطقية، الواعية، التالية...هي الإيمان بالآخرة.

***

يريدون كالعادة، دليلا علميا على وجود الآخرة...ماذا يقول العلم عن الآخرة؟

كالعادة، العلم لا يمكن له أن يجر إلى منطقة في خارج تخصصه إلا إذا كنت تريد أن تنطقه بما قررت سلفا.

العلم محايد، كما كان دوما، وكما سيبقى دوما ما دام هو علما «ماديا» بالمعنى الذي نعرفه.

العلم مجاله هذه الحياة. بأبعادها التي نعرفها. لا شيء قبل ذلك، لا شيء مما حدث قبل «الانفجار الكبير» ولا شيء مما سيحدث بعد أن ينتهي كل شيء.

يمكن للعلم أن يدلي بمعلومات تقود إلى الاتجاهين (مع الآخرة، ضد الآخرة) كيفما تقرأ هذه المعلومات، وغالبا بناء على القناعات المسبقة.

يمكن للعلماء أن يقولوا بناء على معطيات علمية تتعلق بنظرية الكم، أن الحياة بعد الموت مستحيلة حسب القوانين الفيزيائية الحالية[1].

---

(1) Scientist claims life after death is impossible | indy100

https://www.indy100.com/article/is-there-an-afterlife-life-after-death-impossible-scientist-claims-8043746

ويمكن لعلماء آخرين، أن يقولوا العكس، أن العلم يمكن له أن يثبت أن الحياة بعد الموت ممكنة، وبناء على «نظرية الكم» أيضا[1].

بالنسبة للمؤمن، هو يعرف أن هذا إيمان بالغيب، بمنطقة خارج ميدان العلم، وشهادة العلم في غير مجاله ليست مهمة كثيرا لإيمانه.

* * *

سيقولون أننا نؤمن بذلك لأن فكرة الآخرة تحتوي على مواساة وعزاء تجاه من ظلمنا ولم نظفر برؤيته وهو ينال جزاءه في الدنيا... بل قد يقولون أن فكرة الآخرة وتأجيل الانتقام لحينها قد ساهم في نجاة هؤلاء الطغاة لأن الأمل بأنهم سينالون عقابهم في الآخرة قد قوض من العزيمة على عقابهم في الدنيا...

في الحقيقة فكرة جزاء الظالمين اللاحق مغرية فعلا.

لكن إذا كان الأمر هكذا، مجرد فكرة للمواساة...فمحاسبة الطغاة لا تأتي حصرية لهم فحسب، للأسف.

فمع حساب الطغاة سيكون هناك حساب لنا أيضا.. ربما لا نكون قد اقترفنا ما اقترفوه، لكن من الصعب أن نكون واثقين من نتائج ما سيحصل معنا ..

لا أحد سيضحي بنفسه في سبيل أن يرى عذاب طاغية ما..

نعم...فكرة العقاب الآجل لمن ظلمنا في الدنيا فكرة مغرية حتما، وفيها نوع من المواساة بلا شك.

لكن الأمر أعمق بكثير.

كل شيء ((مؤرشف))

قبل سنوات، كان يمكن للمرء أن يستغرب من فكرة الحساب الأخروي على كل ما فعلناه في حياتنا. ليس شكا بقدرة الله، ولكن فكرة أن كل شيء فعلناه مسجل كانت تبدو فوق قدرتنا على التصور.

(1) Is there an afterlife? The science of biocentrism can prove there is, claims Professor Robert Lanza | The Independent https://www.independent.co.uk/news/science/is-there-an-afterlife-the-science-of-biocentrism-can-prove-there-is-claims-professor-robert-lanza-8942558.html

اليوم صرنا نعيش في عصر يقول لنا بوضوح أن كل شيء مسجل، وكل شيء مؤرشف، وكل شيء ممكن أن يستغل ضدنا في وقت ما. كل مكالماتنا على الهاتف، كل محاوراتنا على وسائل التواصل، كل تحركاتنا «حرفيا»، كل مواقع النت التي نظرنا إليها، كل ما ابتعناه، كل ما فكرنا بشرائه، رصيدنا في البنك، قنواتنا المفضلة، وأصدقاؤنا المفضلين.. كل شيء مسجل.

هواتفنا الذكية مبرمجة لتحصي علينا كل ما نفعله. عدا ما هو موجود في كل مكان من كاميرات تراقب وتسجل كل ما يحدث.

صحيح أن كل هذا مسجل لأغراض الأمن، والدعاية..

لكن الأمر يجعلك تفكر: إذا كانت الإمكانات البشرية قادرة على «إحصاء كل هذه التفاصيل» الشخصية عنا..

فكيف بقدرته عز وجل، دون تشبيه؟

* * *

بعد فكرة الآخرة..

سيعترضون على تفاصيلها..

لماذا يحاسب على كل شيء هكذا..

هل من المعقول أن الإله يحاسب على كل شيء على هذا النحو.. هل من المعقول أن يحاسبنا على هذه التفاصيل الصغيرة...المهم هو ما في القلب ..«من غير المعقول أن يترك رب العالمين كل شيء ويتوقف عند هذه الصغائر».. هكذا يقولون.

لا نسمع الاعتراضات على التفاصيل الصغيرة إلا عندما يكون تصنيفها (سلبيا) أي عندما تعتبر (معاصي)..

لكنهم يتناسون أنه يحاسب أيضا على تفاصيل إيجابية صغيرة ويثيب عليها.. على ابتسامتك في وجوه الآخرين...على صدقة عابرة لفقير أو مساعدة بسيطة ..على كلمة دعم لطيفة لمحتاج...لقمة صغيرة لقطّة في الطريق..

لا نسمع اعتراضا على صغر هذه الأمور...فقط عندما يكون الأمر مرتبطا بشيء سلبي.. رغم أن الفكرة واحدة، وأن هذه قد تحذف تلك.. وأن الحساب يجمع..

* * *

سيعترضون أيضا على طبيعة الثواب والعقاب..

يقولون أن وصف الجنة محفز لمن يعيش في طبيعة صحراوية قبل ١٤ قرنا ولن تكون بنفس التحفيز لمن يعيش في بيئة معتدلة الجو والطبيعة في العصر الحديث.

وهذا طبعا يتم بناء على نظرة انتقائية تركز على أنهار الجنة وثمارها وتنسى الراحة النفسية (لا لغو فيها ولا تأثيم) أو (نزعنا ما في صدورهم من غل).

عموما هذه النظرة تعامل الجنة كما لو كانت منتجعا سياحيا بخمس نجوم، سنشعر بالضجر منه بعد فترة مهما كان مترفا.. وبعضهم يقولها صراحة: الجنة مملة.

كما لو أنه استحقها ودخلها وجربها ومن ثم ضجر منها.

وما يدريك أن شعور الضجر سيبقى أصلا موجودا في الجنة؟

بل إن الحديث الصحيح ينبهنا أن «ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء»[1]. أي أن كل ما نسمعه عن أنهار الجنة وعسلها وخمرها وثمارها لا يشبه أنهار الدنيا وعسلها وخمرها إلا بالاسم فقط.

***

ثم سيقولون أن عذاب جهنم مبالغ به جدا.. هل هناك إله محب رحيم يخلق بشرا ليعذبهم على هذا النحو..

يا للسادية!

من المهم أن نتذكر أولا أنه لم يخلقهم ليعذبهم، بل خلقهم ليمتحنهم، قدم لهم تسهيلات كثيرة أثناء الامتحان، تجاهلوها ومضوا في طريقة أدائهم، وهنا جاءت لحظة تصحيح أوراق الامتحان. المشكلة ليست في طريقة التصحيح، بل في طريقة الإجابة في الامتحان.

بخصوص: عذاب جهنم واستفظاع تفاصيله...

باختصار ودون دراما. ما يفعله بعض البشر في الدنيا يجعلهم يستحقون هذا العذاب، ونحن نعرف عن إجرام البشر اليوم (موثقاً) أضعاف ما كنا نعرفه قبل سنوات.

---

(١) السلسلة الصحيحة ٢١٨٨

لكن سيقولون: جهنم لن يدخلها فقط هؤلاء الذين ظلموا سواهم وفعلوا ما يستحق العذاب أضعافا مضاعفة. بل سيدخلها أيضا، حسب النصوص الدينية، أشخاص عاديون، ارتكبوا معاصي وكبائر «شخصية» فحسب.

مبدئيا، هذا الكلام صحيح «نظريا» لكن رحمته مغفرته وعفوه موجودة دوما، ولا يمكن أن نقرر مسبقا من سيستفيد منها في ذلك اليوم. بكل الأحوال: هؤلاء غالبا يمكن لهم أن يقضوا فترة «عقوبة» ما، ثم لاحقا يدخلون فيما سينسيهم فترة العقوبة تماما.

ولكن إن وصلت في اعتراضاتك لهذه التفصيلات الدقيقة، فمن الأفضل والأجدى أن تحاول أن تتجنب الوصول إلى جهنم...

احتكار الجنة والنار

أكثر الاعتراضات بروزا هي ادعاء كل أصحاب الأديان التي تؤمن بالآخرة أن الجنة محتكرة من قبلهم فقط وليس لأحد آخر.

وأن جهنم طبعا هي المكان الطبيعي لكل من لا ينتمي لدينهم.

وقع في هذا اليهود.

ومن ثم وقع فيه النصارى.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)

وكما لو أننا قد أقسمنا على أن نحذو حذوهم فقد فعلنا الشيء نفسه، رغم التحذير الواضح في القرآن.

أغلب قائمة «المحاذير والمحظورات» في القرآن الكريم والتي تخص تعامل أهل الكتب السابقة مع كتبهم، عاملها بعض المسلمين على أنها «طريقة الاستعمال» التي يجب أن يطبق بها القرآن أيضا.

***

بالنسبة لِطَيْفٍ واسع، يضم الملحدين كما يضم غيرهم، احتكار الجنة لدين معين لا يبدو منطقيا..

احتكار اليهود للجنة يعني أن أكثر من ٩٩ ٪ من البشر سيكونون في جهنم حيث أن نسبة اليهود أقل من ٢ بالألف بين سكان العالم...أي أن أكثر من ٧ مليارات من البشر في العالم الحالي سيذهب إلى جنهم و١٢ مليونا فقط من اليهود سيكونون في الجنة.

في حالة الاحتكار المسيحي للجنة سيكون هناك حوالي خمسة مليارات في جهنم، وحوالي ملياران في الجنة. سيقل الرقم في الجنة ويزيد في جهنم إذا حسبنا الفرق التي تعتبر الفرق الأخرى في جهنم..

نحن كمسلمين، لن يختلف الوضع كثيرا عندنا،٦ مليارات في جهنم، ومليار ونصف في الجنة.. هذا دون أن نأخذ بنظر الاعتبار أن كل فرقة من فرقنا تعتبر الفرق الباقية في النار.

في كل الأحوال: دوما هناك تكدس وازدحام في جهنم..

ومساحات خالية في الجنة..

سيبدو هذا بعيدا عن المنطق بالنسبة لكل مراقب محايد لا ينتمي لأحد الأديان التي تقول أن الجنة حصرية لها، أو حتى لمنتمٍ «موضوعي» لأي دين من هذه الأديان.

ما معنى أن يخلق الله كل هؤلاء البشر ثم يرمي بثلثيهم أو (تسعة أعشارهم)- أو أكثر في النار؟

بل ما معنى أن يذهب هؤلاء إلى النار فقط لأنهم ولدوا في (الدين الخطأ) - الدين الذي لن يذهب إلى الجنة؟ ويذهب آخرون إلى الجنة دون جهد حقيقي منهم ..فقط لأنهم ولدوا في الدين المحظوظ؟

الأمر غير منطقي.

وإذا كان الإيمان بالآخرة لا يتطلب (أدلة) حاسمة لأنه إيمان..

فإن التناقض وعدم المنطق هو آخر ما يحتاجه الإيمان.

فكرة الجنة وجهنم هكذا عشوائية جدا، تعتمد على مكان ووقت الولادة الذي لا يملك أي أحد فيه أي خيار.. وهذا يتناقض مع فكرة عدالة الإله الخالق نفسها..

لكن إصرار كل فئة على أن الجنة محتكرة لها يجب أن لا يحجب عنا ما تقوله النصوص حقا، على الأقل النصوص القرآنية..

* * *

من الطبيعي أن يحاول كل أصحاب دين أو أيديولوجية أو مذهب فكري اعتبار أن دينهم أو مذهبهم أو أيديولوجيتهم هي الأفضل وهي الأكمل.. هذه طبيعة الأشياء ..لا يختلف في هذا المؤمنون بدين سماوي عن مذهب وضعي، الشيوعيون يرون فكرتهم هي الأكمل لحل مشاكل العالم، كذلك يفعل الليبراليون...ولو كان الإلحاد مذهبا فكريا وليس مجرد موقف من الخالق لقال الملحدون أيضا أن الإلحاد هو الحل...

هذا طبيعي تماما ولا مشكلة كبيرة فيه.. لا يمكنك أن تكون مؤمنا بشيء ما لم تؤمن أنه الأفضل..

المشكلة تبدأ عندما يتحول إيمانك من كون **ما تؤمن به هو الأفضل.. إلى أن تؤمن بأنك أنت- كشخص- الأفضل.**

هنا تبدأ مشكلة ومنها تتفرع مشاكل أخرى، ومن ضمنها هذا الوهم باحتكار الجنة..

الفكرة ربما تبدأ كمحاولة من المؤمنين بكل دين لتحصين أبناء إيمانهم ومنعهم من التفكير بالذهاب إلى إيمان آخر.. ومع الوقت تتحول المحاولة إلى تكريس فكرة عشوائية الجنة وتناقض فكرة عدالة الإله وتعكس تحجرا في التصور ..ثم تصبح واحدة من المآخذ والحجج ضد الدين وعقيدته..

لكن ماذا تقول النصوص نفسها عن هذا الأمر؟ نعرف ما يقوله المؤمنون ونفهمه في سياق تطور وتراكم بالتدريج ليصل إلى هذا..

لكن ماذا تقول النصوص الدينية.. «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (البقرة: ٦٢)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة: ٦٩)

وهذه الآية تكررت نصا مرتين كما هو واضح، مرة في بداية الفترة المدنية في سورة البقرة، ومرة في آخر تلك الفترة، في سورة المائدة، كما لو أن القرآن يكرس هذا المعنى على طول الفترة.

بل أن النصوص تحذر من الذهاب إلى ما ذهبت إليه الأمم السابقة من وهم احتكار الجنة

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة: ١١٣)

«لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٤)

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة ٦ -٨)

لدى بعضنا مشاكل كبيرة مع هذه النصوص، فهي تهدد فكرة (احتكارنا) للجنة.. لذلك فهم يعمدون إلى تفسيرات تجعل المقصود بهذه الآيات من عاش في زمان آخر سبق الإسلام مثلا أو الذين أسلموا من هؤلاء ..أو طوائف منقرضة منهم لم يعد لها وجود..إلى آخره.

ماذا إذن عن آيات صريحة مثل ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ١٧)

لا شك أن هذا القول أو الاعتقاد كفر، لكن «ليس كل من يقع في الكفر يقع عليه الكفر» إذ لا بد من أن تقام عليه الحجة - أي يوضح له الأمر على نحو موضوعي يناسبه من كل الجوانب، وهو أمر من الصعب تحديده في الظروف السائدة بين الإسلاموفوبيا وأسبابها، وبين سوء سلوك المسلمين بل وحتى سوء طرق دعوتهم للإسلام. ربما علينا أن ننتبه هنا أيضا إلى أنه عز وجل استخدم لفظ الفعل «كفر» في وصف معتقد النصارى في السيد المسيح في ٣ مواضع («لقد كفر» - عن النصارى، في ثلاث مواضع كلها في سورة المائدة في الآيات ١٧، ٧٢، ٧٣)، لكنه عز وجل لم يسمهم بالكافرين بشكل مباشر وواضح في أي آية، كما فعل مع كفار قريش مرارا، أي كما لو أن لأهل الكتاب منزلة مختلفة، إلا إن كان كفرهم كفر استكبار وجحود (أي أن يكونوا عرفوا الحق في بطلان معتقدهم ولكنهم رفضوه).

ماذا عن آيات مثل ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)

سياق الآيات وسبب نزولها يدل على حدوث ارتداد عن الإسلام (في ثلاث روايات، بضعة مسلمين عادوا إلى كفار مكة، يهود آمنوا بالإسلام ثم ارتدوا، و أنصاري أسلم ثم التحق بكفار

مكة[1]) ويشير اللفظ «يبتغي» إلى «أراد وطلب» كما في ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ (المزمل: ٢٠) أي أن السياق يشير إلى بحث عن دين آخر، والإسلام هو الدين الخاتم والدين الأكمل، لذا فمن الطبيعي أن البحث (الموضوعي، بمعنى التجرد عن وضع المسلمين وما فهموه من دينهم) سيقود إلى الإسلام.. لكن مما يبدو من نفس السياق أنه ليس عن أولئك الذين ولدوا وهم أصحاب أديان أخرى، لأنهم لم «يبتغوا» هذه الأديان بالأصل.

ماذا عن ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩)

قرآنيا، كل الأنبياء مسلمون، لذا فمن الطبيعي تماما أن الدين عند الله هو الإسلام.. إنه دين كل أنبيائه...

* * *

هل هذا يعني أن النصارى واليهود و..و..و.. كلهم في الجنة؟

لا طبعا..

ولا نحن أيضا..

ليس لأحد أن يتدخل في هذا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ١٧)

الله يفصل في الأمر...ليس (شغلنا) ..ليس شغلنا من يدخل الجنة ومن يدخل النار ..فاعل الخير الفلاني من مشاهير الفن أو الرياضة أو النجمة الفلانية صاحبة الأيادي البيضاء على اللاجئين والمهجرين..

ليس شأننا..

شأننا هو أن نحاول أن ندخل نحن..

(١) تفسير الرازي مفاتيح الغيب سورة آل عمران الجزء ٨ ص ٢٨٣

ملف الأديان

إله الرسالات السماوية

الكثير من الملحدين لن يجدوا مشكلة كبيرة في الانتقال إلى الإقرار بوجود (قوة خالقة) لهذا الكون...طالما كانت هذه القوة لا تتدخل في حياتهم...أو بعبارة أخرى طالما لم تكن إله الكتب السماوية..

خطوة الإيمان بإله الكتب السماوية ربما تكون هي الخطوة الأصعب والأكثر وعورة .

وأدلتها مختلفة تماما...

فالكون المعجز بتكوينه يمكن أن يدل على خالق...

لكن كيف يدل على **خالق له رسالة؟**

كيف يدل على إله **يترك تعليمات إلى مخلوقاته؟**

كيف يمكن أن نصل إلى هذه النقطة، حيث يتحول الإيمان من إيمان بوجود «خالق» إلى إيمان بوجود «الله»..

هذا هو السؤال المهم...

وإذا كان البعض منا يرى في عدم الإيمان بإله خالق (غيابا للمنطق والبصيرة)...فإن الأمر مع (إله مع رسالة) -وأعني بالرسالة هنا الرسالة السماوية، أو الدين- أمر مختلف جدا...

* * *

عليّ أن أذكر هنا أن المعتاد في نقاشات كهذه هو الانتقال من مرحلة الإيمان **بوجود إله إلى مرحلة كون هذا الإله كامل الصفات.**

غالبا ما ندخل في متاهة فلسفية مع هذا الأمر.. وغالبا لا خروج واضح منها.

لا أؤمن بأن الخطوة التالية يجب أن تكون في إثبات أنه كامل الصفات (كلي القدرة، كلي الوجود، كلي العلم)، ولا أعرف أين يقود هذا النقاش بالضبط، وأعرف تحديدا أن الإلحاد «الجديد» لا يتجه باتجاه كمال الصفات في هذه النقطة.[1]

بالنسبة لمن خرج للتو من تصنيف الملحد إلى تصنيف الخلقي (مؤمن بإله خالق لكنه ليس إله الكتب السماوية ولا أي دين آخر) فإن كمال الصفات الإلهية هو آخر ما يهمه وما يعنيه...

بالنسبة له، سيكون الأمر هكذا:

نعم، هناك إله أو قوة خالقة، خلقت الكون والإنسان...

لكن- بالنسبة له- من قال أن هذه القوة الخالقة هي ذاتها إله الكتب السماوية..

من قال أن الإله الخالق يرسل رسائل أصلا؟

ولمَ يفعل ذلك؟

هذا ما علينا أن نبحث عنه....

إله يرسل رسائل...... بالمنطق؟

فلنجرب المنطق أولا.

تخيل أنك وجدت نفسك ذات يوم داخل مصنع كبير.

استيقظت فوجدت نفسك فيه.

لم تره من قبل.

أحدهم وضعك في مصنع خاص به. وأقفل عليك.

لم يخبرك ماذا عليك أن تفعل. لا رسالة مكتوبة، ولا رسالة صوتية، ولا رسالة من أي نوع... لا إشارات ...لا شيء..

لا تعرف ماذا عليك أن تفعله بنفسك أو بآلات المصنع أو بالمصنع أو بأي شيء..

(١) لا أقول هنا أنه عز وجل ليس كامل الصفات حاشاه، لكن أقول أن تسلسل نقاط النقاش لا يقود إلى هذا بالضرورة. بل يمكن أن تأتي لاحقا

قد تتكيف مع هذا الواقع...وتحاول بالتدريج أن تستكشف المكان.. قد تتمكن بالتدريج من فهم المصنع وفهم ما يمكنك أن تفعله به..

ولكن علاقتك بهذا الشخص، أو رأيك به، أو صورته عندك ستبقى سلبية جداً.

لن يشفع عندك له أنه صنع ذلك المصنع المتقن، أو أنه وضعك فيه، مقابل أنه لم يحدث أي نوع من التواصل معك، لم يوجهك إلى ما يجب فعله ولو بإرشادات عامة، لم يترك لك ولو كتيب تعليمات...

بالنسبة لك: وجوده على هذا النحو مساوٍ لعدم وجوده.

أو أسوأ...

لو كان موجودا حقا، فلا بد أن يتواصل ..

لا معنى لوجوده لو لم يفعل.

* * *

المنطق يحتم على صاحب المصنع أن يترك تعليمات واضحة، بطريقة ما لعمال المصنع.

كما يجب أن يكون هناك تعليمات ورسائل واضحة مع كل جهاز نبتاعه.

كما يجب أن تترك الأم تعليمات واضحة لأولادها عند تركها للمنزل...

يحدث هذا على نحو بديهي.. وسيكون (خرقا) في الرصانة والكمال لو أنه لم يحدث..

لكن!

هذا في الأغلب سلوك بشري. المنطق هنا منطق بشري في التعامل..

هل نفرض هنا على الإله الخالق منطقا بشريا في التعامل؟

هل نفرض سلوكا بشريا عليه؟

صاحب العمل أو المصنع يجب أن يتواصل مع العمال عنده...لكن كيف نقيس هذا السلوك البشري البديهي بما (يفترض) أن يفعله الإله الخالق؟!

ألم نقل عندما تحدثنا عند التدرج في الخلق (مثلا)، الذي عده البعض دليلا على عدم وجود الخالق، أننا لا يمكن أن نفرض قوانيننا و(تفضيلات سلوكنا كبشر) على الخالق؟! ألم نتحدث عن الخطأ في الوقوع في مغالطة (التعميم).

فلماذا نفترض الآن أنه يجب على الخالق أن يتواصل مع خلقه - كما يجب على صاحب عمل ما أن يفعل؟.. أليست هذه مثل تلك؟

أليس هذا في النهاية سلوكا بشريا مفضلا ...لكنه ليس حتميا حتى بالنسبة للبشر؟

ألا يمكن أن تقرر الأم أو الأب أنه من الأفضل أن لا تترك تعليمات لأبنائها كي يعتمدوا على أنفسهم؟

ألا يمكن أن تكون بعض الأدوات والأجهزة بلا كتاب تعليمات استعمال مصاحب؟

يحدث كثيرا...لذا لا داعي لاستخدام هذا الأمر هنا في إثبات أن الإله الخالق أرسل رسائل إلى البشر...

* * *

يمكن أن نقول: لو كنا خلقنا بلا إرادة، مبرمجين على ما نفعل دون وعي؛ لما كان ثمة داعي لتواصل من أي نوع.

لكنه خلقنا وخلق فينا الإرادة وفق آليات معقدة...

فكان لا بد أن يكون ثمة تواصل..

لا يمكن أن يتركنا على غير هدى..

سيكون ذلك منقصة في حقه..

منقصة أساسية، تنقض مبدأ وجوده أصلا.

* * *

لكن هذا مرة أخرى ليس محتما. مجرد افتراضات نأخذها من دراستنا وتصورنا للسلوك البشري وإسقاطه على مفهومنا للإله.

من قال أن عدم إرسال رسالة أو تعليمات يمثل (منقصة) في حقه (حاشاه)؟

كيف وصلنا إلى هذا؟

نحن لم نثبت أصلا أنه كامل الصفات.

فقط أثبتنا وجوده. الاعتماد على فرضية أنه لا بد أن يرسل لنا رسائل أو تعليمات أو إرشادات وإلا كان ذلك منقصة في حقه هو اعتماد على فرضية غير متماسكة. لم نثبت كماله بعد أصلا.

علينا أن نأخذ مسارا آخر غير منطق بني في معظمه على قراءات بشرية لسلوكيات بشرية..

فالإله خارج هذا المنطق.

* * *

لكي نثبت إمكانية أن يبعث الإله الخالق رسالة، علينا أن نجد في طرق خلقه، في السنن التي وضعها في الخلق الطبيعي، ما يقول لنا أنه يقوم بإرسال رسائل.. أن الأمر ليس (غريبا) على سلوكه في الخلق إن جاز التعبير.. تعالى الله عن التمثيل والتشبيه.

بعبارة أخرى..

علينا أن نبحث عن صفاته في الطبيعة التي خلقها عز وجل.

علينا أن نرى ماذا تقول هذه الطبيعة عن صفات خالقها..

ومن ضمن هذه الصفات التي سنحاول أن نجدها...أنه يقوم بإرسال رسائل..

أن ذلك من سلوكه الذي نراه في خلق الطبيعة..

ماذا تقول الطبيعة عن صفات خالقها؟

هذه الطبيعة الهائلة من حولنا، مع كل قدرة العلم اليوم على سبر أغوارها.. ماذا تقول عن (صفات صانعها) - أيا كان ...مجرد إله يؤمن به الربوبيون أو الإله كلي القدرة كلي العلم كلي الوجود الذي نؤمن به...

لا بد أن الطبيعة، تقول شيئا عن صفات من صنعها.. كما يقول أي منتج عن صانعه الشيء الكثير..

إنه واحد!

بدأ الكون من منطقة شديدة الكثافة، انفجرت هذه المنطقة عبر ما يعرف بالانفجار العظيم، وتشكل بالتدريج الكون المتمدد الذي نعرفه..

المنطقة شديدة الكثافة التي انفجرت وتمددت تدل على أن ثمة صانع واحد. لم يبدأ الكون من مناطق مختلفة تجمعت لتشكل الكون، بل منطقة واحدة، ..تشير بوضوح إلى صانع واحد.

ليس هذا فقط..

بل هذا التناسق والتداخل بين القوانين التي تحكم هذا الكون كله... هذا التناسق في قوانين الطبيعة يقول لنا أن مصدر هذه القوانين هو واحد.. هذا الخضوع لقوانين واحدة تقول لنا أن الكون من صنع واضع واحد لهذه القوانين.

أنه صانع واحد، الذي صنع هذا الكون...بغض النظر عن اسمه الآن أو هويته أو أي صفات أخرى عرفناها لاحقا من الكتب السماوية..

لكن كونه واحدا فقط هو خبر الطبيعة ..وأي احتمال آخر عن وجود أكثر من صانع سيتطلب أخبارا من نوع آخر....وهو أمر غير محتمل.

القدرة

لا بد أن طبيعة كالتي نعيش فيها، بالكون المتمدد الأطراف، بكل ما فيه من مجرات وكواكب ونجوم وقوانين تنظم علاقة كل ذلك، لا بد أن طبيعة كهذه تدل على (قدرة فائقة).

بعبارة أخرى.. ولأننا مضطرون للمقارنة مع قدراتنا الإنسانية، فإن قدرة الصانع ستبدو لنا فائقة على نحو غير قابل للمقارنة، ورغم أن عبارة (كلي القدرة) قد تبدو مبكرة قليلا في هذا السياق، إلا أن الشعور الإنساني بالمقارنة بين قدراته وقدرات الصانع الذي صنع الكون سيكون مقاربا لعبارة كلي القدرة. الطبيعة تدل أن من صنعها لديه قدرات خارقة لكل تصوراتنا وحدودها.

القدرة هنا لا تشمل القوة فقط بمعناها العادي المباشر...ليست القوة المتطلبة في بناء المجرات والنجوم والجبال.. إلخ فحسب..

بل القدرة على الابتكار ..على الإبداع..

فلنتذكر أننا هنا نتحدث عن إله لم نعرفه عبر الكتب السماوية (ليس بعد)، بل عبر الطبيعة.. وأننا نقرأ صفاته عبر ما تبينه هذه الطبيعة من صفات صانعها..

كل القوانين المكتشفة اليوم عن حركة وطبيعة هذا الكون، توضح أن من وضعها كان يمتلك قدرات غير متخيلة في الابتكار والإبداع...

إنه قدير إذن، هذا الإله الذي خلق الطبيعة.

قدير جدا...بأكثر ما تستطيع الكلمات التعبير عنه..

قديم جدا ..أيضا...

تخبرنا الطبيعة أيضا أن الإله الذي صنعها لا بد أن يكون قديما جدا.

فالطبيعة نفسها موجودة منذ ما يزيد عن ١٣ مليار سنة.

وهذا يعني أن صانع الطبيعة كان (حاضرا) قبل هذا.

بمقاييسنا البشرية، بل بمقاييس أي شكل من أشكال الحياة التي نعرفها، مهما كانت بدائية، هذا الرقم يبدو مهولا إلى درجة لا يمكننا تصورها.

ليس هذا فقط.

مفهوم الزمن لدينا، يبدأ منذ لحظة الانفجار العظيم.. أي منذ بدء الكون بالتكون. الزمن بدأ تلك اللحظة. وهو لأنه صنع الانفجار العظيم.. فلا بد أنه كان موجودا قبل أن يبدأ كل ذلك.. بعبارة أخرى قبل الزمان.

وهذا أمر صعب على التخيل والتصور.

ولكنه يقول لنا صفة مهمة أخرى من صفات هذا الإله الصانع.

أنه قديم إلى درجة لا يمكن تخيلها.

إله عاقل، مدرك، له خطة..

يمكن أن يكون ثمة إله بقدرة فائقة، وقديم جدا، لكن ما يفعله لا يكون بخطة...لا يكون مدركا لما يفعل.

مجرد قوة جبارة تنتج أشياء كبيرة ومذهلة لكنها مثل الغيوم التي تتجمع فتكون أشكالا مفهومة دون قصد منها.

يمكن أن يكون هذا..

لكن الطبيعة، ستقول لنا شيئا يصعب بعده أن نعتقد أن الأمر مرتبط بمجرد قوة عمياء أو إله غير مدرك.

تلك الثوابت الكونية الدقيقة التي بني عليها الكون، والتي مررنا عليها سابقا، والتي لو اختلفت بمقدار ضئيل للغاية ما كانت الحياة نشأت أصلا، تدل على أن الصانع كان يهيئ الكون كله لكي يكون الكون مستعدا لاستقبال الحياة ونشوئها فيه.

بعبارة أخرى، كان هذا الإله يعد هذا الكون، بكل ما فيه، ليكون جزءا من خطة حاضنة للحياة بأبسط أشكالها ابتداء، ومن ثم بأعقدها..

فلنتذكر هنا أننا تجاوزنا مسألة وجود الله، والتي كانت هذه ضمن علاماتها أيضا..

نحن الآن في صفات هذا الإله التي نجدها في الطبيعة..

ونعم، وجود هذه التوليفات الدقيقة، الدقيقة جدا، التي لو انحرفت بمقدار بسيط (بمقدار واحد إلى ١٠ مضروبة في نفسها ٢٧ مرة مثلا) فإن الحياة ستكون مستحيلة تماما، وجود هذه التوليفات الدقيقة جدا يقول لنا أن هذا الصانع كان (يتعمد) كل ما فعله، وأنه لم يفعله هكذا، بلا سبب.. وإنما تعمد أن يكون هذا الكون هكذا لكي يكون (مناسبا) للخلية الحية الأولى ومن ثم يكون الكون مناسبا لبقائها حية وازدهارها...

لا بد أن هذا الصانع كان عاقلا، مدركا...له خطة..

هذا ما تقوله الطبيعة عن صفات صانعها..

* * *

ماذا عن الصفات الأخرى، المعروفة لنا من خلال كتبه السماوية..

مثل عدله.. رحمته...سمعه ...بصره...إلخ.

لا.. الطبيعة لا تقول لنا شيئا عن هذا.. الطبيعة (المادية)، عندما نسبرها بالمجهر والتلسكوب لا تقول لنا شيئا عن العدل والرحمة والمغفرة والثواب والعقاب والسمع والبصر ...

لكن الطبيعة تقول لنا عن صفة أخرى للصانع، قلما ننتبه لها...

لكننا سنحتاج إلى أن نركز في جزئية سخرها هذا الصانع في صناعته للحياة تحديدا.

شيء استخدمه مع الخلايا الحية فحسب...ليس مع أي شيء آخر من خلقه..

استخدمها مع كل الكائنات الحية.. من الكائن وحيد الخلية البراميسيوم والبروتوزوا إلى الإنسان مرورا بكل الكائنات في شجرة الحياة وتفرعاتها.

ليس مع المعادن.. ليس مع الثروات الخام في باطن الأرض، ليس مع ذرات المياه، ليس مع الكواكب ..ولا مع مكونات الهواء..

فقط مع الكائنات الحية..

ما هي هذه الصفة؟

إنه يرسل رسائل، باستمرار.

كيف؟

للجواب على هذا السؤال علينا أن نأخذ حصة مبسطة في درس الأحياء.

الإله صانع الـ DNA

كل الخلايا الحية، ابتداء من أبسط نوع من أنواع البكتيريا، مرورا بأصغر نبات وأصغر الكائنات البحرية وكل ما نعرف من حيوانات ونباتات، ووصولا إليك حضرة القارئ الذي بدأ يشعر بالضجر، كل الخلايا الحية في هذه المخلوقات تحتوي على مادة يمكن اعتبارها بمثابة البلوبرنت أو مخطط أو برنامج العمل لكل خلية...هذا البلوبرنت هو الـ DNA.

الـ DNA يوحدنا جميعا، كل الأحياء..(باستثناء الفيروسات!)

إنه الجزيئة التي تحتوي على المعلومات الوراثية التي تخص نمو وتكاثر كل الكائنات الحية.

بعبارة أخرى: الـ DNA يحتوي على الخطة السرية/ الشيفرة الخاصة بكل كائن أو بكل خلية في كل كائن..

كيف يفعل الـ DNA هذا؟

فلنبدأ من وحدة بناء الحياة الأساسية الأحماض الأمينية. وهي مواد كيميائية في جسم الإنسان عددها ٢٠ حمضا نوويا، ولكل منها تركيب مختلف.

هذه الأحماض النووية مثل قطع الليغو، يمكن أن تتراكب مع بعضها البعض لتشكل عددا لا نهائيا من البروتينات.

كل بروتين نشأ بسبب طريقة ترتيب ليغو معينة.

إذن الأحماض الأمينية تؤدي إلى البروتينات.. البروتينات تؤدي إلى الخلايا...الخلايا تشكل الأنسجة.. الأنسجة تشكل الأعضاء.. الأعضاء تتجمع ..وتقود إلى تشكيل كل ما هو حي...

أين الدي أن أي من كل هذا؟

الدي أن أي هو الذي يقدم طريقة ترتيب الأحماض الأمينية، طريقة قطع الليغو، إنه هو الذي يقدم الوصفة التي عليها أن تترتب وتصطف بها، لكي تنتج البروتين المناسب ... الدنا يشبه ورقة صنع الأشكال المختلفة التي تأتي مع قطع الليغو المخصصة لبناء قلعة مثلاً، والتي توضح خطوة بخطوة مكان كل قطعة.

أي خطأ في المعلومة القادمة من الدي أن أي...سينتج خطأ في تكون البروتين المطلوب... وبذلك تنتهي السلسلة كلها...سلسلة صنع الحياة.

بتشبيه آخر...الدي آن أي يقدم الخريطة التي تذهب إلى المصنع لكي ينتج أجزاء مختلفة من السيارة..

لا خريطة.. إذن لا أجزاء مختلفة.. إذن لا سيارة.

ما هي الآلية التي يقوم الدي أن أي من خلالها بهذا؟

لن أدخل هنا في التفاصيل رغم روعتها، لكن باختصار الـ DNA يقوم بنسخ طريقة عمل الليغو أو طريقة ترتيب الأحماض النووية – وتسمى الـ mRNA- وإرسالها إلى الرايبوسوم وهو جزء الخلية الحية الذي يقرأ الشيفرة المرسلة ويقوم بترتيب الأحماض الأمينية على أساس الخريطة المرسلة لتكون بروتينا مختلفا حسب الوصفة.

مرة أخرى: التسلسل هو أحماض أمينية تترتب بطريقة معينة لتكون بروتينات مختلفة، البروتينات تقوم بتكون خلايا مختلفة الوظائف...وهذه بدورها تشكل أنسجة لأعضاء مختلفة.. إلخ

والـ DNA يقوم بإرسال رسائل تتحكم بكل هذا...

كل خلية في الجسم يحدث لها هذا باستمرار...لا يحدث مرة واحدة وينتهي.. بعض الخلايا طيلة الوقت مثل الخلايا المسئولة عن لون الجلد أو خلايا إنتاج الهيموغلوبين.. وبعضها عندما تتجدد.. كل هذا يحدث في كل كائن حي، وباستمرار الحياة نفسها...

لكنه ما كان سيحدث لولا تلك التعليمات الموجهة التي ينقلها الدي أن أي لترتيب قطع الليغو - الأحماض الأمينية- لتشكل البروتينات...لولا تلك الرسائل التي تحتوي على الوصفة... طريقة العمل.

لولا تلك التعليمات.. المتضمنة في رسالة الدي أن أي...ما كان سيحدث كل هذا...ما كانت ستستمر الحياة..

بل ما كانت ستكون أصلا...

هناك تعليمات للحياة...في عمق الطبيعة الحية..

تعليمات لكل خلية في الجسم؛ كي تستمر..

كيف وصلنا إلى هنا؟

كنا نبحث عن صفات الخالق في طريقة خلقه للحياة..

ماذا تخبرنا الطبيعة هنا عن صانعها؟

* * *

الطبيعة تقول لنا أن من صفات هذا الصانع أنه يترك تعليمات!

أن يترك رسائل تفصيلية عما يجب فعله.

لا نتحدث هنا عن الأم التي تترك تعليمات لأولادها أثناء غيابها.. أو صاحب المصنع الذي يضع كتيب الاستعمال مع الجهاز الذي يبيعه..

لا نتحدث عن سلوك بشري هو في النهاية خيار شخصي للبشر أنفسهم..

نتحدث عن سلوك إلهي مع كل الخلايا الحية التي نعرفها..

سلوك لم يتركه الصانع قط.

مع كل خلية حية.. ثمة تعليمات واضحة...

من صفاته...أنه يترك تعليمات..

* * *

فهل يمكن أن يترك تعليمات للعمليات الحيوية..

ولا يترك تعليمات أيضا، بطريقة ما، للحياة نفسها.. هدف العمليات الحيوية..

هل يمكن أن يترك تعليمات للأيض وتجدد الجلد وخلايا الشعر وكريات الدم الحمر والبيض.. ولا يترك للحياة نفسها.. كيف تعاش؟ ما الهدف منها؟

هل يمكن أن يترك تعليمات لخلايا العين كيف تجدد نفسها، ثم لا يترك تعليمات عندما تفتح هذه العين نفسها على هذا العالم.. فتجده خاليا من أي إشارة أو تعليمات من صانعه..

لا نقيس على سلوك بشري...

بل على فعله سبحانه في طبيعته التي خلقها..

نتأمل فعله...

ونقول..

إذن لا بد أنه يترك تعليمات مباشرة لنا.. لا بد أن يرسل رسالة..

كما فعلها مع كل خلية في خلايا جسمنا..

سيكون غريبا جدا لو لم يفعل..

لا أقول هنا أن هذا الدليل حتمي وقطعي.

لكن الطبيعة تقول أن هذا هو سلوكه، عز وجل.

رسائل عبر اللغة

وما كان يمكن لهذه الرسالة من الخالق إلا أن تكون عبر ظاهرة تميز البشر عن سواهم.

الرسالة في كل الأحياء لصنع الخلايا الحية كانت موحدة عبر الـ DNA..

لكن الرسالة الأخرى الإضافية الموجهة إلى البشر تتوجه عبر ظاهرة تميز البشر عن كل المخلوقات الأخرى..

إنها اللغة.. واحدة من أهم ما يميز البشر عن كل المخلوقات الأخرى.. كثير من الحيوانات تملك وسائل تفاهم فيما بينها، تتضمن وسائل التفاهم هذه أصوات معينة وإشارات وحركات

جسد، لكن اللغة البشرية تختلف عن ذلك تماما، إنها واحدة من أعقد الظواهر البشرية وأكثرها ارتباطا بما أصبح البشر عليه... تاريخيا، وفي بداية تطور الإنسانية، كانت اللغة «وسيلة للنجاة والبقاء على قيد الحياة» أكثر مما كانت الحربة أو الرمح أو أي أداة صيد أخرى. باللغة تمكن البشر من التنبيه على المخاطر المحدقة بهم وإعداد الخطط لمواجهتها أو للصيد أو توزيع المهام الضرورية فيما بينهم...

باللغة تمكن البشر من التعاون فيما بينهم وطوروا أفكارهم وتبادلوها وتناقلوا خبراتهم وعبروا عن عواطفهم ورغباتهم.. قبل اللغة لم تكن الأفكار أكثر من أفكار بسيطة ذات بعد واحد...اللغة طورت الأفكار وعمقتها..

وبالنسبة لنا كمؤمنين فإن رحلة الإنسانية في جوهرها تزامنت مع اللغة، حين علم الله آدم الأسماء كلها...

إذن اللغة كانت الوعاء الذي اختاره الله ليحمل رسالته إلى البشر...

أتحدث عن الكتب السماوية بطبيعة الحال... عن الرسالات السماوية.. عن النبوات... عن صحف إبراهيم و توراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى... والقرآن الذي أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام.

وربما كتب أخرى سابقة أنزلت على رسل أخرين، لكنها نسخت ولم يبق لها أثر اليوم.

* * *

هل كان يمكن أن تكون هناك صيغة أخرى لرسائل الله للبشر؟ صيغة غير لغوية؟

لا. ببساطة لا. حسب «التكوين البشري» الذي نحن عليه، ما كان يمكن لرسائل الله إلا أن تكون عبر اللغة.

لو كان العقل البشري قد تكون وتشكل بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تشكلنا بها، لربما كانت رسائل الله وتعليماته تأتي بصيغة مختلفة، ربما بطريقة صورية، أو بطريقة رقمية، لا نعرف. لكن هذا العقل الإنساني الذي نملكه ما كان يمكن إلا «للغة» أن تتواصل معه.

لكن أليست اللغة في النهاية قابلة لسوء الفهم ؟ أو لتعدد الأفهام على الأقل؟ لماذا يختار الله وسيلة لنقل تعليماته وتكون معرضة لهذا؟

نعم هي قابلة لسوء الفهم، ولتعدد الأفهام، بل وحتى لتحريف الفهم وأخذه إلى الجهة المعاكسة أحيانا، لكن هذا سيحدث مع كل صيغة يمكن تخيلها أولا.

وهذا الأمر ليس سلبيا في مجمله كما قد يتصور كثيرون، القابلية الكامنة في اللغة على وجود فهم متعدد لها يمكن أن يكون ميزة، فليس كل تعدد فهم متضارب أو متناقض بالضرورة.

أما سوء الفهم، والقراءات التحريفية، فهذا وارد تماما، ولكن هذه الرسائل تخاطب «العقل» أساسا، لذلك فمن مهمة العقل وواجبه أن يتحرى «صحة الفهم». هذه الرسائل ليست «خريطة كنز» عليك أن تتبعها حرفيا خطوة خطوة لكي تصل إلى الكنز، هذا يحدث مع تعليمات تشغيل الأجهزة ومع طريقة ترتيب الليغو، ولكن ليس مع الحياة الإنسانية التي تتنوع وتختلف وتتجدد باستمرار.

هذه الرسائل هي إرشادات عامة يحتاجها الإنسان في مختلف ظروفه، وليست «خريطة طريق» تحدد له بدقة ما سيفعله في حياته، بل إن تحويل هذه الإرشادات العامة إلى «خريطة طريق» حرفية - كما يفعل كثيرون- سيتحول إلى نوع من أنواع التحريف.

لغات الكتب السابقة

لن أطيل في الكتب السماوية السابقة...

لكني أؤمن أن اختيار لغة معينة لكي تحمل رسالة بعينها، كان نتيجة خصائص معينة لهذه اللغة في تلك الفترة، خصائص تجعلها قادرة على توصيل هذه الرسالة تحديدا.. وأؤمن أن صلاحية لغة ما للرسالة في مرحلة معينة من تاريخ البشرية، لا يعني بالضرورة قدرتها على حمل رسالة أخرى في مرحلة لاحقة، كما أن اللغة نفسها قد تتعرض لظروف تجعلها غير قادرة على الاستمرار في التجدد.

ولهذا ينقلها حاملوها إلى لغة أخرى للمحافظة عليها، لكن عملية النقل تفقدها حتما الكثير من جوهرها.

لكن لماذا يختار عز وجل لغة لا تصمد أمام الظروف ولا تتمكن من حمل رسالة لاحقة؟

ربما لأن التجربة بحد ذاتها مهمة للبشر ولرصيد خبراتهم في التعامل مع اللغة ومع الرسالة، ومع ما يحدث عندما تنتقل الرسالة من لغة إلى أخرى...

وربما لأن الأمر يتعلق بالرسالة نفسها.

الرسالة التي تكون مناسبة لفترة زمنية معنية، تحملها لغة بمواصفات معينة...لكن رسالة بمواصفات أوسع، ستكون أصعب على تلك اللغة بعينها.. وتحتاج لغة بمواصفات أوسع....

وربما لأن التدرج في كل ذلك مهم جدا في تمييز نقاط قوة الرسالة الأخيرة.

لماذا العربية؟

هذا السؤال مهم وواسع، الجواب التقليدي سيقول لأنها لغة أهل الجنة ولغة سيدنا آدم ..إلخ، وهو أمر لن يكون ذا نفع هنا في هذا السياق.

لا بد أن يكون للغة العربية «خصائص لغوية» تجعلها مؤهلة لحمل «الرسالة الخاتمة».

أو على الأقل هذا ما يعتقد به المؤمنون..

العربية هي الوعاء الذي حمل «الرسالة الخاتمة»، وهذا لا بد أن يجعل لهذا الوعاء خصائص محددة مناسبة لهذه الرسالة.

ما المطلوب أساسا من «الرسالة الخاتمة»؟ فهم هذا السؤال ممكن أن يكون مفتاحنا لفهم ماذا يمكن أن يكون في اللغة العربية من خصاص أهلتها لحمل الرسالة.

الرسالة الخاتمة، حسب تصوري، وبما أنها «الرسالة الأخيرة»، «الفرصة الأخيرة»، التي ليس من رسالة لاحقة لها، يجب أن تكون قادرة على «التجدد المستمر» بحيث تكون مناسبة لتلبية التحديات التي تفرضها الظروف المتغيرة باستمرار عبر العصور والأماكن.

هذا التجدد يجب أن يحافظ على «جوهر الإرشادات» وعلى الخطوط العامة العريضة فيها، يميز بين «الثوابت» التي لا يجب المساس بها و «المتغيرات» التي يجب أن يتم تحديثها باستمرار للتفاعل مع ظروف مختلفة باستمرار.

ما الذي يمكن أن تتصف به اللغة العربية مما يمكن أن يساعد في هذا تحديدا؟

* * *

اللغة العربية واحدة من أوسع اللغات من حيث عدد المفردات.

في الواقع، هناك بعض الأبحاث التي تشير إلى أن العربية هي الأكثر في عدد المفردات من بين ٤ لغات حية شملها البحث (العربية والإنجليزية والفرنسية والروسية)، تفوق اللغة

العربية في العدد بفارق كبير[1] (أكثر من ١٢ مليون مفردة في العربية حسب أكبر المعاجم بحساب ما هو غير مكرر من المفردات) واللغة الإنجليزية قرابة ٦٠٠,٠٠٠ مفردة، الفرنسية ١٥٠,٠٠٠ مفردة، والروسية ١٣٠,٠٠٠ وكلها حسب أكبر المعاجم. أي أن العربية أكثر بقرابة ٢٠ مرة من ثاني أكثر لغة من ناحية المفردات.

وحسب قائمة مقارنة للمعاجم في الويكيبيديا، فإن أقرب لغة إلى العربية هي الكورية، حيث تضم ما يزيد عن المليون مفردة، والتركية والسويدية تضم كل منهما ٦٠٠,٠٠٠ مفردة واليابانية ٥٠٠,٠٠٠ مفردة، والصينية قرابة ٣٥٠,٠٠٠ مفردة[2].

هذه الأرقام ممكن أن تكون عرضة لانتقادات كبيرة بسبب طريقة حسابها، فكل لغة وكل معجم له نسق خاص في عرض المفردات ومعانيها على نحو يجعل أي عملية مقارنة بين اللغات عملية غير علمية، كما أن كثرة عدد المفردات في العربية قد يفسر بأنه بسبب كونها أقدم لغة حية وهذا بدوره قد يفسر بسهولة بأثر القرآن في الإبقاء عليها حية، بكل الأحوال، سعة المفردات في اللغة العربية أمر مهم، سواء كانت تحتل المرتبة الأولى أو لم تكن، وقد يعني هذا ضمن ما يعني، قدرتها المستمرة على إدخال كلمات ومفردات جديدة، عبر الاشتقاق أو التعريب.

الأمر الآخر المهم الذي يميز اللغة العربية أنها مثل بقية اللغات السامية[3] «لغة جذرية» أي أنها تعتمد على جذر معين (غالبا جذر ثلاثي)[4] يتم اشتقاق الكلمات منه وتصريفها وإضافة الضمائر. فالجذر يعطي المعنى بشكل عام، و التصريف أو الاشتقاق و الضمائر يعطي نوع الكلمة نحويا والمعنى الدقيق لها، لكنها تفوقت على بقية اللغات السامية باتساع مفرداتها ومرونتها.

ما الذي تمنحه خاصية الجذر الأساسي للغة العربية؟

---

(1) Comparison between number of words in languages around the world, Twitter, 18 December 2013 | The Edinburgh Arabic Initiative

https://edinburgharabicinitiative.wordpress.com/2014/01/03/edinburgh-arabic-initiative-comparison-between-number-of-words-in-languages-around-the-world/

(2) List of dictionaries by number of words - Wikipedia

علما أن القائمة غير مكتملة بل إن العربية غير مذكورة فيها حتى الآن، بانتظار من يقوم بجرد الكلمات في معجم معتمد

(٣) المتبقي من اللغات السامية هي العربية (٤٢٢ مليون متحدث) والأمهرية (لغة سكان أثيوبيا الرسمية- ٢٧ مليون متحدث) العبرية(٨ ملايين متحدث) والتيغرينية (لغة أريتيريا الرسمية - ٧ ملايين متحدث) والآرامية (مليون متحدث)، والمالطية (٤٠٠,٠٠٠ متحدث).

(4) Semitic root - Wikipedia

الجذر اللغوي وموشور المعاني[١]

يوجد لكل جذر اشتقاقات متعددة قد تمتلك استخدامات قد تبدو للوهلة الاولى غير مترابطة، و هي غير مترابطة فعلا في **البعد الأفقي المباشر لها**.. لكن في البعد الآخر: **الشاقولي، سنجد شبكة داخلية من المعاني التي تتصل ببعضها بطريقة تجعل المعاني ممتدة ومتدرجة دون تعارض..**

كل من حاول البحث عن ألفاظ القرآن الكريم مستخدما المعجم اللغوي بمعزل عن كتب التفسير المباشر سيجد أولا المعنى المباشر للجذر الأصلي وسيجد معه «حزمة من المعاني» التي قد تبدو غير مترابطة فيما بينها من ناحية استخدامها لكن الباحث لو أعاد النظر لوجد فعلا شبكة من المعاني التي تتصل في عمق شاقولي ببعضها البعض فيما يبدو أولا أنه غير مترابط. والفرق فقط سيكون في أسلوب النظر والآلة التي ننظر من خلالها: **بعض المعاني يمكن رؤيتها بسهولة وأخرى تحتاج إلى البحث في أبعاد عميقة لها.**

و بين «المعاني المباشرة» و «المعاني البعيدة» سيكون هناك تدرج من معاني تتوافق مع بعضها البعض رغم أنها تبدو للوهلة الأولى بعيدة.

بهذا المعنى لن تكون لغة القرآن الكريم (حمّالة أوجه) كما هو شائع أحيانا **بطريقة سلبية، بل سيكون تعدد المعاني مرتبطا ببنية داخلية عميقة، كما ترتبط حافات متعددة لبلورة واحدة..** ربما تكون خاصية اللغة العربية هي أنها تكون بمثابة موشور للألفاظ: **يقدم معاني متدرجة دون تناقض..**

أوضح مثال على ما أقول هو أول لفظ أنزل من القرآن الكريم: كلمة «اقرأ» التي كانت أول مفردة أنزلت من القرآن..

اللفظ «قرأ» له معاني واستخدامات قد تبدو مختلفة للوهلة الأولى مثل: **الجمع و الضم، الحمل بالجنين، الحيض، الجهر، الإبلاغ، الفقه، التنسك**.. وكلها استخدامات لها شواهد في لغة العرب وبعضها لها شواهد قرآنية.

---

(١) من مقال للكاتب، مع الاختصار

لغة القرآن بين المجهر والمرقاب: حمال أوجه أم موشور المعاني؟

https://bit.ly/2SFrplj

تبدو مجرد اشتقاقات مختلفة لجذر واحد لا ترتبط بالمعنى- فما دخل «القراءة» بالحمل أو بالحيض؟ ..لكن التعمق بالنظر سيؤدي فعلا إلى فهم التدرج والارتباط في المعاني دون أن يلغي أي معنى آخر.

فالقراءة بحسب هذا التدرج تصير جمعا وضما.. هل من معنى يوحي بالقراءة الشمولية التي تتجاوز القراءة الجامدة الحرفية - إلى ما بين السطور وما قبلها وما وراءها أكثر من هذا؟- إنها القراءة التي تجمع النصوص مع بعضها وتضمها دون أن تنفرد بنص معين- دون أن تقتصر على نص واحد ..

أليس هذا الجمع أو الضم- هو الذي يؤدي إلى أن القراءة تحمل ناتجا ما؟ أليس «**الحمل**» هو الذي ينتج عن تزاوج (جمع- اقتران) بين فردين اثنين؟ أليست القراءة «المثمرة» هي ذلك التزاوج بين النصوص بمجملها الذي ينتج **فكرة جديدة أو فهما جديدا يكون مثل الجنين** أول الامر، ثم تكبر لتصير مولودا بعد انقضاء الحمل؟ ألا يرتبط ذلك أيضا **بالفقه**؟ أليس الفقه هو هذه القراءة الجامعة التي تنتج فهما جديدا تسعى لبناء واقع جديد.. وهل يمكن لذلك كله أن يتحقق **إلا بالجهر- بإبلاغ** كل ذلك إلى الآخرين-بنقل تلك الفكرة من عقل فرد واحد لتصير جزءا من منظومة عقل جمعي كامل؟

مثال آخر مماثل، جذر الفعل «**فلح**» الذي يعني في المفهوم السائد «**الفوز**» لكن استخداماته واشتقاقاته في لسان العرب لها معان قد تبدو على المستوى الأفقي غير مرتبطة بمعنى الفوز: مثل **القطع- الشق- البقاء**.. متابعة المعاني في أعماقها سيوضح لنا المعنى العميق للفوز وبدلالات ذلك في البيئة التي نزلت فيها الآيات وهي البيئة التي كانت تحتقر ابتداء «العمل اليدوي» بما في ذلك الزراعة وكل ما يتعلق بها.. وهكذا يتم ربط معنى الفوز بمعنى الفلاحة في الأرض وما يرتبط بها من قطع وشق من أجل تغيير «المفهوم السلبي السائد عن العمل اليدوي» وغير بعيد عن هذا معنى «البقاء» إذ في الزراعة - والنجاح فيها- تحقيق للاستقرار والبقاء في بيئة عرف عنها كثرة الترحال...

هذه عجالة تحتاج حتما إلى المزيد من البحث لإثبات وجود هذا الارتباط «الموشوري» في المعاني الذي يمنح اللغة العربية ثراء مغزوياً قد يكون من أسباب اختيارها لتكون وعاء الرسالة الخاتمة...

المحك بين الرسالات السماوية؟

لم تأتِ الكتب السماوية بمفردها مع الرسل.

بل جاءت غالبا مؤيدة بالمعجزات.

والمعجزات كانت خرقا للطبيعة يفعله صاحب الرسالة لتحدي من يكفرون به ..وكان هؤلاء غالبا هم من يطالبون بالشيء الخارق، وهم غالبا من يرفضون تصديقها لاحقا..

ما الذي نملكه عقليا لفهم المعجزات؟ لا شيء طبعا. هذا أمر خارق للطبيعة بالتعريف. وبالتالي فهو غير خاضع للعقل. أمر لا يمكن للملحدين أن يقروا حدوثه. غالبا حتى لو كانوا من شهوده.

أما نحن، فنحن نؤمن بحدوثها في زمانها كأحداث خارقة لن تتكرر، ولكننا نؤمن أيضا أن عصر المعجزات قد انتهى مع القرآن، مع ختم النبوة.

القرآن نفسه معجزة ولكن من نوع مختلف جدا عن بقية المعجزات...وقد شاء الله أن يجعله من جنس الوعاء الذي حمل الرسالة...

بالتأكيد لا يؤمن الملحدون بكل هذا. كل الكتب السماوية بالنسبة لهم مجرد كتب وضعها بشر مصلحون وأعانهم عليها أتباع لهم.. هذا ما يقوله المحترمون الجادون منهم.

نؤمن نحن أن الأمر غير ذلك، وأنه مرتبط بوحي إلهي..

أين المحك؟ كيف تفاضل بين رسالة وأخرى وكتاب وآخر....

أؤمن أنا أنه في عدم تعرض نصوصها الأصلية لتغيير يدخل أفهام البشر عليها، في إمكانية بقاء النص الأصلي بحيث يعود معزولا عن الفهم البشري المتراكم... عدم وجود التناقضات... في تماسك وانسجام الرسالة مع بعضها البعض... في قدرتها المستمرة على تقديم الأجوبة عبر العصور...

لكي يثبت هؤلاء لنا أن الأمر ليس بوحي، يمسكون عدساتهم المكبرة محاولين أن يجدوا تناقضات وأخطاء فيه...

لكنهم ينظرون من خلال ثقب إبرة فحسب... يبحثون عن التناقض فلا ينظرون من أعلى..

ما من تناقض يدعونه...أو تناقض مررنا في شك بوجوده إلا وكان ثمة شيء عجزنا عن رؤيته يزيح شبهة التناقض..

سيقولون: لكنكم تقصون وتلصقون وترقعون من أجل إزالة التناقض..

في الحقيقة عندما ندقق فيما يفعلون بعدساتهم المكبرة سنجد أن القص واللصق هو ما يفعلونه هم...

في الفصول القادمة سنتعرض لأهم ما يدعونه من تناقضات ومشكلات،...

لن نحل كل شيء..

لكن سنرى آليات وطرق في بيان عدم التناقض...

ادعاء وجود تناقضات بين القرآن والعلم الحديث

التناقضات المزعومة للقرآن مع العلم الحديث هي واحدة من أهم «مساعدات» الإلحاد بالنسبة للشباب...وربما يكون بنسبة ضئيلة «مصدرا مباشرا» للبعض، لكنه بكل الأحوال يتحول ليصبح موضوعا أساسيا لتثبيت الإلحاد والدفاع عنه حتى بالنسبة لمن اتجهوا إلى الإلحاد لأسباب أخرى.

يحدث الأمر وفق نمط موحد مع كل التناقضات حسب التسلسل التالي:

أولا- العلم الحديث هو مصدر المعرفة الأكثر وثوقية ومصداقية.

ثانيا- القرآن كتاب الله المنزل.

ثالثا - القرآن يضم معلومات عن الكون والعالم والإنسان.

رابعا - العلم الحديث يناقض ما يقوله القرآن من معلومات.

خامسا - القرآن يحتوي على أخطاء علمية (من أولا ورابعا)

سادسا- القرآن ليس من عند الله (من أولا وثانيا ورابعا).

سادسا - هل يوجد إله؟

هناك عدة أمور تتحكم بمسار هذا التسلسل ووصوله إلى نتيجته النهائية.

أولا - العلاقة «الدينية» مع العلم: ثمة نوع من العلاقة «الإيمانية» مع العلم، الإيمانية بمعنى اليقين والتسليم والانبهار بكل ما يكون عليه (ختم العلم)، دون الأخذ بعين الاعتبار الطبيعة التراكمية للعلم والتي تصحح أخطاءها باستمرار. تجد مشكلة في التراجع عن ما تبنته لفترة وثبت وجود ما هو أكثر صوابا منه. هذه العلاقة تجعل كل ما يقال عنه أنه «علم» يعامل على أنه «صواب مطلق» دون تمييز بين نظرية أثبتت مصداقيتها وأبحاث لا تزال في بدايتها ونظرية لا تزال تحتاج إلى براهين.

ثانيا - التعامل مع النصوص القرآنية من خلال «المفسرين القدامى» فقط وليس من خلال ألفاظها مباشرة، ولأن هؤلاء تعاملوا مع القرآن من خلال معارفهم البشرية في ذلك الوقت، فإن تفسيراتهم كانت منسجمة مع تلك المعارف، وهذا يجعل «النص القرآني من خلال هذه التفاسير» يقدم معارف تنتمي للقرون الوسطى، وهو أمر لا يعيب النص القرآني، ولا يعيب المفسرين القدامى، بل يعيب من يحاول جعل قراءاتهم هي الوحيدة المخولة لتفسير القرآن، سواء كان ذلك من طرف المتشدد الديني، أو الملحد الذي يستغل هذه القراءة ليثبت تناقضا للقرآن مع العلم.

ثالثا - التعامل مع الأحاديث النبوية الآحاد ظنية الثبوت كما لو كانت نصا قرآنيا، ومن ثم التعامل معها أيضا من خلال المفسرين القدامى (كما مع القرآن) ومن ثم اعتبارها تتناقض مع المعطيات العلمية[1].

رابعا - استيراد الصراع الذي حدث بين الكنيسة والمؤسسات العلمية في أوروبا في مطلع عصر التنوير، حتى من خلال قضايا لا يخالفها القرآن ولا المفسرون القدامى!

التعامل بانضباط وتوازن مع العاملين الأول والثاني، سيؤدي إلى إيقاف السلسلة التي قادت إلى سؤال: هل يوجد إله؟

أهم ما يتداول على أنه تناقضات للنص الديني مع العلم:

أولا- جريان الشمس

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨)

وهذا برأيهم يناقض حقيقة أن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية وأن الأرض وكل الكواكب في المجموعة تدور حول الشمس، لكن هذا التناقض مفتعل تماما وهو يستلهم من صراع الكنيسة الكاثوليكية مع غاليليو وكوبرنيكوس، اللذان قالا أن الأرض وكل كواكب

(١) سيكون هناك مزيد من التفصيل في «الحديث صحيح ولكن»

المجموعة الشمسية تدور حول الشمس، إذ أن الكتاب المقدس يصرح في مواضع عديدة أن الأرض ثابتة[1].

قرآنيا الأمر مختلف، القرآن لا يقول بثبات الأرض أو دوران الشمس حولها، الآية السابقة تتحدث عن جريان الشمس لمستقر لها، لا تقول أن الجريان يدور حول الأرض ولا تقول أن الأرض ثابتة، قطعا هناك من فهم ذلك عبر العصور، لكن القرآن لم يقل ذلك لا صراحة ولا تلميحا.

هناك آية أخرى يحاول البعض فهمها على أنها تدل على ثبات الأرض ودوران الشمس حولها وهي

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ (الكهف: ١٧)

فالشمس هنا تطلع وتغرب، وهذا يعني برأيهم أنها هي من تتحرك وليس الأرض، لكن السياق واضح في كون أن هذا كله هو ما يراه الإنسان وليس الواقع بالضرورة (وترى الشمس إذا طلعت)، والشيء ذاته سينسحب على آيات تتحدث عن ذي القرنين الذي عندما بلغ مغرب الشمس (وجدها) تغرب في عين حمئة.

هذا ما وجده وما فهمه وما رآه. ولم يقل النص مطلقا أن الشمس فعليا تغرب هنا أو هناك.

كذلك هناك آيات ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠)

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣)

وهي آيات لا يمكن الفهم منها أن الأرض ثابتة أو أن الشمس تدور حولها، أما جريان الشمس أو سباحتها في فلك – مدار معين- فهذا لا تناقض فيه مع العلم حيث أن الشمس (وكل المجموعة الشمسية) تدور حول مركز مجرة درب التبانة بسرعة ٨٢٨٠٠٠ كيلومتر في الساعة.

أين التناقض المزعوم؟ لا يوجد في آيات القرآن هذا التناقض تحديدا، ولكن يوجد في أشخاص خلطوا بين الفهم السائد في عصور معينة (يوم كان يعتقد أن الأرض هي مركز الكون) وبين آيات قرآنية لم تقل ذلك لكن فسرت على نحو يجعلها مناسبة لمعارف العصر آنذاك ويوجد أشخاص آخرون (استغلوا) هذا الفهم الخاطئ، واعتبروا أن هناك تناقضا بين

(1) Galileo affair - Wikipedia

https://en.wikipedia.org/wiki/Galileo_affair#Bible_argument

القرآن والعلم. ومرة أخرى هذا لا يعيب المفسرين القدامى الذين تعاملوا مع القرآن بمنطق عصرهم ومعارفه، بل يعيب من يحاول أن يجعل هذه القراءة لتكون القراءة الوحيدة الصالحة للاستخدام.

سيقال في نفس هذا السياق أن ثمة أحاديث سيفهم منها هذا التناقض بوضوح أكبر مثل حديث أبي ذر:

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا[1]، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨)».

مع الأحاديث النبوية التي فيها شبهة تناقض مع العلم، علينا أن نتعامل كما تعاملنا آنفا في موضوع صفات الله، وشبهة التجسيم، علما أن أغلبية الأحاديث التي تستحضر في سياق التناقض مع العلم هي أحاديث آحاد، أي أنها أحاديث (ظنية الثبوت) كما مر سابقا.

لكن ينبغي هنا أن نقف لنذكر أن علماء الحديث أيضا رغم أنهم أشاروا إلى (ظنية ثبوت) حديث الآحاد فهم أشاروا أيضا إلى أنها (قطعية الدلالة)...هذا مفهوم تماما في سياق أمور فقهية - تشريعية - أخلاقية (عن الوضوء أو عن الصلاة أو الأخلاق العامة) لكن توسيع (ثبوت الدلالة) - رغم الإقرار بظنية الثبوت- في أمور علمية ذات طبيعة مختلفة سيزج بمنظومة الحديث الشريف في مواجهة مع العلم الحديث، وهو أمر يستحق برأيي إعادة النظر من قبل المختصين بعلم الحديث..

هل نريد هذه المواجهة حقا...أليس إصرارنا على (قطعية كل شيء) يسهل للملحدين إيجاد ما يدعون أنه تناقضات؟

كيف يمكن أن يبنى على حديث (ليس قطعي الثبوت) تناقض مع العلم الحديث؟

بالتأكيد لا يمكن أن يبنى عليه تناقض...ولكن علينا قبل هذا أن نحل مشاكلنا مع فهم الحديث النبوي...أن نطور آليات واضحة لا تجعلنا في هذا الخيار الصعب الذي لا نريده: إما منظومة الحديث كلها أو لا شيء منها؟

(١)صحيح البخاري ٣١٩٩

ثم بالنسبة للحديث السابق: ما الذي حدث للمجاز؟ لماذا كل شيء يجب أن يفهم حرفيا؟ بالتأكيد الشمس تسجد لله رب العالمين- بالضبط كما نؤمن أن الكون كله في حالة سجود لله.. لكن بالتأكيد ليس السجود الذي له مظهر جسدي كما البشر...بل هو بالتأكيد في الخضوع لسنن الله... ما دامت الشمس تدور ومعها كل المجموعة الشمسية حول مركز المجرة، كما وضع الله لها هذا القانون، فهي في سجود...

علينا أن نتذكر هنا أيضا أنه عز وجل قال في القرآن الكريم ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء:٤٤)

فكل ما في السماوات والأرض «يسبح لله» بطريقة مختلفة عن تسبيح البشر، وكذلك السجود، كل ما في الكون ساجد له عز وجل، ولا يشترط بالسجود أن يكون مماثلا لسجودنا، كما لا يشترط في التسبيح أن يكون مشابها لتسبيحنا.

ثانيا-مدة خلق الكون:

حيث يقول القرآن أن خلق السماوات والأرض وما بينهما استغرق أياما ستا كما في آية

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٩)

علميا، العالم كما نعرفه اليوم استغرق حوالي ١٠ مليارات سنة[1] إلى أن تكون.. دون حساب نشوء الحياة فيه.

التناقض واضح هنا؟

كان سيكون الأمر كذلك فعلا لولا وجود آيات قرآنية أخرى، واضحة جدا تشير إلى نسبية مفهوم الزمن واليوم تحديدا..

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥)

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤)

(1) Our Expanding Universe: Age, History & Other Facts
https://www.space.com/52-the-expanding-universe-from-the-big-bang-to-today.html

إذن اليوم يمكن أن يكون ألف سنة ويمكن أن يكون خمسين ألف سنة، ويمكن أن يكون أكثر من ذلك أو أقل..

لذا فالتناقض بين الأمرين وهمي تماما، والأيام الستة قد تكون رمزية لمراحل متتابعة مر بها الخلق، أو تقريب وتدريب لفكرة التراكم والتدرج حتى في الخلق.

وقد تكون ستة أيام فعلا، لكن ليس بالحسابات البشرية، بل بحسابات تكون فيها ١٠ مليارات سنة (بحساباتنا) مساوية لستة أيام بتلك الحسابات..

ويبدو أن نسبية الزمن غير مقدمة بوضوح في نصوص الكتاب المقدس، الأمر الذي جعل مدة خلق الأرض تشكل مواجهة بين الكنيسة والعلم، وهو خلاف مستورد هنا مع القرآن الكريم.

ثالثا -طوفان نوح غطى كل الأرض:

لا يوجد أي دليل جيولوجي يسند ذلك بل العكس ولكن في الوقت نفسه لا يوجد نص قرآني قال ذلك على الإطلاق.

فنوح حسب القرآن كان قد أرسل إلى قومه فحسب وليس إلى كل العالمين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٣)

وقد تكررت الإشارة إلى محلية رسالة نوح خمس مرات في القرآن الأعراف ٥٩، هود ٢٥، العنكبوت ١٤، الحديد ١٦ و نوح ١.

كما أن الإشارات إلى الطوفان لاحقا تتحدث عن عقوبات للظالمين والكافرين (وهم قومه) وليس كل البشرية.. بل إن الآية تتحدث عن (أرض) وليس عن الأرض

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود:٤٤)

ولا يوجد أي آية تقول أن كل الأرض تعرضت للطوفان رغم أن كونه كبيرا لدرجة وصوله إلى الجبال

على العكس من ذلك: الحديث في الكتاب المقدس عن كون الطوفان قد شمل الأرض كان واضحا ومن الصعب تأويله حيث جاء في سفر التكوين الإصحاح السابع (١٩ **وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض، فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء**

٢٠ خمس عشرة ذراعا في الارتفاع تعاظمت المياه، فتغطت الجبال

٢١ فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش، وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض، وجميع الناس

٢٢ كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات

٢٣ فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض: الناس، والبهائم، والدبابات، وطيور السماء. فانمحت من الأرض. وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط

٢٤ وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوما).

هذا النص واضح جدا في تقديم الطوفان كما لو أنه شمل كل الأرض وأثر على البشرية بأسرها وهو أمر يجعل الكتاب المقدس في مواجهة مع هذا التناقض واستيراد الأمر إلى القرآن هو من قبيل تقليد التجربة الغربية.

رابعا- انشقاق القمر:

علمياً لا يوجد أي أثر على القمر يدل على أنه تعرض لشق أو شرخ، وهذا يتناقض مع الفهم السائد لقول القرآن بانشقاق القمر.

رغم انتشار هذا الفهم لآية (اقتربت الساعة وانشق القمر) إلا أن هناك من العلماء والمفسرين من يرى أن هذا الفهم ليس لازما، منهم من جيل التابعين مثل الحسن البصري،

ومنهم من القرون اللاحقة العز بن عبدالسلام كما أفسح الكثير من المفسرين الكبار (مثل القرطبي والنيسابوري والسمعاني) المجال لبيان هذا الرأي الذي لا يكذب الآية بل يعدها جزءا من علامات يوم القيامة التي قدمت كثيرا في القرآن الكريم بصيغة الفعل الماضي

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (الكهف: ٩٩ - ١٠٠)

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس: ٥١ - ٥٢)

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٨ - ٧١)

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق: ٢٠ - ٢١)

وهناك أمثلة أخرى كثيرة جدا، كلها تصور القيامة عبر الفعل الماضي، وهو أسلوب قرآني يعبر عن أن هذا سيحدث فعلا كما لو أنه قد حدث بالفعل. التعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتأكيد أنه سيتحقق لا محالة.

لا أحد يقول أن نفخة الصور قد حدثت بالفعل.. ولا أن جهنم عرضت فعلا..

الشيء ذاته بالنسبة لانشقاق القمر...

أما الحديث الصحيح الذي يقول بانشقاق القمر فهؤلاء ينظرون له على أنه فهم الصحابي إذ لا يعقل في رأيهم أن تحدث معجزة كهذه دون أن يتحدث عنها غير صحابي واحد فقط هو عبد الله بن مسعود، بينما يتوقع أن شيئا مهمّا كهذا يتحدث به كثيرون ويبلغ الأمر معه التواتر[1]..

هذه علامة من علامات الساعة، لذا فالعلم بالتأكيد لم يجد دليلا على انشقاق القمر..

لأنه لم يحدث بعد، وسيحدث لاحقا عند الساعة...

وهذا مرة أخرى، ليس تناقضا مع القرآن.. بل مع فهم معين للقرآن[2]..

خامسا- الأرض المسطحة

هذا التناقض مستورد تماما من التجربة الغربية، بل هو مستورد من بعض المزاعم غير الحقيقية في التجربة الغربية، عكس ما هو سائد ومنتشر من أن الكنيسة كانت تقول أن الأرض مسطحة وأنها حاربت من يقول بكرويتها، وأن كروية الأرض أثبتت من خلال رحلة

(١) للمزيد يمكن مراجعة كتاب السيرة مستمرة، فصل المعجزات لا تحدث سرا، للمؤلف.

(٢) للمزيد عن الموضوع، كتاب السيرة مستمرة للمؤلف، دار عصير الكتب، المعجزات لا تحدث سرا، وكتاب «القيامة أرضية أم كونية» للدكتور محمد صالح العاني دار عصير الكتب

كولومبوس في القرن الخامس عشر الميلادي، هذا الأمر يعتبر الآن محض أسطورة[1]. ليس فقط لأن كروية الأرض معروفة منذ عهد الفلاسفة الإغريق (فيثاغورس في القرن السادس قبل الميلاد، أفلاطون في القرن الخامس قبل الميلاد وأرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد)[2] بل أن الكثير من أهم اللاهوتيين في القرون المبكرة وصولا إلى القرون الوسطى كانوا يقولون بكروية الأرض وعلى نحو طبيعي (مثل غريغوري أسقف نيصص في القرن الرابع الميلادي، والقديس أوغسطين في القرن الخامس وتوماس الأكويني في القرن الثالث عشر الميلادي)[3]، بالتأكيد لم يكن الكل يؤمنون بهذا وكان هناك كثيرون يؤمنون بأن الأرض مسطحة خاصة مع القطيعة مع تراث الإغريق لكن «الكنيسة» لم يكن لها علاقة بهذا وكانت متقبلة لفكرة الكروية.

بالتدريج وبالتعامل مع المسلمين واسترداد الموروث الإغريقي صارت فكرة كروية الأرض سائدة جدا في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر[4].

من أين جاءت الفكرة المنتشرة أن أوروبا كانت تعتقد أن الأرض مسطحة وأن الكنيسة حاربت من أجل الإبقاء على ذلك إلى أن أثبت العلم لاحقا كرويتها؟

بدأ من خلال دعاية بروتستانتية مضادة للكنيسة الكاثوليكية في القرن السابع عشر، ثم تطور الأمر في القرن التاسع عشر ليصبح جزءا من الحرب ضد الدين بشكل عام ومن خلال كتب حققت شعبية ورواجا كبيرين دون أن تتمتع بمصداقية تاريخية[5]!

الطريف أن هذه الدعاية المضادة للكنيسة وللدين (والتي لا تتمتع بمصداقية) تبناها بعض المتدينين بحماس في القرن العشرين وأنشأوا جمعياتهم التي تدافع عن مبدأ الأرض المسطحة بحجة أن هذا ما يقوله الكتاب المقدس[6]!

---

(1) Flat Earth: The History of an Infamous Idea Christine Garwood St. Martin's Press 2008

(٢) لم يحدد بالضبط من أول من قال بهذا ولا كيف ولكن من المؤكد أنه بحلول القرن الخامس قبل الميلاد كان كل الفلاسفة الإغريق يعلمون تلامذتهم بأن الأرض كروية بناء على ملاحظات فلكية متعددة

Spherical Earth - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Spherical_Earth#History

(3) Christians in the Middle Ages Did Not Believe in a Flat Earth | Come Reason's Apologetics Notes
http://apologetics-notes.comereason.org/2014/08/christians-in-middle-ages-did-not.html

(4) Busting a myth about Columbus and a flat Earth - The Washington Post
https://www.washingtonpost.com/blogs/answer-sheet/post/busting-a-myth-about-columbus-and-a-flat-earth/2011/10/10/gIQAXszQaL_blog.html?noredirect=on&utm_term=.54dc1953f5ca

(5) Inventing the Flat Earth: Columbus and Modern Historians Jeffrey Burton Russell Praeger 1991

(6) Modern flat Earth societies - Wikipedia

وهذا المزيج من التراجيديا والملهاة هو الذي حدث بالضبط عندما استوردت هذه التهمة من الصراع ضد الكنيسة في الغرب لتطبق على القرآن والإسلام. وهو أمر مضحكٌ مُبكٍ في آن.

لماذا يضحك ولماذا يبكي؟

لأنه كان ثمة إجماع بين علماء المسلمين على كروية الأرض! ابن تيمية وابن حزم ينقلان بالتفصيل الإجماع على ذلك[1]!...

وسواء كان ذلك تفاعلا مع معارف الإغريق التي أخذها المسلمون أو قراءة لآيات القرآن أو مزيجا من الأمرين فإنه يدل على انتشار الأمر لدرجة القول بالإجماع... لذا فإن فمن المضحك أن يتحول الحديث الآن ليكون اتهاما للقرآن بالقول بأن الأرض مسطحة...

هذا هو... المضحك فما المبكي؟ المبكي هو أن البعض من مسلمي اليوم[2]، يستندون على آيات القرآن، للقول بأن الأرض مسطحة! بل ومهاجمة من يقول غير ذلك واتهامه بالتبعية للغرب!

---

(١) سُئِلَ: عَنْ رَجُلَيْنِ تَنَازَعَا فِي «كَيْفِيَّةِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ «هَلْ هُمَا «جِسْمَانِ كُرِّيَّانِ»؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا كُرِّيَّانِ؛ وَأَنْكَرَ الْآخَرُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ وَقَالَ: لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ وَرَدَّهَا فَمَا الصَّوَابُ؟.

فَأَجَابَ:

السَّمَوَاتُ مُسْتَدِيرَةٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ حَكَى إجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ: مِثْلُ أَبِي الْحُسَيْنِ أَحْمَد بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْمُنَادِي أَحَدِ الْأَعْيَانِ الْكِبَارِ مِنْ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَحْمَد وَحَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ وَأَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ وَرَوَى الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ بِالْأَسَانِيدِ الْمَعْرُوفَةِ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَذَكَرُوا ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَبَسَطُوا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ بِالدَّلَائِلِ السَّمْعِيَّةِ. وَإِنْ كَانَ قَدْ أُقِيمَ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا دَلَائِلُ حِسَابِيَّةٌ. وَلَا أَعْلَمُ فِي عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمَعْرُوفِينَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ؛ إلَّا فِرْقَةٌ يَسِيرَةٌ مَنْ أَهْلِ الْجَدَلِ (مجموع الفتاوي/ الجزء ٦ صفحة)٥٨٦

قَالَ: وَكَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِهَا مِنْ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِثْلُ الْكُرَةِ. قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ لَا يُوجَدُ طُلُوعُهَا وَغُرُوبُهَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ فِي نَوَاحِي الْأَرْضِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ عَلَى الْمَشْرِقِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ. قَالَ: فَكُرَةُ الْأَرْضِ مُثْبَتَةٌ فِي وَسَطِ كُرَةِ السَّمَاءِ كَالنُّقْطَةِ فِي الدَّائِرَةِ. (مجموع الفتاوي / الجزء ٢٥ ص ١٩٥)

وقال ابن حزم تحت عنوان «بيان مطلب كروية الأرض» قَالُوا إن الْبَرَاهِين قد صحت بِأَن الأَرْض كروية والعامة تَقول غير ذَلِك وجوابنا وَبِاللهِ تَعَالَى التَّوْفِيق إِن أحد من أَئِمَّة الْمُسلمين الْمُسْتَحقين لاسم الإِمَامَة بِالْعلمِ رَضِي الله عَنْهُم لم ينكروا تكوير الأَرْض وَلَا يحفظ لأحد مِنْهُم فِي دَفعه كلمة بل الْبَرَاهِين من الْقُرْآن وَالسّنة قد جَاءَت بتكويرها قَالَ الله عز وَجل {يكور اللَّيْل على النَّهَار ويكور النَّهَار على اللَّيْل} الفصل في الملل والأهواء والنحل الجزء ٢ صفحة ٧٨

(٢) أغلب من يقول ذلك هم هواة لا يمكن التأكد من جديتهم، منحتهم وسائل التواصل الاجتماعي فرصة للظهور والشهرة، والحقيقة أن الكلام المتداول عن وجود فتوى تقول بأن الأرض مسطحة- صادرة من إحدى هيئات الإفتاء الشرعي المهمة ومن قبل أحد رجال الدين المعاصرين المعروفين- غير صحيح فالفتوى المشار إليها كانت عن «ثبات الأرض» وليس عن عدم كرويتها، صحيح أن الأمر خاطئ أيضا لكن النقل المنتشر غير دقيق، ونفس الهيئة قالت في موضع آخر أن الأرض كروية بسبب الإجماع المذكور أعلاه.

ماذا عن آيات مثل ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾؟

هذه الآيات تتحدث عن تمدد وانبساط جزء من كل كروي.. الأرض منبسطة بمعنى أنها سهلة ممهدة وليس مسطحة في شكلها النهائي...

ماذا عن الجبال إذن؟ نعم، ٥ ٪ من الكرة الأرضية جبال.. أو ٢٥٪ من اليابسة ...وهذا لا يمكن أن يؤثر على معنى (المد) والتمهيد في عموم الأرض.

سادسا – ادعاء تناقض القرآن في خلق الإنسان:

مرة يقول من ماء، مرة من ماء مهين، مرة من نطفة، من طين، من علق، من حمأ مسنون... وأيضا «لم يك شيئا».. هذا بينما العلم له معطيات محددة مفصلة (ومشاهدة) عن تكون البيضة المخصبة ومراحل تطورها الجنينية

العلم يقدم مجهرا أو جهاز سونار يطل على الجنين بكل تفاصيله منذ لحظة تخصيب البويضة..

القرآن لا يفعل ذلك وليس من المطلوب منه أن يفعل ذلك.

القرآن يقدم صورة كبيرة بعيدة، بانورامية، منذ مرحلة لم يك شيئا...المرحلة التي ليست من اختصاص العلم الطبيعي...

ماء، طين، حمأ مسنون، علق.. .ماء مهين.. إلخ ..هذه ليست تناقضات.. هذه مراحل منذ نشأ الخلية الأولى– الأولى جدا – الخلية التي نرجع لها جميعا في بداية الخليقة.

البانوراما تعطيك لقطات سريعة لتاريخ السلالة الإنسانية منذ أن كانت طينا، أي عندما نشأت من الأرض...هي تذكر النوع الإنساني بحقيقته الأولى الغائبة عن وعيه وذاكرته.

ليس من المطلوب من الآيات القرآنية أن تقدم تقريرا عن وضع الجنين في كل أسبوع من أسابيع الحمل...إن شئت الحصول على ذلك، فكتاب علم الأجنة هو الذي يجب أن تلجأ له وليس القرآن.

سابعا– خلق المرأة من ضلع آدم:

بينما لا يوجد أي دليل علمي يربط بين المرأة وبين أي نوع من الأضلاع أو في اختلاف تكوينها عن تكوين الرجل.

القرآن لم يقل هذا على الإطلاق.

قيل هذا في العهد القديم من الكتاب المقدس (سفر تكوين إصحاح ٢ : ١٢-٢٢).

القرآن قال في أكثر من موضع (خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها) لم يشر لآدم ولا لزوجه ولا لبشر من الأصل. وهذا قد يتوافق بشكل عام مع فكرة انقسام الخلايا التي تؤدي إلى تكوين كائن حي مشابه.

لكن ورد في الحديث الشريف ما يمكن أن يفهم منه ذلك **«الْمَرْأَةُ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ أَعْوَجَ وَإِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ تَرَكْتَهَا تَعِشْ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ»**[1]

وهو أمر يمكن أن يفهم كما تفهم آية **﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾** (الأنبياء: ٣٧) فالآية هنا يفهم منها أن العجلة «طبع» في الإنسان كما لو «خُلق» منه وهو أسلوب شائع في كلام العرب، كذلك يمكن أن يفهم من الحديث خاصة أن الحديث هو عن «طبع المرأة «وطبعها هو أنها تحتوي كما تفعل الأضلاع (لا يوجد ضلع مستقيم بالمناسبة فالعوج هنا ليس عيبا بل هو جزء من وظيفة الاحتواء والحماية)

ولكنه «طبع مختلف» عن طباع الرجل ولذا يجب التعايش معه. الحديث عن السلوكيات وليس عن البيولوجيا.

ثامنا- ادعاء وجود خطأ في مراحل تشكل الجنين:

يدعي البعض عدم توافق ما جاء في القرآن حول تشكل الجنين مع معطيات العلم الحديث،

الآيات التي يركز عليها هؤلاء غالبا هي:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢ - ١٤)

مرة أخرى هم يذهبون إلى أقوال المفسرين عبر عصور مختلفة ليثبتوا تناقضها مع المعطيات العلمية، والمفسرون في كل عصر يقرؤون القرآن ويتفاعلون معه حسب علوم عصرهم ومعارفه، وبالتأكيد تتغير هذه المعارف مع مرور الوقت وتتطور، ويكون هناك تناقض كبير فعلا

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٧٣٣٤

بين معارف القرن السابع الميلادي، ومعارف القرن الواحد والعشرين وهو أمر طبيعي، لكن الخلط بين أقوال المفسرين والنص القرآني (الذي يقوم به الكثير من المتدينين) هو الذي يسهل على من يريد أن يتصيد ليروج لوجود تناقض بين القرآن والعلم أن يجد ضالته...

ما الذي وجدوه هنا؟

أولا - أن الآية تجاهلت الدور البيولوجي للمرأة في عملية تشكل الجنين داخل رحمها، ولم يشر إلا إلى دور الرجل عبر ذكر (النطفة)..علما أن القرآن لم يقل أن النطفة هي للرجل أو للمرأة، بل قال النطفة فقط، والنطفة يمكن أن تكون للاثنين معا.. ولغةً في لسان العرب هي القطرة من أي سائل.

ثانيا - أن العلقة هي (تجلط دموي) والجنين لا يكون جلطة دموية في أي مرحلة من مراحله، والعلقة (في لسان العرب) هي أي شيء عالق سواء كان تجلطا دمويا أو بويضة مخصبة معلقة في جدار الرحم.. وهم مرة أخرى يذهبون إلى المعارف السائدة في عصور المفسرين (لا إلى النص نفسه) من أجل إثبات تناقض بين العلم والقرآن.

ثالثا - أن الآية تقول أن العظام تتشكل قبل العضلات بينما نشوء العضلات يكون أسبق..

الآية لا تقول هذا، الآية أشارت إلى «إكساء» العظام باللحم (العضلات) ولكنها لم تقل متى خلق اللحم، قبل أو بعد أو شيء له علاقة بالتسلسل.

تسلسل ما يحدث «علميا» هو كالآتي: العظام والعضلات تتشكلان في الأسبوع الثامن، حيث تبدأ الغضاريف بالتحول إلى «عظام» في هذا الأسبوع، العضلات تكون مرتبطة بالغضاريف لكن تحول الغضاريف إلى عظام يفقدها هذا الارتباط.

ارتباط العضلات بالعظام يكون من خلال الأوتار (والوتر tendon هو شريط من الأنسجة الليفية تربط العضلات بعضو آخر، غالبا العظام)، هذه الأوتار ترتبط بالعضلات أولا، ومن ثم ترتبط بالعظام، بعبارة أخرى: هناك فترة وجيزة من الوقت، ربما بضعة ساعات، تكون فيها العظام غير مرتبطة بأي شيء (أي غير مكسية) ثم ترتبط بالأوتار، التي تكون مرتبطة أصلا بالعضلات، أي باللحم[1].

في نفس الموضوع يذهب الملحدون إلى أحاديث نبوية يفهم منها أن نفخ الروح في الجنين

(1) Connecting muscles to tendons: tendons and musculoskeletal development in flies and vertebrates
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC2938915/

يحدث بعد ١٢٠ يوما من التلقيح[1]، ويقررون بعدها أن نفخ الروح هو عمل القلب، والقلب يبدأ عمله في الجنين في الأسبوع الخامس أو السادس تقريبا، فيصرخون: تناقض!

أولا- هذا الحديث هو حديث صحيح ولكنه حديث آحاد أي أنه خاضع لموضوع ظنية الثبوت الذي سبق ذكره والذي يجعلنا نتحفظ في أخذ كل ما ذكر في الحديث بحرفيته عندما تقود الحرفية إلى تصادم مع حقيقة علمية.

ثانيا- من قال أن الروح تعني دقة القلب؟ ربما هناك كثيرون يعتقدون ذلك- من ضمنهم مفسرون كبار-، لكن الحديث لم يقل ذلك، بل إن النص القرآني قال أن الروح من أمر ربي في إشارة إلى عدم جدوى الخوض فيها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)

تاسعا- ادعاء وجود أخطاء في التصميم البشري:

كذلك يتحدثون عن وجود (أخطاء) في جسم الإنسان - هكذا يسمونها- بينما يقول القرآن الكريم (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم). وهم يبنون عليها ليس فقط التناقض مع القرآن الكريم ولكن توجد حجة كاملة قائمة على فرضية أن إلها (خالقا قادرا) لن يخلق مخلوقات فيها أخطاء تصميمية[2].

الإحسان في الخلق لا يعني أبدا الكمال.

لا يوجد نص ديني يقول أن الله خلق أعضاء جسم الإنسان على نحو كامل، بل استخدم أكثر من موضع لفظ (الحسن) ومعنى الحسن معروف وهو لا يشير إلى الكمال بكل الأحوال.

العيوب الخلقية التي يشار إليها عادة (قرابة الـ ١٢) ويمكن تقسيمها إلى:

أولا- عيوب تصميمية في الجسم البشري قد تقود إلى الوفاة: مثل إمكانية حدوث حمل خارج الرحم لأن البيضة المخصبة قد تعلق في غير جدار الرحم وقد يقود هذا إلى الوفاة، أو أن ممر الولادة يمر من (الحوض) وإذا كانت جمجمة الجنين أكبر بكثير من الحوض فإن الولادة الطبيعية تكون مستحيلة وقد كان هذا يؤدي إلى الكثير من الوفيات قبل أن يحدث

(١) إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ (صحيح البخاري ٣٢٠٨)

(2) Argument from poor design - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Argument_from_poor_design

التداخل بالعمليات الجراحية، أو وجود نقطتي ضعف في جدار بطن الذكر قد تؤدي إلى حدوث فتق يؤدي في بعض الحالات إلى انسداد الأمعاء والوفاة. أو أن البلعوم يستخدم كممر للمضغ وللتنفس في الوقت نفسه مما قد يؤدي إلى الاختناق.

ثانيا - عدم وجود وظيفة معروفة لبعض أجزاء الجسم، مثل الزائدة الدودية (التي قد تلتهب وتؤدي إلى الوفاة في حالة عدم حدوث تداخل جراحي) أو سن العقل، أو العضلة الأخمصية Plantaris في القدم التي نادرا ما تستخدم أو العضلات التي تحرك الأذن والموجودة عند البعض.

ثالثا - قصور مفترض في كفاءة بعض الأعضاء، مثل عدم قدرة الجسم على تكوين فيتامين C، رغم قدرة معظم الحيوانات على ذلك، وعدم قدرة الجسم على التكيف مع قلة الأوكسجين في المناطق المرتفعة عبر زيادة معدل التنفس، وكذلك حالات الانحناء الجانبي للعمود الفقري (ما يعرف بالجنف)، ووجود نقطة عمياء طبيعية blind spot في العين حيث تحجب الرؤية بسبب خلوها من مستقبلات الضوء، وتسطح الوجه البشري مقارنة ببقية الرئيسيات primates، وهو أمر يؤدي إلى قصور في عمل الجيوب وازدحام في الأسنان، وكذلك عدم قدرة الرسغ على الدوران بـ ٣٦٠ درجة.

رابعا - وجود أمراض وعيوب خلقية منذ الولادة[1].

***

مبدئيا فكرة الإله الكامل يجب أن يخلق بشرا كاملين لا معنى لها وغير منطقية وغالبا صادرة عن مغالطة النيرفانا أو الكاتالوغ المثالي الذي يحاسب به البعض الإله من خلال مواصفات قرروها هم وليس مما حكاه هو عن نفسه - مثلا.

هذا أولا.

ثانيا- استخدام آية «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» التين(٤) للإيحاء بوجود تناقض مع ما ورد من عيوب مفترضة في التصميم البشري يفترض سلفاً أن «أحسن تقويم» تعني الكمال والدرجة الأعلى الممكنة من الخلق، وهذا ما لم يقله أي تفسير، فأحسن - كما تفهم طبيعيا - هي صيغة مقارنة، وهي تعني هنا المقارنة مع تقويم بقية المخلوقات، وليس «التقويم الأكمل الخالي من العيوب» خاصة أن الآية التي تليها تستمر في المقارنة ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين: ٥).

(1) Argument from poor design - Wikipedia

كتب التفسير بمجملها لم تتحدث أبدا عن «التقويم الأكمل بالمعنى الذي تشير إليه مناقشة عيوب التصميم، لم يفترض أحد أن أحسن تقويم تعني أن يكون البشر خارقين بلا معاناة، بل ذهب المفسرون إلى «وفي قوله ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أربعة أقاويل: أحدها: في أعدل خلق، قاله ابن عباس. الثاني: في أحسن صورة، قاله أبو العالية. الثالث: في شباب وقوة، قاله عكرمة. الرابع: منتصب القامة؛ لأن سائر الحيوان مُنْكَبٌّ غير الإنسان، فإنه منتصب، وهو مروي عن ابن عباس. ويحتمل خامساً: أي في أكمل عقل؛ لأن تقويم الإنسان بعقله»[1]

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» يعني يمشي على رجلين وغيره يمشي على أربع، وأحسن التقويم الشباب وحسن الصورة، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ بعد الشباب والصورة الحسنة أَسْفَلَ سافِلِينَ»[2]

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم) قال: الشاب القويّ الجَلْد. «وعن ابن عباس (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) قال: شبابه أوّل ما نشأ.

وقال آخرون: قيل ذلك لأنه ليس شيء من الحيوان إلا وهو منكبّ على وجهه غير الإنسان»[3]

إذن التناقض هنا هو مع «تفسير وهمي» لم يقل به أحد.

ثالثا - نعم هناك بالتأكيد معاناة بشرية، وهناك صعوبات في الولادة، وهناك أمراض وراثية وأخرى خلقية، وكل هذه جزء من التحديات التي يواجهها البشر في حياتهم، وهي التحديات التي تجعل بعضهم يسعى لتخفيفها لكل البشر، ويكون كل هذا جزء من امتحانهم. لم يقل الله قط أن الحياة البشرية في الدنيا ستكون سعيدة بلا معاناة.

رابعا - الحديث عن عدم وجود فائدة لهذا العضو أو ذاك ليس دقيقا تماما، وجود وظيفة معينة لعضو معين في وقت سابق (مثل سن العقل عندما كان طعام الإنسان نباتيا في معظمه ويحتاج إلى مضغ أكثر..[4]) ثم اختفاء هذه الوظيفة بالتدريج، مع بقاء سن العقل لا يعني وجود عيب بالضرورة. سن العقل يعمل في أحيان كثيرة كضرس احتياطي يمكن البناء عليه في حالة فقدان ضرس آخر وبعض الدراسات الحديثة تشير إلى إمكانية استخدامه كمصدر للخلايا الجذعية التي يمكن أن تستخدم في تكوين سن جديد[5].

---

(١) تفسير الماوردي، النكت والعيون، الجزء ٦ ص ٣٠٢

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان الجزء ٤ ص ٧٥١

(٣) الطبري الجزء ٢٤ ص ٥٠٨

(4) Why Do We Have Wisdom Teeth? | Scienceline
https://scienceline.org/2007/02/ask-cooper-wisdomteeth/

(5) A smart use for wisdom teeth: Making stem cells -- ScienceDaily
https://www.sciencedaily.com/releases/2010/09/100910130603.htm

كذلك الأمر بالنسبة للزائدة الدودية، فقد تبين أنه ربما كان لها فائدة في الاحتفاظ بالبكتيريا المفيدة للأمعاء حيث تبقى فيها «بأمان» إلى أن يحين وقت الحاجة لها[1].

هذه الفوائد لسن العقل أو للزائدة الدودية لا تعني كمال الجسم الإنساني، كما أن وجود أضرار لهما لا تعني أن الله غير كامل لأن خلقه ليسوا كاملين. هذه الفرضية غير منطقية أصلا.. لم يقل الله أنه خلق الإنسان على نحو كامل. وأحسن تقويم تعني الأحسن من بين التصاميم الموجودة فعلا بين بقية الكائنات الحية، وهذا مشاهد بين الكائنات، وافتراض أنه يقصد (أحسن تقويم يمكن تخيله، أو أفضل تقويم افتراضي) أمر لا دليل عليه.

من ناحية أخرى: وجود (حدود) أو (إمكانيات أفضل لم تحدث) للأعضاء البشرية، كانت دوما حافزا للبشر كي يبدعوا ويخترعوا أدوات تساعدهم في أعمالهم.

وهذا ما حدث فعلا منذ أن أصبح الإنسان إنسانا...

*   *   *

ليس صادما أن أقول بعد كل ذلك أن جزءا كبيرا من دعاوى التناقض بين العلم والقرآن ناتجة عن نمط تفكير (ديني) في جزء كبير منه...هذا الخلط بين النص وبين أقوال المفسرين ورجال الدين دون الانتباه إلى المعارف البشرية في عصورهم...وهذا التعامل مع الحديث النبوي من الآحاد على نحو مطلق وكما لو أنه يساوي القرآن الكريم تماما...كان لا بد أن يقود إلى صدام ما، إلى شبهة تناقض، تقود إلى الإلحاد، أو على الأقل تبرره...

---

(1) Appendix May Actually Have a Purpose
https://www.webmd.com/digestive-disorders/news/20071012/appendix-may-have-purpose#1

أخطاء الإعجاز العلمي

للأسف الشديد، الإعجاز العلمي يمكن أن يعد مثالا على النوايا الحسنة التي تنتهي بنتائج سيئة جدا.

بدأ الأمر والهدف واضح بالنسبة للدعاة، جعل الناس يؤمنون أكثر، أليس هذا ما يسعى له الدعاة؟

ونجح الأمر وراج حتى صار له دعاته المتخصصون - أو هكذا بدا الأمر- وصاروا يبحثون عن المزيد من المواد التي يقدمونها لجمهور متعطش يريد المزيد دوماً.

مع الوقت تضخمت مواد الإعجاز العلمي، ولم يعد من الممكن ضبط ما يقال وما ينشر.

صار هناك مؤتمرات ومؤسسات ودورات للإعجاز العلمي، بل صار معاهد متخصصة في تخريج طلاب الإعجاز العلمي.

وكانت فكرة الإعجاز العلمي بسيطة وهدفها واضح وتعتمد على خطوات متسلسلة..

أولا- هذه المعلومة العلمية عرفت مؤخرا، في القرن العشرين مثلا.

ثانيا- هذه المعلومة موجودة في القرآن.

ثالثا- القرآن نزل قبل ١٤٠٠ سنة.

رابعا - لا يمكن للرسول عليه الصلاة أن يكون قد علم بهذه المعلومة من نفسه.

خامسًا- إذن القرآن من الله.

الأجيال التي كبرت في تسعينيات القرن الماضي وما بعدها نشأ جزء كبير منها وقد بني الإيمان عندها على ما قدمه الإعجاز العلمي.

كبرت هذه الأجيال في عصر عاش منجزات العلم وسطوته وهيبته، وكانت اللغة التقليدية في الدعوة قد بدأت تفقد جاذبيتها، وجاء الإعجاز العلمي ليكون بديلا لكثيرين، من الذي

يستطيع أن يناقش هذه الأسماء الأجنبية التي تملك شهادات الدكتوراه في تخصصات علمية دقيقة وتقول أشياء مهمة يقول الشيخ أو الداعية أنها موافقة للقرآن رغم أنها اكتشفت للتو...

كان ذلك هو الحجر الأساس الذي بني عليه إيمان كثيرين.. كل شيء تراكب على هذا الحجر...

ثم جاء الانترنت، صار البحث أسهل. والتدقيق أسهل.

ثم جاءت مواقع التواصل الاجتماعي، صار انتقال المعلومة أسهل.

وإذا بهذا الجيل يصدم بأن الكثير مما قيل له أيام الإعجاز العلمي لم يكن دقيقا.

بل وبأن البعض منه كان بلا أساس.

ولأن إيمانهم بني على هذه (المعلومات) فإن زوالها أدى إلى انهيار الإيمان كله.

وطبعا لم يكن ذلك دون تغيرات كبيرة عصفت بالمجتمعات..

لكن النتيجة النهائية أن أخطاء الإعجاز العلمي سهلت طريق هؤلاء إلى إلحاد هؤلاء.

أو على الأقل هذا ما يقولونه[1].

* * *

شخصيا كنت معجبا بواحدة من معجزات الإعجاز العلمي. معجزة صغيرة وليست كبيرة جدا. نسيت أصلا من قالها أو كتبها لكنها بقيت في بالي وكنت في الخامسة أو السادسة عشر.

كانت عن آية ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ (النازعات: ٣٠)

وكانت المعجزة تقول أن دحية في لغة العرب تعني بيضة، وهذا يعني أن الآية تقول أن الأرض بيضوية الشكل.

وهذا أدق وأكمل من أن يقال كروية.

---

(١) يمكن الاطلاع على البحث الماتع الذي كتبه حمزة اندرياس تزورتزس عن الإعجاز العلمي وتجربته معه

Does the Qur'an Contain Scientific Miracles? A New Approach on how to Reconcile and Discuss Science in the Qur'an | Hamza Andreas Tzortzis

http://www.hamzatzortzis.com/does-the-quran-contain-scientific-miracles-a-new-approach/

والترجمة العربية لنسخة ما قبل النشر

https://goo.gl/KthSZ5

كيف عرف عليه الصلاة والسلام ذلك لولا أن الوحي أخبره بذلك.

سبحان الله. والحمد لله. هيا نصلي الفرض في المسجد.

كبرت بعدها قليلا لأعرف أن كلمة دحية لا تعني بيضة. وأن دحاها تعني (بسطها).

وأن أقرب معنى يربط بين الفعل دحا والبيضة هو أن الدحية هي المكان الذي تضع فيه النعامة بيضها في الرمال.

ثم كبرت أكثر لأعرف أن ذلك لم يكن له داع أصلا...فكروية الأرض يمكن استنتاجها ببساطة من آيات أخرى دون تزييف، كما أن المسلمين كانوا يعرفون عن كروية الأرض، ولم يكونوا أول من عرفوا عن الأمر فقد سبقهم الإغريق إلى ذلك كما سبق.

بالنسبة لي كان الأمر بلا دراما أو نتائج جانبية، ربما لأن إيماني لم يبن على هذه المعجزة... أو لأسباب أخرى.

لكن ..هناك جيل بنى إيمانه على هذا النمط من المعجزات، ودفع ثمنا أكبر..

والآن، عندما نقول له أن ما قيل له وقتها لم يكن صحيحا وأن إيمانه يمكن أن يبنى على شيء آخر، فإنه سيشعر بأنه من الصعب جدا الرجوع إلى تلك النقطة وتصحيح المسار من جديد..

سيقول : الآن؟ بعد أن فقدت؟...

* * *

فلنأخذ بعض الأمثلة على أمثلة الإعجاز العلمي السائرة التي انتهت نهايات مؤسفة، علما أني هنا لا أناقش كل الأمثلة ولا المروجين لها، بل أناقش منهجا يمكن أن يتكرر مع «أمثلة أخرى» ومع دعاة آخرين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦)

التأمل والتبحر في التفاصيل الوظيفية لأي مخلوق سواء كان بعوضة أو فيلا أو وحيد القرن عمل يمكن أن ينتهي بـ (سبحان الله)..لأن روعة الخلق تتجلى في كل المخلوقات، ولا إعجاز علمي في كم سن أو كم قلب أو كم عين أو كم قرن استشعار تملك أو لا تملك البعوضة؛ لأن القرآن لم يتحدث عن هذا.

لكن ماذا عن (فما فوقها)؟

جاء دعاة الإعجاز ليعلنوا اكتشاف وجود كائن يعيش فوق البعوضة، وطبعا لأن البعوضة نفسها تكاد لا ترى فإن هذا الكائن لا يرى بطبيعة الحال.

واعتبر هذا بالتأكيد نصرا للإعجاز العلمي.

لكن تفاصيل الموضوع - للأسف - ستكشف عن عدم دقة الأمر...هناك فعلا كائن طفيلي يشبه العثة mite وهو يعيش بعدد كبير فوق البعوضة وفوق غيرها من المخلوقات. ليس البعوض استثناءً في هذا. كما أنه لا يعيش فوق البعوضة بالضرورة. بل يلتصق بها أو على جناحيها أو على جسمها.

الملحدون لا يتعاملون مع هذا الخطأ بموضوعية.. بل سيقولون (لا يوجد شيء فوق البعوضة) بحسم ودون تفصيل. وللأسف لا يوجد تدقيق كبير لا في معلومة (ما فوق البعوضة) ولا في (لا يوجد شيء فوق البعوضة)...

أما كان من الأفضل أن لا ندخل في هذه المتاهة ونأخذ المعنى الواضح البسيط من الآية ﴿أن الله يضرب الأمثال﴾ مهما كبرت أو صغرت؟

مثال آخر النملة والزجاج...

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨)

بدأ الأمر بسؤال لماذا استخدم القرآن لفظ يحطمنكم؟ وليس يقتلنكم أو أي تعبير آخر.. ثم جاء من يقول أن هيكل النملة قليل المرونة مثله مثل الزجاج (وهذا ليس دقيقا بالضبط ولكن نعم بعض أجزاء النمل تكون قليلة المرونة ولا علاقة للزجاج بالأمر)

ثم يتطور الأمر فيكتب مجهول على الانترنت أن العالم الفرنسي (فلان الفلاني، أي اسم يبدو فرنسيا، آلان ريجيه مثلا أو باتريك دومان) قد اكتشف أن جسم النملة مصنوع من زجاج، والقرآن استخدم اللفظة لأن الأمر كما مع الزجاج..ويا سبحان الله.. ينتشر الأمر على أنه من معجزات الإعجاز العلمي وينقل الكل من الكل دون تدقيق على الإطلاق.

ثم يأتي الملحدون ليتعاملوا مع النتيجة النهائية؛ فيقولون أن العلم ينفي تماما وجود أي صلة بين النمل والزجاج!

القرآن الكريم لم يقل ذلك أصلا، لكن أولئك الذين تقوى إيمانهم بهذه المعلومة سيجدون أنفسهم في وضع حرج..

وجاءت بعض معطيات الإعجاز العددي[1] لتزيد المشاكل، والناس تقول سبحان الله دون تدقيق لأنها لم تتعود على التدقيق على من يتحدث في الدين..

النتيجة التي يهدف لها جماعة الإعجاز العددي هو أن قرآنا بهذه الدقة والتوازن لا يمكن أن يكون من تأليف رجل أمي عاش في القرن السابع الميلادي، ولا حتى من تأليف رجل غير أمي عاش في ذلك الوقت.

عظيم. هدف نبيل. وسيزيد إيمان كثيرين بناء على هذا.

لكنهم عندما يكتشفون لاحقا أن بعض ما قدم لهم من معلومات لم يكن دقيقا ... فإنك عمليا أوصلت الرسالة المعاكسة لهم...المعاكسة بالضبط.

ويعامل ذكر القرآن للنحل والعسل وفوائده على أنه معجزة، رغم أن كل الحضارات القديمة كانت تعرف فوائد للعسل وتستخدمه للتشافي..كذلك تعامل الحجامة على أنها معجزة رغم أنها علاج كان معروفا في ذلك الوقت وليس هناك دراسة علمية تثبت أنه ينفع في علاج قائمة الأمراض الطويلة التي يدعون أن الحجامة تعالجها ..

القصص مثل هذه كثيرة.. مكة مركز الكون أو اليابسة...النظرية النسبية موجودة قبل ١٤٠٠ سنة في القرآن..

غلبت الروم في أدنى الأرض، لكن لا دليل أن المعركة قد جرت في هذا المكان على ساحل البحر الميت...السماء محروسة بالشهب ولا يمكن إطلاق الصواريخ إلا من أماكن معينة... وكالة ناسا تقول أنها وجدت ما يدل على انشقاق القمر.. وبلورات الماء تتغير عندما تسمع القرآن الكريم...والثقوب السوداء هي الجوار الكنس...الخنزير محرم بسبب وجود نوع معين من الديدان التي تسبب أمراضا خطيرة، رغم أن الديدان ذاتها تتوفر في الأبقار...العدد الذري للحديد هو ٢٦، ولو حسبنا البسملة آية فإن آية (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) سيصبح رقمها ٢٦ أيضا...وتسلسل سورة الحديد في القرآن هو ٥٧...والوزن الذري للحديد هو ٥٧ تقريبا.. في الحقيقة هو تقريبا ٥٦..لكن لو حذفنا سورة الفاتحة فسيكون تسلسل سورة الحديث مطابقا للوزن الذري للحديث!!!

لم كل هذا؟؟ كيف وصلنا إلى هنا؟ هل الهدف هنا هو زيادة إيمان الناس أم الحصول على الإعجاب الآني من الجمهور...ولا يهم ما يحدث بعدها..

---

(١)علي الاعتراف هنا أن الإعجاز العددي قد ظلم بسبب أخطاء بعض العاملين فيه وعموم الموقف من الإعجاز العلمي، فبعض معطيات هذا الإعجاز دقيقة ومحكمة وباعثة على التأمل حقا، ولكن ضاعت للأسف وسط الضجة المصاحبة لمعطيات غير دقيقة.

هل ما يحدث هو خطأ (غير مقصود) - أم هو متعمد...هل المعلومات الخاطئة هنا هي مفبركة عن سبق قصد واصرار لغرض حصاد الإعجاب أم أن أحدهم أخطأ بالنقل للشيخ الفلاني ولم يدقق ..كل الكلام السابق لا يقصد شخصا بعينه من المتحدثين في الإعجاز العلمي...فالفكرة ليست مرتبطة بالشيخ أو الدكتور الفلاني، هذه ظاهرة منتشرة وقد مهدت الطريق لكثيرين إلى أن ينتهوا بالإلحاد.. والتلهي عن هذا الأمر بالدفاع عن المشايخ الذين ربما أصابهم شيء من الكلام السابق أمر هزلي جدا...

لا يصح أيضا أن نقول أنها أخطاء وزلات وهفوات، ربما هي كذلك فعلا للبعض، لكن هي أيضا منهج لكثير من المتصدرين لهذا المشهد..وليس مجرد خطأ لا يمكن لبشر أن ينجو منه...هذا هو المنهج ..المنهج الذي يتحدث عن الإعجاز.. ولكنه يعبر عمليا عن العجز...

* * *

وجود (توافقات) بين ما يقوله القرآن وما يقوله العلم هو أمر طبيعي.. خاصة أن لغة القرآن تحتمل توسع المعاني وتحتوي التطور العلمي..

لكن هذا شيء آخر غير فكرة الإعجاز..

فكرة الإعجاز تتضمن – بالتعريف– نوعا من التحدي.. تقود بالتدريج إلى محاولة تركيب المعاني لتتوافق مع الاكتشاف العلمي...

فكرة أن لدينا الأمر منذ ١٤٠٠ سنة..

لكن هل سألنا لماذا إذن انتظرنا ١٤٠٠ سنة لكي يجعلنا الغربيون نقرأ قرآننا على نحو أفضل؟...

* * *

هناك للأسف إلحاد نتج عن «إعجاز علمي» بدأ بنية حسنة..

النيات الحسنة لا تصلح المنهج الخاطئ...

ما هو هدف الدين؟ ما هي فائدته؟

هذا السؤال بديهي يُنسى كثيرا في خضم الحجج والحجج المضادة.

لكنه سؤال منطقي، ما الذي سيفقده الملحدون عندما يفقدون إيمانهم؟ ما هو الذي يميز المؤمنين عن سواهم ؟ ما هو هدف الدين أو الإيمان؟

بعبارة أخرى: هل هناك هدف أو فائدة من كل هذا الخلاف؟ على الأقل من طرف المؤمنين.

أجوبة متوقعة: السعادة أولا!

لو أننا سألنا هذا السؤال فإنّ هناك بعض الأجوبة التي يمكن توقعها...

هناك مثلا جواب منتشر: السعادة. الدين أو الإيمان يجلبان لك السعادة والطمأنينة والسكينة.

وهذا ممكن جدا. ولكن هناك من سيعترض ويقول أن ليس كل المؤمنين يشعرون بالسعادة أو الطمأنينة، كذلك هناك من سيقول أن الملحدين أيضا يشعرون بالسعادة والطمأنينة، على الأقل هذا ما يقولون أنهم يشعرون به.

هناك بعض الدراسات التي تسند أن المتدينين أكثر شعورا بالسعادة من «الملحدين، أو الذين لا دين لهم» على الأقل ضمن المجتمع الواحد، ففي مجتمع متعدد الديانات مثل المجتمع البريطاني، كان أولئك الذين يعرفون أنفسهم بأنهم (بلا دين) هم الأقل شعورا بالسعادة. بينما تقاسم الشعور بالسعادة أصحاب الأديان المختلفة (هندوس ومسيحيون وسيخ وبوذيون ويهود ومسلمون، وبهذا الترتيب)[1]. كما تشير إحصائية أخرى[2] إلى الشيء ذاته في الولايات

(1) Official 'Well-Being' Statistics Show Religious People Are Happier Than Atheists | HuffPost UK
https://www.huffingtonpost.co.uk/2016/02/02/office-for-national-statistics-well-being-data_n_9138076.html

(2) How Religion Affects Everyday Life
http://www.pewforum.org/2016/04/12/religion-in-everyday-life/

المتحدة، حيث يشعر ٤٠٪ من المتدينين بأنهم سعداء جدا (مقابل ٢٩ ٪ من غير المتدينين) كما يشعر ٧٤٪ من المتدينين بالرضا عن حياتهم العائلية (مقابل ٦٧ ٪ متن غير المتدينين).

دراسات أخرى تشير إلى عدم وجود فرق في السعادة بين المؤمنين وغير المؤمنين - ضمن مجتمع واحد- مثل المجتمع الأسترالي[١].

بينما في إحصاء عالمي[٢] تبدو الدول الأقل تدينا أكثر سعادة من سواها (مثل فنلندا، النرويج والدنمارك).

الدول العشر الأكثر سعادة في هذا التقرير هي ضمن الأقل تدينا حيث أن غالبية السكان فيها تعتبر الدين ليس مهما في حياتهم.[٣]

وعلى العكس، فإنّ الدول الأقل سعادة فيها غالبية تقول أن الدين مهم جدا في حياتهم.

كيف يمكن حل هذا التناقض؟

يفسر أحد الباحثين[٤] الأمر بكون المتدينين أكثر سعادة في المجتمع الأكثر ميلا إلى التدين (مثل الولايات المتحدة)، بينما يكون اللاديني أكثر سعادة في مجتمع لا يميل إلى التدين (مثل فنلندا)، أي أن الانتماء إلى المجتمع والتشابه معه يلعب دورا رئيسيا في الشعور بالسعادة، لكن هناك عامل آخر يلعب دورا أكبر وهو الوضع الاقتصادي العام في المجتمع، لذا فالأقل سعادة كانت الدول التي تعاني من الفقر ولم يختلف كثيرا أن يكون التدين سائدا في رفع شعور الفرد بالسعادة (لكنه ربما ساعدهم في تحمل الظروف الصعبة، وهذا أمر مختلف عن الشعور بالسعادة).

ربما يمكن الجدل هنا حول اختلاف تعريف السعادة من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر، وهذا حقيقي ومؤثر، لكن في النهاية السعادة أمر نسبي وشخصي جدا، وإذا قال لك شخص ملحد أنه سعيد ولا يحتاج للدين (إذا كان هذا هدف الدين) فلا يمكنك أن تجادله في شعوره،

---

(1) Religiosity and happiness: A comparison of the happiness levels between the religious and the nonreligious Warren J. Sillick, The Journal of Happiness & Well-Being, 2016, 4(1), 115-127
https://www.journalofhappiness.net/frontend/articles/pdf/v04i01/10.pdf

(2) World Happiness Report - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/World_Happiness_Report#2018_report

(3) 10 happiest countries in the world are among the least religious | Christian News on Christian Today
https://www.christiantoday.com/article/10-happiest-countries-in-the-world-are-among-the-least-religious/127465.htm

(4) Are Religious People Happier? | Psychology Today
https://www.psychologytoday.com/us/blog/the-human-beast/201211/are-religious-people-happier

ولا يمكنك أن تقول له أنه يكابر أو ينكر، ولا حتى يمكنك القول له أنه سيصبح تعيسا عندما يكبر. هناك مؤمنون أيضا لا يشعرون بالسعادة ويمكنه أن يقول لك ذلك.

الدين ربما يمنحك السعادة. وربما ذلك محتمل أكثر مما يفعل الإلحاد.

لكن هذا لا يعني أن هدف الدين هو إشعارك بالسعادة.

النجاح في الأرض

ربما سيكون هناك من سيقول أن الدين يهدف إلى «جعلك ناجحا» أو «إعمار الأرض» أو «نهضة المجتمع» أو الأمة..وغالبا «النجاح» هنا معاييره تشمل النجاح والتفوق المادي.

وهذا كله جميل ولا غبار عليه، لكن هل هذه أمور لا يحققها الإلحاد؟

ليس بالضرورة، ورغم أن هناك صورة ذهنية تعتقد أن الناجح «الغربي» أقرب إلى الإلحاد، لكن إحصائيا هذا غير صحيح.

في إحصائية في عام ٢٠١٤ أحرز الملحدون المركز الخامس في مستوى الدخل السنوي في الولايات المتحدة، وكان اللا أدريون في المركز السادس، وهذا ليس سيئا على الإطلاق إذ أن القائمة تحتل أكثر من ٢٠ مجموعة دينية في الولايات المتحدة، لكن المراكز الأربعة الأولى كانت لليهود، الهندوس، أتباع الكنيسة الأسقفية (بروتستانت)، أتباع الكنيسة المشيخية Presbyterian (بروتستانت) تباعا، (المسلمون كانوا في المركز الخامس عشر، والكاثوليك بعدهم تماما، والمسلمون كانوا فوق المعدل الوطني العام بينما الكاثوليك دونه)[1].

لا علاقة حتمية إذن بين النجاح المادي وبين الإيمان أو عدمه. الأمر يرتبط بمجموعة من الدوافع والظروف، وقد يلعب الدين دور الحافز المنشط أو العامل المثبط حسب فهم الشخص له، كما قد يجد الملحد دوافعَ أخرى يحقق بها النجاح والثروة (مثل تحقيق الذات).

(1) How income varies among U.S. religious groups
http://www.pewresearch.org/fact-tank/2016/10/11/how-income-varies-among-u-s-religious-groups/

العائلة المستقرة؟

ماذا عن دور الدين في الاستقرار العائلي؟

رغم أن المتوقع أن نسبة الطلاق عند المتدينين أقل، إلا أن الإحصاءات في الولايات المتحدة تشير إلى وجود نسبة طلاق أعلى بقليل عند المتدينين، علما أن نسبة الزواج وتكوين الأسر أقل بكثير عند اللادينين.. أي أنهم أقل زواجا في العموم، ولكن زواجهم أكثر استقرارا بفارق طفيف[1]. بطبيعة الحال يختلف الأمر من مجتمع لآخر ومن دين لآخر، لكن الأمر هنا كمثال أنه في المجتمع الواحد، بظروف متقاربة، لا يشترط أن تكون أسر الملحدين أكثر تفككا من سواها.

سؤال الأخلاق

ماذا عن كون المؤمنين أكثر تمتعا بالأخلاق ؟

هذا الأمر مهم وحيوي، ولكن علينا أن نتذكر ما يلي:

أولا – حاليا، سمعة المتسببين للدين ليست في أحسن أحوالها، إن لم تكن في أدناها، والشكر في ذلك يعود إلى بعض الجماعات الإسلامية التي لم تكتف بقتل الأبرياء والتفجيرات بل تعدتها إلى السرقة والنهب والرشوة. طبعا يمكن من السهولة القول أن هؤلاء لا يمثلون الإسلام وأنهم منافقون...إلخ، وهذا صحيح، ولكن يمكن بسهولة أن يقال أيضا أن الملحد إذا لم يسلك سلوكا أخلاقيا فهو لا يمثل الإلحاد.

ثانيا- بالنسبة للملحد، تعريفه للأخلاق حتما مختلف عن التعريف الذي نؤمن به كمؤمنين، ربما تكون هناك مشتركات عامة، لكن «المنظومة» بالتأكيد مختلفة حتما، وبالتالي فإنّ محاسبة الملحد حسب منظومة المؤمنين الأخلاقية (كشرب الخمر مثلا) أمر غير منطقي.

المشكلة هي في عدم وضوح وثبات مفهوم الأخلاق عند الملحد، باعتبار أن مصدرها غير واضح، لا أقول هنا أن الملحد بالضرورة لا أخلاقي، وقد عرفت شخصيا ملحدين بمواقف أخلاقية رائعة وشجاعة، ولكن هذا لا ينفي أن مصدر الأخلاق عند الملحد شخصي جدا، وربما مرتبط بالقانون بشكل عام.

---

(1) Religion in America: U.S. Religious Data, Demographics and Statistics | Pew Research Center
http://www.pewforum.org/religious-landscape-study/marital-status/

ثالثا- الصورة المسبقة عن «لا أخلاقية» الملحد عالمية ولا تخص مجتمعاتنا وحدها، بل هي موجودة في مجتمعات علمانية فيها نسبة عالية من الملحدين، ففي دراسة عابرة شملت ١٣ دولة، اختير أكثر من ٣٠٠٠ مشارك في استقصاء لمعرفة وجود «تحيز مسبق ضد الملحدين» وامكانية ارتكابهم جرائم متسلسلة أكثر من «المؤمنين»، الاستقصاء كان يضم أسئلة تستدرج الجواب ولا يوجد سؤال واضح يجعل المشارك يعي الهدف من الاستقصاء، نسبة من تصور أن الملحدين أكثر قدرة على ارتكاب الجرائم كانت عالية جدا وبلغت الضعف مقارنة بالمؤمنين، وكانت هذه النتيجة في كل الدول (عدا فنلندا ونيوزيلندا التي لم تكن نتائجهما حاسمة بأي اتجاه) وشملت الدراسة مجتمعات عالية العلمنة وبنسب إلحاد عالية (الصين، التشيك، أستراليا، هولندا والمملكة المتحدة) بل إن الملحدين المشاركين في الدراسة كذلك كانت إجاباتهم تربط بين الإلحاد وارتكاب الجرائم. علما أن الإحصاءات التي تسأل أسئلة مباشرة ستحصل على أجوبة مختلفة، أي أن اللاوعي هو الذي يتحكم بالربط بين الإلحاد والشر[1].

كذلك فإنّ الإحصاءات في مجتمع كالمجتمع الأمريكي تشير إلى أن الملتزمين دينيا (بمعنى الذهاب إلى الكنيسة في هذه الدراسة) أكثر تبرعا للأعمال الخيرية[2] وأفضل كجيران[3]، ٤٠٪ منهم أكثر مساعدة للفقراء (مقابل ١٥ ٪ من غير الملتزمين) وأكثر مساهمة في الأعمال التطوعية (٣٦٪ مقابل ١٥٪ لغير الملتزمين).

مقابل هذا، يجادل البعض بأن السويد والدنمارك هما من الدول الأقل تدينا وأيضا من الدول التي تملك أقل معدلات للجريمة[4]. ولكن الجريمة ترتبط أيضا بعوامل أخرى مثل الوضع الاقتصادي والعدالة الاجتماعية، وربطها بـ« عدم التدين» نوع من مغالطة السبب الزائف (الشمس تشرق لأن الديك يصيح).

في دراسة شاملة، شملت ٦٠ دراسة سابقة عن الأمر، كانت الخلاصة أن «المعتقد والسلوك الديني له أثر متوسط في تثبيط السلوك الإجرامي»[5].

---

(1) Global evidence of extreme intuitive moral prejudice against atheists | Nature Human Behaviour.August 2017 https://go.nature.com/2RD2RBJ

(2) Religious citizens more involved -- and more scarce? - USATODAY.com http://usatoday30.usatoday.com/news/religion/2009-05-14-church-community_N.htm

(3) Religious people are 'better neighbors' - USATODAY.com https://usatoday30.usatoday.com/news/opinion/forum/2010-11-15-column15_ST_N.htm

(4) Zuckerman, Phil. Society Without God: What the Least Religious Nations Can Tell Us about Contentment. New York: New York University Press. p. 2

(5) Baier, C. J.,& Wright, B. R. (2001). «If you love me, keep my commandments»:A meta-analysis of the effect of religion

دراسة أخرى خلصت إلى أن الدين قد يستخدم لتبرير الجريمة والدفع لها[1].

نحن طبعا لا نحتاج إلى دراسة للتأكد من ذلك!

* * *

في المحصلة، استخدام الأخلاق كوسيلة للجدال حول «هدف الدين» أمر ربما لا يكون مجديا جدا في الوقت الحالي، رغم صلابة الأمر وحقيقته، فمن الصعب استبعاد وجود أثر للدين في أي منظومة أخلاقية مهما كانت علمانية...الدين وضع أسسا للأخلاق، وبقيت هذه الأسس موجودة لعشرات القرون حتى صارت من البديهيات الإنسانية..ثم أخذت هذه الأسس من قبل منظومات لا دينية وتبنتها تماما بعد حذف بعضها... لكن هذا لا ينفي دور الدين في نشوئها.

الاتجاه الحديث في الدراسات لا يقول ذلك، بل يشير عموما إلى أن الأخلاق سبقت الدين، دون إمكانية وجود دليل قاطع على ذلك..

في الوقت نفسه فإنّ الدراسات تشير إلى أن أول «وثيقة أخلاقية مكتوبة» كانت عبر الدين، وأنه من الصعب جدا الفصل بين الاثنين[2].

بل إن ربط نشوء الأخلاق بالتطور البيولوجي للإنسان – وهو ما تحاول إثباته الكثير من الدراسات حاليا– لا يتعارض مع علاقة الدين بنشوء الأخلاق، ففي مرحلة ما من هذا التطور جاء الدين ليقدم قفزة أخلاقية حاسمة، لا يمكن تجاهل تأثيرها على كل ما بعدها.

الدين كغطاء أمان

ماذا عن الدعم النفسي الذي يقدمه الدين؟

هذه حقيقة لا يمكن تجاوزها.

الدين يقوم بدور مهم لا يمكن التقليل منه، في امتصاص الصدمات وتحمل الأزمات وتقليل الضغط الناتج عنها، البعض يزعجه الحديث عن دور «غطاء الأمان security blanket» ويعده

---

on crime. Journal of Research in Crime and Delinquency,38,3-21.

(1) Faith-based prison programs: New study suggests religion may help criminals justify their crimes. https://slate.com/news-and-politics/2013/03/faith-based-prison-programs-new-study-suggests-religion-may-help-criminals-justify-their-crimes.html

(2) What is the Relationship Between Religion and Morality? | Owlcation https://owlcation.com/humanities/What-is-the-relationship-between-religion-and-morality

تبسيطا لدور الدين، وهو كذلك فعلا، لكن هذا لا يقلل من حقيقة الدور وأهميته، المشكلة في المبالغة في استعمال هذا الدور في غير فترات الأزمات والصدمات.

سواء كانت الأزمة عبارة عن مرض عضال[1] أو فقدان شخص مقرب[2] أو التعرض لـ «اضطراب ما بعد الصدمة PTSD»[3] فإنّ الدين سيساعد على التغلب على هذه الأزمة وعبورها في الأشخاص الذين يؤمنون به.

ويعتبر دور الدين في منع الانتحار أساسيا[4]، كذلك فإنّ الدراسات وجدت أن المصابين بالاكتئاب المزمن من المتدينين أقل عرضة لمحاولة الانتحار من مرضى الاكتئاب غير المتدينين[5].

بل إنّ استطلاعاً في المملكة المتحدة وجد أن قرابة رُبع غير المؤمنين بالله، يصلون عندما يمرون بأزمة[6]!

* * *

هل هذه هي فائدة الدين؟

أن يمنعنا من الانتحار؟

قطعا لا.

كل هذه محض نتائج للدين والإيمان، لكنها ليست «الهدف».

يمكن للدين أن يشعرك بالسعادة والطمأنينة والسكينة، ويمكنه أن يجعلك ناجحا في عملك ومفيدا في مجتمعك، و أن يجعل أخلاقك مرتفعة في داخلك وخارجك، كما يمكنه أن يقدم لك «غطاء الأمان» الذي يحتاجه أي منا عندما تمر بنا العاصفة.

---

(1) Religious people cope better with cancer...unless they think God is punishing them - Telegraph
https://www.telegraph.co.uk/news/science/science-news/11793286/Religious-people-cope-better-with-cancer...unless-they-think-God-is-punishing-them.html

(2) Study explores how religion influences people's ability to cope
https://www.apa.org/monitor/jan03/religion.aspx

(3) Spiritual Functioning Among Veterans Seeking Residential Treatment for PTSD: A Matched Control Group Study. Spirituality in Clinical Practice 2014, Vol. 1, No. 1, 3-15
https://www.apa.org/pubs/journals/features/scp-0000004.pdf

(4) Role of religion in suicide prevention - Oxford Medicine
http://oxfordmedicine.com/view/10.1093/med/9780198570059.001.0001/med-9780198570059-chapter-2

(5) Religious Affiliation and Suicide Attempt | American Journal of Psychiatry
https://ajp.psychiatryonline.org/doi/10.1176/appi.ajp.161.12.2303

(6) A fifth of non-believers turn to prayer in a crisis or out of habit, poll finds | The Independent
https://www.independent.co.uk/news/uk/home-news/prayer-god-christianity-non-religion-tearfund-a8158891.html

وكل هذه أمور عظيمة.

لكنها ليست الهدف، ولا الفائدة.

هذه نتائج قد تحدث، وقد لا تحدث، ليست لازمة بالضرورة.

فما هي فائدة الدين إذن..

ما هو الهدف؟

الدين لا يجب أن يخضع لمعايير النفعية

لقد تأثرنا بالفكر المادي البرغماتي لدرجة أننا صرنا نعتقد أنه لا بد من وجود «فائدة نجنيها» مقابل الدين...السعادة أو النجاح أو غطاء الأمان..لا بد أن نحصل على شيء مقابل إيماننا..حتى لو كنا لا نقول ذلك صراحة، لكن الأمر صار بديهيا بالنسبة لنا.

لماذا يكون هناك فائدة من الدين بهذا المعنى أصلا؟!

ماذا إذن؟

* * *

الدين مرتبط بالحقيقة، أكثر من ارتباطه بأي فائدة مرجوة.

الحقيقة، حقيقة الخلق والخالق وهذه الحياة.

الدين يخبرك عنها، عن الحقيقة، والحقيقة لا يشترط أن تكون مفيدة بالمعنى الذي نفهمه من النفع والفائدة. الحقيقة قد تكون مؤلمة. وقد ينتج عن قبولها عواقب. ولكن لا خيار. لا مفر من أن تقبلها. إنها الحقيقة، وليست وجهة نظر.

إذن، عندما نتذكر «الغيب» الذي يمثله الدين ويقربه لنا..سنتذكر أن كل هذه الفوائد التي مر ذكرها، مجرد نتائج قد يحققها الملحدون في سياقات أخرى..

لكن هذه الحقيقة التي يقولها لنا الدين، أمر لا يمكن للملحد أن يحصله...

ليست السعادة ولا السكينة ولا النجاح ولا حتى «عدم الانتحار» هي ما يميز الإيمان والدين..

بل الحقيقة..

* * *

الحقيقة هي أننا في امتحان.

الدين كتاب إرشادات للنجاح في هذا الامتحان..نجاحك الشخصي وفائدتك للمجتمع وأخلاقك قد تعطيك نقاطا إضافية في هذا الامتحان..أو قد تكون جزءا أساسيا من امتحانك..

لكن المهم هو نجاحك في الامتحان واجتيازك له..

كل الباقي مجرد تفاصيل..

***

لن يفهم الملحد هذا.. وسيسخر حتما من خرافات ما بعد الموت..

بالتأكيد..

هذا هو الغيب...غاب عنه تماما..

وغاب عن بصرك أنت ولكن ليس عن عقلك أو حدسك...

أنت تعرف أن الآخرة هي قطعة الـ puzzle التي لا تراها ولكنك متيقن من وجودها...لأن مكانها موجود في اللوحة..

معها ستكتمل اللوحة...

ومن دونها، سيكون كل شيء، كل شيء ..بلا معنى..

تاريخ الأديان

يثير الملحدون عدة أسئلة عن تاريخ الأديان بشكل عام، لا تخص دينا بعينه، بل توجه إلى مجمل تجربة الأديان التاريخية وخصوصا الأديان السماوية أو الإبراهيمية...

هم يقولون مثلا أن الأديان والرسل والمعجزات ما هي إلا خرافات وأكاذيب من القدماء وتصديق من الجاهلين لهم، وإن سهلت مهمة الكذب على الشعوب اليوم في عصر العلم، فهي أيسر بكثير في عصور الجهل السابقة..

الدين قديم وسهل؟

تستند هذه الفكرة على تصور مفاده أن كل ما هو قديم ونشأ في العصور القديمة يجب أن يتم التخلص منه؛ لأنه نتج عن الجهل الذي كان سائدا في تلك العصور، والحقيقة أن أغلب المجتمعات الإنسانية المعاصرة نشأت بذورها الأساسية في نفس تلك المجتمعات التي نشأت فيها الأديان، فلو أن علينا التخلي عن الدين لأنه خرافة من خرافات مجتمع جاهل، فكذلك ولنفس السبب علينا أن نتخلى عن «المدن» والتجمعات المدنية، لأنها نشأت في مجتمعات جاهلة، كذلك علينا أن نتخلص من «الدولة المركزية» ومن نظم الحكم (ومن ضمنها الديمقراطية) ومن المدارس والزواج والعائلة، إذ كل هذه المؤسسات نشأت - مثل الدين- في مجتمعات «خرافية».

يعتقد من يروج لهذه التصورات أن الإيمان بالله كان سهلا في وقت ما...الناس كانت جاهلة، لذا فقد سهل تصديقهم لهذه الخرافات

في الحقيقة.. العداء الذي تعرض له الرسل في أثناء دعوتهم يقول لنا شيئا مختلفا جدا عن هذا التصور..

عبر الخطاب القرآني، بل وعبر كل الكتب السماوية التي سبقته، وعبر كل ما ذكر في التاريخ عن دعوات الأنبياء نجد أن موقف التكذيب لوجود الله ولرسله كان موجودا دوما،

بل وأن الكثير من المكذبين كانوا بالضبط يقولون ما يقوله ملحدو اليوم ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٨٣)

بل إن علم تاريخ الإنسان - الانثروبولوجي - يشير إلى أن الإيمان بقوى فوق طبيعية ارتبط بتاريخ الهوموسابينز - الإنسان الحديث ...ولم يكن له وجود قبل ذلك[1].

وبنفس المنطق الذي يربط به بعض الملحدين بين الإيمان والمجتمعات «التاريخية»..

ألا يجعل هذا من الإلحاد نوعا من الارتداد إلى ما قبل الهوموسابيانز - الإنسان الحديث؟

بعيدا عن هذا الجدال فنحن كبشر نتشارك مع الشعوب القديمة غير المتحضرة بأمور كثيرة أساسية...مثل التنفس والجنس والطعام ومشاعر الحب والغيرة.. وكذلك الإيمان بالدين.. فهل علينا أيضا أن نتنازل عن التنفس والطعام والجنس لأن الشعوب غير المتحضرة كانت تمارسها أيضا؟

نقد الدين والإيمان من منطلق أنه «قديم» هو أسوأ نقد يمكن تقديمه.

الإنسان نفسه قديم جدا!

الدين وسيلة تنظيم لا أكثر

سيقولون أيضا : الدين منتج بشري اجتماعي لتنظيم المجتمع وتوحيده وتقديم ما يوحد المجتمع عبر مجموعة من المعتقدات والشعائر

مشكلة هذه الرؤية أنها تختزل الدين في وظيفة واحدة ظاهرة على السطح، ولا تحاول أن تنظر إلى احتمالية وجود وظائف أخرى أعمق وتتعلق بحاجات الإنسان الروحية والنفسية.

وهي بعد ذلك تخلط بين «وظيفة الدين» وبين «مصدره»، فما دام الدين ينظم المجتمع فالمجتمع إذن هو مصدره. لكن الأمر ممكن أن يكون أعقد من ذلك بكثير.

هذه الرؤية تحاول أن تبحث عن «أصل الدين» لكنها لا تحاول أن تبحث عن «أصل الإنسان الذي آمن بهذا الدين». ربما لا يكون هذا وظيفة أو تخصص من يبحث في هذا الأمر ولكن الأمور متصلة ببعضها البعض على نحو لا يمكن أن تنظر لجزء منها بمعزل عن الكل، لأنك بهذا ستكون كمن يحاول وصف العالم وهو ينظر إليه من ثقب الباب.

---

(1) Yuval Harari: Why Did Humans Become The Most Successful Species On Earth? : NPR
https://www.npr.org/templates/transcript/transcript.php?storyId=468882620

هذه الرؤية لا تؤمن بوجود شيء خارج الطبيعة، لذلك فمن الطبيعي جدا أن تعتبر الدين منتجا بشريا.

الإنسان حسب هذه الرؤية هو منتج «طبيعي»، للطبيعة.

السؤال هو: الطبيعة «منتج» لمن؟ من صنعها؟

ربما عندما نصل لجواب «واضح» هنا، يمكن لجواب سؤال «من أنتج الأديان» أن يكون منطقيا.

وهذا لا ينفي أن هناك الكثير مما تراكم على الأديان وفهمها هو في الحقيقة منتج بشري بلا شك، وكان ربما استجابةً لظروف معينة مرت بها المجتمعات.

الدين مبرر للكسل؟

يقولون إن الدين يقدم خيارات سهلة إلى أتباعه، ويجعل تفكيرهم «تفكيرا بالتمني wishful thinking» ويقدم لهم مهربا من الواقع، ويريح عقولهم من عناء التفكير.

هذه التهمة «سهلة» جدا لدرجة أنها لم تتجشم عناء التفكير والتدقيق في فحواها، نعم يقدم الدين نوعا من الراحة والسكينة لأتباعه، لكن الحديث عن «الخيارات السهلة» أمر لا علاقة له بالراحة والسكينة التي يقدمها الدين. هناك في الدين، في أغلب الأديان على الأقل، الكثير من المشقة والتعب وبذل الجهد كجزء من الشعائر، هناك الصيام عن الأكل والشرب لثلاثين نهارا -في بلدان حارة أصلا- وصيام لخمسين يوما عند المسيحين ينقطعون فيه عن كل منتج حيواني، وهناك مشقة الحجاج في حجهم، والرهبان في تبتلهم، وهناك المتصوفون في زهدهم وانقطاعهم عن مبهجات الحياة، وهناك قيام الليل لساعات طويلة، والانتظام «المتعب» على الشعائر، وهناك الساعات الطويلة في الحفظ والاستذكار، عدا عن أن أغلب الأديان مرت بمراحل دفع فيها أتباعها ثمنا باهظا بسبب إيمانهم فقط. الحديث عن «سهولة الدين» يتجاوز تاريخ الأديان برمته، وواقع الحياة اليومية المشاهدة.

هل الدين يريح عقول أتباعه من عناء التفكير؟ الدين بالفعل يغلق بابا من أبواب القلق عند أتباعه، لكنه يترك أبوابا أخرى مشرعة للتفكير، يمكن ببساطة الانتباه إلى أن تاريخ الفلسفة

في العالم يشهد على ازدهارها في أي فترة انتشر فيها الدين، حتى لو كانت هناك خلافات بين الرؤى الدينية والفلسفية[١].

الأنبياء شخصيات وهمية؟

يقولون إن شخصيات الأنبياء والرسل المذكورة في الكتب السماوية لا أثر لها في السجلات التاريخية للحضارات القديمة التي عاشوا فيها، ألا يدل ذلك على أن هذه الشخصيات وهمية بالأساس؟

ليس هذا صحيحا بإطلاقه رغم أن هناك من يصر على ترويج ذلك لأسباب واضحة، هناك قائمة طويلة من الشخصيات التي ذكرت في التوراة والإنجيل والتي تم توثيق وجودها عبر مصادر غير دينية عبر السجلات والحفريات[٢]، هذه الشخصيات في الغالب هي شخصيات لملوك ورجال دين كبار كانت ثمة أحداث «توراتية / إنجيلية» مهمة في أزمانهم، وذكروا ضمنا، وثبت وجودهم التاريخي لاحقا.

هناك أيضا دعاوى تاريخية منتشرة من مؤرخين «معروفين بإلحادهم» عن كون السيد المسيح مجرد شخصية «وهمية»، وبالتأكيد لا يمكن أن يكون هناك طريق أقصر من هدم المسيحية إلا بإثبات أن المسيح لم يكن موجودا أصلا. وهكذا يستخدم «عدم وجود دليل تاريخي» ليكون دليلا على «عدم الوجود» في المغالطة المعروفة. والحقيقة أن الافتراض أن السيد المسيح سيذكر في السجلات التاريخية أمر غريب، فوجوده لم يتجاوز الثلاث والثلاثين عاما، وفترة «دعوته» لم تتجاوز السنوات الثلاثة الأخيرة من وجوده، ولم يستلم منصبا مهما لكي يذكر في السجلات كما العادة في تلك الفترة، وكان يهوديا ناصبه اليهود العداء في فترة احتلال روماني، وليس من الواضح وجود توثيق كل من يحاكم أو يقتل في تلك الفترة لكي نجد دليلا على «محاكمته» أو محاربته، وأكثر من ذلك، فقد ثار اليهود لاحقا ونشبت الحرب اليهودية الرومانية (٦٦- ٧٠ ميلادية[٣]) التي انتهت بانتصار الرومان وهزيمة قاسية لليهود – وتم

---

(1) Islamic philosophy - Wikipedia
Christian philosophy - Wikipedia

(2) List of biblical figures identified in extra-biblical sources - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_biblical_figures_identified_in_extra-biblical_sources

(3) First Jewish-Roman War - Wikipedia Outcome_of_the_Great_Revolt

خلال ذلك تدمير «الهيكل»، ومن المحتمل جدا أن أي أرشيف يذكر السيد المسيح قد دمر خلال ذلك.

رغم ذلك، فأول ذكر «موثق» للسيد المسيح يأتي بعد ٢٥ سنة من «واقعة الصلب» أي أن أغلب الشهود العيان كانوا لا يزالون على قيد الحياة، ورغم أن الذكر كان عن طريق «القديس بولس» - وهو من أهم الشخصيات تأثيرا في المسيحية» إلا أنه من غير المقنع أن بولس «يخترع» شخصية يهودية لتكون «المخلص» في فترة كان فيها عداء وتوتر بين الرومان واليهود، وعداء بين اليهود وأتباع السيد المسيح.

أول ذكر «غير مسيحي» للسيد المسيح يأتي أيضا مبكرا، ومن خلال مؤرخ يهودي- روماني هو يوسيفوس فلافيوس[1] الذي أرّخ للأحداث اليهودية في القرن الأول، ويذكر السيد المسيح في موضعين في تاريخه، واحد منهما يعتقد أنه حرف من قبل المسيحيين لجعله في صالح السيد المسيح، والموضع الآخر ليس موضع شك، وذكر فيه فلافيوس السيد المسيح بطريقة عابرة، حيث يتطرق إلى ذكر «يعقوب»[2] ويقول عنه «شقيق يسوع، المدعو بالمسيح».

لاحقا هناك مؤرخان وسياسيان رومانيان (تاسيتس ٥٥م-١٢٠م) وبلينيوس الأصغر (٦١م - ١١٣م) يذكران السيد المسيح، الأول يذكر أن يسوع قد أعدم في فترة حكم الحاكم الروماني ليهودا بيلاطس البنطي (حكم من ٢٦م - ٣٦م) وحكم الامبراطور تيبيريوس (حكم من ١٤م - ٣٧م) وهو تحديد دقيق موافق لما جاء في الإنجيل، أما بلينيوس الأصغر فهو يرسل(حوالي ١١٢م) إلى الإمبراطور تراجان رسالة يسأله عما يجب أن يفعله بالمسيحيين في منطقة إدارته، ويذكر أنهم «ينشدون ترانيم ليسوع كما لو كان إلها». الرجلان كانا معاديين للمسيحية تماما، ولو أن يسوع كان شخصية وهمية صنعت بوقت قريب إلى تاريخهما، فما كان يمكن لهما أن يهملا الملاحظة[3].

عموما لم يشكك أحد بالحقيقة التاريخية للسيد المسيح من المؤرخين القريبين على فترته الزمنية، حتى المؤرخين المعادين للمسيحية، لكن ضرورات نشر الإلحاد جعلت هذا ينتشر حاليا.

---

(١) يوسيفوس فلافيوس - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

(٢) يعقوب البار (؟ - ٦٦ م) ويذكر في «العهد الجديد» بأنه «أخو السيد المسيح» يعتقد البعض أنه شقيق السيد المسيح من زواج السيدة مريم من يوسف النجار، لكن أغلب الكنائس المسيحية تعتبر أن السيدة مريم بقيت بتولا وأن يعقوب وأخوة لهم هم أولاد يوسف النجار من زواج سابق، كما يعتقد البعض أنه ابن ابنة خالة السيدة مريم، وقد كانت عادة اليهود تسمية القريب بالأخ.

(3) What is the historical evidence that Jesus Christ lived and died? | World news | The Guardian
https://www.theguardian.com/world/2017/apr/14/what-is-the-historical-evidence-that-jesus-christ-lived-and-died

المزيد من الأدلة التفصيلية[1] تتوفر عن يحيى عليه السلام، أو يوحنا المعمدان.

أدلة أخرى قد تشير إلى بعض أحداث قصة سيدنا يوسف عليه السلام، علما أن اسم يوسف قد تغير حتما وتم تمصيره لذا لا يمكن العثور عليه بوضوح في السجلات[2] ويقترح البعض اسم «امحوتب» الذي كان مستشارا متعدد المواهب للملك، ولكن حتى الآن لا دليل علمي قوي يسند هذا الزعم[3]، كما تشير أدلة أخرى إلى وجود أبناء يعقوب[4].

الأدلة التي تشير إلى قصة سيدنا موسى شحيحة بالفعل، لكن هناك مؤرخ مصري، في القرن الثالث قبل الميلاد، يذكر قصة شبيهة إلى حد بعيد بقصة موسى، بل ويذكره بالاسم، حيث يقول أن هناك كاهنا مصريا اسمه أوزاريف كان يدعو إلى التوحيد وقاد مجموعة من «المصابين بمرض الجذام» تمردا على الملك الذي أراد القضاء عليهم، الأهم من هذا أنه يقول أن أزاريف غير اسمه إلى «موسى»، كما أن المؤرخ الروماني تاسيتوس (في أواخر القرن الأول الميلادي وأوائل القرن الثاني) يذكر قصة مشابهة عن رجل مصري قاد مستعمرة لمرضى الجذام[5].

هذه القصة مختلفة كثيرا عما نعرفه عن سيدنا موسى الذي لم يكن مصريا رغم نشأته في بيت فرعون، ولا ذكر لمرضى الجذام إطلاقا في قصته، لكن علينا أن نتذكر هنا أن المصريين القدماء هم أول من اخترع «إعادة كتابة التاريخ» عبر مسح السجلات التاريخية للأشخاص

---

(1) The Authenticity of John the Baptist in Josephus Peter Kirby
http://peterkirby.com/john-the-baptist-authentic.html
Scientists find new evidence supporting John the Baptist bones theory - Telegraph
https://www.telegraph.co.uk/news/religion/9333052/Scientists-find-new-evidence-supporting-John-the-Baptist-bones-theory.html

(2) BBC - Religions - Judaism: Joseph
http://www.bbc.co.uk/religion/religions/judaism/history/joseph.shtml

(3) No, Imhotep and Joseph were not one and the same - Archaeology - Haaretz.com
https://www.haaretz.com/archaeology/imhotep-and-joseph-were-not-the-same-1.5420407

(4) The Sons of Jacob: New Evidence for the Presence of the Israelites in Egypt
http://www.biblearchaeology.org/post/2016/01/28/The-Sons-of-Jacob-New-Evidence-for-the-Presence-of-the-Israelites-in-Egypt.aspx

(5) Moses - Ancient History Encyclopedia
https://www.ancient.eu/Moses/

«المغضوب عليهم» لأسباب سياسية، تم فعل ذلك مع الملكة حتشبسوت التي حكمت لمدة ٢٠ عاما ولكن تم مسح كل ما يتعلق بها تماما من كل السجلات والأنصاب والرسوم من قبل ابن زوجها الذي اعتلى العرش بعدها، تحتموس الثالث[١]. نفس الشيء تماما حدث مع اخناتون[٢]، توت عنخ آمون[٣]، سمنخ كا رع[٤]، والفرعون آي[٥]. فإذا كان هذا يحدث وعلى نطاق واسع مع فراعنة حكموا وبنوا وخاضوا حروبا، فماذا يتوقع بالنسبة لموسى الذي كان يعد خائنا ومتمردا؟ ربما كان ذكر أنه «يهودي» أمر محرج لا يراد ذكره. كذلك هل هناك دعاية ضد شخص أفضل من ذكر أن من معه مصابون بالجذام؟ من سيفكر باللحاق به؟!

كذلك هناك بعض الأدلة[٦] عن النبي داود، تذكره خلال فترة ١٥٠ سنة من حياته.

ومن الطبيعي أنه كلما كانت الفترة التاريخية للنبي أقدم سيكون العثور عليها أصعب، مثل سيدنا إبراهيم أو نوح عليهما السلام، لكن الأمثلة التاريخية السابقة كانت لتوضيح أن ما يذكر من قبل البعض عن عدم وجود أدلة تاريخية عن الأنبياء هو خاطئ من جهتين، أولا من ناحية أن «عدم وجود دليل لا يعني عدم الوجود»، وثانيا من ناحية أن الأدلة موجودة أصلا.

أمر آخر، أي تلميح بخصوص أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن موجودا حقيقة، لا يستحق أن يؤخذ بجدية، لا التلميح ولا قائله.

***

٥٠٠٠ إله في العالم؟

من أمثلة رؤية بعض الملحدين لتاريخ الأديان.. صورة متداولة تضم أغلب الرموز الدينية المعروفة في كل العالم: السيد المسيح / بوذا / شيفا إله الهندوس/ الفيل المقدس عند الهندوس أيضا/ النسر المقدس عند الآزتيك ..إلخ..

مع الصورة هناك عبارة تقول لك: هناك ٥٠٠٠ إله يعبد في العالم..

---

(1) Erased from History- Hatshepsut, the Bearded Female King of Egypt
http://www.todayifoundout.com/index.php/2015/07/hatshepsut-female-king-egypt-wore-fake-beard/

(2) Akhenaten - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Akhenaten

(3) Why was Tutankhamun Condemned to Oblivion? | The Ancient Ones
http://ancients-bg.com/why-was-tutankhamun-condemned-to-oblivion/

(4) Smenkhkare - Wikipedia

(5) Ay - Wikipedia

(6) King David
http://movies2.nytimes.com/books/first/m/mckenzie-david.html

لكن لا تقلق...

إلهك هو الإله الصواب...

بلا شك الصورة ذكية ومصممها يعرف كيف يتعامل مع الجمهور..

هدف الصورة هو إشعار المتلقي بضآلة حجم إلهه بين ٥٠٠٠ إله آخر، وسخف أن يكون إلهه هو الوحيد الحقيقي...أو سخف فكرة الإله نفسها كهدف نهائي....

مبدئيا رقم الـ ٥٠٠٠ التقريبي يبالغ قليلا إذا يقرب ٤٢٠٠ إلى ٥٠٠٠ بدلا من أن يقربها إلى ال ٤٠٠٠ ...ولكن هذه ليست مشكلة على الإطلاق، المشكلة أن رقم الـ ٤٢٠٠ لا يخص عدد الإلهة المعبودة في العالم، بل يخص الأديان! والفرق كبير...إذا جمعت مثلا الأديان الإبراهيمية الثلاث وقلت أن هناك آلهة ثلاثة لها فهذا ببساطة تضليل. أي أن التضليل هنا ساوى بين الدين وبين الإله، رغم أن الأمر في جوهره قد يكون تصورات مختلفة لنفس الإله...وهو أمر جلي جدا في اليهودية والمسيحية والإسلام، الإله واحد ...ولكن فهمه وتصوره والتعبير عنه مختلف من دين لآخر لا يقف التضليل عند هذا...بل يصل أيضا إلى حساب كل الطوائف والفرق المنضوية تحت الأديان الرئيسية إلى أديان منفصلة!

بل حتى الفرق المنشقة عن الفرق تحسب كدين منفصل في إحصاء التضليل هذا، «شهود يهوة» مثلا لا تحسب مع المسيحية، السبتيون (وهم فرقة انشقت عن البروتستانتية) لا يحسبون مع المسيحيين ولا حتى مع البروتستانت.. وهكذا، وطبعا لدينا في القائمة كل فرقنا وطوائفنا وكل واحدة منها تضيف إلها حسب قائمة الآلهة المضللة.

نعم هناك أديان كثيرة في العالم، ونعم يمكن أن يكون السؤال مطروحا وبقوة وجدية: لماذا تعتقد أن دينك وحده صواب؟

لكن الرقم سيكون أقل بكثير من ٥٠٠٠..

بل أقل من عشرين...

وعندما يطرح الأمر هكذا فإنه يكون منطقيا أكثر...وقابلا للنقاش...

الأنبياء مرضى، نبوتهم مجرد عرض لمرض في أدمغتهم!

يقولون إن الأنبياء لديهم حالة مرضية في أدمغتهم تسبب الهلوسة البصرية والسمعية التي تجعلهم يعتقدون أنهم يتلقون الوحي أو يشاهدون الملائكة. ليسوا كاذبين. إنهم مرضى.

الحالة المرضية المقترحة هنا هي صرع الفص الدماغي Temporal lobe epilepsy والتي تربطها بعض الدراسات بحالات «رؤى دينية»، كما تربط الدراسات هذا النوع من الصرع وأنواع أخرى من الصرع بالعبقرية. وتذكر الدراسات قائمة من مشاهير المعاصرين الذين شخصوا بالمرض، أغلبهم فنانين وكتاب ولعل أشهرهم كارين ارمسترونغ[١]، كما تقترح بعض المصادر قائمة من الشخصيات التاريخية الذين يعتقد أنهم كانوا يعانون من نفس الصرع، من أهمهم الفيلسوف الإغريقي سقراط، وكذلك هناك بعض الشكوك عن كون الرسام فنسنت فان كوخ كان يعاني من نفس الصرع، كما تقترح بعض الأسماء المعروفة في تاريخ الكنيسة، من ضمنها جان دارك، لكنها كلها مجرد اقتراحات والتشخيص يمكن أن يكون خاطئا[٢].

يعرف ارتباط هذا النوع من الصرع بالرؤى الدينية بمتلازمة جيشوند Geschwind Syndrome وتشمل أعراضها حالات الكتابة أو الرسم القسرية (حيث يقوم المصاب بالكتابة أو بالرسم طيلة الوقت وغالبا تكون الكتابة غير مترابطة أو مفهومة)، حالات زيادة التدين، تغير في السلوك الجنسي (عند بعض المرضى ينعدم تماما، وعند آخرين يزداد)، الكلام بإطناب لفترات طويلة دون انقطاع وبتفاصيل لا علاقة لها بالموضوع الأساسي، كما يمر هؤلاء بردود أفعال عاطفية وعقلية معمقة.[٣]

وبشكل عام، وبسبب غرابة بعض هذه الأعراض، فمن المستبعد أن يكون المصابون بهذه المتلازمة أشخاصا قيادين مؤثرين في المجتمع، يمكن أن يكونوا فنانين أو كتابا مهمين، ولكن «القيادة» تحتاج إلى صفات أخرى، لذلك لا تجد سياسيا أو قائدا واحدا في قائمة من أصيبوا بالصرع قد أصيب بهذا النوع من الصرع تحديدا علما أن أنواعا أخرى من الصرع لا تتعارض مع صفات القيادة، مثل لينين، وكما يقترح البعض يوليوس قيصر ونابليون بونابرت[٤].

---

(١) كارين ارمسترونغ Karen Armstrong (١٩٤٤-) كاتبة بريطانية كتبت عدة كتب في مقارنات الأديان من ضمنها كتاب معروف عن سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ولديها موقف منصف مختلف عن السائد في الدوائر الغربية.

(2) List of people with epilepsy - Wikipedia

(3) Geschwind syndrome - Wikipedia

(4) List of people with epilepsy - Wikipedia

بعض الدراسات تربط النبوة بالشيزوفرينيا أساسا بسبب الهلوسات السمعية والبصرية التي يمرون بها[1]، ولكن نظرة سريعة في قائمة مشاهير المصابين ممن تأكد تشخيصهم بالشيزوفرينيا أو أعلنوا ذلك، تجد أنها خالية تماما من الشخصيات القيادية السياسية، غالبيتهم من الفنانين والكتّاب[2].

لماذا أديان مختلفة؟

لماذا يضع الله أدياناً مختلفة ثم يقول للناس في آخر دين أن ينسوا ما سبق ويتخذوا الإسلام ...إن كان الإسلام هو الدين فلمَ لم يكن منذ البداية؟

بالنسبة للأديان الإبراهيمية، يمكن اعتبارها كنسخ متتالية ومحدثة من دين واحد في الأساس..

والإسلام هو النسخة الأخيرة **بآخر تحديثاتها.**

لماذا تعدد النسخ أصلا وليس نسخة واحدة تنزل من البداية وينتهي الأمر هل يحتاج الله إلى تعديلات على رسالته؟

حاشاه، لكن البشرية هي التي تحتاج النسخة الأخيرة بكامل تحديثاتها لكي تفهم تماما أن تكون هناك نسخ سابقة لكي تستفيد من أخطائها وتجاربها. النسخة الأخيرة تتضمن كل ما حدث وكل ما تحدث وكل ما حدث وأدى إلى الحاجة إلى التحديث، تحديدا إلى التعلم من الأخطاء في الفهم والتطبيق التي حدثت في النسخ السابقة، أمر ما كان يمكن أن يحدث إلا بأن يكون هناك نسخ متعددة، ونسخة نهائية تحمل كل تلك التجارب، وتحذر من نمط الأخطاء التي حدثت في التجارب السابقة.

تحتاج أن تتعلم من كل ما سبق.. أن تستفيد من تراكم الخبرات لكي تصل إلى تجربة أفضل.

قد يردون: هل مر إلهكم بمراحل نضوج وتتطور في أفكاره لكي يرسل ديانة تصحح ديانة؟

(1) The Role of Psychotic Disorders in Religious History Considered . Murray et al. The Journal of Neuropsychiatry and Clinical Neurosciences 24(4):410-26 · September 2012
https://neuro.psychiatryonline.org/doi/pdf/10.1176/appi.neuropsych.11090214

(2) List of people with schizophrenia - Wikipedia

في الحقيقة البشر هم الذين تطوروا عبر التاريخ، وكانت احتياجاتهم مختلفة في مراحل تطورهم المختلفة، مع الرسالة الخاتمة، كان العقل الإنساني قد مر بما يكفي من تجارب تجعله ينضج بما يكفي ليستلم رسالة أخيرة.

الكل يعرف أن التعلم من الخطأ والانتباه للأخطاء في التجارب البشرية يعلم على نحو لا يقل أهمية عن تعليم الصواب... كما أن أي صاحب عقل يفهم الفرق بين ما هو ثابت ويجب أن يكون مفصلا وما هو متغير ويكون عرضة لفهم متجدد بتغير الزمان والمكان.

بالتأكيد هناك مؤمنون يتبنون نفس الأخطاء التي حدثت في التجارب السابقة كما لو أنها ذكرت من أجل إعادتها بالضبط، وهؤلاء هم جزء من المشكلة التي تؤدي إلى الإلحاد.

لماذا كل الأديان في الشرق الأوسط؟

لماذا كل الأديان السماوية المنتشرة في كل العالم جاءت من منطقة واحدة هي الشرق الأوسط؟

ألا يعني هذا أن الله قد اختص الهداية لهذه المنطقة من دون كل العالم؟

عندما نتحدث عن الأديان الإبراهيمية ونقارن بينها وبين بقية الأديان، فإننا عمليا نتحدث عن رسالة واحدة بنسخ متعاقبة.. أو بتحديثات وتصحيحات متعاقبة.

بعبارة أخرى: لم يختص الله منطقة الشرق الأوسط بالأديان الإبراهيمية، بل اختص إبراهيم فيها.. وكان من الطبيعي أن تكون الرسالات اللاحقة المتممة للرسالة الإبراهيمية في نفس المنطقة، لا أن تكون واحدة في الشرق الأوسط ومتممتها في الصين والثالثة في أمريكا الجنوبية.

لماذا إذن اختار الله منطقة الشرق الأوسط لكي يضع فيها رسالته؟

ربما لنفس السبب الذي جعل هذه المنطقة وما جاورها (الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط) هي التي تقدم للعالم أجمع الأبجدية والعجلة والسفينة الشراعية والمرساة والرياضيات والدستور والمنطق والديمقراطية والمسرح.

كل هذه الأمور أيضا نتجت من المنطقة وانتشرت بعدها للعالم كله. فلماذا نقبل هذا ونرفضه عندما يكون متعلقا بالدين؟

لكن هل ثمة علاقة بين الأمرين؟

بالتأكيد. ليس بالصدفة أن تكون هذه المنطقة هي مهد أهم الحضارات في العالم وأنها أيضا مهد الأديان السماوية كلها.

الخصوصية الحضارية التي قدمت كل هذه المنتجات التي كانت علامات مهمة في درب تطور الإنسانية، هي التي جعلت هذه المنطقة أكثر استعدادا من سواها لتقبل الرسالات السماوية ومن ثم نشرها..

درجة التطور الحضاري المتقدمة في هذه المنطقة هي التي جعلت نزول الرسالات يكون هنا...

سيقولون: لكن ماذا عن بقية أمم الأرض.. هل تركوا بلا أنبياء ولا رسل؟ سيقول المؤمنون هنالك آيات أن هنالك رسلا لكل الأمم؛ لماذا لم تتحدث الكتب المقدسة عنهم؟

ولماذا على الكتب السماوية أن تتحدث عن ذلك؟ وكيف نعرف مثلا أن إدريس عليه السلام – مثلا– لم يكن نبيا من أنبياء بقية الأمم إذ لا نعرف عنه الكثير ولسنا واثقين من القليل الذي نعرفه.

يقول القرآن أن ثمة رسل لم يقص قصصهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨) ..وربما كانوا رسلا فقط دون أن يكونوا أصحاب دين جديد مستقل أو كتاب سماوي...وربما كانوا في قارات أخرى.

سيسألون: كيف تريدون أن يتأثر العالم كله بقصص حصلت في منطقة واحدة من العالم؟ كيف سيتأثر صيني بقصة ثمود؟ و كيف سيتفاعل ايرلندي مع قصة عاد؟

الحقيقة أننا نتأثر فعلا بحكمة تأتي من الصين أو مثل يأتي من الإسكيمو.. ولا نكترث لمكان قول الحكمة أو وجودها في أي قارة.

والحقيقة الأخرى المتماشية مع ما سبق هي أن القرآن الكريم تحديدا قد قدم قصص الأنبياء بأقل قدر من التفاصيل، فجوهر القصة والعبرة منها هو المهم دوما والقرآن يتجاوز ذكر تفاصيل الزمان والمكان في أحيان كثيرة.

بل إن عدم تقديم القرآن قصص الأنبياء بالطريقة السردية العادية، التوراتية، هو جزء من عملية تفكيك القصة من علاقات الزمان والمكان والتركيز على جوهرها.

ثمة مشتركات وثوابت إنسانية تتجاوز تفاصيل الزمان والمكان واختلاف الثقافات والحضارات، وهذه الثوابت والمشتركات الإنسانية هي التي يركز عليها السرد القرآني..

لماذا لم يرشد الله الأمم المختلفة عبر رسالات موزعة في العالم كله؟

عمليا الأفكار تنتقل عبر وسائل كثيرة والنسبة الساحقة ممن يدينون بالديانات الإبراهيمية لا يسكنون مناطق نزول هذه الديانات. أي أن الرسالة (الواحدة - في الأصل، بنسخ متتالية) قد انتشرت فعلا في كل مكان.

سيقولون ولكن لماذا يجب على الفلبيني والروسي والمكسيكي والموزمبيقي تعلم العربية لأداء الصلاة؟

هذه مسائل فقهية لا نص قرآني أو نبوي فيها وهناك مذهب فقهي معتبر يرى بجواز الصلاة بغير اللغة العربية، وهو ما ذهب له أبو حنيفة النعمان[1]...

ثم إن مئات الملايين من مسلمي اليوم لا يعرفون العربية ولم يفكروا يوما بتعلمها...ولكن ذلك لم يكن عقبة أمام أدائهم الصلاة أو تمسكهم بالدين أصلا.

لكن ماذا عن أن أغلب «أساطير الأولين» فعلاً موجودة في الكتب المقدسة وهي منقولة من أساطير الهلال الخصيب ومصر واليونان، فهل كان الله يوحي لسومر وآكاد وكنعان وفرعون أم أن الأديان تأخذ من تلك الأساطير؟

عندما يكون هناك تشابه بين مصدرين المصدر أ والمصدر ب فهناك ٣ احتمالات...

الأول أن يكون أ نقل عن ب

الثاني أن يكون ب نقل عن أ

الثالث أن يكون الاثنان نقلا من مصدر ثالث

لذلك فالتسرع بالادعاء أن الكتب السماوية نقلت عن الأساطير يتجاوز احتمالية أن تكون الأساطير قد نقلت من الكتب السماوية وأضافت عليها أبعادا خيالية...كما تتجاوز احتمالية أن تكون الكتب السماوية والأساطير تشير إلى أحداث وقعت فجاء تفسيرها مختلفا بين الكتب السماوية والأساطير.

سيقولون: هل يمكن أن ترسل مدرسا للغة العربية ليعلم في جنوب فرنسا؟ كيف تعتقدون أن الله أرسل شخصا أميا ليعلم العالم كله بلغاته وتقاليده المتعددة؟

(١) موسوعة الفقه الكويتية الجزء ٣٥ صفحة ٢٨٠

أولئك الذين يقولون هذا الكلام لا يجدون مشكلة في الإقرار بتأثير شكسبير في أكثر من ٧٥ دولة ترجمت لها أعماله.

لماذا يمكن أن تترجم حكمة شكسبير ولا يمكن أن تترجم كلمة الله؟

وهل يريدون أن يصدر كتاب الله بـ ٥٠٠٠ لغة؟

وقتها سيقولون..

أما كان من الممكن أن يكون هناك كتاب بلغة واحدة ومن ثم ينتقل إلى كل الأمم؟!

الدين أفيون الشعوب

الكثير من الملحدين ينظرون إلى الأديان عموما باعتبارها وسيلة للتخدير اخترعتها الطبقات الغنية للسيطرة على الطبقات الأفقر منها، وكي تستمر في زيادة ثرواتها...

المقولة مشهورة، وهي لماركس ضمن سياق أوسع لا يشار إليه عادة.

الدين أفيون الشعوب بالنسبة لهؤلاء، مجرد كذبة أو اختراع اخترعه أصحاب الأموال لتخدير المقموعين الفقراء؛ لجعل آلامهم أقل؛ لجعل تحملهم أكثر؛ لجعل حياتهم تبدو لهم أفضل من حقيقتها؛ للصبر على الواقع المر...

أعتقد أن علينا أن نتفق مع ماركس جزئيا.

الدين يمكن أن يكون أفيونا.

لكن هذا ليس كل شيء. لا بالنسبة للدين ولا بالنسبة للأفيون.

الأفيون يمكن له أن يكون مفيدا ضمن استخدامات طبية.

كذلك يمكن أن تكون له أضرار أكبر بكثير مما قصده ماركس.

أي أنه متعدد الاستعمال.

كذلك الدين.

ممكن أن يستخدم لتخدير الناس، كما قال ماركس، وكما هو الواقع في الكثير من الأحيان..

ولكن ممكن أن يكون وسيلة لتوعيتهم، تحريرهم، حثهم على العمل والأمل والأخلاق الإيجابية.

يعتمد الأمر على طريقة الاستخدام.

وهذا ليس فقط بالنسبة للدين أو للأفيون.

بل هو صحيح أيضا لكل أيديولوجيا، مهما كانت شعاراتها تبدو غير ذلك.

حدث الأمر مع الماركسية، حيث أصبحت تسمى «أفيون المثقفين[١]» أثناء انتشارها في الخمسينات. أن أصبحت الشيوعية وسيلة لتخدير من نوع آخر للجماهير، وسارت الجماهير كالعمياء تحت قيادة الحزب الواحد والرفيق القائد[٢].

حدث أيضا مع الفاشية[٣]، ومع النازية[٤].تماهت الجماهير وهي مخدرة مع موسوليني وهتلر...رغم وضوح النتائج الكارثية مبكرا.

حتى الديمقراطية يمكن أن تكون مخدرا فعالا أيضا[٥]، تتماهى مع الرأسمالية والاستهلاك تماما وتقود الجموع إلى جنة الاستهلاك والمتعة الآنية بينما تزداد أرباح الرأسماليين.

أليس هذا ما يقوله ماركس أيضا بطريقة أو بأخرى..

كل الأيديولوجيات يمكن أن تكون أفيونا...حسب استخدامها.

بالأحرى كل الشعارات، يمكن أن تكون كذلك.

كلما كانت براقة كان ذلك أفضل.

إمكانيات يمكن استغلالها في الدين

بعد أن حددنا ما سبق، يمكن أن نعترف أيضا أن الدين يمتلك إمكانات كامنة أكثر تنوعا من بقية الأيديولوجيات...مما يجعله أكثر عرضة للاستغلال كأفيون.

ما الذي في الدين بالذات مما يجعله هكذا؟!

ثلاثة مفاهيم أساسية يمكنها أن تفعل ذلك...

---

(1) The Opium of the Intellectuals - Wikipedia

(2) David Ruben -- Communist conversion, mass hypnosis and mind control, Part 1
http://www.newswithviews.com/Ruben/david108.htm

(3) Thinking Fascism: Sapphic Modernism and Fascist ModernityErin G. Carlston.Stanford University Press. Page 102

(4) NLP News: How Hitler Controlled People Using Hypnosis Techniques
http://nlppatterns.blogspot.com/2011/02/how-hitler-controlled-people-using_26.html

(5) Democracy: The New Opiate of the Masses? Review of John Dunn, 'Breaking Democracy's Spell' by Alasdair S. Roberts :: SSRN
https://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=2475035

الأول- فكرة الآخرة يمكن أن توظف على نحو مخدر جدا. في الآخرة ثمة عدالة مطلقة، لذا فأنت سترى ظالمك ينال عقابه لاحقا مهما ظلمك واستأسد عليك في الدنيا، وهذا الشعور يمنحك حسّا بالمواساة على عدم قدرتك على رفع الظلم أو أخذ حقك. وهو عمليا يمكن أن يجعلك تستمر في وضعك بانتظار الآخرة.

الثانية- فكرة القدر يمكن أن توظف أيضا على نحو يجعلك شديد الاستسلام لواقعك. إذا كان هذا الواقع هو جزء من خطة مسبقة قدرها الله لك، فإن محاولاتك لا معنى لها.

الثالثة- الزهد بالدنيا، شعورك بأن الدنيا زائلة ولا معنى لها وأن السعادة الحقيقية تكون في الاستغناء عنها وأن القناعة هي كنز لا يفنى.

هذه المفاهيم الثلاثة تقدم كل ما يريده أصحاب رؤوس الأموال والسلطة لكي يستمروا في جنيهم للثروات؛ لأنها تقدم ضمانات في أن الشعب/ أو الجماهير ستبقى في وضعها دون تمرد.

عبر التاريخ، قدم رجال الدين من مختلف الأديان خدمات من هذا النوع فتحالف رجال الدين مع السلطة وأصحاب رؤوس الأموال كان ظاهرة متكررة في التاريخ.

لكن هذه المفاهيم الثلاثة: الآخرة، القدر، والنظر إلى الدنيا يمكن أن يتم التعامل معها على نحو مختلف تماما فلا تنتج مخدرا، بل على العكس، تنتج طاقة تغيير ووعي.

يمكن للآخرة أن تكون الموعد الذي ستحاسب فيه على ما أنجزت وما لم تنجز، ومن ضمن ذلك سكوتك عن حقك.

يمكن للقدر أن يكون تقبلك لدورك في تغيير الواقع الصعب المحيط بك.

يمكن لنظرتك للدنيا أن تكون متوازنة أكثر من التنازل السلبي عنها، يمكنك أن تعيشها وتدع غيرك يعيشها أيضا، فهي تتسع للجميع.

كل الأديان مرت بهذين الاستعمالين: استعمال المخدر، المسكن، المتحالف مع الوضع الساكن، واستعمال المحرر، الذي ينشر الوعي ويتحالف مع التغيير.

النصوص التي تم استخدامها في حالة المخدر وفي حالة المنشط هي غالبا نفس النصوص، لكن الفهم وزاوية النظر مختلفة في الحالتين. البوصلة مختلفة.

تخدير أم تنوير؟

ظروف متعددة هي التي تقود إلى اختيار هذا الاستعمال أو ذاك.

لكن من أهم محددات تحويل الدين إلى أفيون للشعب أو إلى منشط له... هو عامل «رجال الدين».

في كل الأديان، رجال الدين أو علماؤه او كهنوته أو تسمية أخرى، يقدمون رؤيتهم للنصوص الدينية وللدين بشكل عام.

أحيانا تكون رؤيتهم تخديرية، ليس بالضرورة لأنهم تجار مخدرات أو سينتفعون بصورة مباشرة أو حتى غير مباشرة، بل لأنهم يعتقدون أن هذا هو الصواب، يعتقدون أن وظيفة الدين هي تقليل الألم قدر الإمكان، مساعدة الناس على تحمل واقعهم. تخفيف التوتر النفسي أو حتى التوتر الخارجي الذي يمكن أن ينتج عن احتكاك الناس بواقعهم. يطيب لنا أن نُشَيْطِنهم ونتهمهم بالنفاق، لكن هذا ليس دقيقا، ربما هم يؤمنون فعلا وحقا بصواب ما يؤمنون به. بعضهم على الأقل يفعل ذلك.

آخرون، تكون لديهم رؤية مختلفة لنفس النصوص، يرون هناك مسئولية لكل فرد في تحسين الواقع، ويعتقدون أن تسكين آلام المريض قد يجعله يهمل مرضه الحقيقي بينما المرض يتقدم في جسده[١].

* * *

لكن ليس كل من ينادي بالتغيير بالضرورة يحاول استخدام الدين كمنشط أو يوقف استخدامه كمخدر.

أحيانا التغيير هو في تاجر المخدرات أو نوعه.

أو قد يكون مضاربة من «تاجر مخدرات» على آخر.

بعض التيارات السياسية (خصوصا) تنادي بالتغيير لكنها تستثمر في نفس عوامل التخدير عند الحاجة.

(١) تتهم الصوفية وزواياها عادة بأنها تدعو الناس إلى الخدر والاستسلام، وهو اتهام صحيح أحيانا، لكن نفس هذه الزوايا قادت الجهاد ضد المحتل الأجنبي في المغرب العربي، كل رموز الجهاد هناك (عمر المختار، عبد القادر الجزائري، عبد الكريم الخطابي) كانوا منطلقين من خلفية صوفية خالصة. كما أن الكاثوليكية قدمت نسخة تحررية من اللاهوت في أمريكا اللاتينية عرف بلاهوت التحرير، وكذلك نشأ ما يعرف باللاهوت الأسود المناصر لقضايا السود في الولايات المتحدة

لا تحاول تغيير الفهم، لأن الفهم السلبي سيخدمها لاحقا عندما تحقق هدفها في الوصول للسلطة.

* * *

أن ترفض الدين لأن هناك من يستخدمه كأفيون، هو كأن ترفض الطب لوجود أطباء دجالين..

أو أن تتوقف عن استخدام الكهرباء لأن هناك من يستخدمها في التعذيب.

أو أن تتوقف عن استخدام أي شيء يمكنه أن يستخدم أيضا فيما لا تؤمن به...

الدين ليس أفيون الشعوب، في الحقيقة هو مادة أولية يمكن أن يستخرج منها الأفيون، ويمكن أن يستخرج منها مادة منشطة...أو مقويات.. أو فيتامينات ضرورية..

يعتمد الأمر على من يستخرج منه، وماذا يستخرج منه..

لماذا سمح الله إذن بأن يحدث هذا للأديان؟

لماذا سمح بالتحريف؟ ولماذا سمح بتسلط رجال الدين عليه واحتكاره نحو هذا الاتجاه أو ذاك؟

الله لم يسمح بالضبط. لقد ترك نصوصا تنبهنا على أن التجارب السابقة كان بعض هؤلاء جزءا أساسيا من مشاكلها وفشلها.. عبر التحريف في الكلم عن مواضعه (أي عبر تغيير معناه دون اشتراط تغيير لفظه) أو عبر اختراع نصوص لم تكن من قبل...

الله حذرنا ونبهنا ..التجارب تتكرر دوما..

البعض لم ينتبه للتحذير، وخلط بين هؤلاء وبين الدين.

ومن ثم قرر أن الدين أفيون الشعوب.. وقرر أن يترك الدين كله..

* * *

لكن هذا سيقود حتما إلى سؤال آخر، يتعلق بقراءة النصوص..

سيقولون القرآن حمال أوجه.. كيف يمكن الاطمئنان إلى أي قراءة في ظل وجود هذا التعدد...البعض يعتبر هذا عيبا ...

في الحقيقة لو أن القرآن لم يكن قابلا لتعدد القراءات فإننا سنكون في مشكلة كبيرة.

القراءة الواحدة قد تكون صوابا في مكان واحد وزمن واحد فقط. لكن من الصعب جدا أن تكون صوابا في كل الأماكن وكل الأزمنة...

عندما تحدد بوصلة القراءة، نحو ثوابت إيجابية تحددها النصوص بنفسها، فإن تعدد القراءات بعد ذلك لن يكون مشكلة..

تعدد القراءات واختلافها لا يعني تناقضها بالضرورة..

يمكن أن تكون القراءات مختلفة ولكنها تغطي الصورة الكاملة..

الأمر صعب؟

برأيي صعب..

لكن إذا كان الخيار الآخر هو ترك الموضوع برمته.. الإلحاد..

فهذا أصعب...

الغرب نجح لأنه ترك الدين!

سيقولون انظروا إلى الغرب..

انظروا إلى تفوقه ونجاحه وازدهاره...ما وصل الغرب إلى هذه القمة إلى هذا إلا لأنه ترك الدين..

وانظروا إلى حالنا.. إلى جامعاتنا.. إلى شوارعنا.. إلى مؤسساتنا ..وشبابنا..

ما وصلنا إلى هذا الدرك إلا لأننا تمسكنا بالدين.

حسنا..

لن يجدي في هذه المرحلة أن نقدم الإحصاءات عن تفسخ الغرب وانتشار الولادات خارج نطاق الزواج والانتهاء بسؤال: أفترضاها لأختك؟

لأننا وصلنا إلى المرحلة التي يكون فيها الجواب: نعم أرضاها.

عدا عن الجواب الأسهل: لكننا لا نملك إحصاءات تقدم حجم فسادنا. وربما المخفي أعظم.

بل أننا عندما نرد على الحديث عن تفوقهم، بالحديث عن الفساد عندهم، فإننا عمليا نربط بين حتمية العلاقة بين الاثنين: التفوق والبعد عن الدين.

عمليا نحن نقول أن الفساد هو الثمن الذي يجب أن يقدم للتقدم.

أفترضاها لأختك؟

ما لا يجب أن نرضاه لأي أحد هو أن نبتذل الأمور على هذا النحو...

ما لا يجب أن نرضاه هو أن نعامل الأمور بهذه السطحية.

* * *

مبدئيا، ربطهم للتقدم مع (ترك الدين) مغالطة منطقية معروفة وربما هي أكثر المغالطات المنطقية انتشارا..

المغالطة هي(مغالطة السبب الزائف)[1] تقوم هذه المغالطة على العلاقة بين أمرين، فيفسر الواحدة بالأخرى.

فمثلا إذا زرعت شجرة وأنت صغير، وكبرت أنت وكبرت هي، فإن المغالطة ستربط بين نمو كل منكما لتصل إلى نتيجة أن الشجرة تكبر لأنك تكبر.

ومثلا يمكن بسهولة الربط بين كبر حجم مقاس حذاء طفل وتحسن خطه في الكتابة. فتعتبر المغالطة أن كبر الحذاء يحسن الخط.

بينما في الحقيقة أن الأمرين يعودان إلى أن الطفل يكبر في العمر، فيكبر مقاس حذائه، ويتحسن خطه.

ببساطة وجود شيئين في مكان واحد لا يعني أن أيًا منهما سبب للآخر.

Correlation does not mean causation

نفس المغالطة تستخدم دون وعي مع من يقول انظروا إلى الغرب! لقد تفوق لأنه ترك الدين.

بالنسبة لهم الأمر هكذا:

أ – الغرب متفوق.

ب– الغرب ترك الدين.

إذن حسب المغالطة، الغرب تفوق لأنه ترك الدين.

رغم أن هناك أشياء أخرى كثيرة يمكن أن تكون مكان (ترك الدين).

مثلا أ– الغرب متفوق.

ب– الغربيون بيض البشرة.

إذن الغرب متفوق لبيض بشرة الغربيين.

أو أ– الغرب متفوق.

ب– معظم الغربيين من الجنس الآري.

إذن الغرب متفوق لأن الغربيين آريون.

وهكذا يمكن اعتبار أي ظاهرة في الغرب سببا لتفوق الغرب.

---

(1) Correlation does not imply causation - Wikipedia

وبالتأكيد تحديد هذه المغالطة لا ينفي أن السبب في تفوق الغرب ممكن أن يعود إلى الإلحاد أو إلى الجنس الآري، لكن مجرد وجود الظاهرتين لا يعني أن الواحدة منهما سبب إلى الأخرى، .. يجب تعريض العلاقة إلى التحقيق والتثبت قبل الاستنتاج .

الإلحاد = تقدم؟ ليس ما تقوله الإحصاءات

فلنرجع إلى نظرية «الغرب تفوق لأنه ترك الدين».

الجملة تعني: أن التفوق والتقدم يزداد كلمة زادت نسبة (ترك الدين).

وهذا يعني أنه كلما زاد الإلحاد في بلد ما أو مجتمع ما فإنه سيتفوق أكثر.

لكن هذا ليس صحيحا بالمطلق.

فلو كان صحيحا، لحدث تطابق - أو حتى تقارب على الأقل- بين قائمتي «أكثر الدول إلحادا» - «أو أقلها تدينا» وقائمة «أكثر الدول تقدما».

لكن قائمة أكثر الدول إلحادا[1]، تضم دولا بعيدة كل البعد عن أن تكون ضمن أكثر الدول تقدما، مثل فيتنام، ألبانيا، أذربيجان، أوكرانيا وكلها دول بنسب ملحدين مرتفعة، دون أن يصاحب ذلك تقدما ورقيا[2].

الإلحاد ليس هو السبب بالتأكيد في أن تكون هذه الدول أقل رقيا، وليس هو بالضرورة السبب في أن تكون الدول الأخرى في قائمة أكثر الدول إلحادا» متقدمة.

الربط بين الأمرين مغرٍ حتما، خاصة أن الوضع في قائمة الدول «التي تولي شعوبها أهمية كبيرة للدين»[3] لا يسر حبيبًا، ويسر العدو حتما.

المثال الناسف

مثال واحد، ومهم جدا يمكن أن ينسف مغالطة السبب الزائف التي تقدم الربط السطحي بين نسبة الإلحاد في دولة ما وتقدمها.

(1) List of countries by irreligion - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_countries_by_irreligion

(2) 2018_human_development_statistical_update.pdf
http://hdr.undp.org/sites/default/files/2018_human_development_statistical_update.pdf

(3) https://en.wikipedia.org/wiki/Importance_of_religion_by_country

الدولة الأقوى في عالم اليوم، هي دول الأقل إلحادا في نادي الدول المتقدمة.

أمريكا هي الأقل إلحادا بين هذه الدول، ٣٪ من الأمريكيين قالوا عن أنفسهم أنهم ملحدين، و ٩٪ قالوا أنهم لا يؤمنون بإله الكتب السماوية، و٢٪ فقط قالوا أنهم (لا أدريون)[1] مقارنة بـ ٤٠٪ ملحدين، و ٢٧٪ لا يؤمنون بإله الكتب السماوية في فرنسا، ٣٧٪ ملحدين و ٤٤٪ لا يؤمنون بإله الكتب السماوية في جمهورية التشيك و ٣٤٪ ملحدين و ٤٥٪ لا يؤمنون بإله الكتب السماوية في السويد وبنسبة ٢٠٪ ملحدين و٢٦٪ لا يؤمنون بإله الأديان السماوية في عموم دول الاتحاد الأوروبي[2].

هل يمكن أن نقول أن التشيك أو بلغاريا أكثر تقدما من أمريكا لأن نسبة الإلحاد فيها أعلى؟

مقولة «الغرب تقدم لأنه ألحد» يمكن أن تعد مثالا نموذجيا لتوضيح مغالطة السبب الزائف..

* * *

إذن الإلحاد ليس بالضرورة هو السبب في تفوق الغرب.

ما سبق لا ينفي وجود علاقة محتملة بين الأمرين، لكنه ينفي أن تكون العلاقة شرطيةً حتميةً كما تقدم في المقولة، خصوصاً مع وجود أمثلة مخالفة في طرفي الأمر، دول غير متقدمة بين الدول الأكثر إلحادا، ودول متقدمة في الدول الأقل إلحادا.

فماذا إذن هو السبب في تقدم الغرب؟

التقدم في الغرب: من حذف لوثر؟

عادة، يقدم تاريخ تطور العلم والنهضة التي شهدها الغرب (أوروبا تحديدا) على أنه كان صراعا مريرا بين الكنيسة والعلم... وأنه قاد لاحقا إلى تنحية الدين جانبا.

وهذا هو الذي يقود إلى نظرية: الغرب تفوق لأنه ترك الدين جانبا..

---

(1) Atheism in the United States - Wikipedia

(2) The most godless countries in Europe, mapped | indy100

https://www.indy100.com/article/the-most-godless-countries-in-europe-mapped-7317871

Special Eurobarometer, biotechnology, page 204

http://ec.europa.eu/commfrontoffice/publicopinion/archives/ebs/ebs_341_en.pdf

الحقيقة ثمة اختزال مريع في هذا، فالمسيحية لا تختزل بالكنيسة الكاثوليكية التي كانت قد أخذت هذا الموقف فعلا آنذاك... ولكن كان هناك أيضا مذهب جديد صاعد لعب دورا مهما في تطور الغرب ونهضته، ألا وهو مذهب لوثر الذي قاد الإصلاح الديني، وأدى لاحقا إلى نشوء البروتستانتية... لم تتخذ البروتستانتية موقفا مساندا فقط للعلماء والاختراعات، بل هناك الكثير من الدراسات التي تشير إلى أن إرساء نمط تفكير جديد وتفسيرات جديدة للكتاب المقدس، وتقويض سلطة الكنيسة الكاثوليكية في الأماكن التي انتشرت فيها البروتستانتية، قد شجعت العلماء في أماكن أخرى، لا تزال تحت نفوذ الكنيسة الكاثوليكية على التفكير بطريقة أخرى، معارضة للفهم التقليدي للعالم. من ضمن هذه الدراسات ما قدمه روبرت كنغ ميرتون[1] وصار يعرف الآن بأطروحة ميرتون (Merton thesis)[2] في تاريخ العلم والتي تربط بين نشوء البروتستانتية في أواخر القرن الخامس عشر وبين نشوء العلم التجريبي الذي كان له الأثر الكبير في النهضة التي شهدها الغرب. هذه الأطروحة قدمت في ١٩٣٦ وتستمر حتى اليوم في إثارة النقاش والمزيد من الدراسات، يعتبرها البعض «أكثر نظرية تاريخية قدمت وصيغت بطريقة علمية في محتواها ونتائجها»[3] ليس هذا فقط، لكن البروتسناتية أيضا تربط بالكثير من المفاهيم المعاصرة مثل الفردية[4] والليبرالية والحرية وحتى شكل الدولة الحديثة[5] وساهمت في نشوء الرأسمالية كما أكد ماكس فيبر[6] في نظريته الأهم التي قدمها في كتاب (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية)[7].

بعض الدراسات الحديثة[8] تربط بين البروتستانتية وبين كَوْن دول شمال أوروبا أكثر ازدهارا من الناحية الاقتصادية، مقارنةً بدول جنوب أوروبا الأقل قوة اقتصاديا، مع وجود

---

(١) روبرت ك ميرتون Robert King Merton (١٩١٠-٢٠٠٣) عالم اجتماع أمريكي يعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث، قدم أكثر من ٥٠ بحثا ويعتبر مؤسس علم اجتماع العلم، وعلم الجريمة.

(2) Merton thesis - Wikipedia

(3) Understanding the Merton Thesis. Shapin, Steven. 1988. Understanding the Merton Thesis. Isis 79(4): 594-605. https://dash.harvard.edu/bitstream/handle/1/3403054/Shapin_Understanding_Merton.pdf?sequence=2

(4) Martin Luther is the patron saint of individualism | Coffee House https://blogs.spectator.co.uk/2017/10/martin-luther-is-the-patron-saint-of-individualism/

(5) Political Consequences of the Protestant Reformation, Part I - The American Interest https://www.the-american-interest.com/2017/10/31/political-consequences-protestant-reformation-part/

(٦)ماكس فيبر Max weber (١٨٦٤-١٩٢٠) عالم اجتماع وفيلسوف ألماني، يعتبر مع ماركس ودروكايم أحد مؤسسي علم الاجتماع، نظريته عن العلاقة الإيجابية بين البروتستانتية والتقدم، كما ركز على تأثير الثقافة على المجتمع وكان بهذا معارضا مهما لنظرية ماركس التي ركزت على الصراع الطبقي المادي.

(7) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism - Wikipedia

(8) Protestant work ethic behind stronger northern Europe economy: study | News | CORDIS | European Commission https://cordis.europa.eu/news/rcn/33882/en

استثناء فرنسي مهم (غير بروتستانتية ولكن قوية اقتصاديا) ويفسر هذا الاستثناء الفرنسي على أساس العلمانية الجذرية التي قامت في فرنسا.

ومما لا شك فيه أن الكثير من قيم العمل وأخلاقياته في الغرب اليوم (مثل احترام الوقت والإتقان) والتي تعتبر اليوم علمانية ومنفصلة عن أي مفهوم ديني، كان لها في أصلها أساسا دينيا بروتستانتيا[1]- عندما انتشرت في الغرب في البداية- حيث كان البروتستانت ينشرون هذه القيم على أنها مفاهيم الدين الصحيح.

أي أن نظرتنا اليوم عن علمانية «أخلاق العمل» في الغرب، هي غير صحيحة تاريخيا، لقد غرست في البداية، في العقل الجمعي الغربي، البروتستانتي خاصة، على أنها قيم دينية، ومن ثم سارت الأمور على نحو مختلف، دون أن تزول هذه القيم..

الخلاصة ؟

الدين كان عاملا مهما في تطور الغرب وتقدمه... الإصلاح الديني خاصة كان له أثره الكبير الحاسم... للأسف حرص الكثير من الإسلاميين على تقديم صورة مختزلة عن صراع الكنيسة مع العلم ومحاكمة غاليليو وما يشبه ذلك للوصول إلى نتيجة شعاراتية طنانة: لكن هذا خاص بالمسيحية، الإسلام ليس معاديا للعلم، لذا لا نحتاج إلى العلمانية.. الأمر أعقد من شعاراتنا بالتأكيد، والمسيحية لم تقف ضد العلم بل مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية هي التي فعلت، بينما اتخذ البروتستانتيون موقفا مؤيدا...

لا أروج هنا للبروتستانتية بالتأكيد، فقط أود أن أشير إلى أن قيم النهوض والتطور الغربية (التي هي الأنجح اليوم) لم تكن بعيدة عن قيم الإيمان وتجديد الدين...على العكس تماما من نظرية (الغرب تفوق لأنه ترك الدين)..

لا يمكن فهم «أخلاق العمل» الغربية بمعزل عن جذورها الدينية وسياقاتها التاريخية، بالضبط كما لا يمكنك فهم مقود السيارة بمعزل عن السيارة ككل...

لا يمكن فهم الجزء بمعزل عن الكل...

(1) EconStor: The protestant work ethic revisited: A promising concept or an outdated idea? Modrack, Simone.2008 https://bibliothek.wzb.eu/pdf/2008/i08-101.pdf

لماذا انتشر الإلحاد في أوروبا؟

حسنا...

لماذا إذن، وبعد أن ساهم الإصلاح الديني في تقديم نهضة الأوروبيين، لماذا انتشر الإلحاد في أوروبا؟

وَلِمَ لم يكن الأمر سواء في أمريكا؟

مرت أوروبا تاريخيا بظروف كانت أمريكا بمعزل عنها.

الحقيقة أن حركة الإصلاح الديني أدت أيضا إلى انطلاق ما يعرف بـ «الحروب الدينية» بين البروتستانت والكاثوليك وهي سلسلة من الحروب في أنحاء مختلفة من أوروبا استمرت ١٢٤ سنة (من ١٥٢٤م إلى ١٦٤٨ م) وراح ضحيتها أكثر من ١٠ ملايين فرد.. ورغم أن الشعارات المستخدمة من كل طرف في هذه الحروب كانت شعارات دينية، إلا أن الأمر كان دوما مرتبطا بالصراع على القوة وتوسيع حدود السيطرة، لذلك انتهى الأمر بتحالف بين فرنسا الكاثوليكية مع بقية الدول البروتستانتية ضد مملكة هاسبورغ الكاثوليكية[1]!

هذه المرحلة الأوروبية تشبه إلى حد ما، الاستخدام السياسي للشعارات الدينية والطائفية الذي يحدث اليوم في منطقتنا، وكان لها أثر عميق في العقل الجمعي الأوروبي في موقف رافض للأديان التي تأتي بهذه الحروب، وهو موقف بدأت تتضح معالم مقاربة له أيضا في المرحلة التاريخية التي نمر بها للأسف.

هذه الحروب سبقتها أيضا تجارب تاريخية مريرة نُسِبَت للدين بشكل أو بآخر.. مثل (الموت الأسود) - وباء الطاعون الذي اجتاح أوروبا في القرن الرابع عشر وقتل حوالي ثلث سكان أوروبا (حوالي ٢٠ مليون شخص) وفسر على نطاق واسع بأنه غضب من الله على سكان أوروبا لذنوبهم [٢]، لم يكن قد مضى أكثر من قرن على نهاية الحروب الصليبية، وكذلك الحروب الصليبية التي وعد فيها الأوروبيون بالنصر ما داموا يقاتلون من أجل الصليب (وانتهت

(1) European wars of religion - Wikipedia

(2) Black Death - HISTORY

https://www.history.com/topics/middle-ages/black-death

بضحايا من الأوروبيين بين المليون و٣ ملايين[1]) عدا عن أن قادة الحملات الصليبية قد أشيع عنهم أنهم تورطوا بتجنيد كتائب أطفال تم بيعهم لاحقا كعبيد[2].

كل هذه الكوارث كانت مرتبطة في أذهان الأوروبيين بالدين، الأمر الذي جعل الأوروبيين بالتدريج أقل اهتماما وتمسكا بالدين.. ومن ثم تفاعل هذا كله مع حرب الكنيسة مع العلم وانهاء سيطرتها، ومن ثم مع الاكتشافات العلمية التي هزت النظرة إلى الكتاب المقدس، ومن ثم مع أهوال الحربين العالميتين الأولى والثانية، التي أضافت فصولا جديدة مروعة لمشكلة الشر في العالم...ومن ثم تفاعل كل ذلك ليصل إلى نسبة إلحاد مرتفعة في أوروبا، خاصة عند مقارنتها بالولايات المتحدة.

أما في أمريكا فقد انطلقت البروتستانتية من أوروبا إليها لتكون أكثر حرية وأكثر مرونة ولتعمل على أرض جديدة دون التجارب التاريخية المريرة ولتتحول إلى عامل إذكاء للمنافسة الرأسمالية وتشكيل الحلم الأمريكي..

بعبارة أخرى، تمكنت البروتستانتية أن تجدد القيم الدينية التي تحملها وأن تساهم على نحو إيجابي في بناء أمريكا...ولعل هذا يفسر أن أمريكا هي بين الدول الغربية الأقل إلحادا..

* * *

ماذا عنا؟

لا شك أن للكثير من مشاكلنا جذورا دينية، بعضها طائفي وبعضها في عمق فهمنا وتعاملنا مع الدين ومصادره.

اختلط الدين عندنا بالسياسة وبالتاريخ على نحو يجعلنا نكاد نفقد الثلاثة بالإضافة إلى المستقبل.

الكثير من تخلفنا ومن حروبنا ومن نزاعاتنا ومن تأخرنا في كل شيء له جذور في مفاهيم معينة نُسِبَت للدين بشكل أو بآخر...

(1) List of wars and anthropogenic disasters by death toll - Wikipedia

(2) Children's Crusade - Wikipedia

لكن ترك الدين لن يحل هذه المشاكل...سنتقاتل فيما بيننا تحت شعارات أخرى...لكن الحل يكون في مواجهة هذه المفاهيم وإصلاحها من جذرها...

* * *

في غابات الأمازون في البرازيل، ثمة قبيلة بدائية اسمها بيراها Pirahã[1] تعيش على ضفاف الأنهار.. تعيش حياة بدائية تماما.. لا يزال أعضاؤها يعيشون مرحلة الصيد وجمع الثمار...

هذه القبيلة لا تملك أي دين.. أي مفهوم للإله أو أي روح أو قوة عليا...

لا أقول هنا أن عدم امتلاك الدين هو السبب في بقائهم متخلفين.

بل أقول أن ترك الدين لو كان ينفع.. لنفع هذه القبيلة.

(1) Pirahã - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Pirah%C3%A3

الحديث صحيح ولكن ...

قد يبدو غريبا أن يشير أحدهم إلى صحيح البخاري باعتباره السبب الذي دفعه إلى الإلحاد.

لكن للأسف هذا يحدث بل ويحدث كثيرا.

وقد ساهم بعض أصحاب الفكر الديني في الوصول إلى هذه النقطة.

كيف؟

نكبر وننشأ وتتشكل عقولنا وأذهاننا ونحن نسمع أن البخاري أصح حديث بعد كتاب الله[1]. نسمع عبارة رواه البخاري تقال كما لو لتنهي النقاش بالضربة القاضية. نفهم أن البخاري خط أحمر. ولا كلمة. **لقد رواه البخاري!** وبالتدريج يصبح البخاري بالنسبة لنا - شئنا أم أبينا - وعينا أم لم نع - بطريقة أو بأخرى ركنا من أركان إيماننا. لا نستطيع أن نتخيل أن نكون مؤمنين من دونه، لأن الإيمان الذي تشكلنا عليه جعل الأمور متراكبة على نحو أنه لو أزيح البخاري منها، فإن كل شيء سيسقط.

بطبيعة الحال لا أقصد بالبخاري هنا «صحيح البخاري» فقط، بل منظومة الحديث الشريف والسنة النبوية بأكملها، التي يشكل صحيح البخاري - بحق - القمة العليا فيها.

لكن كيف حدث هذا بالضبط؟ كيف حدث أن أصبحت منظومة الحديث الشريف، وتحديدا صحيح البخاري، نقطة ارتكاز تؤدي إلى زلزلة كل شيء لو تم المساس بها؟

بدأ الأمر مع بداية انتشار الفكر السلفي في منتصف السبعينات وما تلاها، وكان من الطبيعي أن يصحب هذا الانتشار اهتمام متزايد بالحديث الشريف نظرا للعلاقة المتداخلة بين الفكر السلفي ومدرسة الحديث.

---

(١) نقل النووي اتفاق العلماء على «أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان البخاري ومسلم وتلقتهما الأمة بالقبول وكتاب البخاري أصحهما وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة وقد صح أن مسلما كان ممن يستفيد من البخاري ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث»- شرح النووي على صحيح مسلم الجزء ١ صفحة ١٤

اعتمد جزء كبير من قدرة هذا الفكر على الانتشار على سلطة «الحديث الصحيح» وقوته، وكان التأكيد على هذا الأمر أساسيا في مواجهة التيارات الأخرى التي لا تولي نفس الاهتمام للحديث الصحيح، بل التي ربما تعتمد في سردياتها الشائعة على أحاديث ضعيفة أو موضوعة أو بلا سند أصلا.

سلطة الحديث الصحيح والتأكيد عليها جاءت من القرآن الكريم نفسه في مواضع كثيرة، لكن ما حدث في هذه الفترة كان التركيز على آية واحدة جعلت من الحديث الشريف «وحيا من الله» (وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى)، بطريقة جعلت من الحديث «مساويا» للقرآن الكريم في كل الجوانب عند المتلقي. ورغم وجود هذا التفسير للآية الذي يرى أن المقصود بها هو كل ما يقوله عليه الصلاة والسلام إلا أن الحقيقة أن الرأي الأكثر انتشارا عند المفسرين كان يرى أن المقصود بالآية هو «القرآن الكريم»، أي أن ما ينطق به عليه الصلاة والسلام «من القرآن» هو الوحي.

فقد قال ابن جرير الطبري في تفسيره: (القول في تأويل قوله تعالى: «وما ينطق عن الهوى» يقول تعالى ذكره: وما ينطق محمد بهذا القرآن عن هواه، «إن هو إلا وحي يوحى» يقول: ما هذا القرآن إلا وحي من الله يوحيه إليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل). ثم أورد قول قتادة: «وما ينطق بالقرآن عن هواه «إن هو إلا وحي يوحى إليه»[1].

وعبر فخر الدين الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب» عن ذات المعنى قائلا: (الظاهر خلاف ما هو مشهور عند بعض المفسرين، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان ينطق إلا عن وحي، ولا حجة لمن توهم هذا في الآية، لأن في قوله تعالى: «إن هو إلا وحي يوحى» إن كان ضميرا للقرآن فظاهر، وإن كان ضميرا عائدا إلى قوله، فالمراد من قوله هو القول الذي كانوا يقولون فيه إنه شاعر، ورد عليهم، فقال: «ولا بقول شاعر»، وذلك القول هو القرآن[2]..

وإلى ذات المعنى ذهب من المفسرين كل من أبي حيان في «البحر المحيط»، وابن جزي في «التسهيل»، والقاسمي في «محاسن التأويل»، والألوسي في «روح المعاني» والزمخشري في «الكشاف» والسمرقندي في «بحر العلوم» والواحدي في «التفسير الوسيط» و «البيضاوي» في «أنوار التنزيل» والبغوي في تفسيره والشوكاني في «فتح القدير»، وكذلك نقل القول القرطبي في تفسيره ضمن الأقوال الأخرى.

أما المفسر ابن عطية فقد ذهب في تفسيره «المحرر الوجيز» إلى حصول الإجماع على أن

---

(١) تفسير الطبري الجزء ٢٢ صفحة ٤٩٧-٤٨٩

(٢) تفسير الرازي جزء ٢٨ صفحة ٢٣٦

المقصود في الآية هو القرآن، فقال: «إن هو إلا وحي يوحى» يراد به القرآن بإجماع[1]. كذلك قال بهذا من الأصوليين أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠هـ) وأبو البركات النسفي (ت ٧١٠هـ) وبدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ).

لكن هذا الرأي الآخر (الذي كان منتشرا كما هو واضح) غيب تماما في ما راج وانتشر في منتصف السبعينات وما بعدها.

يمكن بسهولة متابعة ما كان يقوله عن هذا الأمر كبار العلماء الذين انتشرت فتاواهم في تلك الفترة لبيان أن الرأي الآخر (الذي يرى أن القرآن هو المقصود بآية «إن هو إلا وحي يوحى») كان لا وجود له، وأن السنة النبوية هي وحي من الله[2]، واعتبر الوحي «مشتملا على القرآن الكريم والسنة النبوية»[3]، و «إذا كان القرآن وحياً من عند الله فكذلك السنة من وحي الله عز وجل، قال جل وعلا: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[4] «لا بد أن يستقر في عقل وقلب كل مسلم أن السنة - وهي ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير - هي أحد قسمي الوحي الإلهي الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقسم الآخر من الوحي هو القرآن الكريم»[5] والسنة هي «شطر الوحي»[6] و«القرآن وحي جلي والسنة وحي خفي»[7] و«السنة النبوية، قولية كانت أو فعلية أو تقريرية فهي حجة في الأحكام، وذلك مبني على أنها وحي»[8].

---

(١) المحرر الوجيز الجزء ٥ صفحة ١٩٦

(٢) بيان أن السنة النبوية وحي من الله

https://binbaz.org.sa/fatwas/18507/%D8%A8%D9%8A%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%86%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A8%D9%88%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%AD%D9%8A-%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87

(٣) عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي الجزء الأول صفحة ٢٤٥

(٤) أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة الجزء ١ صفحة ٩

(٥) السنة النبوية الصحيحة وحي من الله - الإسلام سؤال وجواب

https://islamqa.info/ar/answers/77243/%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%86%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A8%D9%88%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%AD%D9%8A%D8%AD%D8%A9-%D9%88%D8%AD%D9%8A-%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87

(٦) من كلمة الألباني في استلام جائزة الملك فيصل العالمية

http://madrasato-mohammed.com/albani/misc-004.htm

(٧) شبهة السنة ليست وحياً ؛ - موسوعة الرد على الشبهات

http://rodood.win/?p=3432

(٨) محاضرة مختصر التحرير (٦٦) للشيخ محمد بن صالح العثيمين

http://audio.islamweb.net/audio/Fulltxt.php?audioid=317005

هكذا بنيت العلاقة بين القرآن والحديث في تلك الفترة. علاقة مساواة تامة. صحيح أن هذا الأمر لم يصرح به بهذا الوضوح، وأن أهل العلم الشرعي وطلبته» كانوا يعرفون حتما وجود اختلافات ورأي مختلف، لكن من المنطقي أن المتلقي غير المتخصص كان سيصل له الأمر على هذا النحو: المساواة التامة بين القرآن والحديث.

الحديث وحي مثله مثل القرآن، كلاهما صحيح.

..وما يمس الحديث، سيمس القرآن....

* * *

هكذا نشأ الكثير من الفتية في العقود الأخيرة، تحديدا منذ منتصف السبعينات وما بعدها.

ثم أصبح هؤلاء الفتية شبابا ودخلوا النت وتصفحوا المواقع وتبادلوا الروابط..

وبدا لهم من البخاري[1] ما لم يكونوا يعرفونه من قبل!

أحاديث مثل تعرض النبي عليه الصلاة والسلام للسحر أو إرضاع الكبير أو بول البعير... إلخ..

وربما لأن الإيمان بالسنة وارتباطه بالإيمان ككل بني في أذهانهم على نحو صلب جدا، دون أي مرونة...فقد كان لهذه الضربة آثارا أبعد من مجرد «رفض حديث صحيح السند».

لقد انهار البخاري في أذهانهم بسبب بعض الأحاديث...**كيف يفتري هكذا على رسول الله؟ هكذا قيل لهم وهكذا قالوا..**

لكن...

ما كان يمكن للأمر أن ينتهي عند البخاري.

ما كان يمكن للإيمان أن ينجو بسهولة إن أسقط البخاري..

لقد بنيت الأمور على نحو متشابك جدا، وإسقاط حجر دومينو واحد كان لابد أن يقود لحجر آخر وآخر..

عندما يحذف البخاري – على هذا النحو التسقيطي – فإن ما ارتبط به سيتأثر أيضا...

وهكذا سارت الأمور إلى الأسوأ..

* * *

(١) الحديث هنا لا يشمل صحيح البخاري فقط بل منظومة الحديث الشريف ككل، والحديث عن صحيح البخاري هنا لأنه - عن حق- أعلى قمة في منظومة الحديث النبوي، وما يمسه سيمس المنظومة ككل.

المشكلة ليست فقط في مكانة الخط الأحمر و «أصح كتاب بعد كتاب الله» التي لم تجعل تحمل صدمة بعض الأحاديث ممكنا ..

المشكلة في تعاملنا بمنطق الأبيض أو الأسود..

إما أن يكون كتاب البخاري صوابا مطلقا ...أو أن يتهم بالافتراء والكذب.. لا منطقة بشرية طبيعية في الوسط بين التطرفين..

هذا المنطق هو من مشاكلنا المزمنة ليس مع البخاري فقط ولا مع منظومة الحديث الشريف بأسرها ولا مع الشخصيات والرموز، بل هو منطق نتعامل به مع كل شيء.. أحيانا حتى مع أنفسنا.. نبالغ في تقدير ما يمكن أن نفعله، ثم نحبط عند الفشل فننزل إلى أسفل سافلين..

***

لدي قصة شخصية مع صحيح البخاري.. أثرت في تعاملي ونظرتي لمنظومة الحديث النبوي ككل.

كنت في أوائل العشرينات، وعثرت على كتيب يتضمن بعض الأحاديث التي يُبني عليها تحليل ما..

وكان ثمة حديث كان لا بد أن يستوقفني «خائفا».. حتى لا أقول مصدوما.

كان الحديث في البخاري، ويرويه ابن عباس، وملخصه أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما مرض مرضه الأخير طلب ممن حوله أن يكتب لهم: «**لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ» فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الوَجَعُ، وَعِنْدَكُمُ القُرْآنُ، حَسْبُنَا كِتَابُ الله**[1].

ثم اختلف من كان حول الرسول عليه الصلاة والسلام حول الأمر حتى قال لهم (قوموا).

ثم قال ابن عباس: «**إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الكِتَابَ، مِنَ اخْتِلاَفِهِمْ وَلَغَطِهِمْ**»

بسبب وجود حالة استحضار دائم لتلك الأيام الأخيرة في حياته عليه الصلاة والسلام فإن ما رواه ابن عباس سيفهم هكذا:

أولا- الرسول عليه الصلاة والسلام يريد أن يوصي قبل وفاته.

---

(١) صحيح البخاري ٥٦٦٩

ثانيا- عمر بن الخطاب (يحول) بينه وبين ذلك.

ثالثا- لا بد أن الرسول كان يريد أن يوصي باسم خليفة (هذه تفهم بسبب تشبعنا بفكرة الخلاف حول ذلك).

رابعا- عمر منع ذلك.

لدينا إذن هنا قصة خطيرة جدا...إن قبلتها كما هي فأنت عمليا تضحي بعمر الفاروق.

وان رفضتها فأنت ترفض البخاري.

كل الأسماء في هذه القصة خطيرة.. عمر.. ابن عباس رضي الله عنهم.. والبخاري...

الأمر يبدو كأنه خاسر بكل الأحوال[1] ..



لكن محاولة البحث أكثر قد تأتي بنتائج مختلفة.

كانت بضعة سنوات فقط تفصلنا عن انتشار أقراص الحديث الشريف التي سهلت عمليات البحث والوصول إلى مصادر المعلومات...وكان علي أن أبحث قدر الإمكان عن كل ألفاظ الحديث التي قد تساعدني بكلمة هنا أو هناك في فهم ما جرى حقا.

ووجدت ذلك فعلا في طبقات ابن سعد..

حيث يقول عمر في هذا اللفظ «: من لفلانة وفلانة - مدائن الروم؟- إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بميت حتى نفتتحها، ولو مات لانتظرناه كما انتظرت بنو إسرائيل موسى!»[2]

عمر تصرف هنا كأي شخص طبيعي يرى شخصا يحبه على فراش المرض، ويقول شيئا يفهم منه أن يشعر بقرب منيته.. كل من رعى شخصا كبيرا في السن مر بموقف مماثل وقال شيئا مماثلا...سنقول له: أبدا. لا تقلها. أنت بخير وستقوم من جديد.

(١) علما إن حالة الشحن الطائفي هي التي تقيد اتجاه تفكيرنا باتجاه هذا الأمر، فربما كان ابن عباس لا يقصد ابن الخطاب فيما قاله، بل ربما كان يقصد ما حدث من الاختلاف بين الصحابة مما دعا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى طلبه مغادرتهم، خاصة أن ابن عباس قال «ما حال..» وليس» من حال».

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٢ ص ٢٤٤

هنا عمر ينتفض عندما يشعر أن الرسول عليه الصلاة والسلام يتحدث شيئا يفهم منه أن منيته تقترب...

أبدا...أين تذهب؟...من يذهب معنا لفتح مدائن الروم.. وحددها بالاسم..

موقف عمر طبيعي جدا وتلقائي جدا وعفوي جدا. وأكده لاحقا عندما رفض تصديق خبر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بل وسحب السيف في وجه من يقول ذلك.

ما المشكلة إذن؟ لماذا لم يفهم ابن عباس طبيعية موقف عمر؟ لماذا نقل الأمر وهو يقول «الرزية كل الرزية ما حال بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب»..

لأنه كان صغيرا. ببساطة كان صغيرا ولم يدرك تمام الموقف خاصة مع كثرة عدد الناس حول الرسول كما يشير النص بنفسه...

لذلك نقله وصورة مشوشة في ذهنه..

* * *

في هذا المثال: تحول ابن عباس ليكون -عبر فهمه للواقعة ونقله لها كما فهمها- جزءا مهما من الحدث.

لقد نقل المشهد كما رآه، وكما فهمه. وبذلك تحول فهم الصحابي من مجرد ناقل الحديث إلى جزء من الحديث نفسه، بل ربما أهم من كل ما في الحديث.

أسئلة من نوع: هل فهم الراوي.. ما موقعه من الحدث...متى جاء لمكان الحدث أو الحديث. وهل كان هناك شيء قيل قبل وصوله..

كلها أمور صار يجب أن نفكر بها عندما نتفحص أي حديث فيه إشكالات..

* * *

من الناحية النظرية...يمكن استخدام مقدمتين للوصول إلى نتيجة بديهية لكننا نحتاج إلى التذكير بها.

المقدمة الأولى- كل البشر يخطئون.

المقدمة الثانية- البخاري بشر.

النتيجة : البخاري يمكن أن يخطئ.

نظريا، هذه بديهة.

لكننا لأننا لا نعرف الأمر إلا بواحد من تطرفين...إما التنزيه الكامل عن بشريته بأخطائها.. أو هجوم شديد ينسفه نسفا..

لماذا لا نستطيع أن نرفض تصديق واحد من أحاديث الصدمات السابقة- التي لم تقتنع بها- دون أن نرفض البخاري كله بالمعية؟

لماذا مقولة «البخاري يمكن أن يخطئ أيضا» تستفز البعض..

ألا يرون أن هذا الموقف قد عبّد الطريق لأولئك الذين يلحدون بسبب صحيح البخاري؟

* * *

جزء من الهجوم الدرامي على البخاري هو عدم فهم وظيفته حقا.

لا يعجبنا أو لا نقتنع بحديث ما.. لكن البخاري مجرد ناقل له..

هل حدث أن استلمت رسالة أو طردا بريديا ولم يعجبك محتواها فذهبت لشركة البريد لكي تعاتبها على ذلك؟

لا قطعا. مشكلتك مع المرسل. ما دام الطرد قد وصل سالما فلا حديث لديك مع شركة البريد.

البخاري هو صاحب شركة بريد بمعايير عالية جدا. لنقل أنها الأعلى بين كل المتوفر.

لكنه ليس مسئولا عن محتوى البريد.

أهل الفقه وأهل الحديث كانوا يعرفون تماما توزيع الأدوار ولم تكن هناك مشكلة عند الفقهاء في عدم العمل بحديث صحيح السند إن تبين له علة في المتن.

الأحاديث موضع الهجوم

أولا- أحاديث عن الحياة الزوجية للرسول عليه الصلاة والسلام، والكثيرون يرفضونها بتكلف، مثل حديث أنه كان عليه الصلاة والسلام يطوف على زوجاته في نفس الليلة[1].

(١)صحيح البخاري ٢٨٤

على فرض أن معنى ذلك هو الذي في أذهانكم - ولا أحد يمكنه أن يؤكد ذلك لأن اللفظ طاف قد يعني ذلك وقد لا يعني - لكن على فرض ذلك.. ما المشكلة وما هو ضررك من هذا وما الذي يستفزك في الأمر؟

رفضنا للصورة الإنسانية للرسول عليه الصلاة والسلام وإصرارنا أن نضعه في إطار غير واقعي يجعلنا معرضين لرفض بعض الأحاديث التي تؤكد بشريته وإنسانيته.

ثانيا- أحاديث تنقل بعض ما كان مقبولا ومتداولا في بيئة ومجتمع العرب في تلك الفترة، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمارسه بصفته الشخصية وليس بصفته النبوية، مثل التداوي بالطب المعروف في تلك الفترة، والذي قد لا يستساغ اليوم مثل أبوال الإبل[1].

والمشكلة هنا بالتأكيد في الفهم السائد للسنة الذي لم يميز بوضوح بين عادات العرب وتعاليم النبوة.

ثالثا - أحاديث تشبه الإسرائيليات (مثل أن النبي موسى فقأ عين ملك الموت[2]) وقد كان مقبولا عند البعض التحديث عن بني إسرائيل ويمكن أن يكون حدث تسرب فاختلط بعضها بالحديث، لكن طبيعة الإسرائيليات واضحة جدا ويسهل تمييزها.

رابعا - أحاديث عن علامات الساعة (خاصة عن المسيح الدجال) يجد البعض مشاكل معها لأنهم حين يؤمنون بها يأخذونها بشكل حرفي رغم وجودٍ ثري للرمز والمجاز فيها.

خامسا -أحاديث ستناقض العلم - في رأي البعض- لو فهمت على نحو حرفي. مثل حديث سجود الشمس للعرش ونفخ الروح في الجنين وغيرها، وقد مر ذكرها في باب سابق.

* * *

لا مشكلة بالتأكيد في نقد البخاري أو مسلم أو غيرهما، لكن من المهم أن يكون النقد علميا.. وربما من الأهم أن لا يكون بمنطق الأبيض والأسود الذي ينتقل من التقديس إلى النسف عند أول خيبة...

كل أحاديث البخاري التي يتداولونها ويعترضون عليها لا تتجاوز ال ٨٢ حديثا من أصل ٢٧٦١ حديث غير مكرر في صحيح البخاري...

---

(١) صحيح البخاري١٥٠١

(٢) صحيح البخاري ١٣٣٩

لو سلمنا جدلا بأن كل هذه الأحاديث غير صحيحة...لكانت نسبة الخطأ أقل من ٣ ٪...

وهي نسبة خطأ مقبولة...بل وممتازة..

بل هي نسبة مقبولة حتى في التجارب المخبرية...

لكننا نحب الدراما...

* * *

على الهامش لا بد لي من التذكير هنا أن المناداة بموقف وسطي في التعامل مع «الحديث الصحيح» ليس بدعة يبتدعها أمثالي من المعاصرين المتهمين بقائمة طويلة من الاتهامات أهونها أنهم يفعلون ذلك للتهرب من بعض الأحاديث «المحرجة» والتي تستخدم كحجج للملحدين.. بل هو الأصل الذي سارت عليه الأمة لقرون طويلة، إلى أن غُيب هذا الأصل بسبب تعقيدات وتداخلات تاريخية اجتماعية سياسية لا مجال للخوض فيها هنا.

مما هو معروف كقاعدة عند أهل الحديث: أن صحة إسناد حديث لا يلزم صحة متنه[1].

لأن الحديث قد يكون صحيحا من ناحية (عدالة الرواة وضبطهم واتصال السند من أوله إلى منتهاه) لكن «متنه» قد يحتوى على علة أو شذوذ.

هذه القاعدة معروفة جدا عند أهل العلم، الحديث صحيح السند لا يعني أن «متنه» صحيح بالضرورة. الأمر بسيط وبديهي لدرجة أنه معروف كقاعدة وليس كرأي منفرد لأحد العلماء.

لكن أجيال متتابعة ولدت وكبرت في العقود الأخيرة، تم التعامل معها على أن كل ما هو «ثبت صحة إسناده إلى الرسول عليه الصلاة والسلام» هو صحيح قطعا وانتهى الأمر، لا أتحدث هنا عن «طلبة العلم» بالتأكيد، بل الجمهور بشكل عام الذي تثقف عبر الخطب والبرامج وشرائط الكاسيت أو الأقراص المدمجة أو الفتاوى السريعة على الهواء أو عبر الانترنت.

هذا الجمهور، دخل في ذهنه أن صحة السند وصحة الحديث شيء واحد، بحيث أن أي محاولة لذكر أي شيء مخالف لهذا، أي بالرجوع إلى القاعدة عند أهل العلم، كانت تقابل بعاصفة واتهامات قد تصل إلى «التكفير».

---

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري / القسطلاني ج ٥ صفحة ٢٥٢

والحقيقة أن «منهج نقد متن الحديث» كان هو الأساس ومنذ عهد الصحابة، حيث صح عن عائشة وعمر وعلي وابن عباس الكثير من الاستدراكات على متون أحاديث نقلها سواهم، ولم تكن هذه الاستدراكات مصدرها الشك في صدق الراوي بل عدم التأكد من دقة نقله أو فهمه للحديث[1].

كما فرق البعض بين عدالة الرواة وضبطهم، فالكذب لو ثبت- مثلا - يقدح في عدالة الراوي ويجعل كل مروياته مرفوضة، عكس الخطأ في النقل الذي لا يشترط تكراره في مرويات أخرى[2].

وهكذا فقد ثبت عن كبار العلماء في مختلف العصور أنهم ردوا أحاديثا معينة بمجرد النظر إلى متنها، من هؤلاء أبو قلابة (توفى ١٠٤ هـ)، ابن سيرين (١١٠ هـ) ابن أبي مليكة (١١٧هـ)، الإمام أحمد (٢٤١هـ)، البخاري (٢٥٦ هـ)، ابن حبان (٣٥٤ هـ)، الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، ابن الجوزي (٥٩٧هـ)، الذهبي (٧٤٨هـ)، وابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) والأخير وضع في كتابه «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» أكثر من أربعين ضابطا يعرف منها أن متن الحديث ضعيف، ومما عده من مباني نقد المتن: اشتمال الحديث على المجازفات التي لا يقولها النبي صلى الله عليه وسلم، و مناقضة الحديث لما جاءت به السنة الصريحة، و كون الحديث باطلا في نفسه، ومخالفة الحديث لصريح القرآن، وركاكة اللفظ وسماجته بحيث يمجها السمع ويدفعها الطبع، واقتران الحديث مع القرائن التي علم بها أنه باطل وغيرها.

ويعد كتابه هذا أول كتاب مفصل في باب نقد «متن الحديث»[3].

ورغم وجود شواهد عديدة تدل على قدم «نقد المتن» وأصالته إلا أنه من الواضح أن هذه الشواهد وتأصيل منهجية واضحة لنقد المتن تعد أقل بكثير مما يتعلق بنقد السند، وفي الغالب فإن شواهد «نقد المتن» تأتي ضمن نقد السند وليست منفصلة عنه.

---

(١) نقد المتن عند الصحابة، دراسة تطبيقية في أحاديث الصحيحين، د. عمار أحمد الحريري، بحث مقدم للمشاركة في المؤتمر الدولي «الصحابة والسنة النبوية».

http://www.hadith-turath.org/content/library/2bd9fd7d2a904235b34b1e06dc1fb4f6.pdf

(٢) الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة، عبد الرحمن المعلمي صفحة ٢٧٣

(٣) نقد متن الحديث: تاريخه ومقاييسه ومناهج العلماء فيه، شفيق وينغرا، رسالة مقدمة لنيل متطلبات شهادة الماجستير، جامعة دار الهدى الإسلامية، الهند.

https://www.academia.edu/36622186/Content_Criticism_of_Hadith_%D9%86%D9%82%D8%AF_%D9%85%D8%AA%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB_.pdf

ويبرر جوناثان براون Jonathan A. C. Brown[١] السبب في طغيان «نقد السند» على «نقد المتن» وتخفي الثاني ضمن الأول إلى الصراع بين مدرستي أهل الحديث وأهل الرأي (في تدرجاتهم المختلفة من متبعي المذهب الحنفي إلى المعتزلة والمتكلمين)، وبسبب نزوع الفريق الأخير إلى اعتماد العقل معيارا لرفض أو قبول الأحاديث فإن مدرسة «أهل الحديث» بدت متحرجة من إظهار «نقد المتن» على نحو مستقل ومنفصل عن «نقد السند» لأن هذا كان سيبدو كما لو كان نقطة لصالح أهل الرأي[٢].

ويرى نفس الباحث أن الصراع بين المدرستين قد جعل أهل الحديث يتجنبون وضع قواعد عملية تطبيقية لنقد متن الحديث، رغم أنهم كثيرا ما نقدوا أحاديثا بناء على متونها[٣].

وشهدت العقود الأخيرة اهتماما متزايدا بدراسة وتأصيل «نقد متن الحديث»، ومن الكتب المميزة في هذا المجال:

منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي للدكتور صلاح الدين الأدلبي (١٩٨٣)، مقاييس نقد متون السنة للدكتور مسفر غرم الله الدميني (١٩٨٤)، رد الحديث من جهة المتن: دراسة في مناهج الأصوليين والمحدثين للدكتور معتز الخطيب (٢٠١١)، جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف للأستاذ محمد طاهر الجوابي (١٩٩١).

ويجمع الأستاذ أمين عمر دغمش قواعد اتبعها المحدثون في نقد المتون:

١) مخالفة الحديث صريح القرآن.

٢) مناقضة الحديث لما جاءت به السنة الصريحة مناقضة بينة.

٣) وتكذيب الحس له.

٤) أن يكون الحديث مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه.

٥) اشتماله على أمثال المجازفات التي لا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام أمثالها

٦) سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه.

---

(١) جوناثان براون (Jonathan A C Brown) (١٩٧٧ - ....) باحث أمريكي في الدراسات الإسلامية، يدّرس مادة الحضارة الإسلامية في جامعة جورج تاون منذ ٢٠١٢ وله عدة مؤلفات تتعلق بالسنة النبوية والحديث الشريف. ولد جوناثان في عائلة تنتمي للكنيسة الأسقفية البروتستانتية ولكنه تحول إلى الإسلام عندما كان في العشرين من العمر، وهو سني على المذهب الحنبلي.

(2) How We Know Early Ḥadīth Critics Did Matn Criticism and Why It's So Hard to Find, Jonathan A.C. Brown Islamic Law and Society 15 (2008) 143-184

(3) ?The Rules of Matn Criticism: ?There Are No Rules, Jonathan A.C. Brown Islamic Law and Society 19 (2012) 356-396

٧) أن يكون كلامه لا يشبه كلام الأنبياء أو كلامه عليه الصلاة والسلام أو حتى كلام الصحابة.

٨) أن يدعي على النبي عليه الصلاة والسلام أنه فعل أمرا ظاهرا بحضور الصحابة وأنهم اتفقوا على كتمانه ولم ينقلوه

٩) أن يكون الحديث أشبه بكلام الأطباء والطرقية.

١٠) أن يكون الحديث باطلا في نفسه، فيدل بطلانه على أنه ليس من كلام النبي عليه الصلاة والسلام.

١١) مخالفته لمقصد من مقاصد الشريعة أو هدف من أهدافها.

١٢) مخالفته لحقائق التاريخ المعروفة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

١٣) أن يتضمن تأييد نحلة مبتدعة أو مذهب سياسي .

١٤) أن يكون في الحديث تاريخ، كأن يقول في سنة كذا وكذا يحدث كيت وكيت[١].

***

لماذا كل هذا التفصيل في الأمر؟

مر في الكتاب في أكثر من موضع محاولة قراءة مختلفة لبعض الأحاديث التي لا ينسجم «ظاهرها» مع المعطيات العلمية.

وفي كل مرة يحدث ذلك، مني أو من سواي، ينبري كثيرون للهجوم بتهمة «اتباع الهوى» أو «الانتقائية» أو «تكذيب السنة».

ولكي أكون منصفا، فإن لهذا الموقف «بالعموم» مبرراته، هناك اليوم فوضى عارمة للغاية في تكذيب الأحاديث «صحيحة السند» كما هو الحال مع من يدعون بالقرآنيين، وقد نسفوا منظومة السنة والحديث الشريف برمتها، فكانوا كمن يعالج مريض الصداع بقطع رأسه، وموقفهم هذا يفسر الرفض المتشنج الذي يواجه كل محاولة لفهم الأحاديث بطريقة مختلفة، حتى لو كان هذا الاختلاف سيحمي المنظومة ككل على مدى بعيد....

---

(١) دراسات حديثية تطبيقية في نقد المتن: أ. أمين عمر دغمش، موقع الباحث العلمي

الفرق بين المنهج العقلاني، واتباع الهوى

كثيرا ما يحدث التكذيب للحديث الصحيح بناءً على عدم انسجام هذه الأحاديث مع «الأفكار التي يؤمن بها الشخص المكذِب»، وهي قد تكون أفكارا معاصرة لا يمكن أن توضع في مقارنة مع الحديث ومعناه.

هذه الأفكار يعتبرها هذا الشخص «مسلمات عقلية» بالنسبة له، وهو يرفض هذا الحديث بناءً على هذا الأساس. هو يعتقد أنه يحاكم الحديث بناء على «العقل»، لكن هناك فرق كبير بين «القناعات الشخصية» و«العقل»، مهما كانت هذه القناعات تبدو «عقلانية» لأصحابها.

القناعة الشخصية تبقى شخصية، ربما فيها زاوية موضوعية وعقلانية، لكنها مرتبطة بسياق عام مؤثر على هذه القناعة.

«العقل» موضوعي إلى حد كبير، ويعتمد على مجموعة قواعد منطقية متماسكة ومتناسقة مع بعضها.

وهكذا فإن من يرفض حديثا نبويا بسبب مخالفته لقناعة شخصية يؤمن بها (شيء يتعلق بالحرية الشخصية، النهي عن الوشم كمثال) ليس كمن يرفض حديثا نبويا يقول أن النبي عليه الصلاة والسلام قد خلق قبل آدم عليه السلام، كمثال.

للأسف التفريق بين الأمرين غير واضح عند «من يهاجم»، فهم يعتقدون أنهم يدافعون عن الحديث النبوي، ويساوون بين الطرفين على غير تمييز، وموقفهم المتشنج مفهوم ضمن سياق التهجم الموجود على منظومة الحديث الشريف ككل.

المهاجمون قد يقولون محقين أن نقد متن الحديث إنما يكون من متخصصين، وليس من «كل من هب ودب».

وهذا صحيح.

لكن طريقة إسكات «كل من هب ودب» تكون عبر تقديم البديل المقنع الذي يتعامل مع منظومة الحديث الشريف على نحو يحافظ عليها ويخلصها في الوقت ذاته من إشكاليات التعامل الحالي معها، والتي تكاد تودي بكل شيء.

* * *

مرت بنا في الكتاب أحاديث تضمنت إشكالات عند التعامل مع «ظاهرها».

وكلها أحاديث آحاد.

مصادر الإشكالات تنحصر في واحدة مما يلي:

أولا - تناقض مع صريح القرآن الكريم، مثل «عقوبة المرتد» - عندما يكون المرتد مرتدا عن الإيمان دون أن يكون لذلك ارتباطات بالعدو، فالقرآن الكريم يتوعد المرتد بعقوبة أخروية، بينما الفهم المباشر لظاهر الحديث يفيد بقتله في الدنيا.

ثانيا - تناقض مع الحس العام: كأن يكون في الحديث ما يخرق «العادة» و الاعتياد البشري اليومي ورغم ذلك فإن من ينقله عدد قليل بحيث يكون الحديث حديث آحاد.

الإشكال هنا ليس في إمكانية حدوث «خوارق» أو معجزات، فالإيمان بالغيب يتضمن التصديق بهذه الخوارق وبإمكانية حدوثها من قبل الأنبياء والرسل بإذن الله، لكن الإشكال هو في أن المنطقي في حالة حدوثها أن يتناقلها جمع كبير من البشر، وهذا هو المتوقع مع كل ما هو «غير معتاد».

فحادثة الإسراء والمعراج مثلا، لأنها غير معتادة، نقلها قرابة العشرين صحابيا. وهذا أمر متوقع مع حدث خارق وغير معتاد مثل هذا.

ولكن عندما ينقل حدث خارق وكبير مثل «انشقاق القمر» عبر حديث آحاد، ولا ينقله غير صحابي واحد،

فهذا يجعلنا نتوقف ونتساءل عن السبب، دون أن يعني هذا تكذيب «الصحابي» أو «الحديث» أو «منظومة الحديث الشريف» ...بل تأويله ضمن سياقات تحافظ على كل ما سبق.

ثالثا - تناقض مع معطيات علمية ثابتة: والحديث هنا ليس عن فرضيات أو تفسيرات علمية لظاهرة ما، قابلة للتغير بعد فترة، بل عن حقائق علمية، مثل دوران الأرض حول الشمس.

فحديث آحاد يناقض معطيات علمية يجب أن لا يجعلنا نتشنج دفاعا عن منظومة الحديث الشريف، بل نكتفي بتأويله أو القول بأنه حديث آحاد فحسب، ولا يجب أن يمس هذا الصحابي أو الحديث أو مقام النبوة الكريم...

* * *

قال عبد القاهر البغدادي، المتوفى ٤٢٩ هجرية، من أئمة الأصوليين وفقهاء الشافعية، في كتابه أصول الدين: «أخبار الآحاد متى صح إسنادها وكانت متونها غير مستحيلة في العقل كانت موجبة للعمل دون العلم[1]».

سيقال طبعا أنه كان أشعريا...إلخ، هل يلزم استحضار قائمة كل الأشاعرة في التاريخ الإسلامي لكي نبرر مقولته؟ أم نكتفي بالقول أن هذا الأمر طرح في القرون الأولى وتبناه البعض ورفضه البعض الآخر، أي أننا بكل الأحوال لا نخترع شيئا جديدا - لنتهرب من حجج الملحدين- بل هو أمر كان موجودا منذ البداية؟

أم أن علينا أن نعيد اختراع العجلة؟

(١) أصول الدين لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي. دار الكتب العلمية. الطبعة الثالثة. صفحة ٢٦

ما فائدة الشعائر؟

ثمة ميل عند الملحدين إلى تسخيف الشعائر والتشكيك بمعانيها، هم طبعا لا يؤمنون بجدواها من الأساس لعدم إيمانهم بوجود من توجه له الشعائر، لكن هذا أمر لا يتحدثون به بل يتوجهون غالبا إلى قضايا أخرى تتعلق بأصحاب الشعائر وسلوكياتهم..

هناك ميل كبير مثلا إلى التهكم من أي خطأ سلوكي يصدر عن أحد ممارسي الشعائر، كما لو أن الشعائر يفترض أن تجعلهم خالين من الخطأ..

أكثر من التهكم هناك ميل إلى تضخيم أخطاء أصحاب الشعائر ولفت الأنظار إليها على نحو مبالغ فيه، هناك عدسة مكبرة تترصد أخطاء أصحاب الشعائر – وتغض النظر عن غيرهم على نحو يوهم أن نسبة الخطأ عند أصحاب الشعائر أكثر بكثير..

ثم بعد العدسة المكبرة هناك آلة التشهير التي يتم فيها تذكير الباقين (والبعض منهم أصحاب شعائر أيضا) بأن هؤلاء المتدينين – الملتزمين – ليسوا كما تظنون، والشعائر مجرد قناع لشخص يخطئ (رغم أن الجميع يخطئون لكن الحفلة الجماعية تكون على أصحاب الشعائر فقط)..

يساهم حتى الذين يؤدون الشعائر في هذا أحيانا...يساهمون في محاسبة أصحاب الشعائر جماعيا، لا يحق لمؤدي الشعائر أن يقطب جبينه أو يعبس أو أن يتأخر عن عمله (أسوة بزملائه الآخرين) ولا يحق له أن يكون له مزاجه المعكر أو أن يكون له يوم سيء كما بقية الخلق...

عليه أن يكون دوما في أحسن حالاته على ارتفاع موازٍ لسقف توقعاتهم الخيالي الذي يطالبونه به..

ما الهدف النهائي من كل هذا الترصد والتسقط والتصيد والتشهير.

الهدف واضح وسرعان ما يصلون له بسرعة: الشعائر لا تنفع. الشعائر ليست مفيدة. الشعائر لم تجعل من مؤديها أشخاصا أفضل. ما فائدة أداء الشعائر ما دامت لم تؤثر على مؤديها؟

السؤال يتضخم بالتدريج حتى يصير بديهيا ..ويطرحه أصحاب الشعائر أنفسهم على أنفسهم.. ما فائدة الشعائر؟

لكن الشعائر لا تؤدى من أجل فائدتها، ليس على هذا النحو على الأقل.

نعم أؤمن ويؤمن كثيرون مثلي أن للشعائر فوائد كثيرة، لكن الفكرة الأساسية للشعائر تنتهك في اللحظة التي يتم معاملتها (براغماتيا) على أساس نفعها الخارجي (أي خارج الشخص المؤدي للشعائر).

الفوائد الاجتماعية للشعائر مهمة لكن في اللحظة التي نفكر بإلغاء (الصفقة) بسبب عدم تحقق هذه الفوائد فإنك عمليا تلغي الجانب الفردي الشخصي من الأمر الذي لا يمكن بالنسبة لك أن تراه بعينك المجردة أو حتى بعدستك المكبرة التي تتسقط أخطاء صاحب الشعائر..

نعم ربما رأيت عبوسه وتأخره عن العمل (وهو مخطئ في هذا مثله مثل أي شخص آخر) ولكن لا طريقة عندك لكي تعرف أثر هذه الشعيرة على توازنه الداخلي وعلى طمأنينته واستقراره وسلامه النفسي...

اختزال أثر الشعائر على الجزء الخارجي وتناسي - أو تجاهل- الأثر الداخلي هو ببساطة الخطوة الأولى نحو الإيهام بعدم وجود أثر داخلي أصلا للشعائر..

والأثر الداخلي لا يقتصر فقط على (السلام والطمأنينة والتوزان الداخل) بل أيضا والأهم من ذلك هو صلة مؤدي الشعائر مع خالقه وهذا شيء غير قابل للقياس على الإطلاق...

الشعائر الدينية تعبر عن فهم معين للعالم ..عن دور معين للإنسان في هذا العالم وعلاقته بخالق هذا العالم، والشعائر بأدائها المتكرر تكرس هذا الفهم المعين للعالم وتقويه، صحيح أنها قد تتحول إلى عادات في أحيان كثيرة، لكن مجرد المرور في أزمة سيستفزها ويستنفرها لتكون وسيلة لدعم مؤدي الشعائر، الفهم العام للحياة الذي يؤمن به الشخص قد لا يكون فاعلا في الأيام العادية وفي الحياة اليومية لكن المرور بحالة طوارئ سيستحضر عبر الشعائر هذا الفهم ليكون أداة تقوية ودعم لعبور الأزمة.

إحصائيا: جلد أصحاب الشعائر في الأزمات أكبر من جلد غيرهم[1]...نسبة المنتحرين من أصحاب الشعائر ممن يعانون من الاكتئاب أقل بكثير من الذين لا يؤدون الشعائر[2].

بالتأكيد الشعائر لم تفرض فقط للأزمات أو الصدمات لكن (أثرها اليومي) قد يكون غير واضح كما في الأزمات، وهو أمر يستفز غير المؤمنين بالشعائر ويجعلهم يحاولون التقليل من دوره عبر التركيز على سلبيات السلوك الاجتماعي وتضخيمها.

لا شك أن هناك تقصيرا كبيرا من أصحاب الشعائر في تفعيل الدور السلوكي الاجتماعي لشعائرهم وفي فهم شعائرهم كما يجب أن تكون، لكن التقصير الموجود لا يلغي الشعائر وأهميتها.

بالمقابل، فإن أعداء الشعائر بينما يسخفون الشعائر الدينية يتجاهلون أن الحياة المعاصرة البعيدة عن الدين قد أنتجت شعائرها الخاصة بها (أعياد الميلاد، مراسيم الزفاف والتخرج) بل وأنتجت شعائر خاصة للراحة النفسية والتخلص من التوتر (اليوغا، الرياضة)، الوقوف عند النشيد الوطني أو عند رفع (العلم).. وكلها تعبر عن رؤية معاصرة للعالم وعن دور للفرد في هذه الرؤية، ولا ضير حقيقة في أداء هذه الممارسات بالنسبة لكل من يعيش الحياة المعاصرة ويتفاعل معها، لكن من حق المؤمنين أيضا أن يحافظوا على شعائرهم وعلى دورها وعلى تعبيرها عن رؤيتهم للعالم.

يتم طرح سؤال يشكك في هيئة الصلاة وعلى احتوائها على سجود وركوع إلخ...أليس مكان الصلاة القلب؟ فلم صلاة الجسد إذن؟

هل يمكن ممارسة رياضة الجري عبر التأمل مثلا؟

هل يمكن ممارسة اليوغا دون «جلسة» اليوغا؟

لكن الأمور تصل إلى صلاة المسلمين وتصبح في القلب فقط.

---

(1) Hope, Meaning, and Growth Following the September 11, 2001, Terrorist Attacks, Ai et al.
May 1, 2005 Journal of Interpersonal Violence
Methods of Religious Coping with the Gulf War: Cross-Sectional and Longitudinal Analyses Kenneth I. Pargament, Karen Ishler, Eric F. Dubow, Patti Stanik, Rebecca Rouiller, Patty Crowe, Ellen P. Cullman, Michael Albert and Betty J. Royster- Journal for the Scientific Study of Religion Vol. 33, No. 4 (Dec., 1994), pp. 347-361

(2) Religious Affiliation and Suicide Attempt Devrice et al.Published Online:1 Dec 2004 American Journal of Psychiatry
A Global Perspective on Religious Participation and Suicide.
Hsieh N. Jouranl of Health Social Behaviour. 2017 Sep;58(3):322-339. Epub 2017 Jun 22.

سيعترضون أيضا على عدد الصلوات في اليوم وعدد الركعات في كل صلاة.. لماذا ٥ صلوات في اليوم وليس ٤ مثلا ...لماذا ٤ ركعات في الظهر وليس ٣...

سيعترضون على أي رقم.. فهم ينادون بالحرية وتحطيم القوالب.. كيف نصلي بالقوالب؟.. وهذه الأرقام

قوالب..

لكننا نعيش في قوالب شاءوا أم أبوا...ساعات أيامنا محددة بأرقام.. وكل تقاويمنا منضبطة بأرقام ..اليوم ٢٤ ساعة وليس ٢٢ ولا يكون أحيانا ١٩ ساعة...السنة ١٢ شهرا ولا تكون غير ذلك.. وعدد أزواج الكروموسومات التي تحدد كل شيء فينا ٢٣ وأي تغير عن ذلك سينتج تشوهات ..

سيقول البعض أنه لا يحتاج لدين معين لأنه يتواصل مع «القوة العظمى» بطريقته الخاصة وقتما يحتاج.. صلاة المسلمين.. صلاة البوذيين.. أيا كان ما يشعر به مناسبا للتواصل... ..

يفترض هذا الأمر أن الصلاة هدفها التواصل فقط. رغم أنها في الحقيقة أبعد من ذلك بكثير...هي رؤية للعالم من خلال الصلاة..

على العموم، فكرة التحرر من شكل معين ومحدد للصلاة تبدو جذابة لبعض الشخصيات بميول معينة لإبراز تميزهم عن الآخرين والظهور بمظهر البرستيج الفكري.

ومبدئيا يمكن التواصل معه سبحانه وتعالى بأي طريقة من غير شكل محدد للصلاة أو الشعائر، في الدعاء مثلا، يمكنك أن تقول ما تشاء دون التحدد بصيغة دعاء مأثورة مثلا.

لكن الصلاة نفسها أمر آخر.

الانتقال من صلاة المسلمين إلى صلاة البوذيين مثلا يحتوي على مغالطة وتناقض لأن فكرة الإله في الديانتين مختلفة، في الحقيقة لا توجد فكرة إله في البوذية ولكن من يقول هذا غالبا لا يعلم بذلك... عندما تنتقل من صلاة إلى أخرى على هذا النحو فأنت عمليا تعكس جهلا بالمفهومين.. وربما يكون هذا مغلفا برغبة في إظهار التحرر أو القشرة الثقافية.

يشبه الأمر الجمع بين طريقتي علاج مختلفتين تماما كل منهما تنتمي إلى مدرسة طبية مختلفة جذريا...

ببساطة: الأمر غير مجدي...وهو غالبا مفتعل وغير حقيقي..

يتحدثون أيضا عن شعائر الحج بنفس لهجة التسخيف: ذلك البناء الحجري الذي تسمونه الكعبة وتطوفون حوله، وحكاية السبع طوافات والسبع هرولات والسبع رجمات. وثوب الإحرام الذي تلبسونه على الجسد العاري؟

بالتعريف: الطقوس الوثنية ترتبط بوثن.

ولا وثن في الحج. ولا وثن في الإسلام كله.

كل ما في الحج يرتبط بفكرة، بمفهوم معين.. البيت يرتبط بفكرة البناء والإعمار، الطواف حول البيت يرتبط بفكرة أن تقضي كل حياتك وأنت تبني وأنت تدور حول محور الإعمار، السعي بين الصفا والمروة يرتبط بالشغف الأمومي في تبني القضايا المهمة في الحياة...الرجم يرتبط بالصراع المستمر بين الخير والشر في هذه الحياة.. الرقم سبعة يرمز للاستمرارية...

كل جزء من الحج يرتبط بمعنى عميق. لكن البعض لا يريد أن ينظر بعمق.

سيعتبرون أيضا أن تقديم الاضاحي عباده وثنية! أي إله هو ذا الذي يقبل الدم كقربان له كما كانت الشعوب قبل الاسلام؟

إله يقبل الدم؟ يخيل لي أن هذه الحجة مستوردة تماما عبر آلة الزمن من أيام الوثنية التي كانت القرابين تقدم فيها للأوثان وعمليا يأخذها الكهنة.

الأضاحي توزع بثلاثة أثلاث: ثلث للفقراء وثلث للجيران والمعارف وثلث لأهل البيت نفسه، المعنى من الأمر اجتماعي بوضوح لا يقبل اللبس...

أيضا رؤيا إبراهيم التي رأى فيها أنه يذبح ابنه تقدم لهم وليمة من التشكيك..... يقولون: ما هذا الإله الدموي الذي يطلب ذبح طفل صغير ليختبر إيمان أبيه؟

الحقيقة أن هذه الحجة خارجة عن السياق التاريخي الذي حدثت فيه الرؤيا، وهي آفة أغلب اعتراضات كثيرة من نفس النوع.

التضحية بالأطفال وتقديمهم كقرابين كان أمرا شائعا جدا في حضارات كثيرة[1] من ضمنها حضارات المنطقة، وحضارات الشرق الأدنى، وحتى حضارات الأنكا والمايا البعيدة جغرافيا.....

---

(1) Child sacrifice - Wikipedia

رؤيا إبراهيم، في سياقها التاريخي كانت مقبولة لأن الكهنة والسدنة كانوا يروجون لهذه القرابين الدموية.....

كان لا بد للرؤيا أن تحدث، وأن يقبل إبراهيم وولده بالأمر، ومن ثم يصدر الأمر الإلهي الذي يلغي قصة القرابين البشرية إلى الأبد...

لو أن إبراهيم أو ولده لم يقبلا بالأمر أو لم يتقبلاه، لبدا الأمر كما لو أن إبراهيم أو ولده قد جبنا عن تنفيذ الأمر ...ولو أن الرؤيا لم تحدث أصلا، لبدا كما لو أنه كان صمتا عن الأمر فحسب..

لكن أن تحدث الرؤيا ويحدث (استسلام) إبراهيم وولده وخضوعهما للأمر إلى لحظة التنفيذ...ثم يأتي الأمر بعدم التنفيذ قبل لحظة النهاية، فإن كل هذا التصاعد يخدم قضية إلغاء القرابين البشرية مرة واحدة إلى الأبد..

عندما تتفحص شيئا داخل سياقه، تفهمه أكثر، وتفهم قصور حجج التشكيك...

* * *

تطورت البشرية ونظرتها لكثير من الأمور عبر رؤى كهذه.....

ثم يأتي من يتفلسف دون أن يبذل جهدا حتى لاستخدام محرك بحث..

ملف العنف في الإسلام

في استطلاع مؤسسة يقين عن دوافع الشك عند مسلمي أمريكا، جاءت «أفعال بعض الناس باسم الدين» في المركز الأول من حيث التأثير على جعل المسلمين يشكون بدينهم[1].

أعتقد أن النتيجة ستكون واحدة لو أجريت في الدول المسلمة، وربما بنسبة أكبر.

من السهل طبعا اتهام الإعلام العالمي بالمبالغة والتضليل والاجتزاء والتركيز على الإرهاب «فقط عندما يكون بأيادٍ مسلمة» وغض النظر عن جرائم مماثلة أو أكبر أو عدم اتهام أديان مقترفيها على الأقل.

هذا كله ممكن ووارد وصحيح أيضا.

لكن النتيجة النهائية واحدة: هناك نظرة عامة يوجهها إعلام «له أجندة».

لكن هناك أيضا عنف يقترف باسم الدين وتحت شعارات دينية، كثير من الجرائم التي تقترف من أطراف أخرى تتكتم عليها هذه الأطراف، وتصر على إنكارها، وهناك جرائم أخرى تقترف دون أن يذكر مرتكبوها شعارات «دينية»، بينما العنف الذي يتهم الإسلام به (والذي الغالبية الساحقة من ضحاياه مسلمون أيضا) يقترف من قبل فاعليه مع الفخر والإعلان، ومصحوبا بنصوص دينية يفهم منها أنها مصدر هذا العنف، وكل هذا يجد من يهلل له ويؤيده بين صفوف الجماهير، للأسف الشديد.

هذا العنف باسم الدين، والذي يتخذ في أحيان عديدة أشكالا شديدة البشاعة والقسوة في تفاصيلها، يضيف أبعادا جديدة لمشكلة الشر في العالم حيث يتحول السؤال من: لماذا سمح الله بوجود الشر في العالم؟

إلى سؤال أكثر قسوة وصعوبة: لماذا أمر الله بهذا الشر؟

---

(1) What Causes Muslims to Doubt Islam. A quantitative Analysis page 7

https://1pjhft3ggnei4el40qfi16ch-wpengine.netdna-ssl.com/wp-content/uploads/2018/02/FINAL-What-Causes-Muslims-to-Doubt-Islam_-A-Quantitative-Analysis.pdf

Page 7

وإذا كان مسلمو أمريكا قد تعرضوا للأمر - عن بعد، وبسبب الضغط الإعلامي غالبا- فإن الملايين في بلداننا عانت منه وعاشته وغرقت فيه على نحو مباشر.

وكان من الطبيعي أن يتبادر هذا السؤال إلى أذهان الكثيرين من أقارب الضحايا، أو من المهددين بأن يكونوا الضحية القادمة..

لماذا أمر الله بهذا الشر والوحشية؟!

ثم يأتي السؤال اللاحق، شكاً بوجود إله هكذا من الأساس.

فلنراجع كل ما يقال عن هذا الأمر من جذوره.

انتشار الإسلام بالسيف

سيقال أولا أن الإسلام انتشر أساسا بالسيف.. وهذا برأي الكثيرين يضع الإسلام في قفص الاتهام والمساءلة..

وللأسف سينبري البعض للدفاع عن الإسلام ضد ما يعتقدون أنه تهمة.

وغالبا ما يكون هذا الدفاع محاولة فاشلة لجعل التاريخ الإسلامي ناصع البياض، مع فراشات زهرية اللون وطيور حب تزقزق في الحاشية.

ولأن المحاولة ركيكة ومتناقضة مع الكثير من الحقائق التاريخية التي يُفتخر بها في مناسبات أخرى، فالأمر لا ينتهي بالفشل فحسب، بل ينتهي إلى الأثر العكسي، فعندما تدافع عن الإسلام بشراسة ضد هذا القول، فهذا يعني ضمنا أنك تؤيد أن ما تنفيه هو جريمة وتهمة.. وعندما تفشل في دفاعك لأسباب كثيرة...فأنت عمليا زدت الأمر سوءا.

لا داعي للدفاع..

نعم الإسلام انتشر فعلا في بعض المناطق بالسيف.

وهناك مناطق كثيرة جدا، ومهمة جدا، وذات ثقل سكاني مهم مثل جنوب شرق آسيا وسواحل أفريقيا لم ينتشر فيها بالسيف، بل عبر التجارة[1].

لدينا الحالتان إذن...وعدد المسلمين الذين يعيشون في مناطق أسلمت بسبب التجارة والدعوة أكثر بكثير من الذين أسلموا في مناطق أسلمت بعد معارك حربية...فلا داعي للتشنج والتحسس من الأمر.

لكن لا داعي أيضا لإنكار أن الإسلام قد توسع وقوي بالفتوحات العسكرية لأن هذا الإنكار فيه تجاهل ليس لحقائق التاريخ الواضحة، بل التجاهل الأكبر هو لحقيقة أن كل تاريخ الإنسانية، منذ أن بدأ التاريخ، وحتى اليوم، كان مليئا بالحروب، ورغم أن الأمر ليس جميلا، ورغم أننا كلنا نتمنى لو كان التاريخ أقل عنفا ودموية، إلا أن هذا هو الواقع للأسف الشديد...

---

(1) Trade and Geography in the Origins and Spread of Islam Stelios Michalopoulos, Alireza Naghavi, Giovanni Prarolo NBER Working Paper No. 18438 Issued in October 2012, Revised in June 2017 https://www.nber.org/papers/w18438.pdf

منذ أن قتل قابيل هابيل إلى عهد الديمقراطية الليبرالية، الحروب كانت ملازمة للتاريخ، ومحركة له أيضا حيث ساهمت في دوران عجلة التدافع بين البشر، وبمعزل عن الشعارات المستخدمة والأهداف المعلنة.. فقد كانت الحروب موجودة دوما.

قائمة الحروب للألف الميلادي الأول[1] تغطي معظم السنوات الألف، أطول فترة لم تسجل فيها حروب (وربما كانت فيها حروب ولكن لم تذكرها السجلات التي وصلت) كانت لمدة ١٦ سنة فقط بين ٢٦ و ٤٢ ميلادية، هذا هو تاريخ العالم كله.

لماذا على تاريخ المسلمين أن يكون مختلفا؟

ما حدث مع انتشار الإسلام، حدث تقريبا مع المسيحية.

المسلمون بدأوا ضعفاء، ثم أسسوا دولة، الدولة توسعت عبر حروب وانتشر الإسلام عبر توسع الدولة.

مع المسيحية كانت الخطوات متشابهة ولكن ترتيبها مختلف، كان المسيحيون الأوائل ضعفاء ومستضعفين ضمن إمبراطورية وثنية وبقوا كذلك لقرون ثلاثة، ثم فجأة يتحول الإمبراطور قسطنطين[2] إلى المسيحية، فيتحول إلى الراعي الرسمي لها، وتصبح المسيحية هي الديانة الرسمية لكل الإمبراطورية الرومانية - التي توسعت عبر الحروب. وسرعان ما تصدر القوانين التي تحارب الوثنية (الديانة السائدة والرسمية في الإمبراطورية قبل تحول قسطنطين)، ويتدرج الأمر من منع بناء معابد وثنية جديدة، إلى منع أداء شعائر وتقديم قرابين، إلى مصادرة أملاك المعابد وثرواتها[3] ومن ثم ترك أبوابها مفتوحة للسماح بالنهب والتدمير، فترة قسطنطين عموما لم تشهد قتلا للوثنيين بسبب عبادتهم للأوثان، وكانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية في الإمبراطورية، لكن هذا الأمر حدث مع ابنه قسطنطين الثاني الذي

---

(1) List of wars before 1000 - Wikipedia

(٢) قسطنطين الأول (٢٧٢م - ٣٣٧م) حكم من ٣٠٦ م إلى ٣٣٧م، يعتبر واحد من أهم الأباطرة الرومان حيث خاض حروبا كثيرة خرج منها منتصرا وقام بإصلاحات إدارية كثيرة، يعرف بكونه قد تحول للمسيحية وغير بذلك ديانة الإمبراطورية. كما أنه هو من أمر بعقد مجمع نيقية الشهير ٣٢٥ ميلادية الذي حدد شكل الديانة المسيحية حتى اليوم عبر ما يعرف بقانون الإيمان الأول وناقش المجمع طبيعة السيد المسيح في الخلاف المعروف مع آريوس كاهن الإسكندرية، وليس صحيحا ما هو منتشر أن الأناجيل القانونية قد حددت في هذا المجمع، بل حدث ذلك لاحقا وبالتدريج لغاية ٣٦٧م.

(3) The Christianization of The Roman Empire Under Constantine, Daniel Paradis. Honors Thesis submitted to the Department of History, Georgetown University. Page 39

https://repository.library.georgetown.edu/bitstream/handle/10822/1043670/Paradis_409_thesis.pdf?sequence=1

أمر بقتل كل من يتعبد للأوثان أو يقدم لها القرابين[1]، مع نهاية القرن الرابع الميلادي كانت الوثنية قد منعت فعليا، وكان الموت هو عقوبة ممارسة الشعائر الوثنية، مع مصادرة الأملاك، حتى لو كانت الشعائر تؤدى داخل المنزل[2].

إذا لم يكن هذا «انتشارا بالسيف» فبم إذن؟

هذا ليس انتقاصا من المسيحية، لأن الأمر ليس انتقاصا من الإسلام، في الحالتين كان الأمر مرتبطا بـ «سياسة دولة «أكثر من ارتباطها بالدين الذي انتشر بالفعل من خلال هذه السياسة.

واليهودية كانت معروفة في فترة نشوئها الأولى بأنها ديانة قبائل محاربة[3] ونصوص ذلك لا تزال شديدة البروز في العهد القديم من الكتاب المقدس، ولولا أنها ديانة «قومية» لا تنتشر بالدعوة، لكانت انتشرت كذلك بالسيف.

البوذية أيضا – رغم أن نصوصها هي الأكثر مسالمة بين الأديان- فقد انتشرت أولا عبر دعم ملوك فرضوها بالقوة على سكان الهند، الملك أشوكا – وهو أول امبراطور بوذي ويعتبر أول من ساعد في نشر البوذية في العالم- مثلا قتل ١٨٠٠٠ من أتباع الديانة اليانية فقط لأنهم لم يحولوا ديانتهم إلى البوذية[4]. أكثر من هذا فإن المغول (المعروفين بدمويتهم) ساهموا في نشر البوذية في الصين وتثبيتها في التيبت، حيث قاموا بتعيين رهبان بوذيين لنشر التعليمات البوذية في الصين لتسهيل حكمهم للصين[5].

الهندوسية أيضا انتشرت في القارة الهندية بواسطة سلالة غوبتا التي حكمت بين ٣٢٠ ميلادية و ٥٢٠ ميلادية وكان دعم السلالة للهندوسية مؤثرا على وجود الديانة المنافسة وهي البوذية[6]، ورغم أن الهندوسي الأشهر في العصر الحديث هو غاندي المعروف بلا عنفيته، إلا

---

(1) Persecution of pagans in the late Roman Empire - Wikipedia

(2) The last pagans of Rome,Alan Cameronm, Oxford University Press.2011, pp 72-73

(٣) العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح٢٠

(4) The Legend of King Aśoka: A Study and Translation of the Aśokāvadāna John S.Strong Buddihst tradition series p232

http://www.worldfuturefund.org/Reports/BWAR/buddhismwar.html#1

(5) The Mogols in World History, Asian Topics in World History, Colombia History. http://afe.easia.columbia.edu/mongols/main/transcript.pdf

(6) The Gupta Dynasty https://depts.washington.edu/silkroad/exhibit/guptas/guptas.html

أن الهندوسية في تعليماتها - مثل كل الأديان- لديها نصوص وتعليمات صريحة عن «الحرب العادلة» بعيدة عن هذه الصورة الغاندية[1].

هذه إذن الأديان الأكثر انتشارا اليوم وكلها تشترك في أن جزءا من انتشارها كان مرتبطا بالسلاح (الحروب) أو بالسلطة التي فرضت الدين بالقوة.. ولا أجد فرقا كبيرا بين الحالتين.

الكل في هذا سواء، واختيار الإسلام تحديدا لانتقاده على هذه المسألة يوحي كما لو أن الأديان الأخرى انتشرت عن طريق جمعيات حقوق الإنسان، وهو أمر غير صحيح على الإطلاق.

قد يقول قائل: كل الأديان إذن تشترك في هذا؟ أليس من الأفضل تركها كلها؟

لا. كل التاريخ بأديان وبلا أديان كان هكذا.

بغض النظر عن أي شعار، سواء كانت الكشوفات الجغرافية، أو طريق الحرير، أو طريق التوابل، أو البحث عن منافذ تجارية جديدة، أو اكتشاف قارة جديدة، أو الثورة الصناعية، أو الرأسمالية، أو الاستعمار أو منابع النفط أو الشيوعية أو النازية أو الديمقراطية أو الليبرالية أو «النظام العالمي الجديد»...كل هذه، مثلها مثل الأديان، استخدمت الحروب في الانتشار وفي بسط نفوذها وفي الدفاع عن وجودها، فإن كنت ترغب في ترك الإسلام أو كل الأديان بسبب استخدامها للحروب في تاريخ نشوئها، فعليك أيضا أن تترك كل منتجات الحضارة الإنسانية، وكل أنماط حياتها المعاصرة، وأنت غالبا تنتمي لواحد منها..

هل الفتوحات مجرد حروب أخرى؟

حسنا، هل نقول هنا أن الفتوحات الإسلامية التي تعودنا تمجيدها وتقديسها هي مجرد حروب مثل كل الحروب الأخرى التي مر بها العالم؟

فتوحات أو حروب أو استعمار، التسميات مجرد توصيف هنا.

لكن الفتوحات كانت سياسة «دولة»، كانت جزءا من تاريخ المسلمين، وليست بالضرورة جزءا من الإسلام.

وعلينا أن نفرق تماما بين الاثنين، بين تاريخ نحترمه ونفهمه ونستلهم منه الكثير، وبين دين نقدسه ونؤمن به.

(1) THE CONCEPT IN HINDUISM OF 'JUST WAR' Surya P. Subedi Journal of Conflict & Security LawVol. 8, No. 2 (October 2003), pp. 339-361

ولو دققنا في تاريخ الفتوحات، لوجدنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن يريد أن يتجاوز العراق إلى فارس، نعم العراق وبلاد الشام كانت مهمة بالنسبة للدولة الناشئة لأنها امتداد وعمق للجزيرة العربية، لكن عمر رضي الله عنه كان يريد أن يتوقف عند هذه الحدود، الجزيرة إلى جنوبها، العراق شمال شرق الجزيرة، وبلاد الشام شمالها وشمالها الغربي، وكان يقول بوضوح: **وددت أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم**[(١)] وكانت أوامره واضحة بعدم «الانسياح في الجبل»[(٢)]وهو جبل زاغروس الذي تصور عمر رضي الله عنه أنه يمكن أن يكون حدودا طبيعية فاصلة بين العرب والفرس،ولم تتوغل جيوش المسلمين في فارس إلا بعد أن انهارت الدولة الساسانية عقب هزيمة الفرس في معركة نهاوند، والتي لم يدخلها عمر بالأساس إلا مضطرا عقب تجمع جيوش الفرس فيها، ..وهكذا كان لا بد من ملء الفراغ الذي لم يكن أحد يرغب في وجوده على الحدود مع الدولة الناشئة...

بل إن محاولات عمر في إقناع أهل المدينة لحرب الفرس ابتداء، وترددهم في ذلك لعدة أيام[(٣)] كانت تؤكد أيضا أن الفتوحات كانت وقتها قرارا سياسيا إداريا - ثبت صوابه بالتأكيد- ولكنها لم تكن شأنا دينيا.. لقد استخدم معهم كل وسائل الإقناع وصولا إلى استثمار «العصبيات القبلية» مما يعني أن الأمر لم يكن دينيا «ملزما» كما يفهم الأمر اليوم.

وكذلك عمر كان مترددا في فتح مصر، بل إنه أرسل إلى عمرو بن العاص يطلب منه العودة إن لم يكن قد دخلها[(٤)]، وهو ما يعني بوضوح أن عمر بن الخطاب لم يكن متحمسا لتوسيع الدولة خارج حدود جزيرة العرب وامتداداتها الطبيعية.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرغب في تقوية الدولة الجديدة وتحصين وضعها، لكن <u>التوسع إلى نهاية العالم لم يكن ضمن خطته على الإطلاق.</u>

ليس علينا أن نخجل من تاريخنا هذا، فهو مثل كل تاريخ الإنسانية، فلا داعي لوضع شعارات رومانسية مثل التي يروجها بعض الدعاة من أن هدف المسلمين كان إيصال رسالة المسلمين وكانت جيوش العدو تقف حائلا دون ذلك، فكان لا بد من الحرب معها. انتشار الإسلام كان يحدث بكل الأحوال، ولكن الحرب كانت أمرا أعقد بكثير من هذه السذاجة.

---

(١) تاريخ الطبري الجزء ٤ صفحة ٧٩

(٢) تاريخ الطبري الجزء ٤ صفحة ١٣٢

(٣) البداية والنهاية الجزء ٧ صفحة ٣٢-٣٣

(٤) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء الجزء ٤ صفحة ٧-٨

في الوقت نفسه، علينا أن لا نسقط في فخ تقديس هذا التاريخ واعتبار أن هذا القرار السياسي الإداري يجب أن يستمر إلى الأبد، وأن الوضع الطبيعي هو غزو العالم.

* * *

لكن إذا كان الأمر كله سواء في النهاية، فما الذي يميز الإسلام وحروبه؟

في الحقيقة أن نظرة سريعة على قائمة المجازر الكبرى في التاريخ- والمقصود هنا المجازر التي يذهب ضحيتها عدد يتجاوز الألف من المدنيين وليس الجنود في ساحة القتال(١)- سنجد فيها غياب مهم للمسلمين، إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، حيث قام سلطان دلهي غياث الدين بلبان بقتل الهندوس من قبائل راجبوت جنوب دلهي(٢) (وهو أمر لا يمكن أن يحسب على انتشار الإسلام أساساً(٣)). وكذلك حدثت مجازر متبادلة مع الصليبيين في نفس القرن، تحديدا في ١٢٩١م عندما اجتاح المماليك مدينة عكا التي كانت بيد الصليبيين(٤)، الذين كانوا أسبق في المجازر منذ دخولهم القدس في ١٠٩٩م.

في القرن الثالث عشر الميلادي، بعد ستة قرون من ظهور الإسلام وتوسع دولته.

بعبارة أخرى: لم ترتكب مجازر أثناء انتشار الإسلام.

كانت هناك معارك ويسقط فيها قتلى بطبيعة الحال، وكانت هناك أخطاء وحالات حدثت فيها تجاوزات بالتأكيد، كما سيحدث في أي تجربة بشرية، لكن لم تحدث مجازر ينتقم فيها من المدنيين خلال فترة انتشار الإسلام وتوطيد أركانه، علماً أن قائمة المجازر الكبرى تضم مجازر سبقت الإسلام في أماكن مختلفة من العالم، أي أن الأمر لا علاقة له بقلة عدد السكان في ذلك الوقت.

---

(1) List of events named massacres - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_events_named_massacres

(2) List of massacres in India - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_massacres_in_India#Pre-colonial_India

(٣) البعض يشير إلى أن محمود الغزنوي حاكم الدولة الغزنوية قد ارتكب مذابح أثناء توسعه في الهند في القرن الحادي عشر للميلاد، ولكن لم أجد أي مصادر تاريخية مبكرة تشير إلى ذلك تحديدا، رغم أن غزواته وردت بالتفصيل وأكثر ما ورد فيها حدوث نهب وسلب للمعابد الهندوسية لكن لم يأت ذكر مذابح أو مجازر للمدنيين.

(4) The Siege of Acre, 1291 CE - Ancient History Encyclopedia
https://www.ancient.eu/article/1267/the-siege-of-acre-1291-ce/

حروب نعم، لكن مع معايير أفضل

ما الذي يعنيه هذا؟

يعني أنه كان ثمة قيم أخلاقية في حروب المسلمين تلك. قيم أخلاقية ونوع من العدالة النسبية مقارنة بكل ما كان يحدث في تلك العصور[1]، بل وأيضا بالمقارنة بعصور قريبة[2]. وهذا شيء مهم.

الحروب حقيقة، لا يمكن التهرب منها.. ومقولة (الإسلام انتشر بالسيف) ليست تهمة بالمطلق، فبعض الإسلام انتشر عبر الحروب فعلا، لكن هل كان سكان المناطق المفتوحة يجبرون على اعتناق الإسلام تحت تهديد السيوف؟ لم يحدث قطعاً، أصحاب الأوثان وحدهم كان عليهم اختيار أي دين كتابي (بضمنها الإسلام) وحتى المجوسية عوملت كدين كتابي ولم يجبر معتنقوها على ترك ديانتهم[3] كذلك عومل الهندوس[4] والبوذيين بنفس الطريقة[5].

بالتأكيد كانت الجزية أحيانا تشكل عامل ضغط اقتصادي يدفع إلى اعتناق الإسلام، كما أن ظاهرة تقليد المنتصر عملت فعلها بالتأكيد في جعل الكثيرين يعتنقون الإسلام...

لكن فكرة السيف مسلط على رأسك لتسلم، والتي طبقت على المسلمين واليهود في الأندلس بعد سقوطها بيد فرديناند وإيزابيلا[6]، لم تكن موجودة إطلاقا.

إذن مقولة (الإسلام انتشر بالسيف) تعبر عن جزء صغير جداً من حقيقة أكبر..

وتفحصها لا يجعل منها تهمة على الإطلاق..

---

(1) Crusade Vs. Jihad: Which Is Worse? Jay Rubenstein 19Dec 2011 | HuffPost https://www.huffingtonpost.com/jay-rubenstein/crusade-vs-jihad-was-one-_b_1146871.html?ref=religion

(2) J.Glubb: A Short History of Arab Peoples; p.48

(٣) صحيح البخاري ٣١٥٦

(٤) مفهوم العلاقات بين المسلمين والهندوس في عصر سلطنة ديلهي . صاحب عالم الأعظمي الندوي.مجلة التفاهم العدد ٥١ عام ٢٠١٦ صفحة ١٨٧ -٢٢٢

(5) FROM MONGOLS TO MUGHALS: RELIGIOUS VIOLENCE IN INDIA 9TH-18TH CENTURIES By Nicholas F. Gier Presented at the Pacific Northwest Regional Meeting American Academy of Religion, Gonzaga University, May, 2006 https://www.webpages.uidaho.edu/ngier/mm.htm

(6) Forced conversions of Muslims in Spain - Wikipedia

عمليات «قتل»
في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام؟

يحاول البعض تقديم صورة متطرفة في سلميتها ووداعتها للرسول عليه الصلاة والسلام، غالبا كرد فعل على صورة متطرفة في الاتجاه الآخر حيث يحاول البعض تقديمه فيها كشخص متعطش لدماء خصومه.

لكننا لسنا بحاجة إلى تزييف صفاته أو تغطية بعضها.

إنه الإنسان الأكمل، كما نؤمن نحن.

وعندما أقول الأكمل فإني أعني أكمل من ناحيتين..

من حيث أنه النبي...

ومن حيث أنه الإنسان، القائد، رجل الدولة.

وأولئك الذين يحاولون التعرض له يضعون كاتالوغا خاصا يملئونه بمواصفات خاصة عن كيف يجب أن يتصرف النبي...

ثم يقارنون الكاتالوغ في أذهانهم بسيرة الرسول الكريم، فيصرخون ويولولون: هذا نبي؟

نعم، هذا نبي، ومن أين جئتم بما يجب أن يفعله النبي وما يجب أن لا يفعله. كيف قررتم أن النبي يجب أن يتصرف بالطريقة التي تريدونها....

من أنتم؟ من أنتم حقا؟

نعم، كان نبي الرحمة وكان نبي الإنسانية بلا شك.

لكن كان لا بد من حماية الرحمة والإنسانية وتثبيتها بالحزم والشدة أحيانا.

وهذا ما كان.

أمر مؤسف طبعا أن العالم لا يسير دوما بالرحمة والإنسانية وأن الشدة مطلوبة، والحرب أحيانا مطلوبة، ولكن هذا هو الواقع. العالم لا يسير طبقا لأمنياتنا وأحلامنا.

وكل ما يمكن أن نفعله حقا، هو أن تقنن هذه الشدة، أن لا تستخدم بإفراط...أن تكون في موضعها دون إسراف، إما لقصاص...أو لمنع حدوث قتل أكثر...

بعد أن قلنا هذا، يمكننا أن نستعرض القائمة التي يستخدمها البعض للطعن في الرسول عليه الصلاة والسلام....قائمة من أمر عليه الصلاة والسلام بقتلهم علما أن القائمة فيها أحداث لا تصح، وأنها تستخدم من طرفين قد يبدو أنهما مختلفان.

الطرف الأول الملحدون الذين يستخدمون هذه القائمة للتدليل على ما يتهمون الرسول عليه الصلاة والسلام به من إجرام- حاشاه.

الطرف الثاني - هم الدواعش وأشباههم، ويستخدمون نفس القائمة ولكن لتبرير جرائمهم، علما أنها مختلفة تماما في السياق والدوافع.

من في هذه القائمة...

أولا -كعب بن الأشرف كان عربيا من بني نبهان ثم من طيء وأمه يهودية من بني النضير، وكان سيدا عند أخواله[1] وعلاقته بقريش سبقت قدوم النبي إلى المدينة[2] وما فعله كعب هو أنه استشرف بعد معركة بدر أن الإسلام سيتوسع على نحو لم يكن اليهود قد توقعوه في بداية قدومه عليه الصلاة والسلام، لذا فقد ذهب إلى قريش يؤلبهم ويؤلف الأشعار في تحريضهم[3]..وكانت المدينة بعدها لم تستقر بعد بسبب وجود المنافقين، وكان شعره مسيئا للرسول ومحرضا عليه، فتم قتله فعلا ببناء على أمر منه عليه الصلاة والسلام[4] كانت عملية قتله نزعا لفتيل فتنة قادمة.

علما أن الوثيقة التي حددت العلاقة بين المسلمين واليهود قد عقدت بعد هذه الواقعة تحديدا في ٢ هجرية، وليس أول الهجرة كما هو منتشر. فبعد قتل كعب ذهب اليهود واشتكوا إلى الرسول مقتل كعب وهو من سادتهم، فأشهدهم الرسول على أشعاره التي كانت تحرض ضد الرسول عليه الصلاة والسلام، ودعاهم إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابا، هو ما عرف لاحقا بالصحيفة[5].

---

(١) سيرة ابن اسحاق الجزء ١ صفحة ٣١٧

(٢) السنن الكبرى للنسائي ١١٦٤٣

(٣) السنن الكبرى للبيهقي١٨٦٣٠

(٤) صحيح البخاري ٤٠٣٧

(٥) سنن ابو داود ٣٠٠٠

ثانيا -سلام أبو رافع بن أبي الحقيق وكان من كبار أثرياء اليهود وشارك في تمويل غزوة الأحزاب ضد المسلمين[١] وكانت هذه المشاركة نقضا للاتفاق السابق، فأرسل له عليه الصلاة والسلام سرية تسللت إلى حصنه فقتلته منفردا دون قتل أي فرد من أسرته أو عشيرته[٢].

ثالثا -الأسود العنسي، الذي كان قد ارتد وادعى النبوة وأخضع له أهل اليمن ومثل هذا تمرد واضح على دولة المدينة، وإخماد التمرد بحادثة قتل فردية ساهم فيها أهل بيت الأسود أنفسهم، أفضل بكثير من حدوث مواجهة عسكرية بكل خسائرها وضحاياها وامتداد حروب الردة إلى صنعاء، وقيل أنه قتل ليلة وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ووصل خبره إلى المدينة بعد تولية أبي بكر رضي الله[٣]، وقصة أن رأسه حمل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منكرة وضعيفة، كما أنه لم يذكر أبدا أن الرسول قد أمر بقتله.

رابعا- شخص مجهول! كان عينا (جاسوسا) من المشركين، وكان الرجل قد دس نفسه بين الصحابة وهم في سفر مع الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم تركهم، وكان من الواضح أنه سينقل تحركات الرسول ومن معه للمشركين، مما يعرضهم جميعا للخطر..وكان قتل هذا الجاسوس يقيهم ذلك[٤].

خامسا- رجل أعمى لم يذكر له اسم قتلت أم ولد له، كانت تشتم النبي[٥] فلم يعاقبه النبي عليه الصلاة والسلام، ولعل الحادثة هذه اختلطت مع حادثة أخرى ضعيفة السند أصبحت القتيلة فيها يهودية مجهولة الاسم كانت تشتم النبي وتقع فيه، فخنقها رجل (كانت تخدمه) حتى ماتت[٦] ولم يعاقبه عليه الصلاة والسلام...وبكل الأحوال الحادثتان جنائيتان ولم يأمر عليه الصلاة والسلام بالقتل.

سادسا-خالد بن سفيان الهذلي، الذي كان يجمع قبائل هذيل ليغزو المدينة عقب غزوة أحد، فأوعز الرسول عليه الصلاة والسلام بقتله[٧] لإحباط الهجوم المرتقب أي أن قتله كان عملا استباقيا يمنع حدوث مواجهة مسلحة في وقت لم يكن فيه وضع المسلمين مناسبا لمواجهة شاملة، علما أن

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي١٨٠٩٤

(٢) مختصر صحيح الإمام البخاري ١٧١٢

(٣) فتح الباري الجزء ٨ صفحة ٩٣

(٤) صحيح البخاري ٣٠٥١

(٥) سنن أبي داود ٤٣٦١

(٦) ٤٣٦٢ سنن أبي داود

(٧) سنن أبي داود ١٢٤٩

الرجل الذي قتل خالد بن سفيان وهو الصحابي عبد الله بن أنيس تأكد من نيته في الهجوم على المدينة قبل أن يقتله[١]. بكل الأحوال السند الذي فيه ذكر هذا الشخص وهذه الواقعة لا يصح.

سابعا - الحارث بن سويد بن الصامت وهو أنصاري من سادة بني عوف من الأوس، وكان والده سويد قد قتل في الجاهلية على يد مجذر بن زياد من الخزرج (قتله مجذر ثأرا لوالده الذي قتله سويد في يوم بعاث)، ثم جاء الرسول عليه الصلاة والسلام وأسلم الطرفان الحارث ومجذر) وشهدا بدرا، ولما حدثت الفوضى في يوم أحد خيل للحارث أنه إن قتل مجذر لن يعرف من هو القاتل لكثرة القتلى بين المسلمين، فوثب عليه وقتله غيلة. لكن الرسول عليه الصلاة والسلام علم بالأمر وتحقق منه من الحارث الذي اعترف بالأمر فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقتله بدم مجذر[٢].

ويقال في رواية أخرى أن الحارث بن سويد بعد قتله مجذر ارتد وذهب إلى كفار مكة وأسلم عند الفتح، ولكنه عليه الصلاة والسلام اقتص منه بدم مجذر[٣].

هذه الحادثة كان يمكن لها أن تبعث ثارات الأوس والخزرج وتبدأ سلسلة انتقامات لا نهاية لها، لذا فالاقتصاص من القاتل الأخير من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام (وليس من قبل ذوي القتيل) ينهي المسألة ويشعر الجميع بأن الحق في تطبيق القصاص صار تابعا لمنظومة مختلفة تماما عن المنظومة العشائرية.

ثامنا- أبو عفك وهو من أشياخ بني عوف من الأوس وصار يذكر شعرا في التحريض على الرسول عليه الصلاة والسلام بعد قتل الحارث بن سويد وكان التحريض يثير مجددا النعرات بين الأوس والخزرج بسبب طبيعة مقتل الحارث بن سويد، فأمر عليه الصلاة والسلام بقتله، والحادثة كلها ضعيفة السند[٤].

تاسعا- عصماء بنت مروان وهي من بني أمية بن زيد من بني عوف من الأوس، وزوجها من بني خطمة من الأوس أيضا، وذكر أنها كانت تعيب الرسول عليه الصلاة والسلام في شعر لها[٥]، لكن ما وصل من هذا الشعر يبين أن الأمر يتجاوز ذلك، بل هو تحريض على

(١) مسند أحمد ١٦٠٤٧

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ١٦٠٦١

(٣) الإصابة بتمييز الصحابة الجزء ٥ صفحة ٢٥٣

(٤) الروض الأنف تحقيق السلامي الجزء ٧ صفحة ٥٤٨

(٥) مسند الشهاب القضاعي ٨٥٨

النزاع القديم بين الأوس والخزرج وبلغة شديدة البذاءة، كما أن الإشارة إلى «مقتل الرؤوس» في شعرها (تَرَجّوْنَهُ بَعْدَ قَتْلِ الرؤوس)[1] يدل على أن السياق كان مرة أخرى بعد قتل الحارث بن سويد (الأوسي) قصاصاً لقتله مجذر (الخزرجي)، أي أن الأمر يتجاوز «الهجاء الشخصي» للرسول عليه الصلاة والسلام إلى إثارة نعرة الثأر والانتقام بين الأوس والخزرج، ومن المهم أيضا هنا أن ننتبه أن قتلها كان على يد أقارب زوجها من الأوس أيضا كي لا يطالب أحد الخزرج بدمها.

أسانيد الحادثة كلها لا تخلو من ضعف لكنها وردت في أماكن كثيرة مما يرجح حدوثه. تفاصيل القتل فموضوعة [2] أي أن المناحة المنصوبة على حقوق الإنسان في أن قتلها كان أثناء إرضاعها لطفلها لا أساس لها من الصحة.

الحوادث الثلاثة الأخيرة (الحارث، أبو عفك، عصماء) كانت كلها في إطار منع فتنة كبيرة بين الأوس والخزرج.

عاشرًا - أم قرفة الفزارية: وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر زوج مالك بن حذيفة بن بدر وكانت «معظمة» عند بني فزارة، وقال عنها البعض أنها كانت «ملكة رئيسة»[3] بينهم وقيل أنها كانت تضع «خمسين سيفا في بيتها لخمسين فارسا كلهم من محارمها» ولهذا سار المثل: أمنع من أم قرفة[4]. وأخبار مقتلها كلها ضعيفة ومتضاربة، وهي بين أنها ارتدت في حياة النبي وسيرت أربعين من أولادها وأحفادها لقتاله عليه الصلاة والسلام[5] في غزوة سميت بـ «وادي القرى» بقيادة زيد بن حارثة[6] أو أن ذلك حدث بعد أن قامت قبيلتها بقطع الطريق على قافلة للمسلمين إلى الشام وكان فيها زيد بن حارثة[7]، وبين أن الواقعة كلها حدثت بعد وفاة النبي في عهد أبي بكر الصديق[8] عندما ارتدت قبيلتها وحاربت إلى جانب طليحة الأسدي[9].

---

(١) مغازي الواقدي الجزء ١ صفحة ١٧٢

(٢) سلسلة الأحاديث الموضوعة ٦٠١٣

(٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية الجزء ١ صفحة ٣١٠

(٤) الروض الأنف الجزء ٧ صفحة ٥٢٨

(٥) تاريخ دمشق لأبن عساكر٤٤٨٩

(٦) مستخرج أبي عوانة الجزء ١٥ صفحة ٦٦

(٧) المغازي الجزء ٢ صفحة ٥٦٤

(٨) سنن الدارقطني ٣٢٠٢

(٩) الروض الأنف الجزء ٧ صفحة ٥٢٨

ولا بد لأم قرفة أن تكون قد ماتت مرة واحدة فقط! علما أن بعض الأخبار تفيد بأن ابنتها (أم زمل) أيضا تسيدت قومها كأمها وأنها هي التي ارتدت بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وقاتلها وقومها خالد بن الوليد[1].

أما طريقة قتلها فقد قالت الروايات «الضعيفة أيضا» أنها كانت «قتلة عنيفة» وذلك عبر «رَبَطَ بِرِجْلَيْهَا حَبْلَيْنِ ثُمَّ رَبَطَهُمَا إِلَى بَعِيرَيْنِ حَتَّى شَقَّاهَا»[2].

اختلفت الروايات أيضا فيمن قتلها: أبو بكر الصديق (عبر الأمر بذلك)، زيد بن حارثة، أو قيس بن المُسحَر.[3] وهذا الأخير - لو صحت هذه الروايات- يكون صحابيا لم نعرف عنه غير هذه الواقعة وحتى اسمه مختلف عليه: قيس بن المُسحَر أو قيس بن المُحَسر[4].

كل ما جاء في مقتل «أم قرفة» كان عبر أحاديث ضعيفة، لكن فلنفترض حدوث الواقعة بالفعل، علينا أن نتذكر:

أولا- أنها كانت «رئيسة قومها» وأنها بادرت بالعدوان إما بأنها سيرت المقاتلين لمحاربة الرسول عليه الصلاة والسلام، أو أنها أمرت بقطع الطريق على قوافل المسلمين ونهب متاعهم، أو أنها كانت ضمن «المرتدين بعد وفاة النبي وحاربت مع «طليحة الأسدي»... هل كونها «امرأة» يجب أن يعفيها عن المحاسبة والعقوبة؟! أين المساواة؟!

ثانيا- إذا كانت المشكلة في طريقة القتل، فلا يوجد أي إشارة إلى موافقة الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك - في حالة حصوله أصلا، فكل ما ذكر كان عبر أحاديث ضعيفة.

ثالثا - لا نعرف تحديدا متى كان نهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن «المثلة»[5] - أي قطع عضو من الجسم حيا كان أو ميتا - فربما كانت هذه الحادثة حادثة فردية وقد وصلته فنهى عليه الصلاة والسلام عن ذلك.

رابعا- تفيد الأخبار بأن خالد بن الوليد قد أمر قيس بن مسحر أن يعتذر عما جرى من طريقة قتله لأم قرفة[6]، فاعتذر الأخير بقصيدة، وهذا يشير إلى أن الواقعة جرت في حروب

---

(١) البداية والنهاية الجزء ٣ صفحة ٣١٩

(٢) تاريخ الطبري الجزء ٢ صفحة ٦٤٣

(٣) المغازي الجزء ١ صفحة ٣٢٥

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب الجزء ٣ صفحة ١٢٩٨

(٥) صحيح البخاري ٢٤٧٤

(٦) الإصابة في تمييز الصحابة الجزء ٥ صفحة ٣٧٨

الردة، حيث أن سرية زيد بن حارثة في عهد النبي كانت في السنة السادسة للهجرة وقبل إسلام خالد.

خامسا- كيف يستقيم تناقض هذه الأخبار وضعفها مع مكانة أم قرفة وكونها مضرب المثل عند العرب في المنعة والعز؟ امرأة بهذه القوة تقتل بهذه الطريقة لا بد أن يتم تناقل خبرها بطريقة أكبر وأوثق.

ولو كانوا معلقين بأستار الكعبة

رغم أن المشهور هو صدور عفو عام عن المشركين يوم الفتح، إلا أن الرسول عليه الصلاة والسلام استثنى بضعة أشخاص من هذا العفو، وأمر بقتلهم: أربعة رجال وامرأتين[١]... ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة[٢].

الرجال الأربعة كانوا عبد الله بن خطل، مقيس بن صبابة، عبد الله بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل.

والامرأتان كانتا: قريبة وفرتنا وهما قينتان لابن خطل[٣].

نحتاج أن نفهم لماذا استثنى البعض من هذا العفو...

ثم إنه عفى عن بعض من أمر بقتلهم..

ونحتاج أن نفهم لماذا عفى عنهم لاحقا..

الرحمة مقننة.. والقصاص مقنن.

من هؤلاء الذين نفذ فيهم الحكم دون عفو اثنان كانت قصتهما متشابهة.

أولا-عبد الله بن خطل ومعه مغنيتان: كان قد أسلم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجمع الزكاة وبعث معه رجلا من الأنصار فقتله في الطريق وأخذ أموال الزكاة وارتد مشركا واتخذ قينتين أي مغنيتين تغنيان له بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤]...

---

(١) بعض المصادر تورد أرقاما أكبر لكنها ضعيفة ولم يصح غير هذا

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢٣٢٩

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري الجزء ١ صفحة ٣٦١

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ١٦٨٨٠

المغنيتان قريبة وفرتنا كانتا يبدو شريكتان له منذ البداية، هما الامرأتان في القائمة، واحدة قتلت فعلا وهي قريبة، أما فرتنا فجاءت لتطلب السماح بعد فترة فعفا عنها عليه الصلاة والسلام، وماتت في عهد عثمان.

وقتل عبد الله بن خطل بعد أن تعلق بأستار الكعبة معتقدا أن جدرانها ستحميه مما ارتكبه[١].

مقيس بن صبابة، كان في القائمة ونفذ فيه الحكم أيضا. وقصته تشبه قصة عبد الله بن خطل.

ثانيا -مقيس بن صبابة وجد أخاه مقتولا في أنحاء بني النجار، فاشتكى لرسول الله، فسأل الرسول بني النجار إن كانوا يعرفون القاتل فأنكروا، ففرض عليهم الدية لأنه قتل في جوارهم، فأرسلوا بالدية ١٠٠ ناقة، فقتل مقيس من أرسلوا الدية معه وأخذ الدية وساقها إلى مكة وقد ارتد مشركا...[٢]

ثالثا -عكرمة بن أبي جهل ولم يكن قد وضع لأنه ابن أبي جهل أو لشدة إيذائه للمسلمين كما يعتقد، بل لأنه ببساطة لم يقبل الصلح الذي عقده أبو سفيان مع المسلمين في فتح مكة، شهر سيفه وركب حصانه وانطلق يحارب فواجه خالد بن الوليد عند الخندمة[٣]، لم يكن وحده في ذلك إذ كان معه صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، لكنه الوحيد الذي هرب ورفض فرصة الأمان.

لم يحاول أن يستثمر فرصة الأمان العامة التي قدمها الرسول عليه الصلاة والسلام: من دخل داره فهو آمن..

وتوسطت له لاحقا زوجته...فعفا عنه الرسول عليه الصلاة والسلام وأسلم وعرف بحسن إسلامه.

رابعا-عبد الله بن أبي سرح كان مسلما وكان يكتب الوحي[٤] للرسول عليه الصلاة والسلام فيغير بما شاء ثم ارتد ورجع إلى مكة. وكان أخا لعثمان بن عفان بالرضاعة وتوسط له عثمان فعفا عنه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سنن النسائي ٤٠٦٧

(٢) شعب الإيمان ٢٩٢

(٣) سيرة ابن هشام الجزء ٢ صفحة ٤٠٧

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ١٦٨٨٠

هناك أيضا من يضع الحويرث بن نقيد مكان عكرمة[1] وكان قد تعرض لزينب بنت الرسول بينما كانت تغادر مكة إلى المدينة، فنخس جملها فسقطت عنه على صخرة، وكانت حاملا فأسقطت، وبقيت مريضة إلى أن توفت في المدينة[2].

الحويرث قتله علي يومها.

ما الذي يجمع بين من لم يعف عنهم؟

الدم!

كل من لم يعف عنهم اشتركوا بجريمة قتل.. ابن خطل قتل الأنصاري الذي كان معه يجمع الزكاة، ويبدو أن الجارية شاركته بالجريمة أو أعانته عليها...

مقيس قتل الشخص الذي جاء له بالدية...

والحويرث تسبب في موت زينب بنت الرسول عليه الصلاة والسلام...

من ناحية أخرى، طال العفو حتى أولئك الذي تلاعبوا في القرآن...والذين حاولوا كسر صلح أبي سفيان...

صدر الحكم عليهم نعم...لكن العفو.

لكن مع من تورط بقتل ..بدم.. فلا...

* * *

فلننتبه أن كل هذه الأسماء التي قتلت كان قتلهم نتيجة لواحد من الأسباب التالية:

أولا- لتورطهم في تمويل الحرب أو تحريض كفار مكة عليها (كعب بن الأشرف وسلام بن رافع).

ثانيا- الإعداد المباشر لها (الأسود العنسي وخالد بن سفيان الهذلي وأم قرفة).

ثالثا -الاشتراك في قتل مباشر في غير ساحة القتال (عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة والحويرث بن نقيد).

رابعا - استثارة ثارات الأوس والخزرج (الحارث بن سويد، أبو عفك، عصماء بنت مروان).

---

(١) سنن الدراقطني ٢٧٩٣

(٢) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس جزء ١ صفحة ٣٩٢

لسنا واثقين من مشاركة قريبة مغنية عبد الله بن خطل في جريمة قتل الأنصاري، لكن غالبا لم يكن الأمر بعيدا عن النسق السائد في الأمر.

ولننتبه أن ذلك كان صادرا عن شيء أشبه بحكم قضائي.

وأنه لم يحدث أبدا قبل أن تتكون الدولة الحقيقية...لم تكن عمليات اغتيال...أو حرب عصابات.. لم يحدث شيء واحد مماثل أو مقارب قبل الهجرة....

كما لم يقتل شخص واحد غيلة جزاء لما فعله بالرسول عليه الصلاة والسلام في مكة، قبل الهجرة.

* * *

قائمة العفو الحقيقية أوسع بكثير..

هند بنت عتبة.. وحشي بن حرب...سهيل بن عمرو...حاطب بن أبي بلتعة..صفوان بن أمية.. صناديد قريش الذين ناصبوه العداء والأذى وحاصروه.. كل أهل مكة..

كل هؤلاء ..عفا عنهم..

عندما نتأمل في القائمة التي يتهمونه بها...نجدها مبررة تماما ..ثم نلتفت إلى القائمة الأوسع.. قائمة العفو...

سيقولون بالتأكيد: مهما كانت المبررات، النبي يجب أن لا يفعل ذلك.

المشكلة مرة أخرى في هذا الكاتولوغ الوهمي الذي يضعه البعض معيارا للحكم على الأشياء، من أين جاء قرار أن «النبي يجب أن لا يفعل ذلك- عندما يكون هذا الفعل صوابا»؟

فعلها عندما تحمل مسئولية المجتمع الجديد، لو أنه لم يفعلها لتضرر المجتمع واختل توازنه.

حد الردة؟

يقولون: كيف تريد مني أن أؤمن بدين يهددني بالقتل إن خرجت منه؟

كيف تريد مني أن أؤمن بدين يجبرني على أن أنافق- أن أتظاهر بالإيمان كي لا أقتل؟

كيف تريد مني أن أؤمن بدين يتشدق دعاته بأنه دين السلام والتسامح بينما هو يأمر بقتل من يجد أنه اقتنع أكثر بدين آخر.

هذا هو الحديث عما يعرف بـ «حد الردة».

وعلينا أن نعترف أن ما يقولونه فيه وجهة نظر.

ولكن علينا أن نتفحص أولا الفهم السائد للحدود ..وللردة.. فربما الخلل بدأ هناك ثم تراكم بالتدريج إلى أن وصل إلى هذه النقطة...

ما هو الحد أصلا؟ ما معنى كلمة الحد؟

الحد لغة هو المنع، وحدود الله: محارمه التي نهى عن ارتكابها وانتهاكها، قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (البقرة ١٨٧)، بتعبير معاصر الحدود هي الخطوط الحمراء التي لا ينبغي الاقتراب منها، والتي سيكون ثمة عقوبة لو حدث تجاوز لها.

ولكن كلمة حد عندما تستعمل في سياق الاستعمال المعاصر لها (وهو المعنى الذي يهمنا هنا) فهي تعني عقوبة مقدرة في الشرع.

سبعة مواضع في القرآن الكريم أشارت إلى أن (تلك حدود الله) ولكن ولا مرة منها كانت الإشارة فيها إلى ما يتبادر إلى أذهاننا عندما نقول (الحدود)..

الآيات السبع تحدثت عن آداب الزواج وآداب المسجد وأخلاقيات الطلاق والميراث.

وهناك إشارة واحدة عامة إلى (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود الله).

أما ما سيأتي في أذهاننا فسيكون غالبا مرتبطا بحدود مثل الزنا وشرب الخمر (وهما حدان واضحان في أذهاننا لارتباطهما بالحرية الشخصية والدراما المصاحبة لها)

ومؤخرا انتشر الحديث عن حد الردة.

قرآنيا: العقوبات التي حددت في القرآن هي عقوبات زنا (غير المحصن، غير المتزوج أو المتزوجة) والحرابة (قطع الطريق) والسرقة والقذف وعقوبات القصاص (القتل والجرائم المشابهة).

العقوبات الخاصة بزنا المحصن والخمر واللواط والردة لم تذكر في القرآن، وإن ورد طبعا تحريم لها..

ولو تأملنا في العقوبة الخاصة بشرب الخمر - وهي عقوبة فيها حوادث كثيرة سواء في عهد النبوة أو عهد الخلفاء لوجدنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يحدد عددا معينا من الجلدات، بل أصبح العدد أربعين في عهد أبي بكر وثمانين في عهد عمر قياسا على حد القذف.

بل إن عليا بن أبي طالب رضي الله عنه الذي عاد للأربعين كأبي بكر قال ما كنت لأقيم حدًّا على أحد فيموت فأجد في نفسي منه شيئًا إلا صاحب الخمر، ولو مات وديته؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسنه لنا[1] (أي لم يحدده أو يقدره).

وهذا يعني أن الأمر متروك للسلطة كي تحدد الضرر الناشئ وتحديد مقدار العقوبة.

وهذا يوضح سبب قول بعض العلماء بأن عقوبة شرب الخمر ليست حدا من حدود الله بل هي عقوبة تعزيرية، أي تأديبية للزجر والنهر.

يقول بهذا الكثير من العلماء مثل الطبري وابن المنذر والشوكاني.

بل ويقول به حتى بعض رموز التيار السلفي المعاصرين والذين لا يمكن اعتبارهم على تيار التجديد، مثل ابن العثيمين.

ما الذي يعنيه هذا؟

يعني أن ما تعودنا على كونه من الحدود الشرعية هو ليس كذلك بالإجماع، بل في الأمر خلاف ويمكن أن يكون مرتبطا بتقدير (السلطة أو الحكومة) ولغرض تأديب من يقترف شيئا محرما بالتأكيد.

وإنّ هذا وقع مع عقوبة الخمر رغم وجود (حوادث كثيرة) كان ممكن معها أن يستقر الأمر ليكون حدا واضحا.

---

(١) صحيح البخاري ٦٧٧٨

لا أقول هنا أن شارب الخمر لا حد عليه ولا عقوبة، بل أريد أن أوصل فقط أن الخلاف قائم في كون «العقوبة» حدا أو تعزيرا في مسائل واضحة وفيها أمثلة كثيرة مثل شرب الخمر..

علينا أن نتذكر هذا جيدا، لأنه إن حدث مع شرب الخمر، فهو ممكن أن يحدث مع ما نعده (حدودا أخرى)..أي مع عقوبات قد تكون تعزيرية، لكنها فهمت على أنها حدود.

بماذا تختلف عقوبة المرتد عن العقوبات والحدود الأخرى؟

عقوبة المرتد عن الإسلام، تشبه عقوبة شارب الخمر في شيء أساسي وتختلف عنها وعن كل الحدود والعقوبات الأخرى بأشياء..

الشبه بينها وعن عقوبة شارب الخمرة أنهما معا لم يرد فيهما نص قرآني.

بل ذكرتا في الحديث النبوي الشريف فقط.

لكن هناك ملاحظات مهمة تفرق «حكم الردة» عن الحدود الأخرى..

أولا- كل العقوبات والحدود الأخرى لم تناقض شيئا في القرآن.

أما عقوبة قتل المرتد فهي تناقض القرآن إذا كان ارتداده مجرد ردة فكرية غير مرتبطة بعمل ضد المسلمين..

فالآيات التي تؤكد على حرية الفكر (بل وحتى حرية الكفر) كانت كثيرة وألفاظها شديدة الوضوح..

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩)

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٥٦)

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١-٢٢)

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)

وفي أكثر من موضع تبدو العواقب أخروية فحسب

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٣٧)

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

ثانيا - كل الحدود والعقوبات الأخرى ترتبط بضرر يخرج عن الضرر الشخصي إلى إشراك ناس آخرين (الزنا، السرقة، القصاص، قطع الطريق، حتى شرب الخمر يدخل في هذا إذ قد لا يسيطر الشخص على نفسه إذ سكر وقد يؤذي نفسه أو آخرين).

أما الردة عن الدين بمعناها الفكري الخالص، فهي تقع في بعد شخصي مختلف، ولا تشبه - من ناحية الإضرار- أي جريمة من الجرائم الأخرى التي شرعت لها الحدود والعقوبات.

ثالثا - الحدود كفَارات، أي أنها «تزيل» عمن تطبق عليه ذنبه الذي اقترفه، وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام «**وَمَنْ أَتَى مِنْكُمْ حَدًّا، فَأُقِيمَ عَلَيْهِ، فَهُوَ كَفَّارَتُهُ**»[1] فإذا كانت تكفر عن سرقة أو زنا فهل تكفر عن «الردة عن الدين» والله عز وجل يقول ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨).

رابعا - الحدود لا تقبل فيها شفاعة وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام لأسامة بن زيد عندما أراد أن يشفع في المرأة المخزومية التي سرقت: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ»[2]، بينما قبل شفاعة عثمان بن عفان رضي الله عنه في أخيه في الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح[3] الذي كان كاتبا للوحي ثم ارتد مشركا وعاد إلى كفار مكة، فلو كان للردة حد من حدود الله فكيف يقبل عليه الصلاة والسلام أن يشفع فيه أحد، أما كان موقفه سيكون كما مع المرأة المخزومية التي قال ردا لتشفع أسامة فيها: «**لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا**»[4]

خامسا - شروط صلح الحديبية بين المسلمين وكفار مكة تضمنت أن من يرجع إلى قريش من المسلمين- أي يرتد- يسمح له المسلمون بذلك، ولا يحدث العكس، فإذا جاء من قريش

(١) صحيح مسلم ٤٣

(٢)صحيح البخاري ٦٧٨٨

(٣) سنن أبي داود٢٨٦٣

(٤) صحيح البخاري ٦٧٨٨

إلى المسلمين ردوه لقريش حسب الصلح.[1] أي أن شروط الصلح التي وافق عليها الرسول عليه الصلاة والسلام كانت تتضمن (حق الردة) دون أي عقوبة، ولو أن الردة لها (حد من حدود الله) ما كان يمكن أن يمضي الأمر بهذه السهولة، بل إن الاعتراضات التي ثارت من قبل المسلمين على الشروط التي عدوها مجحفة لم تتضمن إشارة إلى أن الشروط تنتهك «حدا من حدود الله».

سادسا- حوادث العقوبات الأخرى - مثل شرب الخمرة والزنا- في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام عديدة.

بينما لا توجد في سيرته عليه الصلاة والسلام أنه طبق حدا على من ارتد عندما تكون «ردته خالصة»، وأعني بالردة الخالصة هنا أنها لم تختلط بشيء آخر يستوجب الحد قتلا، كما جرى فعلا في عدة حوادث ردة عن الدين صاحبها جرائم أخرى مثل:

١. ارتداد بعض المسلمين ورجوعهم إلى مكة لكنهم أيضا ارتكبوا جرائم قتل خلال ذلك (مثل عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة اللذين أمر عليه الصلاة والسلام بقتلهما عند فتح مكة) فهؤلاء «قتلهم» كان بالدم الذي عليهم، وليس بردتهم.

٢.ومثل ما فعله بعض الأعراب الذين قدموا المدينة وأسلموا وبايعوا الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم أصابهم سقم بسبب جو المدينة المختلف، فأخبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخرجوا مع راعيه إلى البادية فيشربوا من ألبان الأنعام، فلما صحت أجسامهم وزال سقمهم قتلوا الراعي وسرقوا الأنعام[2]. فهؤلاء لم تكن ردتهم منفصلة عن جريمتهم بالقتل والسرقة.

٣. حوادث ردة عن الإسلام مرتبطة بمحاولة اليهود التآمر عبر الدخول والخروج المستمر من الإسلام بهدف التأثير على المسلمين وإحداث البلبلة بينهم كما ذكر القرآن ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران:٧٢). فهنا الدخول في الإسلام لم يكن جادا بل كان عبر نية الخروج منه لجعل المسلمين يتساءلون عن السبب في ذلك، في وقت كان المسلمون في حالة مواجهة وصدام عسكريين مع اليهود، وضمن هذا السياق يمكن فهم ما فعله معاذ بن جبل من قتل لرجل كَانَ

---

(١) عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ / مسند الإمام أحمد ١٨٩١٠

(٢) صحيح البخاري٦٨٩٩

يَهُودِيًا فَأَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ[١] علما أن أبا موسى الأشعري كان قد ترك للرجل فرصة «شهرين»[٢]، كما يشير د. طه جابر العلواني إلى أن السياق العام للحديث يفهم منه أن الواقعة حدثت وقت الرسول عليه الصلاة والسلام ولكن لا نعلم إن كانت قد وصلت إليه عليه الصلاة والسلام أو أنه أقرها[٣].

مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ!

هذا هو الحديث الأكثر استخداما في موضوع «حد الردة»، والحقيقة أنه الحديث الوحيد الواضح والمباشر في الموضوع، وهو حديث صحيح السند[٤] بلا شك ومحاولة تضعيفه لا معنى لها، بل ينبغي فهمه على ضوء الآيات القرآنية الكريمة، وبقية الأحاديث الشريفة، وليس كحديث مستقل يلغي كل النصوص الأخرى التي قبله أو بعده. فالحديث عندما يفهم في ضوء كل الآيات القرآنية التي تكرس الحرية الدينية، يمكن جمعه مع الآية القرآنية الأخرى التي تتحدث عن محاولة «طائفة من أهل الكتاب» الدخول في الإسلام والخروج منه لإحداث البلبلة، ويمكن فهمه أيضا من خلال أحاديث صريحة تحدد ما هي الحدود التي يطبق على متجاوزها القتل.

«فَوَاللهِ مَا قَتَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا فِي إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: رَجُلٌ قَتَلَ بِجَرِيرَةِ نَفْسِهِ فَقُتِلَ، أَوْ رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ رَجُلٌ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَارْتَدَّ عَنِ الإِسْلَامِ»[٥]

«لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»[٦]

فالردة التي يعاقب عليها بالقتل هي الردة التي يصاحبها الالتحاق بالمحاربين الأعداء، وهو ما يعبر عنه بمفارقة الجماعة، فلا معنى في مفارقة الجماعة إلا في أن تلتحق بعدو هذه الجماعة..

---

(١) صحيح البخاري ٦٩٢٣

(٢) مسند الإمام أحمد ١٥-٢٢

(٣) لا إكراه في الدين إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام حتى اليوم: العلواني، طه جابر مكتبة الشروق الدولية الطبعة الثانية ص ١١٩

(٤) صحيح البخاري ٦٩٢٢

(٥) صحيح البخاري ٦٨٩٩

(٦) صحيح مسلم ٢٥

هكذا فالردة التي يشار إليها في حديث «من بدل دينه فاقتلوه» كانت مثل (**خيانة عظمى**) أو (**تجسس**)، **وليس قضية تغيير معتقد فقط لا غير**.

وهكذا سيكون هناك تفريق بين (الردة التي هي بمثابة الخيانة العظمى) والردة التي هي تغيير قناعات وضمن الآيات التي تؤكد على حرية المعتقد حتى لو كان كفريا..

ماذا عن حروب الردة؟! ألم يعلن أبو بكر الحرب على قبائل بأكملها فقط لأنها قررت عدم دفع الزكاة؟

الحقيقة أن سياق حروب الردة يدل على عدم وجود «حد للردة» بالمعنى السائد اليوم..

«لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»

فَقَالَ أبو بكر: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ»[1]

لا حديث عن «حد للردة» هنا، بل عن تمرد سيؤثر على موارد الدولة. قرار سياسي صائب في سياقات خطيرة مرت بها الدولة في أوائل نشوئها، ولولا هذا القرار الشجاع لربما كان حدث تفكك أكبر. لكن لا علاقة لـ«حد الردة» بالأمر.

آيات تستخدم للدفاع عن «حد الردة»؟

في خضم كل هذا هناك آية يتخذها البعض للدفاع عن وجود حد ردة في القرآن

«وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ» التوبة الآية ٧٤.

(١) صحيح البخاري ٧٢٨٤

لكن عذاب الدنيا قد يكون الهم والغم وكل ما يمكن أن يصيب الكثيرين ممن يرتدون عن الدين...بل إن العذاب الأليم يتناقض أصلا مع فكرة القتل وإنهاء حياته!

* * *

التهمة الجاهزة لكل من يحاول أن يساهم في إعادة النظر في المفهوم السائد لحد الردة هي أنه «متغرب» يحاول تسريب الأفكار الليبرالية العلمانية.. إلخ.

لكن الرأي بعدم قتل المرتد ليس جديدا، رغم وجود إجماع في المذاهب الأربعة على قتله.

لكن الأمر سابق على الليبرالية الغربية بكثير..

«المتأمل لمذاهب التابعين سيجد إمامين من أئمة التابعين لا يقولان بقتل المرتد، فأولهما الإمام إبراهيم النخعي وعنه تفرع فقه العراق، وثانيهما إمام بارز في الحديث هو سفيان الثوري، بل روي عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز أيضا، ويبدو أن هذا الرأي استمر إلى وقت متأخر لأننا وجدنا الإمام ابن حزم الأندلسي كرس في «المحلى» مبحث حد الردة للرد على هذا الرأي، مما يعني أنه كان رأيا معتبرا استحق كل تلك العناية بالرد عليه»[1].

يمكن الاستزادة من كل ما سبق في كتاب الدكتور طه جابر العلواني «لا إكراه في الدين: إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم».. وفي مقال جامع للدكتور يحيى جاد بعنوان «الردة وحرية الاعتقاد: رؤية إسلامية جديدة»[2].

* * *

كل ما سبق سيكون مرفوضا من طرفين..

أولئك الذين يتخذون من حد الردة حجة لإلحادهم.. سيعتبرون كل ما سبق تكتيكا دفاعيا لغرض احتواء الموقف.. مجرد تمثيلية يقوم بها المعتدلون لغرض كسب الوقت الأكثر..

وأولئك الذين يرفضون أي تجديد، الذين يصرون على تطبيق حد الردة سيعتبرون أن ما سبق ربما يكون ردة يجب أن أستتاب منها.

---

(١) معتز الخطيب كيف نفهم الجدل حول حكم الردة؟

https://archive.islamonline.net/?p=241

(٢) مجلة المسلم المعاصر ٢٠١٢ الردة وحرية الاعتقاد : رؤية إسلامية جديدة. يحيى رضا جاد مجلة المسلم المعاصر العدد ١٤٣

http://almuslimalmuaser.org/index.php?option=com_k2&view=item&id=730:elredda&Itemid=1

لكن بين هؤلاء وأولئك هناك أنت...تقف في الوسط ..لا تريد «حجة» لكي تلحد وتتخلص من الأمر كله...ولا تريد أيضا أن تؤمن بهذه التناقضات التي تقول لا إكراه في الدين ثم تكره الناس على الدين..

ستجد كل ما سبق منطقيا ومتماسكا وأقرب إلى عقلك ..أن تفهم الحديث الذي يستخدمونه لتثبيت حد الردة في سياق تاريخي يجعلك تتفهم الظروف التي قيل فيها دون أن تتحامل على شيء...

أن تمر عليك آيات (لا إكراه في الدين) دون أن يوسوس لك صدرك: حقا؟

أنت من أتوجه له هنا..

وأرجو أن تكون رسالتي قد وصلتك..

دين يدعو إلى القتل؟

مغالطة الاجتزاء contextomy أو quote mining سيئة دوما، فالاجتزاء في أي نص يقود إلى إخراجه عن سياقه وربما تحريفه عن معناه الأصلي كما لو أنه نص آخر تماما.

هذا سيء دوما. لكنه مع بعض النصوص يصبح أسوأ، يتجاوز السوء إلى الخطورة.

الحديث هو عن نصوص عوملت عبر مغالطة الاجتزاء، وأخذت من سياقها (المباشر) أحيانا، ومن سياقها العام أيضا، سياق النص ككل.

الحديث هو عن النصوص التي استخدمت لتبرير العنف أحيانا من قبل طرف معين، وللهجوم على الإسلام ورسالته من قبل طرف آخر.

وإذا كانت مغالطة الاجتزاء شائعة عن الطرف الذي يبرر العنف، فإن الطرف الآخر يستخدم نفس المغالطة، ويضيف للأمر مغالطتين اثنتين.

أولاهما – مغالطة المؤرخ Historians Fallacy والتي يتم الحكم من خلالها على الأحداث التاريخية وفقا للقيم المعاصرة.

والثانية– مغالطة الكاتولوغ المثالي/ النيرفانا وهي المغالطة التي تضع مواصفات مثالية نموذجية وهمية، لم تتحقق حسب أي تجربة لا تاريخية ولا معاصرة، ومن ثم التقييم بناء على هذه المواصفات.

هذه المغالطات الثلاثة تكررت كثيرا في حجج الإلحاد السابقة. وستتكرر في المزيد، لكنها أكثر ما تكون واضحة في هذا الباب.

باب «النصوص الدينية التي تبدو كما لو أنها دعوة للقتل».

واقعة بني قريظة: الصورة الكبيرة

هذه الواقعة هي الرقم واحد دون منازع، هي الرقم واحد عند دعاة العنف ومبرريه من داعش وأخواتها، وهي الرقم واحد عند مهاجمي الإسلام.

الواقعة تقدم هكذا: الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون يحاصرون حصنا تجمع فيه بنو قريظة، وبعد أن يستسلم من في الحصن، يقتل كل الرجال- أو من بلغوا سن الحلم من الذكور- (والبعض سيقول أن القتلى ٧٠٠) وتسبى النساء والأطفال.

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام قبل تنفيذ الأمر ما معناه: هذا حكم الله.

هذا ما حدث عموما بالفعل، ربما الرقم فيه اختلاف وتفاوت كبيرين. لكن الخطوط العامة للواقعة صحيحة هكذا ومحاولة إنكار حدوثها أصلا (كما يفعل البعض) أمر في منتهى السذاجة ومحاولة غير مجدية للضحك على الذقون.

من ناحية أخرى: توظيف هذه القصة (سواء لتبرير تكرارها حاليا - أو لاستخدامها ضد الدين) أمر قائم على واحدة من المغالطات الثلاث أعلاه، أو كلها معاً .

هذه الواقعة لم تكن منفصلة عن مجموعة أحداث ووقائع محيطة بها مهدت لها وقادت إليها كما أنها لم تكن منفصلة عن واقع تاريخي عام له خصوصياته الثقافية والاجتماعية التي جعلت «الواقعة» مفهومة ضمن هذا السياق.

نقل الواقعة ومحاولة تطبيقها إلى الواقع الحالي أمر مرعب بلا شك.

لكن محاكمة الواقعة من خلال القيم المعاصرة أقرب إلى النكتة.

في الحالتين ثمة مفارقة للمنطق.

علينا أن نفهم كل ذلك جيدا قبل الدخول إلى واقعة بني قريظة.

* * *

نظم الرسول عليه الصلاة والسلام العلاقة مع اليهود في المدينة بمعاهدة عامة شملتهم كما شملت كل سكان المدينة من الأوس والخزرج، تعرضت هذه المعاهدة للتجديد في أكثر من مناسبة تخص اليهود، كانت المعاهدة مفصلة في منح اليهود كل حقوقهم وتضمن لهم حريتهم الدينية، لكنها في الوقت نفسه تفرض عليهم أن يدافعوا عن المدينة في حال تعرضها لغزو، وأن

لا ينصروا قريشا ولا يجيرونها[١]. الكلام كان مفصلا وواضحا رغم أن المعاهدة عقدت قبل حدوث أي مواجهة مع قريش.

لكن يبدو أن اليهود لم يكونوا يعتقدون أنه عليه الصلاة والسلام سيستمر في المدينة أو أن شوكته ستقوى فيها، كانت المدينة لا يزال فيها مشركون، ولم يعتقد اليهود أن الأمور ستمضي إلى ما ذهبت إليه، لذا لم يكن اليهود جادين في المعاهدة، أو على الأقل تصوروا أنهم لن يكونوا بحاجة إلى خرق هذه البنود.

نقطة التحول كانت بدر، انتصار المسلمين على قريش جعل اليهود يعرفون أن الأمر أكبر مما توهموه في البداية، وصاروا يسعون إلى التحالف مع قريش بطريقة أو بأخرى، رغم وجود المعاهدة.

أول الأحداث كانت مع كعب بن الأشرف[٢] الذي حاول تأليب كفار قريش للانتقام لقتلى بدر، وكان يستخدم شعره ضد الرسول عليه الصلاة والسلام، تم قتل كعب بن الأشرف (وهو من بني النضير)، وهو الأمر الذي أفزع اليهود وكتب لهم الرسول كتابا ثانيا[٣] بمثابة تأكيد للمعاهدة الأولى بعد أن خرقها كعب بن الأشرف.

انتصار بدر أيضا جعل بني قينقاع يجاهرون في عدائهم للرسول عليه الصلاة والسلام، كانوا هم الأقوى بين قبائل اليهود من الناحية العسكرية والتجارية، وكانوا يقولون صراحة للرسول أنه انتصر على قريش لأنهم أهل تجارة وليسوا أهل حرب، ولو أنه حاربهم لرأى شيئا مختلفا[٤].

أكثر من هذا، كان بنو قينقاع حلفاء لعبد الله بن أبيّ بن سلول، كبير منافقي يثرب، وكانوا بطريقة ما يشكلون قوة «عسكرية «مساندة له، كما صرح هو بنفسه[٥].

لم يكن من الممكن ترك بنو قينقاع يصرحون بهذا العداء المخالف للمعاهدة وتركهم دون عقوبة.

(١) السيرة النبوية الصحيحة الدكتور أكرم ضياء العمري صفحة ٢٨٢

(٢) مر ذكره في فصل سابق

(٣) سنن أبي داود ٣٠٠٠

(٤) سنن أبي داود ٣٠٠١

(٥) سيرة ابن هشام الجزء ٣ صفحة ٤٨

لذا كان إجلاء بني قينقاع حَلاً يقي المدينة الخطر الذي قد يشكله وجودهم، والذي صرحوا به هم أصلا.

هذه هي المرحلة الأولى من العلاقة مع اليهود عقب معركة بدر، لا دم هنا، فقط إجلاء، مع أخذ أموالهم، ويبدو أن أموالهم هنا تعني أراضيهم، إذ سمح لبني النضير لاحقاً أخذ كل ما تقله الإبل عدا السلاح.

المرحلة الثانية كانت بعد غزوة أحد، التي يبدو أنها أغرت اليهود مجددا بإمكانية القضاء على الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن الأمر هذه المرة كان أخطر من التصريح بالعداء الذي فعله بنو قينقاع، بل كان الأمر بمحاولة اغتيال للرسول عليه الصلاة والسلام، حيث اتفق بنو النضير على إرسال ثلاثة أحبار من أحبارهم إلى الرسول ويلتقي بهم ومعه ثلاثة من أصحابه في موقع متوسط، فإن أقنعهم، آمنت به بنو النضير، لكن هؤلاء الأحبار كانت معهم خناجرهم لغرض قتله عليه الصلاة والسلام، وأفشى أمرهم امرأة من بني النضير كان لها أخ قد أسلم[1].

لم يذهب عليه الصلاة والسلام إلى الموعد بل جهز سرية ذهبت لمحاصرة بني النضير، وأثناء ذلك ذهب إلى بني قريظة وأخذ منهم عهدا للمرة الثالثة[2].

كانت نتيجة الحصار أن أجلي بنو النضير كما حدث مع بني قينقاع، من أسلم منهم احتفظ بماله وأرضه. ومن لم يسلم ترك أرضه وأجلي، وكان ذلك نتيجة لخرقهم المعاهدة (التي عقدت مرتين، مرة في البداية ومرة بعد مقتل كعب بن أشرف)، علما أن قرار قتل الرسول لم يكن قرارا تفرد به رأس القبيلة لأن الاتفاق الأول كان أن يلتقي الرسول بثلاثين من أحبارهم، وليس ثلاثة، ثم إن الخبر كان منتشرا بحيث أن امرأة منهم سربته لأخيها المسلم.

المرحلة الثالثة كانت أثناء وبعد غزوة الأحزاب: جغرافية المدينة جعلت بني قريظة يحتلون المنفذ الجنوبي الوحيد الممكن للمدينة، حيث تحيط بالمدينة من الغرب والشرق مناطق شديدة الوعورة تجعل اختراقها عملية صعبة بالنسبة لقريش، ومن الجنوب يوجد جبل عير باستثناء منطقة منبسطة في الجنوب الغربي بين الجبل والمنطقة الوعرة غرب المدينة، هذه المنطقة المنبسطة هي الوحيدة التي يمكن لقريش أن تلتف على المسلمين من خلالها، وهي المنطقة التي يقع فيها حصن بني قريظة وأراضيهم.

(١) مصنف عبد الرزاق ٩٧٣٣

(٢) مصنف عبد الرزاق ٩٧٣٣

حسب الاتفاق المسبق، الجبهة الجنوبية للمدينة مؤمنة من قبل بني قريظة، الجبهة الشمالية يتزاحم عليها ١٠ آلاف رجل من قريش وغطفان ولا يفصلهم عن المدينة غير الخندق.

نقض بني قريظة للمعاهدة كان بتحريض أحد سادة بني النضير (حيي بن أخطب) الذي أجلي سابقا واستقر في خيبر، قام هذا بالتنسيق بين بني قريظة وبين قريش، حيث طلب منهم نقض المعاهدة والهجوم على المدينة من داخلها، بينما كل مقاتلي المسلمين مشغولون بالجبهة الشمالية.

طلب بنو قريظة من حيي بن أخطب أن يأخذوا عندهم ٩٠ رجلا رهينة من أشراف قريش وغطفان كي يتأكدوا من أن قريشا لن تنسحب هذه المرة قبل القضاء على الرسول[١] عليه الصلاة والسلام، لأنها إن فعلت ذلك وكانوا قد ساندوها، فهذا يعني نهايتهم بالتأكيد.

وافق حيي بن أخطب على الطلب، فأعلنوا نقضهم للاتفاق مع الرسول عليه الصلاة والسلام.

تسرب الخبر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وتأكد منه عبر إرساله عددا من الصحابة للاستطلاع (منهم الزبير[٢] وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وخوات بن جبير وعبد الله بن رواحة[٣]) وتأكدوا من صحة نقض بني قريظة للعهد وتحالفهم مع قريش.. ولكنه عليه الصلاة والسلام تمكن من الإيقاع بينهم وبين المشركين إذ تم إشاعة أن طلب الرهائن كان اتفاقا بين بني قريظة وبين الرسول وذلك لاستخدام الرهائن في فك الحصار عن المدينة، فأرادت قريش التأكد من الأمر فأرسلت لبني قريظة تطلب منهم أن يبدؤوا الهجوم، فتعذرت بنو قريظة بأنه يوم سبت لا يحل لهم فيه فعل شيء، فشكت قريش بأن الأمر كان كما سمعت أنه اتفاق بينهم وبين الرسول، وأدى هذا إلى رفض المشركين تقديم الرهائن فشكت بنو قريظة أيضا في جدية قريش في تقديم الرهائن ومن ثم نقض الاتفاق بينهم[٤]، ثم ساهمت سوء الأحوال الجوية في جعل المشركين ينسحبون وينفض الحصار عن المدينة.

* * *

(١) البداية والنهاية جزء ٤ صفحة ١٢٧ -١٢٩

(٢) مسند الإمام أحمد ١٤٣٧٥

(٣) السنن الكبرى للبيهقي١٨٨٥٦

(٤) البداية والنهاية الجزء ٤ صفحة ١٣٩

هذه المرة كان الغدر خطيرا جدا، أخطر بكثير مما حدث مع بني قينقاع وبني النضير، إذ لم يكن يستهدف «شخص الرسول» فحسب، بل كان يستهدف المدينة كلها، وخلال ظروف عصيبة لم يكن المسلمون قد مروا بها من قبل.

ما يجعل غدر بني قريظة أصعب وأخطر هو:

أولا - أن بني قريظة كانوا يعدون «الأقل شرفا» بين اليهود، فعندما يقتل يهودي من بني النضير يهوديا أخر من بني قريظة كان يدفع له نصف دية، بينما تدفع دية القتيل من بني النضير كاملة، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام ساوى بينهم في الدية[1] بكل ما يشمل ذلك من اعتبارات. لم يضعوا ذلك في حسابهم إطلاقا.

ثانيا - ثلاث معاهدات، الأولى في البداية والتي شملت الجميع، الثانية التي خصت اليهود بعد مقتل كعب بن أشرف، والثالثة التي كانت تخصهم هم تحديدا أثناء حصار بني النضير.

ثلاث مرات. كيف يمكن الثقة بهم بعدها؟

من المنطقي تماما أن بني قريظة كانوا يتوقعون أثناء حصار الرسول لهم أن يتكرر أمر الإجلاء الذي حدث مع بني النضير وبني قينقاع.

لكن ما الذي يحدث هنا مع هذا الإجلاء بالضبط؟

تجمع للمزيد من المقاتلين من اليهود في خيبر.

كيف يمكن لعاقل أن يضيف المزيد المقاتلين الأعداء إلى خيبر (تبعد أقل من ٢٠٠ كيلومتر عن المدينة) وقد أعطوا العهود لثلاث مرات ونكثوها؟

الحصار استمر قرابة شهر ثم قبل بنو قريظة الاستسلام وطلبوا تحكيم سعد بن معاذ[2] (سيد الأوس الذي كان حليفا لهم). وكان هذا الاختيار خطأ كبيرا من بني قريظة، إذ أنهم افترضوا أن سعد بن معاذ سينحاز لهم بحكم التحالف القديم الذي يربطه والأوس بهم، لكن الحقيقة هي عكس ذلك، إذ كان سعد محرجا جدا بسبب موقفهم وهم حلفاؤه، خاصة أنه تعرض إلى ضغوط من قومه (بني عبد الأشهل) لغرض التعاطف مع بني قريظة عبر تذكيره بموقفهم في يوم بعاث في الجاهلية ضد الخزرج، وعبر القول له أنهم اختاروه للتحكيم لهذا

(١) مسند الإمام أحمد ٣٤٣٤

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٥٣٢٧

السبب بالذات «**وَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَجَعَلَ يَمْشِي مَعَهُ يُعَظِّمُ حَقَّ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَيَذْكُرُ حِلْفَهُمْ وَالَّذِي أَبْلَوْهُمْ يَوْمَ بُعَاثٍ، وَأَنَّهُمُ اخْتَارُوكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ رَجَاءَ عَطْفِكَ، وَتَحَنُّنِكَ عَلَيْهِمْ، فَاسْتَبْقِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَكَ جَمَالٌ وَعَدَدٌ**»[1] وكان هذا يعني بوضوح أنهم يحاولون التأثير على سعد عبر مواقف حدثت في الجاهلية ضد الخزرج، وهو أمر كان سيحدث صدعا كبيرا في الصف المسلم لو أنه أثر على حكم سعد بن معاذ...

كما أن سعدا أصلا كان قد أصيب برمح أثناء غزوة الأحزاب التي تآمر فيها بنو قريظة مع المشركين، وكانت جروحه خطيرة (وقد مات فعلا بعد أيام من التحكيم متأثرا بهذه الجراح).

حكم سعد حكما واضحا: **تَقْتُلُ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَتَسْبِي ذَرَارِيَّهُمْ**[2].

وقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللهِ» وَرُبَّمَا قَالَ: «بِحُكْمِ المَلِكِ»[3]

وأعفي من ذلك من أسلم منهم[4]، ومن عرف عنه موقف ضد هذا الغدر[5].

عدد القتلى مختلف فيه، ويتراوح بين ٤٠ و ٩٠٠، أقوى الأسانيد تنحصر بين ٤٠[6] و ٤٠٠[7].

ولكن الرقم ٤٠٠ قد لا يكون متناسقا مع ما ذكر أنهم وضعوا في دار بنت الحارث[8]، أو دار أسامة بن زيد[9]، فكيف يمكن أن يحبس ٤٠٠ رجل في دار واحدة أو دارين (على فرض أنهم وضعوا في الدارين)..ودور المدينة لم يعرف عنها كبر مساحتها بحيث تتسع لهذا العدد، ولعل الرقم الكامل لكل بني قريظة، مع الذين أسلموا من الرجال والغلمان والنساء كان بحدود الـ ٤٠٠، فعندها يكون عدد المقاتلين مقبولا لأن يحبسوا في دار أو دارين.

علينا أيضا أن نحدد ما المقصود بتعبير (المقاتلة) الذين قصدهم سعد بن معاذ، والذين صدر عليهم الحكم بالقتل، التعبير يخص كل قادر على حمل السلاح وليس كل من قاتل فعلا

(١) المعجم الكبير للطبراني ٥٣٢٧

(٢) صحيح البخاري ٤١٢١

(٣) صحيح البخاري ٤١٢١

(٤) صحيح البخاري ٤٠٢٨

(٥) الأموال لأبن زنجويه ٤٦١

(٦) الأموال أبن زنجويه ٤٦١

(٧) مسند الإمام أحمد١٤٧٧٣

(٨) سيرة ابن هشام الجزء ٢ صفحة ٢٤٠

(٩) معجم الطبراني الكبير ٥٣٢٧

كما يحاول البعض التفسير، أصلا لم تحدث مواجهة (قتالية) في سياق ما حدث، ومعنى (المقاتِلة) في لسان العرب: القَوْمُ الَّذِينَ يَصْلحون لِلقتَالِ، وهذا هو المفهوم الذي حكم على أساسه سعد بن معاذ، وبالنسبة للعرب كل من بلغ مبلغ الرجال فهو يصلح للقتال (وكان هذا مقياس التوريث، إذ لم يكونوا يورثون الصبيان أو الإناث إذا مات والدهم لأن من يرث فقط القادرون على حمل السلاح) أي أن سعد بن معاذ حكم على كل من بلغ مبلغ الرجال بالقتل (إلا من أسلم أو عرف عنه الوفاء بالعهد مع المسلمين).

علينا أيضا أن نتذكر أن مجتمع المدينة (بيهوده وعربه) كان مجتمعا «معسكرا»[1] تماما (بل أن كل قبيلة من قبائل اليهود كانت تسكن في حصون) بسبب الحروب التي كانت تدور رحاها سواء بين اليهود أنفسهم أو بين العرب واليهود أو الأوس والخزرج) أي أن كل من يبلغ عمر حمل السلاح سيكون جاهزا نفسيا وبدنيا لهذا الأمر لأنه يغرس اجتماعيا على نحو بديهي.

* * *

هل كان هذا الحكم مخالفا لما يريده الرسول عليه الصلاة والسلام؟

لا. ليس لما قاله الرسول بعد أن نطق سعد بالحكم- وهو ما سنقف عنده - بل لأنه كان واضحا للمسلمين أن بني قريظة تجاوزت كل الحدود التي يمكن العفو والتساهل معها، لذلك فقبل أن يختار بنو قريظة سعد بن معاذ للتحكيم سألوا أبا لبابة بن عبد المنذر (وهو من حلفائهم من الأوس) عما يكون الأمر لو نزلوا على حكم الرسول عليه الصلاة والسلام، فأشار إليهم بيده (الذبح)[2]، ولا يعني هذا بالضرورة أن الرسول كان قد صرح بذلك، لكن الصحابة غالبا أدركوا أن حجم خيانة بني قريظة لا يمكن أن يكون جزاؤها أقل من الذبح.

* * *

نصل هنا لما قاله عليه الصلاة والسلام بعد أن نطق سعد بن معاذ بالحكم..

قال: «**قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللهِ» وَرُبَّمَا قَالَ: «بِحُكْمِ الملِكِ»**[3]

---

(١) مقتلة يهود بني قريظة: ما وراء القراءة الدينية للواقعة- وليد فكري - إضاءات

https://www.ida2at.com/the-jews-of-bani-qureizah-beyond-the-religious-reading-of-the-incident/

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٥٠٩٧

(٣) صحيح البخاري ٤١٢١

قد يفهم من هذا أن هذا الحكم (قتل المقاتلة وسبي الذراري) هو حكم شرعي إلهي بالمعنى السائد للحدود والأحكام ..

لكن لم يصلنا أي نص قرآني يقول بذلك أو حتى يشير إلى ما هو قريب من ذلك، ولم يحدث أن تكرر في حياته عليه الصلاة والسلام على الإطلاق، بل أنه صالح «يهود خيبر» على نصف أموالهم، رغم أنه فتح خيبر عنوة.

فأين هذا الحكم؟ وما الذي قصده عليه الصلاة والسلام بهذا القول؟

ربما كان يقصد أنه حكم يوافق عليه الله بسبب فداحة جرم بني قريظة وخطورة تركهم يفلتون بالأمر.

وربما كان يقصد عليه الصلاة والسلام شيئا آخر...

فلنتذكر أن يهود بني قريظة رفضوا الإسلام وتمسكوا بدينهم، وكان هذا مقبولا في الوضع العادي للمدينة، وقد منحته لهم أيضا العهود والمواثيق التي نقضوها.

لكن ماذا تقول التوراة (التي تمسكوا بها) عن حالات مشابهة؟

«فَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِذْ كَانُوا مُتَوَجِّعِينَ أَنَّ ابْنَيْ يَعْقُوبَ شِمْعُونَ وَلاَوِيَ أَخَوَيْ دِينَةَ أَخَذَا كُلُّ وَاحِدٍ **سَيْفَهُ وَأَتَيَا عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْنٍ وَقَتَلاَ كُلَّ ذَكَرٍ**. وَقَتَلاَ حَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَخَذَا دِينَةَ مِنْ بَيْتِ شَكِيمَ وَخَرَجَا. ثُمَّ أَتَى بَنُو يَعْقُوبَ عَلَى الْقَتْلَى وَنَهَبُوا الْمَدِينَةَ لأَنَّهُمْ نَجَّسُوا أُخْتَهُمْ. غَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ وَحَمِيرَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا فِي الْحَقْلِ أَخَذُوهُ. **وَسَبَوْا وَنَهَبُوا كُلَّ ثَرْوَتِهِمْ وَكُلَّ أَطْفَالِهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْبُيُوتِ**» (سفر التكوين إصحاح ٣٤: ٢٥-٢٩)

«فَتَجَنَّدُوا عَلَى مِدْيَانَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ. وَمُلُوكُ مِدْيَانَ قَتَلُوهُمْ فَوْقَ قَتْلاَهُمْ: أَوِيَ وَرَاقِمَ وَصُورَ وَحُورَ وَرَابِعَ. خَمْسَةَ مُلُوكِ مِدْيَانَ. وَبَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ قَتَلُوهُ بِالسَّيْفِ. **وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ مِدْيَانَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَنَهَبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ، وَجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وَكُلَّ أَمْلاَكِهِمْ. وَأَحْرَقُوا جَمِيعَ مُدُنِهِمْ بِمَسَاكِنِهِمْ، وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّارِ**. وَأَخَذُوا كُلَّ الْغَنِيمَةِ وَكُلَّ النَّهْبِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ، وَأَتَوْا إِلَى مُوسَى وَأَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ وَإِلَى جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَالْغَنِيمَةِ إِلَى الْمَحَلَّةِ إِلَى عَرَبَاتِ مُوآبَ الَّتِي عَلَى أُرْدُنِّ أَرِيحَا». (العدد ٣١:٧-١٢)

وأحيانا يكون الأمر أكثر من قتل الذكور فقط...

وَكَانَ لَمَّا انْتَهَى إِسْرَائِيلُ مِنْ قَتْلِ جَمِيعِ سُكَّانِ عَايٍ فِي الْحَقْلِ فِي الْبَرِّيَّةِ حَيْثُ لَحِقُوهُمْ وَسَقَطُوا جَمِيعًا بِحَدِّ السَّيْفِ حَتَّى فَنُوا، أَنَّ جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ رَجَعَ إِلَى عَايٍ وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. فَكَانَ جَمِيعُ الَّذِينَ سَقَطُوا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مِنْ رِجَال وَنِسَاءٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، جَمِيعُ أَهْلِ عَايٍ. وَيَشُوعُ لَمْ يَرُدَّ يَدَهُ الَّتِي مَدَّهَا بِالْمِزْرَاقِ حَتَّى حَرَّمَ جَمِيعَ سُكَّانِ عَايٍ. لكِنِ الْبَهَائِمُ وَغَنِيمَةُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ نَهَبَهَا إِسْرَائِيلُ لأَنْفُسِهِمْ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ يَشُوعَ. وَأَحْرَقَ يَشُوعُ عَايَ وَجَعَلَهَا تَلاًّ أَبَدِيًّا خَرَابًا إِلَى هذَا الْيَوْمِ. وَمَلِكُ عَايٍ عَلَّقَهُ عَلَى الْخَشَبَةِ إِلَى وَقْتِ الْمَسَاءِ. وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ أَمَرَ يَشُوعُ فَأَنْزَلُوا جُثَّتَهُ عَنِ الْخَشَبَةِ وَطَرَحُوهَا عِنْدَ مَدْخَلِ بَابِ الْمَدِينَةِ، وَأَقَامُوا عَلَيْهَا رُجْمَةَ حِجَارَةٍ عَظِيمَةً إِلَى هذَا الْيَوْمِ». (يشوع ٨:٢٤-٢٩)

«فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلاً وَحِمَارًا». (صموئيل الأول ١٥:٣)

هذا هو الكتاب الذي تمسكوا به...ورفضوا الكتاب الذي عرضه عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام والذي لم يتضمن أشياء كهذه.. لكنهم رفضوه وتمسكوا بكتابهم، ولم يقف الأمر عند هذا، بل تآمروا ضده، وكانوا على وشك القضاء عليه بضربة من الظهر..

هل كان سعد بن معاذ يعرف وجود أحكام كهذه في التوراة، بحكم حلفه القديم وعلاقته القديمة مع بني قريظة؟ لا نعرف. ربما، وربما لا، وربما سمع ذلك دون تفصيل من مروياتهم.

لا نعرف أيضا إن كان عليه الصلاة والسلام يقصد شيئا مختلفا عما نفهمه اليوم عندما قال «**حكمت بحكم الملك**»..

ذلك أن لفظ «الملك»[1] كان من الألفاظ الشائعة في العبرانية عن الله عز وجل...

***

هل يعني هذا أن هذا الحكم قابل للتطبيق في أي عصر آخر وخصوصا في العصر الحالي؟

قطعا لا.

لا يمكن لواقعة بكل هذه الحيثيات أن تتكرر بكل هذه التفصيلات التي قادت إلى ما قادت له، وما كان سائدا ومقبولا آنذاك كعرف لم يعد كذلك بالتأكيد...كما أن الرسول عليه الصلاة

(1) Names of God in Judaism - New World Encyclopedia

http://www.newworldencyclopedia.org/entry/Names_of_God_in_Judaism

- Avinu Malkeinu—«Our Father, our King.»
- Melech ha-Melachim—«The King of Kings» or Melech Malchei ha-Melachim

والسلام لم يكرر الأمر، بل أنه لم يقل في أي نص من نصوص الواقعة «افعلوا هذا». لقد أقر سعدا على حكمه فحسب وفق كل ما مر من معطيات لا يمكن تكرارها..

وهنا نرى غباء وسذاجة داعش وأخواتها وكل من يصفق لهن عندما يرغبون باعتبار الواقعة مصدرا تشريعيا يقر لهم مذابحهم...هذه الواقعة مبنية من مجموعة معطيات متشابكة لو أزيلت واحدة منها لما كان يمكن أن تحدث...فكيف تتكرر في زمن لا يحتوي أيا من هذه المعطيات؟ هل هناك مجزرة واحدة من مجازر داعش تضمنت كل هذه الحيثيات (بما في ذلك العفو عند الإسلام!).

ولا يقل سذاجة عن هذا موقف المعادين للدين الذين يرغبون بمحاكمة الرسول عليه الصلاة والسلام بسبب مجزرة بني قريظة..

مغالطة الاجتزاء عند داعش، ومغالطة المؤرخ والكاتالوغ المثالي عند أعداء الدين..

* * *

سيقولون كل هذه مجرد محاولات للتبرير والترقيع.

التاريخ لا يحتاج إلى تبرير، بل التفسير. عندما نفهم كيف حدث ما حدث لا يعود البحث عن مبررات ضرورة. التفسير يفي بالغرض.

ترقيع؟ لا. بل إكمال قطع الـ puzzle ووضع كل قطعة في مكانها الصحيح.

من أجل أن نرى الصورة الكبيرة..

* * *

بالمناسبة...لو أنه عليه الصلاة والسلام أجلاهم وتركهم يذهبون للتجمع كمقاتلين في خيبر، لتكرار محاولتهم القضاء عليه، لقال نفس هؤلاء المعادين للدين: وأين الفطنة والحنكة عند هذا النبي المزعوم؟ كيف يتركهم ويعرض قومه وأتباعه للخطر بدواعي الرحمة والإنسانية؟

عندها كانوا سيتركون وثيقة حقوق الإنسان، ويحاكمون الرسول عليه الصلاة بمرجعية «كتاب الأمير» لميكافيلي....

القرآن والعنف

عوملت بعض نصوص القرآن بنفس طريقة المغالطات السابقة، الاجتزاء من قبل مستخدمي العنف ومبرريه، ومغالطة المؤرخ والكاتالوغ المثالي بالنسبة لأعداء الدين الصريحين.

كل آية قرآنية تعامل كما لو أنها سورة منفصلة، بل كما لو أنها «قرآن» منفصل. لا آية قبلها ولا آية بعدها، ولا ظروف أحيطت بنزولها.

لو أننا قرأنا هذه الآيات القرآنية بهذا المنطق، فربما سنقول: نعم، هذا تحريض واضح على العنف ..الإسلام ربما كما يقولون...

هذه أكثر الآيات استخداما من قبل أولئك الذين يستخدمونها لتكون أسلحة ضد المخالفين، ومن قبل أولئك الذين يستخدمونها سلاحا ضد الدين، في الوقت نفسه..

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠)

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:١٩١)

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(البقرة:١٩٣)

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦)

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٤٤)

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤)

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦)

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (النساء(٨٤)

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ٨٩)

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء:٩١)

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢)

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: ٣٩)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال: ٦٥)

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ٥)

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١٣)

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة:١٤)

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩)

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٣٦)

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ (الأحزاب:٢٦)

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤)

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٥)

هذه هي الآيات التي تستخدم من قبل طرفي الخلاف عن موضوع القتال في الإسلام[1]، الاستخدام غالبا يكون عشوائيا تماما ودون إشارة إلى السورة غالبا.

هذا يؤدي إلى عدم الانتباه إلى أن هذه الآيات تتركز غالبا في أربع سور من سور القرآن: البقرة، النساء، التوبة، الأنفال. وبدرجة أقل بكثير الأحزاب، ومحمد.

خمس آيات في كل من البقرة والنساء والتوبة، ٣ في الأنفال، اثنتان في سورة محمد، وواحدة في الأحزاب.

من أصل ١١٤ سورة، هناك ست سور في القرآن فيها «آيات قتال».

وإذا كان الحديث عن الفترة المدنية، ففيها عشرون سورة مدنية، والحديث عن ست سور فقط.

من بين ٦٢٣٤٨ آية في القرآن، منها ١٧١٦ آية في الفترة المدنية هناك أقل من ٢٥ آية عن القتال يتم التركيز عليها على نحو يجعل المتلقي يتخيل أن القرآن هو كتاب إرشادات في الفنون القتالية!

(١) وهناك آيات أخرى تتحدث عن القتال ولكن ليس بصيغة (فعل الأمر) بل تتحدث عن المقاتلين بشكل عام ولا يمكن اعتبارها دعوة للقتال

«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ» (الصف: ٤)

«إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» المزمل(٢٠)

إن لم يكن هذا يصلح ليكون أوضح مثال عن مغالطة الاجتزاء، فلا أعرف إذن ما هو الاجتزاء.

* * *

عدد الغزوات التي وقعت أثناء نزول القرآن، في الفترة المدنية، يناهز ٢٧ غزوة، شارك الرسول عليه الصلاة والسلام فعليا في تسع منها، وأشرف على البقية، وأرسل خمسين سرية خلال نفس الفترة.

٢٧ غزوة، وخمسين سرية،

وحوالي ٢٥ آية فقط، في ١٠ سنوات.

* * *

السور الستة التي وردت فيها آيات القتال نزلت أثناء معارك أو بعدها أو تحدثت عن نتائج معارك، ما الذي يجب أن تتحدث عنه سورة أنزلت في أثناء «حرب»؟ إرشادات لتنسيق الزهور مثلا؟!

آيات البقرة تزامنت مع غزوة بدر وبعض آياتها تزامن مع فتح مكة.

سورة النساء نزلت بعد غزوة أحد وتزامنا مع غزوة حمراء الأسد.

سورة الأنفال تنزلت مع بدر.

سورة التوبة تنزلت آيات منها عندما غدر المشركون ونكثوا العهود التي أقيمت، وآيات أخرى تنزلت مع غزوة تبوك.

سورة الأحزاب تنزلت في غزوة الأحزاب كما هو واضح.

وسورة محمد تنزلت بعد سورة بدر.

* * *

كانت هذه هي الصورة الكبيرة التي تبين أن آيات القتال «قليلة» لو قارناها بمجمل الآيات وكذلك لو قارناها بعدد الغزوات التي حدثت في تلك الفترة.

ولذلك فالتعامل الحالي معها (من الطرفين عموما) فيه اجتزاء واضح للغاية.

ولو اقتربنا أكثر من الصورة، لرأينا ما هو أكثر...

* * *

ضمن آيات سورة البقرة التي تتحدث عن القتال، هناك آيات أخرى تضيف أجزاء أخرى على الصورة التي تقدمها آيات القتال..

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٢-١٩٤)

هذه الآيات تلي آية :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠)
ولكن لا يشار لها في حمى الاجتزاء السائد عند الطرفين، المعنى هنا يتوضح على نحو متوازن، الآية تحدد بقتال الذين قاتلوهم (فقط) ثم تربط استمرار القتال بالطرف الآخر ومواصلته لذلك، ثم تقول أن الأمر هو لرد العدوان على من يعتدي...

ليس هذا فقط..

فعندما تقول لهم السورة «كتب عليكم القتال وهو كره لكم» تتبعها بآية أخرى فورا تقول لهم أن القتال -الذي تكرهه النفس الإنسانية والذي تجبر عليه أحيانا بسبب الظروف- هذا القتال يكون أحيانا من الكبائر!

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ﴾ (البقرة: ٢١٧)

سورة البقرة أيضا هي التي فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨)

ورغم أن أغلب المفسرين يرون أن السلم هنا هو الإسلام بكافة شرائعه، فإن هناك أيضا من يرى أن المعنى هو الدخول في الصلح (ولا يشترط أصلا وجود تعارض بين الأمرين).

من ضمن من نقلوا هذا الرأي: الطبري، الزمخشري، الرازي، القرطبي، والبيضاوي.

وهي أيضا السورة التي فيها: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

وكانت أنزلت في أبناء الأنصار، حيث كانت المرأة التي لا يعيش لها ولد تنذر أن يصبح يهوديا إن عاش، فكبر هؤلاء يهودا، فلما أجليت بنو النضير أراد الأنصار أن يبقوا أولادهم معهم، فنزلت الآية أن لا تكرهوهم على الدخول في الإسلام[1].

* * *

ماذا عن آيات سورة النساء التي تحدثت عن القتال؟

هناك آية تضع استثناءً كبيرا جداً لكل من تحدثت عنهم آيات القتال في السورة، فبعد أن تحض الآيات على القتال بعبارات قوية، تضع استثناء...إلا...

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء:٩٠)

الاستثناء يشمل أولئك الذين يذهبون لينضموا إلى قوم بينهم وبين المسلمين مواثيق وعهود (وليسوا مسلمين أيضا، لكنهم في عهد معهم). هؤلاء يصبحون تحت العهد، ويستثنون من القتال.

كذلك كل من جاء يريد الصلح، أو يريد اعتزال القتال.

هؤلاء دخلوا في الاستثناء الذي يجعل كل من لا يرغب في القتال محميا منه.

عمليا هذا يعني أن الحرب على من يحارب فقط.. من يرغب في ذلك.. وهذا ما أكدته قبلها آيات سورة البقرة.

ماذا عن سورة الأنفال؟

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:١٩)

الخطاب هنا لكفار مكة عندما كانوا يريدون المواجهة في بدر...

إن كنتم تريدون الفتح، فقد جاء - ولكن عليكم وليس لكم..

ولو كففتم عن الأمر (الحرب) فهذا أفضل لكم!

---

(١) سنن أبي داود ٢٦٨٢

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: ٣٩)

حتى آية تأمر بالقتال تضع شرطا ينهي هذا القتال، إن لم يرغب الطرف الآخر بمواصلة الحرب..وبينما كانت هناك آية مشابهة في سورة البقرة فإن تلك الآية كانت تنتهي ب «إن الله غفور رحيم»

بينما ههنا تنتهي: الله بما تعملون بصير....كما لو أنها تؤكد على تنفيذ هذا الشرط "" يوقف القتال.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١)

هذه القاعدة عامة، متى ما أرادوا الصلح، أنت تريده أيضا!

ماذا عن سورة التوبة؟

سورة التوبة تعتبر (من الطرفين) أكثر سورة «محرضة» على القتال.

لكن النظرة المتفحصة للسورة ستعطينا كما كبيرا من الشروط الملحقة بهذا القتال.

هناك أولا مهلة أربعة أشهر قبل البدء به!

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة:٢)

أربعة أشهر، فيها فرصة كبيرة جدا لحل الأمر، السورة نزلت بعد أن نقض المشركون عهدهم وغدروا، وهذه الأشهر الأربعة كافية لكي تكون «للسلام فرصة»

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣)

باب التوبة (عن نقض العهد) مفتوح، وسيلغي هذا إنذار الحرب!

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤)

بشارة للذين كفروا بعذاب أليم، مع استثناء الذين لم ينقضوا العهد!

حتى الذين قالت عنهم السورة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وضعت لهم فرصة للخروج من كل هذا ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ٥)

أكثر وأكثر من كل هذا..

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦)

حتى لو طلبوا الحماية! قدم لهم الحماية، امنحهم الأمان.

حتى عندما تقول عنهم السورة ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (التوبة: ١٠) فإنها تكملها بشرط يجعلهم «إخوانا»

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ١١)

هذه هي سورة التوبة!.. نعم بالتأكيد هناك قتال وهناك حرب، لم يقل أحد أن الإسلام دين يؤمن بمذهب اللاعنف [١] على طريقة غاندي، ولكن هناك أيضا أبواب مشرعة للصلح في كل خطوة، وشروط تجعل القتال مُقَنناً منذ بدايته.

بينما الصورة التي تصلنا من داعش وأخواتها هي أن «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» تعني أن علينا أن نبحث عنهم في كل مكان لنقتلهم..

والصورة التي تصلنا من أعداء الدين هي أنه دين يعتاش على دماء القتلى.

بينما النظرة المتفحصة للصورة الكبيرة التي تشكلها النصوص القرآنية ككل ستمنحنا توازنا واقعيا في العلاقة مع الحرب والقتال.

لا مثالية خيالية طوباوية تحرّم استخدام القوة، وتجعل المجتمع في مهب أطماع الجميع.

ولا إفراط في استعمالها دون ضوابط مقننة، يجعلها موجهة لكل مخالف عقيدة.

---

(١) الحقيقة قالوا، لكن ما علينا

آية الحرابة

واحدة من الآيات الأخرى التي يحشرها الطرفان في الأمر هي آية الحرابة، تعامل كما لو كانت من آيات القتال رغم أنها آية تطبيق قانون يحمي المجتمع ويرسي الأمن والأمان فيه مهما قد يبدو الثمن باهظا للبعض..

في تلك الفترات، كان قطاع الطرق من البدو والأعراب يشكلون خطرا كبيرا على القوافل التجارية أو قوافل الحج أو أي مسافر لأي غرض، وكانوا في أحيان كثيرة يقتلون ضحاياهم بالإضافة إلى نهبهم ونهب رواحلهم وما يحملون.

ما كان يمكن أن يكون لدولة ناشئة أن تثبت قوتها وترسي دعائمها دون أن تتصدى لهذه الجرائم وبعقوبات مشددة تستأصل محاولة تكرار الأمر من قبل آخرين.. الأمر هنا لا علاقة له بعقيدة أو إيمان أو كفر أو شرك من قريب أو بعيد، بل بجرائم سطو مسلحة وقتل بغرض السرقة، يمكن لمن يفعلها أن يكون قد نطق الشهادة ويمكن أن يكون كتابيا أو مشركا، ولكن العقوبة المشددة تنفذ فيه بكل الأحوال..

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣)

يحاربون هنا - لا تعني القتال - بل تعني من خرج ليسرق عبر قطع الطرق باتفاق كل المفسرين.

العقوبات شديدة؟ ربما. كذلك الجريمة كبيرة والآثار المترتبة عليها كبيرة.

الآية تترك تدرجا في العقوبة يرتبط بدرجة الجريمة المرتكبة (حيث قد تشمل السرقة فقط دون قتل على سبيل المثال) ولعله يترك الأمر لعرف الناس وتقبلهم أو بظروف مشددة أو مخففة.

داعش من جهتها تختار أن تنفذ العقوبة الأقصى...

رغم أن وضعها ينطبق أكثر على من يجب أن ينفذ فيه حد الحرابة.

لا أن ينفذه.

الحديث النبوي والعنف

إذا كانت الآيات القرآنية تتعرض لمغالطة الاجتزاء والمغالطات الأخرى، فالأحاديث النبوية ستتعرض لهذا من باب أولى...

نفس التعامل «المطلق» الذي يحدث مع كل آية بجعلها منفصلة عن كل ما سبقها ولحقها وكل ما يرتبط بها من أحداث، سيحدث أيضا مع الأحاديث، وهو أمر سيكون أخطر مما يحدث مع الأحاديث إذ أننا نعرف الكثير من أسباب نزول الآيات، ولا نعرف بالضرورة الكثير مما كان يحيط بالأحاديث وقت قولها.

لكنها ستتعرض أيضا لما هو أخطر من ذلك.

ستتعرض إلى أن تعامل الأحاديث كما لو أنها بنفس قوة الآيات القرآنية الكريمة، بل أقوى.

ستعامل كما لو أنها تنسخ كل ما يمكن أن يخالفها من آيات قرآنية.

وينتج عن هذا مشاكل جمة...

* * *

من ضمن هذه الأحاديث:

١. حديث **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ»**[1].

يعتبر هذا الحديث بمثابة (المانيفستو) أو (البيان رقم واحد) الذي تستعمله داعش في حربها العالمية ضد البشرية جمعاء.

والحديث صحيح بلا شك، بل هو متفق عليه، وقد رواه عن الرسول عليه الصلاة والسلام عدد من الصحابة مثل (عبد الله بن عمر وأبو هريرة ومعاذ بن جبل وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله)..

لكن التعامل (المجتزأ- المطلق) الذي يجعل كلمة الناس تعني (البشرية جمعاء) أمر كارثي، فهو يجعل «أمر الله للرسول هو أن يحارب الناس، كل الناس، لكي يدخلوا في الإسلام غصبا، أو يقتلوا» -وهو ما لم يفعله الرسول عليه الصلاة والسلام بالأساس.

---

(١) صحيح البخاري ٢٥

فالحديث إذا كان يعني قتال كل الناس حتى يعلنوا إسلامهم يناقض مجموعة حقائق: أهل الكتاب مثلا (وهم أيضا من الناس) لم يفرض إسلامهم بل كان بإمكانهم دفع الجزية.

كما أن القرآن وضح من هم المشركون الذين يقاتلون

«وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» (التوبة: ٣٦)

«وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» (البقرة:١٩٠)

«إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» (التوبة: ٤)

أي أن المشركين الذي يقاتلون (حسب القرآن) هم المقاتلون، المعتدون، ناقضو العهود...

يفترض أن نفهم الحديث الصحيح بالمنظار وزوايا الرؤية التي يشكلها القرآن، وليس العكس...

علما أن كلمة المشركين كانت واضحة وقتها وتعني عبدة الأوثان ولا تعني كل من لسنا «مقتنعين بصحة توحيده» أو بمن نعتقد «وجود خلل في عقيدته» كما تفعل داعش.

أما الملحدون فهم يأخذون هذا الانتقاء ويتناسون عشرات النصوص الأخرى التي تشير إلى أهل الكتاب وتعتبر النصارى مثلا الأقرب مودة أو يتناسون وفد نصارى نجران الذين استقبلهم الرسول عليه الصلاة والسلام والعهدة العمرية التي قدمها عمر بن الخطاب لمسيحيي القدس وبقيت تعتبر واحدة من أهم وثائق الحرية الدينية والتسامح الديني لعصور.

٢. «**والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح**»[1] وهو حديث صحيح آحاد رواه عمرو بن العاص والطريقة التي يقدم فيها الحديث توحي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد جمع أهل مكة وخطب فيهم قائلا: لقد جئتكم بالذبح.. كما لو أنها هذه هي رسالته وهذا هو بيانه وهذا هو محور منهجه.

والحقيقة هي أن هذا القول قيل أثناء تعرضه عليه الصلاة والسلام إلى مضايقات من قبل شيوخ قريش في مكة حيث كانوا يغمزونه مرة تلو أخرى أثناء طوافه بالكعبة فقال لهم الكلمة مهددا وقد أوقفتهم عند حدهم وانصرفوا كأن على رؤوسهم الطير.

(١) مسند أحمد ٧٠٣٦

٣. «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»[1] وهو حديث آحاد آخر مختلف في صحته بين الضعيف والحسن وهو حديث شهير جدا ومتداول عند داعش لدرجة أن الناس قد تستغرب الحديث عن ضعفه.

بينما يتجاهل الطرفان آيات كثيرة وأحاديث ومواقف كثيرة مثل (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) أو العفو العام عن أهل مكة بعد الانتصار عليهم أو حديث أن امرأة دخلت النار في هرة عذبتها أو حديث الرحمة حتى بالشاة أثناء ذبحها.

* * *

كل ما يستخدم من نصوص نبوية سيقع في واحدة من هذه الإشكالات التي مر ذكرها، إما أن يكون الحديث حديث آحاد يجب أن يفهم من خلال القرآن وليس العكس، أو أنه حديث منتزع من سياق محدد كان الحديث فيه طبيعيا تماما، أو أن الحديث أصلا ليس بصحيح، ولا يجب الاستدلال به.

هذه الإشكالات التي يسقط فيها مبررو العنف يستغلها الملحدون ليقولوا لنا: هذا هو الدين الذي تؤمنون به...

لكنك لست مضطرا إلى أن تقف مع أي طرف من هذين الطرفين...

(١) مسند أحمد ٥١١٥

داعش ودعوى تمثيل الإسلام

لم تهبط داعش علينا من كوكب آخر.

ولم تولد في الأقبية السرية لوكالات المخابرات العالمية، رغم أن ذلك يروق لنا كثيرا، ورغم أن استثمارا كبيرا حدث فيها من قبل هذه المخابرات لتصب أفعال داعش في مصلحة هذه الجهة أو تلك، فإن من السذاجة التصور أن الطبيب الذي أجرى العملية القيصرية هو المسئول عن وجود الجنين ابتداء.

داعش نشأت بسبب عوامل متعددة، معادلة النشوء تضمنت وجود ظروف دولية معقدة، مشروع إقليمي طائفي، أنظمة حكم استبدادية وفاسدة، دول فاشلة، كل هذه ظروف تخلق صراعات تؤدي إلى العنف.

لكن العنف يحتاج إلى تبريرات، يحتاج إلى ما يمنحه الشرعية، بل يحوله إلى بطولة في نظر البعض.

قد يكون هذا التبرير عبر شعارات الوطنية أو القومية أو العرقية، قد يكون عبر الأيديولوجيات.

لكن النصوص الدينية عندما تستغل في هذا الأمر- عبر مغالطات الاجتزاء والتوظيف التي مر ذكرها- فإنها تتفوق على كل ما سبق في أنها تضفي القداسة على هذا العنف، تجعله محصنا أمينا إيمان الناس وقناعاتهم، بل تزيد على البطولة بريق الشهادة والمصير الأخروي المرتقب: الجنة.

هكذا تولد داعش وأخواتها من الجماعات المماثلة.

الظروف المحيطة التي تدفع البعض إلى العنف حقيقية، النصوص المستثمرة في العنف موجودة بالفعل ولكن ضمن سياقات مختلفة، وهناك أجهزة مخابرات تستثمر كل ذلك.

ربما كان قادة هذه الجماعات ومؤسسوها مسيرين أو مخترقين من قبل قوى دولية، لكن من الصعب أن يكون كل الأفراد فيها مرتبطين على هذا النحو، بل غالبا هم مخدوعون بالشعارات المستخدمة ومؤمنون بصواب ما يفعلون..

والأسوأ والأخطر من ذلك «فريق التشجيع» الذي يصفق لما تفعله هذه الجماعات دون أن ينضم فعليا لها.

هذا الفريق يدل على قوة ما تستخدمه الجماعات من نصوص وشعارات.. يدل على وجود مشكلة كبيرة في الأفكار المتولدة من مغالطات التعامل مع هذه النصوص.

وهذا التصفيق يوحي بالفعل للبعض أن داعش تمثل الإسلام...

داعش بكل لغات العالم

لو كنا نعيش في الفترة بين ١٧٨٩ و ١٧٩٤ لكنا غالبا نتحدث عن أن الليبرالية حركة إرهابية دموية.

ذلك أن ليبراليي الثورة الفرنسية ارتكبوا في تلك الفترة مجازر مروعة، حتى أن تلك الفترة سميت ب (عصر الرعب reign of terror[1]). تضمنت هذه الفترة أكثر من ٣٠ ألف حكم إعدام ميداني، نصفهم تقريبا خلال ٩ أشهر فقط.

عدا عن أشخاص قضوا في السجن، أو أقدموا على الانتحار بسبب ما رأوه من أحداث.

حتى أن المقصلة صارت تعد رمزا للثورة الفرنسية.

ولو كنا نعيش بين الأعوام ١٩١٧ و ١٩٢٢ لكنا غالبا نتحدث عن أن الشيوعية حركة إرهابية دموية متطرفة، كان ذلك عصر (الرعب الأحمر Red Terror)، عدد الضحايا كان يتراوح بين ١٠,٠٠٠ شخص و ١,٥٠٠,٠٠٠ شخص[2].

كرر الشيوعيون ذلك في الصين وكمبوديا وفيتنام.

في الصين بين الفترة بين ١٩٢٧ و ١٩٤٩ كان ضحايا الإرهاب الشيوعي (كما أسمته الأمم المتحدة) أكثر من ضحايا اليابان في الصين[3]، وهو رقم مقدر ب ٦ ملايين صيني[4].

---

(1) Reign of Terror Wikipedia

(2) Red Terror - Wikipedia

(3) Communist terrorism - Wikipedia

(4) Japanese war crimes - Wikipedia

في كمبوديا بين ١٩٧٥ و ١٩٧٩ قام الخمير الحمر الشيوعيون بتطهير عرقي تجاوز ضحاياه المليونان[١].

* * *

كل الأديان أيضا وجدت أذرعا تمارس العنف والإرهاب والقتل باسم الدين، نحن نتخيل أن الأمر خاص بالإسلام لأننا نعيش عصرا أتاح لداعش وأخواتها بالازدهار والتمدد، لكن لو كنا نعيش في عصور أخرى لألصقنا التهمة بالكاثوليكية أو البروتستانتية أو اليهودية.

حروب الإبادة التي شنها المستوطنون الأوروبيون ضد سكان أمريكا الأصليين والتي راح ضحيتها الملايين كانت بدفع وتشجيع من أعلى سلطة في الكنيسة الكاثوليكية، البابا وعبر مراسيم بابوية رسمية[٢].

في أمريكا قامت حركة الكوكلاكس كلان ليس ضد السود فقط كما هو منتشر، بل أيضا ضد الكاثوليك وضد اليهود، وكانت تدعي الحفاظ على القيم المسيحية البروتستانتية، وكان لها طريقة مميزة شعائرية في قتل ضحاياها الذين وصل عددهم إلى الآلاف[٣]. ويمكن بسهولة البحث في الشبكة عن مقالات تقارن داعش بالكلان[٤] كتبت من قبل نشطاء في حقوق الإنسان لا علاقة لهم بالإسلام.

كرواتيا شهدت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي بروز مجموعة إرهابية تسمى أوستاشي، كانت تتبنى المذهب الكاثوليكي وارتكبت مجازر ضد الصرب (من المذهب الأورثودوكسي) واليهود. عدد الضحايا يقدر بمئات الآلاف[٥].

آيرلندا شهدت أكثر من مجموعة صنفت بأنها «إرهابية» حتى السبعينات من القرن الماضي كل منها مضادة للأخرى، بعضها يتبنى الكاثوليكية والبعض الآخر يتبنى البروتستانتية[٦].

---

(1) Khmer Rouge - Wikipedia

(2) The Role of Christianity in Historic Oppression.Fred Whitehead
http://ili.nativeweb.org/newstudy.html

(3) Grant, Reconstruction and the KKK | American Experience | Official Site | PBS
http://www.pbs.org/wgbh/americanexperience/features/grant-kkk/?flavour=mobile

(4) «ISIS is no worse than the KKK» | chrishernandezauthor
https://chrishernandezauthor.com/2015/03/03/isis-is-no-worse-than-the-kkk/

(5) Ustashe - Wikipedia

(6) The Troubles - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/The_Troubles

كذلك شهدت أفريقيا[١] والهند[٢] العديد من التنظيمات المصنفة بأنها إرهابية والتي تدعى الانتساب لهذا المذهب من المسيحية أو ذاك. شهدت الهند أيضا نشوء مجموعات إرهابية هندوسية[٣]

اليهودية أيضا وجدت تنظيمات تسعى لتحقيق غايات سياسية استيطانية تحت شعارات دينية، مثل عصابات الهاغاناه والأرغون والأخيرة كانت توصف بالإرهاب من قبل الأمم المتحدة والحكومة البريطانية والإعلام الأمريكي في الأربعينات[٤].

حتى الأديان التي عرفت بكونها ضد العنف بكل الأحوال (مثل البوذية) فهي تجد (تطبيقات) شديدة العنف والدموية في بعض الأحيان كما في مشاركة وتحريض الرهبان البوذيين ضد الأقلية المسلمة الروهينجا في بورما أو في سريلانكا[٥].

فلأشدد هنا أني لم أذكر جرائم «الاستعمار» التي ارتكبت فيها فظاعات مثل جرائم الاستعمار الفرنسي من قطع الرؤوس وجمع الجماجم أو ما فعله الاستعمار البلجيكي في الكونغو[٦] أو الجرائم بحق الأرمن التي ارتكبها الأتراك، أو الهولوكوست ضد اليهود التي ارتكبها النازيون، أو جرائم الجيش الياباني في الصين[٧] أو القنبلة الذرية الأمريكية ضد اليابان أو عموم جرائم الحرب العالمية الأولى والثانية.

هذه الأمثلة لا يمكن ربطها بدين أو مذهب منفذيها بسهولة حتى لو استخدمت فيها شعارات دينية وذلك لأنها كانت جزءا من حروب دولة.

داعش لا يجب أن تقارن بحروب الدول، بل بحروب التنظيمات والعصابات التي تتبنى أيديولوجيات دنيوية أو تفسيرات دينية. وقد كان.

---

(1) Anti-balaka - Wikipedia

(2) National Liberation Front of Tripura - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/National_Liberation_Front_of_Tripura
Manmasi National Christian Army - Wikipedia

(3) Vishva Hindu Parishad - Wikipedia
Bajrang Dal - Wikipedia

(4) Zionist political violence - Wikipedia

(5) Backlash Begins Against Burma's Islamophobic Buddhist Monks | Time
http://time.com/4405678/burma-myanmar-buddhist-muslim-wirathu/

(6) Atrocities in the Congo Free State - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Atrocities_in_the_Congo_Free_State

(7) Nanjing Massacre - Wikipedia

بعد أن حددت كل هذا، يمكنني أن أقول أن داعش والفكر الذي تتبناه هي سرطان يجب استئصاله.

نعم هي سرطان في جسد الإسلام ويجب استئصاله من جذوره، ولكنه ليس سرطانا خاصا بالإسلام وحده، بل هو سرطان يظهر في كل الأديان والأيديولوجيات.

أو بالضبط كما وصفت من قبل أحدهم: تحمل عقلية القرون الأوروبية الوسطى، ولكن مع أسلحة القرن الواحد والعشرين[1].

ما يجعل داعش مختلفة عن بقية التنظيمات المرتبطة بالأيدولوجيات والأديان هو مجيئها في وقت عولمي جعلها تعمل على نطاق العالم وليس على نطاق محلي كما سبق مع التنظيمات الأخرى، وجعل كل ما تفعله وتفخر به ينتقل في لحظات إلى كل بقاع الأرض على نحو يجعلنا نتصور أنها حالة نادرة في التاريخ.

داعش تعتمد كليا على انتقاءات محددة يجعلها لا ترى من الإسلام إلا جزءا محددا للغاية وتتجاهل الصورة الكلية.

هذه النظرة الجزئية التي تستخدمها داعش لتبرير شرعيتها هي نفسها نظرة الملحدين الذين يتجاهلون تسعة أعشار الإسلام وأكثر لينظروا إلى الجزء الذي تلتصق به داعش ثم يقولون: هذا هو الإسلام.

* * *

ضحايا داعش المباشرون يتصدرون نشرات الأخبار العاجلة. أرقامهم على الأقل. يحصل ذووهم على التعاطف والتضامن، أو على الأقل على مظاهر ذلك.

لكن هناك ضحايا يسقطون بصمت، لا أحد يتحدث عنهم، رغم أن أعدادهم قد تزيد عن ضحايا الأخبار العاجلة..

هؤلاء الضحايا هم أولئك الذين تضربهم داعش في إيمانهم، تبيعهم وهم أن هذا هو الإسلام، فيصدقونها، لا يؤيدونها ولا يصفقون لها، بل يقولون: هل هذا هو الإسلام حقا؟ يقارنون بين ما تستخدمه من نصوص، وبين ما تروجه من أفعال...ويقولون في أنفسهم... نعم.. يبدو الأمر كذلك...

---

(1) KKK Was Terrorizing America Decades Before Islamic State Appeared Julia Craven | HuffPost.Feb 2015
https://www.huffingtonpost.com/2015/02/27/kkkterroristorganization_n_6764866.html?ncid=fcbklnkushpmg00000013

داعش أصابت هؤلاء في إيمانهم...

إنهم الضحايا الذين لا نسمع عنهم في الأخبار.. لكن أعدادهم أكبر للأسف.

* * *

لكن لماذا ترك الله الدين يخطف على هذا النحو من قبل مجرمين كهؤلاء؟

لقد حذرنا أن هذا سيحدث، لأنه حدث مع الكتب السماوية السابقة. حذرنا من أن نترك ذلك يحدث. فعل ما يجعل ذلك أسهل علينا، فلم يتغير «حرف» فيه. فكان علينا أن ننتبه على ما يفهم منه.. على تحريف الفهم..

كان هذا جزءا من امتحاننا أصلا..

* * *

داعش تمثل الإسلام؟

...إن كانت مقصلة الثورة الفرنسية تمثل الليبرالية..

وكوكلاكس كلان تمثل البروتستانتية.

ملف الحريات

الحرية الشخصية

نعيش في عصر يعتبر الحرية الشخصية واحدة من أهم مقدساته وخطوطه الحمراء.

أغلب شباب اليوم نشأوا وكبروا في ظلال مفهوم الحرية الشخصية (أنا حر - أنا حرة) حتى صار من بديهياتهم التي لا تناقش، ومن ثم ووسط مشاكل أخرى ومواجهات أخرى مع الدين، وجد بعضهم أن التعليمات الدينية تمثل تحديا لمفهوم الحرية الشخصية المقدس الذي يؤمنون به.

بالنسبة لهؤلاء، وقد تشكلوا على مفهوم الحرية الشخصية، الدين (أو على الأقل الدين كما قدم لهم) يتدخل في أكلهم، في شربهم، في لبسهم، أحيانا في طريقة كلامهم، في تسريحة شعرهم.. فيما يشاهدون، فيما يسمعون.. وأيضا وبالتأكيد في علاقاتهم «الشخصية».

بعضهم يقول متذمرا بوضوح: «الله يتدخل في شئوننا الشخصية».

جملة ما كان يمكن تصور سماعها بوضوح قبل عقود فقط، بل قبل سنوات!

لكننا وصلنا إلى هنا.

كيف أصبح مفهوم الحرية الشخصية حِصْناً مُقَدّساً - ويمكنني أن أقول إلها معبودا بمعاني كثيرة - أو على الأقل معيارا للحكم على الأشياء..

كيف وصلنا إلى هنا؟

في البداية، الحرية بمفهومها العام أمر قديم قدم البشر أنفسهم، البشر مفطورون على فعل ما يريدون غريزياً ودون تنظير أو أيديولوجيا من أي نوع.. لكن البشر أيضا لا يستطيعون أن يعيشوا فرادى، وعيشهم في مجتمعات يحتم عليهم التنازل عن بعضٍ من حريتهم أو ما يرغبون بفعله غريزيا.

هكذا تقوم المجتمعات بوضع «عقد اجتماعي» خاص بها لتنظيم العلاقة بين الفرد والمجتمع غالبا بجعل حرية الأفراد لا تؤدي إلى الإضرار بالمجموع...وتختلف طبيعة تقدير الضرر من مجتمع إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى وبالتأكيد من زمن إلى آخر(١).

تشريعات الأديان لم تختلف كثيرا عن هذا الأمر، الأساس كان تنظيميا إلا أن سلطتها كانت روحية وشخصية أكثر.. ولكن الأمر لم يقتصر أبدا على الأديان، فالأعراف والقوانين كانت دوما موجودة ولها قوة وسلطة لا تقل عن سلطة الدين.

في المجمل وعبر العصور والأديان والأعراف المختلفة: كان العقد الاجتماعي يقوم على تقديم المجتمع على الفرد.

ثم جاء مفهوم الليبرالية الغربية ليكون فاصلا مختلفا عن كل ما سبق ولتبدأ العلاقة بين الفرد والمجتمع بأخذ منحنى جديد..

أو على الأقل في جوانب كثيرة من حياة الفرد الشخصية.

مولود في القرن الثامن عشر

ولد الفكر الليبرالي في أول أشكاله في عصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر الميلادي، وكان التركيز في هذا الفكر على مبدأين أساسيين: الحرية والمساواة(٢).

والحرية هنا هي liberty وهو ما اشتقت منه لفظة الليبرالية.

الليبرالية كانت في بدايتها فكرا سياسيا يعكس تحرك المجتمعات الأوروبية نحو تقليل سيطرة الملكية وفضم سيطرة النبلاء والإقطاع لصالح الطبقة الوسطى(٣)، وكان من الطبيعي أن تنتشر هذه الأفكار في المجتمع وبين مختلف الطبقات وأن تتشكل مفاهيم وفلسفات أخرى مرتبطة بالليبرالية.

---

(1) Collective Wisdom and Civilization: Revitalizing Ancient Wisdom Traditions Thomas Keifer.Comparative Civilizations Review. Vol.72, Number 72.2015
https://scholarsarchive.byu.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=1951&context=ccr

(2) Liberalism and Enlightenment in Eighteenth-Century Germany. Schmidt, James.Critical Review.Vol>13.1999.
https://open.bu.edu/bitstream/handle/2144/3878/schmidt_cr13_preprint.pdf?sequence=2

(3) Liberalism: A short History, Richard Allsop. Foundations of Westeren Civilization. p22-30
https://www.mannkal.org/downloads/events/WesternCiv2017/Liberalism%20-%20A%20Short%20History.pdf

أهم هذه الفلسفات هي فلسفة الفردية individualism [١] والتي نشأت في القرن التاسع عشر لتصبح واحدة من أهم ما يميز الحضارة الغربية [٢] خاصة بنسختها الأمريكية [٣].

مع فكر الفردية أصبح (الفرد) هو الأساس وهو المعيار، كل القيم الأخلاقية صارت تمر من خلال الفرد، وأصبح الفرد مقدما على المجتمع بعد أن كانت قيم المجتمع هي التي تُفرَضُ على الفرد، وأصبح الفرد هو الوحدة الأساسية لهذا المجتمع.

وهكذا كان من المنطقي جدا أن تتآكل القيم الأخلاقية (القديمة) - التي كانت معاييرها تنصبُّ على المجتمع- وتنشأ قيم أخلاقية مختلفة..

ولأن كل هذا نشأ بالتزامن مع الثورة الصناعية وصعود الرأسمالية فإن القيم الأخلاقية التي نشأت كان لا بد أن تراعي هذا التغير وتمنح للفرد مساحة حرية شخصية واسعة (فيما يتعلق بحياته الخاصة) مقابل فرض أخلاق مرتبطة بالعمل (احترام قيم العمل والإنجاز والوقت.. إلخ)، وهو أمر كانت البروتستانتية أصلا قد بدأت بتكريسه.

العقد الاجتماعي الجديد في ظل الليبرالية والفردية الغربية كان يقدم للفرد حرية أن يفعل ما يريد داخل مساحته الشخصية مع الأشخاص الذين في داخل هذه المساحة (وبموافقتهم) لكن عليه أن يذهب مبكرا إلى عمله ويؤديه بشكل جيد.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الديمقراطية الغربية ليست مرتبطة بالليبرالية فقط، بل أيضا بالفردية بشكل مباشر [٤]...في النهاية فكرة one man one vote صوت واحد لكل رجل هي فكرة تنصب الفرد ليكون مرجعا أعلى للتشريع .

بل أن مفهوم الفردية ساهم في تشكيل ما يعرف بدولة الرفاهية الاجتماعية welfare state [٥] وهي الدولة التي تقوم بتوفير حد أدنى (مرتفع أحيانا) من المتطلبات لمواطنيها (مثل ألمانيا والدول الاسكندنافية مثلا).

---

(1) Liberalism: A short History pp10

(2) The Meanings of «Individualism»Steven Lukes Journal of the History of IdeasVol. 32, No. 1 (Jan. - Mar., 1971), pp. 45-66
https://pdfs.semanticscholar.org/a501/34a756efffc17563b249b88c3f0588b6b553.pdf

(3) The Embodiment of Individualistic Values in American Nationality
http://citeseerx.ist.psu.edu/viewdoc/download?doi=10.1.1.883.1087&rep=rep1&type=pdf

(4) DEMOCRATIC INDIVIDUALISM AND ITS CRITICS George Kateb Annual Review of Political Science Vol. 6:275-305 (Volume publication date June (2003003)

(5) From Collectivity to Individualism in the Welfare State? Pekka Kosonen Acta Sociologica Vol. 30, No. 3/4 (1987), pp. 281-293

لا يمكن أن ننكر الدور الإيجابي الذي لعبته الفردية في التجربة الغربية، فقد كان لها دور الداينمو في حياة الكثيرين ممن استخدموها لتحقيق منجزات شخصية أصبحت لاحقا منجزات للحضارة الغربية ككل. شعارات رائجة مثل «اتبع شغفك» و «اتبع قلبك» و«حقق ذاتك» كلها يمكن فهمها في هذا السياق.

وبالتأكيد فإن الفردية -لأنها تركز على الفرد وحريته وابداعه- فهي «حيوية» وأساسية بالنسبة للفنانين والأدباء الذين كان من الطبيعي أن يقدموا ذلك في أعمالهم[١]، والتي بدورها ساهمت في نشر الفكرة وتكريسها حتى خارج سياقاتها..

وهذا ساعد على انتشار فكرة «الحرية الشخصية» بنكهة «الحلم الأمريكي» في العالم كله[٢]، مفهوم «الفردية» لم يعد أمريكيا - غربيا كما بدأ، بل أصبح عالميا، حيث وثقت الدراسات زيادة معدلات الفردية في ٧٨ دولة وعبر مقارنة للمعلومات امتدت ٥١ عاما[٣].

لكن ما انتشر لم يمر بالضرورة بنفس سياقات الديمقراطية المتدرجة التي مر بها الغرب ومفهوم الفردية الذي يركز على الفرد ويقويه ليكون معيارا للحكم على الأشياء.

الأمر انتقل إلينا عبر تركيز يأخذ من «الحرية الشخصية» مظاهرها السطحية، دون المرور بشطر المسئولية ووجود قيم أخلاقية أخرى في الغرب.

ولكن لم يكن الأمر بلا ثمن باهظ، سواء في الغرب (المصدر الأصلي للبضاعة) أو في البلدان المستوردة لها... لقد تضخم مفهوم الحرية الشخصية بالتدريج حتى أصبح سرطانا قضم «العائلة» عندما صارت الفردية سببا رئيسيا في زيادة معدلات الطلاق والانفصال[٤]

(1) Izaguirre, John, «The American dream and literature: how the themes of self-reliance and individualism in American literature are relevant in preserving both the aesthetics and the ideals of the American dream» (2014). College of Liberal Arts & Social Sciences Theses and Dissertations. 164. https://via.library.depaul.edu/etd/164

(2) AMERICAN DREAM: THE AMERICAN HEGEMONIC CULTURE AND ITS IMPLICATIONS TO THE WORLD. Kasiyarno. Humaniora, Vol.26.no.1.2014
https://media.neliti.com/media/publications/11573-ID-american-dream-the-american-hegemonic-culture-and-its-implications-to-the-world.pdf

(3) Global Increases in Individualism Santos at al, Psychological Science, Vol 28, Issue 9, 2017
https://www.academia.edu/31723600/Global_Increases_in_Individualism

(4) THE RISE OF DIVORCE AND SEPARATION IN THE UNITED STATES, 1880-1990. STEVEN RUGGLES. Demography. 1997 Nov; 34(4): 455-479.
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3065932/

وأثر المفهوم أيضا على «السعادة الشخصية»[1] و«الصحة النفسية»[2]...

وتحول مفهوم عدم التدخل في الحياة الشخصية من وسيلة لمنع الأقارب والأصدقاء والجيران -بل والمارة أحيانا- من التدخل في حياتنا الشخصية (وهو منع ضروري في رأيي) إلى عدم تدخل «العائلة» وصولا إلى (لماذا يتدخل الله في خصوصياتي؟)..

بل أننا وصلنا إلى لماذا خلقنا الله دون أن يأخذ الإذن منا؟)...

لقد وصل الأمر إلى حدود «ما وراء الطبيعة» حرفيا.

هذا الإفراط في الإيمان بالحرية والشخصية والفردية أدى إلى تخريب العلاقة مع شريك حياتك، وعائلتك.. ومع نفسك...

ووصل إلى حد العلاقة مع «خالقك».

«الحرية الشخصية» لا تشمل تعليمات المُصّنِع

ما يسمونه تدخلا من الله في الحياة الشخصية هو ببساطة تشريعاته ..أوامره.. نواهيه..

وهم يعتبرون أن هذه الأوامر والنواهي هي بمثابة تدخل منه عز وجل فيما لا يخصه..

أعتقد أن ثمة خطأ كبير في الفهم هنا.. فهم لموضوع الحرية الشخصية.. وفهم «الله»... وفهم حتى لمسألة التدخل...

جارك الفضولي إذا سألك عن أمور لا تعنيه، وتبرع بتقديم النصح لك من خلاصة تجاربه وتجارب أقاربه أو دون تجارب أصلا ...هذا الجار عندما يفعل ذلك فإنه يتدخل فيما لا يعنيه.

لأن هذا لا يعنيه فعلا.

لكن إسقاط ذلك على الله، يعني وجود مشكلة كبيرة.

---

(1) Does individualism bring happiness? Negative effects of individualism on interpersonal relationships and happiness . Ogihara et al. Frontier in Psychology. 2014; 5: 135. Published online 2014 Mar 5

(2) Disadvantages of being an individualist in an individualistic culture: Idiocentrism, emotional competence, stress, and mental health in Australian Psychologist 39(2):143-153 · May 2004

Is an increase in individualism Damaging Our Mental Health? Rising rates of individualism may be having negative mental health consequences. Rob Whitley Posted Jul 28, 2017

https://www.psychologytoday.com/us/blog/talking-about-men/201707/is-increase-in-individualism-damaging-our-mental-health

أنت لا تقول للشركة التي صنعت سيارتك أن لا تطلب منك أن تغير زيت المحرك كل مسافة معينة أو أن لا تقود دون أن تأخذ احتياطات الأمان. ببساطة لا يمكنك أن تقول أن هذا تدخلا في خصوصياتك. يمكنك أن لا تنفذ التعليمات طبعا، بل ويمكنك حتى القول«ليس من شأن الشركة، لقد اشتريتها والأمر على مسؤوليتي». هذا شأنك، وعليك أن تتفهم وتتوقع وجود عواقب لذلك. إذا تعطل المحرك تماما لا تستطيع أن تلوم الشركة، إذا أصبتَ أو من معك في حادث وأنت لم تتخذ إجراءات السلامة، فأنت لا تستطيع أن تقاضي الشركة أو تطالبها بتعويض. أنت من يلام أولا وأخيرا.

الله جل وعلا عن أي تشبيه، هو الخالق، هو الصانع، وجود تعليمات مصاحبة مع أي سلعة مصنعة هو جزء من معايير جودة حتمية...

إن كنت ترفض ذلك، ترفض أنه هو الخالق والصانع، فنحن في منطقة مختلفة تماما، لقد وصلنا إلى هنا عن طريق الخطأ.. وإكمال النقاش في هذا الاتجاه لا يجدي.

إن كنت لا ترفض ذلك مبدئيا، ولكن فكرة «الحرية الشخصية» وتعارضها مع «تشريعاته» تقودك إلى «رفض وجوده» فهذا يعني أنك دخلت من الباب الخطأ أيضا.. فهمت الأمر معكوسا...

ما أتفهمه تماما هو أنك إذا كنت تؤمن به وبوجوده، وتؤمن أيضا بـ «الحرية الشخصية»، فإنك ستشعر بالتناقض بين حريتك وتعليماته، ستشعر بالضيق وتتذمر من ثقل هذه التعليمات.

أتفهم تماما أن تقول: لماذا يهتم بهذه التفاصيل الصغيرة؟ لماذا «خالق هذا الكون كله» يهتم أو يغضب لما ألبسه أو آكله أو أشربه أو أقوله؟

هذا أتفهم أن تشعر به وتقوله. وهو أمر يمكن مناقشته..

* * *

مبدئيا، التعليمات والقوانين - في أي مجال- لا يفترض أن تشعرك بالراحة، بل غالبا لتحقيق مصلحتك، ولو كانت مصلحتك غير منظورة لك على المستقبل القريب، أو بأن تكون مصلحتك متحققة عبر مصلحة الجميع.

أنت لا تدفع الضرائب لتشعر بالراحة، بالتأكيد لا أحد يشعر بالفرح وهو يدفع ذلك، لكن ثمة مصلحة متحققة للمجتمع من ذلك، ومصلحتك تتحقق من خلالها ودون أن تشعر بذلك مباشرة.

التزامك بقوانين السير لا يحقق لك الراحة، ربما حزام الأمان يضايقك أحيانا، تخفيف السرعة في مناطق معينة يبدو بلا معنى وأنت على عجلة من أمرك ويكاد موعدك يفوتك. لكن الالتزام بكل هذا يحقق لك الحماية والأمان، أمران لا تشعر بهما إلا إذا وقع حدث أمامك أو سمعت بحادث نتيجة السرعة أو عدم ارتداء حزام الأمان.

أغلب القوانين والتعليمات تهدف إلى تحقيق المصلحة العامة، وأغلبنا يلتزم بها، قد لا يخلو الأمر من التذمر ومحاولة التهرب من هذا القانون أو الالتفاف عليه.

هذه هي الطبيعة البشرية.

* * *

أوامر الله ونواهيه هي عموما من نفس جنس القوانين والتعليمات التي نلتزم بها في الغالب.

هدفها «المباشر» ليس تحقيق راحتك وسعادتك الآنية، ولكنها تحقق مصلحتك ضمن نطاق «المصلحة العامة» التي تتحقق عندما «تلتزم» أغلبية أفراد المجتمع بقانون ما...

وجود «الممنوع» - المنهي عنه - بدرجاته المختلفة (من الكراهة إلى التحريم) أصيل في الإسلام. لا يمكن تجاهل ذلك أو حتى محاولة ذلك.

هذا المنع ليس مرتبطا بالضرورة بوجود «ضرر واضح مباشر الضرر» في الشيء الممنوع... (أي لا داعي للحديث عن الضرر على نحو متكلف)...

فكرة الممنوع نفسها مهمة في تعليم البشر وتدريبهم على كبح جماح ما يرغبون فعله. على وجود «حدود» عليهم أن يقفوا عندها.

لذلك كانت ثمة (شجرة) ممنوعة في جنة آدم.. دون أن نعرف لها ضررا.. لكنه الكابح الذي يجب أن يتعلمه البشر.. الكابح الذي لا بد من وجوده في السيارة المصنعة...لا يمكن لأفضل سيارة أن تكون أفضل سيارة دون متانة وسلامة كوابحها...مهما كانت مواصفاتها الأخرى مرتفعة.

حتى في «التربية الحديثة»، ربما تغيرت وسائل تعليم الأطفال «الحدود» التي عليهم أن لا يتجاوزوها، بين «تعزيز إيجابي»[1] و«تعزيز سلبي»[2] و«عقاب»[3] لكن الهدف يبقى ثابتا: تعليم الأطفال وجود «حدود» ينبغي عليهم عدم تجاوزها[4].

فكرة المحرمات، المنهيات، هي في جوهرها تعليمنا وتعويدنا على وجود «حدود» ينبغي عدم تجاوزها.

من الطبيعي أن تتعارض بعض هذه الحدود مع «الحرية الشخصية» بالضبط كما تتعارض الضرائب وقوانين السير وكل «قوانين الأمهات» على أطفالهن بالنوم في ساعة محددة وتناول طعام الإفطار.

ومن الطبيعي أن يكون هناك ضيق، وتذمر... هذه هي الطبيعة البشرية مع كل «حدود» يجب أن تراعيها.

لكن ربما نفس الأشخاص الذين يرون في فكرة الحرام تضييقا على الحرية الشخصية.. تراهم يتقبلون فكرة القانون بسهولة..

بنفس منطق رفض الحرام، ما دخل القانون أو الحكومة كي تفرض عليك أن ترتدي حزام الأمان في السيارة؟

أنت لا تضر أحدا سوى احتمالية ضررك بنفسك...ما دخل الحكومة بهذا..

الحكومات في بعض الدول تفرض غرامات على من لا يقص حشيش حديقته[5]..

نتقبل هذا، بل ونعتبر طاعتها دليلا على التحضر...

لكن أمورا أخرى من المحرمات، نعدها تضييقا على الحرية الشخصية...

* * *

(١) التعزيز الإيجابي (المدعم الموجبpositive reinforcement) هو أي مثير أو محفز يقوي احتمالية ظهور السلوك المطلوب. وبذلك نعتبر هذا التعزيز الإيجابي كمكافأة بشكل عام .

(٢) التعزيز السلبي (المدعم السالب negative reinforcement) هو المثير أو المحفز الذي يترتب على إزاحته من الموقف تقوية ظهور السلوك المطلوب. مثلا «الوقت المستقطع» أو «الحرمان من مشاهدة التلفاز» أو «الحرمان من المصروف».

(٣) العقابpunishment هو إضافة محفز مؤلم يؤدي أثره إلى السلوك المطلوب، مثل القصاص بأعمال منزلية إضافية، أو إعادة كتابة الواجب عدة مرات.

(4) Away with Positive and Negative Reinforcement Don Mixon BehaviorismVol. 3, No. 1 (Spring, 1975), pp. 45-47 Published by: Cambridge Center for Behavioral Studies (CCBS)

(5) Overgrown weeds, grass can stir city action
https://www.news-leader.com/story/news/local/ozarks/2014/05/24/overgrown-weeds-grass-can-stir-city-action/9546993/

لكن خرق قوانين السير، أو عدم دفع الضريبة، له نتائج سلبية واضحة يمكن تخيلها بسهولة حتى لو لم تحدث، يمكن تفهم الأمر حتى لو لم يكن يعجبنا..

الحرية الشخصية تضع حدودا «واضحة» لنفسها، غالبا القول الشائع: أنت حر ما لم تضر أو «حريتك تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين» يعبر عن حدود هذه الحرية فعلا.

لست حرا في أن ترمي بالقمامة في الشارع. هذا ضرر للآخرين ..أو للممتلكات العامة.

لست حرا في أن تصدر ضجة في بيتك بحيث تزعج الآخرين. انتهت حريتك عند حدود بيتك.

لكن الكثير من المحرمات الشرعية، أمرها مختلف، من الصعب أن تجد «نتيجة سلبية واضحة ومباشرة».

لكن ماذا عن أضرار تتراكم بالتدريج ولا يظهر أثرها «الواضح» إلا بعد عقود؟

بعض الأدوية مثلا لا تظهر نتائجها وأعراضها السلبية إلا بعد سنوات من الاستخدام... وتمنع فعلا بعد أن يتبين ذلك.

السجائر مضرة بالصحة حتما، لكن ضررها يتراكم ببطء شديد، بعد عقود من الاستمتاع بالسجائر، وربما بعد عقد من الامتناع عنها، يظهر «سرطان الرئة» فجأة وبدا الأمر بعيدا في البداية...

ألا يمكن أن تظهر لاحقا آثار سلبية اجتماعية لكثير من المحرمات شرعيا (التي تتعارض برأيهم مع الحرية الشخصية) ..بالتحديد تلك التي يمكن أن تطال كيان الأسرة؟ أو التي تعود الفرد على سلوكيات معينة لا يستطيع التخلص منها؟

غالبا ما يحدث ذلك فعلا، تظهر نتائج اجتماعية، ولكن يكون الأمر الواقع قد حل، ويكون حل المشكلة هو في التكيف مع المستجدات وتقليل السلبيات الناتجة عنها بدلا من تصحيح الوضع الأصلي.

هكذا فإن توزيع وسائل منع الحمل مجانا في المدارس الثانوية يكون هو الحل لتقليل نسبة «الحمل غير المرغوب فيه» عند المراهقات أو التوفير المجاني لوسائل «الوقاية» للذكور لتقليل الإصابة بالأمراض التناسلية[1].

---

(1) Contraception for Teenagers - The New York Times
https://www.nytimes.com/2018/02/19/well/live/contraception-for-teenagers.html

أو تقنين أنواع من المخدرات لغرض تقليل تداول الأنواع الأكثر خطرا والحد من سيطرة العصابات الإجرامية على التجارة[1].

* * *

الإيمان المفرط بالحرية الشخصية، تحويلها إلى شيء مقدس لا يمس ولا يناقش، ساهم في تحويل جوهري في موقف البعض ..كان هؤلاء يقرون بضعفهم البشري أمام المغريات والشهوات، يفعلونها لكنهم يأملون لو أنهم تمكنوا من التوقف عن ذلك، لسان حالهم كان يقول: أنا أفعلها، ولكني آمل لو أني توقفت، والله غفور رحيم..

لكن «فرط الإيمان بالحرية الشخصية» حول موقفهم هذا إلى موقف متعنت صلب: أنا أفعلها وأنا حر وما دمت حرا فهي صواب.

سلوكيا، لم يتغير الأمر كثيرا، كانوا يفعلونها واستمروا بذلك.

لكن الفرق بين الموقفين جوهري..

واحد منهما قد يقود إلى: الله يتدخل بشئوني الخاصة!

لو أن «الأمور المحرمة، المنهي عنها» - من الصغائر إلى الكبائر- عوملت باعتدال من قبل الجميع، لو تذكر الجميع «التوبة» و«المغفرة» و«العفو» وأيضا أن الحساب في النهاية يعتمد على «مجمل ما تفعله» من صغائر وكبائر وأيضا أعمال صالحة، وليس من «عمل واحد» سيطيح بكل شيء - إلا الشرك...

لو أن هذه النظرة كانت متوفرة ومؤصلة وفي متناول الناس، هل كان ذلك سيخفف من جعل الحرية الشخصية طريقا للابتعاد أكثر وأكثر عن الدين؟

* * *

هل كان للمؤمنين دور في تأزيم الأمر؟ دور في تصعيد المشكلة التي يشعر بها الكثيرون أصلا في وجود تعارض بين «الالتزام بالأوامر الدينية» وبين حريتهم الشخصية ؟

هل ساهمنا بكتم أنفاسهم عبر وصايتنا المستمرة عليهم؟ هل زاحمناهم في تفاصيل حياتهم الشخصية على النحو الذي جعلهم يبتعدون أكثر وأكثر؟

أعتقد أن علينا أن نقر أن جزءا من تعامل من يعدون أنفسهم (متدينين) مع من يعدونهم (غير متدينين) ساهم في الوصول إلى هذه النقطة.. هناك ميل واسع للتصنيف والتوصيف والإقصاء يساهم في ابتعاد هؤلاء أكثر وأكثر..

---

(1) The pros and cons of drug legalisation| drugs News | The Week UK

https://www.theweek.co.uk/59417/should-cannabis-be-legalised-the-pros-and-cons-of-decriminalising-drugs

هناك أيضا هذه الوصاية المستمرة تحت شعار استخدام أحاديث نبوية شريفة مثل «من رأى منكم منكرا ..»[١] و «الدين النصيحة»[٢] بينما ننسى «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٣] وننسى أيضا أن أحاديث إنكار المنكر قيلت في بيئة ضيقة يعرف أهلها بعضهم بعضا ويعرفون ظروفهم جيدا بحيث أن علاقاتهم تسمح لهم بالنصيحة وبإنكار المنكر لأنها أصلا علاقات قوية ومتشابكة.. أغلب الناس في المدينة كانوا يعرفون بعضهم بعضا آنذاك..

أما حاليا فالمجتمعات تضم أعدادا كبيرة من الناس الذين لا علاقة تربطهم ببعضهم وبالتالي لا يمكن تطبيق الحديثين بالإطلاق، لأن ما سينتج عن ذلك من مشاكل سيكون ربما أكبر من «المنكر» المراد إنكاره..

أحد «المترددين» بين الإلحاد واللا أدرية كان ينتظر المترو، وجاءت فتاة لا يعرفها ولا تعرفه لتقول له أن حلاقة شعره مخالفة لتعليمات النبي عليه الصلاة والسلام! ...الفتاة تحسب أنها تحسن صنعا وتدعو الناس إلى الالتزام بسنته، لكن ما فعلته كان في الحقيقة مخالفا تماما لسنته. أن تعظ شخصا (مترددا بين الإلحاد واللا أدرية) عن تسريحة شعره، فهذا يساعده في حسم حيرته، والاتجاه إلى الإلحاد...سيقول في نفسه ببساطة: ما هذا الدين الذي يمنعني من حلاقة شعري بالطريقة التي أرغب بها؟!...الإقصاء والطريقة التي تعامل بها الفتيات اللائي خلعن الحجاب تدفعهن أحيانا إلى المزيد من البعد عن الدين..

وهذه مجرد أمثلة بسيطة ومباشرة، لكن الكثير مما يحدث من «نصائح» تحت «شعارات دينية» يؤدي إلى دفع الناس بعيدا عن الإيمان، بينما يتصور الناصح والواعظ أنه يسحبهم سحبا إلى الإيمان...

هل ساهم هذا الموقف في تحويل هؤلاء من مجرد أشخاص يقترفون الذنوب والمعاصي مثلنا جميعا، ويستغفرون الله ويتوبون إليه ويفشلون في ذلك مرة وينجحون فيه مرة...إلى أشخاص يبتعدون عن الله أكثر فأكثر...

هل ساهمنا في دفعهم إلى أن يتمسكوا أكثر بموقفهم، وصولا إلى «الله يتدخل بحياتي الخاصة»؟

(١) صحيح مسلم ٧٨

(٢) صحيح مسلم ٩٥

(٣) سنن الترمذي ٢٣١٧

العبودية وملك اليمين في الإسلام

مشكلة العبودية وتفرعها النسوي الممثل في ملك اليمين تتركز في عدة اعتراضات وتساؤلات منطقية يطرحها البعض، وهي تقود إلى التشكيك بالإسلام كدين من الأساس أو التشكيك بصلاحيته للاستمرار في العالم المعاصر..

المشكلة في الأمر أن الإسلام (أقر) - عبر نصوص عديدة في القرآن والسنة- بإبقاء وضع العبودية والرق للنساء والرجال، وهو وضع كان سائدا في العالم كله، وبقي سائدا في مناطق عديدة إلى قبل قرنين من الآن حتى اختفى قانونا وإن بقي عبر مسميات مختلفة وأوضاع مقننة.

الأمر إذن هو أن العبودية كانت قائمة عبر التاريخ قبل مجيء الإسلام، ولأن العبودية بمعاييرنا المعاصرة مرفوضة فإننا نستهول أن يكون الإسلام قد مر عليها دون أن ينسفها من جذورها أو يلغيها بضربة واحدة.

فلننتبه أننا كثيرا ما نقود الناس وندفعهم إلى هذا النوع من التفكير.. تأكيدنا المستمر على أن صحة الدين الإسلامي مرتبطة بصلاحيته لكل زمان ومكان ومعاصرة قوانينه وتشريعاته وكيف أننا سبقنا الغرب (المتطور) في هذا التشريع أو ذاك بألف و٤٠٠ سنة.. هذا الربط المستمر والتكرار الدؤوب جعل الكثيرين يصدمون بموضوع العبودية والرق ويفكرون بالطريقة التالية:

اولا- الإسلام دين صحيح.

ثانيا- ولأنه دين صحيح فهو صالح لكل زمان ومكان. (والربط بين أولا وثانيا ساهمنا نحن فيها بشكل أساسي)

ثالثا- الرق والعبودية أمر ظالم وغير إنساني (وهذه جاءت من بديهيات الوعي المعاصر)

رابعا-الإسلام أقر العبودية .

إذن الإسلام غير صالح لكل زمان ومكان.

إذن الإسلام دين غير صحيح.

هذه المتتالية التي ساهمنا نحن في زرعها سيكون وضعها مختلفا ولا تقود إلى ما قادت له لو أن موضوع الصلاحية غير القابلة للنفاذ وغير المرتبطة بالزمان والمكان عوملت على نحو مختلف، علما أن النصوص الدينية نفسها لا تقول هذا تحديدا، وأن هذا مجرد شعار استخدم في العقود الأخيرة فحسب مثله مثل شعار الإسلام هو الحل.

صلاحية الدين الإسلامي تعني أنه يحتوي على بذور صالحة للنمو والإثمار في كل زمان ومكان، لكن هذا لا يعني أن كل ما سكت عنه في فترة نزوله أو ما أدخل عليه تعديلات دون نسفه، سيكون مناسبا وسيكون علينا الاستمرار بنفس الرؤية دون إنماء البذور الموجودة فيها.

وهذا يجعل طريقة الفهم والاستخدام الحالي لعبارة (صالح لكل زمان ومكان) فيها إشكالية ملغومة بنتائج من هذا النوع.

سواء كنا نتحدث عن الرق والعبودية أو أي موضوع آخر مثل نظام الحكم أو سواها، فإن التعامل الحرفي مع البذور الكامنة في النصوص سيقتل هذه البذور ويقتل إمكانية إنمائها واثمارها...على العكس من التعامل الباحث عن إنماء هذه البذور بوضع (المقاصد العامة للنصوص) أساسا في فهمها وفي إدراك بأي اتجاه يجب أن تنمو.

بعد أن أكدنا ذلك، وبعد أن أكدنا أن طريقة التفكير التقليدية تقود إلى هذا الفهم فعلا وأن الحل هنا هو في طريقة تفكير جديدة لا لأن الناس أخذت تلحد بسبب طريقة التفكير التقليدية بل لأن طريقة التفكير الجديدة هي التي يجب أن تكون في الأساس، بعد كل هذا علينا أن نسجل ما يلي:

أولا- لا يوجد أي نص قرآني أمر بالعبودية أو الرق أو باتخاذ العبيد. لا يوجد شيء كهذا على الإطلاق.. كما لا يوجد نص يقول أو يلمح إلى أن هذا الوضع هو الوضع الذي يجب أن يبقى على نحو دائم.

ثانيا - هناك ما يمكن أن يفهم أنه تحريم مطلق لأي عبودية (جديدة) في النصوص النبوية، والمقصود بالعبودية الجديدة هو استرقاق بشر لم يكونوا عبيدا سابقا، كما في الحديث: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ» صحيح البخاري ٢٢٧٠.**

وكان هذا التحريم يطيح بموارد الاسترقاق الرئيسية في الجاهلية، حيث كان الرق يأتي من قطع الطرق ونهب القافلة واسترقاق ركابها، والوقوع في دين لا يمكن الفكاك منه كان يؤدي إلى جعل المدين عبدا للدائن، وكذلك كان بعض الفقراء يبيعون أولادهم عبيدا من شدة الحاجة، وكل هذه الموارد التي كانت تزيد الرق الجديد أوقفت تماما.

عمليا بقي مورد واحد للرق الجديد وهو الحروب التي لم يرد نص يأمر بأخذ العبيد فيها كما لم يرد نص يحرمها تحديدا وكان يمكن أن ينسحب فهم النص السابق ليشمل هذا المورد أيضا حيث أن اللفظ واضح في تحريم استرقاق أي حر بالمطلق (وبعض ألفاظ الحديث تجعله مؤمنا أو مسلما ويفترض أن يعني هذا أن إسلام أو إيمان هذا الشخص سيحررانه).

ثالثا- التعامل الوحيد عبر النصوص القرآنية مع مسألة العبودية كان تنظيميا ويقود إلى تقليل العبودية، وذلك عبر عدة منافذ تقود إلى تحرير العبيد:

أ- اعتبار تحرير العبيد من ضمن الشعائر والعبادات التي يتقرب بها إلى الله في العقيدة الجديدة، العشر سنوات الأولى من الدعوة لم يكن قد فرضت فيها صلاة على سبيل المثال، وكان تحرير الرقاب يومها شعيرة مثله مثل الصلاة، وكان فك الرقبة (أي تحريرها) يعتبر واحدا من أهم القربات لله ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ (البلد: ١١ - ١٣)

واستمرت النصوص النبوية تشجع على العتق بالوعد بالأجر الأخروي **«مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً، أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ» صحيح مسلم ١٥٠٩ (متفق عليه) وكان هذا مدعاة لا لعتق العبيد فحسب بل كان مدعاة لشرائهم من أجل عتقهم طمعا في الأجر.**

ب- اعتبار تحرير العبيد من ضمن (الغرامات المالية - الكفارات) التي يدفعها شخص ما، إثر ارتكابه خطأ في الشعائر (كالقيام بما يفطر في نهار رمضان)، أو يدفعها بعد ارتكابه لقتل خطأ.. أو عند قيامه ببعض العادات الجاهلية (مثل أن يقسم أن زوجته أصبحت عليه مثل أمه).

ج- تخصيص مبلغ من موارد الزكاة لتحرير العبيد ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾ (التوبة: ٦٠)

د- السماح للعبيد بالاتفاق مع مالكيهم على شراء أنفسهم بمبلغ محدد وتحدث مكاتبة بينهما على هذا الأساس بحيث يكون المالك ملزما بالعتق عند إتمام المبلغ في الوقت المحدد. وفي نص الآية التي تشرع ذلك

ما يفيد وجوب قبول الأمر ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: ٣٣)

والمكاتبة تعني ضمنيا أن هذا العبد يملك ماله الخاص الذي يربحه من عمله أو حرفته ولا يكون لمالكه الحق في هذا المال...أو أن ممارسة عمل آخر بجانب خدمته سيده كان أمرا من حقه.

بناء على ما سبق، فإن محاكمة الإسلام لأنه لم يلغ الرق هي محاكمة ليست خارج التاريخ فحسب، بل خارج المنطق، لأن الإسلام تعامل معه على نحو كان سيلغيه بالتدريج لو توفر الفهم الذي يعامل النصوص كما لو كانت بذورا ينبغي رعايتها للوصول إلى النمو والإثمار، ولقد توفر هذا الفهم فعلا لفترة في شخص عمر بن الخطاب الذي فهم مقاصد النصوص وفهم أنها تقود إلى تجفيف منابع الرق وقاد عدة خطوات في الطريق إلى ذلك، ولو أن فهمه تكرس ليكون مذهبا في الفهم لكان الرق انتهى في فترة مبكرة.

ماذا فعل عمر بن الخطاب في هذا الصدد؟

قام عمر بعدة تطبيقات بناء على أصول مقاصد النصوص، فكان مثلا يقوم بعتق أمهات الأولاد من الجواري، كل من تنجب من سيدها صارت تعتق، في البداية بعد وفاة سيدها[1]، ولاحقا فور ولادتها[2]، صار أيضا يأمر بعتق كل من تعرض لأذى جسدي من سيده إذا كان هذا الأذى قد ترك أثرا على الجسد[3] (ويعني هذا أنه إما أن تتحسن المعاملة أو العتق)، كما صار يعتق كل من يصلي من سبي الخليفة (على أن يقوم بالخدمة لمدة ثلاث سنوات بعدها)[4]، أي أن الصلاة أصبحت مفتاحا لتحرير الرقاب ولعله في هذا كان يقترب من فهم الحديث الشريف (من أعتق رقبة مؤمنة....)، كما أنه صار يشرف بنفسه على المكاتبات بين العبيد ومالكيهم والتي كان العبد يتمكن من تحرير نفسه عبر دفع أقساط معينة[5].

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١٣٢٢٥

(٢) سنن الدارقطني ٤٢٥٤ السنن الكبرى للبيهقي ٢٠٠٦٤

(٣) شرح مشكل الآثار ٥٣٢٩

(٤) مصنف عبد الرزاق ١٥٦١٩

(٥) مصنف عبد الرزاق ١٥٥٧٨

كل هذا خلال سنوات قليلة فقط ودون أن تتغير علاقات الإنتاج السائدة آنذاك..

بلا شك كان الوضع سيتغير خلال عقود أخرى لو أن هذا الفهم استمر..

* * *

ماذا عن ملك اليمين؟ الجزء النسوي من قضية العبيد، والذي ينظر له بتحسس أكبر بسبب ارتباطه بقضايا الجنس والمرأة؟

هذا الجزء خاضع تماما لموضوع الرق، كان جزءا من العرف السائد في العالم كله، وكان متقبلا آنذاك، النصوص لم تأمر به ولم تنه عنه وقد طبق فعلا وقت الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء ومن بعدهم.

لكن علينا أن نغير طريقة تفكيرنا هنا كي نميز الفرق بين ما أمرت به النصوص، وبين ما طبق آنذاك كعرف سائد في زمان ومكان وسياق ثقافي محدد.

والنصوص لم تأمر لا بالرق ولا بالعبودية ولا بملك اليمين.. إنما العرف السائد في العالم كله آنذاك كان يجعل ذلك أمرا مقبولا..

لا يمكن إلا أن نسأل هنا: لو أن هذه النصوص كلها من تأليف رجل مصلح عاش في الجزيرة العربية...كيف تمكن أن يميز ما بين عرف مجتمعي سيزول ويصبح مرفوضا لاحقا...وبين ما يمتلك إمكانيات البقاء والصمود؟ كيف تمكن من صياغة وتوليف النصوص على هذا النحو بحيث تتعامل مع مسألة معينة دون أن تأمر بها؟ بينما تأمر وتحث على أمور أخرى، سيثبت الوقت لاحقا أنها من الثوابت؟

* * *

لو أن أحدهم اتهم الإسلام بالإبقاء على الفقر وتكريسه، .. لكان من السهل جدا أن ترد عليه وتقول: لا.. الإسلام حارب الفقر وساعد الفقراء وحث على مساعدتهم.

سيكون الكلام مقنعا.

الأمر هو ذاته مع الرق والعبودية، وفي الحالتين المشكلة اقتصادية، نابعة من أدوات الملكية.

الإسلام لم يلغ الفقر، بل حاربه.. حارب منابعه وحرص على مساعدة الفقراء..

الشيء ذاته مع الرق بالضبط لو نظرنا إلى جوهر الأمر..تجفيف للمنابع تقلل الرق الجديد، وحث على العتق.

لو نظرنا بتعمق للأمرين، سنرى موقف الإسلام واحدا في الحالتين..

* * *

لماذا إذن لم يقم دينكم العظيم الإسلام بإلغاء الرق بينما قام إبراهام لنكولن [1] بذلك؟

التصور بأن موضوع تحرير العبيد يرتبط فقط بالقيم الأخلاقية تصور رومانسي بعيد عن الواقع، نعم كان هناك دعاة لتحرير العبيد لأجل القيم والحقوق الإنسانية، لكن إلغاء الرق بصورة قانونية ملزمة ما كان يمكن إلا بسبب ظروف اقتصادية جعلت من تحرير العبيد أمرا مربحا على المدى البعيد، حيث حتمت الثورة الصناعية ظهور نمط مختلف من الإنتاج يفضل عمالا أحرارا لديهم محفزات لإتقان العمل، بينما كان نمط الإنتاج الزراعي يتحمل وجود عمال يمكن مراقبة عملهم وسرعته من بعيد بينما يؤدونه كعبيد دون أجر أو محفزات[2]... وهذا لا يقلل مما قام به لنكولن طبعا، ولكنه يفسره في سياقه وحتميته الاقتصادية.

نفس التزامن بين التصنيع وإلغاء العبيد يمكن ملاحظته في بريطانيا التي سبقت الولايات المتحدة في الثورة الصناعية[3] (١٧٨٠-١٨٣٠) وأقرت قانون إلغاء الرق[4] (١٨٣٣).

أما لماذا لم يحدث ذلك مع ظهور الإسلام فهذا ببساطة لأنه ما كان يمكن أن يكون ناجحا آنذاك، العبيد كانوا جزءا من عرف اقتصادي في كل مكان، وتحريرهم كان سيجعل كل العبيد في كل المنطقة يسلمون فقط طمعا في الحرية دون أن يدخل الإسلام بشموليته في عقولهم، كان الأمر سيختصر الإسلام في حركة تحرير العبيد.. وينتهي الأمر بنهايته..

نظام الرق كان جزءا أساسيا من أنماط اقتصاد الرعي والزراعة (وهما نمطان سادا تاريخ البشرية في معظمه) ثم كان هذا النظام أيضا جزءا من الرأسمالية في بداياتها (بل إن تجارة العبيد كان من أهم استثمارات الرأسمالية الغربية) ولم يختلف الأمر إلا مع دخول التصنيع والتقانة، وهو الأمر الذي أتاح إلغاء هذا النظام...

---

(١) إبراهام لنكولن (١٨٠٩-١٨٦٥) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة للفترة من ١٨٦١ لغاية اغتياله في ١٨٦٥، قاد خلال هذه السنوات الحرب الأهلية التي منعت انفصال ولايات الجنوب ونتج عنها إلغاء الرق.

(2) The Economics of Slavery The influences of slavery on economic development,M.M.T. van Lent http://arno.uvt.nl/show.cgi?fid=129742

(3) Industrial Revolution - Wikipedia

(4) BBC - History : British History Timeline

أنماط الإنتاج وأدواته لا يمكن أن تلغى بجرة قلم، بل تحتاج وقتا لكي تزال بالتدريج وإلا سببت إزالتها – أو مقاومة إزالتها– ما يمكن أن يقود المجتمع إلى المزيد من الخراب...

كان الأمر –لو حدث وقتها –مثل إلغاء البنوك اليوم للقضاء على مشاكل الاقتصاد العالمي... الفوضى الناتجة عن ذلك ستكون أسوأ بكثير من مساوئ البنوك.

* * *

شيء آخر بخصوص ملك اليمين..

كل الآيات التي أشارت إلى ملك اليمين استخدمت الفعل الماضي في التعبير عنه: وما ملكت أيمانكم.. لا يوجد أي مرة جاء الفعل بصيغة المضارع...تملكون..

﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ٥٨)

﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المعارج:٣٠)

كل المرات التي جاءت فيها إشارة إلى ملك اليمين كانت الصيغة بالفعل الماضي حتى لو كان باقي السياق مضارعا..

ألا يمكن أن تكون هذه إشارة إلى أن هذا الأمر كله سيكون ذات يوم جزءا من الماضي؟

المرأة

تُتهم الأديان عموما والإسلام خصوصا بكونها أديان ذكورية، كرست سيطرة الذكر على المجتمع، وبررت الظلم على المرأة.

عادة ما يرد على ذلك بمقارنة الإسلام وما قدمه للمرأة، بنصوص في أديان أخرى تعامل المرأة بقسوة وإهانة.

لكن الأمر للأسف لا يستقيم هكذا.

أولا- لأن الملحدين لا يهمهم كثيرا أي دين عامل المرأة أسوأ أو أفضل فكلها مرفوضة في النهاية.

ثانيا- أن أغلب هذه الأديان انحسر تأثيرها الاجتماعي إلى زوايا وضيقة بحيث أن تأثير هذه النصوص المضادة للمرأة لم يعد مهما. والأمر ليس كذلك مع الإسلام.

هناك رد آخر يستخدمه البعض فورا في الدفاع عن الإسلام ضد هذه التهمة، وهو برد الكرة إلى ملعبهم: انظروا إلى حال المرأة في الغرب، لقد أصبحت مشاعا جنسيا...إلخ.

هذا أيضا لا ينفع كثيرا، فهو عمليا لا يزيح التهمة عن الإسلام بل يثبتها ويقول لكنكم أسوأ.

بكل الأحوال، لا يمكن إنكار تعرض المرأة لظلم كبير من قبل مفاهيم دينية وأعراف اجتماعية عبر العصور وأن هذا الظلم تكرس عبر خلط العرف بالدين ووجود رجال دين تخصصوا في هذا الخلط.

كما لا يمكن إنكار أن بعض الاتهامات لا تعدو أن تكون تطرفا نسويا يقارب حدود الكاريكاتير رغم أنه يقال بمنتهى الجدية...مثلا لماذا لفظ الجلالة (مذكر) وليس مؤنثا...ولماذا اللغة العربية فيها تفريق بين الذكر والأنثى...ولماذا لا توجد رسولات أو نبيات..إلخ.

كذلك بعض الاتهامات تخلط تماما بين العرف الاجتماعي والدين، مثل قضية ختان الإناث، مجرد (انحصارها) في مجتمعات محددة دليل على كونها قضية عرف اجتماعي أكثر منها مرتبطة بالدين.

هناك أمور محددة تشكل حججا وجيهة ينبغي توضيحها وفهمها:

أولا- الحجاب

ليس الحجاب[1] أعقد مشاكل المرأة، لكنه تحول ليكون رأس حربة في مواجهات بين أطراف متصارعة، غالبا لأنه بارز جدا، ظاهر جدا، تم تفسير انتشاره في أحيان كثيرة على أنه يمثل صعودا لتيار الإسلام السياسي، واستغل التيار هذا التفسير وكرسه، رغم أن الأمر في الواقع كان أعقد وأعمق بكثير من هذا التفسير.

الأمور مرتبطة في النهاية، وظاهرة قلع الحجاب الحالية لا تعبر فقط عن فشل الإسلام السياسي (فأغلب الفتيات في هذه الحالة لم يكن ينتمين له) ولكن هو تعبير عن حالة إحباط عامة من كل المفاهيم الدينية التي لم تعد تجيب عن التساؤلات أو تلبي حاجات الكثير من الشباب والشابات الذين يعيشون فترة الانتقال إلى عالم مختلف.

الكثيرات يسألن: لماذا الحجاب؟

عبارة «فرض وكفى» قد تفيد الكثيرات، لكنها بالتأكيد لن تكون فاعلة مع من تسأل هذا السؤال.

جواب (غلاف قطعة الحلوى) وما يشابهه أصبح مبتذلا ومستفزا.

جواب الشرف والحشمة والعفة أيضا لم يعد يعمل، كلنا يعرف أن ليس كل محجبة هي بالضرورة (عفيفة) – بالمعنى السائد للكلمة- وأن هناك سافرات لا يقلن عفة عن كثير من المحجبات.

وهذا لا يعني أبدا أن الحجاب لا يقدم ضمن مفاهيمه الشرف والعفة، لكن هذا لا يخص المتحجبة وحدها فقط، كما أن الشرف والعفة يفترض أن تكون في الرجل أيضا، وهو لا يرتدي الحجاب مثلا.

ما الذي بقي إذن؟

بقيت الهوية. وهي المقصد الواضح من آية سورة الأحزاب (أن يعرفن).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النور: ٥٩)

---

(١) المقصود بالحجاب هنا هو المعنى المستخدم حاليا من غطاء لشعر المرأة أو عموم ملابسها، وليس المعنى الاصطلاحي للكلمة.

الهوية هي تعريف. والحجاب هوية. بطاقة تعريفية. لا شيء أكثر وضوحا من الحجاب سيقول للجميع أن هذه مسلمة.

لكن لماذا الهوية أصلا؟!

لماذا على المرأة المسلمة أو الرجل المسلم إظهار هذه الهوية الشخصية جدا لأي أحد؟

الادعاء بأن المظهر غير مهم وأن المهم هو السلوك وما في القلب وإلى آخره، هذا الادعاء للأسف يخالفه غالبا أول من يقوله، المظاهر مهمة جدا وكلنا يهتم بها بدرجة أو بأخرى، أو أغلبنا على الأقل. لو لم تكن المظاهر مهمة لما كان حجم مبيعات «الملابس» سنويا يصل إلى ١,٣ تريليون دولار[1] (أي ١٣٠٠ مليار دولار، ولا يشمل هذا مبيعات الأحذية والإكسسوارات) بينما تبلغ مبيعات مستحضرات التجميل سنويا أكثر من ٥٧٠ مليار دولار (أي أكثر من نصف تريليون) وهي أرقام تزداد ضخامة إذا عرفنا أن حجم صناعة الغذاء في العالم يبلغ ١,٦ تريليون دولار[2] أي أن حجم مبيعات الملابس مع مستحضرات التجميل أكبر من حجم صناعة الغذاء. المظهر مهم بالتأكيد، أمر بديهي، لكن ربما نحتاج إلى ذكر هذه الأرقام عندما يقال لنا - في سياق الحجاب وأهميته - للتأكيد على البديهيات.

حتى الذين لا يحرصون على مظهرهم، هم يعبرون بهذا عن هويتهم بطريقة ما، بكونهم لا يهتمون بالمظاهر.. بشخصية لا تهتم بالمظاهر.

أما الغالب فهو أننا جميعا نهتم بمظهرنا، وبالتحديد نحرص على أن يعبر المظهر عنا، الأغلبية تحرص على مسايرة الخطوط العامة للموضة، وذلك سيعبر عن معاصرتهم وانتمائهم للزمن الذي يعيشون فيه وحبهم لمتابعتهم لتطوراته.

الأشخاص الذين يوصفون بكونهم تقليديين سيختارون نمطا من الثياب وألوانا تعبر عن ذلك، بعكس الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم «رياضيين» أو «عمليين» يختارون نمطا مختلفا، ويعبر عنهم أيضا... بعض المهن تحتم نوعا معينا من الملابس التي تتماشى مع طبيعة المهنة، وهذا أيضا يعبر عن «الهوية».

أن ملابسنا تعبر عنا أمر لا يحتاج إلى دليل أو برهان، هو حقيقة معاشة يوميا.

---

(1) Global Fashion Market Size | Sustainability | Common Objective

https://www.commonobjective.co/article/the-size-of-the-global-fashion-retail-market

(2) The World's Biggest Industry

https://www.forbes.com/2007/11/11/growth-agriculture-business-forbeslife-food07-cx_sm_1113bigfood.html#224a427373e9

إذن هل هناك مشكلة كبيرة فيما لو عبرت ثيابنا عن شيء نؤمن به؟

الملابس تفعل ذلك بكل الأحوال. تعبر عن معاصرتنا أو حداثتنا أو انتمائنا للعصر ..أو عن أشياء أخرى أحيانا ...الأوشام مثلا مليئة برموز تعبر عن إيمان الشخص بشيء ما..

فلماذا يصل الأمر إلى الدين ويكون مستهجنا جدا؟

يمكننا اعتبار الأمر كما لو كان dress code أو قواعد عامة للزي.

الكثير من المؤسسات المهنية تملك قواعد عامة للزي تحدد فيها بعض الممنوعات أو تحدد المسموح من ناحية تفاصيل اللون أو التصميم، والعاملون في هذه المؤسسات يلتزمون بهذه القواعد وهم يقضون فترات قد تصل إلى ثلث يومهم ولا يجدون مشكلة في ذلك.

لماذا نجد مشكلة في «قواعد عامة للزي» تعبر عن مجموعة قيم حضارية دينية تمثل الإسلام؟

في النهاية، الحجاب هو كذلك فعلا، «قواعد عامة للزي» تعبر عن رؤية حضارية معينة، وبقي لقرون طويلة محتفظا بثوابت عامة ولكنه كان دوما يأخذ خصوصيته من بيئته، من إندونيسيا إلى المغرب كان هناك أشكال مختلفة منه مناسبة لكل بيئة، وكانت كل هذه الأشكال متوافقة مع «القواعد العامة للزي» رغم وجود اختلافات بينها، كلها لم نعرف الشكل الموحد من الحجاب إلا مؤخرا ومع بدايات العولمة.

لكن ألا يمكن أن يعد هذا تمييزا بين الذكر والأنثى؟

نعم هو كذلك إن شئتم النظر من هذه الزاوية، لكن الحجاب ليس عن هويتها كامرأة بل عن هويتها كامرأة مسلمة.

ماذا عن وظيفة الحجاب في حماية المرأة من التحرش والمضايقات؟

مبدئيا، لا امرأة يجب أن تتعرض للتحرش، بحجاب أو بدون حجاب. لكن العالم ليس مثاليا للأسف، وهو ليس مثاليا حتى مع المحجبات، ففي مجتمع «غالبيته» محجبات، ستكون هناك مضايقات حتى للمتحجبات بالتأكيد؛ لأن التحرش لا يعتمد على «المتحرَّش بها» بقدر ما يعتمد على «المتحرِش»، لذا فبعض المتحرشين لن يفرق معهم (قواعد الزي) الذي التزمت به المتحرَّش بها، لكن هذا عادة يحدث في المجتمع الذي فيه غالبية - أو نسبة عالية من المتحجبات.

في مجتمع آخر، فإن الانتباه الذكوري سيتوجه عادة للنسوة اللائي يرتدين «ملابس كاشفة»، وهذا الانتباه «طبيعي» و «مقبول» طالما بقي في حدود معينة، لا يعني هذا أن هذه النسوة يطلبن «الانتباه» عبر هذه الملابس، لكن جزء حيواني من بعض الذكور لا يزال يتصرف بطريقة بدائية مناسبة للغابة أكثر من مناسبتها للمجتمع وقوانينه، وسيعتبر أن الأنثى تحاول أن تجذبه بما تكشفه من جسدها عبر الملابس، وسيتصرف على هذا الأساس، سواء عبر التحرش اللفظي أو الجسدي(١).

لكن في هذا المجتمع الآخر، أليست التي ترتدي الحجاب هي التي تلفت الانتباه أكثر؟

نعم، بالتأكيد، لكنه ليس الانتباه الذي قد يقود إلى التحرش غالبا، بل قد يقود إلى مضايقات من نوع آخر: إقصاء، سخرية، تطفل واستغراب.

مفهوم أن تكون «الملابس الكاشفة عن الجسد» جالبة لانتباه الذكور، لكن ماذا عن الشعر؟ ما الذي في الشعر بحيث تحرص الشرائع (عموم الشرائع، السابقة للإسلام وحتى الوثنية) على تغطية شعر المرأة؟

مبدئيا، لا يمكن تجاهل أهمية الشعر في جاذبية المرأة، نظرة سريعة على الإعلانات التجارية ستبين لنا كم يحتل الشعر مكانة مهمة في ذلك. لكن يبدو أن الأمر أعمق وأعقد من مجرد «جاذبية» إضافية للمرأة، وربما كان مغروسا في عصور الإنسان البدائي.

من وجهة نظر تطورية، يبدو أن «شعر المرأة الطويل» كان يعطي إشارة إلى صحتها وشبابها وبالتالي خصوبتها وقدرتها الإنجابية (توجد علاقة فعلا بين صحة الشعر وهورمون الأستروجين وهو الهورمون الأنثوي المسئول عن الصفات الجنسية الثانوية للمرأة)، وهذا يجعل «المرأة ذات الشعر الطويل» «مرغوبة» أكثر من قبل الذكور. الشعر الطويل أعطى المرأة «فائدة تطورية» في المنافسة، وهذا جعل النسوة صاحبات الشعر الأقصر يكن أقل حظا في الحصول على «زوج»، وربط «شعر المرأة» بالإخصاب (أي بعبارة أخرى، بالجنس) في اللا وعي عند الذكور(٢).

---

(1) How 'provocative clothes' affect the brain - and why it's no excuse for assault | Science | The Guardian https://www.theguardian.com/science/brain-flapping/2018/jan/25/how-provocative-clothes-affect-the-brain-and-why-its-no-excuse-for-assault

(2) Does Women's Hair Signal Reproductive Potential? Hinsz et al.Journal of Experimental Social Psychology Volume 37, Issue 2, March 2001, Pages 166-172
https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0022103100914501?via%3Dihub

لعل هذا الأمر يسلط البعض من الضوء على فكرة تغطية الشعر في الموروث الإنساني بشكل عام.. الشعر لا يثير الشهوة بشكل مباشر لكنه يرتبط بلا وعي الإنسان وعقله الباطن بالقدرة الجنسية والإخصاب، كما أنه يبرز جمال المرأة بشكل أكيد.

أليس الحجاب رمزا لعبودية المرأة وعبوديتها لدورها المنزلي في الإنجاب والطبخ؟

على العكس، لو كانت المرأة حبيسة المنزل، لما تطلب الأمر أصلا أن تكون هناك آيات تضع «قواعد عامة للزي»، مجرد نزول آيات كهذه يدل على قدرة المرأة على الخروج بل وضرورة ذلك.

لكنه خروج مع «تحييد أنوثتها» إلى حد ما.

لماذا على المرأة وحدها أن تدفع ثمن الهوية وأن تقدم ملابسها قربانا على مذبح الهوية بينما الرجل لم يكلف بذلك؟

هل يمكن تقديم الاعتراض أيضا على كون المرأة هي التي تحبل وتنجب؟

بالنسبة لمن يؤمن بالله، التكليفان صدرا للمرأة من مصدر واحد.

بالنسبة لمن لا يؤمن، فالطبيعة الأم قد اختارت توزيع الأدوار في الحمل والولادة على هذا النحو.

وكذلك هو الأمر بالنسبة لمن يؤمن بالله: ببساطة توزيع أدوار، والأمر ليس سهلا، لا الولادة ولا الحجاب! المرأة أخذتهما إضافة إلى أشياء أخرى.

الأمر صعب...وعلى الجميع أن يقر بذلك ويقدره، خطاب التعالي الفوقي المتداول (من الذكور والإناث على حد سواء، مع من لا ترتدي الحجاب) لا يسهل الأمر بل يزيد النفور منه.

أؤمن بأن الحجاب فرض، وأؤمن أيضا أن هناك فروض أخرى كثيرة على الرجال والنساء ولكن تركها لا يشكل عاصفة ولا أزمة لأنها غالبا لا تكون ظاهرة، يمكن لفتاة ترتدي الحجاب أن تكون قد تركت الصلاة لفترة طويلة، لكن لا أحد يعلم بذلك، لذلك يمر الأمر كما لو أنه لم يكن.

أما الحجاب فهو هوية في ارتدائه، ولأنه هوية واضحة جدا فإن خلعه يعامل على أنه هوية أيضا...، لذلك تعامل الفتاة التي «خلعت» الحجاب كما لو أنها قد انسلخت من الدين كله، وهو أمر ظالم جدا لها وللدين وللحجاب ولكل القيم المرتبطة به.

تبدأ الأمور هكذا: فتاة لم تعد تجد معنى في حجابها ولا الشغف الذي دفعها إلى ارتدائه أول مرة، والأمر مختلط طبعا بحالات إحباط عامة وفشل إسلاميين تغنوا بالحجاب لعقود، ثم بالتدريج بدأت بالتخلي عن الكثير مما آمنت به...ثم ها هي تترك الحجاب.

حفلة النصح الجماعي العلني والإقصاء والغيبة والنميمة والغمز واللمز وحتى الشماتة التي تحدث مع من خلعت الحجاب قد تقود الأمر تدريجيا من «ترك فرض» إلى الإلحاد! ..الأمر يصل أحيانا ليس فقط إلى عدم العودة للحجاب...بل إلى ترك الدين كله وقد حدث هذا في حالات كثيرة ..مجرد مواجهة البشاعة التي تندلق من أشخاص يفترض أنهم متدينون ستجعل هناك رد فعل من الدين كله.

ولعل ما يحدث مع من تخلع الحجاب يمكن أن يكون نموذجا لعقلية الإقصاء التي يفكر بها الكثير من المتدينين والتي تكاد تكون عاملا مساعدا في الإلحاد.

ارحموا الناس في أزماتهم. ارحموا حيرتهم وشكهم. ارحموا ضعفهم. ربما يكون بينكم من يمر لاحقا بها أيضا...وحتما لن يرغب أن يعامل في أزمته كما تعامل كل من تتخلي عن حجابها.

طبعا على الجهة الأخرى هناك تهاني وتبريكات و(حفل استقبال) من قبل غير المتحجبات، لكن هذا موضوع آخر.

ثانيا - التعدد:

تعدد الزوجات لم يكن اختراعا إسلاميا ولا حتى عربيا جاهليا، فهو ظاهرة سادت في البشرية عبر تاريخها، وفي دراسة أنثربولوجية شملت ١١٩٥ مجتمع (وهو أكبر عدد من المجتمعات تتوفر عنه معلومات أنثروبولوجية) فإن الغالبية العظمى من هذه المجتمعات (٥ من كل ٦) كانت تبيح تعدد الزوجات[1]، بل إن تعدد الزوجات الذي كان سائدا في تاريخ البشرية قد أثر على الكثير من الصفات البشرية السائدة حاليا (مثل كون الرجال عموما أكبر حجما من النساء أو كون الرجال أكثر ميلا للعلاقات المتعددة من النساء)[2].

---

(1) Monogamy and polygyny January 2009 Walter Scheidel Stanford University https://www.princeton.edu/~pswpc/pdfs/scheidel/010903.pdf

(2) Out of Eden: The Surprising Consequences of Polygamy David P. Barash Oxford University Press; 1 edition (March 3, 2016)

https://www.psychologytoday.com/us/blog/the-human-beast/201210/the-three-reasons-polygamy

في الحقيقة أن ما نسميه اليوم تعددا للزوجات كان أول الأمر تقنينا للزوجات، لأن الكثيرين من العرب كانوا يجمعون بين عدد أكبر بكثير من الزوجات، ولم يكن هناك رقم للتوقف عنه على ما يبدو - وهو أمر لم يكن عند عرب الجاهلية فقط بل عند اليهود أيضا، وقد بقي الأمر كذلك عندهم إلى القرن الحادي عشر الميلادي عندما حرم «يهود الأشكيناز[١]» التعدد، وبقي الأمر مباحا عند يهود السفارديم ويهود اليمن[٢] ورغم أن الشائع أن المسيحية قد منعت ذلك إلا أنه لا يوجد نص حاسم في الأمر وكان المنع كنسيا حتى أن المصلح الديني لوثر (مؤسس البروتستانتية) قد حدد أوضاعا يمكن فيها لرجل أن يتزوج من زوجة ثانية (كأن تكون الزوجة مريضة على نحو يجعل العلاقة الزوجية صعبة) بل أنه قال «لا أستطيع منع رجل من التزوج من عدة نساء إذ أن ذلك لا يعارض شيئا في الكتاب المقدس»[٣] رغم أن البروتستانتية لاحقا قد منعت التعدد أيضا. في ذات الوقت، الكثير من الكنائس أخذت موقفا مرنا تجاه التعدد في أفريقيا لفترة طويلة، نظرا لانتشار التعدد في المجتمع أصلا، مع التشديد على أن «زوجة واحدة» هو الوضع المثالي كما يريده الكتاب المقدس.

ليس ما مضى محاولة لتجميل التعدد، بل لتسليط الضوء على أن ما يبدو اليوم «استثناءً إسلاميا» ليس كذلك من منظور تاريخي.

على العكس، يبدو أن الشرائع التي أباحت التعدد لم تضع حدا أعلى لعدد الزوجات، وكان الأمر متروكا لقدرة الرجل المادية، أو أن الحد الأعلى كان شبه مفتوح في اليهودية (١٨، ٢٤، ٤٨)[٤] وأحيانا كان العدد يحدد بـ ٤ أو ٥ [٥]

دون وجود حد واضح يمنع الزواج بأكثر من ذلك.

لذا كان وضع حد أعلى واضح لعدد الزوجات في الإسلام أقرب إلى «التقنين» منه إلى «السماح بالتعدد» كما ينظر إليه اليوم وقد ثبت أن بعضا ممن أسلم من ثقيف كان متزوجا من عشر نساء، فأمره الرسول عليه الصلاة والسلام بإبقاء أربع وتطليق ما تبقى من العشر[٦].

(١) يهود الأشكيناز هم اليهود المنحدرون من أوروبا الشرقية، السفارديم هم المنحدرون من أسبانيا والبرتغال والذين استقروا في حوض البحر المتوسط

(2) Does Jewish Law Forbid Polygamy? - Marriage
https://www.chabad.org/library/article_cdo/aid/558598/jewish/Does-Jewish-Law-Forbid-Polygamy.htm

(3) Polygamy in Christianity - Wikipedia
https://en.wikipedia.org/wiki/Polygamy_in_Christianity#Early_Church_period

(4) POLYGAMY - JewishEncyclopedia.com
http://www.jewishencyclopedia.com/articles/12260-polygamy

(5) MONOGAMY - JewishEncyclopedia.com
http://www.jewishencyclopedia.com/articles/10949-monogamy

(٦) صحيح ابن حبان ٤١٥٧ وصححه الألباني

ما قد يفهمه البعض اليوم من أنه ظلم للمرأة أو احتكار لها كان في الحقيقة – وضمن سياقاته التاريخية- تحسينا لوضعها ولظروف الزواج السائدة في ذلك الوقت.

كما علينا أن نفهم أن هذا التعدد غير المحدد برقم في الجاهلية كان خاصا بكبار الأثرياء من القوم، إذ لم يكن في إمكانية الرجل العادي أو الفقير دفع صداق عدد كبير من النسوة.

وهكذا نستطيع أن نتصور أن الفئة الأغنى كانت تستحوذ على النسبة الأكبر من النساء بفعل ثروتها والعرف الذي يسمح لها بتعدد غير مقنن. وكان هذا بالتأكيد يؤثر على إمكانية زواج آخرين.

أي أن تقنين التعدد كان بمثابة إعادة لتنظيم العلاقات الاجتماعية على نحو أكثر توازنا في المجتمع المسلم.

لو وضعنا آية التعدد في سياقها لوجدنا أنها نزلت أصلا في سياق القسط أو العدل الاقتصادي.

الآية التي ذكرت التعدد تذكر عادة مجتزأة بأن يقال فقط ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ كما لو أن هناك أمرا إلهيا بالتعدد، لكن الحقيقة أن سياقها المباشر (حتى ضمن نفس الآية وليس مع الآيات الأخرى) يشير بوضوح إلى موضوع العدل الاجتماعي: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣)

تقول الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ حيث كان البعض لا يؤدي لليتامى الذين في كفالته حقوقهم المالية، مكتفيا بما ينفقه في كفالتهم، وكان العرب في الجاهلية لا يورثون اليتيم، بل يوفرون له الكفالة فحسب، فجاء الإسلام ومنح اليتامى حقوقهم في الإرث، لكن كان يمكن أن تختلط أموالهم بأموال كافليهم، لذلك طلبت الآية السابقة لهذه الآية تحديدا الدقة في فصل أموال اليتامى عن أموال كافليهم والمحافظة عليها...

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢)

لكن ما علاقة القسط مع اليتامى بتحديد عدد الزوجات؟

ببساطة الآية تقول إذا كانت مخافة عدم القسط مع اليتامى كبيرة، فمخافة عدم العدل مع الزوجات أكبر، واحتمالية عدم العدل تزيد مع العدد، وتصل إلى حد غير مقبول إن تجاوز العدد الأربعة، لذا فالأربعة هي الرقم الأعلى المسموح به

لكن هذا ليس كل شيء، فالنص القرآني الذي حدد التعدد بأربع ترك أبوابا أخرى للمزيد من التقنين:

أولا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ في نفس آية التعدد...

ثم في نفس السورة: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١٢٩)

الوضع المثالي للعدل هو الزواج من واحدة. هذا هو الواضح من آيات القرآن الكريم..

هل يعني هذا أن التعدد يجب أن يلغى؟ لا طبعا. ستبقى هناك ظروف تفرضه وأوضاع تقبله وتتقبله (وهي أوضاع قد تتغير من مجتمع لآخر وليست قالبا جاهزا موحدا يمكن الإشارة له)..

لكن هناك أيضا ما يجب أن يقنن في هذا التعدد...أبسطها وأقلها أن تعرف الزوجة أن زوجها يتزوج عليها...العرف السائد أن «الإشهار» يمكن أن يتحقق بشاهدين في المحكمة (وقد يكونان شاهدين لم يشهدا على أي شيء يعرفانه أصلا) لا يمكن أن يجد له تأصيلا شرعيا في الزواج الذي كان يحدث علنا في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام حيث كان كل الناس «عمليا» يعرفون كل الناس..«إشهار» السر هذا الذي يحدث اليوم ليس إشهارا، وأبسط حق من حقوق الزوجة الأولى في «العدل» الذي تستحقه هو أن تعرف بزواج زوجها، ورغم أن هذا لا يحدث في أحوال كثيرة، وأن كثيرا من الفقهاء يجيزون إخفاء الأمر[١] إلا أن هناك فقهاء آخرين يرون غير ذلك، فبعضهم يرى وجوب تبليغ الزوجة الأولى إن كانت في نفس بلد الزوجة الثانية ولا يرى وجوب ذلك لو كانت في بلد مختلف[٢] و«ينصح» الأزهر بإخبار الزوجة الأولى ويرى أن عدم علمها يبرر لطلبها الطلاق مع الاحتفاظ بكل حقوقها[٣].

علم الزوجة الأولى بالزواج الثاني لا يعني موافقتها عليه، ولا يلغي المشاكل التي يمكن أن تترتب عليه، لكنه أفضل بالتأكيد من حدوث مفاجآت لاحقة بعد فترة. تقنين هذا الأمر وتأصيله وتحويله إلى واقع قانوني يمنع الزواج الثاني دون علم الزوجة الأولى سيقلل حتما من مشاكل التعدد ومن الشعور بالخطر والغدر الذي تشعر به المرأة دوما من احتمالية زواج زوجها عليها دون معرفتها في أي وقت.

---

(١) لا يشترط للزواج من الثانية إذن الأولى - الإسلام سؤال وجواب

https://bit.ly/2FpuB7I

(٢) حكم الزواج بالثانية دون علم الأولى ابن باز

https://bit.ly/2Hdry3N

(٣) تعرف على رد «الأزهر» في حكم الزواج من «الثانية» بدون علم «الأولى» - اليوم السابع

https://bit.ly/2H9FCeH

الأمر الأهم والأقوى في أبواب التقنين هو إمكانية اشتراط عدم الزواج بثانية في عقد الزواج المبرم بين الزوجين، وهو أمر معروف فقهيا[1] ويستند أولا إلى حديث صحيح يعتبر

---

(١) هل يجوز للمرأة أن تشترط على زوجها في عقد الزواج أن لا يتزوج بامرأة أخرى إن كان العرف في البلد اقتصار الرجل على امرأة واحدة، حيث قرأت فتوى لأحد الشيوخ أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: إنّ أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج كما ذكر أنه لا يوجد ما يمنع اشتراط ما تعارف عليه الناس صراحة في العقد، فهل هذا صحيح؟ ما أقصده على وجه الخصوص عن مشروعية اعتبار العرف في حكم الشرط في عقود الزواج؟

نص الجواب

الحمد لله

اشتراط المرأة ألا يتزوج عليها: شرط صحيح جائز كما ذهب إليه المحققون من أهل العلم، وسواء أكان العرف في بلد الزوجين اقتصار الرجل على زوج واحدة، أو كان العرف التعدد، لكنها ليست مستعدة للقبول به، أو التكيف معه.

وإذا أخل الزوج بهذا الشرط: كان لزوجته الحق في فسخ النكاح، وأخذ حقوقها كاملة.

قال ابن قدامة رحمه الله: «إذا اشترط لها أن لا يخرجها من دارها أو بلدها، أو لا يسافر بها، أو لا يتزوج عليها : فهذا يلزمه الوفاء به، فإن لم يفعل فلها فسخ النكاح، روي هذا عن عمر وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص رضي الله عنهم» انتهى باختصار من «المغني.» (٤٨٣/٩) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «إذا اشترطت أن لا يتزوج عليها فإن هذا يجوز.

وقال بعض العلماء: إنه لا يجوز؛ لأنه حجر على الزوج فيما أباح الله له، فهو مخالف للقرآن: (فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) النساء/٣

فيقال في الجواب على ذلك: هي لها غرض في عدم زواجه، ولم تعتد على أحد، والزوج هو الذي أسقط حقه، فإذا كان له الحق في أن يتزوج أكثر من واحدة، أسقطه، فما المانع من صحة هذا الشرط؟!

ولهذا؛ فالصحيح في هذه المسألة ما ذهب إليه الإمام أحمد رحمه الله من أن ذلك الشرط صحيح» انتهى من «الشرح الممتع» (٢٤٣/ ٥).»

قال الشيخ صالح الفوزان: «من الشروط الصحيحة في النكاح: إذا شرطت عليه أن لا يتزوج عليها، فإن وفَّى، وإلا فلها الفسخ؛ لحديث: (أَحَقُّ الشُّرُوطِ أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ).

وكذا لو شرطت أن لا يفرق بينها وبين أولادها أو أبويها؛ صح هذا الشرط، فإن خالفه؛ فلها الفسخ.

ولو اشترطت زيادة في مهرها، أو كونه من نقد معين؛ صح الشرط، وكان لازما، ويجب عليه الوفاء به، ولها الفسخ بعدمه، وخيارها في ذلك على التراخي، فتفسخ متى شاءت؛ ما لم يوجد منها ما يدل على رضاها، مع علمها بمخالفته لما شرطته عليه؛ فحينئذ يسقط خيارها .
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للذي قضى عليه بلزوم ما شرطته عليه زوجته، فقال الرجل: إذاً يطلقننا ؟!

فقال عمر: مقاطع الحقوق عند الشروط. ولحديث: (الْمُؤْمِنُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ) .

قال العلامة ابن القيم: «يجب الوفاء بهذه الشروط التي هي أحق أن يوفيها، وهو مقتضى الشرع والعقل والقياس الصحيح ؛ فإن المرأة لم ترض ببذل بضعها للزوج إلا على هذا الشرط، ولو لم يجب الوفاء به؛ لم يكن العقد عن تراض، وكان إلزاماً بما لم يلزمها الله به ورسوله» انتهى من «الملخص الفقهي» (٣٤٥/٢، ٣٤٦) .

والله أعلم / من موقع الإسلام سؤال وجواب / الشيخ محمد صالح المنجد. .

قاعدة فقهية عامة وهو حديث «المسلمون على شروطهم»[1]، أي يلتزمون بشروطهم.

كما يستند هذا إلى واقعة حكم فيها عمر بن الخطاب لامرأة اشترطت عند الزواج أن تكون الدار لها، ثم أراد زوجها أن ينقلها، فقال عمر: لها شرطها (أي دارها) فقال الرجل: إذا يطلقننا!

فقال عمر: «مقاطِع الحقوقِ عند الشروط»[2] «أَرَادَ أَن الْمَوَاضِع الَّتِي تقطع الْحُقُوق فِيهَا عِنْد وجود الشُّرُوط، وَأَرَادَ بِهِ الشُّرُوط الْوَاجِبَة فَإِنَّهَا يجب الْوَفَاء بهَا»[3].

يمكن استحضار هذا وترويجه وتثبيته بحيث يكون حماية قانونية مؤصلة فقهيا للمرأة بحيث يكون الأمر قرارا شخصيا يتفق عليه الزوجان في بداية حياتهما المشتركة ويتحملان تبعاته بدلا من محاولات جعل الأمر حرب ضد الإسلام.

ثالثا - الإرث:

أول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر موضوع الإرث في الإسلام هو جزء من آية وليس آية كاملة، ولكنها أصبحت تستخدم على نحو اختزل - ظلما- كل منظومة الميراث في الإسلام فيها.

هذا الجزء من الآية هو بالتأكيد ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

والتركيز المستمر عليها يوحي أن الأنثى دائما تأخذ نصف حصة الذكر في الميراث، والحقيقة أنها تأخذ ذلك فعلا في بعض الحالات، ولكن منظومة الميراث في الإسلام لم تصمم على أساس «جنس الوارث» بل على معايير مختلفة تماما...

المعيار الأول: درجة القرابة بين الوَارث والمُوَرِّث: ذكرًا كان أو أنثى، فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب في الميراث، وكلما ابتعدت الصلة قل النصيب في الميراث؛ دونما اعتبار لجنس الوارثين، فترى البنت الواحدة ترث نصف تركة أمها (وهي أنثى)، بينما يرث أبوها ربع التركة (وهو ذكر) وذلك لأن الابنة أقرب من الزوج؛ فزاد الميراث لهذا السبب.

(١) سنن أبي داود ٣٥٩٤

(٢) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل واللفظ دون الواقعة في صحيح البخاري باب الشرط في المهر ١٨٩٣

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري الجزء ٢٠ صفحة ١٤٠

المعيار الثاني: موقع الجيل الوارث: فالأجيال التي تستقبل الحياة، وتستعد لتحمل أعبائها، عادة يكون نصيبها في الميراث أكبر من نصيب الأجيال التي تستدبر الحياة وتتخفف من أعبائها، بل تصبح أعباؤها - عادة - مفروضة على غيرها، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين والوارثات. فبنت المتوفى ترث أكثر من أمه - وكلتاهما أنثى - وترث بنت المتوفى أكثر من أبيه كذلك في حالة وجود أخ لها مثلًا.

المعيار الثالث: العبء المالي: وهذا هو المعيار الوحيد الذي يثمر تفاوتًا بين الذكر والأنثى، لكنه تفاوت لا يقصد ظلما للأنثى أو انتقاصا من إنصافها.

ففي حالة ما إذا اتفق وتساوى الوارثون في العاملين الأولين (درجة القرابة، وموقع الجيل) - مثل أولاد المتوفّى، ذكورًا وإناثًا - يكون تفاوت العبء المالي هو السبب في التفاوت في أنصبة الميراث؛ ولذلك لم يعمم القرآن الكريم هذا التفاوت بين الذكر والأنثى في عموم الوارثين، وإنما حصره في هذه الحالة بالذات.

أولًا : الحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل:

١. البنت مع إخوانها الذكور، وبنت الابن مع ابن الابن.
٢. الأب والأم ولا يوجد أولاد ولا زوج أو زوجة.
٣. الأخت الشقيقة مع إخوانها الذكور.
٤. الأخت لأب مع إخوانها الذكور.

ثانيًا: الحالات التي ترث فيها المرأة مثل الرجل:

١. الأب والأم في حالة وجود الفرع الوارث.
٢. الأخ والأخت لأم.
٣. أخوات مع الإخوة والأخوات لأم.
٤. البنت مع عمها أو أقرب عصبة للأب (مع عدم وجود الحاجب)
٥. الأب مع أم الأم وابن الابن.

٦. زوج وأم وأختان لأم وأخ شقيق على قضاء سيدنا عمر رضي الله عنه، فإن الأختين لأم والأخ الشقيق شركاء في الثلث.

٧. انفراد الرجل أو المرأة بالتركة بأن يكون هو الوارث الوحيد، فيرث الابن إن كان وحده التركة كلها تعصيبًا، والبنت ترث النصف فرضًا والباقي ردًا. وذلك أيضًا لو ترك أبًا وحده فإنه سيرث التركة كلها تعصيبًا، ولو ترك أمًا فسترث الثلث فرضًا والباقي ردًا عليها.

٨. زوج مع الأخت الشقيقة؛ فإنها ستأخذ مثل ما لو كانت ذكرًا، بمعنى لو تركت المرأة زوجًا وأخًا شقيقًا فسيأخذ الزوج النصف، والباقي للأخ تعصيبًا. ولو تركت زوجًا وأختًا فسيأخذ الزوج النصف والأخت النصف كذلك.

٩. الأخت لأم مع الأخ الشقيق، وهذا إذا تركت المرأة زوجًا، وأمًا، وأختًا لأم، وأخًا شقيقًا؛ فسيأخذ الزوج النصف، والأم السدس، والأخت لأم السدس، والباقي للأخ الشقيق تعصيبًا وهو السدس.

١٠. ذوو الأرحام في مذهب أهل الرحم، وهو إن لم يكن هناك أصحاب فروض ولا عصبات فإن ذوي الأرحام هم الورثة، وتقسم بينهم التركة بالتساوي كأن يترك المتوفى (بنت بنت، وابن بنت، وخالا، وخالة) فكلهم يرثون نفس الأنصبة.

١١. هناك ستة لا يحجبون حجب حرمان أبدًا وهم ثلاثة من الرجال، وثلاثة من النساء، فمن الرجال (الزوج، والابن، والأب)، ومن النساء (الزوجة، والبنت، والأم)

ثالثًا: حالات ترث فيها المرأة أكثر من الرجل

١. الزوج مع ابنته الوحيدة.

٢. الزوج مع ابنتيه.

٣. البنت مع أعمامها.

٤. إذا ماتت امرأة عن ستين فدانًا، والورثة هم (زوج، وأب، وأم، وبنتان) فإن نصيب البنتين سيكون ٣٢ فدانًا بما يعني أن نصيب كل بنت ١٦ فدانًا. في حين أنها لو تركت ابنين بدلًا من البنتين لورث كل ابن ١٢,٥ فدانًا؛ حيث إن نصيب البنتين ثلثا التركة، ونصيب الابنين باقي التركة تعصيبًا بعد أصحاب الفروض.

٥. لو ماتت امرأة عن ٤٨ فدانًا، والورثة (زوج، وأختان شقيقتان، وأم) ترث الأختان ثلثي التركة بما يعني أن نصيب الأخت الواحدة ١٢ فدانًا، في حين لو أنها تركت أخوين بدلاً من الأختين لورث كل أخ ٨ أفدنة لأنهما يرثان باقي التركة تعصيبا بعد نصيب الزوج والأم.

٦. ونفس المسألة لو تركت أختين لأب؛ حيث يرثان أكثر من الأخوين لأب.

٧. لو ماتت امرأة وتركت (زوجًا، وأبًا، وأمًا، وبنتًا)، وكانت تركتها ١٥٦ فدانًا فإن البنت سترث نصف التركة وهو ما يساوي ٧٢ فدانًا، أما لو أنها تركت ابنًا بدلاً من البنت فكان سيرث ٦٥ فدانًا؛ لأنه يرث الباقي تعصيبا بعد فروض (الزوج والأب والأم)

٨. إذا ماتت امرأة وتركت (زوجًا، وأمًا، وأختًا شقيقة)، وتركتها ٤٨ فدانًا مثلا فإن الأخت الشقيقة سترث ١٨ فدانًا، في حين أنها لو تركت أخًا شقيقًا بدلاً من الأخت سيرث ٨ أفدنة فقط؛ لأنه سيرث الباقي تعصيبا بعد نصيب الزوج والأم، ففي هذه الحالة ورثت الأخت الشقيقة أكثر من ضعف نصيب الأخ الشقيق.

٩. لو ترك رجل (زوجة، وأمًا، وأختين لأم، وأخوين شقيقين) وكانت تركته ٤٨ فدانًا، ترث الأختان لأم وهما الأبعد قرابة ١٦ فدانًا فنصيب الواحدة ٨ أفدنة، في حين يرث الأخوان الشقيقان ١٢ فدانًا، بما يعني أن نصيب الواحد ٦ أفدنة.

١٠. لو تركت امرأة (زوجًا، وأختًا لأم، أخوين شقيقين)، وكانت التركة ١٢٠ فدانًا، ترث الأخت لأم ثلث التركة، وهو ما يساوي ٤٠ فدانًا، ويرث الأخوان الشقيقان٢٠ فدانًا، بما يعني أن الأخت لأم وهي الأبعد قرابة أخذت أربعة أضعاف الأخ الشقيق.

١١. الأم في حالة فقد الفرع الوارث، ووجود الزوج في مذهب ابن عباس رضي الله عنه، فلو ماتت امرأة وتركت (أبًا، وأمًا، وزوجًا) فللزوج النصف، وللأم الثلث، والباقي للأب، وهو السدس أي ما يساوي نصف نصيب زوجته.

١٢. لو تركت امرأة (زوجًا، وأمًا، وأختًا لأم، وأخوين شقيقين) وكانت التركة ٦٠ فدانًا، فسترث الأخت لأم ١٠ أفدنة في حين سيرث كل أخ ٥ أفدنة؛ مما يعني أن الأخت لأم نصيبها ضعف الأخ الشقيق، وهي أبعد منه قرابة.

١٣. ولو ترك رجل (زوجة، وأبًا، وأمًا، وبنتًا، وبنت ابن)، وكانت التركة ٦٤٨ فدانًا، فإن نصيب بنت الابن سيكون ٩٦ فدانًا، في حين لو ترك ابنَ ابنٍ لكان نصيبه ٢٤فدانًا فقط.

١٤. لو ترك المتوفى (أمًا، وأم أم، وأم أب) وكانت التركة ٦٠ فدانًا مثلًا، فسوف ترث الأم الثلث فرضًا والباقي ردًا، أما لو ترك المتوفى أبًا بدلًا من أم بمعنى أنه ترك (أبًا، وأم أم، وأم أب) فسوف ترث أم الأم، ولن تحجب السدس وهو ١٠ أفدنة، والباقي للأب ٥٠ فدانًا، مما يعني أن الأم ورثت كل التركة ٦٠ فدانًا، والأب لو كان مكانها لورث ٥٠ فدانًا فقط.

رابعًا: حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال:

١. لو ماتت امرأة وتركت (زوجًا، وأبًا، وأمًا، وبنتًا، وبنت ابن)، وتركت تركة قدرها ١٩٥ فدانًا مثلًا، فإن بنت الابن سترث السدس وهو ٢٦ فدانًا، في حين لو أن المرأة تركت ابن ابن بدلًا من بنت الابن لكان نصيبه صفرًا؛ لأنه كان سيأخذ الباقي تعصيبا ولا باقي، وهذا التقسيم على خلاف قانون الوصية الواجبة وهو خلاف المذاهب، ونحن نتكلم عن المذاهب المعتمدة، وكيف أنها أعطت المرأة، ولم تعط نظيرها من الرجال.

٢. لو تركت امرأة (زوجًا، وأختًا شقيقة، وأختًا لأب)، وكانت التركة ٨٤ فدانًا مثلًا، فإن الأخت لأب سترث السدس، وهو ما يساوي ١٢ فدانًا، في حين لو كان الأخ لأب بدلًا من الأخت لم يرث؛ لأن النصف للزوج، والنصف للأخت الشقيقة والباقي للأخ لأب ولا باقي.

٣. ميراث الجدة: فكثيرا ما ترث ولا يرث نظيرها من الأجداد، وبالاطلاع على قاعدة ميراث الجد والجدة نجد الآتي: الجد الصحيح (أي الوارث) هو الذي لا تدخل في نسبته إلى الميت أم مثل: أبي الأب، أو أبي أب الأب وإن علا، أما أبو الأم أو أبو أم الأم فهو جد فاسد (أي غير وارث) على خلاف في اللفظ لدى الفقهاء، أما الجدة الصحيحة فهي التي لا يدخل في نسبتها إلى الميت جد غير صحيح، أو هي كل جدة لا يدخل في نسبتها إلى الميت أب بين أمَّين، وعليه تكون أم أب الأم جدة فاسدة، لكن أم الأم، وأم أم الأب جدات صحيحات ويرثن.

٤. لو مات شخص وترك (أبا أم، وأم أم) في هذه الحالة ترث أم الأم التركة كلها، حيث تأخذ السدس فرضًا والباقي ردًا، وأب الأم لا شيء له؛ لأنه جد غير وارث.

٥. وكذلك ولو مات شخص وترك (أم أم، وأبا أم أم) تأخذ أم الأم التركة كلها، فتأخذ السدس فرضًا والباقي ردًا عليها ولا شيء لأبي أم الأم؛ لأنه جد غير وارث.

إذن فهناك أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل، أو أكثر منه، أو ترث هي ولا يرث نظيرها من الرجال، في مقابلة أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل.[1] وهناك أيضا حالات كثيرة أخرى، يأخذ فيها الرجل أكثر من المرأة، أو يرث هو ولا ترث هي، لكن المعيار في هذا لا يتأثر فقط بجنس الوارث، بل الاعتبارات التي مر ذكرها.

* * *

طبعا تحمل المسؤولية المادية من قبل الذكر للأنثى لم يعد مثل السابق، ليس بالضرورة بسبب فقدان التكافل وأواصر العائلة بل لأن الأمور تغيرت وصارت المرأة جزءا مهما من سوق العمل بل صار يمكن أن تنفق هي على شقيقها..

هل يعني هذا أن قوانين الإرث يجب أن تعدل؟ لا. هذا فقط للتذكير بأن المواريث لم تنزل لكي تقلل من شأن المرأة، بدليل أنها تأخذ أكثر من الرجل في أحيان كثيرة. وأن «نصف الحصة الذكر» الذي يركز عليه شرع ضمن منظومة عوضت نفس المرأة (التي ورثت نصف ما ورث شقيقها) فورثت مثل أو أكثر مما ورث ذكر نظير لها.

رابعا- واضربوهن!

أعترف أني كنت أملك مشكلة كبيرة في فهم مغزى وضع الضرب كخيار أخير في التعامل مع نشوز المرأة في الآية المعروفة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤)

أفهم أن يحدث ضرب كواقع مؤسف منتشر في كل العالم(حوالي ثلث النساء في العالم تعرضن لعنف جسدي / جنسي من زوج أو شريك[2])، لكن لم أفهم كيف «يكون ذلك في القرآن».

(١)ميراث المرأة وقضية المساواة د. صلاح الدين سلطان دار نهضة مصر الطبعة الأولى ١٩٩٩

(2) Violence against women

https://www.who.int/news-room/fact-sheets/detail/violence-against-women

وعلي أن أعترف أيضا بأن الرد المعتاد من أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يضرب امرأة في حياته، لا يكفي لإيماني بهيمنة القرآن على السنة، مهما قلنا عن حسن معاملته عليه الصلاة والسلام لهن فوجود الآية في القرآن تعطي مسوغا لاستعمال الضرب.

كذلك الحديث عن أن الضرب هنا هو الضرب غير المبرح كالذي يكون بالسواك أو عدم تَقَصُّد الوجه في الضرب...أمر لا يبدو منطقيا في الأول ولا يختلف كثيرا في الثاني...

وبعدها تأتي محاولات الإخوة الكرام في تأويل معنى الضرب بكونه الهجر مثل وضربوا في الأرض- أي سافروا..

مع كل الاحترام ولكن المعنى مباشر وواضح.. اضربوهن وليست اضربوا او اضربوا عنهن...أو ..أو...

الأمر كان إشكاليا بالنسبة لي وبالنسبة لكثيرين وهناك دوما نقاشات طويلة بين الشباب في وسائل التواصل الاجتماعي عن الأمر.

الكل يبحث عن تأويل لكلمة اضربوهن ولكن نحتاج إلى التدقيق في كلمة نشوز، إذ أن النشوز هو الذي أدى إلى خيارات الموعظة ثم الهجر ثم الضرب..

النشوز لغة هو الارتفاع، مكان ناشز هو مكان مرتفع...مفهوم النشوز حاليا مفهوم عام جدا، ويمكن أن يشمل أي شيء تخالف المرأة به زوجها، والأمثلة في الشبكة عن ذلك كثيرة جدا..

ولكن النظر إلى سياق الآية سيدلنا ربما إلى شيء أكثر تحديدا في معنى النشوز...

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ (النساء: ٣٤)

فالصالحات القانتات الحافظات الغيب بما حفظ الله في هذا السياق هن المقابل المعاكس **إلى اللاتي تخافون نشوزهن..**

أي بعبارة أخرى أن اللاتي تخافون نشوزهن لسن حافظات الغيب (غيب أزاوجهن) ..

النشوز هنا - في هذا سياق- هو شبهة خروج من طريق العفة.. لا أقول أنها فعلت فاحشة، بل أقول أن الإشارة هنا هي إلى مقتربات ذلك، إلى ما يحدث قبل الفاحشة من أمور تمهد لها يعرفها الجميع ولا داعي للخوض فيها..أي الحديث عن مقدمات خيانة.. أو شبهة خيانة دون حدوث واقعة الزنا

فلنكن صريحين...الموعظة والهجر ومن ثم الضرب.. وبهذا التسلسل، من أجل مقدمات متكررة لخيانة؟...يبدو الأمر مفهوما جدا.

ليس هذا فقط..

بل أن حديثه عليه الصلاة والسلام يثبت هذا المعنى أكثر وأكثر وهو الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ضمن سياق أطول في خطبة حجة الوداع **«وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ»**[1]

ينقل النووي في شرحه للحديث **«قِيلَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنْ لا يَسْتَخْلِينَ بِالرِّجَالِ وَلَمْ يُرِدْ زِنَاهَا لأَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ جَلْدَهَا وَلأَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ مَعَ مَنْ يَكْرَهُهُ الزَّوْجُ وَمَنْ لا يَكْرَهُهُ وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ كَانَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ حَدِيثَ الرِّجَالِ مَعَ النِّسَاءِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عيبا ولا رِيبَةً عِنْدَهُمْ فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ نُهُوا عَنْ ذَلِكَ»**[2]

يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه؟ المعنى هنا إدخال رجل غريب إلى البيت....أي خلوة مع رجل أجنبي في البيت ومن غير رضا الزوج (..أحدا تكرهونه)...لا يوجد زنا هنا.. فقط خلوة في البيت والرجل «غير مرغوب به» من قبل الزوج... الضرب غير المبرح يبدو متسقا جدا مع الآية ومع معنى النشوز كما فهم في هذا السياق..

بغض النظر عن الضرب هنا، قد يفضل البعض الانفصال والطلاق مثلا...

لكني أصبحت متفهما للأمر..

لم أعد أجد نفس المشكلة في معنى «اضربوهن»..

* * *

لكني أعرف أن الكثيرات ربما لا يزلن يشعرن بمشكلة هنا أو هناك، بعدم اقتناع بهذا الشيء أو ذاك.. بثقل هذا الفرض أو صعوبة المحافظة عليه..

لا بأس..

عندما يكون لدينا جزء صغير لم نتقبله أو نفهمه من ضمن كل مفهوم..

فإن منطق الكل أو لاشيء لا يعدو مجديا.

---

(١) مسلم ١٤٧

(٢)شرح النووي على صحيح مسلم جزء ٨ صفحة ١٨٣-١٨٤

زواج السيدة عائشة

يمكن اعتبار الموقف من «سن السيدة عائشة عند زواجها من الرسول عليه الصلاة والسلام» مثالا نموذجيا على الخلط الذي يحدث عند كثيرين بين ما فعله عليه الصلاة والسلام كجزء من أعراف قومه المقبولة والسائدة وقتها، وبين مهمته النبوية والرسالية.

هناك أمثلة كثيرة، مثل ما كان عليه الصلاة والسلام يتداوى به كطريقة علاجية سائدة في عصره، وكان سيتداوى بعلاج آخر حتما لو عاش في عصر آخر، لكن ثمة خلط شائع بين فعله الشخصي الإنساني الذي كان يفعله كما يفعله باقي قومه اعتمادا على معارفهم، وبين مهمته الدعوية في التبليغ، هذا الخلط أنتج لنا ما يعرف بـ «الطب النبوي» الذي يعتبره كثيرون جزءا من سنته عليه الصلاة والسلام.

لا مشاكل كبيرة ناتجة عن الخلط في هذا المجال، إذ أن هذا الطب يعتمد على التجربة البشرية وفي أسوأ الأحوال لن يحدث فرقا، ولكن من غير المحتمل أن يحدث ضررا[1].

لكن الخلط في مجالات أخرى، ينتج الكثير من المشاكل.

من ضمنها: عمر السيدة عائشة عند زواجها من الرسول عليه الصلاة والسلام.

* * *

كيف يمكن استحضار واقعة زواج حدثت قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة لتكون نقاشا يحاول به أحدهم أن يبرر أو يفسر إلحاده؟

في الغالب الأمر ليس مباشرا. لا أحد يلحد بسبب كهذا.. ربما هو جزء من جملة مشاكل مع «الدين» عموما تراكمت شيئا فشيئا لأسباب مختلفة إلى أن انفجرت فتعاملت مع كل ما مر بها من أسئلة كما لو كانت سببا قاد إلى الإلحاد.

---

(١) باستثناء الحجامة التي يمكن أن تحدث مضاعفات مع مرضى لديهم أمراض مزمنة، إضافة إلى خطورة التعرض للعدوى بسبب الأدوات المستخدمة

الأمر كله يتعلق بما صح من أحاديث[1] تذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام قد خطب السيدة عائشة وهي في السادسة، وتزوجها وهي في التاسعة.

* * *

لدينا ثلاث مواقف هنا، ولكننا نحتاج إلى موقف رابع.

الموقف الأول هو موقف المستهول المستفظع للخبر، تسع سنوات.. يا للجريمة، يا للهول.. سرعان ما يبدءون بحملة للدفاع عن الحسناء المعذبة والطفولة الشقية وسرعان ما نسمع اتهامات للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على أنه Pedophilic (محب للأطفال على نحو شاذ) ويقود هذا إلى التشكيك برسالته وهذا يقود حتما وبكل تأكيد إلى إنهاء الإسلام برمته.. ونادرا ما يقود هذا إلى الإيمان بدين آخر.. بل غالبا يؤدي إلى الإلحاد.

الموقف الثاني هو رد فعل دفاعي من الموقف الأول- تسع سنوات؟ أعوذ بالله. هذا خطأ تماما. لا يمكن أن يكون حديثا. رسولنا الكريم لا يفعلها. لا بد أن هناك خطأ ما في نقل الخبر. ربما الراوي أخطأ في الحساب. أو ربما هناك -كالعادة- مؤامرة على الإسلام ورسوله لتشويهه منذ أن نشأ..

الموقف الثالث يقول: تاسعة وأفتخر! يعتبر أن هذا الموقف مستحب فهو سنة! ويدافع عن أي حالة مقاربة.

أصحاب المواقف الثلاثة (المستفظع / المنكِر/ المفتخر) متقاربون أكثر مما يبدو عليهم.. وأكثر مما يعرفون.. هم جميعا يقاربون الموضوع من خارج التاريخ، يتعاملون معه دون النظر إلى سياقه التاريخي...

صاحب الموقف الأول والذي يتهم الرسول بالشذوذ يحاول أن يسقط المفاهيم الأخلاقية المعاصرة على زمن مختلف تماما هو زمن الرسول الكريم وهو يعتقد أن المفاهيم المعاصرة مطلقة وصالحة لكل زمان ومكان، بالضبط كمن يحاسب سكان الأرض في العصر الحجري على تلوث البيئة والاحتباس الحراري.

ولأنه يعتقد أن مفاهيمه مطلقة، فهو يرفض ما حدث قبل ١٤٠٠ سنة ويعتبره جريمة أخلاقية رغم أنه يحاكمه بمقاييس القرن الواحد والعشرين الميلادي.

(١) صحيح البخاري ٣٨٩٤ صحيح مسلم ١٤٢٢

صاحب الموقف الثاني المنكر للأمر، لديه نفس التصور بطريقة ما، هو يؤمن بأن المفاهيم المعاصرة مطلقة أيضا، ولكنه لا يحاكم ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام - شكرا لله- بل يحاكم من نقل الأخبار والروايات ويتهمهم بالغش أو الخطأ في أحسن الأحوال.

صاحب موقف (تاسعة وأفتخر) خارج التاريخ أيضا، لكنه هنا يعتقد أن أعراف ما قبل ١٤٠٠ سنة تصلح للعمل والتطبيق الآن، بل أنه يعتبر أعراف العرب وتقاليدهم في الجزيرة العربية قبل ١٤٠٠ سنة من السُنة ومن الدين.

أصحابنا الثلاثة قد يبدون مختلفين جدا وقد يتشاتمون فيما بينهم عن الأمر في كل مناسبة ممكنة.

لكنهم متشابهون جدا، على الأقل في السبب الذي قادهم إلى موقفهم هذه.

***

سن السيدة عائشة كان السادسة عندما خطبت وكانت في التاسعة عند زواجها الفعلي. هذا ما روته هي نفسها في حديث متفق عليه.

كان الأمر شائعا جدا آنذاك، بل إن السيدة عائشة كانت في حكم المخطوبة قبل الرسول عليه الصلاة والسلام لجبير ابن المُطعِم بن عَدي[1] (والمطعم واحد من الشخصيات المهمة في مكة وهو نفسه الذي أجار عليه الصلاة والسلام عند عودته من الطائف).

ولا يوجد أدنى استغراب من سن زواجها في كل ما نقل من روايات، اقترحت خولة بنت حكيم الأمر على الرسول بعد وفاة السيدة خديجة، وأعطته عائشة كخيار للفتاة البكر، وسودة بنت زمعة للمتزوجة من قبل[2]

أي أن سن عائشة وصغرها لم يكن هو ما يفرقها عن سودة، بل كونها باكر.

كذلك كان واضحا في تفاصيل الخطبة في نفس المصدر (وهو صحيح على شرط الشيخين) أن زواج الرسول منها قد أشكل فعلا على أبي بكر، ولكن ليس لصغر سنها، بل لأن أبي بكر اعتقد أن أخوة الرسول له في الإسلام تمنع هذا الزواج (أي كما يحرم الزواج بين العم وبنت أخيه) كما ذكّرته السيدة أم رومان بموضوع ابن المطعم بن عدي وأشارت إلى ضرورة تسويته.

(١) مسند إسحاق بن راهويه ١١٦٤

(٢) مسند أحمد ٢٥٧٦٩

بعبارة أخرى: خطوبة من هي في السادسة كان أمرا مقبولا حسب أعراف العرب (أو أعراف قريش على الأقل) في تلك الفترة. ولم يكن الأمر يعد جريمة أو عيبا أو منقصة، ولو أنه كان كذلك لاستخدمه أعداء الرسول آنذاك لتشويه دعوته وصرف الناس عنه. لكنهم رغم شدة حربهم الكلامية ضده، واتهامهم له بالسحر والجنون، إلا أن هذا الأمر لم يتطرقوا له، لأنه كان أمرا مقبولا تماما في أعرافهم.

بالضبط كان الزواج مرتبطا بسن البلوغ الفسيولوجي، ومعدل سن البلوغ الفسيولوجي يتغير من مكان إلى آخر ومن عصر إلى آخر[1] على سبيل المثال: معدل سن البلوغ للفتيات في الولايات المتحدة اليوم هو ١١-١٢، وكان ١٤ قبل ٥٠ عاما فقط[2] كما أن هناك ما نسبته ١٨٪ من الفتيات البيض ٤٣٪ من الفتيات السود قد دخلن البلوغ في سن الثامنة [3].

علينا أن ننتبه أيضا إلى أن الزواج ربما لم يكن مرتبطا بالفسلجة والبلوغ والجنس وإنجاب الذرية فقط.. بل كان التصاهر وسيلة للتحالف بين العشائر أو البطون المختلفة ضمن العشيرة الواحدة لتقوية الروابط، وهذا الأمر لا يدقق كثيرا في فسلجة الفتاة أو حتى في كون الفتاة قد تزوجت فعليا أو لا فمجرد إعلان الزواج يحقق الرابطة العشائرية بكل الأحوال .

وعلى قدر ما يستهول الأمر اليوم فإنه كان عاديا آنذاك.

والحقيقة أنه كان كذلك حتى فترات قريبة جدا في أماكن مختلفة من العالم.

على سبيل المثال فإن أقدم قانون يوثق سن الزواج في أوربا (بعد خمس قرون من زواج السيدة عائشة) كان يحدد سن الفتاة ب ١٢ سنة ويعتبر موافقتها على الزواج مهمة طالما كانت بعد سن السابعة. كذلك الكثير من الشخصيات النسائية الموثق سن زواجها حتى القرن السادس عشر (١٧٠٠ ميلادية) كانت في سن التاسعة عندما تزوجت، وقائمة المتزوجات الصغيرات طويلة جدا في تاريخ الحضارة الغربية، بل إن التشريعات السارية في بعض الولايات الأمريكية والتي تحدد السن الأدنى للزواج ب ١٣ سنة لم تتغير إلا في ٢٠١٦ [4]

(1) Changing Biology: Age at First Menstruation - Sociological Images
https://thesocietypages.org/socimages/2008/09/19/changing-biology-age-at-first-menstruation/

(2) Early puberty for girls. The new 'normal' and why we need to be concerned | Canadian Women's Health Network
http://www.cwhn.ca/en/node/39365

(3) Puberty coming earlier for U.S. girls: study | Reuters
https://www.reuters.com/article/us-puberty-earlier/puberty-coming-earlier-for-u-s-girls-study-idUSTRE6782EV20100809

(4) Why 13-year-olds can no longer marry in Virginia - The Washington Post
https://www.washingtonpost.com/local/virginia-politics/why-13-year-olds-can-no-longer-marry-in-virginia/2016/07/03/03849e46-3ef9-11e6-a66f-aa6c1883b6b1_story.html?utm_term=.f5894364b0e9

وكذلك فإن هناك حتى اليوم (في ٢٠١٨) ولاية أمريكية واحدة تحدد سن الزواج الأدنى للفتاة بـ ١٢، ولايتان تحدده بـ ١٤، وخمس ولايات تحدده بـ ١٥ عاما[1]. كما أن أغلب الولايات تقبل تزويج من هن دون السن القانونية في حالة وجود موافقة من الأب أو الأم.

لا نقول هذا من باب معايرة الغربيين بما يعايرون نبينا به، بل فقط لتوضيح شيوع الأمر تاريخيا حتى فترات معاصرة، وأن ما كان يعد أمرا طبيعيا صار لاحقا مرفوضا نتيجة لتطورات اجتماعية. ويمكن فقط استخدام محرك البحث عن مصطلح (سن الموافقة age of consent)- ويقصد به السن الذي يسمح به قانونيا بممارسة الجنس- لمعرفة التطور الذي طرأ على هذا المفهوم عبر الوقت.

* * *

ماذا عن إنكار الأمر بكامله؟

هذا الموقف مثل سابقه، يعتبر الأمر جريمة منكرة ولكنه يدافع عنه عليه الصلاة والسلام - مبدئيا عبر إنكار حدوث الأمر أصلا.

الدوافع مفهومة، لكن ما هي أدلة إنكار الأمر؟

يقودهم هذا إلى الاصطدام بنصوص صحيحة في كتب الصحاح، مثل النص المتفق على صحته في البخاري ومسلم الذي تقول فيه السيدة عائشة بنفسها عن زواجها منه عليه الصلاة والسلام «**تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسِتِّ سِنِينَ، وَبَنَى بِي وَأَنَا بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ**»[2]

ولا مشكلة في نقد البخاري ومسلم، فلا عصمة لأحد. وهما بشر وكل البشر يخطئون بالتعريف.

لكن النقد يجب أن يكون علميا لا علاقة له بالأحكام المسبقة التي نتخذها بناء على موقف معين.

هنا لدينا حديث صحيح السند تقول فيه السيدة عائشة أن عمرها كان كذا وكذا يوم تزوجته عليه الصلاة والسلام، فما هي خطة الإخوة المنكرين لتكذيب الأمر؟

---

(1) Tahirih Child Marriage Report 2017
https://www.tahirih.org/wp-content/uploads/2017/08/TahirihChildMarriageReport-1.pdf

(٢) البخاري ٣٨٩٤ مسلم ١٤٢٢

يبنون تكذيبهم على جملة مغالطات لا تقود مع الأسف إلا إلى تكريس فكر المغالطات غير المتناسق.

أولا- خبر أن السيدة عائشة كانت تصغر أختها أسماء بعشر سنوات، والخبر ليس مسندا بل هو مما يرويه أصحاب السير، فالفرق بين عمر الأختين لم يكن مهما يومها لكي يوثق عبر سند صحيح ورواية حديثية، وهم يربطون بين هذا الفرق (غير المؤكد) وبين خبر آخر بلا سند ولا توثيق وهو أن السيدة أسماء كانت في السابعة والعشرين عند الهجرة، مما يعني أن السيدة عائشة كانت في السابعة عشر أو أكثر عند زواجها منه عليه الصلاة والسلام، لكن (خبرين غير موثقين) وربطهما معا لا يصلحان كحجة، إضافة إلى أن مجرد فكرة أن السيدة أسماء قد تأخر إنجابها إلى سن ال ٢٦ (كانت حاملا بطفلها الأول في الهجرة) أمر غريب جدا بمقاييس ذلك الوقت بل هو أمر مقلق حتى اليوم في بعض المجتمعات العربية.. فكيف يستقيم في ذلك الوقت؟

ثانيا- خطبة السيدة عائشة لابن المطعم بن عدي تستخدم كدليل معاكس ... فالمطعم وابنه كانا مشركين، فكيف يمكن أن يكون أبوها قد وافق على خطبة ابنته لمشرك؟ وهذا يعني في رأيهم أنها لا بد أن تكون قد خطبت قبل البعثة وهذا يضيف إلى عمرها خمس سنوات كحد أدنى على فرض أن الخطبة حدثت يوم ولدت عائشة.

مرة أخرى هذه نظرة إلى الأمر خارج سياقه التاريخي، أحكام الزواج وعدم الزواج من مشركين ومشركات لم تكن قد شرعت بعد ولم تشرع إلا في المدينة لاحقا وبعض تفاصيلها تأخرت إلى صلح الحديبية، لذا ففرضية أن أبا بكر ما كان سيقبل بخطبة عائشة لمشرك لم تكن مطروحة بهذا الوضوح، ذلك أن بنتي النبي عليه الصلاة والسلام كانتا عند ابني أبي لهب وكانا مشركين أيضا، وأبو لهب وزوجه هما اللذان طلبا من ابنيهما طلاق بنتي الرسول بعد نزول سورة المسد.

إضافة إلى هذا فإن خطبة من هذا النوع لم تكن تحدث كما تحدث في أيامنا هذا، أي بأن يذهب أهل الرجل وعشيرته إلى والد الفتاة وأعمامها.. إلخ...بل كانت أقرب إلى (الوعد) ..بأن فلانة الصغيرة ستكون لفلان عندما تكبر...وهو أمر لا يزال شائعا في بعض المجتمعات الريفية، وعندما تخطب الفتاة لسواه، فإن العرف السائد حتى اليوم يكون عبر إخبار الخطيب المفترض الأول أو أهله للتحلل من الأمر.

وهذا ما حدث بالضبط في حالة عائشة و(خطيبها الأول) فهذا ما قالته تحديدا والدتها أم رومان: **إِنَّ مُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ قَدْ كَانَ ذَكَرَهَا عَلَى ابْنِه، فَوَاللهِ مَا وَعَدَ وَعْدًا قَطُّ، فَأَخْلَفَهُ لأَبِي بَكْرٍ**[1]

وتوضح نفس الرواية أن حل الوعد والتملص منه كان بمجرد التلميح بتأثير ديني محتمل لأبي بكر على ابن المطعم حيث قالت أمه زوجة المطعم لأبي بكر (**يَا ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ لَعَلَّكَ مُصْبِئُ صَاحِبَنَا مُدْخِلُهُ فِي دِينِكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْه، إِنْ تَزَوَّجَ إِلَيْكَ**).

ثالثا - يذكر أحد رواة الحديث الصحيح الذي يحدد سن السيدة عائشة (وهو هشام بن عروة) كان قد تغير في آخر عمره (أي أن ذاكرته ضعفت) في إشارة إلى أنه ربما نسي كم كان عمر السيدة عائشة.

ولكن التحقيق في الأمر يقود إلى أن هشام المتهم في ذاكرته كان قد روى الحديث وهو لا يزال شابا، ليس هذا فقط: هناك خمسة رواة سواه رووا الحديث بنفس النص عن السيدة عائشة. وهناك طرق أسانيد مختلفة تماما تصل للسيدة عائشة دون أن يتهم أحد من رواتها بضعف الذاكرة[2].

رابعا- حديث صحيح تروي فيه السيدة عائشة جانبا من حياة أبيها قبل الهجرة.. حيث تقول: (**لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ، إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ**)[3]

وبما أن الهجرة إلى الحبشة كانت في السنة الخامسة للبعثة، ومادامت السيدة عائشة تعي الأمر وتذكره فقد كانت على الأقل بعمر الخمس سنوات، مما يجعلها في الثالثة عشر أو أكثر يوم تزوجته عليه الصلاة والسلام.

لكن الهجرة إلى الحبشة كانت مرتين، الأولى في السنة الخامسة للبعثة، والثانية في السنة الحادية عشر للبعثة، وما تذكره عائشة واضح أنه كان بعد الهجرة الثانية لأنها تذكر في تكملة نفس النص أنه عليه الصلاة والسلام قد أخبره بقرب الهجرة إلى المدينة.

---

(١) مسند أحمد ٢٥٧٦٩

(٢) تحقيق في عمر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم - الإسلام سؤال وجواب

https://bit.ly/2FtT1vD

(٣) ٣٩٠٥صحيح البخاري

إضافة إلى كل ما سبق، فما روته السيدة عائشة عن الأمر لم يكن مجرد رقم أو ذكر لسنها عند الزواج، على نحو يمكن التقليل من شأنه أو تصور إمكانية وجود خطأ في الرقم، بل كان مصحوبا بذكر أنها كانت طفلة تلعب مع صاحباتها، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يدعو صاحباتها للبيت عندما يخرج هو من البيت[1].

* * *

ما المشكلة في أن يحاول البعض - ممن يدافعون عن الرسول عليه الصلاة والسلام من التهمة المفترضة- تقديم أدلة يمكن أن تهدم الفكرة الشائعة عن زواج السيدة عائشة في عمر التاسعة؟

المشكلة هنا هي أن هذه الأدلة ستوضع بمواجهة حديث صحيح متفق عليه من البخاري ومسلم.

وإن يكن؟

أليسا بشرا ؟ أليسا معرضين للخطأ؟ ألم أقل ذلك أنا شخصيا في أكثر من موضع؟ أليس هذا خبر آحاد أيضا؟!

لماذا يصل الأمر إلى سن السيدة عائشة وتختلف طريقة التعامل؟

هناك فرق كبير بين تأويل حديث صحيح لأن ظاهر محتواه يخالف العلم (مثل حديث نفخ الروح في الجنين)، وبين رفض حديث صحيح لأنه يخالف القيم المعاصرة.

العلم غير المعاصرة والحداثة.

وجود تناقض «مفترض» بين النصوص الدينية وبين العلم أمر يجب أن يعامل بحذر.. خاصة عندما يتعارض ظاهر النص مع ثوابت العقل وعلى نحو مباشر وواضح.

أما وجود تناقض مع القيم المعاصرة وقيم الحداثة فهو أمر طبيعي جدا ويمكن أن يفهم من خلال السياقات التاريخية بسهولة.

لذا فالقول بأن حديث زواج السيدة عائشة في سن التاسعة يخالف العقل والمنطق هو قول غير صحيح حتما.

هو يخالف «القيم المعاصرة»، وهذا طبيعي ولا نقاش فيه.

---

(١) صحيح مسلم ٨١

لكن الخلط بين القيم المعاصرة والعقل خطير.

ورفض «نص حديث صحيح» لمعارضته «القيم المعاصرة» يفتح أبوابا لا يمكن غلقها.

ببساطة، في هذه المنطقة، لن يمكن التمييز بين «اتباع الهوى»، واتباع غير ذلك.

لا بأس في نقد البخاري ومسلم، فهما بشر، ولكن أن يكون النقد علميا متماسكا يستبعد خللا أو تناقضا في الفهم أو خرافة تسربت، لا أن نستحضر سلسلة المغالطات المنطقية، فقط لكي نجعل سن زواج عائشة مناسبا لمقررات اتفاقية سيداو لحقوق المرأة- رغم أن ما نستبعده كان أمرا مقبولا شائعا يوم حدث..

إن فعلناها مرة، لا يمكننا منع حدوثها لاحقا بنفس الدعوى: عدم المعاصرة..

* * *

لكن هل ينبغي أن نقبل بذلك فقط لأنه كان مقبولا آنذاك؟

هل علينا أن نتبنى موقف المفتخر بالأمر الذي يعده سنة والذي يدافع عن الحالات المشابهة التي قد تحدث اليوم؟

لا.. بالتأكيد لا... ينبغي أن نميز دوما بين ما فعله عليه الصلاة والسلام بصفته الشخصية الإنسانية (أي كإنسان يعيش في مجتمعه وقومه) وبين صفته النبوية، أي ما يفعله ليعلم الناس أن يفعلوا مثله ويتصل برسالته وتعليماته.

وزواج الرسول عليه الصلاة والسلام من السيدة عائشة وفي سنها هو أمر شخصي إنساني لمحمد بن عبد الله الذي عاش في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ..وهو أمر كان مقبولا يومها لظروف اجتماعية تتغير باستمرار، ولا طريق للعودة فيها.. ولا داعي أصلا للتمسك بطريق العودة إليها..

المشكلة كان يمكن أن تكون لو وجدنا أن نصا قرآنيا أمرنا بتزويج بناتنا في سن التاسعة..

هنا يمكن أن تكون مشكلة كبيرة تضعنا بمواجهة النص القرآني وصلاحيته كمرجعية.

لكن هذا النص غير موجود.. بل لا يوجد حتى نص نبوي يقول بذلك.. هناك فعل اجتماعي فقط، مقبول في إطاره...لكن البعض للأسف فهمه باعتباره سنة نبوية، فلم يجد مشكلة في استمرارية «تطبيقه».

الكثير من مشاكلنا يمكن أن تحل فيما لو فهمنا الفرق بين محمد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وبين محمد بن عبد الله الذي عاش عصر قومه...

في الخلاصة: سن السيدة عائشة عند زواجها ليس من أركان الإيمان، ويمكنك أن تشك فيه وأن تستغربه رغم كونه عاديا آنذاك بل وعاديا حتى وقت قريب...

لكن انتبه...

لا تفتعل دراما من أجل زواج حدث قبل ١٤٠٠ سنة..

إيمانك بالله يجب أن يكون أكبر من هذا...

«ليطمئن قلبي»

في الثامن من ابريل عام ١٩٦٦ صدر عدد مجلة تايم بغلاف أسود وبأحرف حمراء كبيرة مع العبارة الصادمة: Is God Dead?

هل مات الله؟[1]

كان العدد مخصصا كما هو متوقع، للحديث عن انحسار التدين والإيمان في العالم المعاصر (آنذاك) أي قبل خمسين عاما.

بالضبط للحديث عن عدم وجود حاجة لله في العالم المعاصر، بما أن العلم فسر كل شيء.

وكان العدد متزامنا مع صعود حركة أكاديمية عرفت باسم (موت الله) كانت موجودة بين اللاهوتيين والفلاسفة آنذاك، وكانت هذه الحركة تتحدث عن موت الإله أو توقفه عن الوجود، مستمدة العبارة من الفيلسوف نيتشه الذي أعلن قبل نهاية القرن التاسع عشر موت الله[2]. تعالى الله جل شأنه عما يقولون.

لكن عدد النعي هذا كان خاطئا.

فبعد ٣ أعوام، تحديدا في ٢٦ ديسمبر ١٩٦٩ نشرت مجلة التايم عددا خاصا بغلاف أبيض اللون وبعبارة:

Is God Coming Back to Life

هل عاد الله إلى الحياة؟[3]

وكان ذلك مبنيا على ذبول حركة موت الله، وتزايد الاهتمام الفلسفي مجددا بفكرة الله.

* * *

---

(1) Is God Dead?: TIME's Iconic Cover at 50
http://time.com/isgoddead/

(2) Death of God theology - Wikipedia

(3) TIME Magazine Cover: Is God Coming Back to Life? - Dec. 26, 1969 - Religion - Society
http://content.time.com/time/covers/0,16641,19691226,00.html

في عام ١٩٨٠ قدمت التايم مجددا موضوعا مفصلا عن Modernizing the Case for God[1]

تحديث قضية الله...كان الموضوع مخصصا عن ثورة في إيجاد أدلة واستخدام مناقشات وأدلة فلسفية جديدة لإثبات وجود الله، عن تقديم مفاهيم وتصورات جديدة لله لم تكن موجودة من قبل.

بدأت التايم الموضوع بهذه الافتتاحية: **«الله؟ لكن ألم يطرده ماركس من السماوات، ونفاه فرويد إلى اللاوعي؟ وأعلنه نيتشه ميتا؟ وأعلن داروين أن لا مكان له في عالم التجربة؟**

يبدو أن ذلك لم يحدث بالضبط. ففي ثورة فكرية لم يتوقعها أحد منذ عقدين، الله يحقق عودة. ولا يحدث ذلك عند رجال الدين اللاهوتيين أو المؤمنين العاديين - الذين لم يشعروا أصلا أنه بخطر- بل يحدث عند الفلاسفة، الذين بدأت فكرة موت الإله عندهم...»[2].

خلال ١٤ عاما فقط...غيرت التايم أقوالها تماما.

God was making a «comeback»

* * *

لا يموت الله أبدا. حاشاه، الحي القيوم الأول الآخر الظاهر الباطن.

يموت إيمان البعض به.

تموت بعض المفاهيم والتصورات عنه عز وجل.

فيعتقد البعض أن هذا موته.

لكن سرعان ما ينبثق إيمان جديد، فكر جديد، مفهوم جديد، فإذا به حي لا يموت.

تموت بعض أفكارنا عنه، فقط لتزيح المجال لأفكار أخرى جديدة عنه أيضا..

وبين ذهاب تصور وميلاد آخر.. يعلق البعض ويقولون...

لقد مات الإله...

حاشاه..

* * *

(1) Religion: Modernizing the Case for God - TIME
http://content.time.com/time/magazine/article/0,9171,921990,00.html

(2) «Modernizing the Case for God,» Time, April 7, 1980, pp.65- 6.

الحكاية قديمة، قديمة جدا، لعلها من أقدم حكايات الكتاب، منذ أن بدأت البشرية، على الأقل منذ أن بدأ البشر بعقل ما حولهم، وهناك إيمان بإله ما، بطريقة ما...

وكان هناك أيضا «لا إيمان» بأي إله.

نخطئ إذ نتصور أن الإلحاد اختراع جديد، كان هناك دوما «ناس غير مؤمنين»، ربما لم تكن أصواتهم عالية، ولم يكن يسمى «لا إيمانهم» إلحادا.. لكن كان هناك أدلة متراكمة، عن وجودهم في حضارات قديمة[1]، عكس الشائع من أن الإلحاد ظاهرة معاصرة...

كان هناك دوما إيمان، ولا إيمان..

النسب كانت مختلفة بالتأكيد...

لكن الإيمان كان هناك دوما..

أحيانا يمد.. وأخرى يجزر...

وعندما نكون في «المد» نعتقد أن هذا هو الوضع دوما..

وعندما نعلق بين مد وجزر، نجزع، ونعتقد أنه لن يعود...ونفكر في أن هذه هي طبيعة الأمور.. أن المد انتهى وقته...وأنه عصر الجزر لا محالة...لا عودة للمد...لقد انتهى الأمر..

لكنه يأتي من جديد دوما، ربما بشكل مختلف، ربما بصيغة متطورة، لكنه يأتي دوما..

البحر يمد، ويجزر..

لكنه لا يجف أبدا.

كذلك الإيمان، ينحسر.. وتتصاعد نسب الملحدين...ويجزع المؤمنون وهم يعتقدون أن الأمر انتهى..

لكن، كما قالت مجلة تايم..

God always makes a comeback.

***

سيقولون لنا بأن إيماننا بالله هو مجرد حاجة نفسية نتجت أثناء عملية التطور ومن أجل مد الإنسان بقوة تجعله أكثر صلابة أثناء أهوال الصراع من أجل البقاء...فضلت الطبيعة الأشخاص الذين لديهم «ميل نحو التدين»؛ لأن الإيمان بقوة غيبية يمد بقوة ويجعلهم أقدر على البقاء.

(1) Disbelieve it or not, ancient history suggests that atheism is as natural to humans as religion | University of Cambridge
https://www.cam.ac.uk/research/news/disbelieve-it-or-not-ancient-history-suggests-that-atheism-is-as-natural-to-humans-as-religion

حقا؟

هل اشتركت آلية الانتقاء الطبيعي إذن في عملية التدين عبر التاريخ لتجعل الإنسان أقوى وتزيد من فرصة بقائه؟

بالنسبة لهم: الإيمان هنا مثل الزائدة الدودية. لم يعد لها وظيفة.

لكن الأمر ليس كذلك.. لقد خرجنا من الغابة...لكن الصراع من أجل البقاء لا يزال موجودا ..وصار أشد في داخل كل منا.. أحيانا هناك غابة داخل كل منا...

يبدو هكذا أن الإيمان وجد ليبقى...

يبدو أن هذا يجعل المعركة ضد الإيمان خاسرة حتما.

حتى الزائدة الدودية، تبين أن لها وظيفة!

* * *

يقولون بأن الإيمان هو مجرد عكاز نفسي، نستخدمه لمواجهة صعوبات الحياة.

والإيمان يمكن أن يكون عكازا نفسيا بالفعل. ولا أعرف كيف يمكن أن يكون ذلك اتهاما أو عيبا..

نحن نحتاج العكاز دوما في حياتنا الشخصية.

لكنهم يختزلون الإيمان إلى مجرد ذلك..

ونحن نعرف أنه أكثر من مجرد ذلك.

عكاز وأكثر.

عكاز ودواء ووسادة ومضاد اكتئاب وحقنة مقوية ومشروب طاقة.

ولكن هناك شيء أهم من كل هذه الاستعمالات والفوائد للإيمان.

هناك شيء أهم ..إنه الحقيقة.. الحقيقة...الإيمان بالله في النهاية هو إيمان بالحقيقة.. عظيم أن يكون ذلك مفيدا كعكاز نفسي أو كمضاد للقلق أو مشروب للطاقة...لكن قبل ذلك هو الحقيقة.. سواء انتفعت منها أو لم تنتفع...هذه النظرة البرغماتية النفعية للأشياء يجب أن يكون لها حدود...عظيم أن يكون للشعائر فوائد، ولكن هذا لا يجعل من هذه الفوائد سببا لأدائها..

كذلك الإيمان..

يمكن أن يجعلك الإيمان بالله سعيدا مطمئنا...لكنك لا تؤمن لهذا السبب...هو محض نتيجة.. أن تؤمن بالله لأنه الحقيقة المطلقة في هذا الكون..

يمكن للبعض أن يجد السعادة والطمأنينة في أشياء أخرى...في العمل الخيري أو التطوعي أو في تحقيق الذات أو في إبداع من نوع ما...يمكن لك أنت أيضا أن تحصل على ذلك في أماكن إضافية... لكن هذا لن يجعل الإيمان بالله أقل أهمية...

بغض النظر عن كون الإيمان يسد حاجات في داخلك...

لكن قبل ذلك هو الحقيقة..

وهذا يجعل من قائمة الفوائد اللاحقة مثل «زيادة خير» لا أكثر.

* * *

سيقولون لنا: تعتقدون أن الإيمان بوجود خالق أو إله فطرة.

ولكن الواقع يقول أن ثمة مئات الملايين من البشر، من ديانات الشنتو والبوذية، يعيشون طيلة حياتهم دون أن يعرفوا فكرة إله أصلا..

بالنسبة لنا الأمر غريب..

لا يمكننا تخيل فكرة دين بلا إله.. لذا نعتقد تلقائيا أن كل دين يحتوي حتما على إله..

من ناحيتهم.. فهم يجدون الصعوبة في فهم فكرة الإله...أو الإله الخالق تحديدا..

مئات الملايين وصولا إلى قرابة سبعمائة مليون من البشر يؤمنون بأديان بلا خالق...بلا فكرة إله واضحة...

سنصدم ونستغرب قليلا...فهمنا الملحدين، ولكن دين بلا إله...

عندما ندقق في الأمر، سنجد أنهم بطريقة أو أخرى وجدوا (قوى فوق طبيعية أو غير مادية) للتواصل معها...ربما أرواح الأجداد كما في الشنتو.. وربما مع الروح أو أديان أخرى...

لكن هذا التواصل مع الغيب موجود أيضا..

لا يمكن لهم أن يلغوا «الغيب».

* * *

بين فترة وأخرى، يظهر اكتشاف علمي جديد (أو فرضية علمية) لتفسير الميل الديني ويأتي هناك من يعتقد أن هذه نهاية الدين.

مرة جين وراثي مسؤول عن الإيمان(١) ومرة منطقة في الدماغ(٢)..

لكن هذا يجعل الأمر أكثر تعقيدا أكثر صعوبة..

هل هناك من يعتقد حقا أن تفسير الدافع الديني سيجعل الناس يكفون عن الإيمان!

هل تفسير الدافع الجنسي، يجعل الناس يكفون عن الجنس..

بلا تشبيه..

* * *

قيل مرة لبرتراند رسل، الفيلسوف الملحد الشهير، ماذا ستفعل إذا مت ومن ثم جاء يوم القيامة وسألك الله: لمَ لم تؤمن بي يا برت؟

قال برتراند: لعدم كفاية الأدلة يا رب...لعدم كفاية الأدلة(٣)..

كانت الأدلة موجودة دوما، لكنك ربما بحثت عنها يا برت في مكان آخر، ولم تنتبه لها..

ربما رفعت من معايير قبولك بالأدلة على نحو جعلك تتجاهل العشرات منها.

ليس لعدم كفاية الأدلة..

بل لوجود تقصير في البحث...

* * *

يستعملون مفردة إله الفراغات كثيرا God of Gaps

يقولون أن فكرة الإله نشأت من وجود فراغات في المعرفة الإنسانية، أي شيء يجهله الإنسان في تفسير الظواهر من حوله، رعد، برق، مطر، فيضان...يجد له تفسيرا غيبيا، «إله ما» يفعل ذلك...

(1) The God Gene How Faith is Hardwired into our Genes Dean H. Hamer Penguin Random House 2005 HOW FAITH IS HARDWIRED INTO OUR GENES
By DEAN H. HAMER
HOW FAITH IS HARDWIRED INTO OUR GENES
By DEAN H. HAMER

(2) Belief and the brain's 'God spot' | The Independent
https://www.independent.co.uk/news/science/belief-and-the-brains-god-spot-1641022.html

(3) Talk:Bertrand Russell - Wikiquote
https://en.wikiquote.org/wiki/Talk:Bertrand_Russell

وكلما قلّت الفراغات في هذه المعرفة، تقلصت مساحة الإله أو أهميته، بزعمهم.

لا، ليس إله الفراغات، بل هو إله الصورة الكبيرة.. الإله الذي لا يمكن فهم كل التفاصيل الصغيرة مربوطة ببعضها في صورة كبيرة، إلا بوجوده عز وجل.

لكن هذه التسمية قد تنبهنا إلى شيء آخر، ربما كان عز وجل هو بالفعل إله الفراغات..

لكن ليس كما يقولون.

ثمة فراغ كبير في داخل النفس البشرية، لا يمكن لشيء، أي شيء أن يملأه، إلا الله.

نولد بهذا الفراغ، هو جزء منا، تتركب أجزاؤنا بحيث يبقى هذا الفراغ في الوسط منا، في المركز.. هل هو في الروح؟ في النفس؟ في القلب؟ ربما واحدة من هذه الأسماء. وربما في الوسط منها جميعا. ربما في كلها. المهم هو أن ثمة فراغ في داخلنا يبتلعنا، يأكلنا يدفعنا لكي نملأه..

نقضي حياتنا ونحن نحاول ذلك. كل محاولات «بحث الإنسان عن معنى» تصب في هذه المحاولات...كل الشغف، كل الطموح، كل الدوافع، كل ما يحركنا، هو محاولة لملء هذه الفراغ..

البعض يملأ الفراغ بالمال، بجمع المزيد منه، البعض يملؤه بتحقيق الذات، بالنجاح، بالشهادات، بالمناصب، بالشهرة، بالقوة، بالسلطة..

البعض يملؤه بالأسرة، بالأولاد، بالحياة العائلية، بالتفاصيل الصغيرة، بالرتابة التي تتكرر كل يوم كل يوم...

البعض يملؤه بالجنس، بالنساء، بالرجال، بالجمال، بالهوس بنفسه وجسده، بالفن، بالثقافة، بالكتب، بالموسيقى، بالأفلام، بحضور الندوات، بالعمل الخيري، بالسلع، بالمزيد والمزيد من السلع، بسيارة حديثة فارهة تثير حسد المعارف والجيران، بنظرات الإعجاب في الشارع، بالمتع الصغيرة، بالحمية، بالرياضة، بالأدرينالين المتصاعد في العروق تشجيعا لفريق ما، بمشاهدة مسلسلات لا تنتهي، بمتابعة أخبار وفضائح النجوم، بإعداد وجبات طعام غريبة وشهية، بتجربة المزيد منها، بالسفر، بجمع الأصدقاء، بالخوض مع الخائضين في أي شيء. حرفيا أي شيء.

لا تتساوى هذه الأشياء، لا في قيمتها ولا في قدرتها على ملء الفراغ في داخلنا، وهذا الفراغ، عندما يوضع فيه ما لم يخلق له، فإنه يستحيل ثقبا أسود عملاقا، يطلب المزيد والمزيد، ويسحبنا للمزيد..

لا شيء يملأ هذا الثقب حقا...لذا فالبعض يقضي حياته في محاولات - بائسة غالبا- لملئه ..بكل شيء وأي شيء..

ولا شيء يملؤه حقا..

* * *

لا شيء يملؤه إلا الله، عز وجل، سبحانه وتعالى.

كل الأشياء الأخرى يمكنها أن تملأ أماكن أخرى، ترضي أشياء أخرى داخل النفس البشرية، لكن هذا الثقب تحديدا، في المركز منا، لا شيء يملؤه، إلا هو، عز وجل عن كل تشبيه ..

وحده يملأ الثقب فيمنح السكينة والقوة والرضا والتصالح مع الذات..

كل ما تفعله الأشياء الأخرى، هو محاولات من أجل ذلك..

* * *

جاء في الموروث الصوفي، حديث قدسي (لا يصح) ولكن أذكره هنا لتقريب المثال..

«ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن...»[1]

ربما الأمر معاكس في واقع الحال..

ربما هناك ثقب فينا،... لا شيء يملؤه سوى الله، كل ما في السماوات والأرض لن يملؤه.. ليس سواه عز وجل...

* * *

وقف سيدنا إبراهيم ليعلن أن قلبه ليس مطمئنا تماما. تحديدا تجاه إحياء الموتى...

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى

قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ

قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)

طمأنينة القلب أعلى ذروة في جبل الإيمان.

عالية بحيث أن نبيّا بمكانة سيدنا إبراهيم احتاج أن يقف هذا الموقف كي يصلها.

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٥١٠٣ وقال الألباني : لا أصل له.

مقاييس إبراهيم كانت عالية حتما، وكما يليق به عليه السلام...لذا فإن ما كان يريده من طمأنينة قلب ليس ما نفهمه نحن أو نريده نحن منها..

ما يرضينا من طمأنينة قلب بالتأكيد ليس ما يرضي إبراهيم.. وقمة جبلنا حتما ليست مثل قمة جبله..أعلى ما في جبالنا قد يكون سفح تلة لا تذكر بالنسبة لمعاييره..

لكنها قد تكون أعز ما نطلب...

* * *

هذا القلب يحتاج أن يطمئن.

كل منا يحتاج إلى أن يطمئن قلبه...

يحتاج القلب أن يسكن ويركن، يحتاج أن يتنفس الصعداء ويغمض عينيه مثل طفل رضيع ليس لديه أدنى شك أن صدر أمه سيبقى موجودا دوما وليس لديه أدنى فكرة عن الفطام القادم...يحتاج أن يكون مطمئنا مثل ذكرى طفولة يزيدها الزمن أمانا ودفئا.. أن يكون مطمئنا طمأنينة الليل إلى أن النهار سيأتي بعده.. يحتاج القلب إلى ممحاة لذاكرته، كي يستطيع أن يواصل.. يحتاج إلى «مساحة طمأنينة» يلجأ لها بين الحين والآخر، لكي يلعق جراحه ويداوي كسوره وينسى خيباته...

«مساحة الطمأنينة» هذه لا يشترط أن تكون موجودة دائما، ربما من الصعب المحافظة عليها دوما، لكن من المهم أن نظفر بها عندما نحتاجها..من المهم أن يكون لدينا تكتيك انسحاب لها عندما تحيط بنا براثن الحياة من كل جهة...

ما هو الطريق إلى مساحة «طمأنينة القلب» هذه؟ كيف يمكن لنا أن نصل إلى هذه القمة؟ هل من دليل إرشادات إلى تسلق جبل الإيمان أولا، كي نصل إلى قمته؟

لا، للأسف. على الأقل ليس عندي.

لكني واثق تماما من شيء واحد على الأقل..

لا سبيل للوصول إلى هذه القمة، قبل أن نصل أولا إلى مساحة أخرى.. قمة أخرى ربما..

مساحة اسمها «طمأنينة العقل»...

ليطمئن عقلي، أولا..

وبعدها يمكن أن نواصل الرحلة إلى أعلى ...ليطمئن قلبي..

* * *

بعيدا عن كل المجادلات والحجج المنطقية والبراهين والبحث عن المغالطات المنطقية في موضوع (وجود الله) في النقاش مع الملحدين، هناك بعدٌ آخر لا يمكن استخدامه أبدا في هذا النقاش، لكن لا يمكن إغفاله أبدا عندما نتحدث مع أنفسنا في هذا الأمر...أو عندما نتحدث مع مؤمنين.. أو حتى مترددين..

ببساطة نحن (نشعر) -على الأقل أحيانا- بوجوده في حياتنا...

أنا أعلم أنه هو من جبر بخاطري مرات ومرات، وأنه هو من سندني يوم تعثرت، وتلقفني يوم سقطت، وأنه هو من مدني بنور يرشدني إلى الدرب يوم ضعت..

هو من منحني الثقة عندما لم أكن متأكدا من شيء، وهو من جعلني أنظر إلى الإعصار وأقول سأنجو، وهو من مدني بقوة منه جعلتني أتمكن من النجاة..

ببساطة، أنا أعلم ذلك، لا شيء يمكنه أن يزيل هذا من وعيي أو من ذاكرتي..

هو هناك، يجبر خواطر اليتامى والأرامل، والثكالى، نعم لا يزالون يبكون، نعم لا يزالون يفتقدون ويتألمون، لكنه جبر خواطرهم وجعلهم يواصلون...حتى في أشد حالات الأزمة والعذاب، في أسوأ المعتقلات، حيثما نعتقد أن فقدان الإيمان سيكون نتيجة حتمية...نجد البعض يجدونه.. ويخرجون أقوى...

هو هناك، نكون في أدنى حالات يأسنا وضعفنا، فيضع في دربنا علامة أو شخصا أو مجموعة أشخاص، فيقوينا ويجعلنا نخرج مما كنا فيه، لا يمكننا أن نوهم أنفسنا كل مرة بأننا ربحنا اليانصيب...لا ...لقد ربحنا جبر الخاطر منه..

تقطعت بي السبل أكثر من مرة في حياتي أكثر مما صرحت وأكثر مما تتخيلون وأكثر مما يبدو على صورتي المبتسمة، لكنه كان دوما هناك، مرة تلو مرة تلو مرة....مرة قدم لي بدائل جعلتني أحمده على فقدان ما بكيت عند فقده، ومرة جعلني أكتشف قوتي ومرات جعلني أتراجع عن خطئي...، ووضع لي دوما، دوما دوما دوما، الأشخاص المناسبين (الذين كانوا أحن علي من أهلي)...يأتون، يؤدون دورهم، ثم يرحلون....

أعلم أن البعض سيقرأ هذا الكلام ويتساءل: عم يتحدث ؟ لمَ لم يحدث هذا معي؟

ببساطة لا أعرف لمَ لم يحدث معك. ولا أعرف إن كان قد حدث ولم تنتبه لما حدث. ولا أعرف إن كان الأمر أصلا يعتمد على أن تؤمن بأن يحدث معك، أو أنه ربما حدث ولكنك كنت تبحث عن ذلك في السقف ولم تنتبه إلى الأرض...أو إلى داخلك..

ليس لدي تفسير لم يحدث أحيانا ولا يحدث مع البعض في أحيان أخرى...وأعرف قطعا أن البعض يجد تفسيرات لما أقول عن (الإسقاطات النفسية) وما يشبه ذلك، لا بأس، هذه تفسيراتهم لما حدث معي ومع الملايين، لكنها تفسيراتهم هم، أنا أشعر به.. الملايين يشعرون به..

لا أزال أعتقد أن المحاججة المنطقية مع من لا يؤمن بوجود الله يجب أن تكون «أسبق» في الاستخدام من الحديث عن وجود الله في الحياة الشخصية لكل منا، بلا شك لن أستخدم وقوفه معي كدليل على وجوده..

ليطمئن عقلي أولا، من أجل أن يطمئن قلبي...

لكني أخشى أن يطغى الحديث المنطقي على هذا البعد الذي لا يمكن تجاهله من الإيمان..

البعد.. الروحاني ...الصوفي.. النفسي ..الشخصي.. سمه ما شئت...

فمن غير المنطقي أن يجعلنا المنطق نتجاهل ما نشعر به..

***

هو إيمان في زمن صعب..

ولأنه كذلك، فهو أغلى، وأهم، مما لو كان قد جاء في زمن آخر.

مثل طفل جاء في الفرصة الأخيرة لزوجين عاشا دون ذرية لعقود...

كل الآمال معلقة عليه...وكل المخاوف تحدق به...

وكل ما نحتاجه منه، سيكون واضحا جدا..

الزمن الصعب هو الزمن الذي تتبين فيه أهمية الإيمان ووظيفته حقا...

أكثر بكثير من الزمن «السهل»..

وهذا أيضا جزء من الامتحان، عندما تساهم صعوبة الأسئلة، في جعل التقييم أفضل..

***

أحيانا يبدو الإيمان في زمن صعب مثل جمرة مشتعلة نمسك بها بأيدينا..

لكن هذا جانب واحد فقط من هذه الجمرة...

هناك أيضا الدفء في البرد والصقيع المتجمد..

وهناك أيضا ذلك الضوء المنبعث منها في الظلمة الحالكة...

وهناك ذلك الوقود المشتعل في الأعماق، تمده الجمرة بروح الإصرار والدأب...

وهناك بعد ذلك كله، وربما قبل ذلك كله، تجربة تصهرك كماسة نادرة..

في رحلة حياتك، عندما تستعرض كل ما هو أنت، وكل ما كنته، وكل ما كان يمكن أن تكون عليه...

ستجد نفسك تضع هذه الجمرة في الصدارة...ستحيطها بواجهة زجاجية كما تحاط كل الأشياء الثمينة...

ربما سينظر لها البعض باستغراب...ويلتفتون لك: حقا؟!

غالبا لن يجدي الشرح والتفسير...ما داموا لم يفهموا..

الأمر شخصي جدا.. لن يفهمه إلا من كانت في حياته جمرة مماثلة...

ربما سيتحدثون عن نظريات تحاول تفسير «أثر» هذه الجمرة عليك...

يمكنك أن تهز رأسك لهم، وتقول: خيرا إن شاء الله...

النظريات التي تفسر حبك الغريزي لأولادك لن تقلل من حبك لهم...

كذلك نظريات تفسير الإيمان...

أنت أيضا يمكنك ببساطة أن تفسر موقفهم...

لم يجربوه...فلم يعرفوه....

ولم يفهموه...

ربما كانت هناك جمرة ما في حياتهم، لكنهم اعتقدوا أنها مجرد فحمة أخرى، ولم يلتفتوا لها...

* * *

طوبى لمن وجد الجمرة...

طوبى لمن وضعها في مكانها الصحيح...

رغم كل شيء...

بدأ العمل في ١٥ / ٩ / ٢٠١٤

انتهى في ٢٧ / ١١/ ٢٠١٨

انتهت المراجعة ١٣/ ١/ ٢٠١٩

الملحق

ملف نظرية التطور

الدين والعلم ومساحات الاشتراك والاختلاف[1]

يحتل السجال حول نظرية التطور مساحة كبيرة في حوارات الإيمان والإلحاد، ليس في العالم الإسلامي فحسب، بل في العالم الغربي كذلك، أي أن الموقف المضاد لنظرية التطور ليس حكرًا على « الإسلاميين» بل هناك تيار مسيحي قوي جدًا معارض أيضًا للنظرية وله تأثيرات وامتدادات شعبية واسعة خصوصًا في الولايات المتحدة.

والحقيقة أن نظرية التطور منذ ظهورها تواجه معارضة دينيّة لتعارضها مع قصة الخلق حسب الكتب المقدسة، لكن المواجهة الحالية مع موجة الإلحاد الجديد تستخدم «نظرية التطور» كرأس حربة للدعوة إلى الإلحاد، بينما كانت المواجهة سابقًا بين «نظرية علمية» و«نصوص دينية» وقد تؤدي أو لا تؤدي إلى الإلحاد، بينما الاستخدام الحالي مع الإلحاد الجديد هو بين الإلحاد (كموقف مسبق) وبين الدين مع استخدام نظرية التطور كوسيلة فقط، ويمكن استبدالها بأي وسيلة أخرى تحقق الهدف بنجاح أكبر.

لكن هذا الرفض لم يكن دينيًا فقط، بل كانت هناك أيضًا أسباب أخرى لهذا الرفض....

ثمة رفض إضافي عميق نابع من سياق استعماري إمبريالي حضاري اجتماعي محيط بالنظرية خصوصًا في نسختها الداروينيّة الأولى.

لعقود سبقت نظرية داروين، كانت أوروبا تستعمر وتستعبد الكثير من المناطق والشعوب وتعتبر أن هذه الشعوب أقل من البشر subhuman وأقل ذكاءً وتطورًا ويجب أن تحكم من قبل الرجل الأبيض، الأوروبي، صاحب الحضارة الغربية التي كانت بدأت تهيمن على العالم.

مع ظهور نظرية داروين، ورغم المعارضة التي واجهتها من قبل الكنيسة والمجتمع العلمي في البداية، وجدت الإمبريالية الأوروبيّة في النظرية الجديدة تبريرًا علميًا لكل فظائعها في المستعمرات، بل تزامن ظهور النظرية مع أعتى مرحلة من مراحل الإمبريالية (١٨٥٠ - ١٩٥٠)[2].

ولم يكن ذلك يخص المستعمرات فحسب، بل وجدت الرأسمالية أيضًا في نظرية داروين جانبًا اجتماعيًا يمكن أن يبرر للطبقة العليا الأكثر ثراءً كل ما تفعله في الطبقات الأفقر، فالبقاء للأصلح، والفقراء لا يصلحون للبقاء لأنهم لو كانوا يصلحون لما كانوا فقراء...

علمًا أن عبارة البقاء للأصلح لم يقلها داروين قط، بل قالها الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) والذي أخذ نظرية داروين بعيدًا عن أصل الأنواع والبيولوجيا إلى علم الاجتماع وأسس

---

(١) لمتابعة بعض الرسوم والصور التوضيحية يمكن زيارة مقال : من نظرية التطور إلى نظرية كل شيء

https://bit.ly/2LEQXSs

(2) COLONIALISM AND NATURAL SELECTION

https://www.naturalselectionanddarwinism.com/colonialism.html

الداروينية الاجتماعية[1] التي تشكل برأيي جزءًا من أساسات وثوابت الحضارة الغربية المعاصرة والتي أرى أنها أخطر بكثير من أي جانب بيولوجي لنظرية داروين وقد سبق لي أن كتبت عن الأمر بتفصيل[٢].

هذا السياق الإمبريالي المقيت المحيط بنظرية داروين والمستثمر لها في عالم السياسة والاجتماع يفسر جزءًا من الرفض الشديد لها، لكنه في النهاية رفض (مؤدلج). قد نتفهمه ونعي دواعيه ونحترم هذه الدواعي ضمن سياقاتها ولكن علميًا النظرية في أساسها لا علاقة لها بالاستخدام الإمبريالي الرأسمالي للأمر.

لا يعني هذا أن الرفض للنظرية حصري للشعوب المستعمرة فحسب، لا بالتأكيد، نظرية التطور لا تزال تواجه أصواتًا معارضة في الغرب، بل ويمكن القول أنها تواجه معارضة شعبية في بعض أجزاء الغرب المهمة، صحيح أن هذه المعارضة تتناقص باستمرار، إلا أنها لا تزال موجودة، والقول أنها متناقصة لا يعني أن هذه المعارضة- أو النظرية- على خطأ أو صواب بل هو فقط للدلالة على أن المعركة تجاه نظرية التطور والمفاهيم المرتبطة بها ليست محتكرة ضد الرجل الأبيض (صانع النظرية)، بل هي موجودة داخل بيت هذا الرجل أيضًا، وهذا يسحب (الغطاء الآيديوجي- المضاد للإمبريالية) من المعركة، ويحصرها في الجوانب الأخرى (دينيّة، علميّة، اجتماعيّة)..

الرافضون والمؤيدون للنظرية في الغرب: من هم؟

رفض وتأييد النظرية شعبيًا في أمريكا يرتبط -حسب أحد إحصاءات مؤسسة غالوب[٣]- بثلاثة عوامل: التدين، المستوى التعليمي، والعمر.

بالنسبة لدرجة القبول والرفض في نفس الإحصائية: هناك ٣ مستويات..

الأول- البشر تطوروا بالفعل خلال ملايين السنين إلى أن وصلوا إلى الهيئة الحالية، ولكن ذلك حدث بتدخل إلهي.

الثاني- البشر تطوروا خلال ملايين السنين، ولكن الله لا دور له في القضية.

الثالث- الإنسان خلق على صورته الحالية وتاريخ البشرية لا يتجاوز الـ ١٠ آلاف سنة كما تقول التوراة.

بالنسبة لعامل التدين (ويقاس هنا بمعدل الذهاب إلى الكنيسة) وتأثيره على الخيارات:

٦٩٪ من الذين يذهبون إلى الكنيسة كل أسبوع اختاروا خيار التوراة حرفيًا.

مقارنة ب ٢٣٪ من الذين لا يذهبون أبدًا إلى الكنيسة.

بالنسبة لعامل التعليم: العلاقة عكسية بين العلم وبين رفض النظرية.. كلما قل التعليم زاد تبني الرؤية التوراتية

---

(1) Social Darwinism - Wikipedia

(٢) كتابي الفردوس المستعار والفردوس المستعاد.

(3) In U.S., 42% Believe Creationist View of Human Origins
https://news.gallup.com/poll/170822/believe-creationist-view-human-origins.aspx

٥٧٪ من الذين لم يحصلوا على شهادة الثانوية العامة قالوا أنهم يتبنون خيار التوراة، الخلق المباشر....

الحاصلون على شهادة الثانوية العامة فقط هبط قبولهم للرؤية التوراتية إلى ٤٦٪.

بينما ٢٧٪ فقط من الذين حصلوا على شهادة جامعية اختاروا هذا الخيار.

أغلبية الحاصلين على شهادات جامعية (٦٨٪) اختاروا واحدًا من خياريْ التطور (بتدخل إلهي/أو بلا تدخل إلهي)...

٢٧٪ من الحاصلين على شهادة جامعية اختاروا خيار التدخل الإلهي و٤١٪ منهم اختاروا التطور بلا أي تدخل.

في دراسة أخرى شملت طلاب دراسات عليا في تخصصات علمية (في كندا) زادت نسبة القبول التام للنظرية إلى ٧٠٪، بينما ١٦٪ لاحظوا قبولها في المجتمع العلمي ولكن اقتناعهم بها كان جزئيًا، ١١٪ قالوا أن النظرية لها ما يؤيدها من أدلة ولكنها غير كافية، ٤٪ فقط رفضوا النظرية تمامًا[1].

لكن النسبة في المجتمع العلمي في أمريكا تختلف تمامًا عن الوضع الشعبي.. حيث أجريت إحصائية على أعضاء الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم (وهي أكبر جمعية علمية في العالم ويصل عدد أعضائها إلى ٢٠٠ ألف باحث وهي المسؤولة عن إصدار مجلة science واحدة من أهم المجلات العلمية في العالم) ووصلت نسبة التأييد لنظرية التطور عند هؤلاء إلى ٩٧٪ [2]، بغالبية ٨٧٪ بدون تدخل إلهي و١٠٪ مع التدخل.

أي أن قبول نظرية التطور تناسب طرديًا مع زيادة الدرجة العلميّة.

بالنسبة لعامل العمر: الشباب بين(١٨- ٢٩) عامًا كانوا أكثر تقبلًا لشقي التطور (٣٥٪ لتطور بتدخل إلهي/٣٠٪ لتطور بلا تدخل) وأقل تقبلًا للرؤية التوراتية.. (٢٧٪) فقط قبلوا الرؤية التوراتية كما هي، بينما الذين زادت أعمارهم عن الـ ٦٥ عامًا كانوا أكثر تقبلًا للرؤية التوراتية (٥٠٪) وأقل تقبلًا للرؤية التطورية (١٦٪ للتطور بلا تدخل و٢٣٪ للتطور بتدخل).

بشكل عام، وبالنسبة لعموم السكان في أمريكا، لا يزال المؤمنون بالرؤية التوراتيّة حرفيًا وبالخلق المباشر يشكلون الكتلة الأكبر إحصائيًا: ٤٢٪، مقابل ٣١ ٪ يؤمنون بتطور مع تدخل إلهي، و١٩٪ يؤمنون بتطور بلا تدخل.

في إحصائية أحدث[3]- مايو ٢٠١٧- : هبط التأييد للرؤية التوراتية إلى ٣٨٪ مقابل ٣٨٪ للمقتنعين بالتطور مع تدخل إلهي، وبقي مؤيدو النظرية بلا تدخل عند الـ ١٩٪، أي أن ما خسرته النظرة التقليديّة لم يذهب إلى التطور بلا تدخل إلهي بل إلى أولئك الذين يجمعون بين النظرية والإيمان بالله).

---

(1) Conceptions of Evolution among Science Graduate Students | BioScience | Oxford Academic
https://academic.oup.com/bioscience/article/59/9/792/248601

(2) Views on evolution among the public and scientists | NCSE
https://ncse.com/news/2009/07/views-evolution-among-public-scientists-004904

(3) In U.S., Belief in Creationist View of Humans at New Low
https://news.gallup.com/poll/210956/belief-creationist-view-humans-new-low.aspx

أمريكا قد لا تمثل كل الغرب في هذا لأسباب معقدة، حيث أن العديد من الدول الأوربية ترتفع نسبة التأييد لنظرية التطور إلى حدود الـ ٨٠٪ (آيسلند، الدنمارك، السويد، وفرنسا) أو الـ ٧٥٪ كما في بريطانيا والنرويج وبلجيكا[1].

ومرة أخرى هذه الأرقام لا تعني شيئًا بخصوص صواب أو خطأ النظرية، بل أقدمها فقط للدلالة على أن نظرية التطور لا تزال تواجه المعارضة الشعبية في الغرب (تحديدًا في الأوساط غير العلمية) وأن الأمر لا يخص المسلمين فقط، وإن كنت أعتقد أن النسب عندنا مختلفة جدًا.

لكن هناك أيضًا ما يعقد كل هذا ويجعله عرضة للمزايدات والاستقطابات السياسية.

السياسة لا تستغل الدين فقط، بل العلم أيضًا..

بينما يبدو الأمر كما لو أنه بين «العلم» و«الدين» من ناحية الشعارات المستخدمة بين الطرفين إلا أن المواجهة في حقيقتها لها جذور سياسية واجتماعية أكثر تعقيدًا، على الأقل في الولايات المتحدة حيث يدور أكبر صراع بين الفريقين، ويؤثر هذا الصراع وتوجهاته على مناطق أخرى قد لا تكون فيها نفس الاستقطابات السياسية موجودة أصلًا.

على سبيل المثال: نسبة تأييد «قصة الخلق حسب الكتاب المقدس حرفيًا» بين مؤيدي الحزب الجمهوري تصل إلى ٦٠٪ مقابل ٣٨ ٪ من مؤيدي الحزب الديمقراطي[2]، وهذا يجعل بعض المتعلقات بالأمر ساحة لاستعراض القوة بين الطرفين[3]: مثل إضافة فصل يتعلق بقصة الخلق حسب التوراة في المنهج الدراسي أو إلغاء فصل يتعلق بنظرية التطور[4].

لكن ما علاقة الحزب الجمهوري بنظرية التطور؟ ولماذا يهتم السياسيون بهذا الأمر من الأساس؟

الفكرة لها علاقة بجمهور الحزب وتوجهاته أكثر من مبادئ الحزب نفسها. الحزب الجمهوري أقرب إلى «القيم المحافظة» ولذلك فجمهوره في العموم أقرب إلى الكنيسة وما تدافع عنه وتروج له، وهذا يجعل من الجمهوريين حريصين على تبني ما تدافع عنه الكنيسة رغبة في استمالة جمهورها وليس حرصًا على محتوى ما تدافع عنه الكنيسة بالضرورة.

وبالمقابل، فإن الحزب الديمقراطي أقرب إلى الدوائر الأكاديمية الجامعية، حيث أن نسبة المسجلين في ناخبي الحزب الديمقراطي بين الأساتذة الجامعيين أعلى بكثير من نسبة المسجلين منهم في ناخبي

---

(1) Why doesn't America believe in evolution? | New Scientist
https://www.newscientist.com/article/dn9786-why-doesnt-america-believe-in-evolution/

(2) Republicans, Democrats Differ on Creationism
https://news.gallup.com/poll/108226/republicans-democrats-differ-creationism.aspx

(3) Creationism isn't just an ideology - it's a weapon of political control | Gayatri Devi | Opinion | The Guardian
https://www.theguardian.com/commentisfree/2015/nov/22/creationism-isnt-just-an-ideology-its-a-weapon-of-political-control

(4) In Arizona, teaching creationism is supported by 4 of 5 Republicans who want to oversee education | 12news.com
https://www.12news.com/article/news/education/in-arizona-teaching-creationism-is-supported-by-4-of-5-republicans-who-want-to-oversee-education/75-558469431

الحزب الجمهوري، وحسب إحدى الدراسات، فإن مقابل كل ١٢ أستاذ جامعي «ديمقراطي» هناك أستاذ واحد «جمهوري»[1]، وهذا يجعل ساسة الحزب الديمقراطي يحرصون أكثر على الجمهور الأكاديمي والأكثر تعليمًا.

هذه التجاذبات والاستقطابات السياسية تؤثر حتمًا على «المعطيات » الخارجة من نقاشات الطرفين وتبعدها عن الموضوعية والعلمية، وهكذا نلاحظ من التيار المعادي لنظرية التطور تصيدًا يستهدف النظرية على نحو نحو غير علمي على الإطلاق، وكذلك لا يمكن إنكار أن التيار الأكاديمي المؤيد لنظرية التطور صار يمارس نوعًا من الإقصاء تجاه أي شيء يمكن أن يفهم منه التأييد لمفهوم «التصميم الذكي» ولو تلميحًا، وهو أمر أجده - كما يجده سواي- تطرفًا لا يخدم أحد.

الإيمان يمكن أن يكون سببًا كافيًا لرفض نظرية علمية..

ماذا سيحدث لك لو أنك رفضت أن تصدق بنظرية التطور، لأسباب تتعلق بإيمانك؟

بمعنى: ماذا لو أنك رفضتها لأنها تعارض النصوص الدينية التي تؤمن بها أو على الأقل تعارض فهمك لها؟

لن يحدث شيء. لن تتأثر حياتك على نحو مباشر. حتى المجالات العلمية التي تؤثر فيها النظرية بشكل مباشر هي مجالات محدودة وذات طابع بحثي إلى حد كبير.

إيمانك يتعارض مع نظرية التطور؟ إذن لا تقتنع بها ولا تؤمن بها. الإيمان سبب كاف لكي ترفض -أو تقبل- أي شيء. لا يحتاج رفضك إلى تبرير أو دعم من منطقة أخرى غير الإيمان نفسه.

للأسف هذا لا يحدث كثيرًا هذه الأيام.

حاليًا، عندما يحدث رفض لشيء كهذا.. نجد ميلًا واسعًا إلى دعم الرفض بالعلم، كما لو أن الرافضين يشعرون إلى أن الإيمان وحده لا يكفي - مما يجعل الرافضين بحاجة إلى تعضيد upgrade من العلم (الذي يعمل أصلا في منطقة مختلفة عن منطقة الإيمان).

الأمر متشابك ومعقد بالتأكيد، وليس من السهل تجاهل العلم في عصر يعرف بأنه عصر العلم ومن قبل مؤمنين بدين يقولون أنه لا يتعارض مع العلم.

لكن ما يحدث هنا، هو أن قرار الرفض حدث بسبب الإيمان، لكنه لا يعلن عن نفسه إلا عبر « العلم».. أو على الأقل جرت العادة أن يعلن عن نفسه عن طريق العلم أو عبر مقولات علمية.

قد يبدو الأمر بسيطًا ولا مشكلة فيه، لكن هذه النظرة ناتجة جزئيًا عن اختلاط مفاهيم العلم والإيمان عندنا على نحو مشوش فعلًا للعلم والإيمان على حد سواء.

وصل الخلط عندنا إلى أن الإيمان لم يعد سببًا كافيًا للرفض. صار على العلم أن يحضر لكي تحدث عملية الرفض..

(1) Faculty Voter Registration in Economics, History, Journalism, Law, and Psychology Mitchell Langbert ECON JOURNAL WATCH 13(3) September 2016: 422-451

https://econjwatch.org/File+download/944/LangbertQuainKleinSept2016.pdf?mimetype=pdf

وهو أمر يوحي ضمنًا أن العلم يقع في منطقة أعلى من الإيمان.. على العكس تمامًا من الشعارات المستخدمة..

الانتقائية في التعامل مع المعطيات العلمية

المشكلة في هذا الأمر هو أنك عندما تأخذ قرار الرفض (أو القبول) بناءً على إيمانك، وتذهب إلى العلم لكي تدعمه، فإنك عمليًا تتعامل مع العلم بوصفه المتجر الذي تدخله لكي تنتقي منه ما تريد، ما يناسبك، ومن ثم تخرج.

لا يعني أنك خرجت هنا من المتجر ببضاعة مزيفة، لكنها كانت بضاعة مسروقة. سرقتها أنت من إطارها العام ومن سياقها ومن موضعها ضمن بضائع أخرى قد لا تناسبك ولا تناسب قرارك.

لقد دخلت المتجر بنية مسبقة لشراء ما يدعم قرارك الإيماني. وهذا في مشكلة مزدوجة.. الأولى أنه مناقض لطبيعة العلم الذي لا يصل إلى نتائج إلا بعد البحث والتحليل. بينما وصلت أنت لقرار وتريد دعمه عبر العلم. (وسنرى أمثلة على ذلك بخصوص نظرية التطور في سياق الملف).

والثانية هي أنك أصلًا لم تكن تحتاج لذلك وكان بإمكانك الاكتفاء بإيمانك للرفض أو القبول دون دعم من منطقة أخرى، لن أقول أن هذا يعكس بطريقة ما (نوعًا من قلة الثقة بكون إيمانك كاف).. لكني أقول بوضوح أن قرارك لن يكون محصنًا (كما كان عندما كان إيمانيًا محضًا) ما دمت قد أخَذت الدعم من العلم، أي تفحص لاحق لبضاعتك العلمية قد يدل على أنها أخرجت من سياقها أو زيفت أو لم تكن أصلية المصدر - أو علميّة حقًا- فهذا سيعرض كل قرارك للدحض. وهو أمر ما كنت ستمر فيه لو أنك اكتفيت بالإيمان للرفض أو القبول.

وهذا أمر عام يشمل رفض أي نظرية علميّة ولا يخص نظرية التطور فقط.

هل العلاقة بين نظرية التطور والإلحاد حتميّة؟ وهل يمكن الجمع بينها وبين الإيمان؟

مبدئيًا، نظرية التطور لا تبحث في هوية الخالق، بل في تفصيلات الخلق. لذا فإن مجالها الأساسي يفترض أن لا يجعلها مؤهلة لجواب: هل يوجد إله؟

لا شك أن هناك الكثير من التطوريين الملاحدة الذين يرون أن التطور والإلحاد متلازمان.. لكن أيضًا هناك أقوال كثيرة لعلماء تطوريين آخرين لا يرون هذا التلازم.

وقد نشأ بالتدريج مفهوم يطلق (التطور الإلهي Theistic Evolution)[1] وهو مفهوم يجمع نظرية التطور والإيمان بالله تتبناه أسماء علمية مهمة لها احترامها ومكانتها:

مثل كينيث ميللر وله كتاب (العثور على إله داروين: رحلة عالم للبحث عن أرضية مشتركة بين الله والتطور)، وكذلك فرانسس كولنز (رئيس مشروع الجينوم البشري) ومن مؤسسي biologos foundation

(1) Theistic evolution - Wikipedia

وهي مؤسسة تهدف إلى المواءمة بين العلم والدين وهو مؤلف كتاب (لغة الله: تقديم عالم للدليل على وجود الله)، كذلك Darrel R. Falk وهو عالم أحياء في علم الأحياء في الجينات الجزيئية ولديه كتاب (السلام مع العلم: جسر المسافة بين الإيمان وعلم الأحياء)، Karl Willard Giberson الذي لديه كتاب بعنوان (إنقاذ داروين: كيف تكون مسيحيًّا وتؤمن بالتطور)، ألستير مكغرات الذي كتب عن (وهم داوكنز) و(لماذا لن يذهب الله) و(اللاهوت العلمي)، مايكل دود الذي كتب (شكرًا لله على نظرية التطور: كيف يمكن للزواج بين العلم والدين أن يغير حياتك والعالم).

وهكذا يتزايد عدد العلماء الذين يجمعون بين الإيمان بالله ونظرية التطور: نسبة العلماء الذين يعتقدون بوجود «تدخل إلهي» في «التطور» تبلغ ٤٠ ٪ في الولايات المتحدة (في فروع الأحياء والرياضيات والفيزياء والفلك)[1]، وهو يزداد شعبيًّا أيضًا، حيث ارتفعت نسبة المؤمنين بوجود تدخل إلهي في التطور إلى ٣٨ ٪ عام ٢٠١٧ (من ٣٢٪ عام ٢٠١٤)، بينما تنخفض نسبة عدم المؤمنين بالتطور إلى ٣٨ ٪ (من ٤٦ ٪ عام ٢٠١٤)، وترتفع أيضًا نسبة التطوريين غير المؤمنين بأي تدخل إلى ١٩٪ (من ١٥ ٪ عام ٢٠١٤)[2].. أي أن «كتلة المؤمنين بالتطور الإلهي» تكاد تكون الأكبر حجمًا في السنوات القادمة.

* * *

الأمر عند المسلمين لا يختلف كثيرًا إلا من ناحية النسب.

فمن المؤكد أن الغالبية الساحقة شعبيًّا لا تؤمن بنظرية التطور، لكن هذا لا ينفي وجود أصوات مختلفة تجمع بين إيمانها بالله وبين نظرية التطور، ولعل من أهم الأسماء التي ساهمت في تقريب المسافة بين المجالين: نديم الجسر في أوائل القرن العشرين، د. عمرو شريف الذي أصدر أكثر من كتاب مهم في الأمر، د. نضال قسوم، د. رنا الدجاني، كذلك كان للدكتور مصطفى محمود وعبد الصبور شاهين موقف قريب من نظرية التطور.

الجمع بين الإيمان ونظرية التطور ليس حتميًّا، بالضبط مثل الجمع بينها وبين الإلحاد.

لكنه ممكن..

المشكلة أن أولئك الذين يقولون بتلازم الإلحاد مع نظرية التطور وهم يدافعون عن الدين، يعتقدون أنهم (يهددون) المقبلين على نظرية التطور بأنهم على وشك الإلحاد ويعتقدون أن ذلك سيقودهم إلى ترك نظرية التطور خوفًا من أن يلحدوا..

للأسف الأمر يعمل على نحو معاكس تمامًا..

الاقتناع بأي نظرية علمية (بسبب دعم المجتمع العلمي، أو كم الأدلة عليها أو تماسكها.. أو أي سبب آخر) أسهل من الإيمان.. الإيمان بالتعريف يتطلب الغيب، الاقتناع بنظرية علمية مختلف، المقارنة والمواجهة بين الأمرين خطأ لاختلاف طبيعة كل منهما، لكن عندما تحدث، فعلينا أن لا نكون واثقين جدًّا من النتيجة إلى هذه الدرجة التي تجعلنا نهدد أولئك المقبلين على نظرية علميّة: (خطوة أخرى وستلحدون)

---

(1) Many Scientists See God›s Hand in Evolution | NCSE
https://ncse.com/library-resource/many-scientists-see-gods-hand-evolution

(2) Many Scientists See God›s Hand in Evolution | NCSE
https://ncse.com/library-resource/many-scientists-see-gods-hand-evolution

لأنهم سيلحدون غالبًا.

مجرد القول أن نظرية التطور هي الأكثر قبولًا في الأوساط العلمية، وأنها تؤدي إلى الإلحاد، سيجعلها تدفع الذين في منطقة الوسط والتردد بين الإيمان والإلحاد.. باتجاه الإلحاد..

هل حقًا نظرية التطور هي الأكثر قبولًا من قبل الأوساط العلمية؟

الجواب سيعتمد على ما نقصده بالأوساط العلمية.

إن كان المقصود بالأوساط العلمية هي الجامعات ومراكز البحث والمجلات الأكاديمية المدققة علميًا (peer reviewed) فنعم، النظرية مقبولة إلى حد كبير جدًا في هذه الأوساط، وقد مرّ أن نسبة قبول العلماء (الأعضاء في جمعية تطوير العلوم الأمريكية، وهي الأكبر في العالم) للنظرية يبلغ ال ٩٧٪، وكذلك ٩٧,٣٪ من رؤساء أقسام البيولوجيا في الجامعات الأمريكية يعتبرون أن لا خلاف حول القبول بنظرية التطور[1] - ليس كنصٍ مقدسٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه- بل باعتبارها التفسير الأكثر قبولا فحسب.

هل من الممكن القول أن هذه الغالبية المؤيدة لنظرية التطور ناتجة عن مؤامرة قام بها التطوريون الذين احتكروا المنابر العلمية والمجلات الأكاديمية والجامعات وقاموا بعملية تطهير وإقصاء لكل من سولت له نفسه عدم الإيمان بالتطور؟

إذا وصلنا إلى هذا القول، فمن غير المجدي مواصلة النقاش في أي شيء مرتبط بالمؤسسات العلمية وما تنتجه. المؤسسات العلمية ليست منزهة من التحيز على الإطلاق، لكن أن تتفق جميعها على هذا النحو، أمر مستبعد جدًا.

نظرية المؤامرة صعبة الدحض، لأنها ببساطة بلا دليل. بل قائمة على مجرد تخمين.

لكن هل يعني هذا أن المعسكر المضاد لنظرية المؤامرة خالٍ تمامًا من العلماء؟

بالتأكيد لا. مجرد كون أن العلماء المؤيدين للنظرية نسبتهم ٩٧٪ فهذا يدل على وجود نسبة ٣٪ - أقليّة حتمًا - لها موقف مختلف من نظرية التطور.

الأغلبيّة والأقليّة هنا لا علاقة لها بصواب أو خطأ النظرية لا أذكر هذه الأرقام هنا لكي أصل إلى صوابها، قد يتبين لاحقًا أن كل هؤلاء العلماء المؤيدين للنظرية على خطأ، هذا أمر مختلف، وقد حدث مرارًا عبر العصور، لكني أريد فقط أن أؤكد على أنها نظرية مقبولة قبولًا واسعًا في الأوساط العلمية العالمية حاليًا وأن ما ينتشر عندنا من شعارات غريبة من كونها سقطت وأنها مرفوضة وأنها هزمت في كل ساحة علمية.. إلخ لا أساس له من الصحة، للأسف الشديد.

لكن من هم العلماء الذين يقفون ضد النظرية؟

---

(1) Turn out the lights, the «Teach the controversy» party's over - CSI

https://www.csicop.org/specialarticles/show/turn_out_the_lights_the_teach_the_controversy_partys_over

تنشر المواقع المضادة للتطور قوائم بأسماء العلماء الذين لهم موقف متحفظ من نظرية التطوير، بعضهم وقع على ما يشبه بيان بعنوان[1] (معارضة علمية لنظرية داروين a scientific dissent from Darwinism)

فكرة البيان من هذا النوع تبدو غريبة على البحث العلمي الذي يتطلب أبحاثًا مدققة وليس بيان مثل حركة سياسية.

الموقعون على البيان كان لهم ٣ مواقف مختلفة جوهريًا:

الأول - موقف مؤيد للتصميم الذكي (البشر تطوروا فعلًا ولكن ضمن خطة إلهية مسبقة) وهو موقف يرفضه التطوريون (ويعامل عندنا على أنه مطابق لنظرية التطور).

الثاني - موقف مطابق لرؤية الكتاب المقدس، ويعرفون ب young earth creationist، حيث يؤمن هؤلاء بأن عمر الأرض لا يتجاوز بضعة آلاف سنة.

الثالث- موقف يمتلك بعض الاعتراضات على نظرية التطور.

جمع البيان حوالي ٧٠٠ توقيع (بقي الرقم أقل من ٤٠٠ لأربع سنوات) ١٥٠ فقط منهم كان في تخصص مرتبط بالبيولوجيا، وهذا يجعل نسبتهم إلى بقية العلماء المتخصصين في البيولوجيا حوالي ٠,٠١٣٪، وكان هناك قرابة النصف منهم في تخصصات أخرى مرتبطة بنظرية التطور. بينما النصف الآخر في تخصصات لا علاقة لها ببحث التطور[٢].

إضافة إلى هذا فإن كثيرًا منهم لم يكن لديه أي أبحاث علميّة، أو كان نشطًا في أبحاث علمية في مجالات متخصصة، ومن كان لديه أبحاث حقيقيّة مرتبطة بشكل أو بآخر بنظرية التطور لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة[3].

بالمقابل قام مؤيدو نظرية التطور بإصدار بيان مضاد للبيان الأول (مناف أيضًا لطبيعة البحث العلمي) وقع عليه أكثر من ٧٠٠٠ شخص خلال ٤ أيام فقط، أكثر من ٤٠٠٠ منهم يحمل شهادة الدكتوراه، أكثر من ٣٠٠٠ منهم متخصص في البيولوجيا، ٨٥٠ منهم في علم الأنثرولوجي والأركيولوجي، ٦٨٠ متخصصون في البيئة والمناخ، ٣٩٤ في الجينات، ٢٧٠ في علم الجيولوجيا. أي أن كل هؤلاء كانوا في مجالات مرتبطة بنظرية التطور ومجال دراستها[4].

هدف البيان المضاد لنظرية داروين كان التأكيد على أن النظرية ليست مقبولة تمامًا وأنها مثار جدل علمي controversial لكن الانتقادات التي وجهت للبيان[5] (بعض الأسماء قالت بصراحة أن موقفها

(1) Dissent from Darwin - There is a scientific dissent from Darwinism and It deserves to be heard. https://dissentfromdarwin.org/

(٢) • قائمة دعم البيان لا تزال مفتوحة بعد ١٦ عامًا من إطلاقها لكنها أصبحت تقبل داعمين من كل العالم بعد أن كانت حصْرا على الولايات المتحدة، علمًا أن طريقة توقيع البيان لا تشمل أي تحقق من المؤهلات المطلوبة، وهي أن يحمل الموقع شهادة دكتوراه في البيولوجيا أو الكيمياء أو الهندسة أو الرياضيات أو علوم الحاسوب أو أي علم طبيعي آخر - أو أن يكون طبيبًا أو أستاذًا في الطب.

(3) Lists of creationist scientists - RationalWiki

(4) A Scientific Support for Darwinism - Wikipedia

(5) A Scientific Dissent from Darwinism - Wikipedia

ضد النظرية يعود لأسباب دينيّة، وهو أمر مناقض لعنوان البيان أصلًا، الكثير من الأسماء ذكر أمامها الجامعة التي تخرج منها على نحو يوحي بأنه من هيئتها التدريسية، بعض الأساتذة الذين ألقوا محاضرات في جامعات مرموقة كضيوف، يتم وضع اسم الجامعة المرموقة أمام أسمائهم بدلًا من الجامعات الأقل مكانة التي يحاضرون فيها.. البعض منهم موقفه أقل انتقادًا للنظرية من نص البيان.. إلخ) إضافة إلى عدد العلماء الموقعين على البيان المضاد، كل ذلك جعل من تحقيق هدف البيان أمرًا بعيد المنال.

مرة أخرى: الصواب لا علاقة له بعدد العلماء المؤيدين. لكن الفكرة التي أوضحها هنا هي وجود القبول الواسع – أغلبية واضحة بلا منافسة تذكر– لنظرية التطور، عكس ما يشاع وينتشر عندنا من أن النظرية أصبحت مرفوضة وأنها ألغيت وسقطت ووو...، للأسف الشديد.

لكن مالذي يجعل من نظرية التطور مقبولة علميًّا أصلًا في هذه الأوساط؟

أدلة نظرية التطور

على ماذا استند هؤلاء العلماء في قبولهم لنظرية التطور وما هي الظواهر التي على أي نظرية بديلة أن تربطها وتفسرها معًا على نحو أفضل مما تفعل نظرية التطور؟

هناك عدد كبير من الحقائق والملاحظات التي يستخدمها التطوريون كأدلة على صحة نظرية التطور.

ويمكن تقسيم هذه إلى عدة أقسام.

أولًا - التشريح المقارن comparative anatomy: المقارنات بين تشريح الأنواع المختلفة من المخلوقات تشير إلى وجود تشابهات بين هذه الأنواع على نحو يفسر بأنها تنتمي لأصل واحد (مثال وجود الأطراف الأمامية بنفس التقسيم في أنواع مختلفة: عظمة واحدة – العضد–، عظمتان –الكعبرة والزند في الساعد عظام صغيرة –الرسغ–، ثم عظام الأصابع وهذا النمط موجود في أنواع مختلفة جدًّا مثل الإنسان وفرس النهر والخفافيش بل وحتى الحيتان)[1].

ثانيًا - علم الأجنة المقارن Comparative Embryology : الدراسات تشير إلى وجود تشابهات كبيرة إلى حد التطابق أحيانًا في المراحل الجنينية المبكرة في الكثير من الأنواع المختلفة التي لا تملك أي تشابه في هيئتها الناضجة لاحقًا[2].

مثال ذلك: تشابه كبير في المرحلة الجنينية الأولى لكل من الإنسان والقطة والخفاش والدجاجة.

---

(1) Differences & similarities: Human & Animal Anatomy - Kyle Hall - HND Portfolio

https://kylehallnationaltrust.weebly.com/part-3---animation-production/-differences-similarities-human-animal-anatomy

Comparative anatomy - Wikipedia

(2) Evidence for Evolution--Embryology

http://www.nyu.edu/projects/fitch/courses/evolution/html/embryology.html

ثالثا - السجل الأحفوري- المستحاثات - المتحجرات (بقايا المخلوقات): الأحافير أو المستحاثات هي أي بقايا لحيوانات أو نباتات تعود إلى عصور جيولوجية سابقة تكون محفوظة داخل الصخور، ممكن أن تكون هذه بقايا هيكل عظمي أو حتى أثر لقدم بقي محفوظًا[1].

موقع (البقايا) المعثور عليها ضمن طبقات الأرض يشير إلى تاريخ وجودها على سطح الأرض، فكلما كانت البقايا أقدم كلما كانت أكثر عمقًا.

وهكذا يمكن تتبع أشكال الحياة على سطح الأرض عبر متابعة بقاياها الصخور ومتابعة مواقعها نسبة إلى السطح.

كشف السجل الإحفوري عن وجود مخلوقات انقرضت ولم يعد لها وجود، وكلما قل عمق هذه الأحافير، تبرز بقايا مخلوقات جديدة لم تكن موجودة في المستوى الأعمق، ولكن مع وجود تغيير (أحيانًا طفيف ولكن مهم وظيفيًا) في هذه المخلوقات الجديدة وفي مستوى أقل عمقًا تختفي بقايا هذه المخلوقات وتظهر بقايا لمخلوقات جديدة مع تغيير جديد.

على سبيل المثال: تكشف الأحافير عن نوع من الحيتان القديمة يسمى باسيلوروس basilosauros، هذا النوع المنقرض حاليًا يتصف بفتحة منخار مختلفة عن موقعها في الحيتان المعاصرة (أعلى الرأس)، وعن موقع المنخار في الثدييات (الأنف – الخطم)، فتحة المنخار في الباسيلوروس تقع في المنتصف بين الاثنين، والفترة التي عاش فيها تسبق ظهور الحيتان، وهذا يوحي بكون هذا المخلوق كان مرحلة انتقالية[2].

مثال آخر: يظهر السجل الأحفوري تداخل العلاقة[3] بين أسماك بزعانف لحمية (lobe finned fish) والتي تحتوي على عظام لما يشبه الأصابع، مع أول مخلوق يسير على أربع (tetrapod)[4] حيث لا يمكن التفريق بين آخر سمكة زعنفية مع أول مخلوق يسير على أربع وهذا حسب نظرية التطور يفسر انتقال أول المخلوقات من الماء إلى اليابسة. علمًا أن هذه الأسماك كانت لها القدرة على تنفس الأوكسجين وتقدم الأحافير المتتالية صورة عن تطور زعانفها العظمية إلى أطراف ساعدتها على السير في اليابسة.

كما تظهر الأحافير بقايا لحيتان تعرف بالحيتان السائرة (Ambulocetus أمبيلوستوس) وتعرف بهذا الاسم بسبب وجود أطراف قصيرة لها بالإضافة إلى أقدام ضخمة كانت تساعدها في السباحة، أحافير سابقة كانت تملك أطرافًا أكبر وأوضح، ولاحقة كانت أكثر ضمورًا. وحسب نظرية التطور فإن هذا ينتظم ضمن مجموعة الأسباب التي تفسر كون الحيتان أقرب إلى الثدييات (التي تعيش في البر) منها إلى بقية مخلوقات البحر (كونها تلد ولا تبيض، وترضع، ومن ذوات الدم الحار عكس كل الأسماك)، هذه الأحافير التي توضح وجود أطراف تضمر بالتدريج مع الاقتراب من السطح، تقترح أن الحيتان تطورت من مخلوق رباعي الأطراف كان يعيش على اليابسة.

---

(1) What does the fossil record show?
https://biologos.org/common-questions/scientific-evidence/fossil-record

(2) The evolution of whales
https://evolution.berkeley.edu/evolibrary/article/evograms_03

(3) The Evolution of the First Tetrapods
https://www.thoughtco.com/tetrapods-the-fish-out-of-water-1093319

(4) Fish to Amphibian Transition
http://chem.tufts.edu/science/evolution/fish-amphibian-transition.htm

رابعًا - مقارنة الحمض النووي DNA Comparison

مقارنة الحمض النووي DNA لمختلف المخلوقات توضح وجود تشابهات بين مختلف الأنواع مما يشير إلى أنها تشترك بجد أعلى مشترك.

كمثال على ذلك، لو حصل تجمع عائلي كبير يضم أسرتك وأعمامك وأبنائهم وأبناء عم أبيك وأبنائهم، وجاء من يفحص الدي أن أي دون أن يعرف علاقتكم ببعضكم، فإنه سيمكنه بسهولة تحديد إخوتك (لديكم أكثر تشابه ممكن من الدي أن اي بسبب التشارك في الأبوين)، وبعدها يمكنه أن يحدد أبناء عمومتك (لديكم جد مشترك)، ومن ثم يحدد أبناء أبناء عم أبيك (لديكم جد أعلى مشترك أيضًا).

وهكذا فإن مقارنة الدي أن أي يعطي نموذجا لشجرة عائلة توضح علاقات الأفراد فيما بينهم وبالذات علاقتهم بوجود (جد مشترك).

نفس المثال يمكن أن يطبق على مختلف المخلوقات للوصول إلى النتيجة نفسها: تشابهات الدي أن أي بين أنواع مختلفة تشير إلى وجود جد مشترك لهذه الأنواع.

على سبيل المثال: جينيا، الحيتان أقرب إلى فرس النهر من كل مخلوقات البحر.

هذا الاكتشاف كان مفاجئًا ولم يخطر ببال التطوريين من قبل مقارنة الدي أن أي، حيث كان يعتقد قبل أن فرس النهر أقرب للخنازير، وقبلها كان يعتقد أن فرس النهر له قرابة مع الحصان[1].

لكن الدي أن أي كشف أن أقرب قريب متوفر للحيتان هو فرس النهر.

التدقيق في الأمر تشريحيًّا وجد تشابهات تؤكد القرابة: ثمة كاحل غريب الشكل في الحيتان الماشية (القديمة) ويوجد كاحل مشابه في فرس النهر، أنثى فرس النهر تلد وترضع صغارها في الماء (مثل الحيتان)، فرس النهر يمتلك معدة متعددة التجاويف (مثل الحيوانات المجترة التي تأكل النباتات عمومًا) والحيتان تملك معدة مشابهة تعتبر شيئًا فريدًا في الحيوانات آكلة اللحوم، كلاهما يمتلكان القدرة على إطلاق أصوات متشابهة جدًّا بسبب الاشتراك بحنجرة متشابهة[2]، كذلك فرس النهر والحوت هما من الثدييات النادرة التي تملك خصية داخلية[3].

عثر على القرابة الجينية بين فرس النهر والحوت عام ٢٠٠٩، وبعد ست سنوات عثر[4] على بقايا حيوان (أحافير) يمكن أن يكون أحد أسلاف فرس النهر الأكثر قربًا من الحيتان، مما يؤكد مجددًا

---

(1) Is The Hippopotamus The Closest Living Relative To The Whale? -- ScienceDaily
https://www.sciencedaily.com/releases/2009/03/090318153803.htm

(2) A Whale of a Tale: Hippo Family History - Thomson Safaris
https://thomsonsafaris.com/blog/whale-and-hippo-dna/

(3) Birth control at the zoo: vets meet the elusive goal of hippo castration -- ScienceDaily
https://www.sciencedaily.com/releases/2013/12/131220113359.htm

(4) How hippos are related to whales: Fossils of 28 million-year-old ancestor provide missing link in creature›s family tree | Daily Mail Online
https://www.dailymail.co.uk/sciencetech/article-2967721/How-hippos-related-whales-Fossils-28-million-year-old-ancestor-provide-missing-link-creature-s-family-tree.html

القرابة بين الاثنين، ووجود جد مشترك أعلى بينهما[1].

وهكذا فإن مقارنة جينات الإنسان بأنواع أخرى سيقترح درجة البعد والقرب من الإنسان من حيث السلف المشترك.

خامسًا- التوزيع الجغرافي للأحياء Biogeography

تتوزع أنواع الكائنات الحية في الأرض على نحو ينسجم مع محيطها الجغرافي وظروفها البيئية، ويمكن ملاحظة أن بعض الأماكن المعزولة تختص بأنواع لا توجد تقريبًا في أي مكان آخر. وتفتقر إلى مخلوقات أخرى منتشرة في العالم كله، مثل قارة أستراليا التي فيها أكثر من ١٠٠ نوع من الكانغارو - النادر جدًا خارجها - ولكنها في الوقت نفسه لم يكن فيها أي من (ثدييات مشيمية placental mammals) - مثل الكلاب والقطط والدببة والخيول. بعض الجزر مثل هاواي أو نيوزيلندا لا يوجد فيها أي ثدييات برية مقابل أنواع متفردة من الطيور والحشرات[2].

تفسر النظرية هذا التوزيع بكون هذه الأنواع قد تطورت بعد انفصال قارات الأرض، على نحو جعل تطور بعض المخلوقات مستقلًا تمامًا عن سواها.

* * *

هذه هي الظواهر والملاحظات التي تجمعها نظرية التطور ببعضها البعض لتقدم تفسيرها.

أي نظرية علمية بديلة عن نظرية التطور عليها أن تربط كل هذه الظواهر والملاحظات والمجالات العلمية المختلفة وتقدم نموذجها الخاص الذي يتجاوز مشاكل نظرية التطور (كأي نظرية علمية أخرى لها مشاكلها) وفي الوقت نفسه يقدم التفسير المقنع البديل لما تجيب عن أسئلته نظرية التطور.

ولعله من نافلة القول أنه لا يمكن لأي نظرية علمية أن تكون بديلة لنظرية التطور دون أن تأخذها أولًا على محمل الجد التام والدراسة العلمية المكثفة خصوصًا أن سجل الأحافير الذي تستخدمه نظرية التطور يضم (ملايين الأحافير) إن لم يكن المليارات منها، وأن الدعم الذي قدمته دراسة الجينات لنظرية التطور هو مما لا يمكن تجاوزه.

* * *

هل يعني هذا أن نظرية التطور بلا مشاكل؟ وهل يعني هذا أنها تفسر كل شيء؟

قطعًا لا. وشخصيًا لا أرى أن النظرية تجيب عن كل الأسئلة خاصة فيما يتعلق بالإنسان، إذ أرى -كما يرى كثيرون- أن الانتقاء الطبيعي لا يكفي لتفسير تفرد الإنسان، وأن (شيئًا ما) قد حدث في مرحلة مبكرة على نحو جعل الإنسان على ما هو عليه.

---

(1) 1.24.2005 - UC Berkeley, French scientists find missing link between the whale and its closest relative, the hippo https://www.berkeley.edu/news/media/releases/2005/01/24_hippos.shtml

(2) Early Theories of Evolution: Evidence of Evolution https://www2.palomar.edu/anthro/evolve/evolve_3.htm

طبعًا هذا الـ(شيء ما) (نؤمن) أنه خلق الله الذي ميز آدم عن سواه من المخلوقات، لكن الإيمان يقع في منطقة مختلفة عن القبول بنظرية علمية، ولا يشترط بنظرية علمية أن تفسر كل إيماننا أو أن تقدم براهين عليه. كما لا يشترط منا أن نطلب من العلم تقديم وثائق وأدلة تبرهن إيماننا.

الأمران مختلفان في جوهرهما.

لكن ما هي ميزات نمط التفكير هذا الذي يتعامل على نحو مضاد لنظرية التطور؟

أولاً- التعامل مع العلم بطريقة دينية

سيادة العلم في العقود الأخيرة جعله بنظر كثيرين بمثابة دين جديد. والبعض صار يتعامل معه بطريقة دينية، أي بطريقة أن كل ما يأتي منه هو يقين نهائي.

وبالتأكيد فاليقين بعيد عن طبيعة التفكير العلمية التي تتطلب الشك المستمر الذي يعيد النظر والتدقيق للوصول إلى معطيات أكثر دقة وتفسيرات أكثر دقة تدخل أيضًا في معمل التساؤلات والتدقيق.

الأشخاص الذين تشكلت عقولهم على اليقين الديني يتوقعون أن تطبيق هذا اليقين على العلم أمر طبيعي، وعندما يرون شيئًا مغايرًا لهذا يتصورون وجود قصور أو نقص.

لهذا فإن داروين على سبيل المثال كان يعبر عن طريقة تفكير علميّة تمامًا عندما عبر في أكثر من موضع عن شكوكه بأجزاء من نظريته.

هكذا يتقدم العلم، وهكذا هو التفكير العلمي.

على الجانب الآخر، يتعامل الذين تشكلت عقولهم على اليقين مع ما هو طبيعي وضروري في العلم على نحو درامي مبالغ فيه.

هناك دراما كاملة عن شكوك داروين التي صرح عنها بعلمية تامة باعتبارها الدليل القاطع على تهالك نظريته وضعفها ووو...(أصلاً داروين نفسه كان يشك فيها!) هكذا يقولون، كما لو كانوا يتحدثون عن شكه بزوجته!

هذا أمر سيجد قبولًا كبيرًا في كل الأوساط البعيدة عن منهجية العلم في التفكير والتي تعتبر (اليقين) هو الأمر الطبيعي المتوقع.

لدينا عناوين[1] كعناوين الصحف تتعامل مع شك هو جزء من منهجيّة تفكير علميّة كما لو كانت تتعامل مع فضائح! وتصبح شكوك داروين وسيلة لطرد الناس عن الاقتناع بنظريته كما لو أنه من المفروض أن يقدم لهم اليقين المطلق. شكوكه العلمية يعاملها البعض على أنه لم يكن مقتنعًا أصلًا بما يقول.

نفس الأمر بالتأكيد لكل الانتقادات التي توجه للنظرية من داخلها، أي من علماء يؤمنون بالإطار العام للنظرية، وهم يقدمون شكوكهم ونقدهم واعتراضاتهم كوسيلة لتطوير للنظرية أو العلم بشكل عام،

---

(1) Darwin›s Doubt
https://darwinsdoubt.com/

لكن المتعاملين مع العلم بطريقة دينية يتعاملون مع هذه الانتقادات كما لو كانت إقرارًا من العلماء بخطأ النظرية، رغم أن انتقاداتهم غالبًا تبقى داخل الإطار العام للنظرية.

هذا التفريق بين اليقين الديني وطبيعة العلم التي تتطلب الشك المستمر أمر ضروريّ لإنهاء جزء كبير من سوء الفهم الحاصل بين طرفي النقاش.

ثانيًا - عدم معرفة المعنى العلمي للنظرية / الحقيقة / القانون

النظرية العلميّة (حسب تعريف الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة) هي التفسير الأفضل والأكثر تماسكًا لمجموعة من الظواهر الطبيعية التي يمكن ملاحظتها في الطبيعة والتي يمكن أن تدمج ما بين الحقائق والاستنتاجات والقوانين والفرضيات المختبرة[1].

مرة أخرى: النظرية هي التفسير الأفضل- الأكثر قبولًا- لظواهر موجودة في الطبيعة.

وهذا يعني أن النظرية لا يمكن أن تتحول إلى حقائق بتراكم الأدلة عليها (كما يتم تعيير هذه النظرية أو تلك للدلالة على أنها مجرد نظرية، بل كما يتم تعيير داروين لأنه -اعترف!- بأن نظريته ليست حقيقة[2]!!!) ..

علميًّا: كلمة حقائق تعني «ملاحظات متكررة» – أو قياسات متكررة بالتجربة أو بوسائل أخرى. هذه الحقائق تبنى عليها النظرية العلمية[3].

النظرية تفسر الحقائق، لذا فهي لا يمكن أن تصبح (حقيقة) لأنها وصلت أصلًا إلى أعلى ما يمكن أن تصله بكونها نظرية. الحقيقة ليست مرحلة أرقى لكي تصل النظرية إليه بعد أن تستوفي عددًا معينًا من البراهين والأدلة.هما شيئان مختلفان.والنظرية تعتبر بمثابة (جوهرة التاج) بالنسبة للعلم crown jewels[4].

مثال على ذلك: دوران الأرض حول الشمس حقيقة. أمر ملاحظ ومتكرر.

نظرية نيوتن في الجاذبية تفسر هذا الدوران. نظرية نيوتن لن يطلق عليها (علميًّا) أنها حقيقة رغم ثبوتها ولكن لأن التوصيف العلمي لكل من الحقيقة والنظرية مختلف عن الاستخدام اليومي للكلمتين.

النظرية ليست (فرضيّة) تنقصها بعض الأدلة والبراهين وتنتظر هذه البراهين لكي تحصل على الترقية وتصبح (حقيقة)، بل هي تفسير يربط بين مجموعة من الحقائق.

---

(1) Introduction | Science and Creationism: A View from the National Academy of Sciences, Second Edition | Chapter 2 page 2 -The National Academies Press
https://www.nap.edu/read/6024/chapter/2#2

(2) The Evolution of the Long-Necked Giraffe (Giraffa camelopardalis L.) What Do We Really Know? Testing the Theories of Gradualism, Macromutation, and Intelligent Design Wolf-Ekkehard Lönnig © 2011 der vorliegenden Ausgabe: page v

(3) Fact - Wikipedia

(4) In Science, It's Never 'Just a Theory' - The New York Times
https://www.nytimes.com/2016/04/09/science/in-science-its-never-just-a-theory.html

من أهم ما يميز النظريات عن الحقائق هو القدرة التنبؤية للنظرية، وهو أمر لا تستطيع فعله الحقائق حيث أنها مرتبطة بالملاحظة.

وهكذا فنظرية الجاذبية توقعت كيف سيكون عليه الأمر خارج مجال الجاذبية الأرضية قبل أن يلاحظ ذلك من قبل رواد الفضاء بفترة طويلة. وكان تحول «النبوءة» إلى «ملاحظة» دعم إضافي لقوة النظرية.

كذلك تنبأت نظرية التطور بالعثور على بقايا لحيوانات انتقالية قبل عقود طويلة من العثور عليها.

«مجرد نظرية!» أمام القضاء

عبارة (مجرد نظرية) إذن - المستخدمة كثيرًا في سياق هذا الموضوع-، هي عبارة خادعة، تتجاوز التعريف العلمي للنظرية، وتعاملها على أنها مجرد رأي أو فرضية تنقصها الأدلة. بل هي تعبر عن عدم فهم المعنى والاستخدام العلمي لكلمة نظرية.

وهذا الخلط ليس خاصًا بنا بل هو موجود في كل العالم، فهذه العبارة تحديدًا (مجرد نظرية just a theory) وصلت إلى القضاء في الولايات المتحدة لكي يفصل فيها ضمن صراع بين مؤيدي تدريس نظرية التطور في المدارس والمعادين لها.

المعادون كانوا يرغبون بإضافة عبارة (مجرد نظرية وليست حقيقة) على كل صفحة من صفحات الكتاب المدرسي الخاص بنظرية التطور. القضاء استدعى أحد علماء الخلية (كينيث ميلر Kenneth R. Miller) في جامعة براون ليعطي شهادته، وكانت من المرات النادرة في التاريخ التي يقوم فيها عالم بشرح معنى كلمة (نظرية) وهو تحت القسم.

شهادة ميللر لم تكن عن كون التطور نظرية أم حقيقة، بل عن معنى كلمة نظرية علميًا وكيف أن عبارة (مجرد نظرية) تستخدم لغة الاستعمال اليومي لكلمة (نظرية) لتسقطها على معنى مختلف تمامًا [1].

حكم القضاء لصالح إزالة عبارة (مجرد نظرية).

لماذا لم تتحول نظرية التطور إلى قانون التطور؟!

الأمر ذاته ينطبق على سؤال (لماذا لم تتحول النظرية إلى قانون؟).

السؤال هنا يفترض أن النظرية - أي نظرية- يجب أن تمر بمرحلة (مثل سنوات الجامعة) لتتخرج وتصبح قانونا .

ببساطة هناك مشكلة في فهم طبيعة العلم وأجزائه عند أحد طرفي النقاش.

مشكلة تعريفات جوهرية جدًا.

النظرية تفسر الظواهر الطبيعية وتربط بينها.

---

(1) The Ohio Evolution Debate
http://www.millerandlevine.com/km/evol/debate.html

القانون هو وصف عام لظاهرة طبيعية.

النظرية هي بيت كامل.

القانون هو طابوقة في هذا البيت.

النظرية هي السيمفونية، القانون هو النوتة.

البيت يضم آلاف قطع الطابوق، والسيمفونية تضم آلاف النوتات، كذلك النظرية يمكن أن تحتوي على عشرات القوانين التي تفسرها، لكنها بالتأكيد لن تتحول إلى قانون.

القانون وصف مبسط، غالبًا بصيغة رياضية، لعلاقة حتمية بين الأشياء، وغالبًا ما يكون في قوانين الفيزياء ويندر جدًا أن يكون في البيولوجيا (ولكن يمكن أن يحدث كما في قانون مندل ذا الطبيعة الرياضية).

النظرية لا يشترط أن تكون عبر صيغة رياضية حتمية بل هي (الإطار العام) الذي يفسر القانون.

وهكذا فإن الجاذبية ليست نظرية وجدت براهين فصارت قانونًا. بل هي نظرية تفسر قانون الجذب، أي تفسر لماذا قوتا التجاذب بين جسمين ماديين تتناسب طرديًا مع حاصل ضرب كتلتيهما وعكسيًا مع مربع المنافسة بينهما.

فننتبه هنا إلى أن الحوار مع مضادي نظرية التطور يصطدم على نحو مباشر بهاتين النقطتين في نمط التفكير.. أولًا- معاملة العلم على نحو ديني. ثانيًا - عدم معرفة معنى مطلحات مثل النظرية/ القانون/ الحقيقة من ناحية علمية. إذ أن هاتين النقطتين تؤديان إلى عدم وجود لغة مشتركة بين طرفي النقاش، ببساطة كل من الطرفين يستخدم المصطلحات وهو يقصد معاني مختلفة وينظر للعلم على نحو مختلف. وهو أمر يجعل الحوار غير مجدٍ. وبالتأكيد يجعل فكرة المناظرة بين الطرفين لا معنى لها.

ما معنى أن تكون النظرية هي التفسير الأفضل لظواهر طبيعية بعينها؟

يعني ذلك أنها تقدم التفسير الأكثر قبولًا - في فترة ما- بناء على المعطيات والملاحظات المتوفرة فيما يخص هذه الظواهر.

وعبارتا (الأفضل) و(الأكثر قبولًا) - في فترة ما- قد تعني ببساطة احتمالية ظهور (تفسيرات أفضل) وتحظى (بقبول أكثر). أي نظرية أكثر تماسكًا وقبولًا. بما يعني ذلك أن التفسيرات القديمة والتي كانت الأفضل فيما مرحلة ما، لم تعد صالحة بناء على المعطيات الجديدة.

بالتأكيد يمكن أن يحدث هذا وقد حدث دومًا.

حدث مع نظرية الجاذبية لنيوتن مثلًا، بقيت هي التفسير الأفضل للعلاقة بين الأجسام والقوى بينها لمدة تزيد على القرنين إلى أن جاء آينشتاين في العقد الثاني من القرن العشرين وقدم تفسيرًا أكثر قبولًا بالنسبة للعلاقة بين الأجسام عندما يكون أحدهما في سرعة أقرب إلى سرعة الضوء.

ثم جاء ماكس بلانك ليقدم تفسيره الأفضل للعلاقة بين الأجسام عندما تكون متناهية في الصغر.

كل من هؤلاء قدم نموذجًا لتفسير الظواهر، وكل نموذج من هؤلاء واجه تحديات ومشاكل أدت لاحقًا إلى تقديم نموذج يفسر هذه التحديات.

هذه هي طبيعة العلم، النظريات ليست نصوصًا مقدسة، هي محض تفسيرات أفضل للظواهر - في فترة ما- وقد تأتي نظرية لاحقة تكمل هذه النظرية وتعدل من عيوبها (وتكون المعرفة هنا تراكمية، نظرية تكمل أخرى)، وقد يحدث أن تأتي نظرية بمنظور مختلف تمامًا على نحو يحدث قطيعة معرفية مع ما سبق من نظريات علمية (paradigm shift تغيير البارادايم).

بعبارة أخرى: النظريات لا تتحطم ولا تنهار فجأة ولا تموت بالسكتة القلبية، بل تحل محلها نظريات أخرى، أي يتوفر (تفسير أفضل وأكثر تماسكا) مما قدمته.

يحدث كثيرًا أن نقرأ في التعليقات بأن النظرية الفلانية (طلعت غلط).

النظريات لا (تطلع) غلط أبدًا إلا عندما يظهر نموذج تفسيري جديد يحل محلها.

ريثما يحدث ذلك قد تواجه النظرية تحديات ومشاكل ويعمل العلماء على إيجاد حلول لها - حلول قد تؤدي إلى إنشاء نظرية جديدة مختلفة تمامًا. وهو أمر لا يتهرب منه العلماء بل يسعون له لأنه جزء من طبيعة العلم. بل إن الطبيعي في أي نظرية علمية هو ديناميكيتها، أي أنها تتغير نحو طرح مكمل لها دون أن يؤدي ذلك أحيانًا إلى الإخلال بشيء من بنائها العام، وأحيانًا بنقض بعض أجزاء النموذج الذي تقدمه وتعديله.

لهذا لا يمكن لأي اكتشاف أن يطيح بنظرية كما نقرأ دوما في عناوين الأخبار على السوشيال ميديا أو مواقع الإنترنت. يمكن لاكتشاف ما أن يتحدى نظرية ما ويقدم للعلماء مشكلة عليهم البحث عن حل لها... لكن لغة أن (الاكتشاف الفلاني أطاح بالنظرية أرضًا) لا مكان له من الإعراب علميًا.

العثور على بقايا عظام أو جمجمة أو هيكل عظمي لأي كائن لن يهدم نظرية، بل يقدم معطيات جديدة قد تعدل من بعض تفاصيلها أو خارطتها، لكن الإطار العام سيبقى نفسه.

بناء على كل ما سبق فنظرية التطور مقبولة اليوم كالتفسير الأكثر قبولاً وتماسكًا - من قبل الأوساط العلمية الأكاديمية - لعدد كبير من الظواهر في الطبيعة..

هل يعني هذا أنها ستبقى كذلك؟ قطعًا لا يشترط كذلك.

هل يعني هذا أنها لا تواجه تحديات؟ قطعًا لا. تواجه تحديات ومشاكل مثلها مثل أي نظرية، وقد تطورت النظرية نفسها على مدى عقود على نحو كبير وكان جزءٌ من هذا التطور يعود إلى التحديات التي قابلتها، كما يحدث مع كل النظريات.

هل النظرية كاملة؟ لا طبعًا، النموذج التفسيري الذي تقدمه لا يفسر كل شيء وهناك مناطق (مظللة) لم تستطع النظرية تفسيرها تمامًا، وهناك مناطق (معتمة) لم تتطرق لها، لكنها لا تزال (التفسير العلمي الأكثر قبولاً وتماسكًا في الأوساط العلمية).

لذا فالطريقة الأفضل لمحاربة نظرية ما (إن كانت كلمة محاربة مفيدة هنا) **هي في تقديم (نموذج علمي) أكثر تماسكًا منها وقادر على تقديم تفسير أفضل للظواهر الطبيعية التي عملت على تفسيرها مع تخطي للمشاكل التي واجهتها.**

أول خطوة في دحض أي نظرية علمية هي أخذها بشكل جاد والعمل على تقديم منظور علمي مختلف لما تقدمه، أما (تسقيط النظرية) - بل واعتبارها ليست نظرية من الأساس[1]!- واعتبارها (طلعت غلط) - والحديث عنها باعتبارها منتهية تمامًا (خلافًا لكل ما تقوله الأوساط العلمية) وتعداد مشاكلها.. إلخ فهذا لا يغير أبدًا من حقيقة أنها (الأكثر قبولًا).

تريد أن تغير من هذا لأن النظرية لم تقدم نموذجًا مقنعًا بالنسبة لك؟

كف عن تعداد مشاكل هذه النظرية أو السخرية منها، وقدم نموذجًا علميًا يتخطاها.

ثالثا - الانتقاء، العلم باعتباره متجر

واحدة من أهم الخطوات في أخذ أي نظرية علميّة على نحو جدي بحثا عن بديل لها هو (عدم الانتقاء) في التعامل مع المعطيات بخصوص النظرية، أي عدم الأخذ بمشاكل النظرية والانتقادات عليها بمعزل عما يدعمها.

«كارل بوبر» مجتزئًا ..

مثال الانتقاء الذي يستخدم كثيرًا هو التعامل مع ما قاله كارل بوبر Karl popper عن النظرية.

وكارل بوبر (١٩٠٢ - ١٩٩٤) هو واحد من أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، إن لم يكن أهمهم فعلًا وما يقوله عن نظرية التطور مهم فعلًا، لكن من المهم أن يؤخذ كاملًا، بتسلسله، في سياقه، وليس على طريقة (ويل للمصلين). وهو للأسف ما يحدث كثيرًا على طريقة اختيار ما يناسبنا من المتجر.

كان لدى بوبر موقف فعلًا من الانتقاء الطبيعي باعتباره غير قابل للدحض (unfalsifiable) وهو أمر كان أساسيًا بالنسبة لبوبر[2].

من أهم أقوال بوبر المبكرة بهذا الصدد قوله أن «الداروينية ليست نظرية علمية قابلة للاختبار، لكنها برنامج بحث ميتافيزيقي ممكن أن يكون إطارًا لنظريات علمية قابلة للاختبار» أكمل بعدها ليقول أن النظرية مهمة جدًا وساهمت في تطوير العلوم منذ ظهورها[3].

لاحقًا- ١٩٧٨- قال بوبر «الداروينية الحديثة - أي نظرية الانتقاء الطبيعي المدعومة بنظرية مندل في الوراثة، وبنظرية الطفرات الجينية وبالشيفرة المجينية المفتوحة- هي نظرية قوية جدًا. الادعاء بأنها تفسر كل التطور ادعاء مبالغ فيه بالتأكيد وبعيد التحقق حاليًا. كل النظريات العلمية هي فرضيات حتى التي نجحت في أقسى وأصعب الاختبارات، الدعم الجيني للداروينية اختبر على نحو كاف، وكذلك نظرية

---

(١) كما في كتاب خديعة التطور: الانهيار العلمي لنظرية التطور وخلفياتها الأيديولوجية لهارون يحيى- صفحة ٢٠

(٢)- قابلية الدحض أو التفنيد: كان بوبر يرى أن قابلية أي نظرية لأن تواجه بما يتحداها من فرضيات وتفسيرات أمر أساسي في كونها نظرية علمية من الأساس.

(3) Popper, K. R. 1981. Letter. New Scientist

.1976. Unended Quest. An Intellectual Autobiography. LaSalle, IL: Open Court.

التطور من ناحية أنها تقول أن كل أشكال الحياة الأرضية قد تطورت من أشكال بدائية، أو حتى من كائن أحادي الخلية.. رغم هذا فإن أهم إضافة قدمها داروين لنظرية التطور، وهي نظرية الانتقاء الطبيعي لا تزال صعبة الخضوع للتجربة، هناك بعض التجارب والاختبارات التي حدثت ونجحت، لكنها تجارب محدودة وتحتاج إلى المزيد».

يكمل بوبر: «قلت سابقًا أن الانتقاء الطبيعي غير قابل للاختبار وأنه برنامج بحث ميتافيزيقي، لا أزال على رأيي في أنه برنامج بحثي ناجح، ولكن غيرت رأيي في قابليته للاختبار، وأرى الآن أنه منطقي كنظرية.. سعيد بقدرتي على التراجع عما قلته سابقًا، وآمل أن يساهم هذا التراجع في فهم أفضل للنظرية»[1].

لاحقًا وفي كتاب صدر عام ١٩٨٧ قال بوبر ملخصا موقفه «نظرية الانتقاء الطبيعي ليست ... للاختبار فقط بل تبدو أنها حقيقة عالميًا universally true، مع وجود بعض الاستثناءات كما مع ... النظريات في علم الأحياء.. وبالأخذ في نظر الاعتبار طبيعة الاختلافات العشوائية في الظروف التي يعمل فيها الانتقاء الطبيعي فإن وقوع استثناءات أمر مفهوم. لا يمكن تفسير كل شيء في التطور عبر الانتقاء الطبيعي وحده بالتأكيد، لكن سيكون مثيرًا للاهتمام اختبار لأي مدى يمكن للانتقاء الطبيعي أن يؤثر في عملية التطور» [2]

اجتزاء نقد بوبر المبكر للنظرية وعدم وضعه في سياق ملاحظاته اللاحقة والتي تراجع فيها صراحة عن ملاحظاته السابقة يوحي بانتقائية تستخدم فقط لإقناع المتلقي بحكم مسبق نؤمن به وبكونه الأفضل والذي يجب أن يؤمن به المتلقون. البحث العلمي يكف عن أن يكون علميًا في هذه اللحظة تحديدًا، عندما يكون هناك حكم مسبق نريد إثباته عبر البحث وليس حكم نصل له بعد البحث. ومن المؤكد أن هذا لا يخص أعداء التطور فقط بل يخص أنصاره أيضا في أحيان كثيرة.

رابعًا - استراتجية تشتيت الانتباه

يحدث كثيرًا ضمن المناكفات بين أعداء نظرية التطور ومناصريها أن يفتعل أعداء نظرية التطور معركة جانبية جدًا ولا تخص جوهر النظرية أو حتى أطرافها من قريب أو بعيد، ولكن لأن المتلقي يمكن أن يكون غير قادر على التحقق – أو غير مهتم بالتحقق، فإن الأمر سيبدو له كما لو أنه يضرب النظرية في الصميم، ولا بأس في أن يتخلل الأمر بعض الإثارة التي تلهب خيال الجمهور.

ضمن سجل المناكفات التي يحتفل بها أعداء نظرية التطور حادثة يروجون لها على أنها (فضيحة) وتزوير وتلفيق.. إلخ، ولأن المزاج الشعبي يحب قصص المؤامرات والأكشن فإن للقصة شهرة كبيرة.

الخلاصة المثيرة التي تقدم بها القصة هي أن العلماء التطوريين يقومون بفبركة وتلفيق أدلة تعينهم على دعم قضية وجود الأنواع الانتقالية.

والقصة تخص بالتحديد كائن انتقالي ضمن سلسلة تطور الحيتان من الثدييات البرية إلى الحيتان المعاصرة، تحديدًا الروديسيتوس Rodhecetus

---

(1) CA211.1: Popper on natural selection›s testability
http://www.talkorigins.org/indexcc/CA/CA211_1.html

(2) Evolutionary Epistemology, Rationality, and the Sociology of Knowledge - Gerard Radnitzky - Google Books. Books. google.com. Retrieved12 August 2014.

مبدئيا فإن سجل الأحافير التي تخص تطور الحيتان هو أكثر السجلات امتلاء بسبب طبيعة الحيتان وحجمها الذي جعل إمكانية الحصول على أحافيرها واردة جدًّا وعلى نحو لا يمكن أن تؤثر عليه قصة واحدة من هذا النوع ولو صحت.

لكن القصة في حقيقتها لا تصح، واستمرارية دعمها من قبل البعض يدل على عدم محاولتهم أصلًا (التدقيق) والتشكيك فيما يتداولونه من أدلة (والتدقيق والتشكيك جزء من المنهج العلمي الذي يفتقدونه للأسف).

مالذي تقوله القصة؟

الكاتب الدكتور كارل ورنر Carl Werner[1] (وهو طبيب) لاحظ عدم تطابق الرسوم الموجودة في متحف التاريخ الطبيعي في جامعة ميشيغان للروديسيتوس Rodhecetus، مع بقايا العظام الموجودة للكائن نفسه.

الاختلاف كان في وجود الذيل والزعانف في الرسم، وعدم وجود ما يدل عليهما في العظام.

ذهب ورنر لسؤال العالم المختص الذي وجد الأحافير Phil Gingrich فقال له ببساطة: نعم، لم نجد ما يدل على وجود الذيل والزعانف، توقعنا أنه ربما تكون هناك، ولكن نفهم الآن أن أطرافها الأمامية ليست من النوع الذي يمكن أن ينتشر مثل الزعانف.

انتهى.

سؤال وجواب وانتهى الأمر بالنسبة للعالم التطوري، ولكنه بدأ بالنسبة لأصحابنا أعداء النظرية.

عومل (الذيل) الموجود في الرسم في متحف التاريخ الطبيعي في جامعة ميشيغان كما لو كان دليل إدانة ضد فريق البحث العلمي، كما لو أن هذه اللوحة التقريبية هي ما قدموه وليس الأحافير التي تم جمعها على مدى ٧ سنوات بين ١٩٩٤ حيث عثر أول مرة على بقايا الكائن، و٢٠٠١ حيث عثر على نسخة ثانية منه.

المقال العلمي الأول الذي نشر في مجلة Nature عام ١٩٩٤ [2] عن الروديسوس تحدث عن:

أولًا- امتلاك الكائن لصفات الثدييات البدائية التي تسند وزنها على الأرض، مما يشير إلى قضائها بعض الوقت على البر.

في الوقت نفسه، يمتلك الكائن صفات فقرية للحيتان (ما يعرف بالحيتان القديمة archaeocetes)، أي لأنواع لم تكن قد ظهرت بعد.. أي أن الكائن جمع بين صفات برية ومائية وهكذا يمكن ان يكون نموذجًا انتقاليًّا.

ثانيًا- الروديسوس يختلف عن الحيتان الحديثة cetaceans مما يشير إلى وجود اختلاف في الشكل والحركة بين الحيتان القديمة والحديثة.

---

(1) Evolution: The Grand Experiment, Carl Werner.

(2) New whale from the Eocene of Pakistan and the origin of cetacean swimming.Philip Gingerich, Nature volume368, pages844-847 (28 April 1994)

https://www.nature.com/articles/368844a0

https://deepblue.lib.umich.edu/bitstream/handle/2027.42/62571/368844a0.pdf?sequence=1&isAllowed=y

ثالثا - الروديسوس يمتلك بعض الصفات الفقرية للحيتان الحديثة مما يقترح أنه يتحرك بطريقة dorsoventral oscillation الذبذبة الظهرية البطنية.

بخصوص الذيل تقول المقالة: فقرات الذيل غير موجودة في هذا النموذج، ولا يمكن التأكيد على وجود ذنب مفصص caudal fluke (أي ذنب بفصين مثل الحيتان الحديثة) لكن من المنطقي توقع ذلك مع قصر العنق، مرونة العجز، وقصر الأطراف الخلفية.

وهكذا فالادعاء بأن Gingrich قد ادعى وجود زعانف وذيل وزيف وجودها ليثبت صحة النظرية.. إلخ إلخ.. كل هذا للأسف كلام بعيد عن الصحة تمامًا. Gingrich كان واضحًا جدًّا في هذا. الذيل والزعانف لم تكن أساسًا نقطة أساسية في بحثه أو في الدلالة على كون الدروديسوس كائن انتقالي- بل الأطراف والفقرات هي التي كانت تشير إلى أن الكائن عاش بين البر والبحر.

المقالة الثانية، في ٢٠٠١ [1] تعاملت مع نموذج عثر عليه لاحقًا وقدمت تشكيلًا أكثر تكاملًا للكائن، مرة أخرى لا يوجد ذيل، ولكن الأطراف أكثر تطورًا.

أين المشكلة؟

. المشكلة في الرسم الموجود في المتحف بناءً على وصف مقالة ١٩٩٤ التي قال فيها Gingrich أنه يتوقع وجود ذيل مفصص!

أما الشكل النهائي الذي قدمه Gingrich من خلال الرسم الذي تضمن في المقال الأخير فلم يكن فيه أي ذيل مفصص..

كيف يمكن بناء (فضيحة مزعومة) واتهام العلماء الباحثين بالفبركة والتزييف وترويج (سقوط النظرية) من خلال النظر إلى رسم توضيحي في متحف، رسم من الواضح أنه بخط اليد، دون الانتباه إلى ما قاله العالم في مقالته المنشورة في مجلة علمية محكمة! ...

أي بحث علمي أصلًا سيبنى على الرسم! وسيترك ما هو واضح وجلي في المقال...

يحدث ذلك من خلال معرفة أن الجمهور الذي تخاطبه لن يدقق عليك ولا يهمه التدقيق بل يريد أن يسمع أي شيء يؤكد له قناعاته المسبقة[2]... **أصلًا النظرية طلعت غلط.. أصلًا طلعوا يزيفون الدلائل.. أصلًا لا يوجد دليل واحد على أحفور لكائن انتقالي.. إلخ.**

بينما هناك بصمت جبل أحافير انتقالية يتراكم..

كما في :

A few selected transitional fossils

http://www.transitionalfossils.com

(1) Origin of Whales from Early Artiodactyls: Hands and Feet of Eocene Protocetidae from Pakistan. Philip D. Gingerich, et al. Science 293, 2239 (2001).

http://www.blc.arizona.edu/courses/schaffer/449/God in the Gaps/Early whale Hands and feet.pdf

(2) Whale Evolution «Fraud» and Creationist Impotence! | Marmotism

http://marmotism.blogspot.com/2015/01/whale-evolution-fraud-and-creationist.html

خامسًا - الحديث بلغة واثقة جدًا، عن أشياء خاطئة جدًا...

الحديث بلغة شديدة الثقة، من شخص محترم ويمتلك شهادة علمية أو يتحدث بالدين، يوحي للمتلقي أن ما يقوله صحيح حتمًا، وتنتقل له المعلومة على نحو يقيني دون أي رغبة في التحقق.

لذلك تقال أشياء كثيرة عن نظرية التطور بلغة شديدة الثقة من قبل أشخاص يبدو عليهم الاحترام والعلم: لم تصمد نظرية التطور في أي مجال علمي.. ثبتت أنها خاطئة تمامًا.. أجمع العلماء على بطلانها لعدم وجود أي دليل عليها.. إلخ. وهذا كله ببساطة غير صحيح لكن قوته من اللغة الواثقة التي تخدع الجمهور غير المتخصص وتوهمه بأنه يستمع إلى عصارة الحقيقة.

الزرافة المفقودة

من هذه القصص التي تقال بلغة شديدة الثقة هي قصة البحث عن زرافة مفقودة.

داروين كان قد اقترح أن الزرافة الحالية قد تطورت عن أنواع طالت رقبتها بالتدريج للوصول إلى الأشجار العالية، وحسب نظريته لا بد من العثور على بقايا لكائنات انتقالية بين الزرافة الحديثة وبين الزرافة الأولى التي اقترح وقتها أنها تشبه الحصان (من الحافريات hoofed animals).

لعقود طويلة لم يعثر على أي متحجر أو بقايا لزرافة قصيرة العنق، وكان هذا يستخدم كتحدٍ لنظرية داروين من قبل أعداء النظرية.

والحقيقة أن عدم وجود بقايا لزرافة قصيرة العنق لا يثبت خطأ النظرية ولا يثبت صحتها.. عدم وجود الدليل ليس دليلًا على عدم الوجود.

ولكن على العكس العثور على بقايا زرافة قصيرة العنق لن يدعم نظرية التطور فقط، بل سيثبت صحة توقع داروين تحديدًا حول هذه المسألة.

أقول لعقود طويلة لم يعثر على شيء من هذا.

وكان هذا سببًا في قوة لهجة أعداء النظرية ضد مثال الزرافات. هاتوا أحافيركم إن كنتم صادقين.

في عام ٢٠١٥ تم العثور على بقايا زرافة انتقالية [1] حسمت هذا النقاش لصالح من توقع وجودها منذ البداية.

الزرافة الانتقالية أطلق عليها Samotherium major وطول رقبتها حوالي المتر، مقابل ٢- ٢,٤ المتر في الزرافة المعاصرة، ومقابل ٦٠ سنتمتر لل okapi الذي يعتقد أن الزرافات قد انحدرت من سلف مشترك معه.

---

(1) 7-Million-Year-Old Fossils Show How the Giraffe Got Its Long Neck
https://www.livescience.com/52903-transitional-giraffe-fossils.html

الزرافة الانتقالية التي عثر عليها ليست السلف المباشر للأنواع الحالية ولكنها قريبة جدًّا من ذلك. والدراسة[1] التي أجريت حددت الفقرات العنقية التي حدثت فيها الاستطالة.

لا يوجد دليل على الـ Macroevolution

ومن ضمن الأمثلة على اللهجة الواثقة بمعلومة خاطئة هو الحديث عن عدم وجود دليل على الـ macroevolution التطور من نوع إلى آخر.

هذه الحجة واجهها داروين قبل قرن ونصف، ولا يزال أعداء النظرية يكررونها بنفس اللهجة الواثقة المنتصرة وكأنهم يتوقعون رد فعل (فبهت الذي كفر)..

وللأسف فإن هناك الآن جبلًا من الأدلة على هذا التطور بين الأنواع ولكن لا تزال نفس اللهجة الواثقة بالنفس تتصدر المشهد ولأن الجواب لا يمكن أن يكون مختصرًا بجملة واحدة كما يريدون، فإنهم يستمرون بنفس الإنكار مرتفع الصوت.

والحقيقة أن دلائل الانتقال بين الأنواع كثيرة جدًّا ومتنوعة[2]. ويدخل التطور الكبروي في مجال علوم متعددة[3] مثل علم دراسة الأحافير Paleontology، وعلم الأحياء التطوري evolutionary developmental Biology، وعلم الجينات المقارنة comparative genomics وعلم تطبيق السلالات الجيني Genomic Phylostratigraphy .

وهذا شرح مبسط لما يحدث في التطور الكبروي من قبل جامعة بيركلي واحدة من أهم الجامعات في العالم.

What is macroevolution?

https://evolution.berkeley.edu/evolibrary/article/0_0_0/evo_48



لكن لماذا التعليقات في ٢٠١٧ تتحدى وتطالب بوجود بقايا للزرافة قصيرة العنق رغم العثور على هذه البقايا في ٢٠١٥، ولماذا تطالب بالدليل على التطور الكبروي والأدلة موجودة منذ عقود؟

بسبب عدم (تحديث المعلومات) بالتأكيد، كسبب أول ورئيسي.

لكن هذا عمومًا جزء مما هو أكبر، إذ من السهل جدًّا قبل أن تقول معلومة خاطئة بلهجة واثقة متحدية أن تذهب إلى محرك البحث وتكتب – مثلًا – giraffe evolution fossil

---

(1) Fossil evidence and stages of elongation of the Giraffa camelopardalisneck | Royal Society Open Science Danowitz et al. 2015

http://rsos.royalsocietypublishing.org/content/royopensci/2/10/150393.full.pdf

(2) 29+ Evidences for Macroevolution: The Scientific Case for Common Descent

http://www.talkorigins.org/faqs/comdesc/

(3) Macroevolution - Wikipedia

ستظهر لك أشياء كثيرة جدًّا، لكن سيكون من ضمنها عنوان عريض عن العثور - أخيرًا - على بقايا لزرافة انتقالية قصيرة العنق.

لا يعني هذا أنك يجب أن تقتنع بنظرية التطور- أبدًا، قد تجد أنت أو سواك تفسيرًا آخر لهذا النوع الذي يعده التطوريون انتقاليًّا وتفسر انقراضه.. ولكن من المهم أن لا تدلي بمعلومة خاطئة بهذه الثقة.

ما الذي يقود إلى عدم التثبت على هذا النحو المحرج؟

أولًا- التعامل اليقيني مع المعطيات العلمية (لا ينفع معها التعامل اليقيني أصلًا) وذلك دون محاولة التثبت أو التشكيك فيها. لدينا مشكلة كبيرة كمنهج تفكير في هذا الجانب. نعتبر التدقيق أو التثبت بمثابة (سبة) وجهت لمقدم المعلومة، ونعتبر أن على العلم أن يكون ثابتًا لا يتغير مثل نص ديني محكم كما مر سابقًا في (أولًا..)، ويزيد الخلط عندنا بين يقينية الدين وتغير العلم كلما كان الخطاب مقدم بلغة وعظية منبرية.

ثانيًا - أننا ننحاز مسبقًا إلى موقف ما، فنختار كل ما يؤيد موقفنا ويقويه ولو كان اختيارنا نافد الصلاحية أو خاطئًا على نحو واضح.

مزيج من الإنكار denial والتفكير الساذج wishful thinking يزين لنا الاستمرار بنفس القناعات بحجج أحيانًا ملفقة وأحيانًا خارجة عن سياقها وأحيانا كاذبة تمامًا، فقط لكي نستمر في الشعور بأن كل شيء على ما يرام.

***

سادسًا -طريقة (وشهد شاهد من أهلها)...

كل ما مضى لم يكن طريقة تعامل أعداء نظرية التطور فحسب.

بل هو طريقة تعامل أعداء أي نظرية علمية معها.. لأي سبب مسبق (ديني، آيديولوجي)..

أي تعامل مع العلم بطريقة غير علمية، يجب أن يتجه إلى ما سبق من طرق وأساليب..

التعامل مع الشك العلمي بطريقة دينية .. خلط في التعريفات، الانتقاءات، التركيز على قصص هامشية لا علاقة لها بالموضوع والتشويش على ما تقول النظرية أنه أدلتها.. الحديث بلغة واثقة عن أمور غير صحيحة...

الأمر لا يخصنا كمسلمين ولا يخص تعامل بعض الإسلاميين مع نظرية التطور على الإطلاق.. بل هو أمر عام يشترك فيه أصحاب المواقف المسبقة على اختلاف عقائدهم.. وأغلب مواقف الإسلاميين المضادة لنظرية التطور منقولة حرفيًّا من مواقف المسيحيين المناهضين للتطور في الولايات المتحدة..

إذن لا جلد للذات هنا، نمط التفكير اللاعلمي ليس مقتصرًا علينا والحمد لله، بل هو عولمي تمامًا، ربما هناك نسب مختلفة عندنا (أعلى بكثير..).. لكن الأساس يبقى واحدًا.

المميز الذي تتم إضافته هنا إلى ما ينقل من مواقف مضادي نظرية التطور هو أننا نسوقها ومعها علامة (وشهد شاهد من أهلها)، حيث نعامل نظرية التطور على أنها نظرية الغرب، نظرية الرجل الأبيض، لذلك فعندما يقول رجل أبيض آخر أن نظرية التطور خرافة مثلًا، فنحن نتلقف تصريحه ونجعل

منه بيانًا مهما يرتد فيه الرجل الأبيض عن إيمانه بالنظرية، .. (حتى الغربيين تراجعوا عنها..) نقول.. لكن نظرية التطور لم تكن نظرية الغرب، بل كانت نظرية تبناها المجتمع العلمي في الغرب، وواجهت ولا تزال تواجه مقاومة من أوساط دينية وشعبية لأسباب مختلفة.

وجود مقاومة شعبية لأي شيء سيحتم وجود كتابات (شعبية) تعبر عن هذه المقاومة، وعندما تكون المقاومة لنظرية علمية، فإن هذه الكتابات لا قيمة لها على الإطلاق، طالما كانت لا تملك المنهجية العلمية اللازمة للرد على النظرية.

طبعًا من حق أي معارض للنظرية أن يكتب ما يريد، بمنهجية أو بلا منهجية، وربما لن يجد أصلًا من ينشر له كتابه، لكن العالم تغير الآن، وصار بإمكان أي كان أن ينشر عبر الانترنت أي أن يكون ما يعرف self-published author فلا يحصل على أي اهتمام.. ولكن.. لأنه أبيض.. وكتب بالإنجليزية، فإنه سيجد اهتمامًا عندنا..

حدث هذا مع كاتب لا نعرف أي شيء عنه، أو عن تحصيله الدراسي، اسمه Robert James Galgey كتب كتابًا نشره على الأنترنت بعنوان خرافة التطور the myth of evolution فلم ينتبه له أحد، ولم يحصل إلا على مراجعتين في Goodreads ومثلهما في الأمازون دون أي مراجعة في أي جريدة علمية (خلال سبع سنوات من صدوره في ٢٠١٠).

ولكن عندما تصدر نسخة مترجمة إلى العربية من الكتاب، يحتفى بها للأسباب التي مر ذكرها.. غربي وينتقد نظرية التطور ويثبت لنا أننا على صواب.. ماذا نريد أكثر من ذلك؟

حدث هذا كثيرًا وربما دون أن يتعمده أحد.. يكفي أن يكتب أحدهم بالإنجليزية ضد نظرية التطور لنتلقف ما يكتب حتى لو كان تحصيله الدراسي هو (بكالوريوس في الكتاب المقدس) مع تخصص جزئي في الأحياء (أي أنه اجتاز ٢١- ٢٠ ساعة في الأحياء بالاضافة إلى ١٢٤ ساعة في الكتاب المقدس) وكل ذلك من جامعة تبشيرية هي Bob Jones University الأمريكية التي تأسست في ١٩٢٧ ولكنها لم تحصل على اعتماد أكاديمي في الولايات المتحدة إلا في ٢٠١٧ أي بعد سنوات طويلة من تخرج الكاتب الذي كتب بالإنجليزية ضد التطور..

الكاتب المقصود هنا هو Babu G. Ranganathan الذي كتب عن التطور كتاب (origins?) والذي حصل منذ صدوره في ٢٠٠٣ على مراجعتين في الأمازون وصفر مراجعة في goodreads.

هذا الكاتب تخرج من كلية تبشيرية متخصصًا في الإنجيل يجد عندنا من يشير إلى كتابه في معرض النقاش عن نظرية التطور بل وجد عندنا من يسميه (متخصصًا في علم الجينات)[1]- وهو المتخرج من جامعة دينية غير معتمدة أكاديميًا- فقط ليضيف الأهمية إلى ما يقول!

هذه هي لمستنا الخاصة المميزة لنا للنقاش ضد نظرية التطور..المنقول بالمسطرة من النقاش في الغرب.

ما تفسير هذه اللمسة؟

الأمر واضح ولا يحتاج إلى جهد.

لكنه موضوع آخر تمامًا.



(1) The Rise of Islam, Harun Yahya,2003. A.S Noordeen. Page 179

هل هناك خلاصة فيما يتعلق بعلاقة نظرية التطور والإلحاد أو الإيمان.. الخلاصة أن العلاقة بين أي منهما ليست حتمية، وأن نظرية التطور مجالها في تفاصيل طبيعة الخلق وليس في الخالق أو وجوده، وهي تتعارض «بحرفيتها» مع «حرفية فهم النصوص المقدسة» بلا شك.. لكن هل من وظيفة النظريات العلمية أن تفسر الظواهر الطبيعية أم دعم النصوص الدينية؟

وهل يمكن تجاهل قابلية النص الديني - القرآني خاصة- على احتواء قراءات متعددة، مختلفة وليست متناقضة بالضرورة؟

هذه الحجج والأسباب جمعت من ملحدين صريحين أو من متشككين (أو من نقلها عنهم) بطريقتهم وبأسلوبهم، التغيير كان طفيفا جدا وفقط لغرض التدقيق اللغوي أو الاختصار بدرجة أقل، الكثير منها هي حجج وأسئلة كثيرا ما تطرح وتكرر. في الملف أدناه الحجة مكتوبة كما هي ضمن الباب العام الذي تنتمي له، ومن ثم يأتي الرد بحجم مغاير، في نهاية أغلب الردود هناك إشارة إلى الفصل أو الجزء من الكتاب الذي يمكن التوسع به ضمن منطق الحجة وردها لمن يرغب.

وجود الله - العلم - العقل

لا يمكن إثبات وجود الله علمياً.

يعتمد الأمر على تعريفنا لكلمة علم...

إن كنا نقصد العلم التجريبي والنتائج المخبرية...(وللأسف هذا ما يفهمه البعض من كلمة علم) فنعم. لا يمكن إثبات وجود الله عبره.

لكن العلم أوسع وأشمل من هذه النظرة الضيقة. العلم أيضا هو الربط والاستدلال والاستنتاج. هذا هو العلم الذي قاد إلى أهم النظريات العلمية التي قادت لاحقا إلى الوصول للعلم التجريبي ونتائجه المخبرية.

العلم التجريبي لن يثبت وجود الله، فوجود الله لا يمكن أن يُحْصَر في أنبوبة مختبر.

أما العلم الشامل، علم الحس العام والربط بين الظواهر و الاستنتاج والمنطق، فهو يقود إلى وجود إله خالق لهذا الكون.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / هل يوجد دليل عملي على وجود الله؟

العلم أعطى الإجابة الكافية وألغى دور الإله..

العلم قدم أجوبة مهمة جدا وكافية جدا لكن عن أسئلة تطرح في دائرة محددة هي دائرة العلم الطبيعي.

ثمة دائرة تقع خلف دائرة العلم الطبيعي، تحتويه ولا تعارضه. العلم لم يقدم أجوبة عنها ولا توضيحا لها. ليس عجزا منه. ولكن لأنها ليست ضمن مجاله.

لا تعارض حقيقة. لكن ثمة أسئلة يضعها بعضهم ويحاولون قَسْر العلم على الرد عليها...

ولكن مجالها في الدائرة الأكبر....

للمزيد: الخلط بين العلم والإيمان / العلموية / إله الفراغات

كان الناس البدائيون يقولون بإله للمطر و إله للكسوف وغيرها من الظواهر غير المفسرة، ثم أصبح دور الإله يقل تدريجيا مع مرور الزمن.

ولكن بقيت فكرة الإله ثابتة ! من الثوابت القليلة جدا في تاريخ البشرية هو وجود إيمان (بقوة عظمى)، تتعدد التعبيرات عن هذه القوة ولكن لا يزول الإيمان بها.

للمزيد: تاريخ الأديان / ليطمئن قلبي

كل الأديان يكشف العلم كذبها ولا تتوافق معه... من يؤمن بالتجارب العلمية والتطور.... إلخ لا يمكنه تصديق أياً من الأديان.

للعلم مجاله، وللدين مجال آخر. هناك نقاط رمادية يمكن أن تُحْدِث تداخلاً بينهما، لكن التداخل غالبا يكون لصالح تقوية وتكامل كل منهما مع الآخر.

الموقف الرسمي للمؤسسات العلمية يقول أن العلم عموما، ونظرية التطور خصوصا، تقف موقف المحايد من مسألة وجود الله (يمكن مراجعة المصادر في الكتاب بنصوصها)

بعبارة أخرى : ليس في نطاق بحثها.

إن كان الله هو السبب الأول ولا يحتاج إلى سبب فما المانع بأن لا يحتاج الكون أيضاً إلى سبب؟!

قانون السبب و المُسَبِّب يخضع له الوجود المادي فقط، لكن خالق هذا الوجود «ليس مادياً»، لذلك فهو غير خاضع لهذا القانون،هو من سَنَّهُ أصلا ، لذا فهو لا ينطبق عليه.

بعبارة أخرى

Terms and conditions are not applicable

للمزيد : الاقتصار على العقل الحسي / الدليل على وجود من أوجد العالم / الله وابريق الشاي الصيني

الدين قائم على غيبيات دون أي دليل..

بالتأكيد ثمة أشياء أساسية في الدين قائمة على غيبيات ! فهو (دين) وليس تجربة علمية في مختبر الكيمياء. ولكن كلمة غيبيات تُعامَل هنا كما لو كانت تعني (خرافات) وهذا ليس صحيحا، الغيبيات هي ما لا يمكن رؤيته بالحواس الخمس، ولكن هذا لا يعني عدم وجوده، الغيبيات هي الجزء الغاطس من الجبل الذي لا نرى منه غير قمته البارزة، وهي أساسية لأنها ترد على أسئلة لا يمكن للعقل المادي المحض أن يجيب عنها، لأنها ليست مجاله.

للمزيد:الاقتصار على العقل الحسي/ الخلط بين العلم والإيمان/ بعد حدود العلم على مشارف المعرفة / مغالطة التعميم المتسرع

الدين مثله مثل أي معتقد تافه، كالإيمان بالأبراج مثلا، ربما هناك حقيقة في هذا الكون وهناك قوة أكبر مننا.. لكنه ليس بالضرورة إله بشخصه كما تصوره الأديان

افتراض أن هذه القوة الأكبر مننا قد فضلت الصمت التام وعدم التواصل معنا بأي شيء، قد يزيد في عبثيته عن الإيمان بالأبراج أو الأرواح الشريرة.

ما هي هذه القوة التي خلقتنا ثم تركتنا تماما في حيص بيص دون أي إرشادات؟ ..الأمر غريب، أكثر غرابة من تدخل النجوم في أقدارنا.

للمزيد : الله وابريق الشاي الصيني / إله الرسالات السماوي

لا أحد يعلم حقيقة بدء الخلق وكل الفرضيات الدينية للبدء، مجرد قصص غير مدعمة بدليل علمي يحترمه العقل.

كلمة دليل علمي هي التي يجب أن نقف عندها .

الدليل العلمي إذا كنا نقصد به الدليل المادي الذي نكتشف فيه وجود مادة معينة في مركب كيميائي، فبالتأكيد لا يوجد (دليل علميٌّ) على ذلك، ولا على نفي ذلك أيضا.

أما إذا كنا نقصد (إشارات) مستقاة من العلم، تحتاج إلى استخدام العقل بمعناه الأوسع (المنطق العام common sense) فهي لن تشير إلا إلى وجود خالق، أما التفاصيل الموجودة في النصوص الدينية فلا يمكن البرهنة عليها، لكنها جزء من الإيمان ككل، اي أن من يؤمن بوجود الخالق، ووجود الوحي، يمكن له أن يؤمن بقصة الخلق كما وردت في النصوص الدينية دون أن يكون في هذا تعارضاً مع ما يؤمن به من علم إذا استعان بالمجاز والرمزية في فهم النص الديني الذي قدم قصة الخلق.

للمزيد: هل يوجد دليل علمي على وجود الله؟

الإنسان ابن بيئته وعقله ينمو بسبب الفعل ورد الفعل بينه وبين ما يحيط به .. ولأن الإنسان يمر بظروف صعبة ويشعر بالضعف أحيانا و لا يستطيع تفسير كل ما حوله .. لهذا خلق فكرة وجود قوى غيبية متحكمة .. أي أنَّ عقل الإنسان هو الذي خلق فكرة الإله.

ولكن من خلق الإنسان؟

سيقولون: الطبيعة الأم.

ومن خلق الطبيعة الأم ؟

كانت دوما موجودة؟

لا. ليس صحيحا..كان لها بداية أثبتها العلم كما قال بها الدين.....

ربما الجواب عن هذا السؤال أولا، يمهد لأجوبة عن أسئلة أخرى.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / الدليلُ على وجود من أوجد العالم

لا أستطيع أن أؤمن بالدين، ما دمتُ ملتزماً بالطرق العلمية!

بالتأكيد، العلم شيء والدين شيء آخر، هذا الخلط لا يخدم أي منهما، الإيمان بالتعريف يتطلب وجود غيب لا تستطيع أن تستدل عليه بدليل، بل تؤمن به كوثبة في فراغ، تقوم بها لأنك مؤمن أنك لن تسقط أرضا...مجال الدين هو منطقة خارج العالم المادي ولا يمكن تطبيق أدلة العلم المادية عليها..

أما العلم التجريبي فمجاله هو العالم المادي ولذلك هو يتطلب وجود أدلة مادية،

لكل مجاله، ولا أحد منهما يتعدى مجال الآخر

للمزيد: الخلط بين العلم والإيمان / هل يوجد دليل علمي على وجود الله

القمر ليس مشطورا من المنتصف بينما يتحدث القرآن عن انشقاقه

انشقاق القمر هو كناية عن قرب الساعة وسيحدث لاحقا مع اقتراب يوم القيامة والفعل الماضي في الآية (اقتربت الساعة وانشق القمر) استخدم كثيرا في القرآن في وصف يوم القيامة للتأكيد على القرب والوقوع.

للمزيد: ادعاء وجود تناقض بين القرآن والعلم الحديث/ الحديث صحيح ولكن...

أنا لا أؤمن بما وراء الطبيعة كأغلب المتقدمين في العلوم والمتحررين من سلطة فكرة وجود إله.

الربط بين العلم (والمتقدمين في العلوم) وبين الموقف من (ما وراء الطبيعة) والإيمان بإله هو كالربط بينهم وبين ذوقهم في الطعام أو ألوانهم المفضلة أو موقفهم السياسي أو آرائهم في الزواج وكرة القدم.

في النهاية كل هذه (تفضيلات) شخصية لا علاقة لها بعلمهم وبتقدمهم العلمي. ..هي خيارات أو آراء في أمر لا علاقة لعلمهم به..هم بارزون في علوم (الطبيعة) ..آراؤهم معتبرة في علوم الطبيعة، من حقهم طبعا أم يكون لهم رأي فيما وراء الطبيعة، لكنه يبقى مجرد رأي منفصل عن مجال تفوقهم.

علم الطبيعة يبحث -بالتعريف- في الطبيعة وظواهرها، أي شيء في ما وراء ذلك لا يدخل ضمن علم الطبيعة وبالتالي فمتخصصو علم الطبيعة يدلون بمجرد آراء.

الأكاديمية الوطنية للعلوم. وهي أعلى هيئة أكاديمية علمية في الولايات المتحدة. تقول أن موقف العلم من مسألة وجود الله هو موقف محايد. لا مع ولا ضد.

ببساطة لأن هذا ليس مجاله.

http://www.nap.edu/read/5787/chapter/6#58

رغم هذا. فقضية أن أغلب العلماء لا يؤمنون بوجود إله غير دقيقة تماما. هناك قرابة ٤٠ ٪ من العلماء في مجالات الفيزياء والرياضيات والأحياء والفلك يؤمنون بوجود إله.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحدسي / هل يوجد دليل علمي على وجود الله/ بعد حدود العلم على مشارف المعرفة / الإيمان بمواجهة الإلحاد في حلبة العلم

لماذا يعطينا الله عقولا ويعطينا شرائع تخالفها ..إن لم أستطيع أنا الاستدلال على الله بعقلي الذي منحه لي فما أهمية عقلي/ المنطق؟ ما أهمية إله غير منطقي؟

ج:الإله الذي لا يدركه العقل ليس إلها غير منطقي. هو فقط أكبر وأوسع من أن يختصر بالعقل.

العقل أداة للتعامل المباشر مع الدنيا. الله وضعه فينا من أجل العمل في الدنيا. لذا فهو لا يمكنه أن «يسبر» كنه الله كما يسبر أغوار العالم المادي. لكن هذا لا يعني أبدا أنه لا يمكن «الاستدلال» عليه بالعقل. فرق كبير بين «الدليل العلمي» -بالمعنى المادي للكلمة وبين «الاستدلال العقلي» الذي يحدث أثناء عملية تحليل المعطيات والوصول إلى استنتاج نهائي...

الاستدلال العقلي بالتأكيد يمكن أن يستخدم في وجود الله، وهو يقود إليه بالفعل. وهذا يختلف تماما عن مسألة الدليل العلمي.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / هل يوجد دليل علمي

لا دليل جيولوجي على وجود فيضان عالمي.

لا نص قرآني يدل على ذلك أيضا، كلمة الأرض استخدمت في النص القرآني عدة مرات دون أن تعني العالم كله، وبالتالي لا شيء في القرآن مما يدل على كون الفيضان عالميا.

للمزيد: ادعاء وجود تناقض بين القرآن والعلم الحديث.

الأديان وجدت من قبل الإنسان لتفسير ظواهر الحياة وتنظيم علاقات البشر بعضهم البعض لأنها تقدم تفسيرا للظواهر بشكل خرافي لا يستند على أي دليل مثبت وبما أن العلم يقدم تفسيرا للظواهر وفق منهجية البحث العلمي والمعلومات المثبتة، وبما أن علاقات البشر ارتقت بارتقاء المستوى الحضاري للمجموعات الاجتماعية، لم يعد هناك داعي للدين.

اختزال الأديان إلى تفسير الظواهر بشكل خرافي ووضعها في خانة مقابل العلم، أمر يعكس تحيزا ومغالطة.

وجود الأديان في الحضارات والمجتمعات وعند الأفراد كان مرتبطا بحاجات كثيرة، أقلها أهميةً هو تفسير الظواهر ...كذلك اختزال الدين إلى وظيفة تنظيمية للعلاقة بين الأفراد في مجتمع ما، يعكس تجاهلا للجوانب الروحية التي ترتبط بعلاقة الإنسان بنفسه وخالقه ورؤيته للعالم ككل...

ثنائية (العلم ضد الدين) ثنائية باطلة أساسا لأنها تقارن بين شيئين مختلفين في الأساس ولا مجال للمقارنة بينهما....

بالضبط كالمقارنة بين القمر وموبايل جديد.

من ناحيته العلم لم يرد على أسئلة وجودية كبرى (ليس لقصور فيه بل لأن هذا الأمر ليس من مهمته) وبقيت الأسئلة الكبرى تجد أجوبتها في الدين.

إلغاء الدين وإحالة الأمر إلى العلم لن يحل الأمر، لأن لا أجوبة بهذا الخصوص عند العلم.

للمزيد: بعد حدود العلم، على مشارف المعرفة / ليطمئن قلبي /القبول ب «لا جواب».

عدم تطابق الأديان والكتب السماوية مع منطق العقل والتفكير العلمي السليم.

من قال أنه يجب أن يكون هناك تطابق بين الدين والتفكير العلمي؟!

يمكننا أن نتحدث عن عدم «تعارض» بينهما في بعض الأمور..

الخلط بين وظيفتي العلم والدين ينتج مغالطات كهذه.

لكل منهما مجاله ولكل منهما أجوبته على أسئلة مختلفة تماما..

العلم لا يرد على الأسئلة الكبرى عن الخلق والخالق، هذا ليس مجاله وليس قصورا منه أن لا يقدم أجوبة عن هذه الأسئلة.

لذلك فإنّ مطالبة الدين بالتطابق مع ما سمي هنا (التفكير العلمي) هي مطالبة غير علمية أصلا، لأنها تمزج بين نطاقين مختلفي الطابع.

الطريف أن الإلحاد بهذه الطريقة وإن تخلص من الدين، إلا أنه لم يجد أجوبة على نفس الأسئلة.

للمزيد: الخلط بين العلم والإيمان

جسم النمل لا يتكون من الزجاج.

عموما لا يؤمن المسلمون بأن جسم النمل مكون من الزجاج ولكن بعض المشتغلين في ما يسمى بالإعجاز العلمي روّج لذلك، لكي يجعل ثمة معنى خاص مختلف في كلمة يحطمنكم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل(١٨) لكن لا يوجد مفسر قال ذلك .

للمزيد: أخطاء الإعجاز العلمي

العلم يفسر كل شيء في الكون دون أن يكون الله جزءا من التفسير العلمي... «مثلا العلم فسر ظاهرة الرياح تفسيرا علمياً و القرآن يقول أنّ الله هو الذي يرسلها».

فلنأخذ مثالا تقريبيا على آلة أو جهاز : سيارة مثلا أو جهاز هاتف نقال.

يمكن معرفة الأسباب الآلية - الميكانيكية التي تفسر كيفية عمل هذا الجهاز. لكن هذه الأسباب مهما كانت دقيقة لن تقول لنا شيئا عن الهدف المحدد لصانع هذا الجهاز، عن هويته، عن الفئة التي استهدفها بالضبط من تصنيع هذا الجهاز أو الآلة. الوصول إلى أجوبة عن هذه الأسئلة يتطلب بحثا خارج «الأسباب الميكانيكية - الآلية المباشرة» ودون تجاوزها تماما.

العلم يفسر الأسباب الميكانيكية الآلية المتعلقة بالظواهر الطبيعية وعلاقة الأسباب المباشرة بالنتائج متتابعة .

الدين لا يلغي هذه الأسباب ولا يغني عنها، بل يتحدث عن نطاق مختلف من الأسباب هي الأسباب الغائية، العللية، الأسباب التي تكون (الغاية) فيما يحدث، وليس الأسباب التي تفسر كيفية حدوثها.

الأمران لا يتناقضان، فالعلم يتحدث عن قوانين وضعها الله.

والدين يتحدث عن الغاية من وضعها.

بعض القوانين يمكن للعلم أن يكتشفها ولا يمكن التقليل من جهود العلماء والعاملين في كشفها وتسخيرها لخدمة الإنسانية.

لكن الأسباب الغائية ليست مجال البحث العلمي، وليس قصورا من العلم أنه لا يمكنه البحث فيها. هذا مضمار الوحي الإلهي، أو الفلسفة.

لا تناقض إطلاقا.

دائرة الأسباب الغائية تحيط بدائرة الأسباب الميكانيكية. لا تلغيها، كما أن التعرف المباشر على الأسباب الميكانيكية لا ينفي الحاجة إلى الأسباب الغائية.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / الدليل على وجود من أوجد العالم / بعد حدود العلم على مشارف المعرفة

تؤمنون بالجن والتلبس بالجن ويقوم شيوخكم بضرب من تقولون أنه تلبس بالجن..

نعم نؤمن بوجود الجن، كمخلوقات موجودة في بعد آخر لا يمكننا التواصل معه أو الوصول له ولا يمكن لنا معرفة شكلها أو إن كان لها شكل أصلا. كما نؤمن بقدرة هذه المخلوقات على الوسوسة في البشر (كما يستطيع البشر أن يبثوا وساوسهم بين بعضهم)، وهذا هو مبلغ تأثيرها على الإنسان.

إيماننا بالجن هو مثل إيماننا بالملائكة، جزء من إيماننا بالغيب.

لكن...

كل ما يحكى عن تلبس الجن في البشر وتسببها بأمراض عضوية وحالات نفسية خرافات لا تستند إلى دليل ديني من قرآن أو حديث. وكذلك ما يفعله هؤلاء الشيوخ مجرد دجل وترويج لخزعبلات باسم الدين.

لا يوجد «حديث واحد» صحيح يسند ما يفعله هؤلاء. كل أدلتهم أحاديث ضعيفة أو موضوعة.

يزعم المؤمنون أنّ من يقول بأن الكون ليس نتاجًا لخلق كائن عاقل، يقتضي عليه القول بأنّ الكون نشأ بالصدفة المحضة .لكن في الواقع، يمكن للكون أن لا يكون قد نشأ «صدفة» ولكنه لم يخلق بشكلٍ خارقٍ للطبيعة، فنظرية الكم أظهرت وجود جزء من العشوائية وعدم التأكد للعالم الصغير، ويمكن لها أن تفسر ظهور العالم من خلال العشوائية من لا شيء.

يتجنب بعض الملحدين استخدام كلمة الصدفة بسبب هذا الانتقاد.لكنها تفلت منهم أحيانا في بعض المواضع، أو أن معناها يتكرر عبر مصطلح آخر.

هنا استخدمت مثلا «العشوائية» ربطا بنظرية الكم، هل يختلف معنى «العشوائية» في هذا السياق عن الصدفة كثيرا؟

مرة أخرى فيما يتعلق بنظرية الكم، مجرد وجود مجال تظهر فيه آثار «فيزياء الكم» يعني أن الأمر لا يبدأ من «لا شيء» أو من «عدم».

لو أن العالم بدأ كله من قانون الكم، سيكون السؤال: من الذي وضع هذا القانون؟ من الذي صنع المجال الذي ظهر فيه تأثيره؟

للمزيد: القبول بـ «لا جواب» / الدليل على وجود من أوجد العالم /المخرج الثاني : العالم نشأ هكذا من لا شيء.. / الكون المضبوط على تردد معين / النجاة من فريق الإعدام

ماذا عن : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» ؟ ألا توحي بأن العلماء أكثر إيماناً ؟ بينما نرى أن أكثر العلماء ملاحدة.

الإشكال هنا أننا نسقط المفهوم المعاصر لكلمة العلم على الاستخدام القرآني للمفردة، وهو استخدام مختلف تماما.. كلمة العلم اليوم باستخدامها المعاصر السائد تخص العلم الطبيعي / علم الطبيعيات والماديات..بينما الاستخدام القرآني كان يخص مفهوما أوسع لا يستثني هؤلاء بالضرورة ولكنه لا يقصره عليهم أيضا.

فلننتبه هنا أن الآية تشير إلى العلماء من العباد، أي أنها تقول أن العلماء المؤمنين هم أكثر خشية من بقية المؤمنين. وهذا قد يعني أن هناك علماء (من غير العباد) وهؤلاء لا يمكن أن تخصهم الآية من قريب أو من بعيد.

كذلك فليس صحيحا بالمطلق أن «أكثر العلماء ملاحدة»، فهناك نسبة تقترب من النصف تؤمن بوجود إله.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / مغالطة النخبة / الإيمان بمواجهة الإلحاد في حلبة العلم

«لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون»

للأسف ستدرك الشمس القمر بعد حوالي ٧.٦ مليار سنة. في مرحلة تحول الشمس إلى «عملاق أحمر» ستتوسع الشمس بسبب انصهار الهيلوم و تغطي مداري كوكب الأرض و القمر.

عندما يحدث ذلك، لن يكون هناك قمر أصلا ...لأن العملاق الأحمر سيدمر كل شيء.

لذا فالآية صحيحة علميا..

للمزيد: ادعاء وجود تناقضات بين القرآن والعلم الحديث

دينكم فيه خرافات مثل الحسد وهو يجعلكم متخلفين متأخرين عن بقية الأمم..

لا شك أن نسبة كبيرة من المسلمين تتعامل مع الحسد على نحو مبالغ به جدا وسلبي جدا. والربط بين هذا وبين تخلف المسلمين أمر منطقي جدا.

الحسد هو شعور قلبي حيث يتمنى الحاسد زوال النعمة عن المحسود، أما العين فهي: نظر مشوب بحسد ينتج عنه ضرر للمحسود.

ذكر القرآن الحسد صراحة في أربعة مواضع:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾

٢. ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

٣. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

وكلها تفيد أن الحسد شعور قلبي فقط دون أي إشارة لوجود أثر مادي لهذا الشعور.

٤. أما في سورة الفلق، فذكر الاستغاثة من ﴿شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، وتشير الاستغاثة إلى وقوع ضرر، وإلا لم نستغيث منه؟

تشير الآية إلى الاستعاذة من شخص الحاسد وليس فعل الحسد. فقالت (شر حاسد إذا حسد)، ولم تقل (شر الحسد)، وبذلك فالمضر هو الشخص الحاسد: إذ معلوم أن الحاسد كاره للمحسود، فيتلمس الحيل والخدع ليضره. فشر الحاسد في تدبيره المادي ضد المحسود. وليس مجرد شعور الحسد.

يقول القرطبي: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه، ويطلب عثراته. وهو ما اتفق عليه ابن عطية، والزمخشري، وابن عاشور، والمراغي.

ماذا عن الأحاديث التي تفيد أن العين حق، والعين تُدخل الرجل القبر والجمل القدر، وأنّ أكثر هلاك أمتي في العين. وكلها أحاديث آحاد وقد عبّر النبي عن الغبطة بلفظ الحسد في قوله «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسُلط على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها» فلا مانع أن يكون قد عبّر عن الحسد بلفظ العين، باعتبار العين أداة الحسد.

هل يعني هذا أن «لا عين»؟

ليس بالضرورة. سيبقى هناك هامش من الأحداث علينا أن نتواضع ونقر بعدم إمكانية فهمنا لها تماما. وتتقي هذا الهامش بالمزيد من الارتباط بذكر الله عز وجل عبر المعوذتين (كمثال) دون أن يعني هذا الهوس الموجود في تعامل الناس مع هذا المفهوم.

حجم «ذكر الحسد» سواء في القرآن أو السنة يشير إلى أن تعامل المسلمين مع مفهومه فيه خلل كبير. فنسبة ذكر الحسد (بالمعنى الذي يفهمه الناس حاليا) ضئيلة للغاية في القرآن وفي السنة...بينما نجد اليوم الكثيرين يستعملون الحسد تبريرا وتفسيرا للكثير من المشاكل التي يمرون بها لكي يتجنبوا مواجهة الأسباب الحقيقية لها. فالفتى الذي انحرف وأدمن «محسود» في نظر أهله. لأن تفسير الحسد لن يجعلهم يواجهون حقيقة أنهم أساؤوا تربيته...

للمزيد :مقال الأستاذ خالد باظة : خرافة السحر والحسد متوفر على الشبكة.

لا مضار للحم الخنزير أكثر من بقية اللحوم.

لم يقل النص الديني أن التحريم هو بسبب المضار الصحية .

للمزيد: الخلط بين العلم والدين / أخطاء الإعجاز العلمي

دينكم يؤمن بالسحر والدجل وحتى لو نهى عن ذلك فهو يكرس عقلية تؤمن بذلك.

لا يوجد في نصوص القرآن حقا ما يشير إلى وجود تأثير حقيقي للسحر، فالنصوص التي أشير فيها إلى السحر كانت تتحدث عن ادعاءات ومعتقدات الناس ولكن لا شيء في القرآن يؤيدها...

مثلا: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة(١٠٢)

كل السياق هو في الحديث عن ترك اليهود لكتاب الله ونبذهم له وراء ظهورهم، واتباع كتب السحر بدلا عنه، وعلاقة اليهود بالسحر معروفة تاريخيا، ولا تزال بعض طوائف اليهود تمارس السحر وتتبناه (مثل طائفة الكابالا) رغم أن التيار اليهودي الرئيسي الحالي لا يفعل ذلك.

لا شيء يدل في الآية على تأثير السحر، والتفريق بين المرء وزوجه يمكن أن يكون بوسائل عديدة لها تأثير نفسي على أي منهما، بل إنّ الآية تنفي حدوث أي ضرر عبر السحر، إلا بإذن الله.

ماذا عن الملكين اللذين أنزل عليهما السحر؟!

فكرة السحر تتضمن امتحانا للإنسان. فكرة أن تقوم بحيل أو أعمال معينة لكي تتخطى الجهود الطبيعية التي يجب أن تبذل، فكرة مغرية جدا، وهي مغرية أكثر لمن لديه دوافع للإضرار بأشخاص معينين وبطريقة غير علنية.

هذا الإغراء هو امتحان، وقد جاء عبر «ملكين» - لا نعرف شكلهما ولا هيئتهما كما لا نعرف شكل أي ملاك- لكن كيف ينزل الله فكرة السحر وحيلها عبر ملائكة؟! الملكان يعلمان «طرق السحر» ويقولان للناس: إنها فتنة وكفر. لا تستعملها. ولا تقربها.

ألا ينطبق الأمر هنا على أي شيء يمكن أن يخدم الشر كما الخير؟ أليست المعرفة كلها يمكن أن تخدم الشر كما الخير؟

الفرق أن السحر هنا، باعتباره مجرد «حيل بصرية» لا يستخدم إلا للشر.

ماذا عن ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ الفلق(٤) التي فسرها كثيرون بأنها تعني «الساحرات»؟

التعوذ هنا من «شر النفاثات» وليس من شر «النفث». أي أن الشر هنا من الشخص الذي يضمر الشر والأذى (وقد يخطط له عبر أشياء كثيرة).

لكن ألم يذكر القرآن عن سحر سحرة فرعون بأنه سحر عظيم؟

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ الاعراف (١١٦)

قال «سحروا أعين الناس» أي أن الأمر كان خداعا بصريا لا أكثر ولم يمس الطبيعة المادية لأي شيء.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ طه(٦٦)

«يخيل إليه» وهذا يؤكد أن فعل السحر كان مجرد خداع بصري وإيحاء نفسي ليس أكثر.

للمزيد: مقال الأستاذ خالد باظة : خرافة السحر والحسد، متوفر على الشبكة.

ما دمت اعتبرت الإيمان «قفزة نحو المجهول» فهو إذن قفزة غير علمية... و اعتبرت نسبة الإلحاد عند العلماء الطبيعيين مجرد خيار شخصي إذن الدين خيار شخصي غير موضوعي أيضا، يعني مهاجمتك للإلحاد لأنك تفضل الإيمان كما قد تفضل عصير الفراولة عن الموز

ج: هناك فرق كبير بين قفزة خارج ميدان العلم، وقفزة غير علمية... العلم لا يمكن له أن يبحث في الإلهيات، في شيء غير مادي، لذا فهو الذي ينسحب عنا هنا (ليس لقصور فيه، بل لعدم التخصص) .. القفزة إلى هذا الموضوع لا يمكنها أن تستند إلى العلم، لكن الوصول إلى هذه المرحلة، التي تتطلب القفز، يكون العلم فيها مهما جدا.

هناك حدود ينتهي عندها العلم، ويجب أن تكون هناك وثبة بوسائل أخرى غير العلم.

خيار الإلحاد عند العلماء هو خيار شخصي بالتأكيد، لكن ليس لأن الإيمان غير موضوعي، بل لأن «تميز» هؤلاء لا يمنحهم تميزا في مواضيع لا تخص العلم الطبيعي المادي.

أيّ خيار يتخذه شخص هو خيار شخصي في نهاية الأمر ما دام يتعلق برؤيته لموضوع ما، لكن هذا لا ينفي موضوعية «القضية» المطروحة ما دامت تمس قضايا وجودية لا يمكن تجاهلها.

ليس الكلام هنا عن كون خيار العلماء شخصيا أو موضوعيا، بل عن كون «الخيار» الشخصي لا يملك أهمية العالم وشهرته ومكانته العلمية، بينما في الأمور التي تتعلق بالعلم فإنّ رأيه لا يكون شخصيا بل موضوعيا إلى حد بعيد.

هل الدين خيار شخصي غير موضوعي؟

الخيار الموضوعي يتعلق بالعالم الخارجي، العالم خارج الذات.

أما الخيار الشخصي فهو يتعلق برؤيتك الداخلية لهذا العالم وتفسيرك له.

بالتأكيد الدين خيار شخصي وفردي بهذا المعنى، ونصوص الدين تؤكد ذلك ولا تجده معيبا، هو خيار فردي مثل امتحان يمر به كل شخص، لكن هذا لا يعني أبدا أنه لا يتعلق بالعالم الخارجي، بالعالم الموضوعي.

الخيار الشخصي لا يشترط أن يتعارض مع الموضوعية. الكثير من خياراتنا الحياتية هي خيارات شخصية في نهاية الأمر، لكن هذا لا ينفي عنها صفة الموضوعية بأي شكل من الأشكال.

لو كانت الأمور «موضوعية» تماما وبوضوح- على نحو يمكن لحاسوب أن يراه - دون جهد شخصي في الأمر، لما كان هناك مغزى في الامتحان.

للمزيد: الخلط بين العلم والإيمان/ مغالطة المصطلحات الرنانة/ هل يوجد دليل علمي على وجود الله؟ / بعد حدود العلم على مشارف العلم

قصة سفينة نوح خيالية

عدم وجود أثر تاريخي مؤكد لسفينة نوح لا يعني أنها خيالية، ذلك أن العصر الذي حدثت به يعتبر سحيقا ومن المستبعد صمود سفينة خشبية منذ ذاك الوقت. وليس هناك في تفاصيل القصة ما يجعلها خرافية.

لكن إن كان المقصود أن الطوفان عم الأرض كلها فعلا هذا مما لا دليل عليه حتى في القرآن، وأغلبه جاء من الإسرائيليات.

للمزيد: ادعاء وجود تناقض بين القرآن والعلم الحديث

الملحدون أكثر تعلماً من المؤمنين!

غير صحيح.

في إحصائية عالمية أجرتها مؤسسة Pew Center عام ٢٠١٦ كانت النتائج كالتالي:

الأكثر تعلما هم اليهود (١٣,٤ سنة تعليم) يليهم المسيحيون (٩,٣ سنوات) يليهم اللادينيون- أي الملحدون واللا أدريون أو الذين عرّفوا عن أنفسهم بأنهم بلا دين محدد- (٨,٨ سنوات) يليهم في المركز الرابع البوذيون (٧,٩ سنوات) ثم يأتي المسلمون والهندوس (٥,٦ سنوات).

في الفئة العمرية الأصغر من الإحصاء (٢٥ - ٣٤) حافظ اليهود على كونهم الأكثر في سنوات التعليم (١٣,٨ سنة) يليهم اللادينيون (١٠,٣ سنة)، المسيحيون (٩,٩ سنة)، البوذيون (٩,٧ سنة)، الهندوس (٧,١ سنة)، المسلمون (٦,٧ سنة).

٦١ ٪ من اليهود كانوا بشهادة جامعية أو ما بعدها.

٢٠ ٪ من المسيحيين، ١٦ ٪ من اللادينيين، ١٢٪ من البوذيين، ١٠٪ من الهندوس، ٨ ٪ من المسلمين كانوا بشهادة جامعية أو ما بعدها.

Religion-Education-ONLINE-FINAL.pdf

http://assets.pewresearch.org/wp-content/uploads/sites/11/2016/12/21094148/Religion-Education-ONLINE-FINAL.pdf

للمزيد: مغالطة سمكة الرنجة الحمراء / التعميم المتسرع

أنتم أيها المؤمنون تقولون أنه لا بد من أول لا يوجد قبله أحد، لماذا فرضتم أنه الله، لماذا لا تكون ال singularity هي الأول الذي لا يوجد قبله أحد؟

التفرد الجذبوي أو Gravitational Singularity هي حالة شديدة الكثافة يندمج فيها الزمان والمكان، وتندمج فيها أيضا قوانين الفيزياء.

يعرف أيضا بأنه موقع في الزمكان يصبح فيه مجال جاذبية الأجرام الفلكية لانهائياً بطريقة لا تعتمد على نظام الإحداثيات. والمقصود هو وزن لا نهائي لحجم معين في ظروف هذا الموقع، عندما يكون الضغط على الذرات من جميع الجهات في جسم معين داخل ثقب أسود مثلا، لا نهائي يؤدي إلى تفتت الذرات وانطوائها على نفسها مختزلة المسافات الشاسعة بين سطح الذرة وأنويتها وبالتالي تكسير لنوى الذرات وتحطمها مع مكوناتها الذرية (الكواركات)، تحت ضغط هائل لا نهائي في قلب ثقب أسود.

القول بأن التفرد الجذبوي هو الأول الذي لا قبل له، هو مشابه للقول بأن حديد السيارة هو الذي صنعها. أو بذرة القطن هي المسؤولة عن القميص القطني.

التفرد حالة أولى للكون قبل الإنفجار الكبير، اعتبارها السبب الأول لن يحل الكثير، هذه «مادة، زمان، مكان» في حالة شديدة الكثافة، السؤال سيبقى : من صنعها؟ من وضعها؟

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي/ الدليل على وجود من أوجد العالم

الإيمان بوجود الشياطين والملائكة والجن الذين لا يوجد دليل علمي على وجودهم

ليس من مهمة العلم البحث في أي شيء خارج الطبيعة المادية للعالم، لذلك فطلب دليل علمي على وجود الملائكة يشبه الذهاب إلى البقالة لصرف دواء طبي.

للمزيد: الخلط بين العلم والإيمان/ هل يوجد دليل علمي على وجود الله؟ / بعد حدود العلم على مشارف المعرفة

الفيزياء اليوم مُمثلة بأكبر علمائها بيَّنت أن الصدفة كانت كفيلة بوجود هذا الكون فإن سألتم كيف يمكن هذا؟ قلنا لكم بوجود أكوان لا نهائية برز منها كون واحد منظم أو أكثر والغالبية الساحقة عشوائية....

لا يوجد أي دليل علمي على وجود أكوان متعددة، هي مجرد فرضية لم ترق لأن تكون «نظرية علمية صلبة» وهي لا تنهي السبب الأول ولا حتى دليل «التنظيم الدقيق للكون»... . موضوع الأكوان المتعددة هذا يبدو كفرضية أقل احتمالا بكثير من وجود خالق يفسر الأمر، لو أردنا أن نأخذ الأمر بالاحتمالات.

كما أن الفيزياء بأكبر علمائها لم تؤيد الفرضية، هناك مجموعة علماء يؤيدونها بالتأكيد، لكنها لا تزال دون مرحلة النظرية.

للمزيد : مغالطة النخبة / مغالطة التعميم المتسرع / القبول ب لا جواب/ فرضية الأكوان المتعددة / النجاة من فريق الإعدام

أيهما أولى أن يجاب عليه :

لماذا يؤمن الانسان ؟

أم لماذا يلحد الإنسان ؟

فلنغير السؤال قليلا، ثم نعود له...

دخلت بيتك بعد يوم عمل طويل فوجدت الطعام جاهزا مُعَداً على المائدة، وكل شيء في البيت مرتبا نظيفا على غير ما تركته صباحا.

أيهما الأولى باستنتاجك:

أن تستنتج أن أحدهم دخل وأعد هذا كله..

أم أن تجلس على المائدة لتأكل الطعام دون أن تفكر بمن أعده..» لا أحد» فعل هذا...أو أنه «حدث هكذا».

الذين آمنوا، عرفوا من الذي «فعل كل هذا الكون».

الذين ألحدوا، اختاروا الخيار الثاني.

* * *

مع الإلحاد لا جواب، كل شيء يرجع إلى الطبيعة وإلى التطور لكن لا جواب عن الذي بدأ أول شيء...أول أول شيء. لا جواب عمن أسقط قطعة الدومينو الأولى.

لا يقنعك جواب المؤمنين؟

لكن هل «اللا جواب» مقنع أكثر؟

حظا طيبا...

للمزيد: الدليل على وجود من أوجد العالم

قصة خلق حواء من ضلع أدم

لم يقل القرآن هذا بل جاء في حديث آحاد أنها خلقت من ضلع أعوج ، وقيل أن معنى ذلك عند العرب المعارضة الدائمة للزوج على غرار خلق الإنسان من عجل.

للمزيد: التفكير الحر في الكونكريتي/ الحديث صحيح ولكن /

أثبت العلم التجريبي مخبرياً إمكانية ظهور الأشياء من العدم (على المستوى الكوانتي الكمومي) وهذا يبطل الاستدلال بالسببية دليلا على وجود الله...

١. العدم في النظرية الكمومية مختلف تماما عن العدم بمعنى اللاشيء، علما أن العدم لم يستخدم على هذا النحو في النظرية الكمومية. مفردة «اللاشيء» التي تستخدم عادة في النظرية الكمومية هي (أقل حالة ممكنة من الطاقة)، وليس التعبير المستخدم في حياتنا اليومية أي ليس الحالة الصفرية التي لا يكون فيها طاقة إطلاقا كما قد يفهم من الأمر.

٢. إضافة إلى هذا، فإنّ مجرد وجود «قانون» ينظم أمراً ما يعني أنه ليس فراغا، بل ثمة «مجال فيزيائي» تظهر فيه آثار هذا القانون.

٣. على العكس تماما من هذا الفهم للكمومية، فإنّ قانون الكمومية يمكن أن يكون فهما لكيفية الخلق. يمكنه أن يكون نافذة على واحدة من السنن التي وضعها عز وجل لخلق الكون.

للمزيد: القبول بلا جواب/ الدليل على من أوجد العالم / العالم المنظم يدل على ناظم

الزمن - الغبار الكوني - النجوم - الشمس - الكواكب - المجرات - الأكوان

كلها احتاجت لملايين السنين لتكون في الوجود...لكن في القرآن الأمر استغرق ستة أيام فقط.

في القرآن الكريم إشارات متعددة إلى نسبية الزمن، فاليوم عند الله (أثناء القيامة) قد يكون خمسين ألف سنة من حساباتنا الأرضية، وكذلك اليوم مختلف في زحل والزهرة الخ.

هكذا يمكن فهم أن أيام السنة تعبر عن مراحل في الخلق الكوني استغرقت مدة طويلة دون تحديد.

علما أن العرب كانت تعتبر الرقم ٧ يمثل الرقم الأقصى بحسابات العمر، فيدعون سبع الله عمرك، أي أطاله، وبهذا يكون معنى الأيام الستة هو شيء كاد أن يقارب اللانهاية بالمقاييس البشرية، ولكنه يقل عنها.

للمزيد: التفكير الحرفي/ الكونكريتي، ادعاء وجود تناقضات بين القرآن والعلم الحديث

نحن نعرف أسباب نزول المطر، كيف تقومون بصلاة الاستسقاء وتقولون أنها سبب في إنزال المطر، والكل يعرف أن العلم قادر على تحديد كمية الأمطار ومواعيد نزولها .

تحديد الأمطار وأوقات نزولها يكون صحيحا لمواعيد قريبة فحسب، التوقعات تقل دقتها بالتدريج كلما غطت فترات أبعد من ٤٨ ساعة وتقل الدقة بشكل كبير بعد ١٠ أيام.

وجود هامش من الخطأ وحدوث ما هو غير متوقع يتيح بالتأكيد وضع صلاة الاستسقاء ضمن هذه المعطيات، هناك سنن طبيعية وضعها عز وجل، وهناك أيضا سنن غير مرئية وغير مكتشفة بعد، تتيح لنا أن نقول أن ثمة تدخلا إلهيا عبر سنن أخرى غير مفهومة، فلنقل أنها تؤثر في هامش (غير المتوقع)، وصلاة الاستسقاء تعمل على هذا.

هذا عدا أن الصلاة عموما (سواء صلاة استسقاء أو غير ذلك) تقرب الإنسان من خالقه وتضعه بحجمه الطبيعي بمواجهة ضعفه، وهذا له أثر إيجابي قد لا يقل أهمية عن نزول المطر.

للمزيد: أسئلة القدر المزمنة

ثبت عبر الدراسات العلمية أن الملحدين يتمتعون بنسبة ذكاء أعلى من المتدينين

توجد بعض الدراسات التي تشير إلى ذلك بالفعل، ولكن هناك عدة مشاكل في هذه الدراسات ونتائجها، أهمها: ما هو تعريف الذكاء أصلا، وكيف يمكن فصله عن مجموعة عوامل اجتماعية وثقافية؟ وما هو معيار التدين الذي يجب أن يربط أو لا يربط بالذكاء.

لا يوجد تعريف واحد معتمد للذكاء من قبل التيار الرئيسي في علم النفس، لكنه عادة يعبر عن قابلية شخص ما على استخدام المنطق، التخطيط، التفكير التجريدي، حل المشاكل، فهم الأفكار، استخدام اللغة و القدرة على التعلم، وبعض التعريفات توسع هذا المعنى ليشمل الإبداع، الشخصية، المعرفة والحكمة.

هل اختبار معدل الذكاء يعبر عن هذا فعلا؟ هناك جدل أكاديمي كبير عن هذا، حيث أن هناك دراسات تشير إلى أن درجة التحفيز على إحراز علامة عالية في هذا الاختبار تؤثر بشكل كبير على نتائج الاختبار (بمقدار عشرة علامات إضافية عند وجود تحفيز مادي) ، وعندما كانت نتيجة بعض الدراسات تشير إلى وجود «تفوق جيني» للبيض على ذوي الأصول الأفريقية والإسبانية مما يجعل درجة ذكاء البيض أعلى، فإن دراسات أخرى تحدتها بأن هذه الفروق تتلاشى عند التحكم بالظروف المادية والاجتماعية.

https://www.sciencemag.org/news/2011/04/what-does-iq-really-measure

التحليل الجمعي meta analysis الذي قام به زكرمان Zuckerman عام ٢٠١٣ لـ ٦٣ دراسة عن علاقة معدل الذكاء والتدين، توصلت إلى وجود علاقة سلبية بين معدل الذكاء و الإيمان، وأن العلاقة كانت أقوى مع المعتقد الديني عنها مع السلوك الديني، هذه العلاقة السلبية كانت أوضح في طلبة الجامعات والجمهور العام منها في المشاركين الأصغر سنا. كل هذه الدراسات كانت تعبر عن المجتمع الغربي حصرا (قرابة ٩٠٪ منها في الولايات المتحدة كندا والمملكة المتحدة) .

تفسير الأمر حسب هذه الدراسة كان يشير إلى واحدة من الاحتمالات الثلاثة: الأول: الأشخاص الأذكياء أقل ميلا للطاعة، وهذا يجعل خضوعهم للعقيدة الدينية أصعب، الثاني: أن الأشخاص الأكثر ذكاء يتمتعون بتفكير تحليلي وهذا التفكير عادة لا ينسجم مع الفكر الديني، بينما يمتلك الأكثر تدينا تفكيرا حدسياً أكثر، الثالث: هو أن التدين يمنح الشخص تعويضا وتنظيما ذاتيا ومساعدة للنفس، وهي احتياجات يمنحها الذكاء أيضا، لذلك تكون الحاجة للتدين أقل عندهم.

http://diyhpl.us/~nmz787/pdf/The_Relation_Between_Intelligence_and_Religiosity__A_Meta-Analysis_and_Some_Proposed_Explanations.pdf

لكن مزيدا من التحليل لنفس هذه الدراسة بعد مرور ٣ سنوات وجد أن هذه المعطيات التي تربط الذكاء بعدم التدين تتغير مع مرور الوقت، أي أن نفس الأشخاص قد يتغير موقفهم من التدين دون أن يتغير معدل ذكائهم، كذلك يتغير الأمر مع تغير «العينات» التي تتم الدراسة عليها، وعندما يتم التعامل مع معطيات «ثابتة» controlled فإن العلاقة بين معدل الذكاء وعدم الإيمان بالله تقل كثيرا.

Webster, Gregory D., and Ryan D. Duffy. «Losing faith in the intelligence-religiosity link: New evidence for a decline effect, spatial dependence, and mediation by education and life quality.» Intelligence 55 (2016): 15-27.

كذلك قدمت دراسة شهيرة بمقارنة معدلات الذكاء في ١٣٧ دولة بالإيمان بالله

Lynn, Richard; John Harvey; Helmuth Nyborg (2009). «Average intelligence predicts atheism rates across 137 nations». Intelligence. 37: 11-15. doi:10.1016/j.intell.2008.03.004. Retrieved 2015-05-25

وانتُقِدَت هذه الدراسة لأنها تتجاوز بوضوح الفروقات الاجتماعية والمادية والتعليمية بين هذه الدول.

كما قدمت دراسة أكثر تفصيلا العلاقة بين معدل الذكاء وطبيعة التدين، فوجدت أن معدل الذكاء الأقل يرتبط بالأصولية وبدرجة أقل بممارسة التدين . ولكن ليس بالروحانيات التي لم تتأثر بقلة الذكاء . كذلك لم تتغير هذه النتائج بعد إبقاء بعض العوامل ثابتة لكن العلاقة بين « معدل الذكاء» و« قلة التدين» كانت ضئيلة.

The relationship between intelligence and multiple domains of religious belief: Evidence from a large adult US sample - ScienceDirect

https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0160289611000912?via%3Dihub

في نفس الوقت فإن هناك دراسات أخرى تربط بقوة بين معدلات «الذكاء العاطفي» (وهو مفهوم أوسع للذكاء) و« مستوى الالتزام الديني» مع الإقرار بأن المفهوم نفسه ربما لا يكون واضحا تماما.

Religiosity and perceived emotional intelligence among Christians - ScienceDirect

https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0191886906000961?via%3Dihub

هذا كله – بكل تفاصيله – يؤكد أنه من السطحية والسذاجة ربط ارتفاع الذكاء بالإلحاد وانخفاضه بالإيمان.

الأمر أعقد من هذا التبسيط بكثير.

* * *

لكن ربما من المهم الانتباه هنا إلى أن اختبارات معدل الذكاء هذه تركز أكثر على مهارات التحليل منها على التفكير الحدسي، أي أن العقل الحسي التجريبي يزن أكثر في مقياس اختبار الذكاء، على حساب جزء آخر من العقل وهو الحدسي، وثمة أشياء غيبية في الإيمان تميل أكثر إلى العقل الحدسي، وهذا قد يفسر وجود نوع من التباعد بين معدل الذكاء والإيمان في بعض الدراسات.

Why a high IQ doesn't mean you're smart | Yale School of Management

https://som.yale.edu/news/2009/11/why-high-iq-doesnt-mean-youre-smart

للمزيد: مغالطة سمكة الرنجة الحمراء/ الاقتصار على العقل الحسي / الإيمان ضد الإلحاد في ملعب العلم

الله هو إله الفراغات، نشأ وآمن به الناس لأنه كان يسد فراغات في معرفتهم...كيف ينزل المطر؟ كيف ينمو الزرع؟ كانت فكرة الإله منطقية عندما كان يسد فراغات في المعرفة،.. عندما يصل العلم الى تفسير كل شيء، هل سيبقى لوجود نظرية الإله أي داعي ؟

الله ليس إله الفراغات، بل هو إله «الصورة الكبيرة».

العلم قد يسد فراغات المعرفة في العالم المادي، لكنه لن يقدم الكثير بما وراء ذلك، وليس عنده الكثير ليقدمه أيضا في الأجوبة عن فراغات في أسئلة من نوع: لماذا جئنا؟ ومن أين؟ لأن العلم لن يفسر ما قبل الوجود، ولن يفسر غاية الوجود. ثمة أمور تفصيلية يستطيع العلم أن يسبر أغوارها كما لا يستطيع شيء آخر، لكن ثمة أسئلة لن يجيب العلم عنها ليس لقصور فيه، بل لأنها ليست من ضمن نطاق بحثه.

للمزيد: بعد حدود العلم على مشارف المعرفة / ليطمئن قلبي / متلازمة داوكنز

ليس كل حدث له مسبب، مثل الظواهر الكمومية، القفزات الكمومية، العبور الإلكتروني الذري والتحلل النووي، كلها تحدث من غير مسبب، وهذا يعني أن الكمومية قد هدمت مبدأكم الأساسي في إثبات وجود الله: السببية

نظرية الكوانتم - الكمومية لم تهدم مبدأ السببية (والتي هي بديهة عقلية وليست مجرد قانون فيزيائي) ولكنها هدمت الحتمية وربما كان الخلط بين الحتمية والسببية هو الذي قاد إلى تصور الكثيرين أن نظرية الكوانتم قد هدمت السببية . والحتمية كما يعرفها ماكس بورن تفترض أن الاحداث ذات الأزمنة المختلفة مرتبطة بقوانين بطريقة تجعل التنبؤ بالمواقف المجهولة سواء من الماضي أو المستقبل ممكنا، فكل شيء «حتمي» على نحو يمكن التنبوء به للمستقبل أو معرفته للماضي. ولا يوجد أي احتمال لحدث آخر.

أما السببية فهي علاقة بين سبب ونتيجة يحكمها القانون. فالسببية مرهونة بوجود قانون يحكم الشيء وليس لها علاقة بطبيعة هذا القانون أو الشكل الذي يكون عليه. ولذا يمكننا أن نطلق عليها القانونية. فكل شيء يخضع لقانون وتحكمه حدود معينة فهو يخضع للسببية حتى وإن كنا لا نعلم السبب، إذن عدم العلم بالشيء لا يعني عدم وجوده ، السببية تسلم بأن هناك قوانين يمكن بواسطتها حدوث كيان ب من فئة معينة بالاعتماد على كيان أ من فئة أخرى .. حيث تعني كلمة كيان أي جسم مادي أو ظاهرة أو موقف أو حدث .. أ تسمى السبب و ب تسمى التأثير «النتيجة».

فعالم الكم الذي يظن البعض أنه عالم مخترق تحكمه العشوائية، هو عالم محكوم منضبط بضوابط ومحكوم بقوانين يستحيل عليه مخالفتها، وهذا ما أكده العالم روجر بنروز الرياضياتي الشهير واصفا العالم الكمومي قائلا: «مما يقوله الناس عن ميكانيكا الكم أنها غامضة وغير محددة ولا يمكن التنبؤ بها، لكن ذلك ليس صحيحا، ومادام الأمر متعلقا بالمستوى الكمي، نقول إن ميكانيكا الكم محددة ودقيقة .... وتتضمن ميكانيكا الكم - في صورتها الأكثر شيوعا - استخدام معادلة تسمى معادلة شرودنجر التي تحكم سلوك الحالة الفيزيائية لمنظومة كمية - تسمى حالتها الكمية - وهذه معادلة محددة»

بقي أن نذكر مرة أخرى أن «المجال» الذي تحدث فيه نظرية الكوانتم هو ليس «عدما» طالما كان مجالا يمكن لقانون فيزيائي أن يحدث فيه أثره.

للمزيد :الدليل على من أوجد العالم / العالم المنظم يدل على ناظم

تقولون أننا مخلوقون وقد أثبت العلم حقيقة التطور البيولوجي فنحن لسنا مخلوقين

نظرية التطور لا علاقة لها بهذا على الإطلاق، هي تفسر نشوء الإنسان ولا علاقة لها بمن كان وراء الخلية الحيّة الأولى التي تطورت منها -بحسب النظرية - كل الكائنات.

عمليا : نظرية التطور محايدة في موضوع وجود الخالق أو عدم وجوده. وهذا لا يخص نظرية التطور وحدها، بل (العلم الحديث) عموما، العلم الحديث لا يدرس ظواهر ما وراء الطبيعة لأنها ليست مجاله أصلا ، لذا فهو لا يثبت ولا ينفي.

صحيح أن نظرية التطور قد تخالف الفهم المباشر لقصة الخلق كما وردت في الكتب السماوية، لكن هذا لا يجعلها (تنفي الخالق) على الإطلاق، و(لا تثبته) أيضا.

للمزيد: نظرية التطور هل تؤدي حتما إلى الإلحاد؟ / ملف نظرية التطور

يضطر الباحث المسلم باستمرار إلى إعادة شرح النصوص لكي تتماشى مع الفهم المعاصر،مثال على ذلك قصة آدم وزوجه، النص لا يخبرنا أبدا إن كانا قد خلقا على نحو كامل أم أنهما كانا يشبهان الإنسان البدائي الذي سبق الهوموسابيانز، كما لا نعرف إن كانا «يتكلمان» بلغة وعلّما أولادهما كذلك، كذلك من الواضح أن النص القرآني لا ينجح في «التنبؤ» بشيء، ويعد هذا علامة من علامات النظريات الضعيفة.

في البداية: القابلية على التنبؤ فعلا من صفات النظريات العلمية. لكن القرآن ليس نظرية علمية ولا يشترط فيه أن يحقق مواصفاتها.

نفس هذا الخلط بين العلم والدين ينعكس في المثال الوارد أعلاه عن آدم وزوجه، لماذا يفترض السائل أن على النص القرآني أن يقدم موجزا تشريحيا عن آدم وحواء؟ القصة تقدم دون تفاصيل لأن ثمة «جوهر»

النظرة التقليدية للنص الديني تتعامل معه على نحو حرفي جدا، تتوقع منه أن لا يكون ثمة مجاز أو رمز في المعاني، بل على كل شيء أن يكون قد حدث في الواقع كما كل حرف في كل آية.

فلننتبه هنا إلى أمرين

الأول النص الديني لم يأت ليقدم معلومات علمية سابقة على العصر الذي شهد نزول النص، هذه ليست وظيفة النص الديني وإن كان من المهم أن لا يكون هناك تناقض بينه وبين الحقائق العلمية.

الثاني أن النص الديني عندما يستخدم لغة تحتمل التأويل والمجاز والرمزية، يمكن له أن يقدم دوما فهما متفاعلا مع الواقع ومستجداته.

إعادة الفهم، أو تجديده، ليست مشكلة أبدا وليست عيبا . على الإطلاق، معجزة لغة القرآن أنها قادرة دوما على رفد المعاني الجديدة، دون أن يكون هناك تناقض يضرب بعضه بعضا..

للمزيد : الخلط بين العلم والإيمان / التفكير الحرفي / الجذر اللغوي وموشور المعاني / آدم بين نظرية التطور وقصة الخلق

كسوف الشمس أو خسوف القمر ظاهرة طبيعية معروفة الموعد وهي ظاهرة رائعة وعظيمة، لماذا يجعلها المسلمون مدعاة للعظة والخوف ودلالة على كثرة الذنوب والمعاصي والعقاب .

الظواهر معروفة الموعد لا تنفي عظمة الخالق الذي رتب الأمور وفصّلها بحيث تكون بهذا الموعد.كما أن نص الحديث النبوي الذي أشار إلى الظاهرة لم يتحدث عن ذنوب ومعاصي بل فقط إلى (الخوف) منه عز وجل.ومما لا شك فيه أن مشاهدة ظاهرة طبيعية غير متكررة يوميا يجعلنا أقرب إلى معرفة قدرة الله، وبالتالي اتقائه حق تقاته.

للمزيد: التفكير الحرفي/ الكونكريتي

في القرآن في سورة الجن عند الحديث عن الشهب نعرف أن الشهب تأتي على إثر الشياطين التي تحاول استراق السمع ..والآن في العلم الحديث نعرف موعد تساقط الشهب وتفسير الشهب علمياً يرتبط بتفتت الكويكبات والمذنبات ...أليس هذا تناقض بين القرآن والعلم؟

لا يبحث العلم الحديث في أمر الجن أو في تعريف الجن أصلا. ولا يبحث في أي شيء خارج نطاق المادة... وبالتالي فمعرفة موعد الشهب علميا لا علاقة له بموضوع الجن...الموضوعان ينتميان لنطاقين مختلفين تماما.

للمزيد: بعد حدود العلم على مشارف المعرفة

عظام جنين الإنسان لا تتشكل قبل العضلات .

يعتقد البعض أن العظام تتشكل قبل العضلات اعتمادا على آية ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون (١٤) لكن من الواضح أن الآية تتحدث عن الإكساء وليس عن تسلسل خلق العظام أو العضلات، وغالبا يكون أصلهما معا ضمن (المضغة) حيث يبدأ تشكلهما في نفس الوقت تقريبا.

للمزيد: الخلط بين العلم والدين/ ادعاء وجود تناقض بين القرآن والعلم الحديث

نظرية التطور وتعارضها مع قصة الخلق

التعامل مع النصوص بحرفية مباشرة قد يؤدي إلى هذا التناقض.

قصة الخلق في القرآن تقدم صورة شاملة لخلق الإنسان، دون نظر في تفاصيل وآليات عملية الخلق نفسها.

بينما نظرية التطور تركز على تفاصيل «الخلق» من الخلية الأولى وصولا إلى الإنسان..

رغم وجود معارضة كبيرة من كثير من المتدينين لنظرية التطور، إلا أن هناك أصوات متزايدة ترى عدم وجود تناقض حتمي بينها وبين قصة الخلق القرآنية، بل يرى أصحاب هذه الأصوات أن كل منهما تغطي جانبا من خلق الإنسان.

للمزيد: فصل هل تؤدي نظرية التطور إلى الإلحاد؟ - خصوصا :هل من نقطة التقاء ممكنة؟ / ملف نظرية التطور

لا يوجد أي شيء مثير للاهتمام فوق رأس البعوضة عكس ما يدّعي بعض الدعاة في تفسيرهم لآية «بعوضة فما فوقها»

النص الديني لم يقل أن هناك شيء مهم في رأس البعوضة، الإشارة كانت إلى صغر حجم البعوضة، وعبارة (فما فوقها) كانت للمقارنة بما يلي البعوضة في الحجم من الحشرات.بعض المشتغلين في الإعجاز العلمي ممن يحبون الإثارة وجذب الاهتمام رَوّج لوجود حشرة لا ترى فوق ظهر البعوضة، لكن هذا الادعاء حديث، ولم ينتشر أصلا كثيرا وهو غير صحيح ولم يقل به أي من المفسرين القدامى ولا حتى من المعاصرين.

للمزيد: التفكير الحرفي الكونكريتي/ أخطاء الإعجاز العلمي

الحديد الموجود في لُب الكرة الأرضية تَشكَّل مع تشكُّل الكرة الأرضية وليس كما يقول القرآن بأنه أُنزِل لاحقا...

القرآن لم يقل ذلك بالضبط، حتى لو استثمر بعض الدعاة ذلك دعما لنظرية الأجرام السماوية التي جلبت الحديد معها (وهذا قد يكون حدث ولكن بنسبة قليلة).

الحديد جاء فعلا عبر انفجارات النجوم و كذلك كل شيء في الأرض،المختلف مع الحديد كان في أنه تبخر في مرحلة ما، ثم نزلت أمطار الحديد، وهذا يفسر كيف نزلت أمطار الحديد، التي ساهمت في انتشار الحديد في الكرة الأرضية.

لكن الأمطار نفسها، كما هي الأمطار العادية، كانت ناتجة عن تبخر الحديد ومن ثم نزوله مرة أخرى من خلال أمطار الحديد .

ما أشارت له الآية صحيح.

كأن الطبيعية هي التي تتحكم بالإله وليس العكس؛ والأمثلة على ذلك كثيرة ....ومنها:

كيس الصفن لو كان في داخل جسم الإنسان لأثر ذلك على الخصيتين (بسبب حرارة الجسم الداخلية) فكانت حكمة الله (كما يقولون) في خلق جسم الإنسان أن يكون كيس الصفن خارج الجسم في حين يمكن للإله أن يخلق هذا الكيس ..داخل الجسم ..ومع خصائص وصفات تجعله لا يتأثر بسبب الحرارة أو غيرها .

أغلب الثدييات لديها كيس الصفن خارج الجسم، وتفسير وجود كيس الصفن خارج الجسم بسبب «برودة الجو»مقارنة بحرارة الجسم، هي مجرد فرضية لتفسير الأمر. وهناك فرضيات أخرى من ضمنها «عرض كيس الصفن» بحيث يكون حجمه واضحا ودالا على قدرات الذكر، كذلك هناك فرضية أن الاحتفاظ بالحيامن في جو أبرد سيجعلها تنشط أكثر عندما تدخل جسم المرأة، وفرضيات أخرى.

لكن الأهم من هذا كله هو مراجعة تصورنا السائد عن خلق الله الطبيعة بأنه يجب يكون بالطريقة الأكثر مناسبة لنا أو لأعضائنا و بأقصر الطرق وأكثرها راحة.

من قال أن هذا يجب أن يحدث؟

جزء مما يبدو أنه مشقة وأقل مناسبة ممكن أن يكون جزءا من الخطة التي تعلمنا الصلابة والحرص، على الأقل في مرحلة من مراحل الإنسان التاريخية.

للمزيد: مغالطة الكاتالوغ المثالي النيرفانا/ خالق حسب الطلب

أنا لا أحتاج أن أثبت لك أن الله موجود فأنا لا أزعم شيئاً ولكن أنت الذي يجب أن تثبت لي أن الله موجود بدليل عقلي أو علمي!

غير صحيح. هذا يقال فقط عندما أقدم شيئا استثنائيا للغاية. آنذاك علي أن أقدم الدليل على ذلك.

مثلا أن أقول : سقط نيزك أمس في الباحة الخلفية للمدرسة.

ستقول لي: أين دليلك؟ عندها يحق لك أن تقول «عبء الدليل على المدعي».

عندها لا يمكن أن أقول لك: ما دليلك على عدم سقوط النيزك؟

لكن لو قلت شيئا بديهيا، مثل أن الشمس أمس أشرقت في موعدها، فلست ملزما بتقديم دليل على ذلك، على العكس، من ينكر حدوث ذلك عليه أن يقدم الدليل على ذلك.

هل أقول أن وجود الله أمر بديهي بحيث لا يحتاج إلى دليل؟!

لا، بل أقول أنه من البديهي أن يكون هناك «مسبب للأسباب»، أن يكون هناك «فاعل» للأفعال...تدخل البيت وتجده مرتبا نظيفا فتعرف أن هناك من فعل ذلك، أو تجده محطما وقد سرقت أشياء منه، فتعرف كذلك أن هناك من قام بالفعل.

من البديهي أن يكون هناك من «أحدث العالم»، قوة عليا خالقة مدركة، لن نسميها الله في هذا السياق..

لست مطالبا بإثبات دليل على وجود من أحدث العالم، لأن هذا هو البديهي المتكرر كل يوم: كل حدث وكل فعل هناك من فعله وتسبب به.

على من ينكر ذلك أن يأتي بالدليل على العكس..

الانفجار العظيم؟ ومن أحدث هذا الانفجار؟

قانون الكمومية يقول أنه يمكن لأشياء أن توجد من عدم؟ مجرد وجود كلمة «قانون» هنا، يعني أن هذا ليس عدما حقيقيا، بل هناك قانون فيه، ولا بد أن هناك من وضع هذا القانون.

على الأخوة المنكرين إثبات دليل عدم الوجود إذن...أو تقديم تفسير مقنع بديل لوجود الكون كله.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي/ القبول ب (لا جواب) / الدليل على وجود من أوجد العالم

الأرض كروية الشكل و القرآن يقول (و إلى الأرض كيف سطحت)

رغم أن ما يسمى بالإعجاز العلمي قد أسيء استخدامه فعلا إلا أن انبساط أجزاء من سطح الأرض لا يتنافى مع كروية شكلها، وفي القرآن توجد الإشارتان.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ الزمر(٥)

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠)

للمزيد: الخلط بين العلم والإيمان /إدعاء وجود تناقض بين القرآن والعلم الحديث

«الرعد ملك يزجر السحاب كما في حديث صحيح ويجوز أن يكون زجره لها تسبيحاً، لقول الله تعالى: وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ»

أي ليس توزع شحنات الكهرباء الموجبة والسالبة في السحب .

الحديث صححه الشيخ الألباني بالفعل ولكن هناك الكثير من الكلام على سنده.

في كل الأحوال: هو حديث آحاد، ولو ثبت وجود تناقض مع العلم فلا ينبغي الوقوف عند ظاهره.

لكن مَنْ منّا يعرف شكل الملائكة أصلا؟ لو تخيلنا الملائكة كما تقدمهم لنا «هوليود» لكان هناك مشكلة تتعارض مع العلم. لكننا لا نعرف شكلا للملائكة ولا يفترض أصلا أن يكون هناك شكل موحد لهم...

مالذي يمنع أن يكون صوت الرعد هو تسبيح؟!

يقول تعالى أيضا (ولكن لا تفقهون تسبيحه) توزع الشحنات لا يتناقض مع الفكرة الأساسية، ربما كان تسبيح الرعد هو هذا التوزع أصلا، لا يمكن أن يكون تسبيح الرعد هو القول (سبحان الله) باللغة العربية.

للمزيد: التفكير الحر في الكونكريتي/ الحديث صحيح ولكن..

المشاعر الإنسانية ليست إلا مجرد هرمونات يفرزها الدماغ (سيروتونين، أدرينالين، الأوكسيتوسين....إلخ) ولا دور للقلب إلا ضخ الدماء.

لا نعرف ما هي الروح والنص الديني يقول (هي من أمر ربي) دون تفصيل، أثر الدماغ والهورمونات على المشاعر والسلوك الإنسانيين لا ينكر، ولكن طبعا لا يمكن لهذه الهورمونات أن تؤدي دورها دون القلب الذي يضخ الدم وبالتالي يوصل الهورمونات المفرزة.

العلاقة معقدة بالتأكيد بين الاثنين ولكنها علاقة تكامل، والقلب يعني في لسان العرب (اللب والجوهر)، وهو أمر يمكن فهمه بحيث يكون القلب ليس فقط (المضلة)، بل شيء أكبر من ذلك.

للمزيد: التفكير الحر في الكونكريتي

يقول القرآن الشمس تغرب في عين حمئة وتفسيرها أن الشمس بعد الغروب تذهب لتسجد عند عرش الله وتستأذن منه أن تشرق ثانية

العين الحمئة وردت في سورة الكهف والآية تقول أن ذا القرنين وجد الشمس تغرب في عين حمئة ولم يقل القرآن أنها تغرب هناك فعلا بل هذا ما وجده، وهذا مرتبط طبعا بخداع بصري معروف بخداع العمق depth perception

أما قصة سجود الشمس للعرش فهي في حديث وليست في آية والمعنى مرتبط بمفهوم السجود وليس بهيئة السجود بطبيعة الحال...حيث يعني الحديث أن حركة الشمس خاضعة لقوانين الله...حيث يعني السجود الخضوع في هذا السياق.

للمزيد: التفكير الحر في الكونكريتي / ادعاء وجود تناقض بين القرآن والعلم الحديث / الحديث صحيح ولكن

هناك عيوب خلقية تعكس مدى سوء خلق الإنسان... فكيف للإله الذي تقولون أنه كامل القدرة أن يخلق مخلوقات بعيوب..

الإحسان في الخلق لا يعني أبدا الكمال. لا يوجد نص ديني يقول أن الله خلق أعضاء جسم الإنسان على نحو كامل، بل استخدم أكثر من موضع لفظ (الحسن) ومعنى الحسن معروف وهو لا يشير إلى الكمال بكل الأحوال.

العيوب الخلقية التي يشار إليها عادة (بين ٦ و ١٠) تشير أحيانا إلى عدم وجود وظيفة معينة لعضو من أعضاء الجسم (سن العقل أو الزائدة الدودية أو القشعريرة) أو لماذا لا يتمكن الرسغ من الدوران ب ٣٦٠ درجة ..إلخ

وجود وظيفة معينة لعضو معين في وقت سابق (مثل سن العقل عندما كان طعام الإنسان نباتيا في معظمه ويحتاج إلى مضغ أكثر..) ثم اختفاء هذه الوظيفة بالتدريج، مع بقاء سن العقل لا يعني وجود عيب بالضرورة. سن العقل يعمل في أحيان كثيرة كضرس احتياطي يمكن البناء عليه في حالة فقدان ضرس آخر..وبعض الدراسات الحديثة تشير إلى إمكانية استخدامه كمصدر للخلايا الجذعية التي يمكن أن تستخدم في تكوين سن جديد.

هذه الفوائد لسن العقل لا تعني كمال الجسم الإنساني، كما أن مضاره لا تعني أن الله غير كامل لأن خلقه ليسوا كاملين. هذه الفرضية غير منطقية أصلا..لم يقل الله أنه خلق الإنسان على نحو كامل. وأحسن تقويم تعني الأحسن من بين التصاميم الموجودة فعلا بين بقية الكائنات الحية، وهذا

مشاهد بين الكائنات، وافتراض أنه يقصد (أحسن تقويم يمكن تخيله، أو أفضل تقويم افتراضي) أمر لا دليل عليه.

من ناحية أخرى: وجود (حدود) أو (إمكانيات أفضل لم تحدث) للأعضاء البشرية، كانت دوما حافزا للبشر كي يبدعوا ويخترعوا أدوات تساعدهم في أعمالهم.

للمزيد: ادعاء وجود تناقض بين القرآن والعلم الحديث / خالق حسب الطلب / الكاتالوغ المثالي

عن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من أكل حين يصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر). هل إذا تناولت سم السيانيد وبعدها أكلت ٧ تمرات لا يؤثر بي السم ؟

ماذا لو كان الحديث قيل عن تسمم معين انتشر وقتها في المدينة؟

الحديث النبوي لا يجب أن يعامل كنص مطلق، خاصة أنه حديث آحاد. ويجب أن يفهم أن للتمر فوائد عديدة دون النظر إلى تفصيلات قد تكون متعلقة بسياق حدث في الوقت الذي قال الرسول ــــ عليه الصلاة والسلام ــــ فيه الحديث.

للتمر فوائد كثيرة فعلا، ويمكن استخراج مضادات سمية منه. هذا جزء علمي صحيح أثبته العلم... لكن الاستخراج غير «التناول المباشر» وبالتالي لا يمكن التعامل مع الجزء العملي من الحديث المتعلق بالسم بحرفيته المباشرة.

ويبقى التمر مفيدا بكل الأحوال.

https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/11804538

للمزيد: الحديث صحيح ولكن

عن كنه وصفات الإله

عن نزول الله تعالى الى السماء الدنيا في الثلث الأخير من كل ليلة

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ؟))

(مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ)

كيف لله تعالى أن ينزل في هذا الثلث من كل ليلة مع اختلاف تواقيت القارات في العالم ؟؟

المشكلة في التعامل مع هذه الأحاديث وما يشبهها هو أنه يتم على أساس (تشبيهي - تجسيمي- مادي).

ضمن سياق هذا التعامل : هذه الأسئلة وما تثيرها من شبهات منطقية جدا !

لكن ماذا عن التعامل مع الحديث ضمن مظلة الآية القرآنية الكريمة : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

هنا سنجد الحديث يشير إلى علاقة المؤمن بربه، وقربه أو بعده عنه، هذا القرب أو البعد لا يقاس بطبيعة الحال بالأمتار أو بأي من مقاييس الأبعاد المادية. العلاقة لها بعد مختلف تماما.

وبنفس الطريقة ومن باب أولى بما أن الله خارج كل قوانين الحجم والطول وما إلى ذلك، فإنه-جل وعلا- خارج مسألة (الزمان والمكان) هذه برمتها..

كيف يمكن فهم الحديث وهو في صحيح مسلم (وهو حديث آحاد بالمناسبة).

الحديث يستخدم المعنى المجازي، والمجاز معروف في لغة العرب وهو معروف أيضا في لغتنا اليوم وفي كل لغات العالم الحية على الأقل. المعنى المقصود أن العبد الذي يؤثر الصلاة والقرب من ربه في هذا الوقت المتأخر من الليل (وقت الراحة) فإن الله يكون أقرب إليه بطبيعة الحال. لا علاقة لهذا بوقت الليل في نصف الكرة الشمالي أو الجنوبي. كما لا علاقة له بكون الإنسان هنا يعيش في القبو أو في ناطحة سحاب.الله خارج هذه الحسابات وبالتاي العلاقة به تكون خارج هذه الحسابات.

المجاز يمكن أن يطبق أيضا على كثير من النصوص الأخرى، بالتأكيد، تحت مظلة (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . عمليا لم ينكر وجود المجاز في القرآن الكريم وفي السنة إلا ثلاث علماء (أبو إسحاق الاسفرائييني وابن تيمية وابن القيم) رغم أن كلامهم في الكثير من الأحيان كان يؤكد وجوده.

للمزيد: التفكير الحرفي الكونكريتي / الحديث صحيح ولكن

يقولون : هل من المنطقي أن يعطيك الله عقلاً ثم يطلب منك أن تنفذ ولا تناقش.

هل من المنطقي أن تبتاع سيارة وتطلب منها أن تطير؟

العقل الذي منحنا إياه الله له مجال لعمل محدد، وهو مختص بالأرضيات والماديات لأن هذا مرتبط بوظيفة الإنسان.

لكن الدخول في تفصيل نطاق الإلهيات والغيبيات أمر ليس من قدرة العقل أصلا.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / بعد حدود العلم على مشارف المعرفة

إن كان الإله الذي تعبدون جلس على العرش كما تقولون (استوى على العرش) فنعلم أن الجلوس يستدعي الجسم الذي يحتل مكانا، وحالة الجلوس لا تكون الا بعد استقامة، فإن كان انتقاله من حالة إلى أخرى فتعلقه بالزمان واجب لا محالة، وهكذا نثبت أنه يشترك معنا في الوجود بحيز المكان والزمان، ومن هنا نتفق على قدم (أزلية) العالم وإن كان العالم حادثاً والإله يقع بداخله يلزم أن الإله جزء من العالم مما ينسب له النقص وهذا محال وصفه بالإله .

هذه المتالية مليئة بالتناقضات.

الاستواء لا يعني الجلوس فقط، بل يعني السيطرة أيضا، وهذا المعنى خاضع تماما إلى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

كل ما يبني على معنى الجلوس من تعلق الله بالزمان والمكان باطل. لأنه مبني على معنى وهمي.

النتيجة التي تنتهي إليها المتالية، وهي أزلية العالم، غير صحيحة أيضا، لأن العلم أثبت وجود بداية للعالم بأدلة تعد اليوم «مسلمات فيزيائية».

وجود بداية للعالم أمر بديهي، تشعره بداهة، كما لكل شيء بداية. العالم أيضا له بداية، وهو أمر أيده العلم أيضا...

لكن البعض يفضل أن يغض النظر عن هذا، لمجرد أن فكرة بداية العالم «قد «تؤدي إلى وجود خالق.

أن يكون العالم بلا بداية، بالنسبة لهم، أفضل من أن يكون له خالق!

للمزيد: القبول ب لا جواب / التفكير الحر في الكونكريتي / العالم موجود ولكن هناك مخارج جانبية / صورة الإله

أؤمن بوجود إله بمواصفات إله حق،كما أجد الحق، ولكن لم يقنعني أي دين بصفاته

الإله الواحد الحق الذي آمن به المتحدث هنا هو إله أخرس فضّل أن لا يقدم أي إرشادات إلى من خلقهم رغم أنه في عملية خلق الحياة ترك رسائل تفصيلية لعملية استمرار الحياة عبر الدي ان أي.

للمزيد: إله الرسالات السماوية

من الذي قال أن الإله لا بد أن يكون كاملا، ثم لماذا تفرضون أن يختلف الإلهان، قد يتفق الإلهان في كل شيء.

الوصول إلى الاقتناع بوجود إله، يؤدي منطقيا إلى نتائج أخرى مترتبة على ذلك، لذا فالأمر ليس جدلا فرضيا. بل يجب التسليم بالسبب الأول. وبعدها يمكن مناقشة صفات الإله. فرضية وجود إله ناقص، ستقودنا هنا إلى معنى الكمال والنقص، ومعنى القدرة أصلا في الذهن الذي يقرر مثلا وجود إله غير قادر أو ناقص.

وجود إلهين متفقين مع بعضهما البعض يعني أننا متفقون على فكرة وجود إله هو الخالق والسبب الأول. وجود إلهين (أو أكثر) متفقين مع بعضهم يحتاج إلى مسلسل براهين مختلف حيث تقود الأشياء ليس إلى سبب أول بل مجموعة أسباب أولى، ..وربما يمكننا القول-فرضيا- أنها لو كانت متفقة في كل شيء فلم لا تكون قد اتحدت في إله واحد ؟ وهناك من سيقول أنت تتحدث عن صفات متعددة لإله واحد وليس آلهة متعددة.

للمزيد: مغالطة المعضلة الزائفة

إن ثبت فعليا وجود الإله ما الذي يمنع عقلا أن يكون غير قادر على كل شيء قدرة كبيرة غير محدودة، ما الذي يمنع عقلا أن يكون ظالما -تعالى الله عما يقولون-

في الحالتين على السائل أن يحدد لنفسه موقفا من هذا الإله، هو يقر ضمنا بوجود إله ولكنه ليس كلي القدرة أو كلي العدل..

الإيمان بوجود الله لا يشترط أن يكون هذا الإله كلي القدرة وكلي العدل، الإيمان بهذه الصفات يأتي لاحقا...

السؤال هنا - فرضيا - هل كون الإله غير كلي القدرة أو غير كلي العدل سيؤدي إلى الإلحاد به وبكونه الخالق لهذا العالم والخالق للإنسان؟

الجواب موجود ضمن السؤال نفسه: لا.

هل هو كلي القدرة؟ قدرته وصلت لدرجة خلق كل هذا الكون بكل ما فيه...هل من خيال يستطيع أن يفترض صـ[illegible] أكبر؟

هل هو كلي العدل؟ ربما فكرة العدل تحتاج إلى تعريف وتحديد أولا قبل الجواب عن هذا.

للمزيد: مغالطة المعضلة المزيفة / مغالطة الكاتالوغ المثالي / مشكلة الشر والمعاناة في العالم

لماذا جعل الله معرفته بكل تلك الصعوبة حيث أن ملايين البشر إلى يومنا هذا لا يقرون أو يعلمون بوجوده وربما يقرون بوجود قوة عليا فقط؟ لماذا لم يكن وجوده ظاهراً وواضحاً كوضوح الشمس مثلا؟

لا يمكن جعل أسئلة الامتحان سهلة لهذه الدرجة. هذا قدح بالعدالة. لو كانت الأسئلة سهلة «مثل وضوح الشمس» لتساوى الجميع.

للمزيد: مغالطة الكاتالوغ المثالي / لماذا خلقنا الله

إذا كان الله قادرا على خلق أي شيء، فهل باستطاعته خلق شيء كبير جدا بالحجم...أو شديد القوه أو صغير جدا،بحيث لا يستطع حمله، لا يقوى على التغلب عليه، لا يستطيع رؤيته.......

هذه هي مغالطة المعضلة المزيفة، مثل أن تسأل رجلا: كم مرة تضرب زوجتك في اليوم؟ وهو لا يضربها أصلا. لكن لو قال : ولا مرة، فهذا يعني أنه ربما يضربها في يوم آخر.

أسئلة كهذه هي نوع من حيل المسابقات لا أكثر ولا أقل.

القدرة الإلهية لا محدودة، لكنها في الوقت نفسه غير خاضعة لفرضيات البشر وافتراضاتهم ومحاولاتهم للعب بالكلمات.

للمزيد: مغالطة المعضلة المزيفة

إن كان موسى كليم الله وإبراهيم خليل الله،وطرأ عليهم الشك وطمنهم ربهم بأدلة قتلت حيرتهم، لماذا لايتعامل الله مع المشككين بوجوده بنفس الطريقة؟

لأنه لا يمكن إعادة اختراع العجلة إلى الأبد! ثم أن تجربة سيدنا موسى وسيدنا إبراهيم ونقلهما عبر القرآن كان أمرا ينتفع منه للجميع بعدم الخوف من هذه الشكوك ومواجهتها، لا من أجل طلب نفس الطلبات.

لا يستطيع الله أن يعيش بدون خلق يحكمهم فألوهيته مشروطة بخلقه إذ ما معنى لوجوده بدون خلق؟

لا معنى نفهمه نحن بعقلنا . إذ أن عقلنا مرتبط بوجودنا المادي ،مجرد إلغاء وجودنا سيلغي العقل وبالتالي لن نفهم شيئا خارج هذا الوجود.

لكن هذا طبعا لا يعني عدم وجود معنى .

يمكن أن لا يكون هناك معنى لكونه «معبودا» دون وجود مخلوقاته، لكن هذا لن يؤثر على وجوده عز وجل.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / صورة الإله

في حال افتراضنا أن الرواية الدينية عن رهان الشيطان مع الله صحيحة و التي تقول بالمختصر أن الشيطان سيغوي بني آدم و يحيده عن عبادة الله و بما أننا نعرف من هذه الروايات أيضا أن إبليس هو ملك الخداع و المراوغة.

كيف يستطيع المؤمن إثبات أن الله المذكور في الكتب الدينية هو ليس إبليس؟ أعني إن كان إبليس ملك الخداع فهذه أول و أبسط خدعة سيحاول القيام بها.

كيف يعرف المؤمن أنه مؤمن بالإله الصحيح و أنه لم يقع ضحية لخداع إبليس؟

السؤال بهذا الطرح ليس دينيا بل منطقيا.

فلنغير الأسماء في هذا الطرح لكي نراه من زاوية أخرى..دون تشبيه طبعا.

لديك وثيقة صادرة من هيئة عليا تحذر من وجود متلاعب مخادع يرغب في الاحتيال على الجمهور.

حسب هذا السؤال: المتلاعب تمكن من أن يوهم الجميع بأنه هو «الهيئة العليا»، وأنه زور كل الوثائق الصادرة من الهيئة العليا لكي يُسَيِّر الجمهور على هواه.

لكنه أبقى على وثيقة التحذير دون مساس بها، وترك المجال بهذا لطرح أسئلة كهذه، لماذا لا تكون أنت المحتال أيها المتحدث باسم الهيئة؟

ملك المراوغة كان سيحذف هذه الوثيقة بالتأكيد، لكي لا يترك دليلا على جريمته.

بعبارة أخرى: لا يمكنك أن تسلم بصحة وثيقة معينة، وتبني عليها كل شيء، لتقول أن كل الوثائق الأخرى قد تكون مزيفة... التسليم بوجود الرواية الدينية عن الرهان يتضمن تسليما بصحة مصدر الكتاب الذي احتوى على هذه الرواية .

إن كان المتحدث يؤمن بأن المصدر صحيح فهو يؤمن بأن مكر إبليس سيكون مُنْصَبّاً على الإنسان وليس على الله، وبذلك يمكن لإبليس أن يزيف المعنى المقصود من نص مثلا أو يجعل الناس يتوهمون فهما واحدا له، ولكنه لا يمكن أن يقوم بدور الله -في حال كان المتحدث مؤمنا أصلا.

أما إن كان المتحدث لا يؤمن بصحة الرواية ولا حتى من الوجهة الرمزية، فلا معنى في النقاش لأنه يسقط في مغالطته المنطقية، يفترض شيئا ثم يخالفه.

على صعيد آخر: تمكن إبليس فعلا من إيهام كثيرين بأن ما يفعلونه من جرائم هو باسم الله...

لم يكن يحتاج إلى أن يأخذ دور الإله...

للمزيد: مغالطة المعضلة الزائفة

لماذا خلق الإله العالم؟ إن لم يكن لغاية فهو عبث، و إن كان لغاية فالغاية قصد الناقص و لا يحتاج الكامل لغاية.

كتاب تشريح السمكة لا يمكن أن تُفَسَّرَ من خلاله فسلجة جسم الإنسان .

وكذلك علم سلوك الإنسان لا يفسر سلوك النمل والحشرات الأخرى...وكذلك من باب أولى لا يفسر سلوك حركة النيوترونات أو الإلكترونات مثلا ...

بنفس المنطق..هذه المحاكمة السابقة تفرض على الإله أن يكون خاضعا لبديهيات السلوك والمنطق البشري.

(إن لم يكن لغاية فهو عبث) و (إن كان لغاية فالغاية قصد الناقص..) هذه المقدمات ونتائجها : (الإله ناقص والإله الكامل لا يحتاج لغاية) مبنية تماما على منطق بشري يتعامل مع البشر وخصائصهم.

الشروط والمواصفات البشرية لا تطبق على الإله، عز وجل.

هو خارج هذه المواصفات والقواعد تماما. خارج مفهوم الغاية وخارج الاحتياج وخارج كل الخصائص البشرية وتصوراتها.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / مغالطة الكاتالوغ المثالي

إن كان هناك نهاية للعالم و من ثم حساب ثم الخلود في أحد الدارين، فماذا يفعل الإله قبل الوجود و بعده و بعد الخلود؟

مرة أخرى: الإله لا يخضع لما تخضع له من قواعد. ماذا يفعل الإله قبل الوجود وبعد الوجود وبعد الخلود؟

كلمة الفعل هنا مرتبطة بزمن (قبل وبعد وخلال) والإله عز وجل غير خاضع للزمن أصلا..وبالتالي فالسؤال كله: ماذا كان يفعل خلال هذا أو قبله أو بعده يمكن أن يطرح للسؤال عن وضع سجين في معتقل ما...لكن الله عز وجل خارج هذا التصور كله.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / الدليل على وجود من أوجد العالم

سبب وجود النباتات هو الماء -سبب وجود الجبال هو البراكين-سبب وجود الشتاء والصيف هو الشمس-سبب وجود الدخان هي النار

لماذا دائما تعتقدون أنّ سبب وجود الكون هو شخص !!

لا أحد يعتقد أن سبب وجود الكون هو شخص.

الخلط بين فكرة الشخص و مفهوم الإله ليس حكرا على الملحدين فحسب فهناك بعض المؤمنين ممن يمارسون نفس الخلط.

الإله ليس شخصا بالتأكيد، وهو خارج نطاق التوصيف والتصنيف.

كما أن المثل أعلاه لا يمكنه الرد على سؤال ما هو سبب وجود الكون إلا بتقديم جواب يتطلب سؤالا آخر....مثل : الانفجار العظيم..ومن الذي فجر الانفجار العظيم؟

للمزيد: الدليل على وجود من أوجد العالم

لماذا خلقنا الله ؟ لا يستطيع أتباع الأديان الإجابه على هذا السؤال إلا بطرق بدائيه وساذجه.. كي نعبده، نعمر الأرض، ننشر الخير، كي نسعد .... إلخ، ولكن هل كان وكنا مضطرين لكل هذا و هو القادر على كل شيء.. ما حاجته لذلك ؟

هل كان مضطرا ؟ ما كانت حاجته لذلك ؟ ..الخ.

ببساطة : نحن نسقط (طرق تفكيرنا) على الله. فنتوقع منه أن يكون خلقنا لنفس السبب الذي يمكن أن نصنع فيه نحن شيئا. لأننا نحتاج إلى ذلك، لأننا نتسلى، لأننا ضجرون ونريد أن نملأ فراغنا.

لكن هذه طرق تفكير ناتجة عن حاجات بشرية، وبالتالي فاستخدامها هنا غير ملائم.

ما هو الملائم إذن ؟

هذا السؤال يشبه وضع مريض فاقد للذاكرة إثر حادث، نهض من غيبوبته ووجد نفسه في المستشفى، فرفض أخذ أي علاج قبل أن يأتي أحد ليشرح له كل ما حدث منذ ولادته حتى الحادثة، وطاقم المستشفى أصلا لا يعرف غير المعلومات الموجودة في هويته.

إن كنت ستلحد لأنك تريد أن تعرف جواب هذا السؤال فأنت كهذا المريض.

أنت موجود على هذه الأرض. نقطة انتهى. عليك أن تتعامل مع هذه الحقائق. لا تعجبك الإجابات التي تسمعها ؟ تعتبرها غير منطقية وغير مقنعة، هذا من حقك، لكن تذكر أن الطرف الآخر (الإلحاد) لا يقدم أي أجوبة أصلا، فصدفة نشوء الحياة على الأرض ومن ثم التطور الذي طرأ على الخلية الأولى وصولا إلى الإنسان، يجعل من الحياة عبثا كبيرا، وأكثر سذاجة من أي إجابة تقدمها الأديان.

أنت (موجود) . نقطة انتهى.

تعامل مع هذه الحقيقة أولا.

آمنت بالله ؟ ومن ثم آمنت بوجود وحي منه؟..سيؤدي ذلك إلى أن تؤمن بما يقوله لك وحيه.

وجود الإله الكامل يقتضي أن يكون ما يخلقه كاملاً أيضاً، وحيث أن البشر غير كاملين فهذا ينفي الكمال عن الخالق.

من هو صاحب الكتالوج الذي يقرر أن الإله الكامل يجب أن يخلق مخلوقات كاملة؟ إذا كان من قرر هذا واعتبره قاعدة قد عرف الإله الكامل أو غير الكامل فلعله يدلنا عليه أيضا.

للمزيد: مغالطة الكاتالوغ المثالي

عندما كنا صغارا كنا نخترع صديقا وهميا يصحبنا في كل مكان.....

هذا الصديق الوهمي هو إلهك الشخصي الذي تعتقد أنه معك في كل مكان؟

فكرة الإله هو الصديق الشخصي الوهمي قد تكون قادرة على تفسير بعض الجوانب التعبدية النفسية من فكرة الإله.

ولكن الصديق الوهمي لا يمكنه أن ينشئ العالم. لا بد أن يكون هناك من فعل ذلك..أو بدأ الانفجار العظيم..الخ

للمزيد: الدليل على وجود من أوجد العالم / الله وابريق الشاي الصيني

لماذا طلب الله التفكر في الكون وأنه يراه عظيما مع أن أمره بين الكاف والنون.. أي أن بمقدرته إيجاد شيء أفضل؟

لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ (حديث صحيح)

الله لا يرى أن الدنيا عظيمة..فلا شيء عظيم بهذا المعنى أمامه سبحانه.

لكنه يريد أن يرينا عظمتها في أعيننا، لأن عظمتها في أعيننا ستعبر عن خالقها الأعظم منها.

هل نشعر أنها يجبُ أنْ تكون أعظم لكي تقنعنا أكثر به؟؟

لكن هذا سيجعل الامتحان أسهل بكثير.

للمزيد: مغالطة الكاتالوغ المثالي

«ما الهدف من خلق البشرية و امتحانهم بالأساس؟ لإعمار الأرض؟ وهل يحتاج الله لإعمار الأرض؟ بإمكانه أن يخلق كل شيء كيفما يريد كما تزعمون فلماذا الخلق بالأساس؟

هناك اختياران في الجواب، الأول على العقل بمعناه السائد، التجريبي العلمي، والثاني على العقل بمعناه العام، الحس البديهي...

بمكنك أولا أن تستخدم العقل العلمي ..ولن تصل لجواب ..عندها يمكنك أن تقتنع أن هذا العالم خلق هكذا بلا هدف، عبثا..ولأنه خلق عبثا فسيكون من العبث أيضا أن تجد معنى أو هدف في حياتك..

الخيار الثاني يعتمد على (الحس البديهي، العقل العام) ويمكنك أن تصل فيه إلى استحالة أن يكون الكون قد خلق بلا هدف وهو بهذا النظام والدقة والترابط..لذا سيكون عليك أن تجد هدفا لحياتك وسيكون هذا متناسقا مع وجود هدف ووظيفة وغاية لكل شيء.

العقل الرياضي الذي سيحاول فهم الهدف سيعجز وسيحاول أيضا أن يفهم (هدف) الله من خلقه لنا (وليس هدفنا نحن من حياتنا) لكنه سيعجز مرة أخرى.

العقل البديهي لن يحاول ذلك، إنه يعرف أنه لا يمكن له الخوض في كنه الإله أو الذات الإلهية. إنَّ العقل البشري لا يملك (أدوات) الخوض في ذلك. إنه مثل جهاز مذياع لا يمكن له أن يستقبل بث القنوات الفضائية، لا لقصور فيه ولكن لأن هذا ليس دوره.

إذا آمن بما سبق، وبالوحي منه، فسيؤمن بما قاله في هذا الوحي عن «هدف الخلق»: الامتحان.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / القبول ب لا جواب / العالم المنظم يدل على ناظم / ما هدف الدين؟

فكرة أن يكون للكون إله أعظم من أن يكون هذا الإله متدخلا في حياتنا اليومية وشؤون البشر

يعتمد الأمر على طريقتك في النظر إلى الأمر.

من زاوية أخرى، سيكون السؤال معاكسا...

كيف يتركنا إله عظيم كهذا، دون أن يرشدنا لتنظيم حياتنا؟ دون أن يقدم على الأقل إشارات لذلك؟ أو على الأقل طريقة لمعرفة الإرشادات؟

لماذا خلق الله كل هذه المجرات والكواكب التي لا حياة فيها ؟ أما كان من الممكن أن يخلق كونا أصغر أو بكواكب أقل ما دامت لا فائدة فيها؟ هذا السرف في خلق الطبيعة يوحي بالعشوائية وليس بوجود نظام كوني له خالق!

فلنتخيل الأمر لو كان معاكسا. لو أن الكون كان أصغر. مجرتنا وبعض المجرات الجارة الأخرى وانتهى الأمر...

سيكون هناك سؤال من نوع آخر: لماذا لم يخلق الله كونا أكبر؟ ألا يبدو هذا الكون كما لو كان صغيرا جدا على إله مطلق القدرة كالذي تدعون وجوده!

لكن هذا السؤال لن يطرح . لأنه لو كان الكون أصغر، لما كانت هناك حياة (على الأقل ليست كما نعرفها).

فلنطرح مثالا آخر: تخيلوا أن شخصا يرى بالمجهر كيف أن جسم الإنسان مكون من عدد كبير جدا من الخلايا الحية. فيقول معلقا: لماذا كل هذه الخلايا؟ أما كان من الممكن أن تكون هناك خليتان أو ثلاثة أو مائة بدل هذه الفوضى والإسراف؟

الجواب: لا قطعا. كل هذه الخلايا تعمل ضمن منظومة وظيفية متكاملة لتؤدي العمل الحيوي للعضو الذي تشكله... أي للحياة.

الجواب نفسه عن الكون الفسيح الذي نعيش فيه، وجسم الإنسان الذي يعيش في هذا الكون.

صدفة؟ أبدا. هذا جزء من النظام الدقيق الذي يحكم هذا الكون.

يتحدث مارتن ريس (وهو عالم كونيات وأكاديمي مرموق) في كتابه (فقط ستة أرقام) عن هذا. في الحقيقة الكتاب كله هو عن الربط بين الأمرين، بين هذا الكون الشاسع والنظام الذي بني عليه، وعلاقة هذا بحياتنا كبشر على كوكب الأرض .

يقول ريس: نتكون من عدد من الذرات بين ١٠ ٢٨ ١٠ ٢٩

وهذا «المقياس البشري» يقف في المنتصف بين كتل الذرات وكتل النجوم. نحن نقع بين الكون من جانب والعالم المصغر من جانب آخر. حجمنا متوسط بين الشمس التي قطرها مليار متر من ناحية. وجزيء يقارب جزءا من مليار جزء من المتر من ناحية أخرى.

إنها ليست مصادفة أن الطبيعة تحقق أقصى تعقيد لها على هذا المقياس المتوسط. فأي شيء أكبر – موجود على كوكب صالح للسكن– سيكون قابلا للكسر أو السحق بالجاذبية.

نحن معتادون على فكرة أن «العالم المصغر» يشكلنا. فنحن ضعفاء أمام فيروسات طولها نحو مليون جزء من المتر. وجزيء هيكل الـ DNA المزدوج يشفر موروثنا الجيني الكامل. ومن الواضح كذلك أننا نعتمد على الشمس وطاقتها. لكن ماذا عن المقاييس الأكبر بكثير؟ حتى أقرب النجوم هي أبعد بملايين المرات أكثر مما تبعد عنا الشمس. والكون المعروف لا يزال يمتد مليار مرة أكثر.

ثمة علاقات بينية مذهلة بين العالم المصغر بالمقاييس الذرية والعالم الأكبر بالمقاييس الكونية. إن عالمنا اليومي محكوم بالذرات وتجمعها مع بعضها لتكون جزيئات ومعادن وخلايا حية. فالطريقة التي تلمع بها النجوم تعتمد على الأنوية داخل هذه الذرات، ويحتمل أن ما يثبت المجرات على تماسكها هو جاذبية حشد هائل من الجزيئات تحت النووية.

المسافة بين العالمين تصل إلى ١٠ ٦٠ وهذه المسافة ضرورية لكون «مثير». فلن يحدث أبدا لكون لا يتضمن أرقاما ضخمة أن يطور تراتبا هرميا معقدا من البنى، بل سيكون مملا، وغير قابل للحياة.

يلزم أن تكون هناك فترات زمنية طويلة أيضا... فقد تستغرق العمليات في الذرة جزءا من مليون جزء من الثانية حتى تتم، وفي النواة المركزية في كل ذرة تكون الأحداث أسرع. إن العمليات المعقدة التي تحول الجنين إلى دم وعظم ولحم تتضمن تتابعا من الانقسامات الخلوية، مع التمايز، وتتضمن هاتان العمليتان آلاف التكرارات والتجميعات المنظمة بدقة للذرات، ولا يتوقف هذا النشاط أبدا طالما نأكل ونتنفس. حياتنا ليست إلا جيلا واحدا في تطور البشر. وحلقة لا تعدو كونها مرحلة واحدة في ظهور الحياة بأكملها.

تقدم الفترات الزمنية الهائلة المتضمنة في التطور منظورا جديدا لسؤال «لماذا كوننا بهذه الضخامة». فقد استغرق ظهور الحياة البشرية على الأرض ٤,٥ مليار سنة.

وحتى قبل أن تتكون شمسنا بكواكبها أصلا، لا بد أن تكون النجوم القديمة قد حولت الهيدروجين النقي إلى كربون وأوكسجين وباقي عناصر الجدول الدوري، وقد استغرق هذا عشرة مليارات سنة. إن حجم كوننا الملحوظ هو المسافة التي قطعها الضوء منذ الانفجار الكبير، تقريبا. على هذا فإنّ الكون الحالي المشاهد لا بد أن يكون عرضه حوالي عشرة مليارات سنة تقريبا. إن هذا لاستنتاج مخيف، فضخامة كوننا نفسها - التي يبدو لأول وهلة أنها توضح كم نحن هَمَلٌ في الخطة الكونية- هي في الحقيقة أمر يتطلبه وجودنا أصلا!

ولا نقول بهذا أنه لا يمكن أن يكون قد وجد كون أصغر، لكن سيستحيل وجودنا فيه.

إن اتساع الفضاء الكوني ليس سرَفا غير مطلوب، بل هو نتاج لسلسلة طويلة من الأحداث التي تمتد إلى ما قبل تكون نظامنا الشمسي، وإلى ما قبل وصولنا إلى المشهد. قد يبدو هذا كأنه ارتداد إلى منظور «مركزية الإنسان» القديم، وهو ما دمره اكتشاف كوبرنيكوس أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس. لكن لا ينبغي أن نتواضع أكثر مما ينبغي، ونعطي لدوران الأرض حول الشمس حجما أكبر، الكائنات من أمثالنا تحتاج إلى شروط خاصة لتتطور.. لذا لا يجب أن نتفاجأ باتساع كوننا....» انتهى كلام مارتن ريس. كتاب «فقط ستة أرقام: القوى العظمى التي تشكل الكون» النسخة العربية صفحة ٢٢-٢٥ ترجمة جنات جمال. مركز براهين للأبحاث والدراسات.

* * *

شيء آخر: كلما أسمعهم يتحدثون عن السرَف في خلق الطبيعة «دون داعٍ» يخطر في بالي سؤال: هل كان هذا من كيسكم؟

للمزيد: مفهوم الضبط الدقيق للكون/ ستة أرقام فقط.

نعلم اليوم أن كل شي في الكون له سبب وغاية إلا إلهكم لا نعلم ما دوره وما غايته في هذا الكون!

كل شيء في الكون له غاية..

قانون لا يدخل ضمنه الإله، لأنه هو من خلق الكون. ووضع هذا القانون.

وهو لا يخضع للقوانين.

إذا كان هنالك إله خالق فلم يحتاج أن يكون له مخلوقات يعبدونه؟ و لمَ نعيش مسرحية فيها الخالق خفي يشاهدنا ويعرف كل شيء عنا ويرسل لنا برسالات معقدة تختلف بسببها البشرية ويقتل بعضهم بعضا بسبب هذه الخلافات التي كان لهذا الخالق أن يجنبها البشر!

(الحاجة) شعور بشري جدا، ناتج عن عدم كمال البشر ورغبتهم دوما في الاكتمال وسد النقص ولو على نحو غير واعٍ.

هذا السؤال يعكس إسقاط المشاعر البشرية على فكرة الإله، عمليا هذه الفرضية لا يمكن أن تسير أكثر من ذلك، لأن الإله لا يحتاج، كلمتا إله وحاجة متناقضتان أصلا.

السؤال هو إذن، بصيغة أكثر تناسقا : لماذا خلقنا الله ؟

هذا السؤال يدخل في كنه الإله، نريد أن نعرف (نيته)، دواخله، (وعبارات نيته ودواخله مجازية طبعا) ..لكن هذه المنطقة لا يمكن الدخول لها، نحن نحاول أن نستخدم العقل البشري في مجال غير مجاله .بالضبط كمن يحاول استخدام قارب نهري في التحليق في الجو.

رغم ذلك، فالأمر مهم .

حسب النص الديني، الله خلقنا لـ (نعبده)، العبادة لا يشترط أن تكون عبر الشعائر بالتأكيد، بل يمكن أن تؤدى بوسائل متعددة.

عندما نؤدي هذا، عندما نحقق هذا الهدف، فإن الله سيكون معبودا.

بالتأكيد نحن نعرف من خلال النص الديني أنه معبود من قبل الملائكة.

لكن الملائكة تتعبد بطريقة مختلفة، حسب النص أيضا، هي تعرف عظمة الله على نحو يجعلها تتعبد تلقائيا، بلا خيار تقريبا.

مع الإنسان الأمر مختلف، لكي يعبد الله عليه أن يعقل، أن يستشعر عظمته رغم أنه لا يملك قرب الملائكة.

لماذا يريد الله أن يعبد هكذا ؟ على نحو مختلف ؟ هل يحتاج ذلك ؟

لا، تعالى الله عن الاحتياج، هو يريد ذلك فحسب...دوافع البشر لا تنطبق عليه، ولهذا فهو يريد، ويفعل ما يريد، ولكنه، عكس البشر، لا يُسأل عما يفعل...بينما هم يُسألون.

للمزيد: الاقتصار على العقل الحسي / لماذا خلقنا الله

لماذا خلق الله الدنيا وهو يقول أنها لاتساوى عنده جناح بعوضة ؟

الدنيا وسيلة، وليست غاية بحد ذاتها.

في السياق هي أداة لامتحاننا.

وهذا يجعلنا نحن في المركز.

لو أنك كنت في امتحان لمادة الأحياء، وجاء سؤال عن جناح البعوضة، فأنت من المؤكد ستحاول أن تجيب عن السؤال بكل ما تعلم عنه، سؤال البعوضة سيكون مصيريا بالنسبة لك.

كون السؤال عن البعوضة لن يقلل من أهميته، وكون السؤال مهما لن يغير من كونها مجرد بعوضة.

نعم، يمكن للامتحان أن يكون مهما جدا، ولو كان عن بعوضة.

الله يفرض علينا أن نعبده لكي يرضي ذاته ...

God is unsecured so he needs to be worshiped to feel satisfied.

عندما يحتاج شخص ما إلى ثناء مستمر ويجبر الجميع على تقديم ذلك له، يقال عنه ضمن ما يقال أنه (لا يشعر بالأمان داخليا) أو أنه insecured ويبحث عن تعويض ذلك في مدح الآخرين له.

تحويل ذلك إلى الإله جزء من مغالطة قياس ما لا نعرفه إطلاقا على ما معرفتنا بالبشر..نحن نقارن ونقيس بين ما لا يمكن أن يقارن أو يقاس عليه..

مشاعر عدم الأمان البشرية أو ما يعرف بال insecurity ناتجة عن وجود مشكلة غالبا في العلاقة مع أحد الأبوين أو كليهما...هذا الأمر لا يمكن أن يحدث من الأساس من الإله المطلق الذي لم يلد ولم يولد...الإله الذي لا يمكن قياس عواطف البشر وعقدهم عليه لأنه خارج أي قياس أصلا..

للمزيد: صورة الإله

لماذا لا يكون لكل إله وجود خاص به ومستقل عن الوجودات الأخرى التي لها آلهة اخرى؟ أليس افتراضا منطقياً؟ و هذه الآلهة ليست في حاجة للتصارع كونها كاملة و لا نقص عندها كما البشر؟

تخيلوا معي زوجة تحاسب زوجها لأنه ربما يكون قد تزوج عليها في كون موازٍ آخر.

الزوج سيقول لها: لكن لا يوجد دليل على وجود أكوان موازية أصلا!

ستقول له: لكن هذا أمر محتمل.

الزوج يرد: لكن نسبة احتماليته ضئيلة جدا، واحد من مليارات المليارات!

الزوجة تصر: لكنها موجودة. لا تنكر.

الزوج سيرد بيأس: لا أنكر. لكن احتمالية وجود حياة إنسانية في أي من هذه الأكوان أقل بكثير..واحد من ١٠ مرفوع إلى القوة ١٦ وبدوره مرفوع إلى القوة ١٦...

وهنا تقول الزوجة: لكنها موجودة. لا تنكر! وما دامت موجودة فهناك احتمال أن تكون هناك نسخة منك، وقد تزوجت من ثانية.

الزوج يهز رأسه بحيرة: كيف وصلنا إلى هنا؟

* * *

هل انتهينا الآن من إثبات وجود إله واحد وانتقلنا إلى إثبات وجود أكثر من إله لأكوان موازية لا دليل على وجودها أصلا؟

نظرية الآلهة الموازية ماذا تريد أن تثبت؟!

نحتاج فكرة «إله «واحد لنفهم وجود هذا الكون...لكن البحث عن سبب آخر لوجود «وجودات» لا نعرف عنها شيئا أمر لا معنى له.

للمزيد: العالم المُنَظَّم يدل على مُنَظِّم.

لماذا توجد أمور متشابهة (غامضة) ليست متعلقة بالفقه، بل تتعلق بالاعتقاد و المصير؟

لأن الاعتقاد والمصير يدخلان في الامتحان النهائي وليسا مادة اختيارية يمكن تجاوزها.

لماذا يكون لدينا قدرات عقلية تصل في عمقها وسموها الى إثارة أسئلة حول الوجود و نشأة الكون ووجود الخالق وهيئته وشكله وغيرها من الأسئلة، دون أن يسمح لنا الخالق نفسه أن نسألها، بل نستعيذ من الشيطان إن خطرت ببالنا ... يعطينا ثم لا يسمح !!!

القدرة على شيء لا تعني القدرة على المضي فيه إلى أبعد حد.

العين البشرية قادرة على الإبصار، لكن لم يقل أحد أنها قادرة على رؤية كل شيء، بما في ذلك الأحياء المجهرية والأمواج غير المرئية الخ..

الإنسان يستطيع المشي على قدميه، لكن ذلك يكون بسرعة محدودة وبقابلية محدودة.

كل القدرات البشرية هي محدودة بطبيعتها.. وهذا مشهود ومحسوس ومعروف، والتصور بأن للبشر أي قدرة نهائية وغير محدودة أمر يفتقر إلى التعمق في الطبيعة البشرية..ومن ضمن هذا التصور الواهم بأن للعقل البشري القدرة على الإجابة عن كل التساؤلات حتى التي تتعلق بكنه الإله.

من يحرم التساؤل يحارب نصوصا قرآنية و شواهدَ كثيرة، من أهمها رحلة إبراهيم المسلم الأول وتساؤلاته بحثا عن الله...العقل مهم جدا في رحلة البحث عن أجوبة لأسئلة تتعلق بالله، المهم أن لا نعتقد نحن أن عدم الوصول إلى جواب هو (جواب نفي)...

وهذا جوهر المشكلة مع الملحدين..

لم يعثروا بالعقل على أجوبة معينة تتعلق بالله..

فافترضوا أن عدم الوصول إلى جواب يعني عدم وجود جواب بالتالي عدم وجود إله..

المتأمل في الكون العظيم يدرك أن وجود خالق له يعني أنه عظيم بعظمة هذا الكون، وهو ما يقود حتمًا إلى رفض الأديان السماوية التي تصف هذا الخالق بصفات بشرية كالغضب والانتقام والمكر، وكذلك تتناقض فيها صفاته مع ذاتها فمرة رحيم بالبشر، ومرة يعذب أبد الدهر كل إنسان لم يكن مسلم (كما في الإسلام) أو كل إنسان غير يهودي (كما في اليهودية) أو كل إنسان غير مسيحي (كما في المسيحية) مهما كان هذا الإنسان خيّراً وصالحا.

إسلاميا: الصفات الإلهية التي فيها بعض من الشبه بالصفات البشرية استخدمت تحت مظلة واسعة تبعد التمثيل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) لذا فكل ما يبدو قريبا من «بشريتنا» أو من الصفات البشرية هو لكي تقترب عقولنا من الفهم، لكنه عز وجل خارج أي تشبيه أو تمثيل..علما أن النصوص في القرآن هي الأبعد عن التشبيه والتمثيل مقارنة بما وصل من الكتب السماوية، وإن أي شيء يمكن أن يفهم منه غير ذلك يمكن أن يؤول فورا بمظلة «ليس كمثله شيء».

أما بخصوص اعتقاد كل ملة أن بقية الملل في النار فالقرآن يقول:﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ النساء(١٢٤)

الآية صريحة...هناك فهم بشري يحاول تجاوزها، لكنها صريحة.

للمزيد: صورة الإله

غموض الإله يزعزع فكرة وجوده في قلوب الناس.

وربما لو كان واضحا جدا لقلت أن هذا يزعزع هيبته في قلبك، كيف يكون الإله العظيم واضحا لهذه الدرجة؟

لكن «الغموض» و«الوضوح» لا يتعلقان بالإله بقدر ما يتعلقان أولا بتعريفك للوضوح أو الغموض، ولقدراتك على «الإبصار».

عموما، البشر يُعدّون الوضوح مرتبطا بالرؤية المادية المباشرة أو ربما الحديث المباشر، وربما يقتنعون برسائل مباشرة.

لكن معايير هذا الوضوح صممت للتعامل مع البشر، لا يمكن إسقاطها على الإله.

معرفته يجب أن تكون بمعايير مختلفة تماما. معايير تضع بالاعتبار أنه «لا تدركه الأبصار» وأنه «ليس كمثله شيء».

الإله ليس غامضا، لكنك لا يمكن أن تتوقع أن تكون الأسئلة سهلة جدا في اختبار مصيري، عليك أن تبذل بعض الجهد.

للمزيد: مغالطة الكاتالوغ المثالي

يقول تعالى: (ليس كمثله شيء)، ويوجد الكثير من الكلام على صفات اليد والساق والاستواء وغيرها في القرآن، في السنة كلام على أن آدم على صورة الله، وأيضا سؤال: أين الله؟ والأين سؤال عن المكان، فيها كلام عن الأصابع، وعن المشي والهرولة..

- بين التنزيه عن التشبيه المادي، وبين إيراد صفات (تشبه نماذج بشرية) خيطٌ رفيع جدا. النص القرآني يورد فعلا ما يمكن أن يشابه التمثيل الوارد في الكتب السابقة (بدرجة أقل)، لكنه يوردها تحت مظلة نص جامع هو (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)...بالضبط استخدام هذه الصفات في القرآن هو لتقريب فكرة القدرة الإلهية والصفات الإلهية لذهن الإنسان، أي أنها أقرب إلى المجاز في بعض النواحي لتقريب الفكرة، لكن هذا المجاز لا يعني أنه ليس حقيقيا على الإطلاق، بل يعني أن إمكانية تصوره الحقيقي غير متوفرة في العقل البشري.

الفكرة هنا أن الله مطلق في صفاته فعلا، لكن البشري لا يمكنه أن يؤمن بالمطلق اللا متخيل، عقله لن يساعده هنا، لذا فلا بد من وجود (منطقة وسطى)، صفات لها (نماذج بشرية) تقرب المعنى في ذهن الإنسان، وفي الوقت نفسه يؤمن بأن الله ليس كمثله شيء ليبعد عن التجسيم.

أمر مهم أيضا على هامش الحجة : الحجة استخدمت نصا من الحديث النبوي، وهنا تجدر الإشارة إلى ثلاثة أمور..

أولا - عدم الخلط بين النص القرآني، والنص النبوي، حتى لو كان الأخير صحيحا، فثبوت القرآن باللفظ والنص أمر لا جدال فيه وعدد من نقله متواتر على نحو يستحيل معه الخطأ أو الكذب ..مع الحديث النبوي الأمر مختلف، فنادرا ما يكون هناك حديث يبلغ حد التواتر اللفظي، بل أغلب الأحاديث هي بين المتواتر المعنوي (الذي ينقل فيه المعنى عبر مجموعة كبيرة من الصحابة دون اللفظ نفسه) أو بين أحاديث الأحاد التي نقلها عدد قليل من الصحابة، لذا لا يصح من ناحية المبدأ معارضة نص قرآني (ليس كمثله شيء) بنص نبوي (خلق آدم على صورته)، لأن الأول نص ثابت والثاني نص أحاد ربما رواه الصحابي كما فهمه من الرسول وليس نصا بالضبط (وهو أمر مقبول عند أهل الحديث).

ثالثا - هذا الحديث يشبه نصا توراتيا لدرجة التطابق، فربما تسرب معناه من الإسرائيليات وأثرت على فهم الصحابي الذي نقله.

للمزيد: التفكير الحر في الكونكريتي / صورة الإله / الحديث صحيح ولكن

الذي خلق المليارات من المجرات،لا يمكن لأي سبب كان، أن يهتم بأي قدم سأدخل الحمام .

الذي خلق المليارات من المجرات يهتم لأمرك وبمن تقتدي في حياتك...

إذا كان هناك من قزّم معاني الاقتداء بحيث جعلها مقتصرة على تفاصيل صغيرة، دون القيم الكبيرة، فهذه مشكلته ولا علاقة للإله بذلك..

من ناحية أخرى: يمكن للتفاصيل الصغيرة أن تلعب دورا تذكيريا مُهِمّاً في القرب منه والاقتداء به في القيم الكبيرة الفاعلة..

عموما أشك بوجود شخص ألحد بسبب هذه التفاصيل..

القدر

الإنسان مُسيّر أم مُخيّر ؟

مسير في أشياء (ولادته في زمن ومكان معينين، أبويه، وبالتالي جيناته، بيئته التي نشأ فيها...) وكل هذه تترك علامات مصيرية في حياته.

في المقابل هناك أمور أخرى لا تقل أهمية، يكون الإنسان مخيرا فيها، كيفية استخدام ما توفر له من جيناته، كي يعمل على تغيير بيئته، كيف يتفاعل مع الآخرين، مع مستقبله ومع حياته.

المسألة ليست محسومة أبدا بين التسيير والتخيير، بل هي تفاعل مستمر بين الاتجاهين، اتجاه التفاعل وسيره وسرعته تحدد بخيارك أنت.

حتى الاستسلام لكل ما يحدث لك، هو (خيار) في النهاية.

اذا كان الله تعالى كتب علينا أقدارنا ومجريات حياتنا قبل أن يخلقنا، فلماذا يعاقبنا إذا عصيناه ما دام هو من حتّم علينا ذلك القدر من قبل أن يخلقنا !!

إذا اخترنا طريق الصلاح أو الضلال فالله تعالى هو من قدر وكتب ذلك علينا منذ الأزل، فما فائدة أن نعيش في هذه المسرحية معروفة النهاية والمرسومة الخطوات مسبقا ؟؟

القدر المكتوب لا يعني الحتمية كما يفهمها الكثيرون.

ما هو مكتوب، هو علم الله المسبق بما ستفعل. الله خارج أطر الزمان والمكان لذا هو يعلم بقرارك مسبقا قبل أن تتخذه.

لو أردنا التشبيه فالأمر يشبه المعلم الذي يعرف كيف سيكون أداء زيد وعبيد في الامتحان بينما هو يضع الأسئلة. معرفة المعلم مسبقا بأداء طلابه لا يعني قسرهم على شيء، هي خبرته فحسب.

مع الله -الذي ليس كمثله شيء- الأمر أكبر وأعمق طبعا، هو خبير بك وبخفاياك من قبل أن تكون، هو قبل الزمان والمكان وغير خاضع لما نخضع له من سير الزمان.

المسرحية ليست معروفة الخطوات، ديكورها ربما معروف، الجو العام لها أيضا محدد، أسماء الممثلين محددة لكن كل ممثل لن يعرف من سيصادف وماذا سيفعل الممثل الآخر، ولكل ممثل حق الارتجال التام في الحوار وفعل ما يريد.

ما دمنا مخيرين لما لم يستشرني الله قبل أن يخلقني؟

من قال أنك مخير أصلا في كل شيء ؟! لا نختار ميلادنا ولا أبوينا ولا زمان ولا مكان ولادتنا، لكن بعد هذا ثمة أشياء كثيرة نختار فيها...

من ضمن الخيارات أن لا نفكر بهذه الطريقة.

خدمة الاستشارة قبل الخلق غير متوفرة، إلا في مغالطة النيرفانا، الكاتالوغ المثالي.

تقولون أن الانسان دون سائر المخلوقات هو المخلوق الوحيد المُكلّف و الذي يملك حرية الاختيار .. فما تفسير :

١- الملائكة : «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ..» محاورة الملائكة لله و اعتراضهم على أن يجعل في الأرض خليفة

أليس هذا دليل على أن الملائكة مخيرة ؟

أين التناقض؟؟...من قال أصلا أن الملائكة ليس لها إرادة وأنها ليست مخيرة خصوصا مع رفض إبليس للسجود لآدم، هذا القول شائع فعلا ولكنه لم يرد في القرآن أو بنص ديني .

٢- الجمادات : «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين»

أليس هذا دليل على أنهم قد اختاروا ؟!

السماء والدخان وقوى الطبيعة خاضعة لقوانين وسنن كونية خلقها الله وهي لا تملك إرادة تجعلها حرة في الاختيار ..لا يمكن أخذ الآية بحرفيتها المباشرة كما هو واضح إذ أن السماء والدخان لا تتحدث اللغة العربية مثلا ومن المستبعد أن يفهم أحد هذا على المعنى الحرفي..

الآية تعني ببساطة أن القوى الكونية منساقة مع القوانين التي تحكمها بطواعية ولا تتمرد عليها.

٣-الحيوانات : حديث الرسول (عليه الصلاة و السلام) «بأنّ الله يقاضي الشاة القرناء من الشاة الجلحاء».

كيف يقاضي الله من ليس له قدرة على الاختيار ؟

الحديث آحاد، المعنى مجازي واضح في أن العدل سيعم كل شيء، لكن الحيوانات لن تحاسب بالتأكيد.

للمزيد: التفكير الحر في الكونكريتي / الحديث صحيح ولكن

تؤمنون بإله إن تدخل في حياتنا تسمونها معجزة أوعقاب وإن لم يتدخل قلتم السبب لمنح العباد الحرية بأن يفعلوا الخير أو الشر حسب إرادتهم (تناقض غير منطقي).

طريقة تفكير البشر وتفسيرهم لما يحدث بهم في حياتهم أمر يخصهم، وغالبا تكون التفسيرات مرتبطة نفسيا بما يؤمنون به.

بكل الأحوال لا أحد يتحدث جاداً عن معجزات. المعجزات خاصة بالرسل وقد انتهت مع ختم النبوة.

ثمة حديث عن رسائل ربانية يبعثها الله لنا عندما نكون مترددين أو حيارى. هناك حديث عن استجابة لدعاء أيضا.

هذا صحيح.

يمكن أن لا تكون هناك رسائل وأن لا يكون هناك تحقيق للدعاء.

لا شيء يقسره عز وجل على ذلك.

الإسلام يدّعي أنه يكفل حرية الفكر وأن عليك أن تفكر وتتوصل إليه بعقلك، ثم يعاقبك بالنار إذا فكرت بعقلك ووصلت إلى نتيجة أخرى...

الإسلام يقول لك أنت حر في اختيار طريقك إلى الآخرة.

الحرية تتضمن تحمل نتائج اختياراتك أيضا.

كيف يهدي الله أشخاصا ولا يهدي آخرين ثم يعاقبهم على ذلك؟

بغض النظر عن الفهم السائد لموضوع الهداية وتصورها (الحصري) ، فإن النص القرآني يقدم مفهوم الهداية الإلهية على نحو مختلف جذريا.

فالهداية فيها شرط أول وهو البحث عنها وطلبها

﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ (العنكبوت: ٢٩/٦٩)

أي الذين بذلوا جهدا للوصول إلى الله، فالآية مكية قبل أن ينشأ مفهوم الجهاد العسكري الذي هو مجرد منطقة من مناطق بذل الجهد...أي أن هداية (السبل) المؤدية لله، (وانتبه هنا إلى أنها سبل وليست سبيلا واحدا) تأتي لمن يكون جادا ..

ولكن هذا ليس كل شيء...ثمة موانع للهداية حددها النص القرآني نفسه في مواضع عديدة

الله لا يهدي القوم الظالمين، الله لا يهدي القوم الفاسقين، الله لا يهدي القوم الكافرين.

الظلم مثلا، سواء كان ظلماً للآخرين أو لنفسك، أو للأمور بصورة عامة، يجعل المقاييس غير متوازنة، يعلمك الانحياز دوماً لجهة ما دون وجه حق، وهذا يتنافى فوراً مع آلية الاهتداء التي تتطلب قدراً من النزاهة يجعلك تتحمل نتائج ما وصلت إليه..

والفسوق يمنع عملية الاهتداء أيضاً لأنه ببساطة يجعلك عازفاً عنها وعن كل ما هو جدي ونافع حقاً. إنه يربطك بمجموعة غرائز ومتع صغيرة ويجعلها محور عالمك وحياتك، كل ما يتطلبه الاهتداء من جدية والتزام ودأب..

والكفر هنا هو بمعناه العام الذي يجعل من الإنسان يتخذ موقفاً مسبقاً رافضاً معانداً لله عز وجل بالمطلق، إنه الموقف الجاحد الذي لا يرى أي هامش للتواصل مع الإيمان بالله عز وجل، وبالتالي للرضوخ له..

هذه الموانع الثلاثة للهداية، لو أزيلت، ولو كان هناك الشرط الأول (جاهدوا فينا- بذلوا جهدا للوصول إلينا) لكان ممكن جدا أن تحدث الهداية...

الهداية لسبلنا...وليس لسبيل واحد..

* * *

هل يمكن لنص (بشري) ما، أن يكون محملا بكل هذا ومفهوما على هذا النحو المتجدد؟
جوابي: لا طبعا...لكنه ليس نصا بشريا...

للمزيد: أسئلة القدر المزمنة

ما دام الله يعرف مصير كل منا سواء في الجنة أو النار....لم العمل إذن؟!...

معرفة الله بما سيحدث لا تعني القسر على شيء.

المدرس قد يعرف كيف سيؤدي تلامذته في الامتحان. لو أنهم اتكلوا على تقييمه لهم ولم يحضروا الامتحان فهذا التقييم لن يكون فعلا. والله المثل الأعلى.

الله يعرف ماذا ستفعل مسبقا لأنه خارج الزمان والمكان مطلق القدرة. لو قررت أن لا تفعل شيئا لأن كل شيء قد تحدد سلفا فهو سيكون قد عرف ذلك لكنه لن يكون قد أقسرك.

أنا أدرس فأنجح أعمل فآخذ مالا على جهدي، أتمرن فتنمو عضلاتي، أركض تزداد لياقتي ويطول عمري، لماذا تقولون الله هو من رزقني، الله علمني، الله هداني، الله أطال عمري، الله وفقني، كيف أكون أنا الفاعل وتقولون لا....، الله خلقني وأعطاني القوة والقدرة والإرادة وبث في الكون أسبابا فأنا أحمده على كل هذا، ولا أجعله سبحانه هو الفاعل لأفعالي

هو من سن القوانين التي من خلالها فعلت ما فعلت، لكنك أنت الفاعل بالتأكيد. هذا لا ينفي أن تحمد وتشكره على الوسائل التي استطعت من خلالها أن تقوم بفعلك، لا يوجد فعل تفعله أنت أو يفعله أي أحد ويكون مستقلا تماما عن عشرات الأفعال المتداخلة من حوله، وربما أكثر من عشرات بكثير....

الأمر يشبه ما يعرف بـ «تأثير الفراشة» في «نظرية الشواش»

وهو مصطلح مجازي، يستخدم للتعبير عن مفهوم الاعتماد الحساس والمهم للحدث على الظروف الأولى المحيطة له في نظرية الشواش وتطبيقاتها في العلوم المختلفة. وهذا المصطلح يأتي للوصف المجازي لحاله وليس لتفسير الحالة..

ويشير هذا المصطلح في الأساس إلى أن الفروق الصغيرة في الحالة الأولى لنظام متحرك قد ينتج عنها في المدى البعيد فروقات كبيرة في تصرفات وسلوكيات هذا النظام..

وهذا التعبير المجازي يصف تلك الظواهر ذات الترابطات والتأثيرات المتبادلة والمتواترة التي تنجم عن حدث أول، قد يكون بسيطا في حد ذاته، لكنه يُوَلِّد سلسلة متتابعة من النتائج والتطورات المتتالية والتي يفوق حجمها بمراحل حدث البداية. وبشكل قد لا يتوقعه أحد. وفي أماكن أبعد ما يكون عن التوقع. وهو ما عبر عنه مفسرو هذه النظرية بشكل تمثيلي بقول بما معناه، أن «رفة جناح فراشة في الصين قد تسبب إعصارا في أمريكا».

ربما نستطيع أن نسقط الأمر على أفعالنا. هي في النهاية جزء من شبكة متداخلة من الأفعال وردود الأفعال، وبعض ما يبدو أنه «رفة جناح فراشة» قد يكون صاحب تأثير متعاظم يؤثر على ما نفعله بأكثر مما نعتقد..

كل هذه الشبكة من الأفعال وردود الأفعال تدخل ضمن قانون السنن الإلهية..

أنت تفعل «الجزء الخاص بك» بالتأكيد، والذي تتحمل مسؤوليته ثوابا أو عقابا..

لكن الأمر أعقد من ذلك بكثير...

للمزيد: أسئلة القدر المزمنة

لو أنه أصيب ومات..لكان قدر الله أنه مات..

ولو أنه لم يصب....فكان قدر الله ..أنه أنجاه..

قدر الله ..إذا احتمالية ٥٠/ ٥٠ ..إما أن يصيب أو لا ..هل الإله يلعب النرد ؟!

الإله لا يلعب النرد، الناس يحاولون عادة صنع مفاهيم يتعايشون بها مع الواقع بناء على تجاربهم ومعارفهم الشخصية، وبناء على حالتهم النفسية الآنية... الإنسان يميل إلى أن يفسر ما يحدث له بأكثر الطرق راحة له، وهكذا فالحدث نفسه يمكن أن يفسر بأكثر من طريقة اعتمادا على مشاعرنا تجاه الشخص الذي تحدث له، أن يصاب حبيب لنا بمرض فهذا ابتلاء والمؤمن مبتلى، أما نفس المرض لو أصاب طاغية ما، أو أحد أفراد أسرته فهو عقوبة من الله وربما يسجد البعض سجدة شكر عند سماعه الخبر!

لكن هذا مجرد «تحيز معرفي» نقوم به دون وعي تام، لتفسير «القدر» أو الأحداث التي تجري دون إرادة أو تدخل بشري، «الحدث» نفسه منعزل تماما عن تفسيراتنا المريحة، الحدث يمكن فهمه من خلال الصورة الكبيرة التي تتجاوز تفاصيل مشاعرنا وفرحنا أو حزننا تجاهه.

يشبه الأمر لوحة فنية يفهمها النقاد والمشاهدون على نحو مختلف تماما، مثل الموناليزا تماما، هناك تفسيرات كثيرة ومتناقضة لابتسامتها وما تعبر عنه، هل هي حزينة، هل هي سعيدة، هل هذه الابتسامة ساخرة، أم ماكرة...هل هي أنثى كاملة؟ أم ثمة رجل يخفيه دافنشي خلف ملامحها؟ هل هي الموناليزا حقا أم أنها دافنشي نفسه يضحك على الجميع؟

في دراسة حديثة في جامعة فريبرغ في ألمانيا، وجد أن نفس الأشخاص يجدون ابتسامة الموناليزا تعبر عن سعادة، ثم بعد قليل يجدون أنها تعبر عن حزن.

بعيدا عن كل هذه التفسيرات، هناك بالتأكيد دافنشي وما كان يقصده عندما رسم اللوحة.

إذا كان هذا يحدث مع عمل فني، فلم لا يحدث أيضا مع أحداث تجري في حياتنا وحياة غيرنا، ويفهمها كل منا على نحو مختلف؟

ما الفرق بين إرادة الإله و علمه؟ كيف يعلم ما ستفعل و لا يريده؟ إن كان لا يعلم فهو غير محيط بخلقه، و إن كان يعلم فهو مجبر لك على ما تعمل؛ فكيف يحاسبك على ما لم ترد؟

فلنقرب الفكرة بالمثل التالي ولله المثل الأعلى..

أستاذ مادة الرياضيات يقدم مسألة رياضية لطلابه ويطلب منهم حلها خلال خمس دقائق.

بينما الطلاب يحلون هو يمر عليهم ويراقب خطوات الحل التي يقوم بها كل منهم على حدة.

الأستاذ يعرف بطبيعة الحال خطوات الحل النموذجي. لكنه لن يتدخل في طريقة حل الطلاب قبل انتهاء المدة لأن هذا ببساطة يتناقض مع فكرة الامتحان. الجواب النموذجي هو ما يريده. لكنه لن يكتبه لهم على اللوح كي ينقله الجميع. عليهم أن يفعلوا هذا بأنفسهم.

ما يريده الأستاذ هنا لا يتناقض مع ما يشاهده عيانا من حل طلابه.

الأمران منفصلان تماما.

وفي عودة إلى السؤال الأصلي عن الإرادة والعلم.

العلم المسبق لله لا يتناقض أبدا مع حرية البشر في الاختيار.

كتطبيق على المثال السابق: الأستاذ المتمرس عندما يضع السؤال، وهو على معرفة بنمط تفكير طلابه، فهو على الأغلب سيعرف ما هي طريقة زيد في حل السؤال أو في أي خطوة سيقع عمرو في الخطأ.

الله عز وجل هو الأعلم بما سيفعله عباده وهو الأعلم بظروفهم ونشأتهم ودقائق واقعهم، هو صاحب العلم المسبق، الذي لا علاقة له بالجبر على الإطلاق.

للمزيد: أسئلة القدر المزمنة

هل كان من الممكن للقدر أن يسير في غير الاتجاه الذي سار فيه؟ و إن كان كذلك فما مصير تلك المسالك القدرية الموجودة في العقل الإلهي؟ و إن لم يتم استخدامها فلم العبث في خلقها؟

هل كان يمكن لك أن تختار مجال دراسة آخر غير الذي درسته؟

نعم كان يمكن.

لكنك لم تفعل.

لماذا؟

لأن جملة أشياء تدخلت وجعلتك تأخذ هذا الطريق. رغباتك، ميولك، اهتماماتك، تشجيع أهلك أو العكس (البعض يعشق تحدي أهله لظروف مختلفة)، توفر الدراسة قربك أو عدم توفرها (البعض يهوى الاستقلال مبكرا والدراسة خارج مدينة سكناه توفر له الفرصة لذلك..وغالبا هذا الهوى أيضا مرتبط بعوامل متعددة سابقة)، كذلك مقدار رضاك عن المكانة الاجتماعية التي يتوقع أن توفرها لك هذه الدراسة، ومالذي يختاره زملاؤك، وهل ترغب أن تبقى في نفس محيطهم أم تفضل الانفصال (وهذا أيضا مرتبط بعوامل مختلفة سابقة).

وهناك بعد هذا كله أنت، لديك رغم كل ما سبق هامش إرادة حرة لا يمكن إلغاءها من المعادلة.

وهكذا في كل قدر : هناك عوامل سابقة متعددة متنوعة تتدخل في أغلب قراراتنا، تتدخل وليس تتحكم، لأن هامش الخيار الحر والإرادة الحرة يمكن أن يقلب الطاولة على ما يبدو أنه سيحدث ويكون.

هناك دوما عوامل (تحدد نقطة إنطلاقنا) لا يمكننا تغييرها، مثل مكان وتاريخ ولادتنا، طبقتنا، ما نرثه من أهلنا من صفات جينية، وما نكتسبه منهم ومن بيئتنا بالتعلم...الخ

كل هذه الأمور لا يمكننا تغييرها إلا لاحقا، وبعضها لا يمكن تغييرها أصلا، وهي بطريقة ما، تشكل ما أنت عليه. .ويبقى في الوقت نفسه عوامل وأحداث مستمرة حولك، تتفاعل معك وتتفاعل معها، تغير طريقك أحيانا وتحرص على البقاء في نفس الطريق بالرغم منها في أحيان أخرى..وثمة مفترقات طرق كثيرة يتدخل في اختيارها كل ما سبق. بالإضافة إلى إرادتك وخيارك .هل يعرف الله كل هذه الاحتماليات؟

نعم ..يعرفها مسبقا..مثل المدرس الذي يعرف كيف يتصرف طلابه الذين خَبِرَهم طيلة السنة عندما يقدم لهم أسئلة فيها (نوع من الالتفافة) الخفية...ولله المثل الأعلى.

ما معنى «ما مصير المسالك القدرية الموجودة في العقل الإلهي»؟

ما هو مصير الاحتمالات التي لا تحدث.

لا مصير لها. لأنها لم تحدث!

للمزيد : اسئلة القدر المزمنة

ما حاجة الإله ليجبرك على شيء ثم يختبرك فيه؟ و هو في اللوح المحفوظ كتب كل شيء؟

لا يحتاج الإله إلى أي شيء. هو خارج مفهوم الاحتياج.

هو لم يجبرك على شيء. هو يعرف مسبقا ما ستفعل وعندما تقرر أن تفعل شيئا آخر فهو يعرف أنك كنت ستقرر هذا الشيء.

هل كتب هذا في اللوح المحفوظ؟

كلمة «كتب» لا تعني بالضرورة «الإجبار» كما قد نفهمها، بل هي مثل أن يكتب الأستاذ تقييمه العام لنتائج الامتحان قبل الامتحان، تعالى الله عن أي تشبيه، وإذا كان الأستاذ بخبراته المحدودة يمكنه أن يسبق الامتحان بنتائج مقاربة، فكيف بالخبير جل وعلا؟

كذلك اللوح المحفوظ لا يشبه بالضرورة (اللوح).

بعد هذين التوضيحين...

نعم..كل هذا (كتب) في (اللوح المحفوظ)..لكن لا نعرف شكل الكتابة ولا شكل ولا كنه اللوح المحفوظ..هي المعرفة الإلهية المسبقة بكل شيء.

للمزيد : أسئلة القدر المزمنة

الجنة والنار

هل من الممكن وجود إله: غفور ورحيم وعادل، يرى ٦ مليار شخص غير مسلمين ولا يعرفون شيئا عن الإسلام، ثم يتركهم ويرميهم في النار؟

ليس من وظيفتنا إدخال الناس في الجنة أو في النار. الحكم الأخروي لله، وليس لمن يتصورون أن لهم الحق في إطلاق الحكم بالجنة والنار على الأمم والشعوب بالجملة.

هناك نصوص دينية كثيرة يمكن الرجوع لها بدلا من الاكتفاء بما يقوله البعض من رجال الدين، وهي نصوص نفهم منها أن رحمة الله وجنته ليست محتكرة لأحد...

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة (٦٢)

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ النساء(١٢٣-١٢٤)

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة (٦-٨)

كما علينا أن نتذكر أن وجود نصوص عامة تتحدث بشكل عام عن جماعات البشر التي ستذهب إلى النار ليس بهدف أن نحكم عليهم، بل لغرض ألا نقع في الخطأ الذي وقعوا فيه. لكن مصيرهم -كأفراد- لله رب العالمين وليس لنا أن نقرر فيهم شيئا.

للمزيد: الآخرة

الأحاديث المتناقلة -بغض النظر عن صحتها- بمواضيع العذاب الذي توعد الله به.. تدفعني لطرح السؤال التالي: لماذا يكون الرب أو الإله ساديا ويحب التعذيب.. بل يتفنن بأشكاله؟

العذاب هو المقابل الموضوعي للثواب.

وجهنم هي المقابل الموضوعي للجنة.

وكما أن هناك نعيم عظيم في الجنة، فيجب أن يكون هناك عذاب في النار...بالضبط كما أن هناك (تفنن) في نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهناك أيضا المقابل السلبي لكل ذلك.

إنه مبدأ الثواب والعقاب في جوهره.

لفظة السادي هنا لا محل لها من الإعراب للأسباب التالية: أولا المعنى غالبا يرتبط باللذة الجسدية المصاحبة لإحداث الألم، وهو أمر لا معنى له هنا.

ثانيا لأن مجرد وجود النعيم يلغي صفة السادية من أساسها.

الأمر هنا ليس مرتبطا بصفات الإله، بل بمبدأ الثواب والعقاب، وبصفات البشر التي جعلتهم يذهبون إلى هنا أو هناك.

كيف لإله بمواصفات الشفقة و الرحمة و الحب أن يهدد المخالفين بالنار و السلخ و الحرق و الجلد ؟ أليس هذا بإله داعشي ؟؟

الله في الإسلام ليس محبا ورحيما فحسب، بل هو عادل أيضا.

والعدل يتطلب الثواب ويتطلب كذلك العقاب.

ويشمل كذلك الرحمة.

ليس من العدل أن يدخل الجميع الجنة فيتساوى من بذل كل جهده وعمره مع من لم يفعل شيئا في حياته.

ليس من العدل أن تَعُمَّ الرحمة الجميع، حتى أولئك الذين لم يرحموا الناس في حياتهم وتسببوا بمجازر وحروب راح ضحيتها الملايين من البشر.

إله يرحم هتلر وبيغن وستالين وغيرهم من الطغاة «المحليين» الذين ارتكبوا المجازر ؟

هذه الصورة الرومانسية للإله هي صورة ساذجة جدا وأبعد ما تكون عن مفهومنا لله في الإسلام.

ثمة ثواب للمحسن وعقاب للمسيء.

وثمة هامش رحمة كبير بين الاثنين مثل الـ (curve) الذي يقوم برفع درجات الراسبين في الامتحان فينقلها من خانة الرسوب إلى النجاح.

وهذا هو العدل.

فكرة الجنة مملة، ماذا سأفعل في مكان يحوي طعام من كل الأنواع وبنات من كل الأشكال ..والتمتع بكل ذلك للأبد ؟!

الخيال الإنساني قادر بالتأكيد على إيجاد إبداعات جديدة ستكون ممكنة التحقيق في الجنة على نحو لا يمكن فيه للملل أن يحدث.

ربما الشعور بالملل أصلا سيزال من نفسيتنا.

عموما هذا آخر ما يجب أن تقلق بشأنه الآن، يمكنك القلق لاحقا عندما تتأكد من دخولك الجنة.

لماذا تكون النجاة لصاحب الاعتقاد التوحيدي و العمل السيء و لا تكون لصاحب الاعتقاد الفاسد و العمل الجيد؟ إن كان الإله هو الخير المطلق؟

نجاة صاحب العمل السيء والاعتقاد الصحيح أمرا ليس محسوما أو مطلقا.

عدم نجاة صاحب العمل الجيد والاعتقاد الفاسد أمر آخر. هل اعتقاده فاسد حقا ؟ لأي درجة؟ ماذا كان هدفه من عمله الصالح؟

سيكون هناك حساب لكل هذا، ويحكم بالأمر من خلق كل هذا، وليس لأحد من خلقه أن يقرر ذلك نيابة عنه.

لماذا يقوم الله بتعذيب الناس عذابا أبديا بسبب أخطاء وذنوب مؤقتة بحياتهم الدنيوية؟

من قال أنه سيعذبهم عذابا أبديا؟ أخبرنا عز وجل بأنه يغفر الذنوب جميعا، بل إن موضوع «فناء النار» طرح بشكل جاد من قبل الكثير من العلماء المسلمين.

نعرف بأن المبتلى له أجر مضاعف إذا صبر على ابتلائه ..لكن ماذا لو لم يصبر؟ أو كفر بسبب ابتلائه (مرض مثلا أو ظلم حل به فأفقده عائلته أو جزء من أعضائه أو كرست الظروف عليه الفقر رغم اجتهاده)؟

ماذا عن أبناء الفقراء الذين عاشوا في بيئة مظلومة اضطرتهم إلى العمل أضعاف مضاعفة لجني مال ربما لا يكفيه إلى آخر اليوم؟ لن يعذره الله -بحسب ما نعلم- إن كفر ولم يصبر! فهو في امتحان. لكن شخصا آخر في نفس الزمن في نفس هذه الدنيا والأرض لم يتعرض لابتلاء، بل عاش حياة مكرمة ومنعمة -بالوراثة- وقضى حياته مؤمنا شاكرا لله! لربما لو شم رائحة ابتلاء ذلك الضعيف لخر إيمانه هاويا!! فلماذا يحاسب المبتلى الذي لم يصبر على امتحان لم يوزع توزيعا عادلا؟

مبدئيا لا نعرف إن كان الله سيعذر من لم يحتمل البلاء أم لن يعذره. الحكم لله وحده وليس من مهامنا أن نحكم على أي أحد.

من ناحية أخرى، الله يحاسب الأفراد فرادى، وليس كمجاميع مصنفة ضمن معاصيها، كل نفس بما كسبت رهينة، ويل لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها...فمن تمام العدل الإلهي أن يكون الحكم الأخروي آخذا في الاعتبار الظروف الشخصية لكل فرد...الكتاب الذي يحصي كل صغيرة وكبيرة لا يضم أفعالنا بمعزل عن ظروفنا، بل معها وضمنها.

ومرة أخرى، لا نتألى على الله ولا نقرر بالنيابة عنه. هو الحكم العدل والحكم له وحده.

قد يسأل أحدهم هنا: هل من العدل أن تختلف أصلا الظروف إلى هذه الدرجة بين ترف شديد ويسر و ظروف شديدة الصعوبة لدرجة الكفر؟

مبدئيا، تغيير الظروف المحيطة بنا هو جزء من امتحاننا أصلا.

الظروف المحيطة الميسرة يكون الامتحان فيها استثمارها لتغيير ظروف الآخرين.

عندما يكون الامتحان الدراسي شفويا، فإن الأسئلة قد تتفاوت من طالب لآخر...الطالب الذي يأتيه سؤال سهل، سيحاسب غالبا من قبل ممتحنيه على كل تفصيل...السؤال سهل، والكمال فيه أسهل لذا فالتدقيق على إجابته يبدو منطقيا جدا.

الطالب الذي يأتيه سؤال صعب. المتحنون عادة ينظرون له بعين أقل محاسبة على الهفوات التي لم يكونوا يفوتونها على الطالب الذي جاءه سؤال سهل.

إذا كان هكذا الأمر مع البشر في تقديرهم لظروف بعضهم البعض...فكيف يكون الله الرحيم العادل مطلق العلم والمعرفة؟

للمزيد: أسئلة القدر المزمنة

أي إله هذا الذي خلق الناس ليدخلهم الى النار ويعذبهم؟

يمكن تعديل القول إلى

يخلق الناس

يمنحهم الخيار

يمنحهم الإرادة

ثم يحاسبهم على أفعالهم.

كيف أصدق أنّ الله هو أرحم الراحمين وقد توعد عباده بالحرق والشواء وغيرها من فنون التعذيب ..بينما الأم مهما فعل ابنها من أخطاء كبيرة بحقها، لاتستطيع حرقه أو شواءه ...إذن الأم هي أرحم الراحمين وليس الله..

لله عز وجل صفات كثيرة من ضمنها الرحمة ومن ضمنها أيضا الحساب وشدة العقاب والعدل...التركيز على صفة واحدة بمعزل عن الصفات الأخرى يولد عدم توازن في النظرة إلى الإله.

هذا أولا.

ثانيا – نمط رحمة الأم ليس بالضرورة هو النمط المثالي الصالح للتعبير عن الرحمة مطلقا، فكثير من رحمة الأم قد يكون مفسدة للأبناء.

رحمة الله تتجلى في أماكن كثيرة ويستشعرها الكثيرون بالفعل. لكن من ينتظر من الله أن يكون رحيما فحسب يريد إلها حسب التفصيل.

اذا ابتلى الله تعالى إنسانا وكانت حياته عبارة عن مصائب متتالية فيجب عليه الصبر وعدم الاعتراض، وفي حال انتحر للتخلص من هذا الألم سيدخله الله النار، أين العدل وأين الرحمة ؟

القتل عموما محرم...قتل النفس (الذات) وقتل نفس الآخر من الكبائر..

أما موضوع الدخول إلى الجنة والنار لشخص بعينه بسبب الانتحار فهذا ما لا يمكن معرفته، وهو لله عز وجل إن شاء غفر له وإن شاء أدخله في جنته وإن شاء غير ذلك...

هي جريمة قتل...كبيرة...لكن إن شاء الله غفر...

فكرة الموت والبعث عبثية

لمَ خلق من البداية إن كان الفناء هو النهاية ؟

نفهم أن يكون الفناء عبثيا، وهو كذلك فعلا، لكن البعث ليس عبثيا بالتأكيد.

على العكس...الإلحاد في جوهره عبثي تماما إذ هو لا يؤمن بوجود هدف في الكون ونشوء الإنسان.

للمزيد: لماذا خلقنا؟

لماذا عَلَيّ أن أنتظر الجنة لكي أعيش سعيدا وعندي الدنيا أتمتع فيها؟

إذا كان كل ما تفعله هو انتظار الجنة، فمن المستبعد جدا دخولها.

يمكنك أن تعيش سعيدا ثم تقودك حياتك التي عشتها إلى الجنة.

الأمر يعتمد على تعريف السعادة.

لكن محض الانتظار لا يقود إلى الجنة.

لماذا يكون قدر خروج نفس من العدم إلى الوجود هو الأبدية في الجحيم؟ ألم يكن بقاؤها في العدم خيرا لها؟ و الإله يريد الخير المطلق كما تقولون؟

كلمة الخير المطلق تستخدم من غير نص قرآني لذا فالمحاسبة عليها يجب أن تكون حسب ما يفهم من هذه الكلمة.

الله يريد بنا اليسر، هذا أقرب نص قرآني لمفهوم الخير المطلق، لكن هذا الخير أو اليسر مرتبط بوجود الشخص المراد له الخير..أي أن موضوع (عدم وجود الشخص) لا يتناسق مع الفكرة كلها. إرادة الخير أو اليسر لنا مرتبطة بوجودنا، فكرة) عدم الوجود) تلغي إمكانية الخير أو الشر.

يمكن أن يصاغ السؤال : ألم يكن من الأفضل أن لا يخلق فلان (الذي كانت حياته تعيسة) أو الذي انتهى إلى الجحيم ؟ ألم يكن من الأفضل من الإله الرحيم الذي يريد الخير أن لا يخلقه أصلا؟

أفضل لمن بالضبط؟

للشخص نفسه؟

أما كان من الأفضل له أن يختار نهاية أفضل من الجحيم الذي يشير إليه التساؤل ؟

الله قدم لنا الخيارات، وترك لنا الاختيار فيما بينها..وهذا هو الامتحان.

هل الخير المطلق يتعارض مع الامتحان؟

بالتأكيد لا..وإن كان ثمة تعارض فهو في فكرتنا عن الخير المطلق.

ملحوظة بخصوص أبدية الجحيم بالنسبة للبعض...هذا الأمر متروك له عز وجل.

ألا تعتقدون أن قبول إبليس للعذاب بعد رؤيته كل الدلائل على وجود الخالق، و أمر الخالق له مباشرة، وكونه يرانا ويرى الملائكة ويعرف قومه الأبالسه، يوحي إما بأن العذاب هين، أو أن الادلة ليست كافية لإقناعه كونها أصلا ليست موجودة؟

مالذي نعرفه عن آلية تفكير إبليس؟ وحس المخاطرة عنده؟ مالذي نعرف عن طبيعة تعرضه للألم؟ وحسابات الربح والخسارة؟

لا نعرف شيئا عن كل هذا. لكننا نقيس على آلية تفكيرنا نحن، وحس المخاطرة، وفكرة الألم عندنا...وكلها أمور لا يشترط توفرها أو توفر شبيه لها عند (إبليس).

الموضوع قائم بأكمله هنا على تصور بشري لإبليس.

باعتبار الله كلي القدرة لماذا تنعدم مغفرته لسلوكيات بسيطة إنسانية و ولأفكار هو يعرف أنها موجودة أو ستوجد و وبأمر منه هو، قبل حتى خلقنا....؟

كلي القدرة وكلي الخيار أيضا، لم يقل أحد أن مغفرته تنعدم حاشاه..على العكس قال عز وجل أنه يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك...بالتأكيد بعض رجال الدين يفضلون تقديم صورة منعدمة المغفرة لله...لكن في النهاية الله عز وجل قال في محكم كتابه أنه يغفر الذنوب جميعا...

كيف تدّعون أن الله عادل وهو فعليا لا يهمه إلا آخر عمل عمله الإنسان مهما كان ماضيه، الأعمال بخواتيمها...كما في قصة من قتل ١٠٠ نفس ثم تاب..

- قصة العابد والكافر اللذين تبادلا الأدوار ثم ماتا.

كل هذه الآثار هي أحاديث نبوية ولا يوجد ما يسندها قرآنيا على حد علمي.

من الواضح أن الأحاديث والمفهوم ككل يهدف إلى تشجيع الناس على التوبة مهما اقترفوا من ذنوب. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى يشجع هذا المفهوم أصحاب الأعمال الصالحة على الاستمرار فيها وعدم الاغترار بما قدموا والخوف من أن يفعلوا ما يلغي كل ذلك.

لفظ الأعمال بخواتيمها ليس لفظا لحديث بالمناسبة، بل هو مفهوم عام مستند على الأمثلة التي ورد ذكرها.

للمزيد: الحديث صحيح ولكن..

مشكلة الشر في العالم

إذا كان هناك خالق، فهو شرير أنزل عدة أديان ليتصارع الناس بسببها وتحت اسمه، ولما كان الشر مناقضاً لفكرة الإله التي اخترعها الإنسان الأول، ليبرر عدم فهمه للكثير من الاشياء من حوله، فإن الإله حتما غير موجود ...

المتتالية قائمة على ما يلي : أولا - الله موجود.

ثانيا- الشر موجود في العالم بسبب الحروب وبعضها (وليس كلها) بسبب الأديان.

ثالثا- الشر مناقض لفكرة الإله.

رابعا -إذن الله غير موجود.

المتتالية تفرض على الإله ما يلي (تحدد صفاته وواجباته، وترى أنه مقصر فيها، فيؤدي ذلك إلى عدم وجوده) .

وهذه فرضيات تناقض بعضها بعضا... فالإله لم يقل أبدا أن الأرض خالية من الشر، لكنه منحنا الخيارات التي يمكن أن تؤدي إلى الخير أو إلى الشر، كما أنه منحنا الإرادة التي تجعلنا نتحمل مسؤولية قراراتنا.

الأرض مليئة بالشر بسبب الإنسان.

وهذا هو امتحانه على هذه الأرض أصلا..الامتحان الذي وضعه له الله.

استخدام هذه المغالطات لنفي وجود الله يشبه أن تنفي وجود (المدرس) لأن الأسئلة في الامتحان كانت صعبة.

للمزيد : مغالطة الكاتالوغ المثالي / مشكلة الشر والمعاناة في العالم

لماذا يخلق الله الإنسان ولديه دوافع الشر والمعصية والقتل والحروب وسفك الدماء، لماذا لم يخلق الإنسان مثل الملائكة ليبني مجتمعات سعيدة على الأرض.

لن يكون هناك معنى في إجراء اختبار في هذه الحياة إن لم تكن هناك نوازع شر ومعصية على الإنسان أن يحاربها ويتفوق عليها..

الأمر مثل أن تجري امتحانا بأسئلة في غاية البساطة لطلاب درس بعضهم باجتهاد طيلة السنة وآخرون لم يفتحوا كتابا حتى ليلة الامتحان، الأسئلة السهلة تساوي بين الجميع وفي هذا ظلم للبعض.

للمزيد: لماذا خلقنا؟

لماذا يخلق الله الإنسان و معه كائنات أخرى، وجودها ينتهي وحياتها مليئة بالآلام، لماذا أصلا يحتاج إلينا؟

في البداية يكون السؤال لماذا خلق الله الإنسان.

ثم يصبح لماذا خلق الحيوانات.

خلق الله الطبيعة كلها، وفيها حيوانات ونباتات وكائنات من كل الأنواع، لا يمكن فهم وجود كل هذه الأنواع التي تبدو بلا جدوى إلا بفهم طبيعة التدرج في الخلق من الخلية الأولى وبدور كل هذه المخلوقات في عملية التوازن البيئي والحياة ككل.

(عن سقوط الرافعة في الحرم المكي ووقوع ضحايا نتيجة لذلك)

إذا كان الله غير قادر على حماية من يعبدوه في بيته فهو (ضعيف)

وإذا كانت هذه مشيئة الله وقدره فهو (ظالم)

لقد تركوا الأصنام لأنها لا تدافع عن نفسها

والآن الإله غير قادر على الدفاع عن ممتلكاته .

إذا كانوا قد تركوا الأصنام لأنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها،

فقد تركوها للسبب الخطأ.

وهذا لا يجعل من الإيمان بالله خاطئا بالضرورة...

لأنه يحدث لأسباب مختلفة تماما.

للمزيد: مغالطة الكاتالوغ المثالي

هل تغيرت طريقة تعامل الله مع بني آدم بعد نزول الإسلام ؟عندما هاجم أبرهة الكعبة خرج كل أهل مكة إلى خارجها ولم يدافعوا عنها وقالوا أن للكعبة رب يحميها وكذلك فعل الله ، أما بعد الإسلام تعرضت الكعبة لأكثر من هجوم وهدم ولم يتدخل الله بمعجزة فهناك تغير بالتعامل واضح هنا..

لا يمكن قياس (حادثة واحدة) - حادثة أصحاب الفيل - على عموم السلوك الإلهي، قيامه بالتدخل مرة لحماية الكعبة لا يعني أبدا انه سيفعل ذلك دوما، كما أن سلوك أهل مكة غير مهم هنا على الإطلاق فهم كانوا مشركين وفعلهم لا يعتد به.

في العموم، هناك ما تغيّر فعلا بعد القرآن، أي بعد نزول الرسالة الأخيرة. أصبحت البشرية مهيأة كما نعتقد إلى تحمل مسؤوليتها ووصلت لدرجة من إمكانية النضج والرشد على نحو يجعل التدخل الإلهي محدودا جدا، علما أن التدخل الإلهي المقصود هنا هو التدخل في عقوبة الأقوام التي رفضت الرسالات الإلهية فحسب، مثل قوم عاد وثمود ولوط. وهو أمر انتهى بنهاية الرسالات وختمها.

الفقراء الذين ابتلاهم الرب بأمراض مستعصية لا يجدون مالا للعلاج .. يشاهدون أولادهم يموتون .. أين الرب الرحيم الرزاق عن ما يحدث ..أيعاقبهم إن سرقوا ليعالجوا .. أم يتركهم بشقائهم ليروا أبناءهم يموتون؟

مشكلة الشر في العالم واحدة من أهم أسباب الإلحاد، وهي مرتبطة جذريا بعدم فهم صحيح لما هو مطلوب من الإله، وما هو مطلوب منا نحن البشر. النظرة السطحية تعاتب الإله على كون العالم مليء بالمآسي والكوارث والمصاعب، ومن ثم ينتقل هذا العتب إلى نقمة والنقمة إلى إلحاد، لكن من قال أن الله خلق العالم كاملا وبلا مصاعب لنكون سعداء فيه، متى قال الله ذلك ؟ العالم بالتأكيد مليء بمصاعب كثيرة، وهذا جزء من الامتحان، واجبنا نحن أن نجعله أفضل. أن نتخطى المصاعب، سواء تلك التي تحدث بسبب كوارث طبيعية (جفاف، زلازل، فيضانات) أو تلك التي تحدث بسبب ظلم الإنسان (الفقر، الجوع، الاستبداد)..

للمزيد: مشكلة الشر والمعاناة في العالم

هل الإله ضعيف لا يستطيع إثبات نفسه إلا من خلال مآسي الضعفاء وآمالهم؟! المثال هو عن معلق على الفيس بوك ترك تعليقا ضد شخص ملحد فقال له عندما يمرض أطفالك بمرض لا ينفع معه العلم والطب، عندها فقط ستعرف أن الله حق!

مبدئيا، التعليق من هذا النمط تعليق ساذج ويعتقد صاحبه أنه يحسن عملا بينما هو يقدم صورة سيئة جدا للمتدينين، ولفكرة الإله في تصوره الشخصي. لكن في النهاية هذا مجرد تعليق شخصي لا يمثل المؤمنين بالضبط كما أن الملحدين عندما يسيئون أو يسخرون لا يعبرون بالضرورة عن الإلحاد بل يعبرون عن سلوكهم الشخصي وفهمهم فحسب.

لكن السؤال يبقى مطروحا: لماذا لا نرى الله إلا في حالات الضعف؟

لماذا يستخدم الكثيرون حالات الضعف الإنساني للتدليل على قوة الإله؟

علما أن هذا الأمر استخدم في آيات قرآنية كثيرة ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء(٨٠)

لا يمكن إنكار أن الإنسان مهما بلغت قوته، ففي النهاية هناك معارك لا معنى في خوضها بالنسبة له لأنها خاسرة سلفا. مثل الموت.

الضعف البشري حقيقة لا يمكن إنكارها بالضبط كما لا يمكن إنكار القوة البشرية في حالات أخرى. الوضعان يتكاملان مع بعضهما البعض، إنكار الضعف البشري باعتباره حقيقة هو بالضبط كإنكار القوة البشرية، محض تعامي عن الحقائق الواضحة.

متى يستخدم الضعف ؟

عندما تجعلنا القوة البشرية ننسى الجانب الآخر من إنسانيتنا..عندما تنسينا ضعفنا فإن الضعف تذكير بالتأكيد..

لكن القوة البشرية، على العكس مما هو سائد، يمكن أن تكون وسيلة للإيمان...

القوة البشرية تجعلك أكثر قدرة على سبر غور عظمة الخلق وابداع الخالق..وهذا يجعل الإنسان أكثر تواضعا، ليس عن ضعف، بل عن معرفة...معرفة الإنسان لحدود قدراته والعمل على توسيعها ..

هل استخدام الضعف للتذكير أمر خاطئ بالمطلق؟

لا طبعا، بالنسبة لمن يؤمن بالله، تذكيره بحقائق ضعفه التي نساها مؤقتا أمر مهم.

هل ينفع مع من لا يؤمن بوجود الله ؟ قطعا لا. الأمر يشبه أن تشرح درسا في البلاغة والنحو بالعربية لمجموعة من الصينيين لا يعرفون غير الصينية.

هذا التعليق يدل على جانب آخر من جوانب الضعف البشري: الغباء أحيانا.

للمزيد: **ليطمئن قلبي**

لماذا خلقنا لنتعذب بوجود الشر ما دام قادرا على أن يفعل الخير؟

يمكن تسمية الحياة بالعذاب، ويمكن تسميتها بالامتحان الصعب، ..يعتمد الأمر على زاويتك في النظر.

الزاوية الفردية جدا، التي لا ترى الصورة الكبيرة، ولا تفهم الهدف والمقصد من كل هذا، ستعتبر الأمر عذابا لا معنى له ولا تفسير.

الزاوية الأبعد سترى الصورة الكبيرة، ترى ترابط الأشياء، ترى الهدف منها. وستعتبر أن كل هذا امتحان، قد لا يسهل هذا الأمر (تقنياً) لكن فهم الأمر دوما يجعل الأمر أسهل ويجعل محاولة تخطيه أكثر جدوى.

كيف يكون الله إلهًا رحيمًا وهو يترك أطفالاً بعمر الورد يُقتلون ويذبحون ولا يحاسب قاتليهم ويفطر قلوب أهليهم عليهم ثم يوعدهم بالجنة !!

ماذا أريد من الجنة إن ذهب ولدي مني الآن ؟؟

كيف يسمح لكل هذه الحروب أن تقوم ولا يتدخل ؟

هل يستمتع برؤيتنا ونحن نموت ؟

هذا الموقف مبني على ما يعرف بمشكلة الشر وهو يعتمد على المتسلسلة التالية:

أولا – الله رحيم وعادل وسميع للدعاء وقادر على كل شيء.

ثانيا– العالم مليء بالظلم والقتل والعذاب.

هذا يقود إما إلى :

ثالثا– الله قادر على التدخل ولكنه غير مكترث.

أو رابعا – الله غير قادر على التدخل..

خامسا – في الحالتين (القدرة مع عدم الاكتراث، وعدم القدرة) الأمر سيؤدي إلى حدوث تناقض مع (أولا- الله رحيم وعادل وسميع الدعاء وقادر على كل شيء)

وسيقود هذا إلى

سادسا – الله غير موجود.

الخلل في هذه المتسلسلة يبدأ من نقطة إنطلاقتها الأولى، أي من صفات الإله : حيث تفترض أن عليه التدخل في كل صغيرة وكبيرة وكأنه لم يخولنا للعمل ووضع القوانين التي نعمل من خلالها، وكأننا لم نأت أصلا إلى هذا العالم لأداء اختبار من ضمنه رفع الظلم الموجود..وهذا أمر غير موجود في صفات الله في القرآن، بل في كاتالوغ وهمي تماما.

تغيير النظرة إلى صفات الله، سيجعل السلسلة غير مترابطة وبالتالي نتيجتها غير صحيحة.

الله لم يقل لنا أن العالم مكان سعيد وسهل، لم يعدنا بجنة على الأرض، بل يمتحننا بعالم فيه صراع بين الشر والخير وعلينا أن نساهم في جعل الخير ينتصر.

كما أن القاتل سيحاسب، لاحقا.

للمزيد: مشكلة الشر والمعاناة في العالم

ما الحكمة من خلق طفل ثم موته قبل تكليفه (عمر ٤ سنوات مثلا)، و أين رحمة الإله في ذلك؟

كل صفات الحكمة والرحمة لا يجب أن تفهم على نحو يتعارض مع (الامتحان) والاختبار الذي أُعِدَّ لنا كبشر..فهذا هو الهدف الأساسي من وجودنا هنا.

موت طفل في الرابعة أو في أي عمر، هو بالتأكيد امتحان كبير لوالديه ولمن حولهما..كيف سيتخطى الوالدان هذا الامتحان؟ رحمة الله وحكمته قد تتجلى في خيارات كثيرة..ونحن نعرف أن الكثيرين من الآباء والأمهات ينجحون في الاختبار وآخرين يكونون أقل نجاحا.

من ناحية أخرى...وفاة طفل لأسباب طبية ستحفز البحث من أجل وسائل شفاء وعلاج.

ووفاته نتيجة ظلم أو قصف يجب أن تحفز لمنع ذلك.

وفاة طفل هو امتحان للناس من حوله.

تحويله إلى امتحان لله و(لماذا مات) أمر غير متناسق ولا مترابط.

نخوض كل هذا العذاب في الأرض لأن آدم ارتكب خطيئة و طرد من الجنة؟!

هل هذا مقنع؟

برأي كثيرين، جنة آدم ليست جنة الخلد التي وُعِدَ بها المؤمنون. نقل ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه، وعن سفيان بن عيينه، بل روي أيضا عن ابن عباس ذلك.

جنة آدم كانت «بستانا» وفير الخيرات والثمرات، وقد استعملت لفظة «جنة» بهذا المعنى في القرآن الكريم.

ماذا عن ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ طه (١٢٣)

وتكرار لفظ الهبوط في مواضع عديدة عن «الإخراج من الجنة».. ألا يدل ذلك على أن الجنة في السماء؟

لا. الهبوط استخدم في القرآن للانتقال من مكان مرتفع وبينما استخدم القرآن لفظ النزول لما يأتي من السماء كما في ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ الفرقان(٤٨) فإنه استخدم الهبوط في سياق آخر تماما كما في:

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ البقرة(٦١)

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هود(٤٨)

فبنو إسرائيل عندما «هبطوا» إلى مصر، لم يكونوا في السماء..

ونوح عندما هبط كان في السفينة فحسب ولم يكن في السماء..

وكذلك الأمر بالنسبة لهبوط آدم وزوجه إلى الأرض... كان انتقالا من مكان مرتفع قليلا في الأرض.. إلى عمومها....

بهذا المعنى، يكون الخروج من الجنة هو خروج من «بساتين وفيرة كثيرة النعم» إلى عموم الأرض التي يحتاج فيها آدم وأولاده إلى بذل الجهد والكدح لغرض الحصول على الرزق.

للمزيد: جنة آدم على الأرض؟

القرآن

كيف تقولون أن قرآنكم محفوظ وقد دخلت دابة على غرفة السيدة عائشة وأكلت ورقة كتب فيها من القرآن؟

سنفترض أولا صحة الواقعة هنا - فقط لفرض النقاش.

أولا-ما التناقض بين «كون القرآن محفوظ» وبين تعرض» نسخة» منه للتلف؟!

القرآن محفوظ بكليته، بمعنى أنه لم تسقط آية منه أو تتغير عند حفظه، ولا يعني هذا أن كل نسخة منه محفوظة بطريقة خارقة تمنع عنه التلف والحرق والتدمير، وهو أمر مشاهد عيانا ولا يحتاج إلى نقاش. إذا شبت النار في المكتبة، فإنّ نسخ القرآن الموجودة فيها ستحترق غالبا وهذا لا يتناقض مع كون القرآن محفوظا.

ثانيا - ربما يقصد البعض أن ما أكلته الدابة في غرفة السيدة عائشة لم يكن هناك نسخة أخرى منه وبالتالي لم يتضمن في المصحف الذي جمعه أبو بكر ولاحقا عثمان رضي الله عنهما، لكن لا وجود لهذه الفرضية مطلقا، المصحف جمع أصلا من صدور الحفظة ومما كان يكتب عليه، وكانت تتم مقارنة الموجود ببعضه البعض ليتم التأكد مما يحفظ، علما أن جمع القرآن في عهد أبي بكر كان عملا احترازيا للحفاظ على القرآن بعد أن قتل الكثير من حفظته في معركة اليمامة، لكن حتى تلك المرحلة لم يكن هناك حاجة إلى «نسخ «عدة نسخ منه، اي أن النسخة التي جمعها أبو بكر كانت «احتياطا» إن جاز التعبير ولم يتم نسخها وتوزيعها لعدم وجود الحاجة إلى ذلك، كان انتقال القرآن يحدث حتى هذه المرحلة مشافهة وعبر حفظه، وبقي الأمر كذلك في عهد عمر رضي الله عنه، وصولا إلى عهد عثمان رضي الله عنه حيث قرر عندها نسخ المصحف وإرساله إلى الأمصار وذلك لدخول لهجات جديدة إلى طريقة قراءة القرآن (وليس لأن شيئا منه فقد أو تغير) .وكان المصحف الذي جمعه أبو بكر (والذي نسخت عليه المصاحف التي أرسلَتْ إلى الأمصار) عند السيدة حفصة بنت عمر - وليس السيدة عائشة-، وكان هناك لجنة مكونة من زيد بن ثابت، عبد الله بن الزبير، سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

ثالثا - أن الزيادة التي فيها أن الداجن دخل وأكلها زيادة منكرة وهناك أكثر من عالم ضعفها، ليس لوجود مشكلة في أن يدخل داجن ويأكل جزء من القرآن (فهذا قد يحدث) بل لأن الراوي «محمد بن اسحاق» قد انفرد بهذه الزيادة وهو ليس بحجة ويترك حديثه إذا خالف الثقات.

للمزيد: الكل أو لا شيء / الحديث صحيح ولكن

لمَ لم تكن لغة القرآن سهلة و واضحة ومحددة؟ لو كانت كذلك لما كان هنالك الآن عدة تفسيرات و أفهام مختلفة للنصوص، لماذا لم يجعلها الله كذلك و بهذا يكون الاختيار الالتزام أو عدمه.

الفهم المتعدد للنص ليس بالضرورة أمرا سلبيا، فليس كل تعدد تناقض، يمكن أن يكون تعدد تتكامل فيه الرؤى أو تتوسع بحيث تكون مناسبة للمزيد من العصور .

على العكس: ستكون هناك مشكلة كبيرة لو كان عكس ذلك.

اللغة العربية ليست صعبة أو معقدة، لكنها تتميز باحتمالها لطَيْف واسع من المعاني المترابطة ببعضها في الجذر والمتنوعة في المعنى، وهذا يخدم المعاني المتجددة التي نحتاجها بَاستمْرار..

للمزيد: لماذا العربية؟ / الجذر اللغوي وموشور المعاني

القرآن يحتوي على طلاسم غير مفهومة

(الر - الم - يس - كهيعص - ص - ق ..)

كيف يخاطب الإله عباده بها ؟!

وكيف تؤمنون بهذه الخرافات؟!

يمكن اعتبارها طلاسم وخرافات لو كانت تستخدم في السحر، فهذا هو معنى كلمة طلسم، أما أن تطلق كلمة طلسم على كل ما لا نفهمه فهذا عبث...

مثال: في الطبيعة أمور لم تفهم بعد، ولم يفسرها العلم بعد، فهل ستصنف بأنها طلاسم إلى أن يفسرها العلم؟

الشيء ذاته بالنسبة للأحرف في بدايات السور...لم تستخدم أبدا أي استخدام يمكن تصنيفه خرافيا أو مُقارباً للسحر (على الأقل لم يستخدمها الرسول والصحابة والتابعون كذلك)..فهل عدم فهمها يبرر وصفها بالطلسم؟

ماذا لو أنها فهمت لاحقا؟

ماذا لو كانت تحدياً مستمرا بأن يستمر البحث عن معنى متجدد دوما؟

ماذا لو كانت لتذكرنا بأهمية الأبجدية والأحرف..أهم ما اخترعه البشر؟ ماذا لو كانت تذكيرا بالأبجدية التي هي الوسيلة التي استخدمها الله في رسائله إلى البشر.

وماذا لو كنا لا نعرف معناها؟ من سيعترض على ذلك؟ الملحد الذي لا يعرف لم هو على هذه الأرض؟!

للمزيد: الكل أو لا شيء/ لماذا العربية

القرآن، معجزة الإسلام كما تقولون، هو باللغة العربية و الكثير من تفاصيل هذه المعجزة لا يمكن التعرف عليها أو فهمها من دون معرفة ممتازة باللغة العربية فما ذنب الذين لا يعرفونها و يصعب عليهم تعلمها؟

اختير القرآن ليكون الكتاب الأخير لجملة أسباب منها : أولا أنه نزل في العرب وقد كانوا في أحط مراحل الحضارة وأكثرها تخلفا، ليكون ما فعله معهم من رقي وتقدم في غضون عقود بمثابة نموذج قابل للتطبيق في أي مكان آخر.

ثانيا : سعة اللغة العربية واحتواء جذورها على معاني متدرجة مترابطة.

انتقال الإسلام إلى مجتمعات أخرى لا تتحدث العربية سيحتم ترجمته إلى لغاتها، وهذا سيوفر فرصة دائمة متجددة للتنقيب في معانيه التي لا يمكن اكتشافها إلا بتنقيب مثل هذا.

ما يبدو من زاوية (قلة عدل)، قد يبدو من زاوية أخرى : فرصة.

إضافة إلى هذا: لا يبدو أن في الأمر مشكلة لمليارات من البشر الذين يدينون بالإسلام دون أن يعرفوا العربية.

بل أن عدد غير العرب من المسلمين أكثر من عدد العرب بكثير.

للمزيد: لماذا العربية؟ الجذر اللغوي وموشور المعاني

قرآنكم فيه آية تسمى آية الاستنكاح!

المقصود هو آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الأحزاب (٥٠)

الآية تُعدِّد النسوة التي يمكن للنبي الزواج منهن، ثم تحدد إن عرضت امرأة على النبي الزواج (هبة) (أي من دون مهر مقابل) وتوضح أن هذا الأمر له فقط (خالصة لك) ولا يحق لأحد أن يتزوج امرأة من دون أن يعطيها مهرا.

مالذي يزعج الملحدين في ذلك؟!

للمزيد: مغالطة المؤرخ

ماذا عن قضية التكرار في القرآن الكريم .. فقصة فرعون ترددت تقريبا في كل جزء في القرآن .. وقصة آدم ذكرت أكثر من ٤ مرات بصياغة مختلفة .. عدا عن بعض الآيات التي كانت تتكرر حرفيا

مثل آية (تلك أمة قد خلت..) وآية (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)

أليس من الأولى على أن يشمل القرآن على الكثير من الحكم والتوجيهات بدلا من أن يكرر نفس القصص والجمل؟

أولا - من المستبعد جدا أن يكون هناك شخص ألحد بسبب (التكرار)!.

ثانيا -لا يوجد تكرار بهذا المعنى، فكل سياق يحمل معنى مختلفا سواء كان الأمر يتعلق بالقصص القرآني، أو بالأيات المتكررة.

كل قصة تؤخذ من زاوية محددة، ويكون لها داخل قالب السورة معنى مختلفاً عن السورة الأخرى، كذلك الأيات.

ثالثا - من قال أن التكرار أصلا يمثل ضعفا في الكتاب؟! الكثير من النصوص الأدبية العملاقة - ولا نشبهها بالقرآن هنا ولا نشبه القرآن بها ولكن للرد على ما قيل- تحتوي على تكرار مكرس من أجل إيصال فكرة معينة.

مغالطة الكاتالوغ المثالي مرة أخرى : فرض قانون مسبق والمطالبة بالبرهنة عليه.

هل ترسل مدرس لغة عربية إلى فرنسا ليعلم الفرنسية؟!

فكيف ترسل شخصاً أمياً ينطق بالعربية ليعلم العالم كله؟

أولئك الذين يقولون هذا الكلام لا يجدون مشكلة في الإقرار بتأثير شكسبير في أكثر من ٧٥ دولة ترجمت لها أعماله.

لماذا يمكن أن تترجم حكمة شكسبير ولا يمكن أن تترجم كلمة الله؟

وهل يريدون لكتاب الله أن يصدر ب ٥٠٠٠ لغة؟

للمزيد: تاريخ الأديان

لا يمكن أن تكون كل الكائنات الحية اليوم هي من البقية التي نجت في سفينة النبي نوح في الطوفان.

لا يوجد نص قرآني يقول أن طوفان نوح شمل كل الأرض- أو أن نوح أخذ كل الكائنات الحية، علما أن الطوفان لن يقضي على كل الكائنات الحية بكل الأحوال لوجود كائنات لا تموت في الماء.

الآية القرآنية تقول : (فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) وهي تعني أن يأخذ نوح معه أزواجا من الحيوانات المنزلية والدواجن وحيوانات الركوب التي كان يستخدمها قومه..

وجود فهم سائد عام عن أن الطوفان شمل كل الأرض لا يعني أن القرآن قد قال هذا، وعندما تراجع النص القرآني وتجد أن القرآن لم يقل ذلك تحديدا. عليك أن تسأل نفسك : لو كان هذا الكتاب من تأليف بشر ..فلِمَ لم ينسق خلف القصص السائدة في الكتاب السابقة والتي تقول نصوصها بوضوح أن الطوفان شمل كل الأرض ؟ واستخدم بدلا عن ذلك نصوصا لا تقول ذلك؟

للمزيد: ادعاء وجود تناقضات بين القرآن والعلم الحديث

تقولون أن معجزة القرآن هي في إعجازه اللغوي البلاغي... وهي حجة غير قابلة للقياس في زماننا فإننا لا نميز البليغ من غيره فلو أتينا لكم بكتاب باللغة الصينية وقلنا لكم هذا كتاب معجز هل تقتنعون ؟

من المؤكد أن الاعتماد على الإعجاز اللغوي أمر قاصر، وأن هذا الإعجاز أكثر تأثيرا مع العرب الذين يتحدثون العربية لغة القرآن..لكن الزعم أن هذا هو الإعجاز في القرآن يعد تقزيما لمعجزة القرآن..

معجزة القرآن أعمق وأدق وأعم من أن تختصر بالبلاغة، هذا الكتاب معجزته في تأثيره..في قدرته على التغيير، بفضله تحول العرب من الدرك الذي كانوا فيه إلى ما أصبحوا عليه لاحقا، هو معجزة واقعية شهدها التاريخ، كذلك يمكن لهذا الأمر أن يستمر دوما على نحو شخصي.

يقول القرآن (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) ولاحقا يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)

السياق الأول هو سياق الإنفاق، لا يمكنك أن تجبر أحدا على الإنفاق...والحديث عن مؤمنين أصلا...

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ البقرة (٢٧٢)

سياق الآية هو عن الحث على الإنفاق والتصدق وهو موجه للمؤمنين..وفي النهاية، فإن الأمر فردي ويجب أن يكون نابعا من حس داخلي.

الآية الثانية وهي في مرحلة ما بعد معركة بدر، تتحدث عن المشركين، حيث كان المشركون يعدون العدة للانتقام من المسلمين عما أصابهم في بدر.

السياقان مختلفان تماما والمقارنة بينهما تنبئ عن اجتزاء (قص ولصق) واضح.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / القرآن والعنف

أسباب نزول الأحكام الشرعية في القرآن ارتبطت بوجود حالات وأسئلة من البشر المحيطين بالنبي، مثل أن المسلمين كانوا أول الأمر يفطرون عند المغرب في رمضان ولا يأكلون بعدها إلى المغرب في اليوم الثاني، فأجهد ذلك عليهم، وأغشي على أحدهم لأنه نام قبل أن يفطر فلم يأكل شيئا، فنزلت الآية

(وكلوا واشربوا حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر)

هذه الطريقة في تغيير الأحكام (أو ربما في أمثلة أخرى ما يعرف بالنسخ) هي أقرب إلى ما يفعله البشر من الإله الذي يعرف كل شيء...

لدى البعض كاتالوغ ذهني (مثالي بمعاييرهم) عن الطريقة التي يجب أن يتصرف بها الإله الحق..وهم يحاكمون الله بناءً على هذه المرجعية الوهمية

هذه هي فكرة البعض عن الإله، أن لا يغير قوانينه المتعلقة بالبشر.

لكن ماذا لو كان الإله يريد أن يعلم البشر كيف يتعاملون مع القوانين ومع الشريعة، بتغييرها حسب تغير الظروف المحيطة، بأن لا يعاملونها كما تعامل اليهود في فترة ما مع النصوص الدينية الخاصة بهم، كما لو كانت على ألواح حجرية؟

ألا يمكن أن يكون هذا تدريبا ينفع البشر أكثر بكثير مما لو كان ثمة قانون يتنزل بناء على معرفة الله المسبقة بما سيحدث؟

تناقض «الآية وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ»

و مع ذلك هناك مئات الأطفال يموتون جوعا في العالم.

لا تناقض على الإطلاق بين الأمرين، الله وضع ما يكفي من موارد لجميع البشر، سوء استغلال هذه الموارد واحتكارها من قبل البعض وقلة العدالة في التطبيق هو الذي يؤدي إلى موت الأطفال جوعا.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير

كيف يطلب الله من إبراهيم أن يقتل ابنه ليثبت إيمانه به ويفديه بعدها بأضحية.. ما هذا الإله الدموي وما هذه الفكره السخيفة التي يحييها المسلمون كل عام؟

عندما نقرأ القصة في سياقها التاريخي، حيث كان تقديم الأطفال (بالذات الولد البكر) كأضحية للآلهة، فإننا سنرى أن القصة كلها قد حدثت لتحدث طلاقا نهائيا مع هذه الشعيرة التي كانت منتشرة في أكثر من حضارة.

أن الأمر منع دون موافقة إبراهيم وابنه على الأمر، لفهم ذلك أنه جبن منهما، لكن موقف القبول والاستسلام حتى لحظة التدخل الإلهي -حيث استبدل الضحية البشرية بضحية من الحيوانات - تؤكد في الوقت نفسه على سيادة الإنسان على بقية المخلوقات.

للمزيد: مغالطة المؤرخ/ الاجتزاء في التفكير / الشعائر

يقول القرآن أن «التوفيق لا يكون إلا بالله»

وكل التوفيق اليوم نراه بيد غير المسلمين على وجه الخصوص اليهود والنصارى؟!

هذه المقولة جزء من آية قرآنية على لسان نبي الله شعيب

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود(٨٨)

لذا نلاحظ ما يلي:

وجود اجتزاء ينقل الجملة من لسان نبي إلى لسان أي شخص (مؤمن) . النبي في هذه الحالة، أو القرآن، لم يقل التوفيق بالمطلق، لم يقل «وما توفيقكم إلا بالله»، بل قال أن توفيق النبي شعيب هو بالله.

كما أن معنى التوفيق في لسان العرب الذي نزل فيه القرآن ليس النجاح والتفوق كما نفهم اليوم من الاستعمال المعاصر للكلمة، فالتوفيق، لغويا، يعني (الرشد) وليس النجاح والتفوق كما يفهم اليوم.

وجود مشكلة في نقل (توفيق النبي شعيب) في دعوة قومه (وهي مسألة دعوية، إيمانية) إلى (نجاح الغرب) في الأمور المادية.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / مغالطة السبب الزائف

استخدام الحور العين في الجنة!

حور العين ذُكِرَت في القرآن مرتين فقط، وهناك سبع مواضع أخرى ورد فيها وصف لنساء الجنة يعتبر عادة مرتبطا بحور العين..

إذن ٩ مواضع فقط من بين أكثر من ٢٥٠ موضعا فيه كلام عن الجنة، وحتى هذه المواضع التسعة لم تكن عن الحور العين حصريا بل كانت ضمن أمور أخرى أيضا (الراحة النفسية، السكينة، الطعام والشراب الشهي...)

التركيز على الحور العين سواء من قبل بعض الإسلاميين أو من خصومهم يعكس مشكلة لديهم وليس في النص المتوازن جدا.

بالمناسبة: التصور أن التحضر والتقدم سيلغي رغبات الرجال الجنسية تصور مبالغ في المثالية.

القرآن يتعامل مع الإنسان بصفته إنسانا، بكل شهواته ورغباته وسموه وسقطاته...لا محاولات خيالية لإلغاء الشهوات بل تقنين واقعي لها..لا يحاول أن يفرض «كاتالوغا مثاليا» على الإنسان بل يقدم توازنات يمكن العمل عليها لجعل هذا الإنسان في أفضل حالاته...

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / الكاتالوغ المثالي / التعميم المتسرع

القرآن مُعَطِّلٌ للعقل ولا يواكب تطور الفكر الإنساني.

أما من ناحية أنه معطل للعقل فهو الأقرب حتما للعقل من كل الكتب السماوية، والآيات التي تتحدث عن التفكر واستخدام العقل أكثر من أن تحصى، كذلك الحث على التساؤل سواء في النموذج الإبراهيمي الرائد في الأسئلة الوجودية الكبرى أو في غيرها..

أما بخصوص عدم مواكبته للفكر الإنساني، فليس المطلوب منه أصلا أن يواكب تحديثات الفكر الإنساني،

القرآن يقدم ما يجب أن يحترمه الفكر الإنساني ويضعه نصب الاعتبار في تحديثاته.

ولاتتخذوا اليهود و النصارى أولياء ... أي أنه يحض وبقوة على التمييز الديني ...

مفهوم الولاية مرتبط أساسا بالطاعة والخضوع، أو وجود مرجعية عند من له الولاية.

وبالتأكيد عندما يفهم الأمر بهذا السياق فالأمر يكون أوضح، وسياق عدم اتخاذ المرجعية والطاعة يكون منطقيا خاصة أن الحديث يكون في سياق الأمور الدينية..لا أحد يسأل عن أمور دينه رجالَ دين آخر ...هناك حدود طبيعية بالتعريف.

وبالتأكيد ثمة مشتركات بين أغلب الأديان لن يصبح الوقوف معها اتخاذا لولاية دون أخرى بل هي مع هذه الثوابت والمشتركات.

أما بالنسبة للولاية في الحكم ففي الدولة المعاصرة، الولاية تكون للقانون وليس لشخص رئيس الدولة الذي يتبدل باستمرار، وبالتالي فدين رئيس الدولة مثلا ليس مهما بقدر القانون الذي يطبق فيها.

بالتأكيد ثمة آراء فقهية تمادت في الأمر إلى درجة تحريم الصداقات مع أهل الكتاب وتحريم معايدتهم..

لكن هذا التراكم الفقهي كله لن يصمد أمام حقيقة إباحة زواج المسلم من كتابية...وهل الزواج إلا مودة ورحمة متبادلة بين زوجين؟!

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / مغالطة الاعتماد على العاطفة

وجود آيات تنسخ أخرى في القرآن بحيث أنّ القرآن المدني كان عنيفاً ونسخ كل سلام جاء به القرآن المكي.

تغير الأحكام بتغير الظروف أمر طبيعي، بدلا من اعتبار ذلك (شبهة) و (حجة) يجب اعتبار ذلك تدريبا قرآنيا للبشر على المرونة في قراراتهم وأحكامهم بما يتماشى مع تغير الظروف المحيطة ومعطياتها.

القرآن هنا لا يعطيك خطة (أ) يمكن استعمالها في مرحلة معينة و خطة (ب) في مرحلة أخرى، بل هو يعطيك الخطة أ و الخطة ب مرتبطتين بظروفهما، لكي تستطيع أن تضع الخطة (ج) في ظروف أخرى مختلفة...

أو على الأقل هذا ما كان يجب أن نفهمه.

آيات السلم ليست خاصة بمكة بالمناسبة..

آية لا إكراه في الدين مدنية مثلا...

وكذلك آية (الجنوح للسلم)...

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / ملف العنف في الإسلام

هل تريد ان تقنعني أنكم بكتاب من ٦٠٠ صفحة تستطيعون أن تغيروا العالم و تحلوا جميع مشاكله؟!

هذا من نتائج استخدام الدين كشعار لكسب الجماهير، شعارات (الإسلام

هو الحل) و (القرآن فيه الحلول لكل المشاكل) هي شعارات سطحية لا يدقق قائلوها كثيرا فيما يقولون ولا في نتائجها، وهم لا ينتبهون أنه سيأتي وقت عليهم فيه، أن يبرهنوا على تقديم الحل من الإسلام أو من القرآن...وأن في حالة عدم تحقيق ذلك فإنّ إنهيار الشعارات قد يؤدي إلى إنهيار كل ما بني عليها.

من ناحية أخرى: هذا الكتاب يمكنك في أن تكون إنسانا أفضل يساهم في جعل العالم مكانا أفضل..ليس بمعنى أنه يمنحك وصفة سحرية جاهزة لذلك، بل لأنه يمنحك رؤية متوازنة للعالم مع قيم أخلاقية تجمع بين المادة والغيب.

القرآن معقد ويفسر بكثير من التفسيرات المختلفة

التعقيد (لو صح) ليس عيبا.

إنه مجرد وصف.

الإنسان مثلا كائن معقد جدا من نواحي عديدة، وهو بسيط من بعض النواحي.

وهكذا يمكن أن نجد قراءة بسيطة للقرآن، ونجد قراءات معقدة له.

في الوقت نفسه: تعدد القراءات واختلافها لا مشكلة فيه...المهم هو أن لا تتناقض...

بعض الأدوية والعقاقير الطبية تكون فعالة لأكثر من مرض، بعض الأمراض تبدو بعيدة جذريا عن بعضها الآخر (مثل الشيزوفرينيا والسل!) لكن الدواء يعمل على المرضين معا..هل هذا تناقض أو خلل في عمل الدواء؟ هل يجب شطبه من قائمة الأدوية المعتمدة؟

كذلك القراءات المتعددة..هي تعدد وظائف...ما دام لا تناقض فيها...عندما يكون هناك تناقض فهذا يعني أنّ إحدى القراءات(وهي في النهاية بشرية) لم تكن منضبطة بشروط اتساقها مع بقية النصوص.

http://sciencenordic.com/old-drugs-can-treat-new-diseases

للمزيد: الجذر اللغوي وموشور المعاني

يقول القرآن :» ومن دخله كان آمنا» أين كان الأمان عندما سقطت الرافعة على الأطفال وروعت النساء والشيوخ في الحرم المكي، لماذا لم يحمهم ربك وهم في بيته ؟

الآية تقول ضمن سياقها

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران(٩٧)

التصور بأن مقصد الآية هو الحصول على الأمان في الحرم المكي (تلقائيا) وبمجرد الدخول إليه هو تصور ساذج وينبئ عن عدم وجود أي حاسة للتدقيق ..ذلك أن هذا الأمان التلقائي لم يحدث في أي مرحلة تاريخية على الإطلاق.. الآية تتحدث عن جعل مكة (واحة أمان) وسط حالة اللا أمان وقطع الطرق والحروب القبلية التي كانت سائدة. الأمان هو قانون سنه الله في مكة وجعل على الإنسان تطبيقه، كنموذج يحتذى به لكل الأماكن التي تعتبر مكة قبلتها.

التصور أن الأمان يحدث تلقائيا، وحتى من الحوادث، هو هروب من المسؤولية.

واعتبار ذلك حجة للإلحاد هروب من التفكير.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير

القرآن كان قراءة للعقل الباطن و نفسية النبي و أهوائه.

بالتأكيد كل من لا يؤمن بوجود إله سيعتقد ذلك، علما أنه لو كان كذلك لما عتب عليه في مرات وبشدة.

القرآن «جنة عرضها السموات و الأرض» فأين النار إذن؟

إما أن النار غير موجودة أصلاً و ذكرت في القرآن للتخويف فقط، أو أن القرآن يحوي تناقضات تنفي أن يكون من عند الله. و باقي الكتب السماوية مليئة بالتناقضات. و بالتالي نحن نبني معتقداتنا على أسس غير صحيحة.

هناك أكثر من مستوى للرد على هذا:

أولا- هناك عجز واضح في فهم المجاز والمعاني في القرآن الكريم وفي اللغة العربية وفي كل اللغات عموما، هناك محاولة لجعل معنى كل شيء حرفيا على نحو يعكس إما تحجر في التفكير، أو معاملة اللغة كما لو كانت معادلات فيزيائية أو كيميائية تحتوي على أرقام .

ثانيا - لا يوجد أي محاولة لفهم احتمالية وجود أبعاد مختلفة تماما عن التي نعرفها في الحياة الأخرى، أبعاد غير الأبعاد التي نتعامل معها دنيويا..هكذا يكون استعمال (العرض) هنا كناية لتقريب الفكرة لنا.
ثالثا -الآية تصف عرض الجنة لا مكانها، أي أن الكون يحوي ما فوق السموات و الأرض. يمكن جدا أن تكون النار لها نفس العرض، ولكنها في مستوى ثانٍ.

للمزيد: التفكير الحر في الكونكريتي / مغالطة المعضلة الزائفة

القرآن كتاب جيد ولكني لا أرى الإعجاز فيه ولا أعتقد أنه سماوي بل بشري. بعبارة أخرى لا أجد الإعجاز في القرآن.

عدم (الشعور بالإعجاز) لا يجب أن يؤدي إلى الإلحاد بالضرورة.

فالإيمان أعقد من أن يبنى على الشعور بالإعجاز فحسب.

الكتاب جيد؟ هل يعني هذا أنه صادق أم أن الجودة لا تتضمن الصدق، لأن الكتاب (الجيد) هذا، يقول إنه ليس بشريا..بل صادر من الله..

من يعتقد أن الكتاب جيد ولكنه بشري يقصد عادة أن الكتاب يتضمن قيم إنسانية جيدة.

عليه هنا أن يقارن هذه القيم الإنسانية بسياقها التاريخي...هل كان يمكن أن تكون بشرية ضمن سياقها ومجتمعها أم أنها كانت متقدمة على وقتها على نحو يتجاوز العبقرية البشرية إلى شيء آخر ؟

هنالك تغير كبير بين قرآن مكة و قرآن المدينة حيث تحول من العظة و الكلام الجميل إلى دعوة للقتال و السلب.

منطقيا من الطبيعي أن يتغير الخطاب بتغير وضع المخاطبين..مكة غير المدينة والمسلمون كانوا يواجهون وضعا يتطلب أحكاما تفصيلية لكن علينا الانتباه إلى أمرين :

الأول أن الوضع الجديد لم يلغ الآيات التي نزلت في مكة بل استمر الناس في تدراسها وحفظها والصلاة فيها...أي أن «الكلام الجميل» كان مستمرا في التأثير.

الثاني أن القرآن المدني احتوى على الكثير مما يعتبر مشابها للقرآن المكي من المواعظ والحديث عن العقيدة ...سورة الرحمن مثلا تبدو أنها مكية لكنها مدنية...وكذلك سورة الزلزلة...

آيات الأحكام أصلا قليلة في القرآن ككل.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / مغالطة المؤرخ

الأحرف المقطعة في بدايات السور هي كلمات لها معاني بالسريانية، وهذا يدل على وجود صلة بين القرآن والسريانية أو وجود أصل سرياني له..

قيل السريانية، و قدّمَ كاتب آخر رأيا يقول فيه أن هذه الأحرف المقطعة هي كلمات بالهيروغليفية!

ولما كان من المتعذر التأكد من أي من الأمرين (معجميا) بسهولة - باعتبار واحدة منهما ميتة والأخرى نادرة الاستعمال - فإنّ الأمر سينتشر ويذيع.لكن الحقيقة هي أن أيّاً من القولين لم يأت ومعه ما يدعمه علميا على نحو يمكن أن يؤخذ على محمل الجد.

فلنحدد:

أولا -فكرة وجود معاني سريانية لهذه الأحرف المقطعة لا تُدعى إلا على ٤ منها (الم، الر، طه، كهيعص) من أصل ١٤، أي أن الفكرة (على فرض صحتها) لا تجد معنى لها إلا على قرابة ربع الأحرف المقطعة، وهذه نسبة لا تكفي لصنع «نظرية» ما دامت لا تنطبق على أغلبية الأحرف المقطعة، لو أن الفكرة انطبقت مثلا على ١٢ أو ١٣ من أصل ١٤ لكان يكمن القول أن هناك معان لم تدون في المعجم، لكن أن تكون هناك هذه النسبة الضئيلة، فالأمر قد لا يعدو أن يكون صدفة. ويمكن أن نطبق نفس الفكرة على أي لغة أخرى وسنجد تشابها في أربع أو أقل أو أكثر من هذه الأحرف المقطعة مع معاني في هذه اللغة.

ثانيا - اللغة السريانية المعروفة اليوم - والمحكية في بعض مناطق العراق وسوريا- هي لغتان مختلفتان، شرقية وغربية، وكلتاهما مختلفتان عن اللغة الكلاسيكية القديمة، فأي من هذه اللغات كانت المرجع في هذا «التشابه»؟

ثالثا - ما هي الفكرة أصلا في افتتاح السور في كلمات سريانية من الواضح أنها لم تكن مفهومة بالنسبة للعرب آنذاك إذ لم يرد أي تفسير على هذا الأساس (إلا في كلمة واحدة سنأتي على شرحها)؟

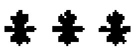
رابعا - كان هناك حتما من العرب من يعرف السريانية، ليس بالضرورة في قريش أو المدينة، فلماذا لم يشر أحد- ولو لاحقا- إلى وجود معاني في السريانية لهذه الأحرف المقطعة؟

خامسا - بعض التفاسير تذكر أن طه تعني : يا رجل، ونقل ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما، البعض قالها دون الإشارة إلى أن المعنى بالسريانية أو سواها، والبعض أشار إلى ذلك، أو إلى أنها بالنبطية وقال آخرون أن ذلك كان بلهجات بعض العرب، وهذا يعني أن هذا المعنى كان معروفا ومنتشرا عند العرب سواء كان أصله من السريانية أو سواها، وهذا يختلف تماما عن وجود كلمات بالسريانية لا يعرف معناها أحد.

سادسا- ثمة فرق كبير بين ورود لفظ «معرّب» في القرآن الكريم، وبين ورود لفظ أعجمي فيه.

فالمُعرّب هو اللفظ بالأصل الأعجمي الذي عرفه العرب وعرّبوه واستخدموه في لغتهم ولسانهم وكلامهم فصار عربيا قبل نزول القرآن، أي أن عملية التعريب حدثت كنوع من التطور اللغوي الطبيعي ...أما أن ترد ألفاظ أعجمية لا يعرفها العرب وتكتشف معانيها بعد قرون!.. ما المغزى من ذلك؟

سابعا - الركون إلى التفسيرات التقليدية السائدة (مثل ورود الأحرف المقطعة كنوع من التحدي بالإتيان بمثلها) أجزل بكثير من ناحية المعنى والتأثير من فوضى الكلمات المتقاطعة ونظريات المؤامرة التي تهب من «سَرْيَنة» القرآن الكريم على هذا النحو...



وماذا لو كان المعنى أن نتواضع على مدخل السور ونعترف مسبقا بوجود حدود للعقل البشري ونقول: نعم، لا أعرف... لكني سأمضي لأتعلم مما يمكن أن أعرفه، مما يمكن لعقلي أن يعمل فيه...

للمزيد: الكل أو لا شيء/ لماذا العربية / الجذر اللغوي وموشور المعاني.

يقول القرآن أنه أنزل» تبيانا لكل شيء» و«ما فرطنا فيه من شيء» و«كل شيء فصلناه تفصيلا» ...وتقولون أنتم أن فيه عن كل العلوم...فهل فيه شيء عن الديناصورات مثلا؟!

كل شيء هنا تفيد «العموم الذي يفيد التخصيص»، كل شيء فيما يتعلق بحاجة الناس في معرفته من الحلال والحرام والثواب والعقاب، أو فيما يحيل إلى السنة..(وهذا ما نقله الطبري في تفسيره مثلا)...وليس المقصود «كل شيء» بالمعنى الجامد المباشر الذي سيفهم بطريقة «التفكير الحرفي».

وكدليل على ذلك، فإنّ القرآن وصف الألواح التي أنزلت على موسى بأن فيها تفصيل كل شيء ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ الأعراف (١٤٥) ولا يتوقع أن يكون في الألوح (وحجمها ومساحتها محددة حتما) «تفصيل كل شيء» بالمعنى الحرفي للكلمة، بل تفصيل الحلال والحرام وقواعد وأساسيات الإيمان...

مع العلم أن هذه النظرة الحرفية موجودة فعلا وأن الكثيرين حاولوا - بحسن نية- التعامل مع القرآن على أن فيه كل شيء من علوم الطب والهندسة والرياضيات والفلك والجيولوجيا والبيولوجيا، وأن نتائج ذلك كانت كارثية.

الديناصورات؟ لماذا على القرآن أن يكون فيه أي شيء عن الديناصورات؟!

للمزيد: التفكير الحرفي الكونكريتي

الكثير من الأشياء الغامضة التي تقفون عندها لتقولوا : الله أعلم. لا نعلم الحكمة من هذا لكن حتما هناك حكمة. حتى في النصوص القرآنية: كلما فشلتم في تفسير شيء تقولون الله أعلم...مثل فواتح السور.

اعتراض لطيف جدا عندما يأتي من شخص يعتقد أن الـ« لا جواب »أو «العدم» هو الجواب النموذجي عن كل الأسئلة الكبرى المتعلقة بوجوده الشخصي. مثل من أين وإلى أين ولماذا.

للمزيد: القبول ب «لا جواب»، الكل أو لا شيء

تختلف عدد الآيات في المصاحف عندكم حسب القراءات، وكلها معتمدة...كيف يمكن للتحريف أن يكون أوضح من هذا؟

نعم يختلف العدد حسب المصاحف، أقلها المصحف المكي ب ٦٢١٠ آية وأكثرها المصحف الكوفي ب ٦٢٣٦ آية، وهو الأكثر انتشارا..

لكن هذا لا يعني أن هناك آيات في المصحف الكوفي غير موجودة في المصحف المكي، أو في غيره من المصاحف.

عدد الآيات مختلف، لكن الألفاظ كلها موجودة، الاختلاف في العد، في موقع الفواصل بين الآيات، في تحديد بداية الآية أو رأسها.

مثال سورة مريم في المصحف الكوفي حيث آية «كهيعص»الآية الأولى في سورة مريم بينما نجد في مصحف آخر أن الآية الأولى «كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا» (أي اعتبرتا آية واحدة) وهذا بالطبع يؤثر على العدد النهائي للآيات.

كيف لعاقل أن يصدق بل ويحد عقله بكتاب واحد يحوي الحقيقة المطلقة !

هناك فرق بين الحقيقة .

وبين الحقائق.

التفريق بينهما مهم جدا.

الحقيقة، هي الرؤية العامة الشاملة التي يتمكن الإنسان من خلالها من فهم العالم من حوله وفهم دوره فيه.

من خلال هذه الرؤية أيضا / يمكن فهم التفاصيل الصغيرة التي تتغير باستمرار.

أما الحقائق فهي معلومات، تفاصيل، بعضها متغير، بعضها، ثابت، لكنها كلها لا تعبر عن رؤية كاملة للعالم.

بهذا المعنى : نعم القرآن يحوي الحقيقة المطلقة، الرؤية الكاملة التي يمكن أن تتجدد بتجدد الزمان والمكان (العين نفسها ترى عالما متغيرا).

أما إن فهم أحد أن القرآن يضم كل التفاصيل، فهو مخطئ طبعا.

لماذا يكرر القرآن أنه عربي؟ أليس هذا واضحا؟ ألا يعني هذا أنه كان ثمة كلام عن نسخة أخرى بغير العربية يريد القرآن أن ينفيها؟

بالتأكيد كانت هناك اتهامات بهذا، وقد ذكرها القرآن بوضوح

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ النحل (١٠٣)

كانت هناك تهمة أن هناك من يعلم النبي عليه الصلاة والسلام ما يقول، وكانوا يروجون أن ثمة نجار رومي هو من يفعل ذلك، لكن عربية القرآن ألفاظا كانت تسقط التهمة.

قال القرآن سبع مرات أنه عربي، وربط عربية القرآن بـ «لعلكم تعقلون» مرتين، «لعلهم يتقون» مرتين، وبالإنذار مرتين «لتنذر أم القرى ومن حولها» و «لينذر الذين ظلموا» و «لقوم يعلمون» مرة واحدة.

مالذي تعنيه هذه السياقات التي وردت فيها عربية القرآن: تعني الوضوح طبعا، أنزلنا كتابا واضحا لعلكم تفهمون وبذلك تتقون، وهو إنذار واضح لأنه نزل بالعربية، بلغتكم...

حتى اليوم لا نزال نستعمل نفس الأسلوب، فنقول «بالعربي الفصيح» بمعنى كلام لا يقبل اللبس وشديد الوضوح. ونقول لمن لا يفهم على ما نقول: لا تفهم العربية؟

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / مغالطة التعميم المتسرع

ليس صحيحا أن القرآن لم يتغير..هناك نسخ عديدة من القرآن...لكن عثمان بن عفان أحرق كل المصاحف الأخرى وأبقى على ما يعرف بمصحف عثمان وهو المصحف المنتشر حاليا.

لا يروج هذه الدعوى إلا شخص لم يدقق كثيرا فيما يقول، أو شخص مغرض، يعرف أن ما يقوله ليس صحيحا ولكنه يقوله مع ذلك.... مع الاحترام للجميع.

هذه الدعوى تحاول أن تستنسخ ما حصل مع المسيحية، حيث كانت هناك أناجيل كثيرة (الأناجيل المعتمدة أصلا هي أربعة) وعقد مجمع نيقية الذي حدد الأناجيل والأسفار القانونية واستبعد ما سمي بـ «الأبوكريفا» أو الأناجيل المنحولة.

هل كانت الأناجيل المنحولة منحولة ومزيفة حقا؟ ربما. ليس هذا موضوعنا. المهم أنها استبعدت من الاستعمال الكنسي وتم مصادرتها وإحراقها.

هناك من يحاول أن يطبق نفس الواقعة على واقعة نسخ مصحف عثمان وإرساله إلى الأمصار، رغم أنه لا يوجد مصدر تاريخي واحد يُرْجِعُ سبب ما فعله سبب ما فعله إلى وجود «تحريف» أو نسخ منحولة، كل الأمر كان متعلقا باختلاف القراءات: أي أن يكون هناك أكثر من قراءة لنفس الكلمة (باختلاف لهجات العرب) أو بوجود «لحن» في القراءة (كأن تكون منصوبة بدلا من مرفوعة...إلخ)، وهكذا كانت المسألة «تقنية» إن جاز التعبير، ولا تخص المحتوى (ولا يقلل هذا من أهمية وتأثير القراءات على المحتوى) ولكن لم يكن هنا أثر لهذا على الإطلاق.

عندما يتداول البعض هذا الكلام بطريقة توحي بوجود «شيء خطير في نسخ تم التخلص منها من القرآن الكريم»، والحقيقة أن هذه الفترة (أو ما بعدها مباشرة) شهدت خلافات سياسية مهمة في التاريخ الإسلامي، ولو كان هناك أي «شبهة» - ولو نسبة لا تذكر- في حصول إخفاء متعمد (أو إضافة متعمدة) لشيء على القرآن لَذُكر ذلك في أدبيات الخلاف، والحقيقة أن كل الأطراف المتنازعة (أصحاب علي وأصحاب معاوية والخوارج) كانوا يقرَأون نفس القرآن ولم يكن هناك أي حديث عن وجود أي اختلاف مهما كان صغيرا.

يمكننا أن نفكر بالأمر منطقيا: فترة نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي مثلا شهدت «وضع» الكثير من الأحاديث على لسان النبي عليه الصلاة والسلام من أجل استثمارها سياسيا لصالح هذه الجهة أو تلك، وشهدت هذه الفترة وقوف أيضا و تصدي أهل الحديث لهذه الموجة.

لو كان هناك أي إمكانية لتحريف القرآن لاستغلتها هذه الأطراف المتصارعة، ولوقف بوجهها أهل القرآن أنفسهم. لكن هذا لم يحدث، كان من الواضح أن «القرآن» كان فوق كل هذه المحاولات.

ماذا عن الاختلافات الموجودة في القراءات المعتمدة وهي قراءات صحت سندا عن الرسول عليه الصلاة والسلام؟ أغلب هذه الاختلافات تكون بحيث أن «كتابة» الكلمات لا تتغير، لكن يتغير لفظها بسبب الهمزة أو الحركات.

مثال ذلك:

١- آية ٣٨ سورة البقرة ﴿فلا خوفُ عليهُم﴾ في قراءة حمزة بن الزيات الكوفي(٤٨٤)

﴿فلا خوفَ عليهُم﴾ في قراءة يعقوب بن إسحاق البصري

﴿فلا خوفٌ عليهِم﴾ عند الباقين

٢ - آية ٥٨ سورة البقرة ﴿يُغْفَرْ لكم﴾ عند نافع وأبو جعفر

﴿تُغْفَرْ لكم﴾ عند ابن عامر

﴿نَغْفِرْ لكم﴾ عند الباقين

٣ - آية ٩٨ سورة البقرة ﴿ميكائل﴾ نافع و أبو جعفر

﴿ميكال﴾ عند أبي عمرو وحفص ويعقوب

﴿ميكائيل﴾ عند الباقين

٤ - آية ١٧٣ سورة البقرة ﴿فمنُ اضْطِر﴾ أبو جعفر

﴿فمنِ اضْطُر﴾ أبو جعفر وعاصم وحمزة ويعقوب

﴿فمنُ اضْطُر﴾ الباقون.

٥- آية ٨٠ سورة آل عمران ﴿ولا يأمُرَكم﴾ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف

﴿ولا يأمُرُكم﴾ نافع، وابن كثير، والكسائي، وأبو جعفر

﴿ولا يأمُرْكم﴾ أبو عمرو

٦- الآية ١٨٤ سورة آل عمران ﴿وبالزبرِ وبالكتاب﴾ هشام

﴿وبالزبرِ والكتاب﴾ ابن ذكوان

﴿والزبرِ والكتاب﴾ الباقون

٧- الآية ١٩٥ سورة آل عمران ﴿وقتلوا وقاتلَوا﴾ حمزة والكسائي وخلف

﴿وقاتلوا وقتِّلوا﴾ ابن كثير، وابن عامر

﴿وقاتلوا وقُتِلوا﴾ الباقون

٨- الآية ٢٣ سورة يوسف ﴿هِيتَ لك﴾ نافع، وابن ذكوان، وأبو جعفر.

﴿هِئتَ لك﴾ هشام.

﴿هَيْتُ لك﴾ ابن كثير.

﴿هيتَ لك﴾ الباقون.

٩- الآية ٧٦ سورة يوسف ﴿يرفعُ درجاتٍ من يشاء﴾ يعقوب

﴿نرفعُ درجاتِ من نشاء﴾ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر

﴿نرفع درجاتٍ من نشاء﴾ الباقون

١٠- الآية ٦٧ سورة الفرقان ﴿ولم يُقْتِروا﴾ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر

﴿ولم يَقْتِروا﴾ ابن كثير وأبو عمرو، ويعقوب

﴿ولم يَقتُرُوا﴾ الباقون.

وكل هذه الأمثلة من الواضح جدا عدم تأثيرها على المعنى بأي شكل من الأشكال.

للمزيد:

https://re-understanding.blogspot.com/2011/01/blog-post.html?fbclid=IwAR0_J9tconwgOXM_kl_tKpgtLEpRH-G2EzE-hHGfCqWy51pRMmqxRpmQY6To

وهناك نوع من الاختلافات ناتجة عن اختلافات في التنقيط مثال ذلك

١- الآية ٢١٩ سورة البقرة فقرأ حمزة والكسائي (فيهما إثم كثير) بالثاء، وقرأ الباقون (إثم كبير) بالباء .

٢- الآية ٢٥٩ سورة البقرة قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (ننشرها) بالراء، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي (ننشزها) بالزاي .

٣- الآية ٤٤ سورة الإسراء (تسبح له من في السماوات والأرض) عند حفص و (يسبح له) عند ورش.

وهي اختلافات لا تؤثر في المعنى ويمكن ملاحظة المعنى الأقرب من خلال السياق، علما أن تعدد المعاني لا يعني تعارضها أو تناقضها إطلاقا، بل على العكس، هذا النوع من الاختلافات في القراءات يعطي مساحة إضافية للفهم والتفاعل مع النص القرآني...

أقوى اختلاف في النسخ يجده الطاعنون في القرآن والباحثون عن مبرر لإلحادهم هو أن واحدة من القراءات لا توجد فيها كلمة «واحدة»، موجودة في بقية القراءات!

كلمة واحدة؟ ياللهول! هل هي كلمة سرية؟ هل أخفيت لأنها كانت ستغير التاريخ؟ هل فيها إشارة لخليفة النبي مثلا؟ هل غيرت بإخفائها معنى القرآن كله، أو السورة التي فيها...أو الآية التي فيها على الأقل؟

لا. لا يوجد شيء يشبع حس المؤامرات المتوقع في مناسبات كهذه.

الكلمة هي «هو».

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الحديد (٢٤) في قراءة حفص..

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٤) حسب قراءة ورش..

هذا هو كل شيء..الله هو الغني الحميد في حفص، الله الغني الحميد في ورش...انتهى. المعنى لا يتغير قطعا ودون أي نقاش، وهذا هو أقصى ما يصلون له في دعوى موضوع التحريف.

ورغم ذلك، تجد من يصدم من الشباب بحقيقة وجود كلمة «غير موجودة» في واحدة من القراءات، وبعضهم يهتز إيمانه كما لو أنه اكتشف أنه كان يعيش خدعة...

للأسف بني الإيمان بطريقة «كونكريتية صلدة» غير قابلة للمرونة، بحيث أن أبسط هزة (مثل اكتشاف أن كلمة هو في آية في سورة واحدة في قراءة ورش) يمكن أن تحدث شرخا في إيمانهم..

يحتاج البعض إلى جولة سريعة في الاختلافات بين الأناجيل لكي يعرفوا الفرق فقط.

للمزيد: الكل أو لا شيء

المحرمات

تعليل بعض المحرمات مثل الخمر بإذهاب العقل مثلا...ماذا لو أن أحدهم شرب بمقدار لا يذهب العقل، العلم يقول أن نسبة ٤.٪ من الكحول في الجسد لا تؤثر على إدراك البشر، كما أن هناك أنواع لا تسبب السكر لكنها خمر فهل يحل شربها؟ لماذا لا يكون التحريم متعلقاً بجوانب روحية غير مادية؟

بخصوص علة التحريم ومثال الخمر، القانون عندما يسن، يراعي الجميع، يراعي الضعيف والقوي، والمتمادي ومن يتحكم بنفسه، هناك بشر فعلا يمكنهم أن يشربوا الخمر دون أن يتأثروا بها، ولكن هؤلاء نسبة معينة، والنسبة الأكبر لن يمكنها أن تتحكم، وهكذا فإن القانون يجب أن يكون عاما بحيث يشمل (مصلحة الجميع)، لأن الضرر الذي يمكن أن تسببه الفئة التي لا يمكنها التحكم سيصيب الجميع وليس يصيبهم فقط.

العلة نفسها في هذا المثال لم تحدد عبر نص شرعي، بل هي تأويل فقهي يُسند بالكثير من التجارب والدراسات، لكن قد يكون للتحريم عللا أخرى غير هذه.

عمليا من الصعب تصور وجود من ألحد فعلا بسبب الخمر، شرب الخمر في النهاية معصية، مثل غيرها من المعاصي، ومن يستخدم هذا الموضوع لغرض التشكيك بوجود الله، أو بالدين عموما، يكون لديه الكثير من المشاكل قبلها.

للمزيد: الخلط بين العلم والإيمان /الحرية الشخصية

المسلمون يعتقدون أن الله كرمهم بالعقل، لكن معاملته معهم في موضوع حشمة المرأة هو عكس ذلك تماما..عندما أمر الله تعالى المرأة باللباس المحتشم والحجاب أمام الرجال فهو يلغي دور العقل واتزانه عند الرجال ويدفعه للمساواة بالحيوانات وشهواتهم غير المحدودة.

العقل لا يلغي الشهوة، وليس من المطلوب أصلا إلغاؤها، فهي أساس لاستمرار الجنس البشري، المطلوب تنظيمها وتقنينها فحسب، كما أن العقل ليس أداة مطلقة تسبح في فضاء مفرغ من التأثير، بل هو أداة تتفاعل تتأثر وتؤثر بالمحيط.

ضمن هذا الإطار: يمكن فهم جزء من وظيفة الحجاب(على الأقل اجتماعيا) بتذكير الحس المنطقي (العقل) بأهمية عدم التعامل مع المرأة باعتبارها أداة جنسية.

من الطبيعي أن يكون هناك من سيقول العكس: أن الحجاب يذكر بذلك، وهي وجهة نظر معتبرة، ولكن من يذكر بالجنس أكثر، الكشف أم الحجب؟

بوجود الغريزة، من الصعب القول أن الأغلبية ستعتبر الحجب مثيرا أكثر من الكشف.

لكن ينبغي التذكير هنا أن وظيفة الحجاب (كمانع للشهوة أو مقنن لها) أمر غير مسلم به، وهناك وظائف اجتماعية أخرى قد تكون أهم وأكثر استمرارية .

كيف يخلق الله شيئاً فيجعله نجساً لذاته كالخنزير ؟

ما هو نجس للإنسان (أو غير صالح للاستعمال البشري) لا يعني أنه خالي من الفوائد لغير الإنسان ولا يعني أن لا (سبب لخلقه)..

(ما الحكمة من هذا التشريع أو تلك العبادة أو هذا الأمر)

لماذا هذا الغموض و التكتم من الخالق على إظهار الحكمة من الأمر؟ إن العمل بشيء ما أو تقبل أمر ما، دون معرفة الحكمة و الاقتناع به هو تعطيل للعقل و والانقياد نحو المجهول بل ولن أستطيع تبرير إنصياعي للخالق أمام الناس و أمام نفسي .

عندما يتعلق الأمر بطعام صحي أو رياضة جسدية، فإن إظهار الحكمة أو الفائدة منه أمر حتمي.

لكن عندما يتعلق الأمر بما تتعدد الحكمة منه وتتنوع وقد لا تكون مفهومة أصلا في مرحلة ما ثم تفهم وتتبين أهميتها لاحقا، في هذه الحالة، الأفضل فعلا هو ترك الأمر لإعمال العقل، دوما وباستمرار في كل مرحلة زمنية.

فيما يتعلق بالاقتناع بأمر ما...

الاقتناع نوعان...هناك اقتناع مجمل، تقتنع بصلاحية قضية ما وتبنيك لها، لديك أسباب عامة مجملة تجعلك تتبنى الأمر..

لكن ماذا عن التفاصيل؟

قد تجد أمورا كثيرا لست مقتنعا بكل ما فيها من تفاصيل، لكن عدم اقتناعك بها لا يلغي قبولك الأصلي بمجملها.

قد تحب دراسة تخصص ما، لكن في التخصص مواد مهمة لا تجد قبولا لديك، لكنك تعلم أنك لن تتنازل عن التخصص فقط لأن بعض مواده غير مناسبة لك.

تحب زوجتك، وبعض ما فيها يزعجك، لكنك لن تتخلى عنها فقط من أجل ذلك.

بل حتى النظريات العلمية، يوجد في الكثير من الأحيان فيها جوانب ضعف، لكن هذا لا يلغيها تماما ولا يجعل المؤمنين بها يتركونها، لأنها تبقى «التفسير الأفضل» المتوفر.

ليس من أبيض وأسود مطلقين في الحياة...حتى في الإيمان.

القبول المجمل يجعلك تغض النظر عن بعض ما ترفضه جزئيا.

كذلك الإيمان المجمل بشيء يجعلك تتجاوز ما لم تجد له القبول من تفاصيل.

بعض الحدود تتنافى مع حرية الإنسان في اختيار طريقه.

للإنسان الحرية الكاملة في اختيار ما يريد لحياته. بما في ذلك حق الكفر.

لكن عليه أيضا تحمل مسؤولية ذلك الخيار.

الحرية حق، وكذلك مسؤولية.

للحرية ثمنها..

بعض الثمن دنيوي وبعضه أخروي.

للمزيد: الحرية الشخصية

وكيف يخلق الله الكلب ثم يعده نجسا ؟

لا علاقة لنجاسة الكلب بانتفاء الحاجة لوجوده وخلقه. التأكيد على النظافة الشخصية للإنسان ومنزله قد يتطلب إبعاد بعض الحيوانات عن هذا المنزل، وهذا أمر يمكن فهمه على هذا النحو الصحي ولا يمكن أن يُحَوَّل ليكون سببا في الإلحاد إلا من باب البحث عن حجة.

قسم من الملحدين (في الغرب على الأقل) اتجهوا للالحاد بسبب كونهم شاذين، و الأديان السماوية تعتبر الشذوذ خطيئة كبرى و لا تتقبله كأمر طبيعي كما يرغبون. هذا يدفعهم لترك الأديان و انتقادها بشدة و والإعلان عن كونهم ملحدين. هؤلاء يسوقون حجة لإلحادهم:كيف يمكن لإله أن يخلقني بميول شاذة ثم يعاقبني عليها؟

موقف الأديان من الشذوذ الجنسي هو أنها مبدئيا معصية أو كبيرةٌ حالها حال أي كبيرة أخرى، هناك نظام اجتماعي يستفز غالبا بسبب هذه المعصية ويجدها مهددة لثوابته. ولهذا تعامل عادة على نحو أشد من كونها معصية، لكن هذا لن يغير من تصنيفها الأساسي- و لهذا تكون ردود أفعال أصحاب هذه الميول مبالغا فيها تجاه الأمر، كاللجوء إلى الإلحاد كما في المثال، علما أن الكثيرين منهم يجدون في الإلحاد تخلصا من الشعور بالذنب الذي يترسب في أعماقهم بسبب نشأتهم التي ترى في هذه الميول ما تراه.

لكن في نهاية المطاف، الأمر هو معصية، والانجرار إلى الإلحاد فقط بسبب عدم قدرتك على التخلص من معصية أمر مبالغ فيه جدا وغير مبرر منطقيا.

من ناحية أخرى، لا توجد أي دراسة علمية تثبت بشكل حاسم أن أصحاب هذه الميول يولدون بها...والنقاش حول كون ذلك مرتبط بالجينات لم يحسم.

لكن لو اعتبرنا الأمر كذلك، فأصحاب الإعاقات الخلقية أحق بالإلحاد من هؤلاء..

وهذا يقودنا مرة أخرى لفكرة الاختبار والامتحان التي ينساها الكثيرون في خضم نقاش الحرية الشخصية.

أي إله هذا الذي تدعون أنه يستحق أن يُعبَد: إله يغضب لامرأة تظهر شعرها!! أو تنتف شعر حاجبها!!

وجود أمر تنظيمي معين شيء، وتحويل انتهاك الأمر إلى غضب إلهي أمر مختلف تماما وفيه لهجة تصعيدية ربما كان جزءٌ منها قادما من المتدينين أنفسهم.

بعبارة أخرى..كل المجتمعات تحتاج إلى قوانين تنظمها، التعامل مع هذا على نفس النحو أعلاه يعني طرح أسئلة من هذا النوع: ما هو هذا القانون الذي يمنع الناس من قيادة السيارة إلا بعد عمر معين؟ ما هو هذا القانون الذي يمنع الناس من التدخين في الأماكن العامة؟ ما هو هذا القانون الذي يمنع الناس من الارتفاع ببيوتهم كما يشاؤون؟ ما هو هذا القانون الذي يفرض علينا ارتداء أحزمة الأمان في السيارات حتى لو كنا نقود السيارة بسرعة قليلة أو في وسط زحام شديد؟

بالتأكيد لكل من هذا أسبابه المعروفة، ولذا فلن يكون هناك أسئلة كهذه أصلا، لأن احترام القانون أمر مفهوم تماما. الأمر نفسه مع إظهار الشعر . النص المتعلق بموضوع إظهار الشعر لم يتحدث عن غضب إلهي...الأمر تنظيمي بحت.

إله يمنع متحابين من الزواج لمجرد أن أحدهما لا يؤمن به!!

لا يمكن أن يكون هناك إله هكذا،

من حدد مواصفات الإله في هذا الحسم؟ ولماذا تعتبر قيمة الحب أهم وأعلى من الإله؟

ويخلق الوزغ ويأمر بقتله .

الترغيب بقتل الوزغ كان في السنة عبر حديث صحيح، علما أن المعاجم تُعَرِّف الوزغ بالأبرص السام وليس أي برص دون سمية.

لماذا يتدخل الله في تفاصيل حياتنا اليومية و طريقة لباسنا و كلامنا من خلال الحدود التي أمرنا الالتزام بها ؟

نعترض على التدخل في شؤون حياتنا عندما يحدث هذا التدخل من الجيران أو من الأقارب أو حتى الوالدين أو الحكومة..

مع الله، الأمر مختلف وباستثناء أن يكون للأمر عقوبة واضحة محددة إن لم تفعل هذا الشيء، فإنّ الأمر لا يمكن أن يطلق عليه (تدخلا)...بل إرشادا.

وباستثناء (غطاء الرأس) للمرأة، فإنّ كل شيء آخر مما يمكن أن يصنف تحت هذا هو السنة النبوية، وكل ما فيها في الحقيقة لم يأت في تركه أي عقوبة.

لماذا يبعث لي الله رجلاً يملي علي ما يجب أن أفعله أو أمتنع عن فعله؟

في الحقيقة هو بعث رجلا لينقل لك الوحي الإلهي بأوامره ووصاياه ونصائحه، يمكنك رفضه إن أحببت، وعليك تحمل نتائج ذلك في الآخرة.

في النهاية، أنت تفعل في كثير من الأحيان ما تمليه عليك القوانين التي وضعها رجال مثلك.

لماذا «الحرية الشخصية» تتحسس من الدين فقط؟

عبوديتكم لربكم هي في النهاية عبودية، ولستم أحراراً في أنفسكم وخياراتكم، فمثلا جسدكم هو ملك لكم ويحق لكم تقديمه لمن تريدون (من ناحية الجنس)، واتباعكم لقرار لم تضعوه أنتم (تعاليم الإسلام في العفة والطهارة والزنى) تعني أنكم لستم أحرارا.

العبودية لله في النهاية هي عبودية بلا شك. لا أحد ينكر هذا أو يعتبره انتقاصا منه. لكن عندما يأتي من يناقش هذا الأمر ويحاجج بالحرية الشخصية، فإننا لا يمكن إلا أن نسأل، هل ثمة عبودية خفية لمفهوم الحرية الشخصية؟ هل الإفراط في مفهوم الحرية الشخصية قاد إلى نوع جديد من العبودية التي ينادي أصحابها بالحرية طيلة الوقت.

المؤمن المسلم يقر بمفهوم العبودية لله، وهو يؤمن أن هذه هي العبودية الوحيدة المستحقة من بين عبوديات كثيرة كانت، وأخرى لا تزال مستمرة بين البشر.

من ضمنها عبودية الإنسان لنزواته الجسدية وشهواته...التي يمكن أن تجد في تعبير العبودية للحرية الشخصية مرادفا حقيقيا لها.

الدعاء/ الشعائر/ الأخلاق

قالوا: كيف يكون إلهكم رحيما لطيفا غنيا كريما قويا عدلا جبارا، ويقول ادعوني أستجب لكم.. وبعد ذلك يوجد من عباده من يدعونه وهم مظلومون ومقهورون ومعذبون ويموتون جوعا وفقرا؟

فهم موضوع إجابة الدعاء على نحو خاطئ.

النص القرآني قال فعلا ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ولكن هناك جزء آخر من الآية يهمل غالبا فالتتمة المباشرة ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة(١٨٦) وهذا يعني أن موضوع الدعاء مرتبط باستجابة الناس لأوامر من ضمنها العمل والأخذ بالسنن الإلهية في الأرض.

هذا أولا.

ثانيا إجابة الدعاء لا تعني تحقيق الطلب، بل تعني سماعه.

كمثل أن تنادي على شخص ما (ولله المثل الأعلى) وتطلب منه أن يفعل شيئا محددا، الشخص سيستجيب لندائك عليه، لأنه سمعك، لكن هذا لا يعني أنه سيقوم بما طلبته منه.

لكن للأسف مفهوم أن الدعاء يحقق بمجرد الطلب منتشر وساهم بطريقة سلبية في بقاء الكثيرين منتظرين تحسن أوضاعهم بتدخل مباشر من الله بدلا من أن يحاولوا هم العمل على ذلك..

للمزيد: لماذا لا يستجيب لنا / الاجتزاء في التفكير

مناسك الحج طقوس وثنية صريحة...

البناء الحجري الذي تسمونه الكعبة وتطوفون حوله، وحكاية السبع طوافات والسبع هرولات والسبع رجمات . وثوب الإحرام الذي تلبسونه على الجسد العاري ؟ و الذبح.. ؟!

بالتعريف: الطقوس الوثنية ترتبط بوثن.

ولا وثن في الحج. ولا وثن في الإسلام كله.

كل ما في الحج يرتبط بفكرة، بمفهوم معين..البيت يرتبط بفكرة البناء والإعمار، الطواف حول البيت يرتبط بفكرة أن تقضي كل حياتك وأنت تبني، وأنت تدور حول محور الإعمار، السعي بين الصفا والمروة يرتبط بالشغف الأمومي في تبني القضايا المهمة في الحياة.

كل جزء من الحج يرتبط بمعنى عميق. لكن البعض لا يريد أن ينظر بعمق.

للمزيد: الشعائر

أخذت بكافة الأسباب المادية و الدينية ولم يستجب لي

الدعاء ليس امتحانا له، بل هو جزء من امتحانك أنت...أن يجيب الدعاء فهذا لا يعني تحقيقه، بل يعني أنه سمعك تناديه، فقال لك قل ما عندك..."

سوء خلق المتدينين! ما فائدة الدين إن لم يحسن أخلاقهم؟

الأمر هنا يشبه أن نترك التعليم لأن المعلم كان سيئا أو نترك الطب لأننا مررنا على طبيب سيء.

بالتأكيد ليس كل المتدينين سيئي الخلق، ولا حتى أغلبهم، لكن ثمة أمران يجعلان «سوء أخلاقهم» عاملا مؤثرا :

الأول – التحيز السلبي: هناك تحيز سلبي طبيعي عند البشر يجعلهم ينتبهون إلى سلبيات شيء ما أكثر من إيجابياته.

الثاني– وجود عدسة مكبرة ناقدة على سلوك المتدينين باعتبار أن الدين يفترض أن يجعلهم أفضل.

وهكذا فما يصدر من المتدينين من سلوك قد يعد عاديا بالنسبة لغيرهم، ولكنه معهم يعتبر سلبيا.

للمزيد: مغالطة السمكة الحمراء / مغالطة التعميم المتسرع

فكرة الدعاء هي مسكنات تعطى للفقراء و المذلولين و المرضى ريثما يلقون حتفهم.

إن فهمتها كذلك، فهذا لا يقلل من أهميتها وفاعليتها، كلنا نحتاج مسكنات عند الألم، المهم أن لا يؤخرنا هذا عن العمل الحقيقي.

تأخذ المسكنات، ريثما يأخذ العلاج مفعوله، ويشفى المرضّ.

لو أنهم اتجهوا للدعاء فقط، يكونون كمن يأخذ مسكنا ويترك المضاد الحيوي.

بالتأكيد لن يزول الالتهاب..

اللجوء إلى «الله» صاحب القوة المطلقة هو أمر يتربى عليه المؤمنين كمهدئ نفسي في حالة الفشل، ولو كانوا في بيئة غير تلك المؤمنة لتعودوا الاعتماد على أنفسهم ولزاد ذلك من فرصة نجاحهم.

حبة المهدئ النفسي ليست وهما بعد كل شيء. أغلب البشر يحتاجونها.

وفي كثير من الأحيان، يمكن لدواء ضغط أو قلب أن يقوم عَرَضَاً بتهدئة النفس أيضا. أي أن يكون له أكثر من غرض في آن واحد.

البعض لا يرى في العلاقة مع الله إلا مهدئا نفسيا.

لكن هذا محض قصور في استعمالهم وفهمهم للعلاقة وليس في (العلاقة) الممكنة أصلا مع الله التي يمكن أن تجعلهم أقوى وأنجح وأكثر توازنا في حياتهم وليس فقط أقل جزعا وأكثر هدوءا فحسب.

كما لم يثبت أبدا من الناحية العلمية وجود علاقة مباشرة بين الإلحاد والنجاح، هناك ملحدون فاشلون، ومؤمنون ناجحون.

للمزيد :مغالطة السبب الزائف

إن كان الله موجوداً ويستجيب الدعاء كما تدعون، فأنا أدعوه سنوات طوال ولم يستجب لي.

فشلك في دخول كلية الطب لا يعني عدم وجود الكلية.

للمزيد: لماذا لا يستجيب لنا

أعطني تبريرا عقليا واحدا : لماذا فرضية الصلاة خمس مرات في اليوم ؟ و لماذا تحديد عدد الركعات في الصلوات المفروضة و قبل ذلك ما الهدف من تثليث الغسل في الوضوء .

الشخص نفسه قد يلتزم بوضع حزام القيادة في كل مرة يقود السيارة فيها رغم أنه قد يكون غير مقتنع بأهمية الحزام في الشوارع الفرعية مثلا أو في الشوارع التي تكون فيها السرعة بطيئة. لماذا ؟ لأنه قانون. وهو يلتزم بالسرعة ٦٠ أو ٨٠ دون أن يزيد ذلك...كما أنه يلتزم بمواعيد الدواء كل ٨ ساعات ولا يقول لماذا ليس كل ٦ ساعات؟

قصة فرضية الصلاة وعدد مراتها وعدد ركعاتها تذكرني بأسئلة أخرى نادرا ما نسمعها..لماذا اليوم ٢٤ ساعة وليس ٢٦ أو ٣٠..لماذا الحمل عند أنثى الإنسان ٩ أشهر وليس ١٢ ؟ لماذا عدد الكروموسومات ٢٦ وليس ٤٦ ؟ إلى آخره.

في النهاية هناك عددٌ ما. يجب أن يُحَدَّد وعليك أن توجه أسئلتك إلى أمور أخرى.

التضحية بالحيوانات (مثل خروف الأضحى) طقس وثني ضارب بجذوره في عمق التاريخ الميثولوجي و ليس وليد الإسلام بل هو امتدادٌ لطقوس بدائية وثنية عرفها الإنسان منذ اختراعه لفكرة الآلهة ليقدم من خلال هذا الطقس فروض الطاعة والخضوع وطلب الدعم، لماذا يشترط سفك الدماء لإله قابع في السماء جعلته ميثولوجيا الأديان التوحيدية يشتهي اللحوم ويعشق الدماء ؟ لم نسأل أنفسنا لماذا اتجه الله الواحد لنفس نهج المعتقدات الوثنية في طلب الذبائح والقرابين أليس من اللائق أن لا يتشابه نهجه مع نهج الوثنيين البائس؟

هذه الدراما التي تبكي على خروف الأضحى تتناسى الجزء الاجتماعي من الأمر، أي توزيع لحم الأضحية على الفقراء وعلى الجيران والأقارب، وهو الأمر الأهم في أضحية العيد في الإسلام. الشعيرة نفسها لا تركز على أي تفاصيل متعلقة بالذبح إلا في أن «تراح الذبيحة» ولا تتعرض للألم. الدم نفسه لا يستعمل في أي شيء

تقديم الأضاحي في الأديان الوثنية كان شعيرة مرتبطة بالخروج من مرحلة الصيد وجمع الثمار إلى مرحلة الاستقرار عبر الزراعة التي شهدت أيضا لأول مرة «تربية وتدجين الحيوانات»، وهكذا كانت «التضحية» هنا بمثابة استذكار لمرحلة سابقة كان «الصيد – قتل الحيوان»- بكل ما في ذلك من مخاطر- هو الوسيلة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. أي أنه كان بمثابة شكر للأوثان على الاستقرار الذي قدمته عبر الزراعة وتدجين الحيوانات. وكان دم الحيوانات المسفوك يلعب دورا مهما في الشعيرة عبر تلطيخ الوثن به أو تلطيخ منصته أو حتى شرب تلك الدماء، وكانت الأضاحي تحرق أو تترك أمام الأوثان دون أن يأكلها أحد (أي أنها كانت تهدر فقط كقربان للأوثان) وفي مرحلة لاحقة صار كهنة تلك الأوثان هم من يأخذ لحوم الأضاحي، دون وجود أي بعد اجتماعي للطقس.

بينما ذبح الأضحية في الإسلام لا يرتبط إلا بهذا البعد الاجتماعي وباستحضار موقف سيدنا إبراهيم مع ابنه، وهو موقف كان يمثل قطيعة نهائية مع شعيرة التضحية بالأبناء التي كانت سائدة في حضارات كثيرة.

لا يوجد أي مشاركة للدم في الشعيرة الإسلامية، فعالية الذبح نفسها لا مكان محدداً لها ولا تحتل أي مساحة في الشعيرة. المهم هو تقسيم الأضحية على الأصدقاء والفقراء...أي البعد الاجتماعي تحديدا...

للمزيد: مغالطة المؤرخ / تاريخ الأديان / الشعائر

الصلاة والشعائر الدينية ليست سوى محفزات دماغية تعمل على إفراز هورمونات إيجابية عن طريق حركات وخطوات محددة، الجسم بالتدريج يدمن على هذه الهورمونات ولا يشعر بالراحة إلا عند القيام بهذه الطقوس وهذا يفسر إقبال الناس عليها وشعورهم بالراحة عندها، الأمر كيميائي بحت لا علاقة له بالتواصل مع الله أو أي بعد روحاني.

هذه المعلومات عن علاقة الشعائر بالهورمونات صحيحة وموثقة علميا.

وبعض الدعاة يستعمل نفس المعلومات لغرض معاكس تماما: ألا وهو للتدليل على أهمية الصلاة، واعتبار الأمر معجزة...إلخ.

والحقيقة أن الأمر يعتمد على زاوية النظر إلى هذه المعلومات، كما أغلب المعطيات العلمية، يمكن أن تفسر باتجاهين، وهي في حقيقتها محايدة ولا تقول شيئا غير ما تقوله مباشرة.

الملحد يتعامل مع هذه المعطيات بطريقة (وجدتها!)، الآن فهمت لماذا يحب المؤمنون الصلاة، الأمر كيمياء فحسب، لا أكثر و لا أقل.ربما يمكن إعطاؤهم حبوب بديلة أو إشغالهم بنشاطات تعوض إفرازات الهورمونات التي ستنقطع لو تركوا الشعائر.

المؤمن سيقول (سبحان الله!)، قادر ربك على كل شيء، وضع لنا هذه الهورمونات لكي نرتاح في الصلاة وتكون قرة عين لنا.

بعد كل شيء: يؤمن المؤمنون أن الله الذي أمر بالصلاة هو نفسه الذي خلق الهورمونات. لذا لا يجدون أي مشكلة في التعامل مع هذه المعلومات على نحو يعزز إيمانهم.

بعيدا عن الأمرين: إذا كان الدين يدخل في كيمياء الإنسان لهذه الدرجة، فمحاربته أصعب بكثير مما يظنون.

لست بحاجة لوجود إله في حياتي أعيش لمدة سنوات بدون إيمان بأي عقيدة ولكن بقيم إنسانية أخلاقية، و أعيش بسكينة أكثر من يوم كنت مؤمناً وأرى أن الإيمان أمر غيبي وغير معرفي و جبن فكري أخلاقي. كيف يضع الغرائز فينا ويوجدنا بلا اختيار منا ثم يحاسبنا..؟

العيش بسكينة أمر شخصي ونسبي تماما...وهو لا يكفي لتحديد النمط الصحيح للعيش بالضرورة.

الكثير من المجرمين يعيشون أيضاً بسكينة. النازيون عاشوا بسكينة. كثير من الطغاة كذلك وكذلك أغلب زبانيتهم ومن ساعدهم في جرائمهم. العيش بسكينة وهدوء وتصالح مع الذات (كما يقولون) أمر ذاتي جدا ولا يصلح أن يكون معيارا للصواب أو الخطأ.

الإيمان أمر غيبي؟ بالتأكيد. كثير من المسلمات في حياتنا وحتى حياة الملحدين ترتبط بما هو غير ظاهر وما لا يمكن أن يكون خاضعا للعلم مثل مشاعرنا وأحاسيسنا والكثير من دوافعنا وطموحاتنا.

الإيمان أمر غيبي وهذا لا يعيبه. هذا وصف له فقط. بل قد يكون ميزة تجعل الجمع بينه وبين الإيمان بالمادة أكثر توازنا.

غير معرفي؟ إذا كنا نتحدث عن المعرفة بصفتها المخبرية (العلم المادي المباشر بنتائج المعادلات الكيميائية مثلا) فنعم الإيمان غير معرفي حسب هذا التعريف الضيق للعلم والمعرفة، لكن ثمة دوائر متداخلة تضم العلم بنسخته المادية

وتضم أيضا الحس العام common sense والبديهيات والحدس وكلها أدوات معرفية كانت السبب في اكتشاف الكثير من النظريات التي شكلت قفزات مهمة للعلم المادي.

جبن فكري ؟

في الحقيقة الإلحاد يمكن أن يحتوي على جبن من هذا النوع أكثر من الإيمان. صحيح أن الملحدين يتهمون المؤمنين بقبول إيمانهم وأجوبته دون تفكير. ولكن من ناحية أخرى فإن الملحدين أجبن من الاعتراف بأن اللاجواب الذي يقدمه الإلحاد يعبر عن تناقض كبير. إذا كانوا غير مقتنعين بجواب الدين، فاقتناعُهُم باللا جواب الذي يقدمه الإلحاد يعبر عن تناقض وجبن.

كنت شجاعا بما فيه الكفاية لتقول أن الجواب الديني غير مقنع؟ فاقتنعت باللا جواب؟

بخصوص سؤال (كيف خلقنا دون إذن منا ..)

أخشى أن موضوع الحرية الشخصية فهم على نحو مفرط ومضخم جدا ..تحويل قضية الحرية الشخصية من مسألة سلوك شخصي إلى نطاق الغيبيات والأسئلة الوجودية وما وراء الطبيعة أمر فيه خلل كبير...

أبوك وأمك أنجباك أيضا دون أن يأخذوا مشورتك وإذنك...

لا يمكن العمل على ذلك بأثر رجعي.

أنت موجود الآن وانتهينا من ذلك (للأسف.!)

تعامل مع الأمر ....

«أنا لا أحتاج لدين معين

أتواصل مع «القوة العظمى» بطريقتي الخاصة وقتما أحتاج.. صلاة المسلمين.. صلاة البوذيين.. أيا كان ما أشعر به مناسبا للتواصل..

أهل الأديان يؤدون حركات لا يشعرون بها ويؤمنون بأشياء لا يستطيعون الدفاع عنها

يفترض هذا الأمر أن الصلاة هدفها التواصل فقط. رغم أنها في الحقيقة أبعد من ذلك بكثير.

على العموم، فكرة التحرر من شكل معين ومحدد للصلاة تبدو جذابة لبعض الشخصيات بميول معينة.

ومبدئيا يمكن التواصل معه سبحانه وتعالى بأي طريقة من غير شكل محدد للصلاة أو الشعائر، في الدعاء مثلا، يمكنك أن تقول ما تشاء دون التقيد بصيغة دعاء مأثورة مثلا.

لكن الصلاة نفسها أمر آخر.

الانتقال من صلاة المسلمين إلى صلاة البوذيين مثلا يحتوي على مغالطة وتناقض لأن فكرة الإله في الديانتين مختلفة. عندما تنتقل من صلاة إلى أخرى على هذا النحو فأنت عمليا تعكس جهلا بالمفهومين..وربما يكون هذا مغلفا برغبة في إظهار التحرر أو القشرة الثقافية.

يشبه الأمر الجمع بين طريقتي علاج مختلفتين تماما كل منهما تنتمي إلى مدرسة طبية مختلفة جذريا.

ببساطة : الأمر غير مُجْدٍ.

للمزيد: الحرية الشخصية / الشعائر

سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام

بمجرد حدوث شرخ واحد في صورة الرسول عند شخص ما فإنّ هذا يفتح المجال لإعادة تقييم كل شيء وصولا إلى الإلحاد.

عندما يبنى الإيمان على أساس خاطئ فإنه من المحتمل جدا الوصول إلى الإلحاد...

هناك جزء تاريخي في شخص النبي عليه الصلاة والسلام يتعلق بعادات قومه ومجتمعه، لا يمكن له أن ينفصل عنها تماما ويعيش في فقاعة بعيدا عن الواقع...كيف يمكن لنا نحن أن نفصل بين هذا الجزء التاريخي المتعلق بقومه وعاداتهم وبين رسالته وما يستمر عبر العصور منها؟ ببساطة بالنصوص ونوعيتها..ما جاء في القرآن فهو بالتأكيد ينتمي إلى الجزء المتعلق بالرسالة وليس بالتاريخ ولكن حتى هذا يجب أن يدرس ضمن سياق الاستخدام اللغوي في القرآن نفسه.

عندما يكون الأمر في الحديث الشريف، فعلينا أن نرى رتبة الحديث من حيث صحته أو ضعفه. الضعيف لا يحتاج أن نقف عنده طويلا طالما طرح إشكالية أصلا. أما الصحيح الذي يطرح شيئا مماثلا فإنّ علينا التنبه كونه آحادا أو متواترا، المتواتر (باللفظ أو بالمعنى) سيقود إلى الجزء الرسالي من شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام.

الآحاد قد يشير أكثر إلى الجزء التاريخي (ليس دائما لكن احتمالية ذلك أكثر) .. بعدها يمكن النظر للسياق، هل هناك مناسبة معينة لورود هذا الأثر، هل الأثر مرتبط بها، هل يعارض الأثر نصا قرآنيا أو آثارا أخرى؟ ما درجتها، هل هي أكثر انتشارا؟ هل كان الأمر المشار إليه شائعا في المجتمع آنذاك؟

والأهم من هذا : هل كان ضمن ما يسمى السنة الفعلية أم القولية؟

بمعنى هل فعل الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الشيء فقط أم قاله وأمر به ؟ القول هنا هو تبليغ، ويشير إلى الرسالة أكثر مما يشير الفعل فقط.

عندما ننظر للأخبار الواردة عنه عليه الصلاة والسلام على هذا النحو، وبطريقة لا تجعله غريبا عن واقعه أصلا (إذ أن هذا سيكون عائقا وقتها في التفاعل مع مجتمعه) عندما ننظر إلى شخصه الكريم على هذا النحو المتوازن، فإنّ ما لا نقتنع أنه مقبول في زماننا، لن يجعلنا نرفض رسالته. عليه الصلاة والسلام.

للمزيد: الكل أو لا شيء / الكاتالوغ المثالي / مغالطة المؤرخ

الادعاء بأن النبي محمد كانت عنده أعراض للبارانويا

عند البحث في أعراض البارانويا ستجد أنها مجموعة من الصفات مثل الشك والارتياب في الناس وتصور أن الكل يتآمرون عليه وتفسير تصرفاتهم بناء على هذا، وهذا غالبا يقود إلى سوء علاقته بالجميع ونفور من حوله منه...

النبي عليه الصلاة والسلام كان النسخة المعاكسة من هذه الصفات، كان يثق بالناس من حوله ويمنحهم الثقة بأنفسهم ويرسلهم كقادة في سرايا وغزوات ويوليهم على المدينة في غيابه ويأتمنهم على كتابة القرآن ونقل تعليماته. في نهاية المطاف: كان عدد من خذله وخانه ممن ائتمنهم قليلاً نسبيا مقارنة بمن أثبت صحة ثقته.

أما إذا قصد جزء «جنون العظمة» من البارانويا، فالنبي هو الذي أوصى بعدم الغلو والإطراء فيه، عدا عن بساطة حياته اليومية حيث كان يهتم بكل شؤونه بنفسه.

من الواضح أن النبي قد تعلم من ورقة بن نوفل عن المسيحية، رغم أنّ كتب السيرة تذكر أنّ وقتا طويلاً مضى بين وفاة ورقة و بدء دعوى محمد بالنبوة، وفي مراجع أخرى ستجدون إقحاما غير مفهوم لموت ورقة بن نوفل فوراً بعد أن أبلغ محمداً بأنه نبي مثل موسى.

من المهم قبل الدخول في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وشخصيته التنبه لأمر مهم ومفتاحي يتعلق بالمصادر التي ينبغي الأخذ بها أو عدم الأخذ بها...هناك أحيانا انتقائية في أخذ الأخبار من المصادر..يؤخذ منها جزء ويترك آخر. بناء على حكم مسبق يرغب الباحث في تثبيته والبرهنة عليه.

لكن من الضروري تماما الحذر من هذا. إن كان الباحث يجد مشكلة في مصادر السيرة من أحاديث فلا معنى في الانتقاء منها حسب هواه. على الأقل ينبغي أن يفسر سبب اختيار هذا الجزء من السيرة وترك سواه مما قد يثبت عكس الأمر.

التعامل مع قصة ورقة بن نوفل مثال على هذا الأمر. ورقة حسب الأحاديث الصحيحة كان ابن عم خديجة رضي الله عنها زوجة الرسول وكان قد اعتنق النصرانية وكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية (أي أنه كان لديه معرفة بالعبرانية) وكان شيخا كبيرا في السن وذهب بصره عندما أتى الوحي الرسول عليه الصلاة والسلام. وذهبت السيدة خديجة بالرسول عليه الصلاة والسلام إلى ورقة ليحكي له ما حدث في الغار. وشجعه ورقة وحذره مما سيفعله به قومه .ومن ثم توفي ورقة بعد فترة قصيرة من نزول الوحي. هذه هي الحادثة كما رواها البخاري.

المستشرقون ومن صحبهم يأخذون من كل هذه القصة أنه عليه الصلاة والسلام كان له قريب نصراني، ويقررون أنه لا بد كان يتعلم منه وأن ورقة كان يكتب (القرآن).. إلخ. بل ويربطون بين وفاة ورقة وفتور الوحي.

أي أنهم يستنتجون كل هذا لمجرد أن المصادر ذكرت اعتناق ورقة للنصرانية وعلمه بها.

لكن بقية ما ورد في نفس السياق يهمل.

لو أن ورقة كان يعلم الرسول عليه الصلاة والسلام لكان ذهب إليه فورا وما احتاج الأمر إلى خديجة كي تذهب به.

هل كان الأمر خدعة إذن ؟ سيفترض هذا البعض ممن يرفضون أمر النبوة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخفى أمر تعليم ورقة له.

لكن أما كان من الأسهل والأضمن أن يغفل ذكر ورقة بن نوفل تماما؟ خاصة أنه اختفى في بداية الأمر في السنة الأولى تقريبا من الدعوة.

كان من الأسهل أن لا يذكر...خاصة أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي روى واقعة نزول الوحي هذه لزوجته عائشة رضي الله عنها ولو كان ثمة ما يخفى هنا لكان الأمر سيكون أسهل بتجاوز ورقة بن نوفل كله وليس تركه ليكون مثارا للشبهات.

ثم أن ورقة كان يكتب بالعبرانية، فكيف تحول الأمر إلى أنه يكتب القرآن؟ وإذا كان ثمة إشارة إلى وقوع وفاة ورقة في فترة قريبة من فتور الوحي فهذا لا يعني أن الوحي فتر لأن ورقة مات، الناس يموتون في أي وقت!..وإذا كان الأمر مرتبطا كما يلمحون فمالذي حدث بعدها ؟ هل عاد ورقة إلى الحياة وتدفق الوحي؟

يمكن الاستنتاج والربط والتحليل مما نجده من معلومات في السيرة بمصادرها الأصلية. لكن هذا شيء وتجاهل أغلب المعلومات وتكذيبها على وقع نظرية المؤامرة شيء آخر تماما.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير

الادعاء بأن شخصية النبي محمد ممتلئة بمشاكل نفسية يعاني من بعضها العباقرة، فهو يعاني من هلوسات بصرية يتخيل فيها رؤية وسماع الملاك و أنه سافر للقدس و عرج للسماء في لحظات، غالبا مرض في الفص الأمامي للمخ تجعل الأفكار تنساب عليه- يقرؤها أو يكتبها بسرعة فائقة و تسبب له الثقل البدني عند وقوعها_ و سماع أصوات موسيقية (كصلصلة الجرس) وتعرق شديد ولو في البرد القارس. كثير من الموسيقيين و الغنائيين المهرة الموهوبين كانت لديهم نفس الأعراض.

نعم هناك عباقرة لديهم مشاكل نفسية وبعضهم لديهم هلوسات وعلاقة الفص الجبهي بالإبداع معروفة.

لكن كل هؤلاء يكونون عباقرة في مجالات الفن والأدب .

لم يتمكن أحدهم أن يكون قائدا لأمة أو رئيسا لدولة أو أي منصب قيادي مهم.

بمراجعة لقائمة المشاهير الذين عانوا من أعراض كهذه عبر التاريخ تجدهم جميعا فنانين أو شعراء أو أدباء..وعندما يكون

https://www.emaratalyoum.com/business/local/2019-01-08-1.1170606

ملكا فهو يكون قد ورث الأمر ولا يتمكن من الصمود فيتنحى أو يُزال.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير/ مغالطة رجل القش

وكذلك كان يعاني من الوسواس القهري

ماذا وجدتم في سيرته من أعراض الوسواس القهري؟

غسل كل عضو ٣ مرات في الوضوء!

هذا هو؟! نعم، هذا ما وجدوه، لا بد أنه كان يعاني من هوس النظافة ووسواسها القهري!

علما أنه توضأ احيانا بالغسل مرة، وأحيانا مرتين..وأحيانا ثلاث...

المصابون بالوسواس القهري في النظافة يعيدون تكرار غسل أيديهم مثلا إلى أن تنزف أحيانا..يغسلون كل أصبع على حدة...يكملون غسل أيديهم ثم يرجعون لإعادة الغسل مجددا ومجددا ومجددا..

لا يمكن أن تربط بين الوضوء وبين هذا إلا عندما تكون منحازا على نحو أعمى..

العقد العميقة لليتم و فقد الأم وحاول تعويضها بخديجة

الكثير من عظماء التاريخ كان لديهم تجربة يتم مبكرة، ووجود أثر لهذا لا يشكل مرضا نفسيا أو عقدة، بل يشكل مواجهة مبكرة للحياة.

في الحقيقة، سواء فقدوا أمهاتهم مبكرا أو لا، أغلب الرجال يرتبطون بنساء يشبهون أمهاتهم سواء من ناحية الشكل أو الشخصية غالبا دون وعي منهم، ويكون ذلك مرده إلى أن العلاقة الأولى في حياة أغلب الناس هي مع الأم، لذا يسعى الكثيرون دون وعي إلى العودة إلى هذه العلاقة، لتكرارها في حالة كونها جيدة وأعطته الأمان، أو للرغبة في تصليحها في حالة كونها تعاني من مشاكل. ولا يوجد أحد يعتبر ذلك مرضا أو مشكلة نفسية...

ووجود نزعات انتحارية

ذكرت بعض المصادر «تفكيره» النبي محمد عليه الصلاة والسلام في الانتحار في مرحلة فتور الوحي التي دامت حسب بعض الأقوال ثلاث سنوات..

والفترة كانت صعبة بالتأكيد، لقد صار للرسول مؤمنين وأتباع، وفجأة انقطع الوحي، وطال الانقطاع..وبالتأكيد لم يكن هناك أي وسيلة لمعرفة إن كان الوحي سيرجع أو أن الانقطاع كان نهائيا.

أي شخص طبيعي في هذه الحالة لا بد أن يمر بعذاب نفسي شديد وقد يفكر في إنهاء هذا العذاب بالانتحار.

أي أن الأمر طبيعي جدا في السياق والظروف التي حصل فيها.

لكن من ناحية أخرى، فورود هذا الأمر فيما نقل عنه عليه الصلاة والسلام يعطي المصداقية لرواة الحديث على نحو يصعب إمكانية التشكيك بهم ...لقد نقلوا تفكيره بالانتحار...هل كانوا سيغفلون شيئا آخر من تلك الأشياء التي تحدث بها المستشرقون ومن صار على نهجهم...مثل أن ورقة علمه...أو أنه كان منتميا لجماعة الأحناف...أو أن اسمه لم يكن محمدا بل كان قثم...أمور غير مهمة وموضوع الانتحار أكثر حساسية بكثير منها...فلماذا يورد الرواة الانتحار ويتجاهلون بقية الأشياء؟

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / الكل أو لا شيء /

ثم رغبات عارمة بالانتقام من مخالفيه

في مسيرته عبر ٢٣ عاماً من الدعوة، كانت حالات القتل الفردية قليلة جدا، أغلب مخالفيه ممن قتل قتلوا في ساحة المعركة، الحالات الأخرى لا تتعدى أصابع اليد الواحدة وكانت مرتبطة بقرار سياسي وقرار دولة في طور النشوء والدفاع عن نفسها. لا يمكن لدولة أن تفعل ذلك دون أن تحكم بالموت على من يحاربها.

في الحقيقة أنه في الأغلب كان يميل إلى السماح، فقد عفا عن عموم أهل مكة، وفيهم كبار من حاربوه وجيشوا لمحاربته الجيوش، بل أنه عفا عن أغلب ممن أمر بقتلهم سابقا.

قائمة «العفو» العام هي الأساس، والمستثنى حالات قليلة جدا ارتبط أصحابها بجرائم «غدر أدت إلى القتل».

للمزيد: مغالطة التعميم المتسرع / حوادث قتل في عهد الرسول

بالرغم من الزعم أن مشكلة محمد مع قريش كانت بحرية الدعوة، فقد استهدف كل من له حرية انتقاده (كالشاعر اليهودي و المرأة التي هجته و غيرهم)

لم تكن مشكلة محمد مع قريش في حرية الدعوة، المشكلة كانت أكبر وأعقد بكثير..اختصارها بحرية الدعوة اختزال لقضايا العالم.

كعب بن الأشرف لم يقتل بسبب شعره..كعب كان نصف عربي نصف يهودي (أبوه من قبيلة طي وأمه من بني النضير) وكان له مكانة بين قوم أمه...لذا فقد كان يمثل حلقة وصل بين مشركي العرب وبين يهود بني النضير وكان في شعره محرضا جدا لقريش على الانتقام لما حدث في معركة بدر..مقتله في النهاية كان مسألة أمن دولة تدافع عن نفسها.

حادثة قتل المرأة عصماء بنت مروان موضوعة رغم اشتهارها. وربما كانت قتلت فعلا على يد أحد الصحابة لكن قصة أنه عليه الصلاة والسلام أمر بذلك مكذوبة.

للمزيد: عمليات قتل في عهد الرسول

اقتصاد مجتمع المدينة كان قائماً على الغزو (الغزوات و السرايا) السلب (الغنائم) والسبي والاسترقاق وجمع الضرائب (الزكاة) بقيادته و توجيهه.

اقتصاد المدينة كان قائما على نفس الاقتصاد السائد في الجزيرة العربية والعالم ككل. الإسلام لم يكوّن نظرية اقتصادية جديدة، لكنه أفرز بالتدريج ما غير علاقات الإنتاج وجعلها أكثر تقبلا للتغير.

على أن التجارة والزراعة والمهن اليدوية كانت أيضا من ضمن اقتصاد مجتمع المدينة وليس فقط ما ذكر.

للمزيد: مغالطة المؤرخ

الرسول صلى الله عليه وسلم أعطى نفسه خصوصيات لم يمنحها لغيره مع أنه بشر والمفروض أنّ ما يجوز له يجوز لغيره.. وأصبحت التفسيرات بناء عليه لبعض الأحاديث أنها خصوصية للرسول..

الخصوصيات التي منحت للرسول عليه الصلاة والسلام لم تتعد عمليا موضوع الزوجات (الزواج أكثر من ٤) كان موجودا أصلا في الجاهلية حيث لم يكن هناك تقييد على عدد الزوجات، كل ما حدث في هذا الأمر أنه عندما نزلت آية التعدد وأمر المسلمون بتطليق كل ما زاد عن أربعة فإنه عليه الصلاة والسلام أبقى على زوجاته ولم يطلقهن..ويبدو من تزامن نزول آية التعدد (سورة النساء) مع آخر زيجاته (من السيدة ميمونة بنت الحارث) في السنة السابعة، أنه لم يتزوج بعد نزول هذه الآية...علما أنه عليه الصلاة والسلام كان يستخدم زواجه كأداة لتوسيع المصاهرات مع العشائر وتوطيد العلاقات.

الأمر الثاني كان عدم زواجهن بعد وفاته عليه الصلاة والسلام. ومن الصعب اعتبار ذلك مأخذا شخصيا يؤدي إلى الإلحاد مثلا...لأن الأمر مأخوذ بسياق تاريخي معقد وكان من المهم أن تبقى زوجاته في مكانتهن دون تأثير من أحد لأنهن في النهاية هن من نقلن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام في بيته.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / مغالطة التعميم المتسرع

الادعاء بأن النبي مريض نفسي اقتنع بفكرة في رأسه متأثرا بكلام ورقة بن نوفل الناقل عن إرث تاريخي لفكرة الإله التي اخترعها الإنسان.

مبدئيا :المرضى النفسيون أعجز من أن يحققوا ما حققه الرسول عليه الصلاة والسلام - كقائد على الأقل، ولا يوجد حالة كهذه في التاريخ، ولا حتى مقاربة.

المرض النفسي يحتاج من الأطباء النفسيين إلى جلسات علاجية مطولة قبل أن يقرر الطبيب أنّ فلانا مصاب بمرض نفسي، الأمر متعذر مع النبي محمد عليه الصلاة والسلام لأسباب واضحة.

مراجعة أقواله وأفعاله (ضمن سياقها التاريخي خصوصا) لن تؤدي إلى هذا الاكتشاف على الإطلاق أيضا، بل ستقول لنا العكس.

موضوع ورقة بن نوفل لو كان فيه شبهة حقيقية لتعمد النبي إخفاءها. لم يحدث. بل رواه بنفسه لزوجته عائشة التي لم تكن موجودة وقت ورقة.وهي من نقلت تفاصيل ما حدث.

وجود ناس يعرفون التوراة في مكة -التي كانت حاضرة تجارية مهمة- أمر ليس غريبا على الإطلاق.

كما عانى من قسوة الطفولة فحاول تعويضها بعائشة

قسوة الطفولة عادة تعوض بالثراء والترف وهذا ما لم يحدث على الإطلاق.

قضية زواج النبي عليه الصلاة والسلام من السيدة عائشة وهي بعمر الـ ٩ أعوام

عدة نقاط مهمة في هذا السياق:

الأولى- الرسول عليه الصلاة والسلام قام بفعل شيء غير مستهجن على الإطلاق في عصره ومجتمعه، ولو كان ذلك الشيء مستهجنا ومرفوضا وقتها لعاب عليه أعداؤه ما فعل، لكن ذلك لم يحدث. كان من عادة العرب في الجاهلية تزويج الفتاة وهي صغيرة ويعتقد أن ذلك كان في البداية بديلا اجتماعيا عن الوأد، وكثيرا ما كانت الفتاة تزوج (عقدا) فقط دون أن يحدث زواج فعلي لحين بلوغها، وهذا ما حدث مع السيدة عائشة حيث أنها لم تتزوج الرسول فعليا إلا عند بلوغها في سن التاسعة.

الثانية- كانت السيدة عائشة أصلا مخطوبة قبل النبي عليه الصلاة والسلام. أي أنها كانت في سن الخطبة ولم يكن الزواج والخطبة في سنها أمرا غريبا.

الثالثة- بالنسبة للمجتمع في الجزيرة العربية كان سن الزواج للبنت يتطابق مع سن بلوغها الفسلجي. حاليا لا يمكن تصور ذلك، لكن، كذلك لا يمكننا تخيل سن الزواج للذكور في الخامسة عشر مثلا وكان ذلك شائعا. المجتمعات تقولب أفرادها على مراحل عمرية معينة مثل الطفولة والمراهقة والنضج. ولكن جسديا وظائف الجسد قد تكون سابقة على هذه المراحل.

الرابعة - أن أقدم قانون يوثق سن الزواج في أوربا كان يحدد سن الفتاة ب ١٢ سنة ويعتبر موافقتها على الزواج مهمة طالما كانت بعد سن السابعة. كذلك الكثير من الشخصيات النسائية الموثق سن زواجها حتى القرن السادس عشر (١٧٠٠ ميلادية) كانت في سن التاسعة عندما تزوجت.وقائمة المتزوجات الصغيرات طويلة جدا في تاريخ الحضارة الغربية، بل إنّ التشريعات السارية في بعض الولايات الأمريكية والتي تحدد السن الأدنى للزواج ب ١٢ سنة لم تتغير إلا في ٢٠١٦

https://www.washingtonpost.com/local/virginia-politics/why-13-year-olds-can-no-longer-marry-in-virginiaa/2016/07/03/03849e46-3ef9-11e6-a66f-6c1883b6b1_story.html?utm_term=.dbb1c2671bbd

الخامسة- قد يقول قائل أن ذلك كله كان مقبولا نعم، لكن يفترض أن النبي المرسل لا يفعل ذلك حتى لو كان مقبولا في عصره. الحقيقة أن الرسول عليه الصلاة والسلام لو كان قد أمر أتباعه بزواج الصغيرات وأشار إلى وجود مكانة خاصة لذلك، عندها يكون الأمر فعلا فيه إشكال...لكنه عليه الصلاة والسلام، لم يفعل أبدا، بل فعل ما كان شائعا في زمنه دون أن يحوله إلى (سنة قولية) يأمر بأدائها من بعده. وهذه عمليا تحسب لصالحه لا ضده، إذ لو أنه كان شخصا عاديا، لما تردد في أن يدعو لذلك ويروج له.

للمزيد: مغالطة المؤرخ / مغالطة سمكة الرنجة الحمراء / زواج السيدة عائشة

زواج النبي من زينب بعد طلاقها من زيد، هناك آية تزوج زينب من النبي، لماذا يتدخل الإله في شأن شخصي كهذا، يبدو هذا أقرب إلى سلوك البشر منه إلى السلوك الإلهي

مرة أخرى، من أين هذا الكاتالوغ عن كيف يجب أن يتصرف الإله أو لا يتصرف؟ من يقرر أن مسألة الزواج مسألة تافهة ولا يجب أن تنزل من أجلها آية؟!

من ناحية أخرى، زواج زينب من زيد ومن ثم طلاقها منه وزواجها من النبي عليه الصلاة والسلام كان ضرورة لضرب مجموعة مفاهيم .

كانت زينب تنتمي لعلية القوم من قريش، فجدها لأمها هو عبد المطلب جد النبي، وأبوها من بني أسد كان حليفا لحرب بني أمية، أي كان حليفا لأغنى بطون قريش بني عبد شمس...

زيد بن حارثة كان ابنا بالتبني للرسول، وقبلها كان مولى له، أي عبد اعتقه، وهو أصلا من قبيلة كلب من قضاعة، وكانت تعد من القبائل الأقل شأنا مقارنة بقريش.

إذن كان زواج زيد من زينب ضربة لمفاهيم عنصرية قبلية مكرسة بعمق في المجتمع القرشي.

لاحقا بعد طلاق زينب من زيد، كان زواجها من النبي بشكل ضربة أخرى لمفاهيم أخرى، أولا كان سيقضي «عمليا» على معاملة العرب للتبني على أنه حقيقة واقعية تحتم على الرجال عدم الزواج من طليقة أحد «أدعيائهم» (وكان العرب يتبنون الذكور فقط لزيادة عدد الذكور في القبيلة لأن ذلك كان يضيف إلى قوتها).

وثانيا - زينب هي الوحيدة المطلقة من زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام، تزوجها وكان طليقها على قيد الحياة، وهذا بالتأكيد كان يمثل مكانة اعتبارية للمرأة المطلقة في تلك الفترة، أن زواجها الثاني يمكن أن يكون من رجل أفضل بكل المقاييس من الزوج الأول، ولا تعامل بشكل أدنى من التي لم يسبق لها الزواج.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / مغالطة المؤرخ / الكاتالوغ المثالي

زواج النبي من صفية بنت حيي بنت أخطب بعد غزوة خيبر

في السياق التاريخي الذي حدثت به الأمور كانت صفية تعد محظوظة، فقد تحولت من تعرضها لأن تكون سبية عند واحد من عامة المسلمين، وابنة واحد من أشد الناس عداوة للنبي عليه الصلاة والسلام إلى أن تكون زوجة للنبي و«أما للمؤمنين» وسيدة من سيدات القوم، حيث أنه عليه الصلاة والسلام أعتقها أولا، ثم خطبها وتزوجها، أي أنها فعليا لم تكن سبية عنده، علما أنه لم يتزوجها فعليا إلا بعد أن انتهت عدتها..أي أن التلميحات التي تروي أنه «دخل بها» ليلة مقتل زوجها مجرد تجاوزات تعمدت إغفال قراءة الواقعة.

فلننتبه هنا إلى أنّ المدينة بوجود عدد كبير من سبايا اليهود وأطفالهم صارت تحتاج إلى إرسال «رسالة احتواء وضم لهم»، لذلك كان تحول إمراة من أصل يهودي، بل بنت سيد يهودي إلى أمٍّ للمؤمنين يساعد في انصهار اليهود في المجتمع الجديد وطي صفحة الماضي..

للمزيد: مغالطة المؤرخ / مغالطة رجل القش

لماذا لم يعف عن أطفال ونساء بني قريظة مع أنه استوصى بالنساء والأطفال خيرا؟

أولا- ما فعله بنو قريظة هو أنهم نقضوا عهدا منحوه ثلاث مرات للرسول عليه الصلاة والسلام، وكان نقضهم لهذا العهد لا يلحق الأذى بالرسول والمسلمين فحسب، بل كانوا قد طلبوا من المشركين (القضاء التام على الرسول عليه الصلاة والسلام) مقابل نقضهم لعهدهم معه...وكانت المدينة محاصرة، وهناك منفذ واحد يتيح للمشركين الدخول لها وهو المنفذ الذي يسيطر عليه بنو قريظة، أي أن خطر نقضهم للعهد كان جسيما للغاية..

مسؤولية النساء والأطفال يجب أن يتحملها رجال بنو قريظة الذين أخذوا قرار نقض العهد (الذين رفضوا الأمر عُفيَ عنهم) .

ثانيا - لماذا خاطر بنو قريظة هذه المخاطرة؟ لأن بنو النضير وبنو قينقاع سبق لهم أن خانوا العهد، فاكتفى عليه الصلاة والسلام بإجلائهم فحسب، ولو أنه أجلى بنو قريظة لالتحقوا بالآخرين في خيبر ليشكلوا بؤرة معادية سبق وأن أثبتت عدم التزامها بعهد.

ثالثا- اختار بنو قريظة تحكيم (سعد بن معاذ) - وكان سيد الأوس-وذلك لأنه كان حليفا لهم قبل الإسلام ضد الخزرج، أي أن اختيارهم هذا كان استثمارا في عداوات وثارات الجاهلية للوقيعة مجددا بين الأوس والخزرج.

رابعا - الحكم الذي قرره سعد بن معاذ كان الحكم كما جاء في التوراة..لو كانوا يعتبرون هذا الحكم ظالما فلعله كان من الأفضل أن يتركوا هذا الكتاب لكتاب آخر...أو على الأقل أن يكتفوا بعدم محاربته..

للمزيد: مغالطة المؤرخ / واقعة بنو قريظة الصورة الكبيرة / مغالطة الاعتماد على العاطفة

تاريخ الأديان

بعض الشعوب تدين بأديان لا تعترف بوجود إله، فكرة الإله ليست حتمية كما تقولون

نعم ليس كل الأديان لها فكرة إله واضحة أو أحيانا لا توجد فكرة إله على الإطلاق، مثل البوذية والشنتو (وهما الديانتان الأكثر تأثيرا في اليابان كما تؤثر البوذية على حوالي نصف مليار من البشر في عموم العالم)، هنا لا يوجد خالق، لا يوجد اهتمام أصلا بفكرة الخلق لذلك فلا يوجد الحاجة إلى الجواب عن سؤال من خلق الكون أو كيف جاءت الحياة إلى هذا الكوكب...

ترى البوذية أن العالم كان موجودا منذ الأزل وأنه ليس هناك نقطة بداية لهذا الكون. لذا ففكرة وجود خالق تُنْتَزَع (ذلك أنها تنشأ طبيعيا عند الإنسان) وتحل محلها مفاهيم بوذية عن حياة الإنسان الروحية.

لذا من الصعب جدا على من نشأ في هذه المفاهيم أن يستعيد فكرة الخالق.

لكن فلننتبه هنا أن هذه الأديان لم تستطع أن تلغي فكرة الغيب من الإنسان، فهناك إيمان في الأرواح في هذه الأديان... البعد الروحي في الإنسان لا يمكن إلغاؤه.

للمزيد: ليطمئن قلبي / ما فائدة الدين

أحد أقوى المؤشرات على زيف ربوبية الأديان هو فشلها في إقناع البشر، وانتشارها الرئيسي بواسطة التوالد والتوارث بدلاً من قوة مضمونها. عدم اقتناع الشريحة الكاسحة من البشر في أي دين مفرد، ولجوئها إلى أساليب القمع والتهديد والإرهاب والإغراء الرخيص لإرغامهم على اتباعها وذلك عبر آلاف السنين مما يدل على فشلها في الاكتساح الشمولي الذي كانت تستهدفه وبالتالي يدل على نقص وعجز فيها

في الكلام استنتاجات مبنية على افتراضات واهية...

عدم انتشار دين واحد بشكل حاسم يعني عدم صحة الدين؟

لكن هذا يعني أن الإلحاد من باب أولى غير صحيح أيضا (وهو قديم أيضا بالمناسبة وليس ظاهرة حديثة كما يسود).

معظم الناس تأخذ دينها وراثة ومن محيطها ؟

وكذلك تُؤخَذُ القيم الأخلاقية بنفس الطريقة. فهل هذا يعني أن القيم خاطئة أيضا؟

كذلك نتعلم الكلام والمشي والكثير من العادت اليومية بطريقة التلقين في مرحلة قبل الوعي.

لا يمكن الاستمرار في إعادة اختراع العجلة إلى ما لا نهاية.

وهذا ما تريده المغالطة أعلاه.

بالإضافة إلى ذلك: نجاح الكل في الامتحان أمر لم يعتقده أي أحد...لذا ما يسميه المعترض «فشلا» هو مجرد أمر واقع، طبيعة الأشياء...ليس من الممكن نجاح كل الممتحنين.

للمزيد: لماذا خلقنا ؟ / فائدة الدين

الأديان التوحيدية تتشابه مع بعضها ومختلفة عن الأديان الأخرى، في الغالب هذا يعود لتأثير المجتمعات على هذه الأديان وليس لأنها من مصدر إلهي

الأديان التوحيدية الكبرى الثلاث مرتبطة ببعضها بوضوح دون إنكار، هي في الحقيقة ديانة واحدة (ملة إبراهيم) ولكن بنسخ متعددة، وطرأت على بعض النسخ تغييرات جعلتها أكثر اختلافا مما يجب لنسخ متعددة من دين واحد؟

هل تأثرت الأديان بالحضارات من حولها أم العكس؟ الأديان هي التي أثرت في الحضارة والمجتمع، هذا سؤال يشبه سؤال البيضة والدجاجة، والتأثير متبادل بلا شك.

...أما لماذا اختلفت هذه الأديان التوحيدية عن بقية الأديان، فهل نعرف حقا كيف كان الشكل الأصلي لهذه الأديان وحجم ما تراكم عليها لاحقا..

عموما هناك مشتركات عالمية في كل الثقافات، من ضمنها قصة الطوفان فهي موجودة (أو ما يشبهها) عند الهندوس، البوذية، في التراث الصيني، في الحضارات الأكدية والسومرية والفرعونية، في نيجيريا، في حضارة الأزتيك سكان أمريكا الأصليين، بل وحتى عند الأقوام الأصلية في أستراليا..

https://www.mythoreligio.com/15-flood-myths-similar-to-the-story-of-noah-2/

كذلك فكرة وجود الجنة والنعيم والنار موجودة في أديان غير إبراهيمية مثل البوذية والزرداشتية ويوجد أثر لها في الهندوسية .

https://www.rebelcircus.com/blog/heaven-hell-according-6-different-religions/

النص القرآني لم يقل أبداً أن ما ذكره من قصص أنبياء، كانت عن كل الأنبياء وأنه لم يُبْعَث سواهم، على العكس كانت هناك إشارة إلى وجود أنبياء لم تحك قصصهم.

للمزيد: تاريخ الأديان / ليطمئن قلبي

الإيمان الجغرافي ؛ أنت مسلم إذا ولدت في السعودية، وبوذي إذا ولدت في الهند، ومسيحي إذا ولدت في اوروبا

تنوع (مظاهر الإيمان) لا تصب بالضرورة ضد الإيمان ولصالح الإلحاد كما يروج البعض...على العكس، وجود الأديان في كل الحضارات والمجتمعات يدل على أن فكرة الإله عميقة داخل كل التجارب الإنسانية..لكن التعبير عنها اختلف وتطور وتدرج حسب درجة تطور المجتمع في الفترة التي تم التعبير عنها.

واضح أن إلهكم مر بمراحل نضوج وتتطور في أفكاره، لكي يرسل ديانة تنتقد أخرى ورسول ينتقد رسولا وأفكارا!

فضلا عن تركه أمور مبهمة، والتي يقولون أنه تركها لاجتهاد الصحابة والشيوخ..

أي شخص لديه تجربة يعرف أن التعلم من الخطأ والانتباه للأخطاء في التجارب البشرية يُعَلِّم على نحو لا يقل أهمية عن تعليم الصواب...كما أن أي صاحب عقل يفهم الفرق بين ما هو ثابت ويجب أن يكون مفصلا وما هو متغير ويكون عرضة لفهم متجدد بتغير الزمان والمكان.

بالتأكيد هناك مؤمنون يتبنون نفس الرؤية الجامدة التي لا تضع كل شيء في سلة واحدة، وهؤلاء هم جزء من المشكلة التي تؤدي إلى الإلحاد.

قلت لصديقي الملحد أن هدف العبادة في الإسلام هو إصلاح دنيانا...قال لي ساخرا انظر إلى التاريخ الإسلامي والوضع الحالي للمسلمين لتحكم على نتائج ذلك.

من المؤكد أن مفهوم العبادة السائد لا يفكر بصلاح الدنيا كثيرا ...لذا فاستخدام المفهوم الذي نؤمن بمثاليته ونقر بعدم انتشاره قد لا يكون أمرا مناسبا.

حال المسلمين اليوم بالتأكيد لا يعكس الكثير من الإيجابيات.

لكن التاريخ الإسلامي مقارنة بتاريخ الإنسانية عموما ليس سيئا جدا. مشاكله وصراعاته كانت «داخلية». أما مع «الآخر» فقد كانت المعاملة تعد مميزة مقارنة بتجارب الأمم الأخرى.

للمزيد: تاريخ الأديان / الشعائر

«حين يدافع الإنسان عن عقيدة من عقائده المذهبية يظن أنه إنما يريد بذلك وجه الله أو حب الحق والحقيقة، وما درى بهذا أنه يخدع نفسه، أنه في الواقع قد أخذ عقيدته من بيئته التي نشأ فيها، وهو لو كان قد نشأ في بيئة أخرى لوجدناه يؤمن بغير عقائد تلك البيئة من غير تردد ثم يظن أنه يسعى وراء الحق والحقيقة» - علي الوردي

هذا أمر معروف تماما. لا أحب تكرار أن هذا نعرفه عن طريق السنة النبوية ولكنه كذلك فعلا عبر حديث البخاري المعروف (ما مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)وفي الغالب كان الأمر معروفا قبل النبي عليه الصلاة والسلام عبر الانتباه إلى التجارب الإنسانية. الأمر أقرب للبديهة. والتعامل معها كما لو كانت مفاجأة وصدمة تؤدي إلى الإلحاد أمر مبالغ به جدا.

بالتأكيد الناس تحمل نفس أفكار ومعتقدات البيئة التي ينشؤون فيها..هذا أمر بديهي ومشاهد ومعروف.

أكثر من هذا: مسألة النية في أي شيء يفعله الناس أمر نسبي جدا و يختلف من شخص لآخر، والأمر أيضا موجود في الحديث الشريف وفيما يتعلق بأمر لا يقل أهمية عن (الدفاع عن العقيدة) وهو (الهجرة) نفسها وذلك في حديث البخاري (الأَعْمَالُ بالنِّيَّةِ، ولِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)

هل الجميع أولاد بيئتهم ١٠٠٪؟

بالطبع لا...هناك كثيرون يتمردون على واقع بيئتهم الفكري والثقافي ويؤسسون وعيهم الخاص بهم...

نسبتهم؟ قليلة طبعا. هذه طبيعة الأشياء. لكن هؤلاء يؤثرون في سواهم بنسبة أكبر. هكذا تسير الأمور.

هل يخدع هؤلاء أنفسهم عندما يدافعون عما يؤمنون به؟

بالتأكيد لا، إيمانهم بالله أو بدينهم هو جزء من رؤيتهم للعالم ومن هويتهم...هم مؤمنون حقا بهذا، لا انفصال حقيقاً بينهم وبين ما يؤمنون به.

في النهاية، الملحد أيضا يتوهم أنه يدافع عن الحقيقة والعلم ضد الخرافات والجهل...

وهو في الحقيقة يدافع عن شيء رآه من ثقب الباب.

الإسلام أخذ الكثير من التعليمات من الزرادشتية...مثل الصلوات الخمس وقصة الإسراء والمعراج، ألا يعني هذا أن نبيكم قد سرق أفكار زرادشت؟

الزرادشتية (أو المجوسية) ديانة توحيدية قديمة، عكس ما هو شائع من كونها ديانة وثنية تتعبد للنار. الزرادشتية تؤمن بإله خالق واحد هو) آهورا مازدا الإله الحكيم) وتؤمن بالثنوية (صراع الخير مع الشر الممثل بآهيرمان وهو نسخة زرادشتية من الشيطان) و الحساب بعد الموت والجنة والنار. تعبدهم للنار ليس أمرا دقيقا فهم يقدسونها باعتبارها وسيلة تطهير، لكن أي تقديس بدون ضوابط يمكن أن يؤدي إلى العبادة.

وللزرادشتية كتاب هو «آفستا».

ورغم كل ما رسخ في أذهاننا من وثنية المجوس، فالمسلمون لم يعاملوا المجوس (سكان فارس وأجزاء من العراق) على هذا الأساس على الإطلاق، بل عوملوا كأهل كتاب، شأنهم شأن اليهود والنصارى، وحوفظ على معابدهم وشعائرهم لقرون.

لكن بالتدريج أخذ الإسلام يحل محل الزرادشتية، في البداية عبر كبار ملاك الأراضي والأغنياء، ذلك أنه لم يكن يحق لغير المسلم أن يمتلك عبيدا مسلمين، لذلك كان العبيد يسلمون لكي يصبحوا أحرارا فورا، فأسلم الأغنياء لكي يحتفظوا بعبيدهم، وكان هذا يمثل تأثيرا كبيرا على بقية الطبقات طبعا.

ولأن الزرادشتية كانت «ديانة قومية» خاصة بالفرس، فقد تقبل الزرادشتيون الإسلام ولكن بإضافة نكهة فارسية، مثل أن سيدنا الحسين بن علي قد تزوج من ابنة آخر الأكاسرة (وهي شخصية وهمية تماما حسب الروايات التاريخية) لكن احتاج الفرس إلى علاقة نسب ومصاهرة مع الدين الجديد لتقبله.

هل كان زرادشت نبيا؟ من الممكن جدا. وقد ذكر في القرآن أن هناك أنبياء لم تقص قصصهم. هل كان قبل أم بعد سيدنا إبراهيم؟ تاريخيا زرادشت تأخر عن سيدنا إبراهيم بقرابة ألف سنة، لكن هناك قرابة خمسة قرون أخرى تفصل بين الوجود التاريخي لزرادشت وبين تحول الزرادشتية لتصبح الديانة الرسمية الأكثر انتشارا في فارس (قرابة القرن السادس قبل الميلاد).

هل هناك تشابه بين الزرادشتية والإسلام فقط أم مع بقية الأديان الإبراهيمية؟ التشابه موجود مع كل الأديان الإبراهيمية، أولئك الذين يعتبرون أن الأديان منتج بشري يرون أن الزرداشتية أثرت في اليهودية أولا (في فترة ما بعد السبي البابلي لليهود التي انتهت بهزيمة بابل على يد قورش الأكبر الذي أعاد اليهود إلى فلسطين) وكان قورش يدين بالزرادشتية، ويرى هؤلاء أن تأثير الزرادشتية على اليهودية هنا كان أمرا طبيعيا، ومن ثم انتقل إلى المسيحية وبعدها الإسلام (باعتبار أنهم يرون أن هذه الأديان قد أخذت من بعضها بعضا.

لكن بالنسبة لمن يؤمن بوجود مصدر إلهي واحد لهذه الأديان فهو سيرى التشابه دليلا أكبر على صحة انتساب هذه الأديان إلى مصدرها، وليس من صدمة أو دراما في ذلك. عدم ذكر زرادشت بالاسم في القرآن (رغم أن القرآن نفى بوضوح أنه أخبر بكل قصص الأنبياء) ليس مشكلة كبيرة، تصوراتنا المسبقة عن الزرادشتية بكونها وثنية، يجب أن تكون أقل تأثيرا بعد معرفتنا بحقيقة عقيدتها خاصة مع حقيقة تعامل المسلمين معهم على أنهم أهل كتاب وحفاظهم على معابدهم التي تشعل فيها النار.

ماذا عن الصلوات الخمس التي يتعامل معها البعض بانفعال كما لو كانت الضربة القاضية للإسلام؟

نعم، في كتاب الياسنا وهو أحد الكتب التي يتألف منها «الآفيستا» هناك ذكر لخمس صلوات يومية، كلها بمواجهة الشمس أو بوجود النار (التي تمثل نور الله أو حكمته بالنسبة لهم)، وهي ليست «مفروضة» ويمكن لأي كان أن يصلي بالطريقة التي يرغب بها دون وجود شكل محدد لهذه الصلاة.

مبدئيا لا مشكلة، ونعرف جميعا أن «فرض الصلوات الخمس» في الإسلام جاء بعد الإسراء والمعراج، بعد ١٠ سنوات تقريبا من الوحي. لو أن الأمر مجرد استنساخ بشري من دين آخر، مالذي جعله يتأخر ١٠ سنوات؟!

لكن علينا أن ننتبه أيضا إلى أن هذا الاتهام «بالاستنساخ من الزرادشتية» ليس قديما. بل هو اتهام حديث، وهذا غريب قليلا، تعرض الإسلام إلى شتى الاتهامات أول ظهوره، من جنون نبيه إلى كونه يأخذ ما يقول من «نجار رومي»..لكن لم يقل أحد عن الصلوات الخمس: ها هو يأخذ من المجوسية، علما أن المجوسية كانت موجودة في بعض أطراف الجزيرة العربية والعراق وكان العرب يعرفون حتما (عبر تجارتهم) عن هذه الصلوات الخمس الموجودة عند المجوس في حالة وجودها – ولكن لا توجد أيّ إشارة إلى هذا تاريخيا، علما أن القرآن نقل أقسى الاتهامات، وكذلك فعلت المصادر التاريخية التي نقلت أقسى الاتهامات وأخطرها دون أي حذف أو إخفاء، فلماذا يتم التعمية على هذا الأمر – إذا كان موجودا أصلا؟!

هذا يجعلنا نحاول التدقيق في المصداقية التاريخية لهذا الإدعاء، بالذات في موثوقية الكتب التي حملت هذا الادعاء.

الحقيقة هي أن كتاب الأفستا الأصلي الكامل يعد مفقودا، وأقدم نسخة مختصرة تضم أجزاء منه تعود إلى القرن التاسع الميلادي، أي بعد قرابة قرنين من دخول الإسلام إلى فارس وسقوط الإمبراطورية الساسانية، وهذا يجعل من الصعب جدا التسليم بوجود صلوات خمس في الزرادشتية قبل انتشار الإسلام.

https://en.wikipedia.org/wiki/Avesta

قصة المعراج إلى السماء في الزرادشتية لأحد الكهنة (آردا فيراف) تعود لكتاب يسمى (كتاب آردا فيراف) والباحثون المعاصرون يعتبرون أنه كتب في القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي، أي بعد قرابة ثلاثة أو أربعة قرون من انتشار الإسلام.

http://www.iranicaonline.org/articles/arda-wiraz-wiraz

علما أنه من المعروف أن القرن العاشر الميلادي شهد محاولة أحد النبلاء الزرادشتيين في شمال شرق فارس إعادة تأهيل الزرادشتية عبر استكتاب أربعة كهنة زرادشتيين لنسخ وترجمة كتاب يسمى (خوادي ناماق كتاب الملك) إلى اللغة الفارسية المحكية آنذاك، وهذا الكتاب شكّل الأساس لاحقا للشاهنامة التي كتبها الشاعر الفارسي فردوسي، والتي أرخت بشكل إسطوري ملحمي للإمبراطورية الساسانية، ومن غير المستبعد أيضا تسرب جزء كبير من الثقافة الإسلامية إلى نسخة خوادي ناماق.

https://en.wikipedia.org/wiki/Zoroastrianism#Conversion

لا أروج هنا لمؤامرة مفادها أن المجوس فعلوا ذلك عمدا لكي يوحوا لمن يأتي بعد قرون أن الإسلام أخذ منهم الصلوات الخمس...لكن التأثيرات تحدث بشكل طبيعي..

الزرادشتية أقدم من الإسلام فعلا، ومن المسيحية أيضا. لكن نصوصها ظلت تتطور وتتغير إلى ما بعد ظهور هذين الدينين..

لماذا لم ينزل الله ديانة واحدة ويطلب منا اتباعها؟

في تجربة معروفة، يمكن لنا جميعا تكرارها، يمكن أن نقول لمجموعة من الجالسين في قاعة، أن الشخص الأول في الصف الأول سيهمس بجملة في أذن زميله الجالس إلى جانبه، وهذا يهمس بنفس الجملة إلى من يجلس بجانبه، وصولا إلى آخر شخص في الصف الأخير.

سنطلب منه أن يقول الجملة كما وصلته، ونقارنها بجملة البداية، ومن النادر جدا أن يكون هناك تطابق بين الجملتين.

هذا ما حدث مع الأديان أيضا، وهو أمر طبيعي وبشري جدا. الدين الأساس واحد بالتأكيد، لكن المجتمعات البشرية غيرت في فهمها له، أحيانا بتعمد وأحيانا دون تعمد.

يمكن بسهولة أن نجد قواسم مشتركة بين هذه الأديان. التشابه كبير طبعا في الأديان الإبراهيمية، وأقل في الأديان الأخرى، لكنه موجود أيضا.

الدين يَعِد الطبقة الفقيرة بالجنة والحياة بعد الموت ليرضوا بفقرهم وحياتهم البائسة، تاركين الأغنياء يتمتعون بنعيمهم، بحجة أنه من حقهم وأن الله خلق الناس درجات ؟ ألا يمكن أنه أتى من الأرض ولم يأت من السماء لكي يحقق سيطرة طبقة على طبقة أخرى ؟

في الإسلام يقول القرآن: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ البقرة(٢٦٨)

كما أن الآيات التي تأمر بالإنفاق في سبيل الله أكثر من أن تحصى هنا، وهي موجهة بالتأكيد لأناس ليسوا فقراء.

إذا فهم من آية (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا الإسراء(٢١) بأنه تفضيل طبقي مادي، فإن نفس التعبير استخدم مع الرسل على نحو لا يمكن فهمه بطريقة مادية مباشرة

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ البقرة(٢٥٣)

التفضيل والرفع هنا هو بمواهب أو قدرات متفاوتة يمكن العمل عليها لتحسين ظروف الحياة وليس قدرا لا يمكن تغييره.

كما أن تعوذ الرسول عليه الصلاة والسلام من الفقر في واحد من أشهر الأدعية المأثورة عنه تجعل الفقر حالة ذميمة يفر الإنسان منها و لا يتعود عليها لأنها ستدخله الجنة.

الحجة هنا ماركسية،مأخوذة بالمسطرة عن التجربة الغربية، حيث هناك نصوص إنجيلية كثيرة تعتبر الثراء خطيئة وتقول أن دخول الأثرياء إلى الجنة صعب جدا، وهي نصوص تعاملت معها البروتستانتية لاحقا بفهم مختلف وشكلت رؤيتها على نحو مختلف جذريا، لكنها في النهاية نصوص صريحة تذم الثراء بالمطلق و استُخدِمت كَنَسيّا لعصور طويلة على نحو يجعل الحجة الماركسية مفهومة في سياقها.

قرآنيا، لا وجود لنصوص كهذه، فالشيطان هو الذي يعد بالفقر في القرآن، وآيات الإنفاق أكثر من أن تستحضر هنا، وكلها موجهة (بالتعريف) لأشخاص مؤمنين يمكنهم الإنفاق، أي أنهم ليسوا فقراء...

كما أن من أشهر أدعية الرسول عليه الصلاة والسلام هو دعاء يتعوذ به من الفقر...

لا يمكن إنكار أن ثمة أحاديث ضعيفة وأخرى موضوعة جسدت رؤية يمكن تفسيرها على نفس المنحى الإنجيلي، وأنتجت فصولا وكتبا تتحدث عن تمجيد الفقر...لكن مفارقة هذا المفهوم للنصوص القرآنية والتجربة النبوية شديدة الوضوح وأي باحث نصف جاد يمكنه الانتباه للأمر...لا يمكنك أن تلحد بالتأكيد بسبب هذا..لكن استيراد حجج الإلحاد سهل...مثل استيراد الآيفون والأحذية ومعاجين الأسنان..

بل إنه أسهل.....فهو بالمجان..

تطور الانسانية عبر العصور احتاج الى رعاية ودراسة كالطفل حتى يكبر .. فالأديان والشرائع الإلهية هي فترة مرحلية لتطور الإنسانية .. أما الآن في العصر الحديث فقد وصلت الإنسانية لمرحلة نضج وتكامل يكفيها لكي تعيل نفسها بنفسها ... فهي بذلك لا تحتاج لدين/عبادة/شريعة إلهية.

هل هذا النضج والتكامل يقود أيضا إلى إلغاء القانون أم الأمر فقط مقتصر على الشريعة والأديان؟!

بعض القصص التي ذكرها الأنبياء كمعجزات لهم حدثت بنفس الطريقة عند حضارات سابقة، إنها قصص متكررة بنفس الهدف (مثل مشي سيدنا عيسى على الماء، أحد آلهة المصرين القدماء قبل ٣٠٠٠ سنة من الميلاد كان أيضا يمشي على الماء) بمعنى أن الدين خرافة وأساطير تتكرر من أشخاص مختلفين على مر العصور (مثل الحضارة السومرية)

عندما نرى أي تشابه بين روايتين يكون هناك عدة احتمالات.

الأول – أن تكون واحدة منهما مأخوذة من الأخرى (أي أن واحدة منهما لم تحدث، ولكن نقلت ما حدث في الأولى على أنه حدث في مكان آخر)

الثاني- أن يكون الأمر مجرد تشابه بين أكثر من حادثة حصلت في أكثر من مكان.

الثالث- أن تكون الروايتين لم تحدثا أصلا.

القفز الفوري إلى واحد من الاحتمالات الثلاثة يدل على مشكلة انحياز واضحة.

ملحوظة: إله مصري يمشي على المياه قبل ٣٠٠٠ سنة من الميلاد؟

يجب أن نطبق عليها الاحتمالات أيضا.

أولا- لم تحدث، لكن رغبة المشي على الماء موجودة عند البشر بسبب تحدي الأمر لهم.

ثانيا – الإله كان في الأصل نبيا ثم تم تقديسه وتحويله إلى وثن كما حدث مع رجال صالحين كثر كما في قصة قوم نوح (ود سواع ويغوث ويعوق ونسر)، فلنتذكر هنا أن ليس كل الأنبياء قد ورد ذكرهم في القرآن بنص القرآن نفسه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ غافر (٧٨)

ثالثا – ما نقل عن الإله المصري (مثلا) ليس صحيحا، والأمر يهدف إلى التشكيك فحسب.

إذا كان المقصد بالتشبيه هو الإله حورس، الذي تنتشر له عدة تشابهات مع السيد المسيح، فأغلب هذه التشابهات غير صحيحة، ولم يحدث أنه ولد من عذراء أو عمد في النهر أو مشى على الماء كما يتداولون.

انتشر الأمر دون توثيق علمي خاصة لصعوبة التحقق منه بالهيروغليفية، واستغل من قبل المشككين بالدين عموما. لكنه ببساطة ليس صحيحا.

http://www.strangenotions.com/horus-manure/

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / التعميم المتسرع

كل الأديان تروج لفكرة «المخلص»...تنتظرون من يأتي لينقذكم من واقعكم البائس بدلا من تغييره..أليست فكرة «المهدي المنتظر» تخديرا عن العمل ومواجهة الظلم في انتظار من سيأتي ليملأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت جورا؟

بالنسبة للإسلام بشقه السني: كل ما يتعلق بالمهدي المنتظر لا يحتل أكثر مما نسبته ٦ بالألف من الأحاديث النبوية عند السنة ونسبة الموضوع صفر تماما في القرآن.

لو أن البعض قام بتضخيم هذه الأمور والمبالغة فيها فهذا لن يغير من حقيقة قلة نسبتها وهامشيتها مقارنة بآيات وأحاديث الحث على العمل.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير/ الدين أفيون الشعوب

الدين مرتبط بالرقعة الجغرافية وليس شيئا فطريًا يصل إليه البشر كالطعام والشراب والتكاثر، لمَ تحتاج كل الشعوب أن تتعلم هذه الأمور الفطرية من أحد، بعكس الأديان التي تحتاج إلى وصول أنبياء وكتب بلغات معينة لفئات معينة ويحجج يكفر من يتردد في تصديقها.

نفس الحجة تقرأ بطريقة معاكسة..

في كل الحضارات كان ثمة (دين ما) أو معتقد يبني غيبي، يتدرج أحيانا من مجرد معتقد بسيط بقوة خارجية، إلى نظام معقد يبرز فيه الإله الواحد الخالق..

إذن الدين – أو المعتقد الغيبي إن شئت- كان ملازما للحضارة والمجتمع الإنساني...

لماذا انتقلت الأديان السماوية إذن من مكان إلى آخر؟

حصل ذلك كما حصل مع كل شيء...لقد تلاقحت الخبرات والمعارف البشرية فيما بينها في كل شيء...انتقلت المخترعات البسيطة التي غيرت التاريخ (مثل العجلة) ..كذلك الفلسفة والديمقراطية... والرياضيات...كلها نشأت في مكان محدد وانتقلت إلى كل العالم..

لا معنى في استثناء الدين من هذا؟

هل يعني هذا أن الدين منتج إنساني مثله مثل الفلسفة والرياضيات؟

لا بالتأكيد، لكنه يعني أن البشر يحتاجون بعضهم البعض، ولقد فعلوا ذلك دوما بطرق مختلفة.

أؤكد هنا أنه بينما الدين مصدره إلهي فإن فهم الدين منتج بشري . وأن كل دين لا بد أن يكون قد حمل معه البعض من ملامح البيئة التي نزل فيها، ولكن فيه أيضا من الثوابت التي يمكن أن تكون مناسبة تماما لكل مكان، قد تتعرض هذه الثوابت للاندثار أو التحريف ولكن هذا موضوع آخر.

يعاني المؤمنون بالأديان بظاهره تسمى التناقض المعرفي و هي ظاهره يرفض و يستغرب فيها مؤمن ما إيمان أناس آخرين بأشياء غريبة، ولا يستغرب نفسه من تبنيه لأفكار شبيهه... مثال يستغرب المسلمون من وجود ثور بابلي مجنح و حصان يوناني مجنح ولايستغربون من فكرة البراق ليلة الإسراءوالمعراج...

أولا –كمسلمين، لا نستغرب عادة من وجود (غرائبيات) في أديان أخرى بقدر ما نستغرب من حجمها ونسبتها..الإيمان بالغيب والمعجزات حتمي في أي دين، لكن حجم هذه الغرائبيات ونسبتها في صلب عقيدة المسلم أقل من بقية الأديان، في المثال المطروح مثلا، البراق ورد ذكره في حديث نبوي صحيح ولكنه لم يذكر سوى في هذه الحادثة ولم يذكر في القرآن على الإطلاق. الاستغراب عند المسلمين يكون من تحول نموذج مقارب إلى معبود، أو إلى رمز أو إلى شخصية دائمة الحضور في عقيدة الأديان الأخرى.

ثانيا – البراق قد يكون كناية عن أي وسيلة أو قانون طبيعي سخره الله للرسول في الإسراء والمعراج حتى وإن أخذ شكل الدابة.

لماذا يبعث الله رسالاته عبر بشر ؟!

التحام الرسالة الإلهية بالتجربة الإنسانية عبر كون الواسطة بشرية أمر مهم في وصول الرسالة...كون (الرسول) بشراً أو إنساناً، أمر له دلالات مباشرة لا يمكن أن يحققها مخلوق فضائي مثلا.

و لماذا من خلال كلمات ؟!!

اللغة هي واحدة من أهم ما يميز البشر عن كل المخلوقات. المقدرة اللغوية للبشر تعبر في جانب من جوانبها عن مستوى تعقيد الدماغ البشري وقدرته. الأبجدية هي واحدة من أهم – إن لم تكن أهم مخترع بشري– وبالتالي فإنّ استخدامها في (الرسالة) الإلهية أمر حتمي.

للمزيد: إله الرسالات السماوية

طالما هو قادر على كل شيء، فليبعث هذه الرسائل من خلال موجات (كهرومغناطيسية مثلاً (إلى عقولنا التي تحولها بالتالي إلى رسائل مفهومة، فنفهم مايريد دون وساطة بشرية!

الرسالة الإلهية عبر موجات كهرومغناطيسية تعني أنها ستكون خاصة لكل إنسان على حدة، رسالة شخصية بطريقة ما، وهذا يخالف واحدة من أهم أهداف الرسالة الإلهية التي تمزج بين الفرد والجماعة. فضلا عن أن الرسالة الإلهية إذا كانت مفهومة ومقبولة نتيجة عمل دماغي تلقائي دون جهد شخصي فإن ذلك سيؤثر على فكرة (الامتحان) فكرة بذل جهد شخصي في الإيمان وفي العمل بمقتضاه.

للمزيد: مغالطة المصطلحات الرنانة

كيف لله أن ينزل التوراة و يسمح بتحريفه ثم ينزل الإنجيل ويسمح بتحريفه ثم ينزل القرآن ولم يحرف حتى الآن !

ألم يكن ممكنا أن ينزل التوراة دون أن تحرف ويصبح كتابا للناس جميعا ؟ ألم يكن بالإمكان اختصار مئات السنين من الانتظار بين رسول وآخر ؟

التجربة البشرية مهمة في التعلم .

الجزء البشري من التجربة الدينية قابل للخطأ والصواب حسب الطبيعة البشرية، لذا كان لا بد أن تكون هناك تجارب بشرية متعددة يتوضح خطأها وصوابها و مواضع الخلل والزلل فيها لكي تكون هناك تجربة لاحقة تستفيد مما فات.

مثلا بخصوص التحريف: ليس كل تحريف حدث في التوراة كان متعمدا، بل في كثير من الأحيان كان التحريف ناتجا عن سوء فهم دون قصد مسبق. وهذا أمر ممكن الحدوث في التجربة الأخيرة، دون أن يتغير النص..كذلك التشدد في فهم النصوص ومعاملتها كما لو كانت لوحا حجريا هو أمر ممكن الحدوث مع التجربة الأخيرة.

كيف سيتأثر صيني بقصة ثمود؟ و كيف سيتفاعل آيرلندي مع قصة عاد؟

الحقيقة أننا نتأثر فعلا بحكمة تأتي من الصين ولا نكترث لمكان قول الحكمة أو وجودها في أي قارة.

القرآن الكريم تحديدا قد قدم قصص الأنبياء بأقل قدر من التفاصيل، فجوهر القصة والعبرة منها هو المهم دوما والقرآن يتجاوز ذكر تفاصيل الزمان والمكان في أحيان كثيرة.

بل أن عدم تقديم القرآن قصص الأنبياء بالطريقة السردية العادية، التوراتية، هو جزء من عملية تفكيك القصة من علاقات الزمان والمكان والتركيز على جوهرها.

للمزيد: تاريخ الأديان

إذا أردنا عالما مسالما خاليا من الكراهية يجب أن نحارب الدين لأنه يجذر الاختلافات البشرية لأنه يحمل معه بذور الموت في أي قلب استقر به.

المجتمعات التي نزعت الأديان منها تماما لم تتحول لتصير مسالمة، بل على العكس حدث فيها حملات إبادة وشاركت في حروب عالمية وتورطت في حروب كثيرة (الإتحاد السوفياتي مثلا..)

الحروب كانت جزءا من تاريخ الإنسانية، لكن اعتبار الأديان هي السبب يحتوي على خطأ كبير...ربما كانت ستكون الحروب أكثر دموية من غير الأديان..من يدري..إذ لم نجرب تاريخا بدون أديان لنعرف أين كانت ستمضي الأمور....
بل إنّ الحروب الأكثر دموية في التاريخ (الحربين العالمية الأولى والثانية) لا يمكن اعتبار الدين محركا لها أو شعارا مرفوعا فيها على الإطلاق.

للمزيد: مغالطة المؤرخ /انتشار الإسلام بالسيف

إن أتباع الديانات السماوية كلهم يؤمنون بالله خالق الكون و لكن بينهم اختلافات في العقيدة و العبادات و المحرمات. و في كل دين مذاهب مختلفة. و كل منهم يعتقد أنّ دينه هو الصحيح. لو كان الإله واحداً لكانت الأديان كلها ديناً واحداً اي إيمانٍ هو الصحيح؟ إذا كان المؤمنون بالله يختلفون فيما بينهم فكيف يقنعون الملحدين؟

اختلاف الإيمانات (إن جاز الجمع) يمكن أن يعني ثبوت أمر ما ولكن تعدد الأفهام له.

الشمس موجودة ولكن لها تسمية مختلفة في كل لغة...تعدد الأسماء لا يعني عدم وجودها.

كذلك اختلاف الظواهر والتفسيرات لظاهرة الكسوف مثلا، من ثقافة لأخرى، تعكس تعدد الأفهام لظاهرة عرفها جميع البشر. ولا ينفي هذا حدوث خطأ أو تحريف في الفهم.

لكن عدم وجود فهم واحد لظاهرة ما لا يلغي الظاهرة.

بل يثبت وجودها في كل مكان.

ولو كانت الأمور سهلة وواضحة لما كان هناك امتحان.

الأديان مسألة قديمة جاءت للشعوب الساذجة غير المتحضرة لتروي تعطشها للخرافات و تعلقها بالأساطير ومع تطور العلم، صار من المعيب التلفظ بكلمة دين.

حسب الدراسات الأنثروبولوجية فإنّ (عدم الإيمان) سبق تطور الجنس البشري،وأن الدين ظهر في مرحلة لاحقة من تطور الكائن البشري.

ألا يجعل هذا من الإلحاد نوعا من الارتداد إلى ما قبل النوع الإنساني الهوموسابيانز؟

هذا الرد فقط من قبيل الحجة بالحجة.

في الحقيقة أننا كبشر نتشارك مع الشعوب القديمة غير المتحضرة بأمور كثيرة أساسية...مثل التنفس والجنس والطعام ومشاعر الحب والغيرة..وكذلك الإيمان بالدين..فهل علينا أيضا أن نتنازل عن التنفس والطعام والجنس لأن الشعوب غير المتحضرة كانت تمارسها؟

سرعة انتشار الإسلام في العالم ليست دليلا على صوابه، فهناك صرعات ومذاهب غريبة تلاقي رواجا أيضا، فإذا كان الرواج دليل صواب الإسلام فهو كذلك بالنسبة لرواج هذه المذاهب.

موضوع سرعة انتشار الإسلام لا يجب أن يكون دليلا على صواب الإسلام أو عدم صوابه.من يستخدم هذه الأرقام والإحصائيات ليثبت قوة الإسلام ليس جادا بما فيه الكفاية.

لكن يجب أيضا تأمل الأرقام من زاوية أخرى: هذه الصرعات تنتشر فعلا، يقبل عليها نجوم السينما وتسلط عليها الأضواء، لكنها سرعان ما تخبو...ولا يحقق أي منها انتشارا عالميا مهما من الناحية الإحصائية على المدى البعيد، بل تكون محصورة فحسب في فئات معينة تسلط عليها أضواء الإعلام.

الإسلام ينتشر بثبات وهو ضمن الأديان الرئيسية في العالم، وهو والمسيحية الدينان الوحيدان اللذان تزيد نسبتهما بالتدريج من ضمن هذه الأديان، (البوذية والهندوسية تقلان، اليهودية تحافظ على نسبتها)، بينما لا توجد هذه الصرعات في أي إحصائية علميا، غالبا لأن هذه الإحصائيات تغطي وقتا أطول من بقاء هذه الصرعات.

http://www.pewforum.org/2015/04/02/religious-projections-2010-2050/

للمزيد: مغالطة التعميم المتسرع / أخطاء الإعجاز العلمي

لماذا «تمسك» ربك ببني إسرائيل منذ يعقوب حتى عيسى ثم ببساطة تركهم بل وسينتقم منهم؟! هل كان محتاجاً لهم؟ أليس بعلمه الأزلي يستطيع الحكم عليهم دون الخوض في إرسال الرسل الواحد تلو الآخر وكأنه محتاج لهم!

هذه النظرة تفترض (تمسك) الله ومن ثم (هجرانه) لبني إسرائيل ومن ثم انتقامه منهم.

الأمر من زاوية أكبر ليس هكذا على الإطلاق . بنو إسرائيل كانوا التجربة، النموذج لبقية البشر في التعامل مع الدين ومع النص الديني، نجاحا وفشلا،...ولهذا فهو لم يتمسك ولم يهجرهم...لقد تركهم يتفاعلون مع الدين والنص الديني إلى أن (جمدوا) تماما فكان لا بد أن تنتقل الرسالة...

لماذا الرسل ؟ لأن البشر بحاجة إلى الرسالة والرسل وليس لأنه عز وجل بحاجة لهم.

من زاوية أخرى: السيد المسيح نفسه كان من بني إسرائيل، وحواريوه كذلك، أي أنه عز وجل لم يهجر بني إسرائيل، بل قدم لهم خيارا يكونون فيه أكثر انفتاحا على العالم، أخذ البعض هذا الخيار، فصاروا أتباعا للسيد المسيح، ورفضه آخرون.

إن كان الله عادلاً و رحيما ؛ فلماذا ينفذ عقوبات شمولية؟ لماذا دمر قوم نوح و عادا و ثمود و قوم لوط و أصحاب الأيكة و جنود فرعون و ضرب مصر بالآيات التسع و شرد بني إسرائيل؟ أليس فيهم النساء و الأطفال و الضعفاء المغلوب على أمرهم؟

كانت عقوبات شمولية نعم ولكنها لم تكن بلا إنذار مسبق.

مسؤولية هؤلاء الأطفال يجب أن تكون على ذويهم، وهم قد اختاروا لهم هذا المصير.

هذه العقوبات الشمولية كانت محصورة فقط بتكذيب الرسل، وقد انتهت عمليا بختم الرسالات، ولم تحدث مع الرسالة الأخيرة.

عبارة «القرآن صالح لكل زمان ومكان» لا يوجد عليها أي دليل من القرآن والسنة كما أنها عبارة تكذبها التجربة والواقع.

هذه العبارة عوملت بسطحية شديدة من قبل بعض الدعاة ومن قبل تيار الإسلام السياسي، وكالعادة، فأي تعامل سطحي مع مفهوم ديني وتحويله إلى شعار لجذب «الجمهور» يكون له –ولابد– نتائج عكسية تماما.

مبدئيا: يؤمن كل مؤمن، بأي دين أو عقيدة، أن ما يؤمن به «صالح لكل زمان ومكان».

يؤمن المسيحي أن المسيحية هي الأفضل في كل زمان ومكان، واليهودي، والهندوسي والبوذي كذلك.

بل ربما يؤمن الليبرالي أو اليساري بذلك أيضا، على الأقل بدرجة من الدرجات.

إذن «الصلاحية المطلقة لكل زمان ومكان» أمر لا يختص به المسلمون، بل هو جزء من بديهيات الإيمان..إذا كان المسيحي – مثلا – لا يؤمن بأن المسيحية لا تصلح لكل زمان ومكان، فكيف يستطيع أن يستمر بإيمانه؟

مالذي يحول هذا الأمر البديهي إلى مشكلة؟

التعامل معه كوسيلة لمنع التجديد. لمنع النظر والتأمل والاستنباط في أحكام الإسلام ومقاصده.

وهذا ما يحدث للأسف عبر استعمال هذه المقولة بالطريقة السائدة، رغم أن «ضرورة التجديد» ينص عليها حديث صحيح صريح: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها.

للمزيد: الجذر اللغوي وموشور المعاني

تقولون «الإسلام هو الحل» وعندما جاء وقت هذا الحل قدمتم بالدليل القاطع أن الإسلام هو المشكلة!

شعار «الإسلام هو الحل» من الشعارات التي استثمر فيها تيار الإسلام السياسي ليجمع الجماهير حوله، وتصورت الجماهير بعاطفتها أن الإسلام سيحقق لها المعجزات من رفع الفقر والبطالة وتحقيق الرخاء والتقدم..إلخ.

ولأن المشاكل أكثر تعقيدا من أن تحل بالشعارات، فإن إحباط الجماهير من فشل «الإسلام السياسي» في تحقيق وعوده قد لا يقتصر على رفض الإسلام السياسي وشخوصه فحسب، بل على الإسلام ككل. خاصة أن هذا التيار قد قدم نفسه على أنه «المتحدث باسم الإسلام والممثل الرسمي له».

بعيدا عن مزايدات الشعارات. هل الإسلام هو الحل بالفعل؟

نعم، ولا.

الإسلام – أو القرآن– يشبه مَنجماً يضم مواد أولية يمكن أن تقدم الحلول فعلا...لكن هذا لا يمكن أن يحدث كونه يحتاج عمليات تنقيب وتكرير لهذه المواد، كما يحدث مع كل الموارد الطبيعية.

هل يمكن أن تقول للناس الذين يريدون دواء معينا يتطببون به أن يأخذوه مباشرة من الطبيعة فقط لأن مكوناته الكيميائية موجودة في الطبيعة؟ بالتأكيد لا...

بهذا المعنى: الإسلام هو الحل بالفعل، بمعنى الحفر والتنقيب والاستنباط وفهم المقاصد، لا بمعنى «الوصفة الجاهزة» و«خريطة الكنز» الذي يروج له البعض، وينتهي الأمر بردود أفعال عكسية.

لماذا يخص الله الهداية للشرق الأوسط؟

عندما نتحدث عن الأديان الإبراهيمية ونقارن بينها وبين بقية الأديان، فإننا عمليا نتحدث عن رسالة واحدة بنسخ متعاقبة..أو بتحديثات وتصحيحات متعاقبة.

لماذا إذن اختار الله منطقة الشرق الأوسط لكي يضع فيها رسالته؟

ربما لنفس السبب الذي جعل هذه المنطقة وما جاورها (الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط) هي التي تقدم للعالم أجمع، الأبجدية والعجلة والشراع والرياضيات والدستور والمنطق والديمقراطية.

لكن هل ثمة علاقة بين الأمرين؟

الحقيقة نعم، لقد اختار الله المنطقة لأنها ببساطة كانت الأكثر تحضرا، وبالتالي الأكثر تقبلا للدين وفهما له.

الخصوصية الحضارية التي قدمت كل هذه المنتجات التي كانت علامات مهمة في درب تطور الإنسانية، هي التي جعلت هذه المنطقة أكثر استعدادا من سواها لتقبل الرسالات السماوية ومن ثم نشرها..

درجة التطور الحضاري المتقدمة في هذه المنطقة هي التي جعلت نزول الرسالات يكون هنا...

طبعاً سيقول المؤمنون هنالك آيات تشير إلى أن هناك رسل لكل الأمم ؛ لماذا لم تتحدث الكتب المقدسة عنهم؟

ولماذا تتحدث؟ وكيف نعرف مثلا أن إدريس عليه السلام - مثلا- لم يكن نبيا من أنبياء بقية الأمم الذين نعرفهم الآن باسم آخر... إذ لا نعرف عنه الكثير ولسنا واثقين من القليل الذي نعرفه.

للمزيد: تاريخ الأديان

الأديان والرسل والمعجزات محض تحريف وتأليف من القدماء، وتصديق من الجاهلين لهم، وإن سهلت مهمة الكذب على الشعوب الجاهلة اليوم في عصر العلم، فهي أيسر بكثير في عصور الجهل السابقة.

من يسمع هذا الأمر، سيتصور أن مهمة الأنبياء والرسل كانت سهلة لأن الجماهير صدقتهم بسرعة بسبب الجهل آنذاك..

لكن ما حدث هو العكس تماما...

عبر الخطاب القرآني، بل وعبر كل الكتب السماوية التي سبقته، نجد أن موقف التكذيب لوجود الله ولرسله كان موجودا دوما، بل وأن الكثير من المكذبين كانوا بالضبط يقولون ما يقوله ملحدو اليوم ﴿إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ المؤمنون(٨٣)

كان هناك دوما إيمان...وكان هناك أيضا (عدم إيمان) . والاثنان تغيرت أشكالهما وصورهما كثيرا عبر العصور... لكن ادعاء أي منهما أن الآخر لم يكن موجودا لن يغير من الحقيقة شيئا.

لماذا لم يرشد الله الأمم عبر رسالاته الموزعة عليها لنلتقي معا في النهاية برسالة واحدة؟

عمليا الأفكار تنتقل عبر وسائل كثيرة والنسبة الساحقة ممن يدينون بالديانات الإبراهيمية لا يسكنون مناطق نزول هذه الديانات. أي أن الرسالة (الواحدة - في الأصل- بنسخ متتالية) قد انتشرت فعلا في كل مكان.

للمزيد: الكاتالوغ المثالي

أهم من تفخر بهم الحضارة الاسلامية المادية كان ما بين متهم بالزندقة أو الإلحاد: مثل: ابن المقفع، جابر بن حيان، الجاحظ، الكندي، عباس بن فرناس، الخوارزمي، ابن شاكر، اليعقوبي، الرازي (الطبيب)، ابن سينا، الفارابي، ابن رشد، ابن الهيثم، مسكويه، المعري، ابن باجة، الإدريسي، ابن طفيل، ابن جبير، ابن بطوطة، ابن النديم، ثابت بن قرة، البتاني، المجريطي، نصير الدين الطوسي.

عدة نقاط علينا أن ننبه عليها في هذا السياق:

أولا- لو صح أن كل هؤلاء كانوا ملحدين وزنادقة، فإنّ علينا أن نرفع القبعة للحضارة الإسلامية التي أبدت هذه الدرجة العالية من التسامح والمرونة تجاه الملحدين، وهو أمر لا يوجد له مثيل إلا في العالم المعاصر.

ثانيا -كلمة الإلحاد في الثقافة العربية لم تكن تعني أبدا ما تعنيه اليوم، بل كانت تعني الميل عن الاعتقاد الصحيح في الله، إقحام مصطلح الإلحاد (بمعناه القديم) في النقاشات المعاصرة على هذا النحو مضلل جدا وغير علمي، وهذا لا ينفي وجود علماء ملحدين (لدرجة تقترب من نفي وجود الله) ضمن علماء الحضارة الإسلامية، ولكن هؤلاء كانوا قلة، ومن المهم التذكير أن الحاضنة الثقافية التي جعلتهم ينتجون كانت حاضنة مؤمنة، وأنهم مهما اختلفوا في أفكارهم عن الأفكار السائدة في حاضنتهم، فإنهم يبقون منتمين لحضارة مؤمنة.

ثالثا - قسم من هؤلاء كانوا ينتمون إلى أديان أخرى (الصابئية أو المجوسية أو اليهودية) أو فرق أخرى (الصوفية والمعتزلة والشيعة) لذلك فمهاجمتهم وتوزيع الاتهامات عليهم كانت تحدث «تلقائيا» ضمن سلسلة المناكفات المتبادلة بين الفرق، هذا عدا عن الصراع المرير بين الفلاسفة والفقهاء الذي جعل كل من تكلم في الفلسفة يوضع في سلة واحدة يتهمها البعض بأشنع التهم، كما أن بعض من هوجموا في القائمة هوجموا لأنهم زاروا «القبور والمشاهد» ضمن كتب رحلاتهم !

رابعا - بعض المواقف السياسية لبعض هذه الأسماء ساهمت في هذا الموقف العدائي تجاههم: فلان خدم ملك صقلية «الكافر»، فلان خدم دولة «العبيديين»، فلان خدم «هولاكو»...وبغض النظر عن تقييم هذه المواقف السياسية (أو صحة نسبتها على هذا النحو لهم) فإنّ منطق الأبيض و الأسود واضح في جر الموقف السياسي إلى الإيمان أو الإلحاد.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / مغالطة المؤرخ/ مغالطة سمكة الرنجة

منذ فترة طويلة فشل الإسلام في تقديم نموذج ناجح فعال يمكن تطبيقه في الواقع.

غالبا المقصود هو فشل (نموذج سياسي) وهو أمر ناتج عن تسييس كل شيء وحصر الأمور في نطاقها السياسي.

المسلمون ليسوا في أفضل حالاتهم بالتأكيد، بل ربما هم في أسوئها ومنذ قرون، لكن هذا يركز على المسلمين العرب ويتناسى وجود تجارب أنجح عند غير العرب من المسلمين.

بكل الأحوال: وضع المسلمين مرتبط بأمور كثيرة متداخلة من ضمنها فهمهم لدينهم وتعاملهم معه.

لا أحد يقول أن فهم المسلمين لدينهم في أفضل حالاته.

لكن ترك الدين بسبب سوء فهم البعض له، يشبه أن تترك الطعام بسبب إفراط البعض فيه ..قم بتحضير وجبتك بنفسك ولا دخل لك فيهم..

وجود صراعات على الحكم الواحد تصل للتكفير والقتل في تاريخ الإسلام.

الصراعات السياسية التي تتخذ من تفسيرات معينة للدين أو من شعارات دينية أعذارا وحججا هي أفعال بشر في النهاية.

وصراعات الحكم جزء من تاريخ كل الإنسانية وليس تاريخ المسلمين فقط.

ولكن ينبغي التفريق بين تاريخ المسلمين وتاريخ الإسلام كدين، وكذلك يجب عدم حصر الأمر بالجانب السياسي فالحضارات والمجتمعات فيها أكثر بكثير من مجرد نظام الحكم، كما لا يجب محاسبة أنظمة الحكم التاريخية قبل عشرة قرون بمعايير القرن الواحد والعشرين، وهذا الحاصل للأسف حاليا في المقارنات السائدة.

للمزيد: مغالطة المؤرخ / الاجتزاء في التفكير

طالما أنكم تقولون أن الإسلام أعظم دين وأنه الدين الذي يأتي بالحلول، فلماذا المسلمون اليوم متخلفون وضعفاء ولاينصرهم ربهم في محنهم؟

هذه مسؤولية البشر الذين حملوه وليس مسؤولية الدين نفسه. عندما نقول أعظم دين فنحن نؤمن بعظمة نصوصه والمفاهيم المتضمنة داخل هذه النصوص، لكن هذه النصوص ليست عصا موسى يمكنها أن تحقق المعجزة بمفردها دون مشاركة من الطرف الآخر المقصود بالتغيير.

لم يقل أحد أن المسلمين هم الأعظم، على العكس. ما داموا هكذا فهم الأسوأ حاليا - أو على الأقل نسبة مرتفعة- منهم.

لماذا لم يحمل الدين الأعظم ضمانات تمنعه من السقوط بيد من يسيء له لهذه الدرجة؟

أين امتحان البشر لو كان فيه هذا؟

الأديان كلها باطلة، لأن الله أعطانا عقولا بها نميز الحق من الباطل، لا داعي للنبوة، النبوة والأديان فرقت ولم تجمع، نشرت الحروب ولم تنشر السلم.

القول بأن العقل يكفي لتمييز الحق من الباطل يحمل العقل ما لا طاقة له به. كل من عرف النوع الإنساني وعاشر البشر يعلم يقينا أن العقل (عند أغلب الناس) بالكاد يُسَيِّر الأمور اليومية. أما عبارات مثل الحق والباطل والخير والشر. فهي ليست في أولويات أغلب البشر للأسف.

وضع احتمالات (مسبقة) لدور الدين، ثم محاسبته عليها. مغالطة منطقية واضحة. من قال أن هدف الأديان هو الجمع ونشر السلام ؟ هذا أمر وضعته أنت في بالك وحاسبت الأديان عليه. لا يعني هذا أنه لم يحدث إساءة لاستخدام الدين في أحيان كثيرة. لكن إغفال دور الدين في تطور الحضارة الإنسانية منذ نشوئها أمر لا يمكن أن يمرر. كذلك إغفال أهمية الاختلاف وأثره في دفع عجلة تطور الحضارات. فليس كل اختلاف يؤدي إلى حروب وقتل ودمار بالضرورة..

هذا بالإضافة إلى أن الفرضية كلها تقوم على وهم أن كل الحروب في العالم قد قامت على أساس ديني، وهذا خطأ فادح. هناك حروب استخدمت شعارات الدين لأهداف أخرى، ولكنّ هناك حروب (عالمية)قامت على أسس لا علاقة لها بالدين على الإطلاق..

كذلك من قال أن الأمور ستكون أفضل بدون دين ؟ بنفس المنطق يمكن أن نقول أن العالم كان سيكون أسوأ بكثير بلا دين !

القناعة الشخصية أمر نسبي جدا. ليس المهم أن يقتنع شخص ما بشيء. المهم أن يتواضع ليعلم أن عدم اقتناعه بصحة شيء ما. لا يعني عدم صحته!

الشعوب الغربية متقدمة مع أنها تنحي الدين جانباً بينما الشعوب المتدينة متخلفة.

قصة تنحية الغرب للدين قصة مبالغ فيها جدا، النهضة والتقدم الغربيين ما كانتا ستحدثان لولا التجديد والإصلاح الديني الذي قام به لوثر والذي أشعل حركة إصلاحية منفصلة عن الكنيسة قادت إلى تكوين مذهب جديد هو البروتستانتية والتي كانت ركنا أساسيا في نهضة ألمانيا والمملكة المتحدة ومن ثم الولايات المتحدة، كل ما يعرف بقيم العمل وأخلاقياته في الغرب اليوم لها صلة واضحة جدا بالقيم البروتستانتية، كما أن الدين لا يزال له حضور قوي في الغرب ولكن ربما في مجالات أخرى غير التي نتعود رؤيته فيها...

هذا كله يقول لنا القصة بطريقة مختلفة: الغرب لم يصل لتقدمه إلا بتجديد فهمه للدين..

للمزيد: مغالطة السبب الزائف/ الغرب نجح لأنه ترك الدين

لماذا الإسلام هو الدين الحق الوحيد مع أنّ تاريخ المسلمين مثله مثل أي تاريخ بشري

فلنحدد أولا أن إيمانك بشيء ما يجعلك تؤمن بأنه الأكثر صوابا على نحو طبيعي وتلقائي. الأمر جزء من الإيمان بالتعريف. ليس في هذا عيب أو شيء يدعو للخجل. المؤمن بالبوذية يرى أنها الأفضل، والمؤمن بالبروتستانتية يؤمن أنها الأفضل وكذلك المؤمن بالإسلام. ليس أصحاب الديانات وحدهم في هذا الإيمان. بل أيضا أصحاب المذاهب الوضعية، الليبراليون حتما يؤمنون أن الليبرالية هي الأنسب للعالم، وأصحاب المبدأ الاشتراكي بالتأكيد يرون أن العالم سيكون أفضل لو طبقت الاشتراكية.

هذا جزء من الإيمان بالتعريف.

أين تبدأ المشكلة؟

تبدأ المشكلة عندما يجعلك إيمانك تلغي كل إيجابيات التجارب الأخرى كلية..وتبدأ بشيطنة الآخرين فقط لإيمانهم بشيء آخر....

ومن ثم أن تحاول قسرهم على الإيمان بما تؤمن به (يحدث ذلك كثيرا وليس فقط دينيا حيث أقسر الملايين على اعتناق الشيوعية مثلا).

يمكنك أن تدعو طبعا لما تؤمن به ويمكنك أيضا أن تكون نموذجا يجعل الآخرين يلتفتون لمذهبك. هذا شرعي تماما.

بالنسبة للإسلام: فقط الوثنية في جزيرة العرب وجد أنها مما لا يمكن التعايش معه، وسمح ببقية الأديان...بالنسبة للإسلام الوثنية هي كالأمية التي يجب القضاء عليها.

أما تاريخ المسلمين فهو تاريخ المسلمين البشري في تطبيقهم لما يؤمنون به أو مخالفتهم لما يؤمنون به أحيانا ..هي تاريخ بشري، وأي تاريخ بشري لا يمثل إلا نفسه...

لكن في نفس السياق علينا أن نقر أن تاريخ المسلمين (المقارن) متميز جدا ضمن سياقهم التاريخي،...كل الفتوحات التي حدثت لم تشهد إطلاقا مذابح لسكان المدن كما كان يحدث في تاريخ الإمبراطوريات وتوسعها آنذاك، بل لم يدخل المسلمون قائمة المذابح إلا مع دخولهم عهد الحروب الصليبية.أي بعد قرون من انتشار الإسلام.

نقول هذا على صعيد تاريخ المسلمين مع الشعوب الأخرى، فنؤكد أنه كان أفضل بكثير من السائد في عصرهم.

أما على صعيد الصراع الداخلي على السلطة فنقر أنه لم يكن بنفس التميز.

للمزيد: انتشار الإسلام بالسيف

ما هو هدف الإسلام؟ إذا كان هدفه تحقيق السلام والازدهار، فقد فشل بالتأكيد...

إذا كان قد جاء كاختبار فقط، فهناك الكثير من البشر الذين لم يسمعوا بالإسلام وبالتالي لا اختبار لهم..لماذا هناك إسلام؟ ما هو الهدف؟ ما اختلافه عن بقية الأديان؟

من السهل الحكم على الإسلام بالقياس على أفعال المسلمين.

ولكن هذا سيجعل كل الإيديولوجيات والمذاهب فاشلة، بالحكم على ما فعله المعتنقون لها في هذه الفترة أو تلك.

حقق المسلمون بعض الأهداف في بعض مراحل تاريخهم..وفشلوا في غيرها ونحن بالتأكيد في حالة فشل منذ قرون، لكن هذا فشل المسلمين في فهم الإسلام أو تطبيقه وليس فشل الإسلام.

ما هو هدف الإسلام ؟ السلام والإزدهار يمكن أن يكونا من الأهداف. ولكن على طريقة الإسلام في فهمهما وليس كما نفهمها مباشرة في الفهم المعاصر الذي قد يبالغ في الخلط بين الازدهار مثلا وبين السلع المتوفرة على رفوف السوبرماركت..

لكن النظر إلى هدف الإسلام من خلال زاوية «المنافع» الدنيوية التي يحققها ناتج عن رؤية برغماتية غير منسجمة مع الإسلام..

المؤمنون بالإسلام يؤمنون بأنه «الدين الحق»، بأنه الأقرب للحقيقة!...هذا هو الأهم في محك المصداقية مبدئيا، وليس ما يبنى على ذلك من نتائج «دنيوية».

الرؤية التي يقدمها الإسلام لله وللإنسان والعالم هي الرؤية التي نؤمن أنها الأكثر توازنا ودقة وصوابا، ويمكن فعلا ملاحظة تميزه عقائديا من ناحية التوحيد عن بقية الأديان، كما أنه أقل الأديان من ناحية ما يمكن أن يفهم في نصوصه من تمثيل أو تجسيم..وهو أكثر الأديان حضا على العقل واحتراما له...

ماذا يمكن أن ينتج عن هذا التوازن؟ على المستوى الاجتماعي العام، يمكن أن ينتج ما حققه المسلمون في قرونهم الأولى، عدالة اجتماعية «نسبية طبعا وبالتفوق مقارنة مع السياقات التاريخية المحيطة»...على المستوى الفردي يمكن أن تحقق الكثير من الأبعاد الإنسانية الداخلية، السلام الداخلي والتواصل مع الله، وتوازن بين العقل والإيمان..

هل حقق المسلمون ذلك ؟ أحيانا في تاريخهم الطويل، نعم...لكن ليس هذه الأيام...

المرأة

لماذا أمرت المرأة بتغطية شعرها ولم يؤمر الرجل بذلك؟

ما الفرق أصلا بين شعر المرأة وشعر الرجل؟

تغطية شعر المرأة جزء من طريقة تحييد أنوثة المرأة عن مشاركتها في العمل والحياة دون أن تتحول أنوثتها إلى عامل معوق ومشوش لذلك. بعبارة أخرى: لو أن المرأة كانت ستبقى حبيسة بيتها في المجتمع،حسب ما يتصور البعض بالنيابة عن الإسلام، لما احتاجت إلى غطاء الشعر. لكنها تحتاجه لأنها ستخرج وتساهم في البناء والعمل إلى جانب الرجل.

للمزيد: المرأة / الحجاب

وإن كان دين الإسلام لا يعلي من مكانة الرجل على المرأة كما تقولون، فلماذا عورة الرجل (من السرة إلى الركبة) مختلفة عن عورة المرأة (كلها باستثناء وجهها وكفيها)؟

مبدئيا، لم يقل أحد بمساواة الرجل والمرأة فسلجيا وجسديا...حتى المطالبين بحرية العري، لم يقل أحد منهم بأن جسد المرأة مثل جسد الرجل لأنهما ببساطة مختلفان وظيفيا.

من ناحية أخرى: جسد الرجل بالنسبة للمرأة مثير للشهوة كما جسد المرأة بالنسبة للرجل، لكن سلوك المرأة أمام شهوتها يختلف عن سلوك الرجل. حيث إنّ سلوك الرجل شهواني مرتبط بهرمون التيستوتيرون المسؤول في الوقت نفسه عن العنف. وهذا يجعل تعرض المرأة للتحرش الجسدي واردا جدا حتى في أكثر المجتمعات انضباطا.

كان الأمر سيكون أبسط لو كان هناك هورمون للتحضر والأتيكيت، لكن للأسف نشأة الإنسان جعلت السلوك المتحضر مرتبطا بقوانين وليس بهورمونات.

للمزيد: المرأة / الحجاب

السماح بتعدد الزوجات

التعدد في وقته كان تقييدا كبيرا على عدد غير محدود من النساء كان بعض الرجال يتزوجون منهم، وقد ترك النص القرآني مجالا واسعا لتقنين التعدد وذلك عندما اشترط العدل وثم أشار إلى صعوبته.

على العموم يفتح عقد الزواج الباب لكل زوجة لكي تشترط على زوجها عدم التعدد. لذا فإمكانية إلغاء التعدد كخيار يتفق عليه الزوجان في بداية حياتهما وحصره بظروف اجتماعية أمر ممكن شرعيا.

للمزيد: المرأة / تعدد الزوجات

جواز ضرب الرجل لزوجته تأديباً.

الآية التي اعتبرت الضرب هو الحل الأخير بعد النقاش والهجر كانت تخص «النشوز» فقط، وهو «إدخال المرأة لرجال إلى بيتها دون رضا زوجها عن ذلك».

للمزيد: المرأة / واضربوهن

يحق للزوج التعداد على خلاف المرأة، ولا أقبل بعلة اختلاط الأنساب لأن العلم الحديث استطاع حل هذة المعضلة بتحليل الحمض النووي، هل يعني ذلك أن علة التحريم سقطت في هذه الحالة؟ ويحق لها التعداد؟ أم أن الدين لم يكن يعلم بإمكانية تحديد النسب في المستقبل بالعلم؟

النقاش السائد في موضوع تعدد الزوجات هو الاتجاه لتقييد التعدد..فهل المطالبة بتعدد الأزواج هو من باب النكاية والعبث والجدال لا أكثر أم هو أمر جاد.

النص القرآني (قيد) التعدد الذي كان مطلقا دون سقف محدد في الجاهلية. ولم يكن الأمر مماثلا مع النسوة وتعدد الأزواج في أي وقت.

بعبارة أخرى: التقييد على التعدد هو الأصل في النص القرآني وليس التعدد، ولو كان الزواج من واحدة هو العرف في الجاهلية وجاء النص القرآني ليبيح التعدد، فسيكون التعدد هو الأصل في هذه الحالة، لكن النص القرآني جاء ليضع قيوداً على التعدد..ومن ثم ترك الباب مفتوحا في فهم النص لإغلاق التعدد أصلا أو جعله لشروط معينة حسب حاجات المجتمع في كل زمان ومكان.

لو كان التعدد مباحا للطرفين، فالمشكلة ليست في اختلاط الأنساب التي يمكن أن يحسمها العلم كما يقول السؤال، بل في شكل الأسرة الناتجة من هذه الفوضى..كل المشاكل الموجودة من (تعدد الزوجات) ستكون مضاعفة وموجودة أكثر.

هل نريد أن نغيظ بعضنا أكثر؟ أم نريد حلا للمشاكل؟

الإسلام منح حقوقا للمرأة، كيف تفسرون إذن؟ للذكر مثل حظ الانثيين

من الخطأ تعميم القول بأن المرأة في الميراث الإسلامي تأخذ نصف نصيب الرجل، بل الحق أن المرأة لها أربع حالات، الأولى : أن تأخذ المرأة نصف الرجل (كما بين الأخت وأخيها) والثانية : أن تأخذ المرأة مثل الرجل. والثالثة : أن تأخذ المرأة أكثر من الرجل. والرابعة : أن ترث المرأة ولا يرث الرجل..وتصل عدد الحالات التي ترث فيها أكثر من الرجل إلى قرابة الثلاثين حالة.

وهذا يعني أن الاقتصار على مفهوم «للذكر مثل حظ الإنثيين» يختزل منظومة متشعبة في الميراث، وتعتمد في التوزيع أساسا على ثلاثة معايير : درجة القرابة بين الوارث والموروث، سن الوارث (كلما كان أصغر يأخذ أكثر)، والعبء المالي الذي يتحمله الوارث.

اختصار هذا بالذكورة والأنوثة ظلم كبير...

تنبيه هام على هذا الموضوع:

إن أصحاب الفروض هم : «الوارثون الذين يرثون كسرا محددا ونسبة معينة من التركة»، كالنصف أو الثلث أو الربع أو السدس، بينما العصبات بالنفس فهم : «الوارثون الذين يرثون ما يبقى من التركة بعد أصحاب الفروض»، ويلاحظ أن أكثر أصحاب الفروض نساء، وأن جميع العصبات بالنفس رجال، وهذا يعني ما يلي :

١ -أن أولوية التقسيم في الميراث هي لأصحاب الفروض الذين أغلبهم من النساء، ثم ما يبقى يعطى للعصبات بالنفس الذين جميعهم رجال.

٢ -أنه لا مجال لأن يقل نصيب المرأة عن تلك النسبة المحددة لها في الشرع، فلو شاركها وارثون آخرون في الميراث فلن تقل نسبتها عما حدده لها الشرع، أما الرجل الذي هو عصبة بالنفس فكلما دخل في الميراث وارث غيره قل نصيبه، ولو أن أصحاب الكسور أخذوا جميع التركة فإن هذا العصبة من الرجال لن يأخذ شيئا.

٣ -لو أن أصحاب الكسور زاد مجموع كسورهم عن الواحد الصحيح، أي : زادت أنصبتهم عن القيمة الكلية للميراث، فإن الشرع أوجب توريثهم جميعا، حيث تقسم التركة بطريقة تسمى «العول»، حيث أن العول يضمن لكل صاحب كسر أن يأخذ نسبته المحددة شرعا، بينما لو أخذ أصحاب الكسور جميع التركة ولم يبق من التركة مال، فإن العصبة من الرجال لن يأخذ شيئا، وهكذا يتبين لك أن الشرع لا يجري العول للعصبات، وإنما يجريه لأصحاب الفروض فقط. ، وغالبيتهم نساء.

نقلا عن د.اسامة نمر عبد القادر

للمزيد: المرأة / الإرث

شهادة الرجل عن امرأتين.

من الحقائق التي يجب أن نعلمها في قضية الشهادة ما يلي :

أولا- شهادة المرأة وحدها تقبل في هلال رمضان شأنها شأن الرجل.

ثانيا -تستوي شهادة المرأة بشهادة الرجل في الملاعنة (أي أن شهادتها مقابل شهادة زوجها عليها بالزنا مقبولة).

ثالثا -شهادة المرأة قبلت في الأمور الخاصة بالنساء فيما لا يطّلع عليه الرجال مثل الرضاعة والولادة والحيض و. وما أشبهها. ولا خلاف في ذلك.

رابعا -تقبل شهادة المرأة الواحدة في كل المواضع السابقة، منفردة دون وجود شاهدة أخرى.

خامسا -شهادة المرأة تقدم أحيانًا على شهادة الرجل بعد سماع الشهادتين: «يثبت خيار الفسخ لكل واحد من الزوجين لعيب يجده في صاحبه ... وإن اختلفا في عيوب النساء أريت النساء الثقات ويقبل فيه قول امرأة واحدة. فإن شهدت بما قال الزوج وإلا فالقول قول المرأة»

سادسا – هل تختلف الشهادة عن الرواية؟ وقد قُبلت رواية المرأة الواحدة. وما تزال. في كل أمر حتى في الحديث: «فالحديث النبوي الذي روته لنا امرأة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – له حجية الحديث نفسه الذي يرويه رجل». ولم يرد أحد قول امرأة لمجرد أنها امرأة، ونقل الدين وما فيه من تشريع أخطر من الشهادة في حكم قضائي».

المشكلة هي في أن هناك من فهم من الآية الكريمة: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ (البقرة: ٢٨٢)

إنّ هذه الآية موجهة للقاضي، مما نتج عنه خلطٌ بين «الشهادة » وبين «الإشهاد» وهو الذي تتحدث عنه هذه الآية الكريمة، فالشهادة التي يعتمد عليها القضاء في اكتشاف العدل المؤسس على البينة، واستخلاصه من ثنايا دعاوى الخصوم، لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معيارًا لصدقها أو كذبها، ومن ثم قبولها أو رفضها؛ وإنما معيارها تحقيق اطمئنان القاضي لصدق الشهادة بصرف النظر عن جنس الشاهد، ذكرًا كان أو أنثى، وبصرف النظر عن عدد الشهود..

فإن للقاضي إذا اطمأن ضميره إلى ظهور البينة أن يعتمد شهادة رجلين، أو امرأتين، أو رجل وامرأة، أو رجل وامرأتين، أو امرأة ورجلين، أو رجل واحد، أو امرأة واحدة.. ولا أثر للذكورة أو الأنوثة في الشهادة التي يحكم القضاء بناءً على ما تقدمه له من البينات..

أما الآية فإنها تتحدث عن أمر آخر غير «الشهادة» أمام القضاء؛ حيث تتحدث عن «الإشهاد» الذي يقوم به صاحب الدين للاستيثاق من الحفاظ على دَيْنه، وليس عن «الشهادة» التي يعتمد عليها القاضي في حكمه بين المتنازعين..

فهذه – الآية – موجهة لصاحب الحق والدَّين وليس إلى القاضي الحاكم في النزاع..

وقد علق الشيخ معروف الدواليبي على هذا الأمر: إن الشريعة الإسلامية اتجهت إلى تعزيز الشهادة في القضايا المالية بصورة مطلقة بشهادة رجل آخر، إلى جانب الرجل الأول، حتى لا تكون الشهادة عرضة للاتهام. ولم يعتبر أحد تنصيف شهادة الرجل هنا وتعزيزها بشهادة رجل آخر ماسًا بكرامته ما دام ذلك التعزيز أضمن لحقوق الناس. وزيادة على ذلك فإن شهادة الرجل لم تقبل قط (وحده) حتى في أتفه القضايا المالية. غير أن المرأة قد امتازت على الرجل في سماع شهادتها (وحدها) ، دون الرجل، فيما هو أخطر من الشهادة على الأمور التافهة، وذلك كما هو معلوم في الشهادة على الولادة وما يلحقها من نسب وإرث، بينما لم تقبل شهادة الرجل (وحده) في أتفه القضايا المالية وفي هذا رد بليغ على مَن يتهم الإسلام بتمييز الرجل على المرأة في الشهادة.

العنف / الحرب / العبودية والرق

حد الردة :قتلك لمجرد تفكيرك خارج السرب لهو أكبر دليل على بطلان الدين و خوفه الشديد من تبيان أخطائه ...

ما يعرف بحد الردة مختلف في كونه حداً أصلا . نعم في الحديث النبوي ما يفيد بوجود أمر بهذا. لكن في القرآن ثمة آية قرآنية شريفة هي بمثابة قاعدة عامة (لا إكراه في الدين).

وكذلك ثمة وعيد عام لا يحدد (عقوبة محددة) بينما الحد يجب أن يكون واضحا ومحددا بالتعريف.

في الوقت ذاته فوجود حد للردة يتعارض مع آية (لا إكراه في الدين) ،وهناك آية يتخذها البعض للدفاع عن وجود حد ردة في القرآن

﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ التوبة الآية ٧٤.

لكن عذاب الدنيا قد يكون الهم والغم وكل ما يمكن أن يصيب الكثيرين ممن يرتدون عن الدين فعلا. والكثير من قدامى المفسرين قالوا بذلك فعلا..

من جهة أخرى، هناك حديث صحيح واحد يفيد بقتل المرتد، ولكن مرة أخرى يجب أن تؤخذ بصفتها أحاديث توضع في سياق ظروفها .

في الوقت نفسه، علينا أن نفهم أن الوضع ككل في تلك الفترة كان يعني أن المرتد آنذاك كان يجلس في بيته أو يمارس حياته الاعتيادية بل كان ينضم للعدو المحارب، وهكذا يمكن أن يفهم حديث قتل المرتد باعتباره قانونا لمعاقبة من ثبتت عليه تهمة الخيانة العظمى في لغتنا المعاصرة اليوم وليس للمحاسبة على فكرة الردة نفسها.

وهكذا يمكن فهم حديث (من بدل دينه فاقتلوه) (رواه البخاري) من خلال الحديث الآخر (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة) (متفق عليه)..

فالمبدل لدينه هو المفارق للجماعة، وحسب مفهوم الجماعة أنذاك فهي تعني المجتمع المسلم ومفارقته (حسب سياقات ذلك العصر) تعني الانضمام لعدو محارب.

وهذا يعني أن ما يعرف بحد الردة هو قانون خاضع لظروف سياسية تحكم الدولة والمجتمع و وتنفيذها مناط بقرار الدولة لا أكثر ولا أقل وليس لها علاقة برؤية الدين للأمر.

كما ينبغي أن نذكر هنا أنه توجد حادثة واحدة فقط في عهد النبوة تم تطبيق هذا الأمر فيها وهي الحادثة التي أسلم فيها يهودي ثم عاد لليهودية، وكان يعني ذلك أنه كان جاسوسا جمع ما يمكنه من أخبار ومعلومات ورجع بها إلى قومه، علما أن الحادثة لم يأمر بها الرسول عليه الصلاة والسلام بل كانت بقرار من معاذ بن جبل.

للمزيد: حد الردة

السبي، مثله مثل العبودية، من الأمور التي ما كان يمكن أن تزال فورا من بنية المجتمعات لأنه كانت ستخلط جدا بين من ينتمي للدين الجديد من أجل عقيدته، وبين من ينتمي له من أجل مصلحته فقط.

الإسلام عمل على تجفيف منابع العبودية عبر تقليل الأسباب التي تقود للعبودية (كانت تشمل سابقا الوقوع في الدين وقطع الطرق وحروب القبائل) كما أنه جعل من تحرير العبيد كفارة عن الكثير من المعاصي المرتكبة، كما أنه جعلها من مصارف الزكاة العامة، وهذا كله يعني أنه عمد إلى تجفيف أسبابها وتقليلها، لدرجة وصلت أن عمر بن الخطاب كان يقوم بعتق من يصلي من العبيد.

طبعا لم يستمر هذا الفهم للأسف، لكن التدهور هو تدهور بشري في فهم النص، وليس في النص نفسه.

للمزيد: مغالطة المؤرخ/ الرق والعبودية وملك اليمين

ارتكب المسلمون أكبر مذبحة في تاريخ البشرية عبر قتلهم ٤٠٠ مليون من الهندوس أثناء نشر الإسلام الذي تدعون أنه كان سلميا..وذلك وفق ما قاله المؤرخ المسلم فرشتا، كذلك وصف المؤرخ ول ديورانت الغزو الإسلامي للهند بأنه الأكثر دموية في التاريخ، ويتناقل آخرون رقم ٨٠ مليون ضحية هندوسي نتيجة غزو المسلمين...

مبدئياً، الرقمان (سواء كان ٨٠ او ٤٠٠ مليون) كبيران جدا بكل المقاييس، حتى الحرب العالمية الثانية (وهي الأكبر من ناحية عدد القتلى حتى يومنا هذا) بالكاد تجاوزت ٨٥ مليون قتيل رغم أن عدد البشر قد ازداد في هذه الفترة كما صارت أدوات القتل والدمار أكثر فتكا.

أكثر من هذا أن عدد سكان الأرض في الفترة التي يفترض أن هذه المجازر حدثت فيها لم يكن يصل إلى الـ ٤٠٠ مليون ولم تتجاوز التقديرات هذا الرقم إلا في القرن السادس عشر الميلادي، وهذا يعني أن المسلمين قد قضوا على الجنس البشري بأسره (بمن فيهم أنفسهم) وحتى رقم الـ ٨٠ مليون، سيعني أن المسلمين قضوا على ٢٠ ٪ من سكان الأرض، بينما كانت نسبة ضحايا الحرب العالمية الثانية ٣ ٪ من سكان الأرض، وهذا أمر غير واقعي بالمرة.

تستند قوة المقولة على أن «مؤرخا مسلماً» هو الذي ذكر الرقم. أي على طريقة «وشهد شاهد من أهلها». والحقيقة أن ما قاله هذا المؤرخ الذي عاش في القرن السابع عشر الميلادي لا علاقة له بما يتداوله البعض، فبينما يحول هؤلاء الأمر إلى «هولوكوست يفوق كل مذابح التاريخ» فإن ما يقوله فرشتا هو أن عدد الهندوس تناقص من ٦٠٠ مليون إلى ٢٠٠ مليون خلال قرون، وبغض النظر عن عدم منطقية الرقمين (كل سكان الأرض لم يكن عددهم قد وصل إلى ٦٠٠ مليون آنذاك) فإن «تناقص عدد المؤمنين بدين ما لا يعني بالضرورة أنهم ذبحوا، فهناك شيء آخر يؤثر على هذه النسبة وهو: التحول إلى ديانة أخرى! وهذا ما حدث وبشكل كبير في شبه القارة الهندية، خاصة أن فريشتا كان يتحدث في سياقات «ثناء» للأثر الإسلامي على الهند.

بغض النظر عن مبالغة العددين، فريشتا يتحدث عن «تحول كبير من الهندوسية إلى الإسلام»... يمكن بسهولة أن نتحدث عن مزايا الإسلام والتوحيد والقرآن ..إلخ..وهذا كله يساهم حتما في أي تحول إلى الإسلام، لكن هناك شيء آخر مهم جدا يخص التحول من الهندوسية تحديدا: كان اعتناق الإسلام يشكل فرصة للخلاص من النظام الطبقي الذي يعتبر جزءا لا ينفصل من الديانة الهندوسية، ملايين الهندوس من الطبقات الأدنى، الذين ولدوا في تلك الطبقات ولا شيء يمكن أن يغير ذلك بالنسبة لهم، وجدوا فرصتهم في التحول إلى الإسلام للتخلص من هذا النظام الطبقي الذي يعتبرهم «منبوذين بالولادة»(طبقة الشدرا مثلا، وتبلغ نسبتهم حاليا ٢٦٪).

هذا هو السبب في تناقص عدد الهندوس، وليس «أضخم هولوكوست في التاريخ لم يسمع به أحد».

ماذا عن الرقم الآخر: ٨٠ مليون؟

هذا الرقم أول من قال به مؤرخ يدعى كيشوري ساران لال Kishori Saran Lal (١٩٢٠ -٢٠٠٢) ورغم انتشار وشعبية كتاباته إلا أنه يعتبر «مؤرخا مزيفا» pseudo historian وهو مؤيد وداعم لحزب اليمين المتطرف الهندوسي Vishva Hindu Parishad وتصب كتاباته في دعم آيديولوجية الحزب العنصرية المعادية لكل ما هو غير هندوسي- خاصة المسلمين. ويعتبر أكاديميو التاريخ كتاباته «كوميدية».

http://materialslamica.com/index.php?title=Muslims_Killed_80_million_Hindus%20&mobileaction=toggle_view_mobile

ماذا عن ول ديورانت وما قاله عن كون الغزو الإسلامي للهند «من المحتمل أن يكون الأكثر دموية في التاريخ»؟

ول ديورانت قال ذلك فعلا في الجزء الأول من كتابه الشهير «قصة الحضارة» الذي يحمل عنوان: تراثنا الشرقي، ويمكن بسهولة اتهام ديورانت بالتحيز ضد الإسلام لكن ذلك سيكون تسرعا..فلننتبه إلى ما يلي:

أولا- لا يمكن اتهام ديورانت بالتحيز بالمطلق، ربما لا يخلو باحث من ذلك، لكن ديورانت نفسه قال عن النبي عليه الصلاة والسلام في الجزء الثاني من كتابه، المعروف ب» عصر الإيمان» لو أننا قسنا العظمة بالتأثير، فمحمد كان من عمالقة التاريخ»، كما أنه قال عن القرآن «أكثر الكتب المفردة تأثيرا في التاريخ».

ثانيا – لم يذكر ديورانت أي عدد للقتلى عندما تحدث عن الغزو الإسلامي للهند، وبالتأكيد لم يقل أن الأمر كان متعلقا بمذابح، فربما كان المعنى هنا متعلقا «بالحروب والمعارك».

ثالثا – استخدم ديورانت هذا اللفظ «دموي» كثيرا في كتابه ودون أن يعني بالضرورة «القتل» بل كان يعني أحيانا الشدة.

رابعا- ديورانت في نفس الكتاب، قال عن معركة موكدن (Mukden) بين الروس واليابانيين عام ١٩٠٥ أنها «الأكثر دموية في التاريخ لغاية حربنا الكونية التي لا يمكن مقارنتها بشيء آخر» وهو يقصد الحرب العالمية الأولى إذ أن كتابه صدر عام ١٩٣٥ قبل الحرب العالمية الثانية. بعبارة أخرى: ديورانت يقول أن الأكثر دموية كانت الحرب العالمية الأولى، ومن ثم معركة موكدن ضمن الحرب الروسية اليابانية. (تراثنا الشرقي صفحة ١٠١٨).

كم كان عدد القتلى في هذه المعركة ؟ ١٦٣ ألف من الجانبين.

إذن «الغزو الإسلامي للهند» قد يأتي – حسب ديورانت طبعا – بعد هذه المعركة وبالتالي فعدد القتلى أقل. هذا لو كان ديورانت يقصد بالدموية (عدد القتلى)، وسيعني هذا أنه تجاوز مذابح هولاكو وجنكيز خان والصليبيين. رغم ذلك فإن الرقم سيبقى لا يقارن بما ذكر من أرقام فلكية هولوكوستية.

خامسا – في الغالب كان ديورانت يقصد ب» دموية الغزو الإسلامي» الأثر المدمر على الحضارة الهندوسية، حيث أن السياق العام كان يتحدث ناقدا ضعف الهندوس وعدم تمكنهم من الحفاظ على ثقافتهم، ولعله كان يقصد تحديدا ما عرف عن «اعتبار ثروات المعابد الهندوسية غنائم».

سادسا – لا ينفي هذا حصول مجازر فعلا، وكانت متبادلة من الطرفين، ولكن في وقت لاحق لانتشار الإسلام في الهند، تحديدا في منتصف القرن الثالث عشر، أي أن هذه المذابح لم تكن السبب في انتشار قسري للإسلام كما يدعي البعض، ورغم هذا فإن الأساس الذي ساد وانتشر ومنذ وقت الفتح الأول في عهد محمد بن القاسم الثقفي في اعتبار الهندوس من أهل الذمة، حسب المذهب الحنفي، وهو ما استمر لفترة طويلة وكان الأساس في التعايش بين الطرفين في المجتمع الهندي.

عندما يغير شخص دينه ليدخل الإسلام هللنا له و سميناها هداية، و عندما يغير شخص إسلامه لدين آخر قتلناه و سميناه مرتدا!! و بعد كل هذا نقول لا إكراه في الدين و من يشاء فليؤمن و من يشاء فليكفر..... هذه ازدواجية واضحة في المعايير.

أولا موضوع الردة وقتل المرتد لم يأت بنص قرآني.

منطقيا وبديهيا كل طرف يتحمس عندما يحصل على مؤيد جديد، ويحزن عندما يخسر واحدا. هذا بديهي وسيكون العكس غريبا وهجينا.

فلنتخيل الأمر هكذا: لعبة مهمة في ستاد ضخم، وهدف يحرزه فريق على خصمه، جمهور الفريق الأول من الطبيعي أن يعرب عن فرحه وعن حماسه، ومن الطبيعي لجمهور الفريق الثاني أن يعبر عن خيبة أمله أو حزنه، وسيكون من الطبيعي جدا أن ينعكس الأمر عندما يحدث العكس. هذه ليست معايير مزدوجة، هذه هي الطبيعة البشرية، هذا هو منطق الأشياء.

مرة أخرى.. الحرية الشخصية تبدو قد توسعت كثيرا لدرجة تفترض أننا يجب أن نكون على موقف واحد تجاه كل شيء، حتى تجاه ما هو ضدنا.

هذا لا يعني إطلاقا تأييد الفهم الذي يقود إلى قتل من انضم إلى الطرف الآخر - كما مع مفهوم قتل المرتد...لكن من الطبيعي جدا الانحياز إلى ما تؤمن به.

للمزيد: حد الردة / الحديث صحيح ولكن

أي رسول هذا الذي يقول «جعل رزقي تحت ظل رمحي»؟! هل هذه رسالة إلهية أم دعوة للقتل؟

كيف يمكن أن يحمى الرزق والمال والعيال (في أي زمان ومكان وليس في الجزيرة العربية قبل ألف سنة فحسب) دون أن تكون هناك «قوة سلاح» تحميه وترهب أعداءه والمتربصين به وبثرواته؟ هل يجب على النبي أن يقدم وصفة لمجتمع رومانسي خيالي حالم لكي يرضي «المعايير المثالية للمدينة الفاضلة التي لا وجود لها»...وربما عندها سيقول المعترضون : لكنه مثالي أكثر مما يجب وغير قابل للتطبيق على الواقع!

للمزيد: الكاتالوغ المثالي / الحديث صحيح ولكن

الإسلام المعتدل إسلام مزيف مصطنع متأثر بالقيم الحديثة.. الإسلام الحقيقي هو داعش هو ترك الحياة الدنيا والملذات وقتال الكفار لأجل الآخرة، هذا هو السياق القرآني لو قرأنا القرآن دون عواطف.

على العكس، السياق القرآني هو الذي سيجعل داعش في زاوية ضيقة، يمكن قراءة أي نص تستخدمه داعش في سياقه للتأكد من ذلك.

آيات سورة التوبة مثلا التي تستخدم دوما، لو قُرئت في سياقها لوجدناها تتحدث عن شروط معينة ومعاهدات ومواثيق تم خرقها بوضوح، وتم إعطاء مهلة زمنية طويلة بعد الخرق للتراجع، حتى وصلت الأمور لمرحلة اللاعودة والقتل.

السياق القرآني دوما سيقف ضد داعش، المشكلة هي في النظرة التجزيئية للقرآن التي مكنت لداعش اجتزاء الآيات كما تهوى.

للمزيد: الاجتزاء في التفكير / القرآن والعنف

الفتوحات الإسلامية احتلال عسكري مهما حاولنا تجميله وتزويقه..

الفتوحات الإسلامية تجربة تاريخية إنسانية يجب أن تفسر حسب سياقها وكانت ضرورة في بداية نشوء الدولة لتكريس قوتها وحمايتها...علما أنها كانت من أكثر التجارب الحربية رحمة بالمدنيين، لا شيء مطلق طبعا، بل بالمقارنة بالتجارب التاريخية الأخرى...

الفتوحات ليست نصا دينيا مقدسا والذهاب إلى نهاية العالم بالفتوحات «الحربية» لم يكن هدف «عمر بن الخطاب» مثلا... النصوص الدينية التي تستخدم في الفتوحات جاءت في نصوص حديثية لها سياقاتها المحددة وليست قرآنية.

للمزيد: مغالطة المؤرخ/ انتشار الإسلام بالسيف

كيف يمكن لي ان أعتنق دينا «الإسلام «يحض على قتل اليهود ؟؟؟

والنصوص توضح ذلك بشدة في وصف المعركة الاخيرة«الملحمة الكبرى» ...

لا يوجد نصوص تحض على قتل اليهود من حيث أنهم يهود أبدا.

هناك سياقات تاريخية عامة تشير إلى معارك مع اليهود لكن هذه المعارك حدثت أصلا نتيجة انتهاك العهود والمواثيق وليس لأنهم يهود على الإطلاق.

أما أحاديث علامات الساعة والتي فيها إشارات على حدوث معركة مع اليهود فالنص يتحدث عن قتل يهودي في ساحة المعركة، أي يهودي محارب وليس أي يهودي بالمطلق.

النص هو «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله)

للمزيد: ملف العنف في الإسلام / الحديث صحيح ولكن

داعش هي حقيقة الدولة الإسلامية التي ينشدها البعض ..

داعش هي نتيجة نهائية لسلسلة من الأسباب والعوامل. من ضمنها عوامل وأسباب اجتماعية وسياسية محلية وعالمية بحتة، تضغط على نحو يشجع على التطرف والعنف.

ومنها أيضا أسباب متعلقة بفهم معين للنصوص الدينية أو أحكام فقهية.

فلننتبه هنا إلى أن كل ما تقوم به داعش يستند إلى واحد من أمرين.

أولا - نص ديني أخرج عن سياقه التاريخي وظروفه.

ثانيا - حكم فقهي لعلماء وفقهاء عاشوا ضمن ظروف مختلفة وقدموا رؤيتهم البشرية المعرضة للخطأ والصواب.

ترك الأمور بدون تمحيص ودون إعادة فهم وتجديد يجعل من ظهور داعش أمرا طبيعيا في ظل الظروف غير الطبيعية التي تعيشها المنطقة.

للمزيد : ملف العنف في الإسلام/ داعش ودعوى تمثيل الإسلام

كيف يكون الله العادل و الرحيم محبا للاسترقاق و العبودية و الاتجار بالبشر و الإكراه على ممارسة الجنس مع النساء المسبيات؟ ألم يكن حريا بالأديان و الرسل أن تحارب لتحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان له؟

لا يوجد نص ديني يقول أن الله يحب ذلك، على الأقل في القرآن.

لكن السؤال عموما كما أفهمه هو لم سكتت الأديان على الأقل عن ذلك ولم تحرم العبودية؟

العبودية كانت جزءا من علاقات الإنتاج السائدة في المجتمعات البشرية آنذاك، جزءا من الاقتصاد إن صح التعبير، وكان هذا الجزء مهما وحيويا وأساسيا ويمكن على أساسه تقسيم البشر والمجتمعات الإنسانية. بمعنى أنه لم يكن مثل الربا، الذي هو عملية اقتصادية داخل عملية أكبر منها (التجارة – الديون).

لو أن الأديان حرمت العبودية فجأة لما كان ذلك إنهيارا للمجتمع فحسب، بل إنّ الانتماء للدين و العداء له سيكون مبنيا على هذا فحسب، وليس على أساس الإيمان بالله وتوحيده، وهذا سيكون بمثابة تصنيف (طبقي/ عرقي) للدين يحصره في زاوية ميتة ويقضي عليه تدريجيا.

الإسلام جفف منابع الرق والعبودية. لم يكن من الممكن ولا من المجدي أن يقوم بإلغاء العبودية ويقسم الناس على أساس موقفه هذا، بل حصل الاستقطاب والتقسيم على أساس الإيمان بالله.

تجفيف منابع الرق كان بمنع الأسباب التي كانت تقود إلى الرق، عمليا كانت هناك أربع منابع أساسية للرق: الحروب وقطع الطريق والوقوع في الدين/ أو للفقر والولادة لعبيد.

النصوص حرمت ٣ من هذه الأربع..ابن الجارية أو الأمة يعتق، ولا أحد يباع بسبب دين أو فقر..ولا مكان لقطع طريق أو نتائجه.

نعم لم يحدث تحريم لما ينتج عن الحرب (ولم يحدث أن وجد نص يؤيده أيضا، وكل النصوص التي ذكرت الأمر أوردته بصيغة الماضي : وما ملكت أيمانكم، كما لو كانت جزءا من ماضي، ولم يرد أبدا بصيغة المضارع أو المستقبل)، لم يحدث تحريم ولا تأييد ولكن تعامل مع أمر واقع يستند أصلا على فتح منافذ متعددة للعتق تخنق بالتدريج المنبع الوحيد المتبقي للرق.

منافذ العتق لم تكن فقط عبر الحث على العتق باعتباره عملا صالحا..ولكنها كانت أيضا جزءا من كفارات المخالفات الشرعية التي تحدث في أداء الشعائر خصوصا..كما أن عتق العبيد كان جزءا من مصارف الزكاة، أي أنها كانت جزءا مما تنفقه الدولة مما تجمعه من نقود الزكاة.

تجفيف المنابع هذا خطا به عمر بن الخطاب خطوة أخرى عندما أمر بعتق كل من يصلي !

ولو أن فهم عمر استمر في آخرين لكانت العبودية اختنقت فعلا بالتدريج إلى أضيق حد.

للمزيد: العبودية والرق وملك اليمين

ما المنطق من مهاجمة قرى مسالمة بهدف إدخالها في الدين أو دفع الجزية مقابل الحماية؟؟ هل بعد هذا تقولون لا إكراه في الدين؟

الوثنية - بمعنى عبادة الأوثان والأصنام- حوربت فعلا ولم يكن هناك تساهل في ذلك.

هل هذا يخالف مبدأ لا إكراه في الدين؟

لا...لأن الوثنية قد ألغيت من قائمة الأديان أصلا.

مبدأ اللا إكراه لم يأت مطلقا...بل جاء مرتبطا ب (الدين)، لا إكراه في الدين...يمكنك أن تأخذ ما شئت من أديان مرتبطة بالتوحيد وتنبذ الأصنام. لكن موضوع الأصنام ألغي.

أين الحرية إذن؟

لنعتبر الأمر مثل موضوع التعليم الإلزامي... في أغلب دول العالم (الحر وغير الحر أيضا) لا يسمح لأي أبوين ترك أبنائهم دون تعليم. التعليم إلزامي ولا أحد يقول أن هذا مخالف للحريات..

نفس الشيء تقريبا مع التعبد للأوثان. لا مجال لترك العقل البشري في هذا المستوى المتدني بحيث تتعبد لحجر.

بالمقابل: هناك مجموعة أديان (ضمت لها حتى المجوسية بالمناسبة على اعتبار أن لها كتاب ولو تم تحريفه) يمكن الاختيار بينها، بعدها يكون قرار الجزية وهو قرار مالي بديل عن اي ضريبة أخرى مما كان يؤخذ بكل الأحوال.

هل أثر قرار الجزية على الانضمام للدين وجعل بعض الناس ينضمون إليه تخلصا من الجزية؟ حدث حتما ذلك ولكن بالتدريج. ..أي بعدما تآلفوا مع الدين الجديد وعرفوه..

للمزيد: انتشار الإسلام بالسيف

أحاديث صحيحة إشكالية

حديث البخاري الذي يذكر أن أمة فقدت من بني اسرائيل وصارت فئران

الحديث من الإسرائيليات التي يمكن أن يكون أبو هريرة (أو من روى عنه) أخذها غير عامد مع حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ومرة أخرى كما أشرنا سابقا، يجب أن يعامل الحديث الذي يحمل مضمونا مخالفا للمعتاد أو لصريح العلم بتأويل يبعده عن الفهم الظاهري، خصوصا إذا كان من أحاديث الآحاد. ما هو خارق للمعتاد، من المنطقي أن يكثر ناقلوه ومتداولوه.

للمزيد: الحديث صحيح ولكن

يقول الحديث الصحيح أن الشؤم في ثلاثة: الدار والمرأة والفرس!...ثم تقولون أن دينكم ينهى عن التشاؤم والخرافات؟!

الحديث صحيح وقد رواه أبو هريرة، لكن السيدة عائشة استدركت بغضب على هذه الصيغة كما رواها أبو هريرة وقالت:لم يحفظ أبو هريرة لأنه دخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قاتل الله اليهود يقولون:

إن الشؤم في الدار والمرأة والفرس، فسمع آخر الحديث، ولم يسمع أوله «(مسند أبي داود ١٦٤١)

وفي صيغة أخرى: دَخَلَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ عَلَى عَائِشَةَ فَأَخْبَرَاهَا أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الطِّيَرَةُ فِي الدَّارِ، وَالْمَرْأَةِ، وَالْفَرَسِ» فَغَضِبَتْ فَطَارَتْ شِقَّةٌ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ، وَشِقَّةٌ فِي الْأَرْضِ، وَقَالَتْ: وَالَّذِي أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَا قَالَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ، إِنَّمَا قَالَ: «كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَطَيَّرُونَ مِنْ ذَلِكَ» (مسند الإمام أحمد ٢٦٠٣٤، صحيح على شرط مسلم).

ويتناسق ذلك أكثر مع أحاديث النهي عن التطير والتشاؤم ورواتها كثر من الصحابة.

وكذلك مع حديث معارض آخر لهذا : عن مخمر بن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا شؤم -وقد يكون اليُمن - في ثلاثة في المرأة والفرس والدار» (سنن ابن ماجة ١٩٩٣).

للمزيد: الاجتزاء في التفكير/ الحديث صحيح ولكن

حديث البخاري الذي يقول أن النبي تعرض لسحر من قبل يهودي في المدينة!

الحديث صحيح، وهو حديث آحاد لم يروه غير هشام بن عروة عن أبيه عن السيدة عائشة.

وملخصه أن الرسول عليه الصلاة والسلام شعر بالمرض حتى كان يتخيل أنه فعل الشيء ولم يفعله، وأنه دعا ربه، فرأى في المنام أنه «مطبوب» (وتعني مسحور) وأن من فعل ذلك هو من يهود بني زريق اسمه لبيد بن الأعصم (وبنو زريق عرب من الأنصار لكن كان من عادة العرب أن ينذروا تهويد أولادهم إن لم يكن يعيش لهم أولاد، فكانوا يرضعونهم عند اليهود) وأنه جعل السحر في مشط وبقايا شعر داخل «جف طلع النخيل» (أي وعاء حبوب اللقاح) ووضعه في بئر تعرف باسم بئر ذروان في بني زريق.

ذهب النبي ومعه آخرون إلى البئر ووجدوا ماءها قد تغير فصار «كنقاعة الحناء».

قالت له السيدة عائشة يَا رَسُولَ اللهِ: أَفَلَا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: «قَدْ عَافَانِي اللهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا» فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ.

وفي لفظ آخر – أيضا للبخاري- أَمَّا اللهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا.

إذن: الرسول عليه الصلاة والسلام كان مريضا، وشافاه الله وعافاه. وحدث ذلك دون أن يستخرج ما وضعه لبيد بن الأعصم في البئر.

ولعل تغير ماء البئر حتى أصبح «كنقاعة الحناء» كان يعود لشيء وضعه لبيد في سحره، ولعل الماء لم يعد صالحا للشرب فأمر الرسول بدفن البئر.

فلنحلل الآن هذا الملخص: أما أن لبيدا (أو أي أحد آخر ممن يتعاطون السحر) يمكن أن يحاول «سحر» النبي عليه الصلاة والسلام فهذا أمر طبيعي: هم يؤمنون بإمكانية الإيذاء عبر السحر وسيحاولون ذلك حتما. «تزامن» محاولة لبيد مع مرض النبي لا يعني أنه قد مرض بسبب السحر.

القصة في خطوطها العامة لا مشكلة فيها: أحدهم يحاول أذى النبي. والنبي يمرض بشكل عارض ويشفى دون أن يكون لشفائه علاقة باستخراج السحر.

المشكلة هي في لفظ الحديث الذي يقول أنه رأى في المنام أنه «مطبوب» أي مسحور.

الحديث حديث آحاد. وهو (في هذا الجزء تحديدا وليس في الخطوط العامة له) يخالف بشكل صريح نص القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ الفرقان(٨)

﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ الإسراء(٤٧)

لا يمكن أن نوفق بين نقل القرآن تهمة الكفار بأن الرسول «مسحور» ثم نوافق على صحة هذه التهمة عبر حديث آحاد لم ينقل إلا عن طريق واحد...

نكرر هنا أن الحادثة بمجملها عادية ولا شيء فيها، تفسيرها فقط هو الذي يحمل إشكالية، ولعل الأمر يعود لوهم من أحد الرواة هشام بن عروة الذي روى الحديث عن أبيه عن السيدة عائشة..وهشام ثقة ثبت وقد وثقه أهل الجرح والتعديل ولكن نقلوا أيضا أنه تغير في حفظه عند كبره في السن.

وهذا أمر لا مشكلة كبيرة فيه إلا عندما نريد البحث عن مشكلة أصلا...والحديث بمجمله منطقي وواقعي.

للمزيد: الحديث صحيح ولكن / الكل أو لا شيء

حديث سجود الشمس تحت العرش ..

قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين غربت الشمس:أتدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم.

الحديث في البخاري وهو حديث آحاد أيضا ولا مشكلة فيه إلا إذا فهمناه بشكل حرفي دون إعطاء مساحة للمجاز الذي هو واحد من خصائص كل اللغات الحية.

السجود كما نعرفه هو تعبير جسماني عن الخضوع والاستسلام لله.

وبما أن الشمس خاضعة لمجموعة من القوانين التي يعتبرها المؤمنون من وضع الله وبالتالي فإن سجود الشمس للعرش يكون عبر خضوعها لقوانينه عز وجل وليس سجودا «جسمانيا» كسجود البشر.

للمزيد:التفكير الحرفي الكونكريتي/ ادعاء وجود تناقض بين القرآن والعلم الحديث/ الحديث صحيح ولكن

إرضاع الكبير ..

يمكن فهم موضوع «إرضاع الكبير» ضمن الانتقال من مرحلة إلغاء التبني (حيث كان هناك أفراد كثيرون تم تبنيهم ضمن أسر وتربوا فيها ومن ثم تم إرجاع نسبهم إلى آبائهم، لذا كانت فكرة إرضاع الكبير محاولة لجسر هذه المشكلة، حيث يقوم الكبار بشرب حليب يقوم مقام قرابة الدم). أي أن الأمر يبقى منحصرا بتلك المرحلة العابرة وكمية السخرية والإسفاف التي حصلت عن هذا الموضوع في العقود الأخيرة تعكس عدم فهم السياق التاريخي للأمر.

هناك واقعة واحدة فقط أجازها الرسول عليه الصلاة والسلام، مع سالم مولى أبي حذيفة، وكان ابنا متبنى في البداية، ثم ألغي التبني، فصارت سهلة بنت سهيل زوجة حذيفة ترى انزعاجا في وجه زوجها كلما دخل سالم عليها (وهي التي ربته)، وكان قد بلغ مبلغ الرجال وعنده لحية. فقال لها الرسول عليها الصلاة والسلام أن ترضعه بحيث يصبح لها ابنا بالرضاعة.

وقد اعتبرت زوجات النبي عليه الصلاة والسلام أن الأمر كان رخصة لسالم فقط، باستثناء السيدة عائشة والسيدة حفصة، حيث ورد أن السيدة عائشة قد قالت لأختها أم كلثوم بنت أبي بكر أن ترضع سالم بن عبد الله بن عمر لكي يدخل عليها.

الإرضاع أصلا لم يكن يحدث عبر تماس مباشر مع الثدي، بل كان الحليب يفرغ في إناء، ومن ثم يشربه.

للمزيد: مغالطة المؤرخ/ مغالطة سمكة الرنجة /الحديث صحيح ولكن

حديث أن الرسول كان يلف على زوجاته كلهم في نفس الليلة..

قال أنس بن مالك أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان «يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ، فِي اللَّيْلَةِ الوَاحِدَةِ، وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ» يفهم مما قال أنس من يريد أن يفهم أن المعنى هو المعاشرة الزوجية، ولكن لَا شَيء فِي نَص مَا قَاله أنس يشَيِرَ إلى ذلك بوضوح، على فرض معرفته بما دار أصلا، وماذا في ذلك أصلا؟ ماذا يضركم لو أنه فعل ذلك؟!

للمزيد: مغالطة رجل القش/ مغالطة سمكة الرنجة / الحديث صحيح ولكن

أي إله هذا الذي يهتز عرشه لموت رجل..(المقصود سعد بن معاذ)

ثمة مجاز في اللغة العربية، تعبيرات تقال لتوضيح حالة معينة من الحزن والهول لحادث ما..لا تتعلق بالتأكيد بالعرش تحديدا.

من يعتقد أن العرش هو شيء مادي يهتز ماديا كما تهتز الكراسي والطاولات، عليه أن يراجع عقيدته.

المجاز للأسف مستبعد من قبل كثيرين ..

للأسف، بعض من صدق أن لا مجاز، وجد أيضا أن هذا لا يصدق.

فكذّب..ثم ألحد.

للمزيد: التفكير الحرفي الكونكريتي/ صورة الإله/ الحديث صحيح ولكن

يقول الحديث «ألا أن في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألاَ وَهِيَ القَلْبُ» ويعارض ذلك الحقيقة العلمية التي هي أن القلب مجرد مضخة عضلية تدفع الدم إلى سائر أنحاء الجسم بينما الدماغ هو من يتحكم بكل شيء...

عندما يطرح الأمر بهذه الطريقة، الانطباع المتولد أننا نتحدث عن مضخة كهربائية في روبوت آلي.

القلب بالتأكيد هو مضخة عضلية تقوم بتوزيع الدم. والتحكم بكل شيء يتم عبر الدماغ حتما، لكن هذا ليس كل شيء. الكثير مما يتحكم به الدماغ - عبر إشاراته وإيمازاته - لا يمكن لنا أن نشعر به أصلا، يحدث كل شيء فينا لكن دون أن نعرف، لكن هناك أشياء أخرى يقول لنا القلب أنها حدثت، وما كنا سنعرف لولا ذلك.

القلب «يخبرنا» عما يحدث في الدماغ. يدق قلبك أكثر عندما يذكر اسم ما، دماغك هو الذي أوعز إلى الغدة الكظرية بإفراز أحد هورموناتها، يدق قلبك بشدة، فتعرف أن هذا دليل على مشاعر قوية، نفس الشيء يحدث في الغضب، في الشغف، في الإحباط، في القلق، في الاكتئاب، إيعاز يرسل من دماغك إلى غدة ما، من أجل أن تزيد أو تقلل من إفراز هرمون ما، فينعكس هذا على قلبك.. القلب جهاز إنذار بطريقة ما، يقول لك احذر، أو امض، أو تمهل، أو اذهب مع هذا الشخص..

بهذا المعنى..كيف يكون صلاح هذا القلب صلاحا لكل الجسد؟

جهاز الإنذار الذي يعمل بشكل صحيح في الوقت المناسب، للتحذير من شيء ينبغي التحذير منه أو التشجيع على آخر يكون من المفيد المضي إليه، يقود إلى صلاح كل الإنسان.

وجهاز الإنذار الذي يقوم بذلك، أو يقوم ولكن بشكل خاطئ، يساهم في فساد كل الإنسان.

وهذا كله يتعلق بوظيفة القلب كمضخة دم، فرسائل الدماغ تصلنا من خلال ما يحدث في دقات القلب. وهذا يعني أن لا فرق كبير في هذا السياق بين قلب طبيعي أو قلب صناعي، أو قلب محمول على الظهر مع بطارية كهربائية.

على أن هذا كله يجب أن لا يجعلنا نتجاهل أن القلب أيضا يعني «اللب» أو «الجوهر»، يعني داخلك وسريرتك، وهذا بالمعنى «المجازي» أيضا لا يتعارض مع الحديث النبوي، كما لا يتعارض مع وجود معنى مباشر لدور القلب «كمضخة».

للمزيد: التفكير الحر في الكونكريتي/ الحديث صحيح ولكن

حديث (إذا الرَّجُلُ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَعِضُّوهُ بِهَنِ أَبِيهِ، وَلَا تَكْنُوا)- وهو حديث يتضمن الدعوة إلى سباب من «ينادي بنداء الجاهلية» بألفاظ مباشرة إلى الأعضاء التناسلية، كيف يستوي هذا الأمر مع نهي الرسول عن البذاءة والتفحش ومع أنه «على خلق عظيم».

الأبيض والأسود مجددا.

هنا في هذه الحجة يفترض وجود تناقض مثلا بين النهي عن السب والفحش وبين ما ورد في هذا الحديث، الحقيقة أن النهي هو كثرة السب والفحش (السبّاب اللعان) أي بصيغة المبالغة، أما أن يحدث تعريض معين في مرة واحدة فردية فهذا لا يعني التناقض مع قول الرسول في مناسبة عامة، خاصة أن نداء الجاهلية (أي أن ينادي يا لتميم، يا لبكر، يا لهمدان بكل ما يحمل ذلك من ثارات الجاهلية وعصبيتها) كان تهديدا مباشرا لقيم اجتماعية مهمة كان يحرص الإسلام على تكريسها، لذلك كان لا بد من وضع عبارات صادمة لا يريد أحد أن يسمعها تقال عنه (وهي تمس أبيه تحديدا، الذي يربطه بالدعوى الجاهلية!).

للمزيد: الكل أو لا شيء/ الحديث صحيح ولكن

في الحديث أن النبي قال أن نغمس الذباب فيما نشرب، كيف يستقيم هذا مع قواعد الصحة وبديهيات النظافة؟

جاء في الحديث الصحيح بالفعل : إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ، ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً، وَفِي الآخَرِ دَاءً.

والحديث رواه البخاري وأبو داود وابن ماجة والإمام أحمد، وهو حديث آحاد عن النبي عليه الصلاة والسلام عبر صحابي واحد، وكونه حديث آحاد لا يغير من صحته شيئا، ولكنه يجعلنا نتعامل مع الدقة الحرفية لكل كلمة فيه بحذر، فالصحابة بشر وربما نقلوا المعنى الذي فهموه وليس بكل كلمة كما قالها عليه الصلاة والسلام، وتزداد ثقتنا بحرفية كل كلمة كلما زاد عدد الصحابة الذين اتفقوا على نقل حديث ما بنفس الكلمات، وتقل نسبيا إذا كان هناك صحابي واحد وكان متن الحديث «بحرفيته» يتعارض مع آية قرآنية أو حديث متواتر أو مسلمات علمية أو عقلية.

ولا يعني هذا «تضعيف الحديث» بل يعني أن التعامل معه يكون بمعناه العام وليس بظاهره «الحرفي» الذي نجد فيه التعارض.

هنا في هذا الحديث، هناك شقان، شق علمي، وشق عملي. الشق العلمي يقول أن أجنحة الذباب تحتوي على مسببات الأمراض وعلاجاتها.

والشق العملي مرتبط بغمس الذباب ومن ثم رفعها، ويفهم من الحديث تناول الشراب بعد ذلك.

بخصوص الشق العملي: هل نقل أي من الصحابة (الذين نقلوا تفاصيل التفاصيل فيما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام) أنه فعل ذلك؟ لم يحدث. هل فعلوا ذلك هم؟ بل هل فعلها أبو هريرة؟

وهذا يجعل احتمالية عدم «حرفية الحديث» تتعلق بالشق العملي فقط. أما الشق العلمي والذي يعني بشكل عام أن حتى ما يبدو مضرا يمكن أن يحتوي على ما ينفع، فهو صحيح تماما، من ناحية إمكانية استخراج المضادات الحيوية منه، ولا يعني ذلك بالتأكيد أن نشرب ما سقط فيه الذباب مباشرة، بل يعني أن عملية الاستخراج والتحليل يمكن أن تؤتي بنتائج نافعة، ولا يخص ذلك الذباب وحده بالضرورة.

http://www.abc.net.au/science/articles/2002/10/01/689400.htm

للمزيد: الحديث صحيح ولكن

يقول الحديث الصحيح «لا عدوى» نافيا إمكانية حدوث العدوى رغم ثبوت ذلك علميا..

يقول الحديث: لا عدوى، بمعنى لا تسبوا بالعدوى وليس نفيا لها، أي أن المقصود معاكس تماما لهذا الفهم.

كيف عرفنا؟ من تتمة الحديث – على الأقل في بعض ألفاظه كما في هذا الذي جاء في صحيح البخاري: «لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ، وَلاَ هَامَةَ وَلاَ صَفَرَ، وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ»

فنهاية الحديث تشير إلى تجنب الإصابة بالجذام عبر «العدوى» المباشرة من المجذوم. فكيف ينفي الرسول وجود العدوى وهو يحذر منها في نفس الحديث؟!

للمزيد: الاجتزاء في التفكير/ الحديث صحيح ولكن

عن الكاتب



أحمد خيري العمري، ولد في بغداد عام 1970م، طبيب أسنان وكاتب، له أكثر من أربعة عشر كتابا وعشرات المقالات بين الفكر والأدب، عرف بمنحاه التجديدي في الفكر الإسلامي وتأثيره على الشباب ، اختير من مركز أبحاث Global Influence السويسري كواحد من ضمن مائة اسم مؤثر في تشكيل الرأي العام في العالم العربي لعام 2017.

عن الكتاب

عندما تسقط أي طائرة لأي سبب كان، يبحثون في حطامها عن **الصندوق الأسود**.

ففيه تقبع كل أسرار **السقوط** ، ومنه يمكن معرفة لماذا تحطمت الطائرة...

هذا الكتاب هو رحلة بحث في داخل الصندوق الأسود الذي يحوي أسرار سقوط من نوع آخر..سقوط الإنسان من **الإيمان** إلى **الإلحاد**..

في هذا الصندوق نحاول أن نفهم لماذا وكيف وما الذي مهد لذلك أو ساعد عليه...

عسى أن يمنحنا ذلك **حصانة** من السقوط...

❖ ❖ ❖

هذا الكتاب هو عن ظاهرة "**الإلحاد الجديد**" التي اجتاحت الكثير من الشباب في العقد الأخير...

وعن فهم جديد للإيمان، يمكنه أن يتصدى لأسباب هذا الإلحاد...

تصميم الغلاف: أحمد بريك





